



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغات



اشرافيية
عليه صلوات الله
عليه و آله

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

آية الله العظمى شهاب الدين

العلماء الثلاثة

شرح مختصر على نهج الأعلام

مناهج البحث في الفقه
إعداد: محمد بن محمد بن محمد

للجزء السابع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نفحات الولاية: شرح عصرى جامع لنهج البلاغه

كاتب:

آيت الله العظمى ناصر مكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابي طالب (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
٢٣	نفحات الولاية (شرح عصرى جامع لنهج البلاغه) المجلد ٧
٢٣	اشاره
٢٤	اشاره
٢٨	الخطبه ١٨١
٢٨	اشاره
٢٨	نظره إلى الخطبه
٣٠	الشرح والتفسير: مصير المشككين الجهال
٣٤	الخطبه ١٨٢
٣٤	اشاره
٣٤	نظره إلى الخطبه
٣٦	القسم الاوّل
٣٦	اشاره
٣٦	الشرح والتفسير: هو من يستحق الشكر
٤٠	القسم الثانى
٤٠	اشاره
٤٠	الشرح والتفسير: دلالة السماء على الله
٤٤	القسم الثالث
٤٤	اشاره
٤٤	الشرح والتفسير: احاطته العلميه بكلّ شىء
٤٧	تأمل
٤٧	ما الأنواء؟
٥٠	القسم الرابع
٥٠	اشاره

٥٠	الشرح والتفسير: عجزنا عن إدراك صفاته
٥٦	تأملان
٥٦	١. سز صعوبه معرفه صفات الله
٥٧	٢. العرش والكرسى
٥٩	القسم الخامس
٥٩	اشاره
٥٩	الشرح والتفسير: أين الفراغه والعمالقه؟
٦٢	تأملات
٦٢	١. شوكه سليمان عليه السلام وموته
٦٣	٢. من هم العمالقه؟
٦٤	٣. فراغه مصر
٦٤	٤. أصحاب الرى
٦٧	القسم السادس
٦٧	اشاره
٦٧	الشرح والتفسير: خصائص ذلك الولى
٧٠	تأمل
٧٠	إشارات لنهضة الإمام المهدي عليه السلام
٧١	القسم السابع
٧١	اشاره
٧١	الشرح والتفسير: التذكير بما يلزم!
٧٥	القسم الثامن
٧٥	اشاره
٧٥	الشرح والتفسير: النفير العام للجهاد
٧٧	تأمل
٧٧	صحاب الإمام عليه السلام الميامين
٧٧	اشاره

- ٧٧ ١. عمار بن ياسر
- ٧٨ ٢. ابن التيهان
- ٧٩ ٣. ذو الشهادتين
- ٧٩ ٤. قيس بن سعد بن عباده
- ٨٠ ٥. أبو أيوب الأنصاري
- ٨١ الخطبه ١٨٣
- ٨١ اشاره
- ٨١ نظره إلى الخطبه
- ٨٣ القسم الأول
- ٨٣ اشاره
- ٨٣ الشرح والتفسير: دور الأنبياء عليهم السلام في هداية الأمم
- ٨٧ القسم الثاني
- ٨٧ اشاره
- ٨٧ الشرح والتفسير: الهدى في ظل القرآن
- ٩١ تأملان
- ٩١ ١. وحده حكم الله في الأولين والآخرين
- ٩٢ ٢. القرآن ناطق أم صامت؟
- ٩٥ القسم الثالث
- ٩٥ اشاره
- ٩٥ الشرح والتفسير: منزله التقوى
- ١٠٢ القسم الرابع
- ١٠٢ اشاره
- ١٠٢ الشرح والتفسير: العذاب الشديد يوم القيامة
- ١٠٦ القسم الخامس
- ١٠٦ اشاره
- ١٠٦ الشرح والتفسير: الامتحان الإلهي

١١١	القسم السادس
١١١	اشاره
١١١	الشرح والتفسير: الانتقال إلى جيران الله
١١٣	تأمل
١١٣	طريق السير والسلوك إلى الله
١١٥	الخطبه ١٨٤
١١٥	اشاره
١١٥	نظره إلى الخطبه
١١٧	الشرح والتفسير: صه يا أحمق
١١٨	تأمل
١١٨	من هو بُرج بن مُسهر؟
١١٩	الخطبه ١٨٥
١١٩	اشاره
١١٩	نظره إلى الخطبه
١٢١	القسم الأول
١٢١	اشاره
١٢١	الشرح والتفسير: معرفه الله الحقيقيه
١٢٩	القسم الثاني
١٢٩	اشاره
١٢٩	الشرح والتفسير: الأبعاد الوجودية للتبى الأكرم صلى الله عليه و آله
١٣٣	القسم الثالث
١٣٣	اشاره
١٣٣	الشرح والتفسير: قدرته المطلقه فى خلق الكائنات
١٣٩	تأمل
١٣٩	حياه النمل العجيبه
١٤٢	القسم الرابع

١٤٣	اشاره
١٤٣	الشرح والتفسير: نظره إلى كائنات السموات والأرض
١٤٧	تأمل
١٤٧	قبسات من برهان النظم
١٤٩	القسم الخامس
١٤٩	اشاره
١٤٩	الشرح والتفسير: صنع الجراده
١٥١	تأمل
١٥١	عجائب الجراده
١٥٣	القسم السادس
١٥٣	اشاره
١٥٣	الشرح والتفسير: الله العظيم
١٥٧	تأمل
١٥٧	دروس عظيمه بعبارات قصيره
١٥٩	الخطبه ١٨٦
١٥٩	اشاره
١٥٩	نظره إلى الخطبه
١٦١	القسم الأول
١٦١	اشاره
١٦١	الشرح والتفسير: أضواء مهتمه في صفات الله
١٦٨	تأمل
١٦٨	كيفيه الجمع بين الضدين
١٧١	القسم الثاني
١٧١	اشاره
١٧١	الشرح والتفسير
١٧٨	القسم الثالث

١٧٨	اشاره
١٧٨	الشرح والتفسير: جانب من صفاته المطلقة
١٨٤	القسم الرابع
١٨٤	اشاره
١٨٤	الشرح والتفسير: صفات أخرى في الجمال والجلال
١٩٠	القسم الخامس
١٩٠	اشاره
١٩٠	الشرح والتفسير: العجز عن خلق بعبوضه
١٩٢	تأملان
١٩٢	١. المعاد الجسماني واعاده المعدوم
١٩٣	٢. الخلقه العجيبيه للبعوض!
١٩٦	القسم السادس
١٩٦	اشاره
١٩٦	الشرح والتفسير: الغنى عن الخلق
٢٠٠	تأمل
٢٠٠	هل هناك زمان دون مخلوق
٢٠٣	القسم السابع
٢٠٣	اشاره
٢٠٣	الشرح والتفسير: دوام الخلقه والفناء
٢٠٧	الخطبه ١٨٧
٢٠٧	اشاره
٢٠٧	نظره إلى الخطبه
٢٠٩	القسم الأول
٢٠٩	اشاره
٢٠٩	الشرح والتفسير: الحوادث المرعيه
٢١٣	تأمل

٢١٣	الحوادث الأليمه آخر الزمان
٢١٥	القسم الثاني
٢١٥	اشاره
٢١٥	الشرح والتفسير: وصايا للنجاه من الفتنه
٢١٧	تأمل
٢١٧	الانسحاب من الفتن
٢١٩	الخطبه ١٨٨
٢١٩	اشاره
٢١٩	نظره إلى الخطبه
٢٢١	القسم الأول
٢٢١	اشاره
٢٢١	الشرح والتفسير: التوصيه بالتقوى والحمد
٢٢٢	القسم الثاني
٢٢٢	اشاره
٢٢٢	الشرح والتفسير: أفضل الوعظ
٢٢٤	تأمل
٢٢٤	ذكر الموت
٢٢٨	القسم الثالث
٢٢٨	اشاره
٢٢٨	الشرح والتفسير: سبيل النجاه
٢٣٣	الخطبه ١٨٩
٢٣٣	اشاره
٢٣٣	نظره إلى الخطبه
٢٣٥	القسم الأول
٢٣٥	اشاره
٢٣٥	الشرح والتفسير: الإيمان الثابت والأجوف

٢٣٦	تأمل
٢٣٦	عناصر ثبات الإيمان
٢٣٩	القسم الثاني
٢٣٩	اشاره
٢٣٩	الشرح والتفسير: سلونى قبل أن تفقدونى
٢٤٥	تأمل
٢٤٥	الهجره فى الإسلام
٢٤٨	الخطبه ١٩٠
٢٤٨	اشاره
٢٤٨	نظره إلى الخطبه
٢٥٠	القسم الأول
٢٥٠	اشاره
٢٥٠	الشرح والتفسير: نبى الرحمه والجهاد
٢٥٤	القسم الثاني
٢٥٤	اشاره
٢٥٤	الشرح والتفسير: الأهوال القادمه
٢٥٨	القسم الثالث
٢٥٨	اشاره
٢٥٨	الشرح والتفسير: أهوال المحشر!
٢٦٥	القسم الرابع
٢٦٥	اشاره
٢٦٥	الشرح والتفسير: الاستعداد للرحيل
٢٦٧	القسم الخامس
٢٦٧	اشاره
٢٦٧	الشرح والتفسير: لكل شىء أجل ومده
٢٦٨	تأمل

٢٦٨	الثورات المتعجله
٢٧١	الخطبه ١٩١
٢٧١	اشاره
٢٧١	نظره إلى الخطبه
٢٧٣	القسم الأول
٢٧٣	اشاره
٢٧٣	الشرح والتفسير: بديع خلق الله
٢٧٩	القسم الثاني
٢٧٩	اشاره
٢٧٩	الشرح والتفسير: التقوى كهف في الدنيا ونور في الآخرة
٢٨٣	القسم الثالث
٢٨٣	اشاره
٢٨٣	الشرح والتفسير: سماع نداء التقوى
٢٩٠	القسم الرابع
٢٩٠	اشاره
٢٩٠	الشرح والتفسير: عاقبه أصحاب الدنيا
٢٩٧	الخطبه ١٩٢
٢٩٧	اشاره
٢٩٧	نظره إلى الخطبه
٣٠١	القسم الأول
٣٠١	اشاره
٣٠١	الشرح والتفسير: الشيطان رأس العصبه
٣٠٥	القسم الثاني
٣٠٥	اشاره
٣٠٥	الشرح والتفسير: الاعتبار بعاقبه إبليس
٣٠٨	تأملات

٣٠٨ ١. حبط الأعمال

٣٠٩ ٢. هل إبليس من الملائكة؟

٣٠٩ ٣. كبر إبليس أساس كفره

٣١٠ ٤. وحده حكم الله في الجميع

٣١١ القسم الثالث

٣١١ اشاره

٣١١ الشرح والتفسير: أعدى أعداء الإنسان

٣١٨ القسم الرابع

٣١٨ اشاره

٣١٨ الشرح والتفسير: التحذير من التشبه بالشيطان أو قابيل

٣٢٤ القسم الخامس

٣٢٤ اشاره

٣٢٤ الشرح والتفسير: اجتناب تبعيه المتكبرين

٣٣١ تأمل

٣٣١ التكبر والعصبيه

٣٣٤ القسم السادس

٣٣٤ اشاره

٣٣٤ الشرح والتفسير: أفة التكبر

٣٣٨ تأمل

٣٣٨ تصحيح خطأ

٣٤٠ القسم السابع

٣٤٠ اشاره

٣٤٠ الشرح والتفسير: درس وعبره في قصة موسى عليه السلام

٣٤٤ القسم الثامن

٣٤٤ اشاره

٣٤٤ الشرح والتفسير: زهد الأنبياء

٣٤٨	القسم التاسع
٣٤٨	اشاره
٣٤٨	الشرح والتفسير: الدروس والعبر في بيت الله
٣٥٤	القسم العاشر
٣٥٤	اشاره
٣٥٤	الشرح والتفسير: الكعبه المقدسه
٣٥٧	تأمل
٣٥٧	«أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ أَحْمَرُهَا!»
٣٦٠	القسم الحادى عشر
٣٦٠	اشاره
٣٦٠	الشرح والتفسير: آفه الكبر والغرور
٣٦٥	تأمل
٣٦٥	فلسفه العبادات
٣٦٧	القسم الثانى عشر
٣٦٧	اشاره
٣٦٧	الشرح والتفسير: العصبیه الطائشه
٣٧١	القسم الثالث عشر
٣٧١	اشاره
٣٧١	الشرح والتفسير: العصبیه الممدوحه
٣٧٣	تأمل
٣٧٣	العصبیه الإيجابیه والسلبیه
٣٧٧	القسم الرابع عشر
٣٧٧	اشاره
٣٧٧	الشرح والتفسير: الاعتبار بالماضين
٣٨١	القسم الخامس عشر
٣٨١	اشاره

٣٨١	الشرح والتفسير: عناصر انتصار المؤمنين الأوائل
٣٨٥	القسم السادس عشر
٣٨٥	اشاره
٣٨٥	الشرح والتفسير: الوحده والفرقه، والنصر والهزيمة
٣٨٩	القسم السابع عشر
٣٨٩	اشاره
٣٨٩	الشرح والتفسير: الاعتبار بولد إسماعيل وإسحاق
٣٩٢	تأمل
٣٩٢	القطره والبحر
٣٩٥	القسم الثامن عشر
٣٩٥	اشاره
٣٩٥	الشرح والتفسير: عزتكم بالاسلام
٣٩٩	القسم التاسع عشر
٣٩٩	اشاره
٤٠٠	الشرح والتفسير: اجتناب الفرقة
٤٠٨	القسم العشرون
٤٠٨	اشاره
٤٠٨	الشرح والتفسير: تكليفى فى قتال المفسدين
٤١٠	تأمل
٤١٠	من هو ذو الثدييه؟
٤١٤	القسم الحادى والعشرون
٤١٤	اشاره
٤١٤	الشرح والتفسير: التريبيه فى كنف التنبى صلى الله عليه و آله
٤٢٠	تأملات
٤٢٠	١. العلاقه الحميمه بين على عليه السلام والتنبى صلى الله عليه و آله
٤٢١	٢. غار حراء

٤٢٢	٣. التبي الأكرم صلى الله عليه و آله قبل البعثه
٤٢٤	القسم الثانى والعشرون
٤٢٤	اشاره
٤٢٥	الشرح والتفسير: معجزه حركه الشجره
٤٢٨	تأملان:
٤٢٨	١. معجزه الشجره فى الروايات الإسلاميه
٤٢٩	٢. الفارق بين السحر والمعجزه
٤٣٢	القسم الثالث والعشرون
٤٣٢	اشاره
٤٣٢	الشرح والتفسير: أولياء الله
٤٣٦	الخطبه ١٩٣
٤٣٦	اشاره
٤٣٦	نظره إلى الخطبه
٤٣٧	إجابته عن سؤال
٤٤٠	القسم الأول
٤٤٠	اشاره
٤٤٠	الشرح والتفسير: صفات المتقين
٤٥٣	تأمل
٤٥٣	محاورة هذا الجانب من الخطبه
٤٥٥	القسم الثانى
٤٥٥	اشاره
٤٥٥	الشرح والتفسير: ليل المتقين
٤٥٨	تأمل
٤٥٩	القسم الثالث
٤٥٩	اشاره
٤٥٩	الشرح والتفسير: نهار المتقين

٤٦٣	تأمل
٤٦٣	إشفاق المتقين من أعمالهم
٤٦٥	القسم الرابع
٤٦٥	اشاره
٤٦٥	شرح وتفسير
٤٦٥	اثنتا عشرة صفه أخرى
٤٧٥	القسم الخامس
٤٧٥	اشاره
٤٧٥	الشرح والتفسير: تسع صفات أخرى
٤٧٥	اشاره
٤٨٦	مصير همام بعد سماع الخطبه
٤٩٠	تأمل
٤٩٠	نظره أخرى لخطبه همام
٤٩٣	الخطبه ١٩٤
٤٩٣	اشاره
٤٩٣	نظره إلى الخطبه
٤٩٥	القسم الأول
٤٩٥	اشاره
٤٩٥	الشرح والتفسير: محن الرساله
٥٠٠	القسم الثانى
٥٠٠	اشاره
٥٠٠	الشرح والتفسير: خطر المنافقين
٥٠٦	القسم الثالث
٥٠٦	اشاره
٥٠٦	الشرح والتفسير: التخطيط الدقيق للمنافقين
٥٠٨	تأمل

٥٠٨	النفاق والمنافقون طيله التاريخ
٥١٢	الخطبه ١٩٥
٥١٢	اشاره
٥١٢	نظره إلى الخطبه
٥١٤	القسم الأول
٥١٤	اشاره
٥١٤	الشرح والتفسير: البعته النبويه والظروف الصعبه
٥١٨	القسم الثانى
٥١٨	اشاره
٥١٨	الشرح والتفسير: الموائد الإلهيه المطلقه
٥٢٤	القسم الثالث
٥٢٤	اشاره
٥٢٤	الشرح والتفسير: أهوال القيامة
٥٣٠	الخطبه ١٩٦
٥٣٠	نظره إلى الخطبه
٥٣٢	القسم الأول
٥٣٢	اشاره
٥٣٢	الشرح والتفسير: أهوال الدنيا
٥٣٦	القسم الثانى
٥٣٦	اشاره
٥٣٦	الشرح والتفسير: اغتنام الفرصه
٥٣٨	الخطبه ١٩٧
٥٣٨	اشاره
٥٣٨	نظره إلى الخطبه
٥٤٠	القسم الأول
٥٤٠	اشاره

٥٤٠	الشرح والتفسير: طاعتى المطلقه
٥٤٤	القسم الثانى
٥٤٤	اشاره
٥٤٤	الشرح والتفسير: أولى الناس بالتبى صلى الله عليه و آله
٥٤٤	اشاره
٥٤٨	الحوادث الأليمه إبان وفاه التبى صلى الله عليه و آله وبعدها
٥٥٣	الخطبه ١٩٨
٥٥٣	اشاره
٥٥٣	نظره إلى الخطبه
٥٥٥	القسم الأول
٥٥٥	اشاره
٥٥٥	الشرح والتفسير: احاطه الله العلميه
٥٥٩	القسم الثانى
٥٥٩	اشاره
٥٥٩	الشرح والتفسير: التقوى مصدر الخيرات
٥٦٧	القسم الثالث
٥٦٧	اشاره
٥٦٧	الشرح والتفسير: فضل الإسلام
٥٧٧	القسم الرابع
٥٧٧	اشاره
٥٧٧	الشرح والتفسير: ربيع الإسلام
٥٧٧	اشاره
٥٧٩	اجابه عن سؤال
٥٨٠	تأمل
٥٨٠	ربيع النبوه
٥٨٣	القسم الخامس

٥٨٣	اشاره
٥٨٣	الشرح والتفسير: خصائص القرآن الكريم
٥٩٢	تأملان
٥٩٢	١. عظمه القرآن لدى أمير المؤمنين عليه السلام
٥٩٤	٢. العلماء الأجانب والقرآن
٥٩٧	الخطبه ١٩٩
٥٩٧	اشاره
٥٩٧	نظره إلى الخطبه
٥٩٩	القسم الأول
٥٩٩	اشاره
٥٩٩	الشرح والتفسير: الأهميه القصوى للصلاه
٥٩٩	اشاره
٦٠٤	تأمل
٦٠٤	دور الصلاه فى تربيه الإنسان
٦٠٧	القسم الثانى
٦٠٧	اشاره
٦٠٧	الشرح والتفسير: بركات الزكاه
٦٠٩	تأمل
٦٠٩	الزكاه؛ ركن مهم فى المجتمع الإسلامى
٦١١	القسم الثالث
٦١١	اشاره
٦١١	الشرح والتفسير: أداء الأمانه
٦١٣	تأملان
٦١٣	١. نقطه مهمته
٦١٤	٢. أفضل علامات الإيمان
٦١٧	القسم الرابع

٦١٧	اشاره
٦١٧	الشرح والتفسير: عالم الغيب والشهادة
٦١٩	الخطبه ٢٠٠
٦١٩	اشاره
٦١٩	نظره إلى الخطبه
٦٢١	الشرح والتفسير: السياسه الأئمه
٦٢٣	تأقل
٦٢٣	السياسه الإنسانيه والسياسه الشيطانيه
٦٢٧	تعريف مركز

عنوان و نام پديد آور: نفحات الولاية: شرح عصري جامع لنهج البلاغه المجلد ٧ / ناصر مكارم شيرازي، بمساعده مجموعه من الفضلاء؛ اعداد عبدالرحيم الحمداني.

مشخصات نشر: رقم: مدرسه الامام علي ابن ابي طالب (ع)، ١٤٢٦ق. = ١٣٨٤.

مشخصات ظاهري: ١٠ ج.

شابك: ٣٠٠٠٠ ريال: دوره ٩٥٨-٨١٣-٩٦٤-X؛ ج. ١ ٩٠٧-٨١٣-٩٦٤: ٥؛ ج. ٢ ٩٠٨-٨١٣-٩٦٤: ٣؛ ج. ٣ ٩٦٤-٨١٣-٩٦٤-٨١٣-٩١٧: ٢؛ ج. ٤ ٩١٨-٨١٣-٩٦٤: ٠؛ ج. ٥ ٩٤١-٨١٣-٩٦٤: ٥؛ ج. ٦ ٩٧٨-٨١٣-٩٦٤: ٥-١٢٠-٥٣٣-٩٦٤: ٥؛ ج. ٧ ٩٧٨-٨١٣-٩٦٤: ٥-١٢١-٥٣٣-٩٦٤: ٢؛ ج. ٨ ٩٧٨-٨١٣-٩٦٤: ٩-١٢٢-٥٣٣-٩٦٤: ٧٠٠٠٠ ريال: ج. ٩ ٩٧٨-٨١٣-٩٦٤: ٥-١٢٣-٩٦٤: ٦؛ ج. ١٠ ٩٧٨-٨١٣-٩٦٤: ٣-١٢٤-٥٣٣-٩٦٤: ٧٠٠٠٠ ريال: ج.

يادداشت: عربي.

يادداشت: ج ١-٥ (چاپ دوم: ١٣٨٤).

يادداشت: ج. ٦-١٠ (چاپ اول: ١٤٣٢ ق. = ١٣٩٠).

يادداشت: کتابنامه.

مندرجات: ج. ٦. من خطبه ١٥١ الى ١٨٠. ج. ٧. من خطبه ١٨١ الى ٢٠٠. ج. ٨. من خطبه ٢٠١ الى ٢٤١. ج. ٩. من رساله ١ الى ٣١. ج. ١٠. من رساله ٣٢ الى ٥٣

موضوع: علي بن ابي طالب (ع)، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت - ٤٠ ق. -- خطبه ها

موضوع: علي بن ابي طالب (ع)، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت - ٤٠ ق. -- كلمات قصار

موضوع: علي بن ابي طالب (ع)، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت - ٤٠ ق. -- نامه ها

موضوع: علي بن ابي طالب (ع)، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت - ٤٠ ق. . نهج البلاغه -- نقد و تفسير

شناسه افزوده: حمراني، عبدالرحيم

شناسه افزوده: علي بن ابي طالب (ع)، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت - ٤٠ ق. . نهج البلاغه. شرح

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب (ع)

رده بندی کنگره: ۲/۳۸/۰۲ BP / م ۱۳۸۴۷

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۹۵۱۵

شماره کتابشناسی ملی: م ۸۴-۴۰۳۴۷

ص: ۱

اشاره

نفحات الولاية: شرح عصرى لجامع لنهج البلاغه المجلد ٧

ناصر مكارم شيرازى، بمساعده مجموعه من الفضلاء

اعداد عبدالرحيم الحمدانى

ص: ٣

وَقَدْ أَرْسَلَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ، يَعْلَمُ لَهُ عِلْمَ أَحْوَالِ قَوْمٍ مِنْ جُنْدِ الْكُوفَةِ، قَدْ هَمُّوا بِاللِّحَاقِ بِالْخَوَارِجِ، وَكَانُوا عَلَى خَوْفٍ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامَ، فَلَمَّا عَادَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ قَالَ لَهُ: «أَأْمِنُوا فَقَطُّنُوا (١)، أَمْ جَبِنُوا فَظَعَّنُوا (٢)؟» فَقَالَ الرَّجُلُ: بَلْ ظَعَّنُوا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (٣)

نظرة إلى الخطبة

لابد من التعرف على سبب ذكر هذا الكلام الذي ورد في الخطبة بغية الوقوف على معناها.

إن رجلاً يدعى الخريت بن راشد أحد بنى ناجية قد شهد مع علي عليه السلام صفيين

ص: ٥

١- (١). «قطنوا»، من مادة «قطن» على وزن «فنون» بمعنى الإقامة الاستيطان.

٢- (٢) «ظعنوا» من مادة «ظعن» على وزن «رهن» في مقابل قطن وبمعنى الرحيل والانتقال.

٣- (٣) سند الخطبة: مع الإلتفات إلى اتصال هذه الخطبة بالخطبة ٤٤، فأورد صاحب المصادر أسنادها في ذيل الخطبة ٤٤ ويقول: «تضمنت كتب السير قصه بنى ناجية هذه، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام هذا قبل أن تلد الرضى امه، منهم أبو جعفر الطبرى فى تاريخه المعروف فى حوادث سنة ٣٨ هجرى، وإبراهيم بن هلال التقى فى كتاب «الغارات»، والبلاذرى فى «أنساب الاشراف»، وكما رواه آخرون مثل ابن عساكر فى «تاريخ دمشق»، وأبو الفرج الاصفهانى فى «الأغانى» فى شرح حال مثقله بن هبيرة، (مصادر نهج البلاغه، ج ١، ص ٤٥١ و ٤٥٢؛ ج ٢، ص ٤٤١).

فجاء بعد تحكيم الحكّمين في ثلاثين من صحبه (وفي روايه الطبري ثلاثمائه) فقال:

«وَاللّٰهِ يَا عَلِيُّ لَا أُطِيعُ أَمْرَكَ وَلَا أُصَلِّي خَلْفَكَ وَإِنِّي غَدًا مُفَارِقُكَ».

فقال الإمام عليه السلام:

«تَكَلَّمْتُكَ أُمَّكَ إِذَا تَعَصَى رَبُّكَ وَتَنَكَّثَ عَهْدَكَ وَلَا تَضُرُّ إِلَّا نَفْسَكَ»،

«أَخْبَرَنِي لِمَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟» قال:

«لَأَنَّكَ حَكَمْتَ فِي الْكِتَابِ وَضَعْتَ عَنِ الْحَقِّ إِذَا جَدَّ الْجُدُّ فَأَنَا عَلَيْكَ رَاذٌ وَلَكُمْ جَمِيعًا مُبَايِنٌ».

فقال عليه السلام:

«وَيَحِيَّكَ هَلُمَّ إِلَى أَدَارِسِيكَ وَأَنَاظِرِكَ فِي السُّنَنِ وَأَفَاتِحِيكَ أُمُورًا مِنَ الْحَقِّ أَنَا أَعْلَمُ بِهَا مِنْكَ فَلَعَلَّكَ تَعْرِفُ مَا أَنْتَ الْآنَ لَهُ مُنَكِّرٌ».

فقال الخريت:

«فَأِنِّي غَادٍ عَلَيْكَ غَدًا».

فقال عليه السلام:

«أُغَدُو وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ وَلَا يَتَّقَحَمَنَّ بِمَكَ رَأَى السُّوءَ وَلَا يَسْتَخَفَنَّكَ الْجُهْلَاءُ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ، فَوَاللَّهِ إِنْ اسْتَنْصَيْتَنِي وَاسْتَرَشَدْتَنِي وَقَبِلْتَ مِنِّي لِأَهْدِيَنَّكَ سَبِيلَ الرَّشَادِ» (١).

فقرر هذا الرجل الجاهل الإلتحاق بقومه من الخوارج لبيتلي بذلك المصير الأسود، وإثر ذلك بعث الإمام عليه السلام أحد أصحابه خلف هذا الرجل علّه يتراجع عن موقفه، ولكن سرعان ما عاد مبعوث الإمام عليه السلام ليخبره بإلتحاقه وصحبه بالخوارج ومغادرته الكوفه.

ص: ٦

١- (١) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٧٦؛ شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٣، ص ١٢٨ وقد ذكرنا شرحاً مسهباً بهذا الشأن في الخطبه ٤٤.

بُعْدًا لَهُمْ «كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ»! أَمَا لَوْ أَسْرَعَتِ الْأَسِنَّةُ إِلَيْهِمْ، وَصَبَّتِ السُّيُوفُ عَلَى هَامَاتِهِمْ، لَقَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ. إِنَّ الشَّيْطَانَ الْيَوْمَ قَدْ اسْتَفْلَهُمْ، وَهُوَ عَدَاؤٌ مُتَبَرِّئٌ مِنْهُمْ، وَمَتَّخِلٌ عَنْهُمْ. فَحَسْبُهُمْ بِخُرُوجِهِمْ مِنَ الْهُدَى، وَازْتِكَاسِهِمْ فِي الضَّلَالِ وَالْعَمَى، وَصَدَّهُمْ عَنِ الْحَقِّ، وَجِمَاحِهِمْ فِي التَّبَيُّهِ.

الشرح والتفسير: مصير المشككين الجهال

كما مضى سابقاً كان الكلام من قبل فئه قليله جاهله ومتعصبه أشكلت على الإمام عليه السلام بسبب استجابته لتحكيم القرآن، والحال هذا وأمثاله ممّا كانوا قد مارسوا ضغوطهم على الإمام عليه السلام لقبول التحكيم، والأسوأ من ذلك وإثر اعتراضهم على الإمام عليه السلام الذى يمثل محور الهدى انشقوا عنه وإلتحقوا بالخوارج محور الجهل والتعصب والضلال، ويشرح الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه عوامل تعاسه هذه الفئه الضالّه بغيه تجنّب الآخرين السقوط فى هذا المستقع فقال عليه السلام:

«بُعْدًا (١) لَهُمْ «كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ»!». .

كان هذا التعبير إشاره لما ورد فى القرآن الكريم بشأن قوم ثمود إذ قال تعالى:

«الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِ ثَمُودَ» (٢) والذى كان لعنه لقوم شعيب الوثنيين، كما كان إشاره إلى الجهات المشترکه بين هؤلاء القوم الضالين وقوم شعيب وقوم صالح،

ص: ٧

١- (١). «بُعْدًا» مفعول مطلق لفعل محذوف جاء للتوكيد وتقديره «أَبَعَدَهُمُ اللَّهُ بُعْدًا».

٢- (٢). سورة هود، الآية ٩٥.

حيث كان هؤلاء اناساً متكبرين ومغرورين وردت قصّتهم في عدّه سور من القرآن الكريم، ثم قال عليه السلام:

«أَمَا لَوْ أُشْرِعَتِ (١) الْأَسِنَّةُ إِلَيْهِمْ، وَصِيَبَتِ الشُّيُوفُ عَلَى هَامِيَاتِهِمْ (٢)، لَقَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا كَانُوا مِنْهُمْ، إِنَّ الشَّيْطَانَ الْيَوْمَ قَدْ اسْتَفْلَهُمْ (٣)، وَهُوَ عَدَاؤُ مُتَبَرِّئٍ مِنْهُمْ، وَمَتَخَلٌّ عَنْهُمْ».

يشير هذا الكلام في الواقع إلى ما ورد مراراً في القرآن الكريم بخصوص الطغاه الغافلين الذين ما أن يركبوا السفينه وتغشاهم أمواج البحار الهادره ويستشعروا بالخطر حتى تطرح عنهم حجب الغفله ويتوجّهون إلى الله، ولكن سرعان ما يعودون لتلك الغفله إذا ما بلغوا ساحل النجاه (٤).

كما يشير أيضاً إلى ما ورد كراراً في القرآن الكريم أنّ الشيطان (٥) وأئمّه الضلال (٦) يتبرأون يوم القيامة من أتباعهم.

ثم قال عليه السلام:

«فَحَسْبُهُمْ بِخُرُوجِهِمْ مِنَ الْهُدَى، وَارْتِكَاسِهِمْ (٧) فِي الضَّلَالِ وَالْعَمَى، وَصَدَّهُمْ عَنِ الْحَقِّ، وَجَمَاحِهِمْ (٨) فِي التَّيِّهِ».

إشاره إلى أنّه نتيجة تلك اللجاجة التيه في الضلال والحيره والإبتعاد عن الهدى وهذا المصير الأسود الذي يصنعه كلّ إنسان لجوج وجاهل، جدير بالذكر أنّه يستفاد من هذا الكلام وتلك المقدمه التاريخيه الوارده في سبب ذكره:

إنّ الإمام عليه السلام كان رحيماً حتى بالأفراد من أهل اللجاجة والجهل والتعصب، وكان

ص: ٨

١- (١). «أشّرع» من ماده «شّرع» تعنى فى الأصل الذهاب إلى بركه الماء، أو شقّ الطريق إلى الماء، ومتى ما استعملت هذه المفرده فى «الرماح» تأتي بمعنى شدّدت وصوّبت نحوهم.

٢- (٢). «هامات» جمع «هام» بمعنى الرأس.

٣- (٣) «استقل» من ماده «قلّ» على وزن «شل» بمعنى التفرقه والتشتت.

٤- (٤) انظر: سوره العنكبوت، الآيه ٦٥.

٥- (٥). انظر: سوره الحشر، الآيه ١٦.

٦- (٦) انظر: سوره البقره، الآيتان ١٦٦ و ١٦٧.

٧- (٧). «ارتكاس» من ماده «ركس» على وزن «مكث» بمعنى الانقلاب وعوده الشيء.

٨- (٨) «جماح» و «جموح» بمعنى الطغيان.

يسعى قدر المستطاع لإصلاحهم، وإن لم تؤثر مواعظه البليغه كان يقرعهم بكلمات عنيفه ويريهم عاقبه أعمالهم فى الدنيا والآخره لعلهم يفيثون إلى الحقّ.

ص: ٩

رَوَى عَنْ نَوْفِ الْبُكَالِي قَالَ: خَطَبْنَا بِهَذِهِ الْخُطْبَةِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْكَوْفَةِ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى حِجَارِهِ، نَصَّ بِهَا لَهُ جُعْدَهُ بِنُ هُبَيْرَةَ (١) الْمَخْزُومِي، وَعَلَيْهِ مِدْرَعُهُ (٢) مِنْ صُوفٍ وَحَمَائِلُ سَيْفِهِ لَيْفٌ، وَفِي رِجْلَيْهِ نَعْلَانِ مِنْ لَيْفٍ، وَكَأَنَّ جَبِينَهُ نَفْنَهُ (٣) بَعِيرٍ (٤)

نظرة إلى الخطبة

يستفاد من أواخر هذه الخطبة أن الإمام عليه السلام خطبها قبل شهادته بأسبوع، وهدفه

ص: ١١

- ١- (١) . جعده بن هبيرة المخزومي: ابن اخت أمير المؤمنين عليه السلام وأمه أم هانئ بن أبي طالب، كان رجلاً شجاعاً وعالمًا أدرك عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وولاه الإمام علي عليه السلام على خراسان (أسد الغابة، ج ١، ص ٢٨٥).
- ٢- (٢) «مدرعه» «جُبّه» من مادة «درع»، ثوب يعرف عند بعض العامة بالدراعية، قميص ضيق الأكمام.
- ٣- (٣) «نّفنّه» تعنى فى الأصل ما يمسّ الأرض من رُكبتى البعير بعد البروك ويكون فيه غلظه من ملاطمه الأرض.
- ٤- (٤) سند الخطبة: هذه آخر خطبة خطبها أمير المؤمنين عليه السلام (وقتل بعدها بأسبوع). ذكرها الزمخشري في كتابه ربيع الأبرار، كما روى بعضها أبو شاعر الليثي في عيون الحكم والمواعظ، وفسّر ابن الأثير بعض كلماتها وبالنظر لاختلاف كلماتهم مع ما ورد في نهج البلاغة يبدو أنّها ذكرت من مصدر آخر غير نهج البلاغة. (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٥١).

منها إعداد الناس لجهاد معاويه ولصوص الشام، واستجابوا لدعوته فتقاطروا عليه ألوفاً مؤلفه، ولكن للأسف....

خاض الإمام عليه السلام فى استعراض عدّه أمور من هذه الخطبه بغيه إثارة أرواحهم وعواطفهم لمواجهه الأعداء الظلمه، فاستهلّ حديثه فى القسم الأوّل والثانى والثالث من الخطبه بحمد الله والثناء عليه إلى جانب بيان صفاته الجمائيه والجلاليه ومن ثم وحدانيته وعلمه المطلق بذرات الوجود كافه، وأنّ ذاته وصفاته أسمى من أن يستوعبها الفكر، كما لا يقوى على ذلك الأمر حتى الملائكه المقربون.

ثم تطرق الإمام عليه السلام فى القسم الرابع إلى الورع والتقوى والزهد فى الدنيا، وبين جوانب من سيره سالف الأنبياء مثل نبي الله سليمان عليه السلام الذى عاش الزهد فى الدنيا مع ما كان لديه من الملك.

وبين فى القسم الخامس من الخطبه المصير الأسود الذى طال طغاه العالم كالفراعنه والعمالقه وأصحاب الرسّ الذين قتلوا أنبياء الله وسعوا لإطفاء نور الله، ولكن سرعان ما صرعوا وغادروا الدنيا.

وأشار فى الفصل السادس إلى ظهور المهدي عليه السلام وتشكيل حكمه العدل العالميه وتطرق إلى جانب من فضائله ومناقبه.

وخاض فى القسم السابع ثانيه فى الوعظ والإرشاد، وتحديث عن غدر الدنيا وتقلب أحوالها وتفاهتها، وذكر شهداء صفين الذين عانقوا الشهاده وبكى عدداً من أصحابه مثل عمار بن ياسر وابن التيهان وخزيمه ذى الشهادتين، ثم مدحهم على طاعتهم لأوامر الله وإحيائهم لسنّه رسول الله صلى الله عليه وآله وإماتتهم البدع واستعدادهم الدائم للجهاد.

وأصدر فى القسم الثامن من خطبته أمره بالجهاد ودعى الجميع للإلتحاق بسوح الوغى.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ الْخَلْقِ، وَعَوَاقِبُ الْأَمْرِ. نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ إِحْسَانِهِ، وَتَبِيرِ بُرْهَانِهِ، وَنَوَامِي فَضْلِهِ وَامْتِنَانِهِ، حَمِيداً يَكُونُ لِحَقِّهِ قَضَاءً، وَلِشُكْرِهِ أَدَاءً، وَإِلَى ثَوَابِهِ مُقَرَّباً، وَلِحُسْنِ مَزِيدِهِ مُوجِباً. وَنَسْتَعِينُ بِهِ اسْتِعَانَةً رَاجٍ لِفَضْلِهِ، مُؤَمِّلٍ لِنَفْعِهِ، وَاثِقٍ بِدَفْعِهِ، مُعْتَرِفٍ لَهُ بِالطُّوْلِ، مُدْعِنٍ لَهُ بِالْعَمَلِ وَالْقَوْلِ. وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيمَاناً مَنْ رَجَاهُ مُوقِناً، وَأَنَابَ إِلَيْهِ مُؤْمِناً، وَخَنَعَ لَهُ مُدْعِناً، وَأَخْلَصَ لَهُ مُوَحِّداً، وَعَظَّمَهُ مُمَجِّداً، وَلَاذَّ بِهِ رَاغِباً مُجْتَهِداً.

الشرح والتفسير: هو من يستحق الشكر

ينبغي قبل الشروع في شرح هذه الخطبة الإشارة إلى شخصيه (نوف البكالي) راوى هذه الخطبة، لا شك ولا ريب في أنه من أصحاب الإمام على عليه السلام وقيل حاجبه، ويعتقد البعض أنه من قبيله حمير التي سكنت اليمن، بينما يراه البعض الآخر من قبيله همدان، وهنالك كلام في لقبه، قيل بَكَال (على وزن فَعَال) وقيل بِكَال (على وزن كِتَاب) وقيل بِكَال (على وزن طَوَاف)، على كل حال فقد كان رجلاً عفيفاً ومؤمناً ووفياً.

استهل الإمام على عليه السلام هذا القسم من الخطبة بحمد الله والثناء عليه بهدف إعداد قلوب المخاطبين وإزالة صدأ الغفلة عنها، ثم استعان بذاته المقدسه وأبرز إيمانه المطلق بها

فقال في الحمد والثناء:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي إِلَيْهِ مَصَائِرُ (١) الْخَلْقِ، وَعَوَاقِبُ الْأَمْرِ».

نعم فمنه تعالى بدايه الخلق وإليه المصير، فموجودات هذا العالم كآفه من فيض وجوده وستؤول عاقبه أمرها إليه، وهذه إشاره إلى قضيه المعاد ويوم القيامة فالحديث في هذه العبارة عن مبدىء نحمده ونثنى عليه.

ولكن لم هذا الحمد والثناء؟ قال عليه السلام:

«نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ إِحْسَانِهِ، وَنَيِّرُ بُرْهَانِهِ، وَنَوَامِي (٢) فَضْلِهِ وَامْتِنَانِهِ».

العبارة:

«عَظِيمِ إِحْسَانِهِ» يمكن أن تكون إشاره إلى نعمه الإيمان والاعتقاد الخالص بالله تعالى بقرينه

«نَيِّرُ بُرْهَانِهِ» التي تشير إلى الأدله الواضحه، وكما يمكن أن تكون إشاره إلى نعمه الحياه والخلق التي تعدّ من أعظم نعم الله،
إِلَّا أَنَّ التفسير الأول أنسب، والعبارة:

«وَنَوَامِي فَضْلِهِ وَامْتِنَانِهِ» إشاره إلى تكامل الإنسان في المجالات الماديّه والمعنويّه والتي تعدّ من النعم الإلهيّه الكبرى.

ثم خاض عليه السلام في بيان كيفيه هذا الحمد فقال:

«حَمْدًا يَكُونُ لِحَقِّهِ قَضَاءٌ، وَلِشُكْرِهِ أَدَاءٌ، وَإِلَى ثَوَابِهِ مُقَرَّبًا، وَلِحُسْنِ مَزِيدِهِ مُوجِبًا».

من البديهي أن لا يسع أحد أداء حقّ الشكر والحمد لله تبارك وتعالى، ويعجز عن ذلك حتى جميع الأنبياء والأولياء والملائكه المقربين، وعليه فالمراد من الأداء ما كان في وسع الإنسان والذي يوجب ثواب الله ونيل المزيد من نعمه.

وعلى هذا الأساس تطرق في هذه الجملات الحكيمه، تاره الصفات الإلهيّه وإحسانه ونعمه، وتاره أخرى إلى أساس النعم المتنوعه الإلهيّه وأصولها، وفي الثالثه إلى كيفيه الحمد والشكر، وبذلك تطرق إلى مجموعه كامله من الصفات الإلهيّه ونعمه.

ثم تطرق بعد الحمد - كما ورد شبيه ذلك في سوره الفاتحه - إلى الاستعانه بالله

ص: ١٤

١- (١) «مصائر» جمع «مصير» بمعنى موضع الرجوع.

٢- (٢) «نوامي» جمع «ناميه» من ماده «نمو» بمعنى الشيء الزائد.

تبارك وتعالى فقال:

«وَنَسْتَعِينُ بِهِ اسْتِعَانَهُ رَاجٍ لِفَضْلِهِ، مُؤَمِّلٌ لِنَفْعِهِ، وَاثِقٌ بِدَفْعِهِ، مُعْتَرِفٌ لَهُ بِالطُّوْلِ (١)، مُذْعِنٌ (٢) لَهُ بِالْعَمَلِ وَالْقَوْلِ».

تشير هذه العبارات الخمس إلى مواضيع متنوعه؛ الأوّل: الحديث عن الأمل بفضل الله في الأمور المعنويّه، والثاني: الأمل والرجاء في المنافع والمصالح الماديّه، والثالث: الثقة بدفع الآفات والمضمرات عن العباد، والرابع: مقام الاعتراف بالنعم، وأخيراً أداء حقّ الشكر بالقول والعمل.

فقد أتجه الإمام عليه السلام بعد بيانه لما يستحقّ الله تعالى من حمد واستعانه تامه بذاته المقدّسه الإفصاح عن إيمانه بالذات المقدّسه، وهو الإيمان الذي انطوى على جميع المزايا فقال عليه السلام:

«وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيْمَانًا مِنْ رَحْمَاهُ مُوقِنًا، وَأَنَابًا إِلَيْهِ مُؤْمِنًا، وَخَنَعَ (٣) لَهُ مُذْعِنًا، وَأَخْلَصَ لَهُ مُوَحِّدًا، وَعَظَمَ لَهُ مُمَجِّدًا، وَلَا ذَبَّ بِهِ رَاغِبًا مُجْتَهِدًا».

حقاً إنّ الإيمان الذي ينطوى على كلّ هذه الصفات ويختزن كلّ هذه الآثار لهو أرفع إيماناً وأرسخ عقيدة، ولا يتأتّى مثل هذا الإيمان إلّا من خلال تطهير القلب من دنس المعصيه والإبتعاد عن الأهواء والسعى إلى تهذيب النفس والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى، ولعلّ هنالك من يتساءل: لماذا استهل الإمام عليه السلام كلامه بحمد الله والثناء عليه ثم استعان بذاته المقدّسه ليتجه أخيراً إلى الإيمان، والحال أنّ الإيمان هو دافع الحمد والاستعانه؟

والجواب عن ذلك، إنّ الإيمان الذي تطرق إليه الإمام عليه السلام هنا هو الإيمان الجامع للكمال، والذي لا يحصل إلّا بعد حمد الله والاستعانه بذاته المقدّسه وما وجب سابقاً قبل الحمد والاستعانه إنّما يمثل المراحل الابتدائيّه للإيمان.

ص: ١٥

- ١- (١) «الطول» بمعنى الفضل والنعمه، وأصلها من طول على وزن «نور» بمعنى ما يحفظ للإنسان قوّته وبقائه وإمكان استمراره في الوجود، ماده «طُول» على وزن «قَوْل» وعليها اطلقت هنا.
- ٢- (٢) «مذعن» من ماده «إذعان» بمعنى التصديق والطاعه.
- ٣- (٣) . «خنع» من ماده «خنوع» بمعنى الخضوع والتواضع.

لَمْ يُوَلَدْ سُبْحَانَهُ فَيَكُونَ فِي الْعِزِّ مُشَارِكًا، وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْرُوثًا هَالِكًا.

وَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتُ وَلَمَّا زَمَانٌ، وَلَمْ يَتَعَاوَرَهُ زِيَادَةٌ وَلَا نُقْصَانٌ، بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عِلَامَاتِ التَّدْبِيرِ الْمُتَّقِنِ، وَالْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ. فَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ مُوْطَدَاتٍ بِلَا عَمَدٍ، قَائِمَاتٍ بِلَا سَنَدٍ. دَعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعَاتٍ مُذْعِنَاتٍ، غَيْرَ مُتَلَكِّئَاتٍ وَلَا مُبِطِنَاتٍ؛ وَلَوْلَا إِقْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَإِذْعَانُهُنَّ بِالطَّوَاعِيَةِ، لَمَا جَعَلَهُنَّ مَوْضِعًا لِعَرْشِهِ، وَلَا مَسِيكًا لِمَلَائِكَتِهِ، وَلَا مَصِيْعَةً لِلِكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ.

الشرح والتفسير: دلالة السماء على الله

قال الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبه - في مواصلة شرح صفات الله التي تصدرت بها الخطبه:

«لَمْ يُوَلَدْ سُبْحَانَهُ فَيَكُونَ فِي الْعِزِّ مُشَارِكًا، وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْرُوثًا هَالِكًا، وَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتُ وَلَا زَمَانٌ، وَلَمْ يَتَعَاوَرَهُ (١) زِيَادَةٌ وَلَا نُقْصَانٌ».

إن من بين القوانين التي تحكم عالم المادة والممكنات أن كل جماعه ترد الحياه تفارقها بعد مدّه لتحل محلها طائفه أخرى، فالأبناء يرثون صفات الآباء، كما ينقل هؤلاء صفاتهم إلى الأبناء، وبما أن الذات الإلهية أزليه وأبدية فهي لم تولد من أحد ليكون لها مثيل ولم يولد منها أحد ليرثها.

ص: ١٧

١- (١) «يتعاور» من ماده «تعاور» بمعنى تبادل الشىء والقيام بعمل بصوره متناوبه، والمراد منها فى العبارة عدم طرو الزيادة والنقصان على الذات القدسيه، وأن هذه الذات منزّهه عن الحوادث.

«وَلَمْ يَتَّعِدْهُ...» إشارته إلى أنه يفوق الزمان؛ لأنَّ الزمان نتيجته لحركه الموجودات من النقص إلى الكمال وبالعكس، وبما أنَّ وجوده المقدَّس عين كماله المطلق وليس للزيادة والنقصان من سبيل إلى ذاته فلا معنى لظرو الوقت والزمان عليه (١).

وحيث إنَّ نفى الشبيه والنظير والزمان والزيادة والنقصان عن ذاته القدسيه ربِّما يخلق وهماً يتمثل في تعطيل معرفه الله، وبعباره أخرى إنعدام السبيل إلى معرفته؛ فقد قال:

«بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عَلَامَاتِ التَّدْبِيرِ الْمُتَّقِنِ، وَالْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ».

إشارته إلى أنَّ الذات القدسيه وإن كانت خارجه عن متناول العقول البشريه إلَّا أنَّ إثبات أصل وجودها ممكن من خلال تأمل نظام الخليقه والتدبير الحكيم الذى يحكمه، وهذا ما أشارت إليه بعض الروايات الإسلاميه التى حثت على عدم الاستغراق فى الذات المقدسه، بل التفكير فى آثار قدرته وعظمته وعلمه فى عالم الوجود، الأمر الذى جعله القرآن الكريم محوراً فى معرفه الله ودعى أصحاب الفكر وأولوا الأبواب إلى التفكير على الدوام فقال تعالى: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» (٢).

ثم ركز الإمام عليه السلام على مصاديق هذا البيان الكلى والعام فقال:

«فَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ مَوْطِدَاتِ (٣) بِلَا عَمَدٍ (٤)، قَائِمَاتِ بِلَا سَنَدٍ (٥)».

١- (١) اعتبر بعض شراح نهج البلاغه أنَّ الوقت يرادف الزمان، بينما عدّه البعض الآخر بالزمن المعين وأنَّ للزمان مفهوماً عاماً، والتفسير الثانى يبدو أصح. كما ورد فى القرآن الكريم فى الآيه ١٠٣ من سوره النساء بشأن الصلاه، «إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا».

٢- (٢) سوره آل عمران، الآيتان ١٩٠ و ١٩١.

٣- (٣) «موطدات» من ماده «وطد» على وزن «وقت» بمعنى التثبيت والإحكام.

٤- (٤) «عمد» جمع «عماد» بمعنى العمود.

٥- (٥) «سند» بمعنى ما يستند عليه.

ثم أشار إلى هذه الحقيقة:

«دَعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعَاتٍ مُدْعِنَاتٍ، غَيْرِ مُتَلَكِّئَاتٍ (١) وَلَا مُبْطِئَاتٍ».

يبدو هنالك رأيان بشأن المراد من طاعه السماوات لأوامر الله وإقرارها بربوبيته تعالى؛ قال البعض: إنَّ المراد الإقرار والطاعة بلسان الحال، أي أنَّ الله سبحانه وتعالى خلقها بهذه الصيغة بحيث تعيش حالة التسليم له من حيث نظام العله والمعلول وقوانين الخلق دون أن يكون لها أيه إرادته أو علم، لأنها موجودات جامده ولا روح لها.

وقال البعض: إنَّ العبارات أعلاه تدلّ على أنَّ جميع عالم الوجود - من الإنسان والحيوان والجماد وجميع الكواكب السماويّه - له عقل وشعور، وقد أقرّوا بإرادتهم على ربوبيته تعالى وأذعنوا له بالطاعة.

طبعاً هذان التفسيران صحيحان ولا يختلفان عمّا أراد الإمام عليه السلام بيانه، لأنَّ الهدف بيان عظمه الخلق وتسليم عالم الوجود لأمر الله تبارك وتعالى.

ثم قال عليه السلام:

«وَلَوْلَا إِقْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَإِدْعَانُهُنَّ بِالطَّوَاعِيَةِ (٢)، لَمَّا جَعَلَهُنَّ مَوْضِعًا لِعَرْشِهِ، وَلَا مَسْكَنًا لِمَلَائِكَتِهِ، وَلَا مَصْعَدًا (٣) لِلْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ».

أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارة إلى أنَّ طاعه السماوات لأوامر الله منحها ثلاثة امتيازات: الأول: أنَّها موضع عرش الله، والثاني: مسكن لملائكته، والثالث: موضع لصعود الأعمال والأقوال الصالحة للعباد؛ بمعنى أنَّ حفظه الأعمال وكتبه الأفعال

ص: ١٩

١- (١). «متلكئات» من ماده «تلكؤ» على وزن «تكلّم» بمعنى التباطؤ.

٢- (٢). «طواعيه» بمعنى الطاعة والانقياد.

٣- (٣). «مصعد» موضع الصعود.

تكتبها فى سجل الأعمال ويرفع إلى السماء ما يستحق منها القرب الإلهى.

ومن الطبعى أن يختار الله تعالى موضعاً لهذه الأمور خاضعاً لسيطرته وهيمنته، وبعبارة أخرى بما أن جميع السماوات فى قبضته فقد أسبغ عليها تلك الأمور، والتعبير بالملائكة فى العبارة المذكورة إشارة إلى الملائكة المقربين، وإلا فللملائكة حضور فى العالم برمته من أرض وسماء.

وأما حقيقة العرش فهذا ما سيأتى شرحه فى هذه الخطبه إن شاء الله.

ص: ٢٠

جَعَلَ نُجُومَهَا أَعْلَامًا يَسْتَدِلُّ بِهَا الْحَيْرَانُ فِي مُخْتَلِفِ فِجَاجِ الْأَقْطَارِ، لَمْ يَمْنَعِ ضَوْءُ نُورِهَا إِذْ لَهَا أَمُّ سِيَجْفِ اللَّيْلُ الْمُظْلِمَ، وَلَا اسْتِطَاعَتْ جَلَائِبُ سَوَادِ الْحَنَادِسِ أَنْ تَرُدَّ مَا شَاعَ فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ تَلَأُتِ نُورِ الْقَمَرِ، فَسِيَبْحَانَ مَنْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ سَوَادُ عَسَقِ دَاجٍ، وَلَا لَيْلِ سَاجٍ، فِي بَقَاعِ الْأَرْضِ بَيْنَ الْمُتَطَائِفَاتِ، وَلَا فِي يَفَاعِ السُّفَعِ الْمُتَجَاوِرَاتِ؛ وَمَا يَتَجَلَّجَلُ بِهِ الرَّعِيدُ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ، وَمَا تَلَاشَتْ عَنْهُ بُرُوقُ الْغَمَامِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقِهِ تُزِيلُهَا عَنْ مَسْقَطِهَا عَوَاصِفُ الْأَنْوَاءِ وَإِنْهَطَالُ السَّمَاءِ! وَيَعْلَمُ مَسْقَطَ الْقَطْرِ وَمَقَرَّهَا، وَمَسْحَبَ الذَّرَّةِ وَمَجْرَّهَا، وَمَا يَكْفِي الْبُعُوضَةَ مِنْ قُوَّتِهَا، وَمَا تَحْمِلُ الْأُنْثَى فِي بَطْنِهَا.

الشرح والتفسير: احاطته العلميّه بكلّ شيء

تطرق الإمام عليه السلام في مواصلته لبيان آثار عظمه الله في عجائب السماوات في العالم العلوي عن القمر والنجوم حيث قال ابن أبي الحديد: إن هذا القسم من كلام الإمام عليه السلام بيان لتوحيد الله وتمجيده بأحسن وجه وبأفصح الكلام وأجمل العبارات حيث قال عليه السلام:

«جَعَلَ نُجُومَهَا أَعْلَامًا يَسْتَدِلُّ بِهَا الْحَيْرَانُ فِي مُخْتَلِفِ فِجَاجِ (١) الْأَقْطَارِ (٢)».

ص: ٢١

١- (١). «فججاج» جمع «فجج» على وزن «حجج» بمعنى الفاصله بين جبلين.

٢- (٢) «أقطار» جمع «قطر» على وزن «قفل» بمعنى الناحية.

هذه العبارة إشاره إلى ما ورد كراماً في القرآن الكريم بشأن النجوم: «وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ» (١).

وقال تعالى في موضع آخر: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ» (٢).

نعلم أنّ النجوم الثابتة التي تشكل تقريباً أغلب كواكب السماء إنّما تطلع من نقاط معينه وتغيب في أخرى معينه كذلك وأنّ مواضعها في السماء من شأنها تعيين الجهات الأربع الشمال والجنوب والشرق والغرب وتعدّ أفضل وسائل للاهتداء في الأسفار الطويله خلال الليالي المظلمه في الصحارى والبحار.

ثم أشار عليه السلام إلى نقطه بديعه أخرى فقال:

«لَمْ يَمْنَعِ ضَوْءُ نُورِهَا ادْلِهَمَامَ» (٣) سُجْفِ (٤) اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، وَلَمَّا اسْتِطَاعَتْ جَلَابِيبُ (٥) سَوَادِ الْحَنَادِيسِ (٦) أَنْ تَرُدَّ مَرّاً شَاعَ فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ تَلَالُوتِ نُورِ الْقَمَرِ».

فقد أشار الإمام عليه السلام في الواقع إلى نكته ظريفه إلى أنّ الله سبحانه وتعالى خلق ظلمه الليل كنعمة كبيره لهدوء المخلوقات وراحتها من جانب، ومن جانب آخر جعل النجوم ليتهدى بها في الصحارى والبحار وخلق القمر منيراً، إلّا أنّ هذين المصدرين المضيئين خلقتا بحيث لا يقضيان على عتمه الليل، والجمع بين هذا النور والظلمه بهدفين مختلفين نموذج لقدرته المطلقة سبحانه.

ص: ٢٢

١- (١) سورة النحل، الآية ١٦.

٢- (٢) سورة الأنعام، الآية ٩٧.

٣- (٣) . «ادلهمام» بمعنى شدّه الظلمه.

٤- (٤) «سجف» جمع «سجاف» حسب أرباب اللغه بمعنى الستر.

٥- (٥) . «جلايب» جمع «جلباب» بمعنى ثوب واسع تلبسه المرأة فوق ثيابها وتغطي به رأسها وهو أقصر من العباءه.

٦- (٦) «حناديس» جمع «حنديس» على وزن «قبرص» بمعنى الليل المظلم.

وما أن فرغ الإمام عليه السلام من بيان آثار عظمه الله وقدرته في عالم الخلق حتى تطرق لسعه علمه وإحاطته بجميع الموجودات في الأرض والسماء؛ حتى أشار بشرح رائع إلى عشره موارد منها تجسد سعه علمه سبحانه فقال:

«فَسَيَّبِحَانَ مَنْ لَمَّا يَخْفَى عَلَيْهِ سَوَادٌ غَسِقٌ (١) دَاجٌ (٢) ، وَلَمَّا لَيْلٌ سَاجٌ (٣) ، فِي بَقَاعِ الْأَرْضِ بَيْنَ الْمُتَطَاطِئَاتِ (٤) ، وَلَمَّا فِي يَنْفَاعِ (٥) الشُّفَعِ (٦) الْمُتَجَاوِرَاتِ؛ وَمَا يَتَجَلَجَلُ (٧) بِهِ الرَّعْدُ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ، وَمَا تَلَاشَتْ (٨) عَنْهُ بُرُوقُ الْعَمَامِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقِهِ تُزِيلُهَا عَنْ مَسْقِطِهَا عَوَاصِفٌ (٩) الْأَنْوَاءِ (١٠) وَانْهَطَالٌ (١١) السَّمَاءِ! وَيَعْلَمُ مَسْقِطُ الْقَطْرِهِ وَمَقَرَّهَا، وَمَسْحَبٌ (١٢) الذَّرَّةِ وَمَجْرَّهَا (١٣) ، وَمَا يَكْفِي الْبُعُوضَةَ مِنْ قُوَّتِهَا، وَمَا تَحْمِلُ الْأَنْثَى فِي بَطْنِهَا».

حَقًّا إِنَّ تَأْمِيلَ عِبَارَةِ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامِ بِشَأْنِ عِلْمِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّتِي تَجْعَلُ أَعْظَمَ الْأَشْيَاءِ وَأَصْغَرَ الْمَوْجُودَاتِ وَأَخْفَى الْمَخْلُوقَاتِ يَغُوصُ فِي بَحْرِ مِنَ التَّفَكِيرِ هَلْ بِالْإِمْكَانِ خَفَاءَ أَعْمَالِنَا وَأَقْوَالِنَا، بَلْ نِيَاتِنَا وَأَفْكَارِنَا عَلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْمَحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ؟ وَهَذِهِ أَحَدُ أَهَمِّ الْآثَارِ التَّرْبُويَّةِ لِلْإِمَامِ بِسَعِهِ عِلْمِ اللَّهِ وَإِحَاطَتِهِ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ.

والطريف أن الإمام عليه السلام حين يتحدث عن ظلمه الليل أو سكونه يشير إلى آثاره المختلفه في مختلف بقاع الأرض من قمم الجبال إلى سفوحها، وحين يتحدث عن

ص: ٢٣

١- (١) . «غسق» الظلمه التي تقع عاده منتصف الليل.

٢- (٢) «داج» من ماده «دجو» على وزن «غلو» بمعنى الشديد الظلام.

٣- (٣) «ساج» من ماده «سجو» على وزن «غلو» السكون والهدوء.

٤- (٤) «متطأطئات» جمع «متطأطي» المنخفضات.

٥- (٥) . «يفاع» التل وكل شىء مرتفع.

٦- (٦) «سفع» جمع «سفعه» على وزن «سفره» الحمره المائله للسواد.

٧- (٧) «يتجلجل» من «جلجله» صوت الرعد ثم اطلقت على كل صوت شديد.

٨- (٨) «تلاشت» من «تلاشى» بمعنى الاضمحلال. ويرى البعض أن مادتها لا شىء.

٩- (٩) . «عواصف» جمع «عاصف» و «عاصفه» الرياح الشديده.

١٠- (١٠) «أنواء» جمع «نوء» على وزن «نوع» غروب النجم في جهه المغرب، وللعرب عقيدته في الأنواء سنعرض لها في مبحث التأملات بمعنى الطوفان.

١١- (١١) . «انهطال» نزول المطر كما تطلق على إنهمار الدموع.

١٢- (١٢) «مسحب» اسم مكان من ماده «سحب» على وزن «سهو» الجذب نحو الشىء.

١٣- (١٣) «مجر» اسم مكان من ماده «جر»؛ السحب والجر.

تساقط الأوراق يخوض في جملة الأسباب التي تؤدى إلى هذا التساقط، وبالتالي حين يتطرق إلى هطول قطرات المطر لا ينسى الحديث عن مواضع استقراره في جوف الأرض الذى يعدّ خزاناً مباركاً لتلك المياه، وحين يتحدث عن طعام ذبابه يشير إليه بمقدار، وهذا بدوره ما يجعل هذه الخطبه في مصاف أفصح وأبلغ خطب نهج البلاغه، وهى الفصاحه والبلاغه التى بلغت حدّ الإعجاز.

جدير بالذكر أنّ لأغلب هذه التعبيرات جذوراً فى الآيات القرآنيّه، فالله تبارك وتعالى حين يشير إلى علمه بجميع الموجودات يقول: «اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ» (١). ويقول تعالى في موضع آخر: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ» (٢).

تأمل

ما الأنواء؟

تضمنت الخطبه إشاره إلى عواصف الأنواء التى تستحق المزيد من الشرح، فأنواء جمع نوء على وزن نوع تعنى لغويّاً طلوع النجوم أو غروبها، إلما أنّهم اقتصروا على معنى الطلوع، وإن أضاف البعض إليها الغروب واعتبرها من مفردات الأضداد، ومن العقائد السائده لدى العرب أنّ القمر يطوى ٢٨ منزلاً خلال دورته حول نفسه ويستغرق كلّ منزل ١٣ يوماً، وتقترب بدايه كلّ منزل بطلوع نجم فى المشرق وغروب آخر فى المغرب، كما يعتقدون بحصول تغيير فى الجو وسقوط مطر أو هبوب رياح يتزامن مع بدايه كلّ منزل، ومن هنا كانوا يقولون: (مُطِرْنَا بنوء فلان)، وقد اتخذ هذا الاعتقاد صيغه خرافيه بالتدريج ليعتقدوا بأنّ هذا النجم هو العنصر المسبب لنزول الأمطار ولا بدّ من التضرع إليه بغيه نزول المطر.

ص: ٢٤

١- (١) . سورة الرعد، الآية ٨.

٢- (٢) سورة لقمان، الآية ٣٤.

ذكر العلامة المجلسي رحمه الله في الجزء ٥٥ من بحار الأنوار باباً مفصلاً حمل عنوان:

«في النهي عن الاستمطار بالأنواء والطيهر والعدوى» ونقل فيه عدّة روايات بهذا الشأن منها ما روى عن الإمام الباقر عليه السلام:

«ثَلَاثَةٌ مِنْ عَمَلِ الْجَاهِلِيَّةِ، الْفُخْرُ بِالْأَنْسَابِ وَالطَّعْنُ فِي الْأَحْسَابِ وَالِاسْتِشْقَاءُ بِالْأَنْوَاءِ»^(١).

والذى تجدر الإشارة إليه هنا أنّ أحداً لو طرح الموضوع بصيغته بحث فلكى وقال باقتران هبوب رياح شديده أو سقوط مطر في كلّ منزل من المنازل الثمانية والعشرين بأمر الله فإنه لم يجانب الحقيقة، وليس هناك من نهى عن هذا الكلام، غير أنّ عرب الجاهلية نسبوا هبوب الرياح وهطول الأمطار إلى تلك الأنواء وهذا نوع من الشرك، لأنهم قالوا باستقلاله تلك الأنواء بعيداً عن إرادة الله، من هنا يتّضح عدم وجود أى إشكال في عبارته الإمام:

«تُزِيلُهَا عَنْ مَسِيقَتِهَا عَوَاصِفُ الْأَنْوَاءِ» لأنّ مراد الإمام عليه السلام أنّ كل ما اقترن بطلوع وغروب هذه الأنواء تابع لإذن الله وأوامره.

ص: ٢٥

١- (١) بحار الأنوار، ج ٥٥، ص ٣١٥.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيُّ أَوْ عَرْشٌ، أَوْ سَمَاءٌ أَوْ أَرْضٌ، أَوْ جَانٌّ أَوْ إِنْسٌ. لَا يُدْرِكُ بَوْمَهُمْ، وَلَا يُقَدَّرُ بِفَهْمِهِمْ، وَلَا يَشْغَلُهُ سَائِلٌ، وَلَا يَنْقُصُهُ نَائِلٌ، وَلَا يَنْظُرُ بَعِينٌ، وَلَا يُحَدُّ بِأَيْنٍ، وَلَا يُوصَفُ بِالْأَزْوَاجِ، وَلَا يُخْلَقُ بِعَلَّاجٍ، وَلَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ، وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ. الَّذِي كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيمًا، وَأَرَاهُ مِنْ آيَاتِهِ عَظِيمًا؛ بِلَا جَوَارِحٍ وَلَا أَدْوَاتٍ، وَلَا نُطْقٍ وَلَا لَهَوَاتٍ. بَلْ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا أَتَيْهَا الْمُتَكَلِّفُ لَوْصِفِ رَبُّكَ، فَصِفْ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَجُنُودَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، فِي حُجْرَاتِ الْقُدُسِ مُرْجِحِينَ، مُتَوَلِّهِ عَقُولُهُمْ أَنْ يَحْدُوا أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ. فَإِنَّمَا يُدْرِكُ بِالصِّفَاتِ ذُؤَالِهِئَاتِ وَالْأَدْوَاتِ، وَمَنْ يَنْقُضِي إِذَا بَلَغَ أَمَدَ حَدِّهِ بِالْفَنَاءِ. فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، أَضَاءَ بِنُورِهِ كُلَّ ظَلَامٍ، وَأَظْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ نُورٍ.

الشرح والتفسير: عجزنا عن إدراك صفاته

تابع الإمام عليه السلام بيان صفات الله تعالى بعد أن أشار إلى عظمه الخالق وقدرته وذكر آياته في عالم الوجود، فشرح في هذا القسم جانباً مهماً من الصفات الثبوتية والسلبيّة والصفات الفعلية بصورة رائعة فأتمّ درسه لمخاطبيه في سبيل معرفه الله، فقد تحدّث في بادئ الأمر عن أزليته الله تبارك وتعالى المقرونه بالأبديّه فقال عليه السلام:

«وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيُّ أَوْ عَرْشٌ، أَوْ سَمَاءٌ أَوْ أَرْضٌ، أَوْ جَانٌّ أَوْ إِنْسٌ».

فالأمر الستة هذه إشاره إلى تكوين العالم، ذلك لأنها الأصل والأساس وما سواها تابع لها، على كل حال فإن هذه العبارة إشاره إلى أهم صفاته الجماليه سبحانه والتي تعود إليها سائر الصفات وهي عدم تناهى ذاته القدسيه من جميع الجهات، فلكل المخلوقات زمان وتاريخ لحدوثها سوى الذات القدسيه التي كانت منذ الأزل وستبقى إلى الأبد، ومن هنا أشار إثر ذلك إلى إحدى عشره صفة من صفاته السليبه والتي تنبع جميعها من ذاته القدسيه اللامتناهيه.

فقال في العبارة الأولى والثانية:

«لَا يُدْرِكُ بَوَّهْمٍ، وَلَا يُقَدَّرُ بِفَهْمٍ».

ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أن الفارق بين هاتين العبارتين هو أن الوهم هنا إشاره إلى القوه التي تدرك الجزئيات، والفهم إشاره إلى إدراك الكلّيات، وهنالك احتمال آخر هو أن الوهم إشاره إلى قوه الحدس والفرض، والفهم إشاره إلى الإدراك واليقين، أي لا- يمكن الوصول إليه تعالى عن طريق العلم ولا- الحدس ولا- الظن، أضف إلى ذلك أن العبارة الأولى إشاره إلى إدراك أصل وجوده، والعبارة الثانية إشاره إلى قياس ذاته القدسيه وبما أنها لامتناهيه فهي لا تدرك بوهم ولا تقاس بعقل.

ثم قال في الصفتين السليبتين الثالثه والرابعه:

«وَلَا يَشْغَلُهُ سَائِلٌ، وَلَا يَنْقُصُهُ نَائِلٌ (١)».

إن الإنسان مهما كان ذكياً وفتناً إن تحدّث إليه شخص أو عدّه أشخاص بشأن موضوع مهم لا يسعه إدراك مطلب الآخرين، أو تعامله مع شخص يحول دونه والآخرين، ذلك لأنه وجود محدود ومتناهٍ، أمّا الذات الإلهيه القدسيه فلا يضيق بها التعامل مع جميع المخلوقات وفي آن واحد فهي تسمع أصواتهم وتقضى حاجاتهم وتعلم بتياتهم ولا يشغلها سائل عن آخر، وكذلك لو طرق جميع العباد باب الله وسألوه ما سألوا وضمن لهم الإجابة لما نقص شيء من ملكه وخزائنه، بل لما شكل

ص: ٢٨

١- (١) «نائل» له معنى اسم الفاعل والمصدر بمعنى العطاء أو البذل أو طالب البذل أو المعنيان هنا مناسبان.

ذلك قطره من بحر جوده، كيف لا وهو الخلاق لما يشاء وفيضه غنى عن الحدود(١).

ثم قال عليه السلام: فى الصفتين الخامسة والسادسه:

«وَلَا يَنْظُرُ بَعَيْنٍ، وَلَا يُحَدُّ بِأَيْنٍ(٢)».

أجل! إنه يرى كل شىء وكل مكان والعالم برمته حاضر عنده، مع ذلك ليس له عين ولا مكان، لأنه أسمى من الزمان والمكان والعوارض الجسميه.

ثم قال عليه السلام فى الصفتين السابعه والثامنه:

«وَلَا يُوصَفُ بِالْأَزْوَاجِ(٣)، وَلَا يُخْلَقُ بِعَلَاَجٍ».

ذكروا عدّه معانٍ لأزواج منها: جمع زوج مثل النظير والقرين والزوج والشبيه والمثيل والضد والتركيب، ولا مانع من جمع كل هذه المفاهيم فى العبارة السابقه، أى أنّ الله منزّه عن كلّ هذه الأمور، والعبارة

«لَمَا يُخْلَقُ بِعَلَاَجٍ» إشاره إلى الناس وأشباههم إن أرادوا خلق شىء - أو بتعبير أدق - إن أرادوا تركيب هيئه من أشياء إنّما يستعينون ببعض الوسائل التى قد تكون بسيطه وأخرى صعبه، والخالق الوحيد الذى لا يحتاج إلى أيه وسائل وأدوات هو الحق سبحانه وتعالى(٤)، بل أبعد من ذلك كما قال القرآن الكريم: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»(٥).

ثم قال فى الصفتين التاسعه والعاشره من صفاته السليبيه سبحانه:

«وَلَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ، وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ».

إننا نعلم بأنّ دائره حواس الإنسان هى الأجسام الماديّه، وعليه فالذات القدسيّه

ص: ٢٩

١- (١) جاء فى الحديث القدسى: «يا عبادى لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيدٍ واحدٍ فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى شيئاً إلّا كما ينقص المخطط إذا دخل البحر» (صحيح مسلم، ج ٨، ص ١٧؛ كنز العمال، ج ١٥، ص ٩٢٤).

٢- (٢) «أين» بمعنى المكان.

٣- (٣) «أزواج» جمع «زوج» لها معنى واسع يشمل كل قرين ومثيل.

٤- (٤) لا يبد من الالتفات إلى أنّ كلمه «يخلق» وردت بصيغه المجهول فى متن نهج البلاغه لصبحى الصالح ولا يبدولها أى مفهوم صحيح، بينما ذكرها أغلبه الشراح مثل المرحوم ابن ميثم ومغنيه وعبدّه والتستري والخوئى والجعفرى بصيغه المعلوم والحق ما ذكروه، أمّا العبارة «وَلَا يَنْظُرُ بَعَيْنٍ» وإن كانت ذات معنى بصيغه المعلوم إلّا أنّها أنسب مع العبارة اللاحقه بصيغه

المجهول.

٥- (٥) سورة يس، الآية ٨٢.

التي تفوق عالم المادة لا تدرك إلَّا بالعقل والفكر، ويخطئ أولئك الذين يعتقدون بإمكانية رؤيه الله تعالى في الدنيا والآخرة بهذه العين.

العباره:

«لَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ» تشير إلى أصل كلى بشأن صفات الله تعالى في عدم إمكانيه مقارنة هذه الصفات بصفات المخلوق فإن ذلك ينتهى إلى الضلاله، وهذا المعنى ورد في الخطبه الأولى من نهج البلاغه:

«وَكَمَالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ».

وقال أخيراً في بيان آخر الصفات:

«الَّذِي كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيمًا، وَأَرَاهُ مِنْ آيَاتِهِ عَظِيمًا؛ بِلَا جَوَارِحَ وَلَا أَدْوَاتَ، وَلَا نُطْقَ وَلَا لَهَوَاتَ (١)».

بما أنه نقل في السابق مختلف الصفات وأثبتها لله تعالى بأكمل وجه، فقد خاض هنا في مسأله تكلم الله سبحانه وتعالى وأوضح أن الله كلم موسى عليه السلام ولكن ليس على غرار الناس الذين يتكلمون بواسطة اللسان والفم والأمواج الصوتيه وأداء الحروف، بل يخلق الأمواج الصوتيه ليتحدت بواسطتها مع موسى عليه السلام، فكان موسى يسمع الكلام من ست جهات وهذا من عظمه آيات الله دون الحاجه إلى الجوارح والأعضاء الصوتيه، وظاهر كلام الإمام عليه السلام أن عظمه آيات الله هو سماع كلامه سبحانه من الجهات الست، والشاهد على ذلك قوله عليه السلام:

«بِلَا جَوَارِحَ وَلَا أَدْوَاتَ، وَلَا نُطْقَ وَلَا لَهَوَاتَ».

الاحتمال الآخر الذى ذكره شراح نهج البلاغه بهذا الشأن أن المراد من عظيم آياته المعجزات التسع التى حبى بها موسى بن عمران (٢)، ولكن يبدو هذا الاحتمال بعيداً ولا ينسجم مع سياق كلام الإمام عليه السلام فهو لا يخلو من تكلف ومخالفه الظاهر،

ص: ٣٠

١- (١) «لهوات» جمع «لهاه» بمعنى اللحمه المشرفه على الحلق فى أقصى الفم، ويقال لها اللسان الصغير، ولكن يبدو معناها فى الخطبه الحنجره بقرينه المجاوره.

٢- (٢) . المراد من الآيات التسع ما وردت الإشارة إليها فى آيات مختلفه من القرآن الكريم، وهى عبارته عن الجراد والقمل والضفادع والدم والرياح العاصفه والعصا واليد البيضاء والقحط الشديد الذى أصاب الفراعنه وآفات الفاكهه.

ويحتمل أن يكون المراد معجزتى العصا واليد البيضاء التى اقترنت بتكليم موسى عليه السلام.

على كل حال فلا يصح إطلاق صفة الناطق أو اللافظ على الله تبارك وتعالى، هذين اللفظين يشيران إلى حركة اللسان ومخارج الحروف والأمواج الصوتية التى يتنزه عنها الله تبارك وتعالى، بينما يصح إطلاق لفظ المتكلم على الله لأنه يوجد الكلام ويخلق الأمواج الصوتية فى ست جهات كى لا يتصور موسى والآخرون أن الله يحويه مكان.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى مطلبين آخرين بهدف إكمال هذه الصفات وإثبات عجز الفكر البشرى عن تبيانه لحقيقه الله تبارك وتعالى فقال فى الأولى:

«بَلْ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا أَيُّهَا الْمُتَكَلِّفُ (١) لَوْصِفِ رَبِّكَ، فَصِفْ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَجُنُودَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، فِى حُجْرَاتِ الْقُدُسِ مُرْجِحِينَ (٢)، مُتَوَلِّهَةً (٣) عَقُولُهُمْ أَنْ يَحُدُّوا أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ».

إشاره إلى أن الإنسان الذى يعجز عن بيان صفات ملائكة الله المقربين ولا يسعه إدراك حقيقه وجودها وحقيقه صفاتها، فكيف يتوقع إدراك صفات الخالق ويستوعب فى حيزه الفكرى صفاته الجمالته والجلالته، مع العلم أن الملائكة الذين نعجز عن بيان صفاتهم يعيشون حاله الحيره ضمن دائرتهم.

ثم خاض عليه السلام فى النقطة الثانيه التى تعدّ دليلاً عقلياً واضحاً فقال:

«فَإِنَّمَا يُدْرِكُ بِالصِّفَاتِ ذُؤَالِهِئَاتِ وَالْأَذْوَاتِ، وَمَنْ يَنْقَضِ إِذَا بَلَغَ أَمَدَ حَدِّهِ بِالْفَنَاءِ».

ثم اختتم هذا القسم باستنتاج واضح فقال عليه السلام:

«فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، أَضَاءَ بِنُورِهِ كُلَّ ظَلَامٍ، وَأَظْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ نُورٍ».

ص: ٣١

١- (١). «متكلف» تطلق على الشخص الشديد التعرض لما لا يعنيه.

٢- (٢). «مرجحين» من الفعل الرباعى «رجحن» على وزن «دحرج» بمعنى المائل لثقله والمتحرك يميناً وشمالاً ووردت فى الخطبه بمعنى الخضوع والتواضع.

٣- (٣) «متولّيه» من ماده «وله» بمعنى الحائره أو متخوفه من شدّه الحب.

وقد ركز شراح نهج البلاغه في تفسيرهم لهذه العبارة على معنى مطابق؛ فقالوا:

المراد القضاء على ظلمه الليل بضياء النهار وجمع ضياء النهار بظلمه الليل وجعل الظلمه المقرونه بالسكون والهدوء تعم كل مكان، بينما أخذ البعض الآخر المعنى الكنائى، فقال: إنّ المراد من الظلمات الأخلاق القبيحة التى تزول من روح الإنسان بنور معرفه الله، وبالمقابل فإنّ الأفراد الذين يعيشون ظلمه الجهل وعدم معرفه الله إنّما تزول عن وجودهم أنوار الفضيله والأخلاق الإنسانيه.

نعم، ليست هنالك من حاجه للتفسير الكنائى استناداً إلى إمكانيه التفسير على ضوء المعنى المقارن وعدم وجود القرينه على المعنى الكنائى وإن أمكن الجمع بين المعنيين.

تأملان

١. سرّ صعوبه معرفه صفات الله

ذكرنا كراراً أنّ طريق معرفه الله صعب بنفس الدرجه التى يتّضح فيها السلوك إليه والتعرف عليه، وبعبارة أخرى فإنّ العلم بوجود الله عن طريق تدبر أسرار الخلق فى الأرض والسماء والوقوف على عجائب الخلقه أمر فى غاية الصعوبه، فكلّ إنسان مهما كان لديه من علم وشعور يرى آثار علمه وقدرته وعظمته تعالى فى كلّ مكان وفى كلّ شىء، ولكن يستحيل عليه فهم كنه ذاته وصفاته، ذلك لأنّه كما ذكر الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه أننا نعانى من القياس المضل بهذا الشأن، فليس لنا حظ سوى معرفه الصفات بواسطه الوسائل والأدوات والمقرونه بالزمان والمكان، فكان من الطبيعى أن يتعذر علينا إدراك ما يفوق الزمان والمكان والأدوات واللامتناهى من حيث الوجود والصفات، أو بتعبير:

«ما لُثِرَابٍ وَرَبِّ الْأَرْبَابِ».

إننا لنعجز عن إدراك صفات بعض المخلوقات الأسمى كالملائكه المقربين - كما أشار إلى ذلك الإمام عليه السلام فى الخطبه - فضلاً عن إدراك صفات خالقها، وعلى هذا

الأساس أمرنا بالإكتفاء بالعلم الإجمالي في مرحله إدراك كنه الذات والصفات، وأن لا نسعى للوصول للعلم التفصيلي فهو خارج عن طاقتنا، على سبيل المثال إننا نعلم أن الله عالم بكل شيء وقادر على كل شيء، ولكن هل علمه عن طريق الصور الذهنية كالذي عليه الأمر بالنسبة للإنسان؟ طبعاً لا! ولكن كيف ذلك، حقاً إننا لا نعلم وهذه هي الحقيقة التي أشار إليها الإمام عليه السلام كراراً في خطب نهج البلاغه ولا سيما في الخطبة ٩١ المعروفه بخطبه الأشباح، كما حذرنا سائر أئمة الهدى عليهم السلام من سلوك هذا الوادى وقد نقل المرحوم الكليني في الكافي والصدوق في كتاب التوحيد بعض نماذج ذلك.

يذكر أن عبد الملك بن أعين أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام كتب له رساله أن طائفه في العراق يصفون الله بالأوصاف الجسميه فطلب منه بيان المذهب الحق في التوحيد فكتب الإمام عليه السلام:

«سَأَلَتْ عَنِ التَّوْحِيدِ رَجِيكَ اللَّهُ، فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، وَأَنَّهُ أَسْمَى مَنِ الصِّفَاتِ الَّتِي يَشَبَّهُ بِهَا مَخْلُوقَاتِهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْمَذْهَبَ الصَّحِيحَ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَتَزَهُهُ عَنِ الشَّيْبِ» (١) (إشاره إلى أنه في باب صفات الله أن لا نشبهه بالمخلوقات وأن لا نعتقد بالعدم بصوره كئيه بالاكتفاء بالمعرفه الإجماليه).

٢. العرش والكرسى

قيل الكثير في العرش والكرسى، وقد أسهبنا في شرح العرش وحملته في الخطبه الأولى من نهج البلاغه (٢).

تكررت مفرده العرش في القرآن الكريم ٢٠ مره، وإن لم تكن جميعها متعلقه بالعرش الإلهي، كما ذكرت مفرده الكرسي مرتان تتعلق إحداهما فقط بكرسى الله

ص: ٣٣

١- (١). كتاب الوافي، ج ١، ص ٤٠٥، الباب ٤٠.

٢- (٢) نفحات الولاية، ج ١، ص ١٠٥.

كما وردت عبارته «العرش» في نهج البلاغه سبع مرّات والكرسى مرّه واحده في هذه الخطبه، ورغم أنّ العرش يعنى المسند المعهود والأريكة التى ينصبها السلاطين ويجلسون عليها فى الأعياد والمناسبات الرسميه، ويعنى الكرسى الأريكة القصيره الدعامة التى يجلسون عليها فى الأيام الاعتياديه، ولكن قطعاً ما ورد فى القرآن ونهج البلاغه والروايات بشأن العرش والكرسى ليس المراد منه هذا المعنى وإنما هى كناية عن أمور أخرى.

فقد اعتبر البعض العرش إشارة إلى مجموع عالم الوجود، بينما عدّه البعض الآخر علم الله تعالى، وذهبت طائفة ثالثة إلى أنّ المراد به صفات الجمال والجلال، كما فسّروا الكرسى بهذا المعنى أيضاً، وهناك من اعتبر الكرسى إشارة إلى تدبير الأمور الجزئيه للعالم والعرش بمعنى التدبير الكلى والأحدى والذى يفرز جميع التدبيرات الجزئيه، ولكن كما أشرنا سابقاً فإنّ ما يفهم من القرآن الكريم أنّ أحد معانى الكرسى على الأقل مجموعه السماوات والأرض وعالم المادة أو الحاكميه عليه، والعرش إشارة إلى عالم الأرواح والملائكه وعالم ما وراء المادة أو الحاكميه عليها، ذلك أنّ القرآن الكريم قال فى آيه الكرسى: «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ» (١) ومن الطبيعى أنّ العرش أسمى وأرفع من الكرسى، طبعاً ما ذكرناه هو أحد التفاسير الواضحه للعرش والكرسى، وهناك بعض التفاسير الأخرى كما صرحت بها الروايات (٢).

ص: ٣٤

١- (١) . سورة البقره، الآيه ٢٥٥.

٢- (٢) روى المرحوم العلّامة المجلسى فى ج ٥٥ من بحار الأنوار عدّه أقوال وروايات بشأن العرش والكرسى.

فقد أشار الإمام عليه السلام فى الواقع إلى نعمتين عظيمتين تعدان مصدراً لنعم جمه أخرى؛ النعمه الأولى أنواع الثياب التى تحفظ البدن من الحرارة والبروده ومختلف المخاطر، وتضفى على الإنسان الوقار والهيبه والاحترام وتميزه عن الحيوانات.

والنعمه الأخرى المعاش، أى أنواع الرزق التى يحتاجها الإنسان فى حياته، وللمعاش من ماده معيشه مفهوم واسع يشمل الطعام والماء والهواء والدواء والسكن، وجميع مواهب الحياه ولا يبدو صحيحاً ما تصوره البعض من أنه يقتصر على الماء والغذاء، ورغم أن هذا المفهوم عام إلا أنه يشمل أنواع الألبسه الفاخره، ولكن ممكن ذكر ذلك بالخصوص بسبب أهميته الفائقه فى حياه الإنسان.

وبما أن حب الدنيا رأس كل خطيئه فقد خاض الإمام عليه السلام فى تقلب أحوال الدنيا وزوالها ثم ركز على مصداق واضح فقال عليه السلام:

«فَلَوْ أَنَّ أَحَدًا يَجِدُ إِلَى الْبَقَاءِ سُلْمًا، أَوْ لِدَفْعِ الْمَوْتِ سَبِيلًا، لَكَانَ ذَلِكَ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِي سَيَّخَرَهُ لَهُ مُلْكُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، مَعَ التُّبُوهُ وَعَظِيمِ الزُّلْفَةِ (١)».

نعم فسلیمان عليه السلام مع ما كان له من جلال وجبروت وقدره وعزه وكر وفر لم يستطع الحيلولة دون الموت ليغادر الدنيا فى الأجل المعين دون أدنى تأخير أو تريث، ومن هنا واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً:

«فَلَمَّا اسْتَوَفَى طُعْمَتَهُ، وَاسْتَكْمَلَ مُدَّتَهُ، رَمَتْهُ قِسْيٌ (٢) الْفَنَاءِ بِنِبَالِ (٣) الْمَوْتِ، وَأَصْبَحَتِ الدِّيَارُ مِنْهُ خَالِيَةً، وَالْمَسَاكِينُ مُعْطَلَةً، وَوَرِثَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ».

يا له من تشبيه رائع! فقد شبه الإمام عليه السلام قانون الفناء بالنبال التى تحمل الموت! وقد صوبت هذه النبال نحو الجميع لتنتظر آخر لقمه طعام يتناولونها وآخر دقيقه عمر يقضونها لتصوب نحوهم سهام الموت فتصيب أهدافها، سواء كان هذا الهدف

ص: ٣٦

١- (١) «زلفه» و «زلفى» بمعنى القرب والمنزله.

٢- (٢) . «قسى» جمع (قوس).

٣- (٣) «نبال» جمع «نبل» بمعنى السهم.

نمله ضعيفه أو سليمان الذى سخرت له جنود الإنس والجن والوحش والطير، والعجيب أن قانون الموت والفناء من القوانين التى لا تعرف من معنى للاستثناء، فهو يطال الصالحين والسيئين والأتقياء والأشقياء والأقوياء والضعفاء دون أن يرحم أحداً أو يمهلته مدّه: «فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَأَيِسَ تَأْخِرُونَ سَاعَهُ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ» (١) وسنورد بحثاً مهمّاً فى التأمّلات بشأن كيفية موت سليمان عليه السلام.

ثم خلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً! أَيُّنَ الْعَمَةِ الْقَهِّ وَأَبْنَاءِ الْعَمَةِ الْقَهِّ! أَيُّنَ الْفِرَاعِنَةِ وَأَبْنَاءِ الْفِرَاعِنَةِ! أَيُّنَ أَصْحَابِ مِدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيَّ، وَأَطْفَأُوا سِنْنَ الْمُرْسَلِينَ، وَأَحْيَوْا سِنْنَ الْجَبَّارِينَ! أَيُّنَ الَّذِينَ سَارُوا بِالْجُيُوشِ، وَهَزَمُوا (٢) بِاللُّؤُوفِ، وَعَسَكَرُوا الْعَسَاكِرَ، وَمَدَّنُوا الْمَدَائِنَ!».

فالإمام عليه السلام فى هذه العبارات العميقه المعنى وعقب إشارته للاعتبار بموت سليمان عليه السلام يسلط الضوء على تاريخ البشرى السالفه فيتطرق إلى ذوى النفوذ والقدرة الذين حكموا البلاد بقبضتهم الفولاذيه آنذاك ولم يبق منهم اليوم سوى حفنه من التراب مركزاً على طائفه معينه منهم فقد أشار بادئ الأمر إلى العمالقه الذين ينحدرون من العملاق أحد أحفاد نبي الله نوح عليه السلام ممن كانت لهم أجساد قويه وضخمه وقد حكموا البلاد لسنين متماديه.

ثم أشار إلى الفراعنه أى ملوك مصر الذين كانوا من أقوى ملوك التاريخ، بينما تطرق فى المرحله الثالثه إلى أصحاب الرس (نهر الرس أو الأبار المليئه بالماء التى كانت فى بعض مناطق ايران)، وهم أولئك الذين وقفوا بوجه الأنبياء وقتلوهم وأطفأوا سنن الله وأحيوا سنن الظلمه.

وأشار فى المرحله الأخيره بصوره كليه إلى الملوك المتجبرين السابقين كافه

ص: ٣٧

١- (١) . سورة الأعراف، الآية ٣٤.

٢- (٢) . «هزموا» من ماده «هزيمه» بمعنى الغلبه.

الذين كانوا يمتلكون العده والعدد وشيدوا المدن الجميله والرائعه، ولكن لم تكن عاقبتهم سوى الركوع للموت ومغادره العروش المذهبه والاكتفاء بحفره صغيره فى باطن الارض.

تأملات

١. شوكة سليمان عليه السلام وموته

خلافًا للتوراه المعاصره التى تصور سليمان عليه السلام كملك جبار وصانع للمعابد الوثنيه(١) يعتبره القرآن الكريم من الأنبياء العظام ونموذجاً للقدره والحاكميه الاستثنائيه، وقد اختزنت سيرته العديد من الدروس والعبر للجميع فالقرآن الكريم يصرح بأن الله سبحانه وتعالى أفاض عليه العديد من النعم فسخر له الريح التى تنقله من مكان إلى آخر وسخر له الإنس والجن وأفاض عليه العلم الجم حتى علمه منطق الطير وزوده بالعديد من الجنود والعمال، مع ذلك كان موته عبره ودرسا، جاء فى بعض الروايات: أن سليمان عليه السلام قال ذات يوم لأصحابه:

«إِنَّ اللَّهَ قَدْ وَهَبَ لِي مُلْكًا عَظِيمًا وَمَعَ جَمِيعِ مَا أُوتِيتُ مِنَ الْمَلِكِ مَا تَمَّ لِي سُرُورَ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ، وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَدْخَلَ قَصْرِي فِي غَدٍ فَأَصْعِدَ أَعْلَاهُ وَأَنْظُرَ إِلَى مَمَالِكِي فَلَا تَأْذَنُوا لِأَحَدٍ بِالدُّخُولِ عَلَيَّ» فلما كان من الغد أخذ عصاه بيده وصعد إلى أعلى موضع من قصره ووقف متكئا على العصا ينظر إلى ممالكه مسرورا بما أوتى فرحا بما أعطى، إذ نظر إلى شاب حسن الوجه واللباس قد خرج عليه من بعض زوايا قصره فقال له سليمان:

«مَنْ أَدْخَلَكَ إِلَى هَذَا الْقَصْرِ وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَخْلُو فِيهِ الْيَوْمَ فَيَاذَنَ مَنْ دَخَلْتُ». فقال الشاب:

«أَدْخَلَنِي هَذَا الْقَصْرَ رَبُّهُ وَيَاذَنِهِ دَخَلْتُ». فقال:

«رَبُّهُ أَحَقُّ بِهِ مِنِّي فَمَنْ أَنْتُ؟» قال:

«أَنَا مَلِكُ الْمَوْتِ». قال:

«وَفِيمَا جِئْتُ». قال:

«لَأَقْبِضَ رُوحَكَ». قال سليمان:

«إِمضِ لِمَا أَمَرْتُ بِهِ فَهَذَا يَوْمُ سُرُورِي وَأَبَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَكُونَ لِي

سُرور دُونَ لِقَائِهِ»، فقبض ملك الموت روحه وهو متكئاً على عصاه (ولم يمنحه إذن الجلوس) وهو ميت ما شاء الله والناس ينظرون إليه وهم يقدرون أنه حى فافتنوا فيه واختلفوا فمنهم من قال إن سليمان عليه السلام قد بقى متكئاً على عصاه هذه الأيام الكثيره ولم يتعب ولم ينم ولم يأكل ولم يشرب، إنه لربنا الذى يجب علينا أن نعبده، وقال قوم إن سليمان عليه السلام لساحر وأنه يرينا أنه واقف متكئ على عصاه يسحر أعيننا وليس كذلك، فقال المؤمنون: إن سليمان هو عبد الله ونبيه يدبر الله أمره بما شاء، فلما اختلفوا بعث الله الأرضه فدبت فى عصاه فلما أكلت جوفها انكسرت العصا وخز سليمان عليه السلام على وجهه فعلموا جميعاً بموته (١).

وكما أشار الإمام عليه السلام فى الخطبه لما تم عمر سليمان صوبت إليه أقواس المتيه وأصابه سهم الموت.

٢. من هم العمالقه؟

«عمالقه»: جمع «عملاق» اسم شخص من أحفاد نوح وإليه تنسب قبيله العمالقه وكان هؤلاء الأفراد أقوىاء وأشداء ومقاتلين عاشوا فى شمال الحجاز لألفى سنه قبل الميلاد حسب بعض المؤرخين، هجموا على مصر فاحتلوها وحكموها مدّه، ولكن حمل عليهم المصريون لسبعه عشر قرن قبل الميلاد فعادوا إلى جزيره العرب وأقاموا فى اليمن والحجاز وسائر المناطق وشكلوا هناك بعض الدويلات ويرى بعض المفسرين أن الجابره الذين تحدّث عنهم القرآن فى قصّه دخول موسى وبنى اسرائيل إلى بيت المقدس هم طائفه من أولئك العمالقه.

وأخيراً قضى عليهم يوشع حيث أمر بنى اسرائيل بأمر من موسى عليه السلام، وقد تساءل أمير المؤمنين عليه السلام فى هذه الخطبه قائلاً:

«أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وَأَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ» الذين

ص: ٣٩

١- (١) بحار الأنوار، ج ١٤، ص ١٣٦ و ١٣٧ (بتلخيص كما ورد هذا المطلب مختصراً فى القرآن الكريم فى الآيه ١٣ و ١٤ من سوره سبأ).

كانوا يتمتعون بقدرات هائلة وشكلوا الحكومات المقتدره ليحكموها لعقود من الزمان، ثم زالوا من صفحه الوجود ولم يبق سوى اسمهم (١).

٣. فراعنه مصر

كان ملك مصر يسمى (فرعون) وسلطان الروم (القيصر) وسلطان ايران (كسرى)، ويُدعى فرعون مصر الذى عاصر نبى الله موسى عليه السلام رمسيس الثانى والذى عاصر نبى الله يوسف عليه السلام كان الريان بن الوليد، وقيل إنّ الفراعنه الذين حكموا مصر قبل الميلاد بلغوا ٣٢ فرعوناً، كان بعضهم من مصر والبعض الآخر من العمالقه والروم واليونانيين وبعض الايرانيين الذين أوفدوا من قبل بعض السلاطين لفتح مصر فحكموا البلاد ولم يبق لهم من اليوم أثر.

٤. أصحاب الرس

تعنى مفردده الرس فى الأصل (الأثر المختصر)، ويرى البعض أنّ الرس مختصر الأرس (نهر معروف فى شمال ايران) بينما يرى الأعم الأغلب أنّها بئر ويعتقدون أنّ القوم الذين لم يبق منهم الآن إلّا القليل كانوا مزارعين ولديهم عدّه آبار مليئه بالمياه فكانت أوضاعهم المعاشيه جيده، وهنالكَ خلاف بين المفسرين بشأن المكان الذى عاشوا فيه والنّبى الذى أرسل إليهم، فالبعض يعتقد أنّهم بقايا عاد وثمود، بينما يرى البعض الآخر أنّهم عاشوا فى اليمامه وكان نبيهم يدعى حنظله، ويرى آخرون أنّ نبيهم كان شعيب.

جاء فى كتاب عيون أخبار الرضا أنّ أمير المؤمنين على عليه السلام قال:

«إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا يَعْبُدُونَ شَجَرَةً صُنُوبَرٌ يُقَالُ لَهَا شَاهُ دَرَحْتٍ وَكَانَتْ لَهُمْ إِثْنَتَا عَشَرَ قَرْيَةً عَلَى

ص: ٤٠

١- (١) راجع دائره المعارف لفريد وجدى، قاموس دهخدا والتفسير ذيل الآيه «قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ» سوره المائده، الآيه ٢٢.

شاطئ نهرٍ يقال له أرسُ يُسمى إحداهنَّ آبان والثانية آذر والثالثة دى والرابعة بهمن والخامسة اسفندار والسادسة فروردين والسابعة اردبيهشت والثامنة خرداد والتاسعة تير والعاشره مُرداد والحادية عشره شهريور والثانية عشره مهر، وكانوا يأتون بشيائِهِ وَيَقْرَفِيذْبُحُونَهَا لِلشَّجَرِ وَيَشْعُلُونَ النَّيرانَ بِالْحَطَبِ فَإِذَا ارْتَفَعَ دُخانُ تِلْكَ الذَّبائِحِ خَرُوا لِلشَّجَرِ سُجْدًا يَبْكُونَ وَيَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهَا، ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ نَبِيًّا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمَّ يَتَّبِعُوهُ فَدَعَا اللَّهَ قَائِلًا: أَيُّسَ شَجَرُهُمْ أَجْمَعُ، أَرِهْمُ قُدْرَتَكَ وَسُلْطَانَكَ، فَأَصْبَحَ الْقَوْمُ وَقَدْ يَبْسُ شَجَرُهُمْ كُلَّهُ فَهَالَهُمْ ذَلِكَ وَاجْتَمَعَ رَأْيُهُمْ وَاتَّخَذُوا أَنْبِيْبَ طُوالِ مِنْ رِصاصِ وَاسِعِهِ الْأَفْواهِ ثُمَّ أَرْسَلُوهَا فِي قَرارِ الْعَيْنِ وَأَرْسَلُوا فِيهَا نَبِيَّهُمْ حَيًّا حَتَّى مَاتَ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ رِيحًا عاصِفًا، شديده الحُمرة؛ فَأَمَاتَهُمْ جَمِيعًا» (١).

نعم، لقد رأت الدنيا الكثير من السلاطين والأقوام المنحرفه والجبابره الظالمه، وقد طفح غبار النسيان لا على قبورهم فحسب بل على تاريخهم، وهذا أفضل سند ودليل على عدم وفاء الدنيا لأحد.

ص: ٤١

١- (١) راجع بحار الأنوار، ج ١٤، ص ١٤٨ فما فوق، وتفسير الميزان، ج ١٥؛ التفسير الأمثل، ج ١٥ ذيل الآية ٣٨ من سوره الفرقان، والآيه ١٢ من سوره ق.

ومنها: قَدْ لَبَسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا، وَأَخَذَهَا بِجَمِيعِ أَدْبِهَا، مِنَ الْأَقْبَالِ عَلَيْهَا، وَالْمَعْرِفَةِ بِهَا، وَالتَّفَرُّغِ لَهَا؛ فَهِيَ عِنْدَ نَفْسِهِ ضَالَّتُهُ الَّتِي يُطَلَّبُهَا، وَحِاجَتُهُ الَّتِي يَسْأَلُ عَنْهَا، فَهُوَ مُغْتَرِبٌ إِذَا اغْتَرَبَ الْإِسْلَامُ، وَضَرَبَ بَعْسَبِ دَنْبِهِ، وَالصَّقَ الْأَرْضَ بِجِرَانِهِ، بَقِيَّتُهُ مِنْ بَقَايَا حُجَّتِهِ، خَلِيفَتُهُ مِنْ خَلَائِفِ أَنْبِيَائِهِ.

الشرح والتفسير: خصائص ذلك الولي

ما ورد في هذا القسم يبدو ظاهراً عديم الإرتباط بالأقسام السابقة من الخطبه وسبب ذلك أن السيد الرضى لا ينقل جميع الخطبه في أغلب الأحيان، بل يختار قطوفاً منها، ويدل على ذلك ما صدر به هذه الخطبه بقوله

«مِنَهَا»، وهذا ما أدى إلى نوع من الإبهام والغموض في هذا القسم وعوده الضمائر فيه ليقدم كل شارح ما يراه من احتمال بشأنها، لكننا نعتقد بوجود بعض القرائن لها هنا.

فقال عليه السلام:

«قَدْ لَبَسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا (١)، وَأَخَذَهَا بِجَمِيعِ أَدْبِهَا، مِنَ الْأَقْبَالِ عَلَيْهَا، وَالْمَعْرِفَةِ بِهَا، وَالتَّفَرُّغِ لَهَا».

هنالك عدّه احتمالات بشأن هذا الشخص الذى تدرع بالحكمه وأخذ بجميع آدابها ومنها أربعة احتمالات هي:

ص: ٤٣

١- (١). «جَنَّهُ» من ماده «جن» على وزن «فن» بمعنى تغطيه الشئ وتطلق على المجنون وكأنّ سترأ غطى عقله. والجن كائن لا يرى والجنين أيضاً مستور فى الرحم كما تطلق الجَنَّهُ على البستان كونه مغطى بالأشجار وجران على وزن «زمان» تطلق على القلب المستور فى الصدر ووردت الجَنَّهُ فى الخطبه بمعنى الدرع الذى يلبسه الإنسان فى الدفاع عن نفسه.

١. قال البعض: المراد به الإمام المهدي عليه السلام وغيبته ونهضته، وقد نسب ابن أبي الحديد هذا الرأي إلى الإمامية ولم يقرّ به بادئ الأمر، بينما أذعن أخيراً بأنه الشخص الذي سيولد في آخر الزمان واسمه المهدي عليه السلام.

٢. قال الفلاسفة: هم نخبه من العرفاء يتواجدون بين الناس في كلّ زمان.

٣. جاء عن بعض المتصوفه أنّ المراد أولياء الله وسالكي طريق الحقّ الذين يتواجدون على الأرض على الدوام.

٤. وترى المعتزله أنّ المراد به العالم العدل والموحد من المؤمنين من الأفراد الذين يعيشون بين الناس، ولكن حين نسلط الضوء على هذه العبارات إلى آخر القسم سيّضح لدينا بما لا يقبل الشك أنّ المراد هو الإمام المهدي عليه السلام.

على كلّ حال فالعبارة:

«قَدْ لَيْسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتُهَا» تشير إلى أنّه حكيم وقد لبس جلباباً لحفض هذه الحكمة والمراد من ذلك طبعاً جلباب الورع والتقوى، كما ورد في هذا الحديث الشريف:

«مَا أَخْلَصَ عَبْدُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً إِلَّا جَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ» (١).

والعبارات اللاحقة:

«وَأَخَذَهَا بِجَمِيعِ أَدْبِهَا...» كلّها تشير إلى أنّه حكيم، قد عمّت الحكمة والعلم كلّ كيانه وبها يدير شؤون من حوله.

ثم قال عليه السلام:

«فَهِيَ عِنْدَ نَفْسِهِ ضَالَّةٌ الَّتِي يَطْلُبُهَا، وَحَاجَتُهُ الَّتِي يَسْأَلُ عَنْهَا».

وهذا الكلام تأكيد آخر على أنّ ذلك الولي ينطلق في مشروعه من الحكمة والعلم ليمارس قبل كلّ شيء خلق الثوره العلميه والثقافيه، وينسجم هذا الكلام تماماً وما ورد في الروايات بشأن المهدي عليه السلام.

ومن ذلك ما روى عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال:

«إِذَا قَامَ قَائِمُنَا وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْعِبَادِ فَجَمَعَ بِهَا عُقُولَهُمْ وَكَمَلَتْ بِهَا أَحْلَامَهُمْ» (٢).

ص: ٤٤

١- (١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ٦٩، ح ٣٢١.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٣٢٨، ح ٤٧.

وواصل كلامه عليه السلام فى بيان ميزه اخرى لذلك الولي فقال:

«فَهُوَ مُعْتَرِبٌ إِذَا اغْتَرَبَ (١) الْإِسْلَامَ، وَضَرَبَ بِعَسِيبٍ (٢) ذَنْبَهُ (٣)، وَأَلْصَقَ الْأَرْضَ بِجِرَانِهِ (٤)».

حين تتخلف الناقه عن المشى فإنها تفترش الأرض بحيث يلتصق ذنبها بالأرض حتى تضع عليه أسفل عنقها وهذه دلالة على شدّة التعب ويستفيد العرب من هذا الأمر بصفته كناية عن الضعف والعجز، وهذا الكلام إشاره واضحه أخرى إلى أحد صفات ذلك الولي الربانى فى أنّ الإسلام والمسلمين يعيشون أقصى درجات الضعف فى غيبته وتكالب عليهم الأعداء من كلّ حدب وصوب بغيه القضاء على الإسلام وكسر شوكة المسلمين.

وجاء فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام:

«الْعِلْمُ سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ حَرْفًا فَجَمِيعٌ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ حَرْفَانِ فَلَمْ يَعْرِفِ النَّاسُ حَتَّى الْيَوْمِ غَيْرَ الْحَرْفَيْنِ فَإِذَا قَامَ قَائِمُنَا أُخْرَجَ خَمْسَةٌ وَعِشْرِينَ حَرْفًا فَبَثَّهَا فِي النَّاسِ وَضَمَّ إِلَيْهَا الْحَرْفَيْنِ حَتَّى يَبْثَّهَا سَبْعَةٌ وَعِشْرِينَ حَرْفًا» (٥).

(إشاره إلى أنّ الإمام المهدي عليه السلام يمارس ثوره ثقافيه هائله وسريعه بحيث يرقى بسطح العلم والمعرفه عشره أضعاف ما كانت عليه).

ويختتم الإمام عليه السلام هذا القسم بمسأله واضحه بهذا الخصوص فيقول:

«بَقِيَّتُهُ مِنْ بَقَايَا حُجَّتِهِ، خَلِيفَتُهُ مِنْ خَلَائِفِ أَنْبِيَائِهِ».

وكما يفهم من بيان هذه الصفات فإن مرجع الضمير فى العبارات السابقه لا يعود

ص: ٤٥

١- (١) «اغترب» من ماده «اغتراب» بمعنى الهجره.

٢- (٢) «عسيب» يقال للعظم فى مؤخره ذيل الدابه أو الفرس.

٣- (٣) «الذنب» من ماده «ذنب» على وزن «ضرب» بمعنى متابعه الشىء، وبما أنّ للذنب آثار وتبعات لا تفارق الإنسان لذلك قيل له ذنب على وزن «ضرب» وذنب على وزن «هدف» الذى ورد فى هذه الخطبه بمعنى ذيل الحيوان وذيل كلّ شىء.

٤- (٤) «جران» يقال لمقدم عنق البعير والعباره (ضرب بجرانه) كناية عن الإطراق فى مكان.

٥- (٥) بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٣٣٦.

إلّا إلى الإمام المهدي عليه السلام سيما من خلال هذه المفردات «بقيه»، «بقيه الله»، «الحجّه»، «الخليفه» الواضحه فى نصوصنا الدينيه.

تأمل

إشارات نهضة الإمام المهدي عليه السلام

يستفاد من الإشارات الواضحه التى تضمنتها هذه الخطبه بشأن نهضة الإمام المهدي عليه السلام وخلافاً لما يتصوره الجهال فإنّ القاعده الأصلية التى ينطلق منها الإمام عليه السلام إنّما تستند إلى الثوره الثقافيه والعلميه والفكريه، لا النهضة العسكريه التى تختزن إراقه الدماء، حيث يرتقى بالمستوى العلمى لدى الناس بحيث يمارس حكومته القائمه على أساس العدل والقسط، طبعاً سيواجه الإمام عليه السلام فى بدايه مشروعه تلك الأقليه المتغترسه والمنحرفه التى تحاول إعاقه مشروعه ممّا يضطره لمعالجتها عسكرياً، ولكن يبقى همه محصوراً فى طلب العلم والارتفاع بالمستوى العلمى لدى الأممه ولسان حاله وقاله على غرار سيره جدّه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله: «رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا»^(١).

ص: ٤٦

١- (١) سورة طه، الآية ١١٤.

ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ بَشَّتُ لَكُمْ الْمَوَاعِظَ الَّتِي وَعَظَ الْأَنْبِيَاءُ بِهَا أُمَّهَتَهُمْ، وَأَدَّيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أَدَّتِ الْأَوْصِيَاءُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ، وَأَدَّبْتُكُمْ بِسَوْطِي فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا، وَحَدَوْتُكُمْ بِالزَّوْجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا، لِلَّهِ أَنْتُمْ! اتَّقُوا عَمَلَكُمْ إِمَامًا غَيْرِي يَطَأُ بِكُمْ الطَّرِيقَ، وَيُرْشِدُكُمْ السَّبِيلَ؟

أَلَا إِنَّهُ قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلًا، وَأَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِرًا، وَأَزْمَعَ التَّرْحَالَ عِبَادُ اللَّهِ الْأَخْيَارُ، وَبَاعُوا قَلِيلًا مِنَ الدُّنْيَا لِيَبْقَى، بِكَثِيرٍ مِنَ الْآخِرَةِ لَا يَفْنَى. مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سَفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ وَهُمْ بِصَتِّينَ أَلَّا يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءَ؟ يُسَيِّغُونَ الْغُصَصَ وَيَشْرَبُونَ الرِّثْقَ! قَدْ وَاللَّهِ لَقُوا اللَّهَ فَوَفَّاهُمْ أَجُورَهُمْ، وَأَحْلَاهُمْ دَارَ الْأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ.

الشرح والتفسير: التذكير بما يلزم!

خاض الإمام عليه السلام في الوعظ والإرشاد والنصح المشوب بالتحذير فقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ بَشَّتُ (١) لَكُمْ الْمَوَاعِظَ الَّتِي وَعَظَ الْأَنْبِيَاءُ بِهَا أُمَّهَتَهُمْ، وَأَدَّيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أَدَّتِ الْأَوْصِيَاءُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ، وَأَدَّبْتُكُمْ بِسَوْطِي فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا، وَحَدَوْتُكُمْ (٢) بِالزَّوْجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا (٣)».

ص: ٤٧

١- (١). «بشئت» من ماده «بثَّ»، على وزن «نص» بمعنى النشر.

٢- (٢). «حدوتكم» من ماده «حدو» على وزن «محو» و«حدي» على وزن «دعا» تعنى فى الأصل سير الدابة بصوت مخصوص من قبل الجمال ثم اطلقت على كل سوق وسير.

٣- (٣) «تستوسقوا» من «وسوق» بمعنى الاجتماع والانضمام إلى بعض.

تشير هذه العبارات إلى أن الإمام عليه السلام كان يستغل كل فرصة بغية هداية أهل الكوفة الذين عرفوا بالضعف والتشتت وقد مارس شتى الأعمال الثقافية بهذا الشأن حتى أفاض عليهم مختلف مواعظ الأنبياء وإرشادات الأوصياء إلا أن المطر الرحمة الإلهية لم يجد له من سبيل في أرض قلوبهم السبخة، ثم تخلى عن الرفق والمرونة ليجابهم بشده عليهم يعودون إلى أنفسهم ويعيشون الوحده؛ ومزّه أخرى لم تجد هذه المسامير من سبيل في تلك الأحجار الصلده، ليتضح بجلاء أن لا نقص ولا عيب في الزعامه والقياده، بل العيب كله في تلك الفئة الجاهله الفاقده للحميه.

كما تفيد هذه العبارات أن مساعي جميع الأنبياء والأوصياء لا تبدو مجديه مع هؤلاء القوم.

«لِلَّهِ أَنْتُمْ! أَتَتَوَقَّعُونَ إِمَامًا غَيْرِي يَطَأُ بِكُمْ الطَّرِيقَ، وَيُرْشِدُكُمْ السَّبِيلَ؟».

أى حين لا يتمكن زعيم مثلى من إعادةكم إلى جاده الصواب فسوف لن يكون هنالك قط من يسعه القيام بذلك.

والغريب أنه رغم حاله اليأس والقنوط التي تفرزها طبيعه تلك الفئة إلا أن الإمام عليه السلام لا يكف عن النصح والإرشاد، فيستعرض لهم طبيعه ما حولهم وما تحكمه من ظروف ويكشف لهم عن منزله الشهاده فى سبيل الله فيقول:

«أَلَا إِنَّهُ قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلًا، وَأَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِرًا».

إشاره إلى اقبال جميع الفضائل على المجتمع الإنسانى إبان بزوغ فجر الإسلام وشروق شمس النبى الأكرم صلى الله عليه وآله، إلا أن هذه القيم والسنن الإلهية قد ولت ظهرها لهذا المجتمع وحلت محلها قبائح عصر الجاهليه التى طويت صفحاتها عن المجتمع الإسلامى بفعل ظهور بنى أميه وسليلى عصر الجاهليه.

ثم ذكر عليه السلام مقدمه بهدف الاشاده بمقام الشهداء فى سبيل الله وترسيخ ثقافه الجهاد والشهاده إزاء الطواغيت والظلمه فقال:

«وَأَزْمَعُ (١) التَّرْحَالَ (٢) عِبَادُ اللَّهِ الْأَخْيَارُ،

ص: ٤٨

١- (١). «أزمع» من ماده «زمع» على وزن «شمع» فى الأصل بمعنى التصميم على الشىء.

٢- (٢) «ترحال» من ماده «رحله» بمعنى السفر والحركه.

وَبَاعُوا قَلِيلًا مِنَ الدُّنْيَا لِيَتَّبِعُوا بَعْثًا مِنَ الآخِرَةِ لَأَيُّنِي.»

تشير هذه العبارة اللطيفة إلى أنّ أولئك الأخيار الذين فازوا بالشهادة وتقلّدوا وسام الشرف بالجهاد في سبيل الله لم يجانبوا الضرر فحسب، بل مارسوا تجاره مربحه حيث باعوا القليل من متاع الدنيا الفانى بالكثير من متاع الآخرة الباقي، كما أنّ أولئك الذين وفقوا لجهاد أنفسهم ولم ينالوا الشهادة وولّوا ظهورهم لخرق الدنيا وزبرجها وأقبلوا على الآخرة ونعيمها هم أيضاً في مصاف عباد الله الأخيار.

ثم أكد الإمام عليه السلام ذلك بقوله:

«مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سَفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ وَهُمْ بِصَفِينٍ أَلَّا يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءَ؟ يُسَيِّغُونَ (١) الْغُصَصَ وَيَشْرَبُونَ الرُّنْقَ! (٢)».

إشاره إلى أنّهم ذهبوا واستراحوا لنبقى اليوم ونشهد هذه الأوضاع المزريه التي يصول ويجول فيها العدو بينما يكتفى الأصحاب الضعاف في الحقّ والفاقدو الإراده بالفرج على هذا المشهد الذي يهز من الأعماق كلّ مؤمن غيور، والواقع أنّ الإمام عليه السلام يشير بهذه العبارات إلى جنایات معاويه وجند الشام وسكوت وضعف أهل الكوفه والعراق.

ثم بلغ كلام الإمام عليه السلام ذروته فقال:

«قَدْ وَاللَّهِ لَقُوا اللَّهَ فَوَفَّاهُمْ أَجُورَهُمْ، وَأَحَلَّهُمْ دَارَ الْأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ.»

أجل، فالأمر كما قال القرآن الكريم: «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ»، بل الموتى أولئك الذين استسلموا للذل وواصلوا حياتهم الماديّه التافهه في ظلّ رايه الطواغيت والظلمه، والحقّ أنّ الشهاده مدعاه للفخر، ويتضاعف هذا الفخر حين يكون في وسط اجواء فاسده وقدره وتنتهى إلى الخلاص من الطغمه المفسده والمتجبره.

ولعل الرساله التي اطلقها الإمام على عليه السلام من محراب عبادته حين شهادته بقوله:

ص: ٤٩

١- (١) «يسغون» من ماده «سوغ» على وزن «فوق» وسغ، على وزن «سيل» بمعنى الهنيء.

٢- (٢) «رنق» بمعنى الكدر.

«فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ» لتختزن العديد من الدروس والعبر التي ينبغي أن يحتذى بها المؤمنون.

ص: ٥٠

أَيُّنَ إِخْوَانِي الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ، وَمَضَوْا عَلَى الْحَقِّ؟ أَيُّنَ عَمَّارٌ؟ أَيُّنَ ابْنُ التَّيْهَانِ؟ وَأَيُّنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ؟ وَأَيُّنَ نَظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى الْمَيْتَةِ، وَأُبْرِدَ بِرُؤُوسِهِمْ إِلَى الْفَجْرِ!

قال: ثم ضرب بيده على لحيته الشريفه الكريمه، فأطال البكاء، ثم قال عليه السلام: (أَوْهَ عَلَى إِخْوَانِي الَّذِينَ تَلَّوْا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَتَدَبَّرُوا الْفُرْصَ فَأَقَامُوهُ، أَحْيَوْا السُّنَّةَ وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ. دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا، وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ).

ثم نادى بأعلى صوته: الْجِهَادَ الْجِهَادَ عِبَادَ اللَّهِ! أَلَا وَإِنِّي مُعَشِكِرٌ فِي يَوْمِي هَذَا؛ فَمَنْ أَرَادَ الرِّوَاخَ إِلَى اللَّهِ فَلْيَخْرُجْ!

الشرح والتفسير: النفي العام للجهاد

تغيّر خطاب الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبه ليواصل خطبته بعبارات مليئه بالحزن ويذكر تلك الثلثه من الشهداء في صفيين التي خلا مكانها الآن بين الأصحاب فقال:

«أَيُّنَ إِخْوَانِي الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ، وَمَضَوْا عَلَى الْحَقِّ؟».

ثم ركز عليه السلام على الطليعه منهم في الاثره والشهاده والعلم والمعرفه فقال:

«أَيُّنَ عَمَّارٌ؟ وَأَيُّنَ ابْنُ التَّيْهَانِ؟» ثم ذكرهم بصوره كليه وعامه فقال:

«وَأَيُّنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ؟ وَأَيُّنَ نَظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى الْمَيْتَةِ، وَأُبْرِدَ (١)»

١- (١). «أبرد» من ماده «برود» و «بروده» بمعنى البروده وتستعمل هذه المفرده بشأن يرد مكاناً آخر النهار وكذلك بشأن الرساله التي تنقل من مكان إلى آخر وتطلق اليوم على دائره البريد والمراد هنا ارسلت مع البريد بعد قتلهم إلى معاويه.

بِرُؤُوسِهِمْ إِلَى الْفَجْرِ!».

إشاره إلى عشرات الأفراد من أصحاب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الذين لزموا علياً عليه السلام ونالوا الشهادة في صفين وقام جناه جيش معاوية بحز رؤوسهم وارسالها إلى طاغيتهم معاوية (١).

«قَالَ: ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى لِحْيَتِهِ الشَّرِيفَةِ الْكَرِيمَةِ، فَأَطَالَ الْبُكَاءَ»، ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«أَوْه (٢) عَلَى إِخْوَانِي الَّذِينَ تَلَّوْا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَتَدَبَّرُوا الْفَرْصَ فَأَقَامُوهُ، أَحْيُوا السُّنَّةَ وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ. دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَحْبَبُوا، وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ».

فهذه الصفات الست تفيد عظمه مقامهم في العمل والعلم في حفظ الدين والجهاد وطاعة الإمام والزعيم الرباني، فقد كانوا على بصيره بالقرآن فيطبقونه على تفاصيل حياتهم كما كانوا على علم بالواجبات فيعملون بها ويميتون البدعه ويحيون السنه كما كانوا من أهل الإيثار والتضحية حين الجهاد.

في الواقع أن الإمام عليه السلام أراد أن يقدم لأصحابه أسوه حسنه ويقول إن المؤمن الواقعي والمسلم الحقيقي وصاحب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من يتصف بهذه الخصائص، أملاً في أن تفعل هذه الكلمات الحماسيه فعلها في تلك القلوب الباهته فيهب أصحابها لجهاد الظلمه والطواغيت.

«ثُمَّ نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: الْجِهَادَ الْجِهَادَ عِبَادَ اللَّهِ! أَلَا وَإِنِّي مُعْسِكِرٌ فِي يَوْمِي هَذَا؛ فَمَنْ أَرَادَ الرِّوَاحَ إِلَى اللَّهِ فَلْيَخْرُجْ!». وهكذا دعا الإمام عليه السلام القوم للجهاد بعد تلك المواعظ البالغه، فأقبل العديد منهم وشعر بخطوره المسؤوليه فتأهب للجهاد.

«قال نوْفٌ: وَعَقَدَ لِلْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي عَشْرِهِ آلاَفٍ، وَلِقَيْسِ بْنِ سَعْدٍ فِي عَشْرِهِ

ص: ٥٢

١- (١) روى ابن عبد البر عن عبد الرحمن بن أبي نزي أن ثلاثمائة ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وآله في بيعه الرضوان شهدوا صفين مع علي عليه السلام فقتل منهم ثلاثه وستون، ومنهم عمار بن ياسر (الاستيعاب، ج ٢، ص ٧٠ عمار بن ياسر).
٢- (٢) . «أَوْه» بفتح الهمزه وكسر الواو وتشديدها وكسر الهاء كلمه توجع.

آلاف، ولأبي أيوب الأنصاري في عَشْرَةِ آلاف، وَلِغَيْرِهِمْ عَلَى أَعْدَادٍ أُخْرٍ، وَهُوَ يُرِيدُ الرَّجْعَةَ إِلَى صِفَيْنَ، فَمَا دَارَتْ الْجُمُعَةُ حَتَّى ضَرَبَهُ الْمَلْعُونُ ابْنُ مُلَجَمٍ لَعْنَهُ اللَّهُ، فَتَرَاجَعَتِ الْعَسَاكِرُ، فَكُنَّا كَأَغْنَامٍ فَقَدْتُ رَاعِيهَا، تَخْتَطِفُهَا الذِّئَابُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ!».

وعلى هذا الأساس فرح ذئاب الشام ولصوص جيش معاوية بتخلصهم من ذلك الخطر العظيم، بينما عاش المؤمنون حاله من الأسى والهم، جاء في الرواية أنّ الشام لما بلغها خبر قتل أمير المؤمنين عليه السلام علم بذلك عمرو بن العاص فبشر معاوية قائلاً:

«إِنَّ الْأَسَدَ الْمُفْرِشَ ذِرَاعِيهِ بِالْعِرَاقِ لَاقَى شُعُوبَهُ» (١).

تأمل

صحاب الإمام عليه السلام الميامين

إشارة

ذكر الإمام عليه السلام في هذه الخطبة بعض الأصحاب الأوفياء الذين كانوا من صحابه رسول الله صلى الله عليه وآله الأشداء، ثم وفوا بما عاهدوا عليه الإمام عليه السلام حتى نالوا الشهادة في صفين، وكما ذكر سابقاً وجاء في الرواية أنّ ٣٠٠ من صحابه النبي صلى الله عليه وآله الذين بايعوه في بيعه الرضوان وكان منهم ممن شهد بدر قد وقفوا إلى جانب علي في صفين فقتل منهم ٦٣ وقد ذكر الإمام عليه السلام ثلاثه منهم، ونذكر هنا نبذه عن كلّ واحد منهم ثم نخوض في سيره قيس بن سعد وأبي أيوب الأنصاري الذين ورد إسماهما في آخر الخطبة بصفتها من امراء جيش الإمام عليه السلام.

١. عمّار بن ياسر

كنيته أبو اليقظان، أسلم في مكة وتحمل أشدّ العذاب، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب أنّ ياسر حين قدم إلى مكة تزوج من جاريه هي سميه التي ولدت له عمّاراً الذي عذب على يد المشركين وأجبر على الطعن بالإسلام، فأتى النبي صلى الله عليه وآله

ص: ٥٣

باكياً فنزلت الآيه الشريفه: «إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ» (١) التي تدلّ على التقية في هذه الموارد، وأجمع المفسرون على أن الآيه نزلت في عمّار، وكان ممن هاجر الحبشه وصى إلى القبلتين ومن أوائل المهاجرين الذين شهدوا بدرًا وجميع الغزوات الإسلاميه.

قال فيه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«أَنْتَ مَلِيٌّ إِيْمَانًا إِلَى أَحْمَصِ قَدَمَيْهِ»؛ وقال أيضاً:

«مَنْ أَبْغَضَ عَمَّارًا أَبْغَضَهُ اللَّهُ»؛ وقال صلى الله عليه وآله:

«تَشْتَأِقُ الْجَنَّةَ إِلَى أَرْبَعَةِ: عَلِيٍّ وَعَمَّارٍ وَسَلْمَانَ وَأَبِي ذَرٍّ».

وأضاف ابن عبد البر تواتر عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

«تَقْتُلُ عَمَّارًا الْفِتْنَةَ الْبَاغِيَةَ».

وعده ابن عبد البر من أصحاب الأخبار، وقد قتل يوم صفين وهذا أعظم دليل على بطلان معاويه، وروى ابن عبد البر عن أبي عبد الرحمن السلمانيه قال: شهدنا صفين فرأيت عمار بن ياسر ومعه أصحاب محمد وكأنته رأيتهم وسمعت عمار يقول لهاشم ابن عقبه (عتبه) احمل يا هاشم فالجئه في ظلال السيوف، اليوم نلقى محمداً وأصحابه فإنما نحن على الحق وهم على الباطل. يقول عبد الله ابن سلمه: نظرت عمّار في صفين وقد أصابه العطش فالتمس ماء، فأتوه بظرف من اللبن فقال اليوم التقى أصحابي فقد قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إِنَّ آخِرَ شَرَابِكَ مِنَ الدُّنْيَا ضَبَاحًا مِنْ لَبَنٍ» (٢).

جدير ذكره أنه لما بلغ معاويه خبر قتل مالك الأشتر - بعد صفين - خطب الناس فقال: «أما بعد فإنه كانت لعلى يمينان فقطعت إحداهما بصفين - يعنى عمّار بن ياسر، وقطعت الأخرى اليوم - يعنى الأشتر -» (٣).

٢. ابن التيهان

هو أبو الهيثم بن التيهان واسمه مالك من قبيله الأنصار، وهو أحد النقباء ليله

ص: ٥٤

١- (١). سورة النحل، الآيه ١٠٦.

٢- (٢) الاستيعاب، ج ٢، ص ٦٨ (سيره عمار).

٣- (٣) كامل ابن الأثير، ج ٣، ص ٣٥٣، في حوادث سنة ٣٨ هجرى.

العقبه وممن شهد بدرًا، وقيل إنه أدرك صفين وقتل فيها، ويؤيد ذلك هذه الخطبه، وذكر ابن أبي الحديد أسماء طائفه من علماء أهل السنه الذين قالوا بقتله في صفين (١).

٣. ذو الشهادتين

هو خزيمه بن ثابت الأنصاري وكنيته أبو عمار وممن التحق بالنبي صلى الله عليه وآله في المدينة وقد روى ابن الأثير في أسد الغابه سبب لقبه ذو الشهادتين فقال: إن النبي صلى الله عليه وآله اشترى فرساً من سواء بن قيس المحاربي، فوجد سواء، فشهد خزيمه بن ثابت للنبي فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله:

«ما حَمَلَك عَلَى الشَّهَادَةِ وَلَمْ تَكُنْ مَعَنَا حَاضِرًا»، فقال: صدقتك بما جئت به وعلمت أنك لا تقول إلحاقاً، فقال: رسول الله صلى الله عليه وآله:

«مَنْ شَهِدَ لَهُ خُزَيْمَةُ أَوْ عَلَيْهِ فَحَسْبُهُ» (٢)، فجعل رسول الله شهادة خزيمه بشهادتين (طبعاً هذا استثناء وذلك بسبب إيمان خزيمه ولعل ذلك كون شهادته تدعو إلى علم القاضي). كان ممن شهد الغزوات الإسلاميه، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب أنه شهد صفين فقاتل فيها حتى قتل (٣).

٤. قيس بن سعد بن عباد

كنيته أبو الفضل. كان رجلاً شجاعاً وجواداً، وأبوه سعد رئيس الخزرج، وكان قيس من كبار شيعة أمير المؤمنين عليه السلام وهو معروف بمحبته وولائه للإمام وشهد معه حروبه كلها وروى انس بن مالك أن قيس بن سعد كان رئيس حاجبي النبي صلى الله عليه وآله (وكان ثقه في كل الأمور) وذكر ابن شهاب: أن قيس بن سعد كان أحد الساسه العرب الخمسه الذين يحلمون المشاكل والفتن (٤).

ص: ٥٥

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٠، ص ١٠٧ و ١٠٨.

٢- (٢) . اسد الغابه، ج ٢، ص ١١٤ (سيره خزيمه).

٣- (٣) الاستيعاب، ج ١، ص ٢٦٨ (سيره خزيمه بن ثابت).

٤- (٤) أسد الغابه، ج ٤، ص ٢١٥؛ الاستيعاب، ج ٢، ص ١٥٩ (سيره قيس بن سعد).

هو خالد بن زيد ويعرف عادة بالكنية، كان ممن صحب رسول الله صلى الله عليه وآله وشهد العقبة وشهد بدرًا، وعليه نزل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حين قدم المدينة ولم يزل عنده حتى بنى مسجده ومسكنه، شهد مع علي عليه السلام الجمل وصفين وكان في مقدمه يوم النهروان، عاش عشر سنوات بعد علي عليه السلام وتوفي سنة ٥٠ للهجرة (١).

ويتضح ممّا مرّ معنا سابقاً هذه النقطة التاريخيّة من هم الأفراد الذي قاتلوا مع علي عليه السلام قاسطى الشام وسائر البغاه؟ ومن هم أولئك الأفراد الذين نالوا الشهادة مع علي عليه السلام ومن هم قاده جيشه؟ ولو لم يكن هناك من دليل على أحقيته عليه السلام وبطلان خصمه سوى هذا لكفى.

ص: ٥٦

فى قُدْرَه اللّهِ وفى فَضْلِ الْقُرْآنِ وفى الْوَصِيَّهِ بِالتَّقْوَى (١)

نظره إلى الخطبه

هذه الخطبه من الخطب الغايه فى الفصاحه والبلاغه والتى تتضمن عدّه مباحث تبدو غير متصله الأقسام، وذلك بسبب اسلوب السيد الرضى رحمه الله المعهود فى الاختيار. على كل حال تتعرض الخطبه لخمسه مواضع مهمّه هى:

١. جانب من صفات الله الجلاليه والجماليه بعبارات عميقه المعنى.

٢. التعريف بالقرآن الكريم وبيان بعض خصائصه المهمّه.

٣. الوصيه بالورع والتقوى وشرح آثارها وبركاتها.

٤. ذكر للقيامه ونار جهنم الأليمه وعجز الإنسان عن تحملها.

ص: ٥٧

١- (١) سند الخطبه: روى هذه الخطبه بعض الأفراد بعد السيد الرضى وإن لم نعثر عليها فى كتب الحديث قبله، فذكروها بما يفيد أنّهم عثروا عليها فى مصدر آخر غير نهج البلاغه، وممن روى هذه الخطبه الزمخشري فى كتاب ربيع الأبرار فذكر بعض هذه الخطبه الذى يرتبط بأنواع نار جهنم، كما فسّر ابن الأثير كلماتها فى كتابه النهايه، وكما ذكر السيد هاشم البحرانى فى كتابه البرهان جانباً منها مع اختلاف وما ورد فى نهج البلاغه، وهذا يدلّ على أنّه استقاها من مصدر آخر (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٥٩).

٥. بيان سبل النجاه من نار جهنم والاستفاده من إمكانات الدنيا فى هذا السبيل وأهمها إغاثة المحرومين والمساكين.

ص: ٥٨

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيِهِ، وَالْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ مَنْصَبِهِ. خَلَقَ الْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَاسْتَعْبَدَ الْأَرْبَابَ بِعِزَّتِهِ، وَسَادَ الْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ؛ وَهُوَ الَّذِي أَسْكَنَ الدُّنْيَا خَلْقَهُ، وَبَعَثَ إِلَى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ رُسُلَهُ، لِيَكْتَسِبُوا لَهُمْ عَنْ غَطَائِهَا، وَيَحْذَرُواهُمْ مِنْ ضَرَائِهَا، وَيَضْرِبُوا لَهُمْ أَمْثَالَهَا، وَيَبْصُرُواهُمْ عُيُوبَهَا، وَيَهْجُمُوا عَلَيْهِمْ بِمُعْتَبَرٍ مِنْ تَصَرُّفِ مَصَاحِبِهَا وَأَسْقَامِهَا، وَحَالَاتِهَا وَحَرَامِهَا، وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ وَالْعَصَاةِ مِنْ جَنَّةٍ وَنَارٍ، وَكَرَامَةٍ وَهَوَانٍ. أَحْمَدُهُ إِلَى نَفْسِهِ كَمَا اسْتَحْمَدَ إِلَى خَلْقِهِ، وَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا، وَلِكُلِّ قَدْرٍ أَجَلًا، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابًا.

الشرح والتفسير: دور الأنبياء عليهم السلام في هداية الأمم

جدير ذكره أنّ «ابن أبي الحديد المعتزلي» لما بلغ هذه الخطبه تأثر جداً بفصاحتها وبلاغتها. ثم خاض في مقارنتها مع أحد أبرز وأفضل الخطب التي خطبها الكاتب العربي المعروف (ابن أبي الشحماء العسقلاني) فأشار إلى ضعف تلك الخطبه إزاء خطبه أمير المؤمنين عليه السلام، واستنتج أنّ مثل هذه العبارات لا تصدر إلّا من على عليه السلام وعرض بالذم لأولئك المتعصين الذي يحاولون عبثاً نسب خطب نهج البلاغه لغير الإمام عليه السلام ويراهم لا يتبعون إلّا أهواءهم ورجباتهم (١).

على كلّ حال استهل الإمام عليه السلام خطبته قائلاً:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيِهِ،

ص: ٥٩

وَالْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ مَنْصَبِهِ (١). خَلَقَ الْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَاسْتَعْبَدَ الْأَرْبَابَ بِعِزَّتِهِ، وَسَادَ الْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ».

لا- شك في أنّ الرؤيه والمشاهده تختص بالأجسام، والله أسمى من الجسميه، والتعب والإرهاق أثر القيام بالأعمال من شؤون الأفراد ذوى القدره المحدوده، وليس لها من سبيل إلى من كانت جميع صفاته لامتناهيه في خلقه لما يشاء، فخلق هذا العالم أهون عليه من رؤيتنا لبعضنا خلال لحظه، كما ليس لمقتدر من قدره أمام الله، فهو القادر على فناء كلّ شىء بعاصفه أو صاعقه أو زلزه أو سيل جارف.

العباره:

«وَسَادَ الْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ» إشارة لطيفه إلى هذه الحقيقه أنّ عظمه الإنسان في جوده وكرمه فكلمة كانت كرمه أكبر كان عظمته كذلك، ولكن بما أنّ جميع نعم الأرض والسماء من الله الذى بسط مائدته لتشمل الجميع فهو أعظم من كلّ عظيم.

ثم أشار إلى جانب من صفاته سبحانه فى خلق الإنسان والهدف من هذه الخلقه وطرق الأنبياء عليهم السلام فى التريه والتعليم فقال:

«وَهُوَ الَّذِي أَسْكَنَ الدُّنْيَا خَلْقَهُ، وَبَعَثَ إِلَى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ رُسُلَهُ».

ثم تطرق إلى الهدف من بعثه الأنبياء ليوجزها فى عدّه أمور فقال:

«لِيَكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ غَطَائِهَا، وَلِيَحْدَرُواهُمْ مِنْ ضَرَائِهَا، وَلِيَضْرِبُوا لَهُمْ أَمْثَالَهَا، وَلِيَبْصُرُواهُمْ عُيُوبَهَا».

أجل، فزخارف الدنيا ومتاعها غفله وعيشها نكد ومالها ومقامها ضلاله، ومن هنا كان أحد المبادئ الأساسيه للأنبياء تحذيراتهم المتكرره للإنسان بغيه عدم الغفله عن الهدف الأساسى للخلقه وعدم الاستغراق فى هذه الدنيا واتخاذها قنطره إلى الآخره وعدم الركون إلى الإقامه فيها فهى ليست إلّا منزل يتوقف فيه الإنسان لليله.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالإشاره إلى سائر أهداف الأنبياء فقال:

«وَلِيَهْجُمُوا (٢) عَلَيْهِمْ

ص: ٦٠

١- (١). «منصبه» مصدر ميمى من ماده «نصب» على وزن «غضب» بمعنى التعب، وللمصدر هنا معنى اسم المصدر.

٢- (٢). «يهجموا» من ماده «هجوم» بمعنى الدخول أو الحمله غفله ويراد بها فى بعض الموارد القوه.

بِمُعْتَبِرٍ (١) مِنْ تَصِيْرِ رُفٍ مَصِيَةِ أَحْهَا (٢) وَأَسْدِيْقَامِيَهَا، وَحَلَالِيَهَا وَحَرَامِيَهَا، وَمَا أَعِيْدَ اللّٰهُ لِلْمُطِيْعِيْنَ مِنْهُمْ وَالْعُصِيَاةِ مِنْ جَنَّةِ وَنَارٍ، وَكَرَامَةِ وَهَوَانٍ».

إشاره إلى أنّ الأنبياء عليهم السلام وإضافه لما سبق ينشدون ثلاثه أهداف مهمه أخرى لهدايه الناس؛ فذكر في البدايه الدروس والعبر التي تختزنها هذه الحياه العابره، ومن ذلك أننا نرى بعض الأفراد الأصحاء والأقوياء الذين سرعان ما يهجم عليهم المرض فيسلبهم قدره الحركه ويسير بهم إلى حافه الموت، وإذا بهم ينهضون فجأه ليستأنفوا نشاطهم من جديد، والآخر بيان الحلال والحرام الذي يشكل جانباً مهماً من دعوه الأنبياء ويمثل الحد الفاصل بين المنطقه الآمنه والمحظوره.

والثالث بيان الثواب والعقاب المادى والمعنوى - المادى مثل الجنه والنار والمعنوى مثل الاحترام والتحقيق - فكلّ هذه الأمور من شأنها أن تكون دافعاً لطاعه الله (٣).

العباره:

«لِيَهْجُمُوا» إشاره إلى أنّ أنبياء الله يخوضون في أهداف الدعوه من خلال بياناتهم البلاغيه وتعبيراتهم المؤكده والتي تفعل فعلها في نفس المخاطب.

ثم عاد الإمام عليه السلام في ختام هذا القسم إلى حمد الله والثناء عليه فقال:

«أَحْمَدُهُ إِلَى نَفْسِهِ كَمَا اسْتَحَمَدَ إِلَى خَلْقِهِ».

وقد اختلف شراح نهج البلاغه في مفهوم هذه العباره، ولكن بالنظر إلى العباره

«اسْتَحَمَدَ إِلَى فُلَانٍ» التي تعنى أنه عامله بإحسان ليحمده (٤) يصبح معنى العباره

ص: ٦١

١- (١) . «معتبر» اسم مفعول من ماده «عبره» تعنى في الأصل العبور من شىء، ويقال العبره للحوادث التي يعتبر بها الإنسان كونها تعبر الإنسان من شىء إلى آخر، وعليه فالمعتبر يطلق على كلّ أساس لعبره واتعاظ.

٢- (٢) «مصاح» جمع «مصحه» بمعنى اسم المصدر من ماده «صح» تعنى الصحه والعافيه.

٣- (٣) كثرت أقوال شراح نهج البلاغه التي لا تخلو من تكلف في تفسيرهم لهذه العبارات والمعطوف عليه في العباره (حلالها وحرامها...) والأنسب أن تكون العباره (حلالها... وما أعد الله...) عطف على (بمعتبر) ليكون المعنى أنّ للأنبياء ثلاثه وظائف أخرى والتي شرحناها آنفاً.

٤- (٤) . المعجم الوسيط، مفرد «حمد».

(أحمدہ علی إفاضہ النعم) كما طلب من عباده.

وعاد عليه السلام في الختام إلى ما استهل به الخطبه فتطرق إلى محدوديه الحياه الدنيا والحساب الدقيق الذي يسود العالم فقال:

«وَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا، وَلِكُلِّ قَدْرٍ أَجَلًا، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابًا».

نعم! فكل ذرات هذا العالم تسير وفق حساب وكل شيء في لوح محفوظ، كما أن لجميع موجودات هذا العالم نهايه ستبلغها في وقت معين ينتهي فيه عمرهم وهذه عبره لجميع الناس ليعلموا من جانب أن الدنيا ليست باقيه ومن جانب آخر أن هنالك حساباً دقيقاً ينتظر جميع الأعمال.

ص: ٦٢

منها: فَالْقُرْآنُ أَمْرٌ زَاجِرٌ، وَصِيَامٌ نَاطِقٌ. حُجَّهُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ. أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ، وَارْتَهَنَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ. أَتَمَّ نُورَهُ، وَأَكْمَلَ بِهِ دِينَهُ، وَقَبَضَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَقَدْ فَرَّغَ إِلَى الْخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ الْهُدَى بِهِ. فَعَظَّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَا عَظَّمَتْ مِنْ نَفْسِهِ، فَأَيُّهُ لَمْ يُخْفِ عَنْكُمْ شَيْئًا مِنْ دِينِهِ، وَلَمْ يَتْرِكْ شَيْئًا رَضِيَهُ أَوْ كَرِهَهُ إِلَّا وَجَعَلَ لَهُ عِلْمًا بَادِيًا، وَآيَةً مُحْكَمَةً، تَرْجُرُ عَنْهُ، أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ، فَرِضَاءُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ، وَسَيَخْطُهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنْكُمْ بِشَيْءٍ سَيَخْطُهُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَلَنْ يَسْخَطَ عَلَيْكُمْ بِشَيْءٍ رَضِيَهُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. وَإِنَّمَا تَسِيرُونَ فِي أَثَرِ بَيْنِ، وَتَتَكَلَّمُونَ بِرَجْعِ قَوْلِ قَدَّ قَالَهُ الرَّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ. قَدْ كَفَّأَكُمْ مَوْوَنَهُ دُنْيَاكُمْ، وَحَثَّكُمْ عَلَى الشُّكْرِ، وَافْتَرَضَ مِنْ أَلْسِنَتِكُمُ الذِّكْرَ.

الشرح والتفسير: الهدى فى ظل القرآن

تحدث الإمام عليه السلام فى القسم السابق من الخطبه عن المبدأ والمعاد وصفات الجلال والجمال والثواب والعقاب يوم القيامة إلى جانب بعثه الأنبياء والرسل وبيانهم للحلال والحرام.

وتطرق هنا إلى القرآن الكريم لكونه معجزه نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وأعظم مشروع عمل يوم القيامة وذكر له عدده أوصاف تشير جميعاً إلى جامعيه القرآن وشموليته فقال:

«فَالْقُرْآنُ أَمْرٌ زَاجِرٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ. حُجَّهُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ. أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ،

وَأَرْتَهْنَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ».

فقد ذكر عليه السلام سبع صفات مهمّة للقرآن كافيّه شافيّه لبيان أهمّيّه القرآن ومنزلته الرفيعه، العبارة

«أَمِيرٌ زَاجِرٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ» في الواقع كلّ منهما صفتان للقرآن وقد حذفوا واو العطف بينهما، أي للقرآن أوامر ونواهٍ سكت في بعض الأمور التي تقتضى المصلحه فيها السكوت وانطلق بيانه في الأمور التي يتوجب على الجميع الإلمام بها أو أنّ القرآن ساكت في الظاهر ذلك أنّه ليس أكثر من حروف وكلمات، إلّا أنّ حقيقه الأمر أنّه تحدّث بمئه لسان وإمّاط اللثام عن الحقائق، العبارة

«أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ» إشاره إلى العهد الذي أخذه الله وأنبياءه من المؤمنين حين الإيمان بالتوحيد والنبوه، لأنّ من يبدي إيمانه بهذين المبدأين فمعنى ذلك تسليمه لأوامر الله وأوامر رسوله صلى الله عليه وآله، أو أنّ الله بافاضته للعقل من جانب وفطره التوحيد من جانب آخر أخذ هذا العهد من جميع الناس من خلال التكوين ليسلموا لأمره ويعملوا بكتابه.

العبارة:

«وَأَرْتَهْنَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ» إشاره إلى الحقيقه التي صرّح بها القرآن الكريم «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ» (١) فكما لا تطلق العين المرهونه دون تسديد الديون فإنّ الإنسان لا يبلغ حرّيته الحقيقه ما لم يمارس وظائفه الدينيه.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه ليكشف عن عمق أهمّيّه كتاب الله بذكره لصفتين أخريين فقال:

«أَتَمَّ نُورَهُ، وَأَكْمَلَ بِهِ دِينَهُ».

والمراد من النور هنا الفيض الإلهي الذي يشمل العباد عن طريق القرآن، والعبارة

«أَكْمَلَ بِهِ دِينَهُ» إشاره إلى الآيه: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» (٢) التي كمل بموجبها الدين بنزول القرآن ومشروع الولاية.

وتطرق الإمام عليه السلام إلى شموليه أحكام الإسلام والقرآن فقال:

«وَقَبَضَ نَبِيُّهُ صَلَّى

ص: ٦٤

١- (١) . سورة المدثر، الآيه ٣٨.

٢- (٢) . سورة المائدة، الآيه ٣.

اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَقَدْ فَرَعْنَا إِلَى الْخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ الْهُدَى بِهِ».

ثم استتج من ذلك

«فَعَظَّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَا عَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ».

إشاره إلى عدم ارتجال الصفات لله وعدم الابتداع في العباده والدعاء وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن كل شيء بل لا بد من اتباع هديه وإرشاده الذي ورد في القرآن في كل هذه الأمور (يمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى توقيفيه صفات الله والتعبدية في الطاعة).

ثم خاض عليه السلام في بيان عله هذا الموضوع فقال:

«فَإِنَّهُ لَمَّا يُخْفِ عَنْكُمْ شَيْئًا مِنْ دِينِهِ، وَلَمْ يَتْرُكْ شَيْئًا رَضِيئًا أَوْ كَرِهَهُ إِلَّا وَجَعَلَ لَهُ عِلْمًا يَبَادِيًا (١)، وَآيَةً مُحْكَمَةً، تَزُجُّ عَنْهُ، أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ».

بعبارة أخرى، أن الله سبحانه وتعالى أتم الحجة في جميع أوامره ونواهيه وجهد رسول الله في ابلاغ رسالته؛ فأوضح المعالم من الدين وبين الأصول والفروع، وعليه فلم يدع من مجال للبدع في الدين.

ثم قال عليه السلام:

«فَرِضَاءُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ، وَسَخَطُهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ».

وعليه فقد سلب هذه الذريعة في أن أحكام عصر النبي صلى الله عليه وآله إنما تختص بعهدده وعلينا الاجتهاد على ضوء تغير الزمان وتبدل الوسط، والواقع أن هذه العبارة إشارة إلى الحديث النبوي الشريف:

«حَلَالٌ مُحَمَّدٌ حَلَالٌ أَبَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَحَرَامُهُ حَرَامٌ أَبَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (٢).

وقال في تأكيده على وحده رسالته بشأن جميع الناس بما فيهم الماضون والحاضرون والقادمون:

«وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنْكُمْ بِشَيْءٍ سَخِطَهُ عَلَيَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَلَنْ يَسَخَطَ عَلَيْكُمْ بِشَيْءٍ رَضِيَهُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. وَإِنَّمَا تَسِيرُونَ فِي أَنْرَبَيْنِ، وَتَتَكَلَّمُونَ بِرَجْعِ قَوْلِ قَدْ قَالَه الرَّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ».

ص: ٦٥

١- (١). «بادياً» من ماده «بدو» على وزن «جبر» بمعنى الايضاح ولها حيثيه وصفيه.

٢- (٢) الكافي، ج ١، باب البدع والرأى والمقاييس، ح ١٩.

وتشير كل هذه العبارات إلى وحده تعاليم الأنبياء وسفراء الله وطرق السعادة والتكامل التي ابليت من جانب الله بواسطه أنبيائه، رغم رقى التكامل البشرى بفعل تقادم الزمان وهذا فى الواقع أحد فروع التوحيد، وهو ما أكدته القرآن الكريم.

«آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَانْفِرَاقٍ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» (١).

واختتم الإمام عليه السلام كلامه هنا بالإشارة لبعض الأمور المهمه فقال:

«قَدْ كَفَّاكُمْ مَوْنَهُ دُنْيَاكُمْ، وَحَثَّكُمْ عَلَى الشُّكْرِ، وَافْتَرَضَ مِنْ أَلْسِنَتِكُمْ الذُّكْرَ».

إشاره من جانب إلى أنه شملكم بأنواع النعم: «وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» (٢).

و «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» (٣) ومن جانب آخر أمركم بالشكر الذى يوجب زياده النعمه واستمرار العناية الإلهيه، ومن جانب آخر دعاكم لذكره والذى يعود على قلوبكم بالطمأنينه والنجاه من مخالب الشيطان: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» (٤) «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ» (٥).

وما يلاحظ من أن الإمام عليه السلام اكد على ذكر اللسان من بين جميع الأعمال الواجبه والمستحبه كونه مدعاه ليقظه القلب وهذه اليقظه هى المصدر الرئيسى للحركه نحو الخير والسعاده، أضف إلى ذلك فإن اللسان إن لم يلهج بالذكر سينطلق لخدمه الشيطان وأنا لنعلم أن العديد من الكبائر إنما تصدر من اللسان، جدير بالذكر أن التوجه إلى النعم وشكر المنعم على فضله ونعمه هو المحور الأصلى لمعرفة الله كما ورد فى علم العقائد.

ص: ٦٦

١- (١) سورة البقره، الآيه ٢٨٥.

٢- (٢) . سورة الجاثيه، الآيه ١٣.

٣- (٣) سورة البقره، الآيه ٢٩.

٤- (٤) . سورة الرعد، الآيه ٢٨.

٥- (٥) سورة الأعراف، الآيه ٢٠١.

١. وحده حكم الله في الأولين والآخرين

إنَّ وحده الأحكام الشرعيَّة وسريانها على الأولين والآخرين بما فيها الأقوام والأمم كافَّة لمن الأمور المهمَّة التي أكَّدها الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه، وتوضيح ذلك أنَّ تاريخ البشريَّة في الماضي والحاضر شهد أنواع التمييز بين الأقوام والشعوب في وضع القوانين والتشريعات، فكانت هنالك الأحكام المختلفه التي تتأثر عاده بلون البشره والأخرى بالمنزله الاجتماعيه وكان دم ذوى البشره البيضاء أثمن من نظيره لدى العبيد فكانت هنالك الامتيازات الخاصه لدى طبقه الأشراف في سن القوانين.

فانبثق الإسلام ليلغى تلك الامتيازات كافه إثر تبنيه لرساله المساواه وعدم التمايز الطبقي وتكافؤ جميع الأفراد مهما اختلفت ألوانهم وأعراقهم في الحقوق والواجبات وجاء في الخبر أنَّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بينما كان في منى أيام الحج راكباً دابته إذ التفت إلى الناس فقال:

«يا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا- إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلَا- لَأَفْضَلُ لِعَرَبِيٍّ عَلَيَّ عَجْمِي، وَلَا لِعَجْمِي عَلَيَّ عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَيَّ أَحْمَرَ (١)، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَيَّ أَسْوَدَ إِلَّا بِالتَّقْوَى. أَلَا هَلْ بَلَغْتُ؟ قَالُوا نَعَمْ! قَالَ لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ» (٢).

ولم يقتصر النبي صلى الله عليه وآله على هذا الكلام في ذلك التجمع العظيم بمنى، بل أشار إليه في موارد كثيره بصفته أحد المبادئ الإسلاميه المسلمه، ففي الخبر أنَّ سلمان الفارسي دخل مجلس النبي صلى الله عليه وآله فأكرمه النبي لفضله وسنه وأجلسه في صدر المجلس فلما رآه عمر أنكرك ذلك وقال:

«مَنْ هَذَا الْعَجْمِيُّ الْمُتَّصِفُ بِدُرِّ فِيمَا بَيْنَ الْعَرَبِ» فصعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله المنبر (الأمر الذي كان يقوم به لبيان حكم عام وأساسى) فخطب الناس وقال:

ص: ٦٧

١- (١). «أحمر»، إشارة إلى حمرة الوجه، أو كونه حنطاً، لأنَّ بيض الوجوه كانت في ذلك المحيط ألوانهم بلون الحنطاً.

٢- (٢) تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٦١ و ٦٢.

«إِنَّ النَّاسَ مِنْ آدَمَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا مِثْلُ أُسَيْنَانَ الْمَشْطِ؛ لَا فَضْلَ لِلْعَرَبِيِّ عَلَى الْأَعَجَمِيِّ وَلَا لِلْأَحْمَرِ عَلَى الْأَسْوَدِ إِلَّا بِالتَّقْوَى، سَيِّئًا مَنْ بَحْرًا لَا يُنْزَفُ وَكَثْرًا لَا يُنْفَدُ، سَلْمَانٌ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ» (١).

يشير هذا الحديث صراحة إلى عدم مساواة الناس الذين يعيشون في عصر معين إزاء القوانين الشرعية فحسب، بل شموليته لجميع الأفراد الذين سكنوا الأرض طيله تاريخ البشرية في ظل نفس الظروف ويبدو لهذا المبدأ والحكم الإسلامى جدواه الفعلية آنذاك حين كانت الامتيازات القبلية بين العرب والامتيازات العرقية والتمايز الطبقي هو الحاكم فى العالم آنذاك.

وكلام أمير المؤمنين عليه السلام فى هذه الخطبة إنما هو تأكيد لهذا الموضوع حين قال إن الله لن يرضى عنكم بشيء سخطه على من كان قبلكم ولن يسخط عليكم بشيء رضىه ممن كان من قبلكم وما زال هذا القانون هو الحاكم، كما يبدو لهذا الكلام الذى يمثل امتداداً لكلمات النبى الأكرم صلى الله عليه وآله قيمته القصوى على أساس إعادة تلك الامتيازات الجاهلية بما فيها امتياز العرب على العجم إبان خلافه عمر كما تفيد تواريخ الفريقين.

ونختتم الحديث هنا بعبارة من خطبته صلى الله عليه وآله فى حجة الوداع حين بين للجميع أسس وقوانين الشريعة الإسلاميه للجميع:

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ كُلُّكُمْ لآدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ ، «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ»

وَلَيْسَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ فَضْلٌ إِلَّا بِالتَّقْوَى؛ أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ» (٢).

٢. القرآن ناطق أم صامت؟

صدر الإمام عليه السلام كلامه فى هذه الخطبة بأن القرآن صامت وناطق، بينما وصفه فى

ص: ٦٨

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٤٨.

٢- (٢) المصدر السابق، ص ٣٥٠.

«هَذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ حَظٌّ مَسْتَوْرٌ بَيْنَ الدَّفْتَيْنِ لَا يَنْطِقُ بِلِسَانٍ وَلَا يُدَّ لَهُ مِنْ تَوْجُمَانٍ. وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرَّجَالُ» كما ورد شبيه ذلك فى الخطبه ١٥٨.

فهل هنالك من تناقض بين هذه التعابير؟ الجواب هو أن المراد من ناطقيه القرآن أنه بين أحكام الله فيه بلسان عربى مبين، فكل من كان لديه استعداد دعاه لنفسه وهداه للخير والسعاده وعليه فهو ناطق بالنسبه لدعاه الحق؛ أما بالنسبه إلى أولئك الأفراد المتعصبين والذين انبروا للنزاع فهم لا يسمعون رساله القرآن وإن سمعوها تظاهروا بعدم السماع، ولا مناص لهؤلاء الأفراد من قاض وحكم عادل يبلغهم رساله القرآن ويتم عليهم الحجه، على سبيل المثال للقرآن رساله واضحه فى قصه صفين حيث يقول: «فَإِنَّ بَعَثَ إِخْرِدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ» (١). فمن الواضح للجميع أن علياً عليه السلام وإضافه إلى نصبه لخلافه النبى صلى الله عليه وآله من جانب الله تعالى إنما بويع من قبل قاطبه المؤمنين وأغلبيه المهاجرين والأنصار، ولم يكن معاويه وجيشه سوى حفنه من الطغاه الجفاه الذين أرادوا فرض أنفسهم على الأمة، ولكن حيث انبروا لمواجهه حكم الله لزم أن يكون هناك حكم يأخذ بأيديهم إلى الحق رغم أن مسأله التحكيم وللأسف لم تسر بالاتجاه الصحيح ولم تتوصل إلى النتيجة المتوخاه.

ص: ٦٩

وَأَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوَى، وَجَعَلَهَا مُنْتَهَى رِضَا، وَحَاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ. فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي الَّذِي أَنْتُمْ بَعِينِهِ، وَنَوَاصِيءَ يَدَيْكُمْ بِيَدِهِ، وَتَقَلُّبُكُمْ فِي قَبْضَتِهِ. إِنَّ أَسْرَرْتُمْ عِلْمَهُ، وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كِتَابَهُ؛ قَدْ وَكَّلَ بِذَلِكَ حَفَظَهُ كِرَامًا، لَأَيْسِقُطُونَ حَقًّا، وَلَا يُثْبِتُونَ بَاطِلًا. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ (مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا) مِنَ الْفِتَنِ، وَنُورًا مِنَ الظُّلَمِ، وَيُخَلِّدْهُ فِيهَا شَيْئًا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ، وَيُنزِلْهُ مَنَزِلَ الْكِرَامِ عِنْدَهُ، فِي دَارِ اصْطِنَاعِهَا لِنَفْسِهِ؛ ظِلُّهَا عَرْشُهُ، وَنُورُهَا بَهْجَتُهُ، وَزُورُهَا مَلَايِكَتُهُ، وَرُفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ؛ فَيَادِرُوا الْمَعَادَ، وَسَابِقُوا الْآخِرَالِ، فَإِنَّ النَّاسَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطِعَ بِهِمُ الْأَمَلُ، وَيَزْهَقَهُمُ الْأَجَلُ، وَيَسِيدَ عَنْهُمْ بَابُ التَّوْبَةِ. فَقَدْ أَصَيْبَتْكُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ إِلَيْهِ الرَّجْعَةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَأَنْتُمْ بَنُوسِيْلٍ، عَلَى سَفَرٍ مِنْ دَارِ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وَقَدْ أُوذِنْتُمْ مِنْهَا بِالْإِزْتِحَالِ، وَأَمْرُكُمْ فِيهَا بِالزَّادِ.

الشرح والتفسير: منزله التقوى

أكد الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه على الدعوه إلى التقوى إلى جانب ذكره لسبب ذلك مع الإشارة إلى آثار التقوى، كما قدم شرحاً عميقاً لتقلب الدنيا ورحله الآخرة وما يلزمها من زاد ومتاع يكمن في الورع والتقوى.

فقال بادئ الأمر:

«وَأَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوَى، وَجَعَلَهَا مُنْتَهَى رِضَا، وَحَاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ».

وتشير هذه العبارة إلى أن التقوى أفضل شيء سأل الله عباده وأعظم فخر يتقلده

الجميع والذي ينسجم مع الآيات القرآنيّة القائلة: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» (١)، «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» (٢)، «تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا» (٣) وجعل للتقوى قيمتها العميقة.

والحقيقه هي أنّ التقوى شعور باطنى بالمسؤولية فهي وليده الإيمان القوى من جانب وأساس الطاعه واجتناب المعصيه من جانب آخر، والتعبير بالحاجه بشأن الله تعالى لا يعنى أنّ الله محتاج إلى العباد فالحاجه لغويّاً لا تقتصر على الفقر، بل ترد أحياناً بمعنى الطلب والسؤال.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى الإشارة إلى الداعى لرعايه تقوى الله فقال:

«فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِعَيْنِهِ، وَنَوَاصِيكُمْ (٤) بِيَدِهِ، وَتَقَلُّبُكُمْ (٥) فِي قَبْضَتِهِ».

نعم فالعالم حاضر عند الله وزمام الجميع بيده سبحانه، ورغم أنّ العباد أحرار فى ما يمارسون من أعمال، إلّا أنّ هذه الحرية لا تعنى سلب الذات القدسيه قدرتها.

ثم قال عليه السلام لمزيد من التأكيد:

«إِنَّ أَسْرَرْتُمْ عِلْمَهُ، وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كِتْبَهُ؛ قَدْ وَكَّلَ بِذَلِكَ حَفَظَهُ كِرَامًا، لَا يُسْقِطُونَ حَقًّا، وَلَا يُثْبِتُونَ بَاطِلًا».

وجاء فى القرآن أيضاً: «وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» (٦).

وكذلك: «وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ» (٧).

فمن البديهي أنّ كتابه الأعمال من قبل الملائكة الحفظة إنّما هو للتأكيد، وإلّا فقد اتضح من العبارات السابقه أنّ السر والعلايه سواء عند الله وعلمه محيط بكلّ ما فى السماوات والأرض، استناداً للعباره

«قَدْ وَكَّلَ بِذَلِكَ» وحصر هذه الكتابه بأعمال

ص: ٧٢

١- (١) . سورة الحجرات، الآية ١٣.

٢- (٢) . سورة البقره، الآية ١٩٧.

٣- (٣) سورة مريم، الآية ٦٣.

٤- (٤) «نواصي» جمع «ناصيه» بمعنى شعر مقدمه الرأس وهي إشارة لقدرة الله وكنايه عن هيمنته على كلّ شىء.

٥- (٥) «تقلب» هنا بمعنى التصرف وكلّ تغيير إشاره إلّا أنّ بيده كلّ حركاتكم.

٦- (٦) سورة الملك، الآية ١٣.

٧- (٧) سورة الانفطار، الآيات ١٠-١٢.

«وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كِتَابَهُ» فالذى يستفاد أنّ الملائكة ليست مأموره بكتابه كل الأعمال الخفيه وأنّ الله الستار لليوب قد أخرج جانباً من هذه الأعمال عن دائره علمهم واختص بها نفسه وهذا يشير إلى منتهى لطفه.

جاء فى دعاء كميل:

«وَكُلَّ سَيِّئَةٍ أَمَرْتُ بِإِثْبَاتِهَا الْكِرَامَ الْكَاتِبِينَ الَّذِينَ وَكَّلْتُهُمْ بِحِفْظِ مَا يَكُونُ مِنِّي وَجَعَلْتُهُمْ شُهُوداً عَلَيَّ مَعَ جَوَارِحِي وَكُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيَّ مِنْ وَرَائِهِمْ وَالشَّاهِدَ لِمَا خَفِيَ عَنْهُمْ وَبِرَحْمَتِكَ أَخْفَيْتَهُ وَبِفَضْلِكَ سَتَرْتَهُ».

ثم خاض الإمام عليه السلام فى بيان آثار وبركات التقوى فذكر بعباره قصيره عميقه المعنى أربع نتائج تفرزها التقوى. فقال فى الأولى والثانيه:

«وَاعْلَمُوا أَنَّهُ «مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً»

مِنَ الْفِتَنِ، وَنُوراً مِّنَ الظُّلُمِ».

فالشق الأول من الكلام اقتباس من الآيه الشريفه: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً» (١).

روى أبوذر الغفارى عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال:

«إِنِّي لَأَعْلَمُ آيَةً لَوْ أَخَذَ بِهَا النَّاسُ لَكَفَفَتْهُمْ: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً»

فَمَا زَالَ يَقُولُهَا وَيُعِيدُهَا» (٢).

والشق الثانى من سائر الآيات مثل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً» (٣) (ورؤيه خاصه تتعرفون من خلالها على الحق والباطل).

وقال فى الثمره الثالثه والرابعه للتقوى:

«وَيُخَلِّدُهُ فِيمَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ، وَيُنزِلُهُ مَنزِلَ الْكَرَامَةِ عِنْدَهُ، فِى دَارِ اضْطِنَاعِهَا (٤) لِنَفْسِهِ».

فنتيجه التقوى فى هذه العباره الخروج من الفتنه وزوال الظلمات من حياه المتقين فى هذا العالم والخلود فى النعم الماديّه والمعنويّه فى العالم الآخر، فالواقع أنّ الله سبحانه وتعالى جمع للمتقين النعم الماديّه والمعنويّه لهذا العالم والعالم الآخر

٢- (٢) تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٠٦.

٣- (٣) سورة الانفال، الآية ٢٩.

٤- (٤) «اصطنع» من ماده «صنع».

والعبارات تشير كل منها إلى إحدى هذه النعم.

وتشير العباره

«أَضْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ» أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ مَنَازِلَ الْآخِرَةِ الْخَاصَّةَ لِحَوَاصِهِ أَوْ أَنَّهَا مِنْ قَبِيلِ بَعْضِ الْعِبَارَاتِ مِثْلَ «بَيْتِ اللَّهِ» وَ «شَهْرِ اللَّهِ» الَّتِي تُشِيرُ إِلَى عَظَمَةِ تِلْكَ الدَّارِ وَأَهْمِيَّتِهَا.

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح صفات ذلك المنزل الخاص فقال:

«ظِلُّهَا عَرْشُهُ، وَنُورُهَا بَهْجَتُهُ، وَزُورُهَا مَلَائِكَتُهُ، وَرَفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ».

يا له من منزل رفيع ذلك الذى يفوق السماء والأرض وفي ظلّ عرش الله، أضاءته أشعه نور الله وتقاطرت فيه ملائكته على زياره ذلك الإنسان وجالس فيها رسل الله وأنبياءه، وهى الصفات التى تسحر الإنسان عند سماعها، فما ظنك برويتها؟

قال تعالى فى القرآن الكريم: «وَمِنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا» (١).

وخلص الإمام عليه السلام فى مواصلة كلامه بالدعوه إلى التقوى وبيانه لبركاتها بالقول:

«فَبَادِرُوا الْمَعَادَ، وَسَابِقُوا الْأَجَالَ».

كما قال القرآن: «سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» (٢).

وقال فى موضع آخر: «وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» (٣).

ثم خاض عليه السلام فى بيان العله فقال:

«فَإِنَّ النَّاسَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطِعَ بِهِمُ الْأَمَلُ، وَيَزْهَقَهُمْ (٤) الْأَجَلُ، وَيُسَدَّ عَنْهُمْ بَابُ التَّوْبَةِ. فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ إِلَيْهِ الرَّجْعَةَ

ص: ٧٤

١- (١) سورة النساء، الآية ٦٩.

٢- (٢) سورة الحديد، الآية ٢١.

٣- (٣) سورة الرعد، الآيتان ٢٣ و ٢٤.

٤- (٤). «يرهق» من مادته «رهق» على وزن «شفق» فى الأصل من تغطيه شىء بالقهر والغلبه وتعنى هنا الغلبه وتسلط الموت على الإنسان.

مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ».

والكلام إشاره لما ورد في القرآن: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا» (١).

ومراد الإمام عليه السلام بادرُوا اليوم إلى العمل الصالح والتوبه من الذنب قبل أن تعيشوا مثل هذا المصير وتطلبوا ما لا يلبي لكم.

وحت إثر ذلك على التأهب لسفر الآخرة والاستعداد والتزود لذلك السفر الطويل والمليء بالمخاطر فقال:

«وَأَنْتُمْ بُنُو سَبِيلٍ، عَلَيَّ سَفَرٌ مِنْ دَارِ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ».

واختتمها بالعباره:

«وَقَدْ أُودِغْتُمْ مِنْهَا بِالْإِزْتِحَالِ، وَأُمِرْتُمْ فِيهَا بِالزَّادِ».

وعاده ما يلاحظ مثل هذا التشبيه الرائع للدار الآخرة والدنيا وسكنه هذا العالم في بعض الآيات القرآنيّه والعديد من الروايات الإسلاميّه التي شبهت الإنسان بالمسافر الذي ينطلق نحو الهدف المطلوب وعليه أن يطرق بعض الأيام أثناء الطريق فيتوقف في بعض الأماكن فيهيء الزاد والمتاع وينطلق من هناك وليس المراد من الزاد والمتاع سوى التقوى كما ليس المراد من المركب سوى الإيمان، فأولئك الذين يقصرون في الإعداد إنّما يتخلفون في الطريق ويهلكون ولا- يبلغون المقصد قط فقافله الأنبياء والأوصياء عليهم السلام مازالت تنادى بالرحيل والتزود لذلك السفر الطويل، وإن غط البعض في نوم عميق وفقد الآذان الصاغية فصم عن سماع ذلك النداء.

قال تعالى في محكم كتابه:

«وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ» (٢). وقال: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» (٣).

ص: ٧٥

١- (١) سورة المؤمنون، الآيتان ٩٩ و ١٠٠.

٢- (٢) . سورة غافر، الآية ٣٩.

٣- (٣) سورة البقره، الآية ١٩٧.

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهَذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ، فَارْحَمُوا نَفُوسَكُمْ، فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا.

أَفَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشُّوْكَهِ تُصَيَّبُهُ، وَالْعُثْرَهُ تُدْمِيهِ، وَالرَّمْضَاءَ تُحْرِقُهُ؟ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ مِنْ نَارٍ، ضَجِيعَ حَجَرٍ، وَقَرِينِ شَيْطَانٍ! أَعَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكًا إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ بَعْضُهَا بَعْضًا لِعُضْبِهِ، وَإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعًا مِنْ زَجْرَتِهِ!

الشرح والتفسير: العذاب الشديد يوم القيامة

إثر تأكيدات الإمام عليه السلام على الورع والتقوى في القسم السابق من الخطبه أشار هنا بعبارات رائعه إلى شدة العذاب يوم القيامة فقال:

«وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهَذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ، فَارْحَمُوا نَفُوسَكُمْ».

ثم جسد بمقارنه بسيطه وواضحه شده إحراق نار جهنم فقال:

«فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا، أَفَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشُّوْكَهِ (١) تُصَيَّبُهُ، وَالْعُثْرَهُ تُدْمِيهِ (٢) ، وَالرَّمْضَاءَ (٣) تُحْرِقُهُ؟ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ (٤) مِنْ نَارٍ، ضَجِيعَ حَجَرٍ،

ص: ٧٧

١- (١). «شوكه» تطلق على حراب الجنود والأسلحه كآفه، لأنّ السلاح علامه القدره والشده وتطلق الشوكه على كلقدره، وتطلق على التنوء المدبب كالإبره في النبات الشائك.

٢- (٢). «تدميه» من ماده «إدما» بمعنى إخراج الدم من البدن.

٣- (٣) «رمضاء» بمعنى شده الحراره وكذلك الأرض والحجر المحرقه بفعل أشعه الشمس.

٤- (٤) «طابقين» تشبه «طابق» بكسر وفتح الباء بمعنى طبقه البناء ويطلق على ما يخبز عليه.

وَقَرِينِ شَيْطَانٍ!».

وقال في مواصلته لهذا الكلام:

«أَعْلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكًا إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ (١) بَعْضُهَا بَعْضًا لِعَظْبِهِ، وَإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ (٢) بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعًا مِنْ زَجْرَتِهِ!».

وللمرحوم «مغنيه» حين بلغ هذا القسم من الخطبه كلام رائع حيث يقول: «إنَّ جميع خطب نهج البلاغه تبحث أصليين أو ثلاثه أصول مع بعضها، فمن جانب الثناء على صفات الله الجمالتيه والجلالتيه وأسمائه الحسنى ومن جانب آخر مدح النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وما أتى به من هدى للناس وأخيراً الكلام عن خداع الدنيا وسكرات الموت ووحشه القبر وأليم العذاب فى القيامة، والعجيب أن هذه الخطب لا تتضمن التكرار رغم تكرر هذه المواضع، حيث يوردها بأسلوب بديع وشكل جديد، الأمر الذى أذهل شراح نهج البلاغه» (٣).

على كل حال فإن الإمام عليه السلام شرح فى هذا الكلام عجز الإنسان وانزعاجه الشديد من مصائب الدنيا الهينه وقارنها مع أليم العذاب وشده المصاب فى الآخره ليحذر الجميع من ذلك.

وقد ورد شبيه ذلك فى دعاء كميل حيث يقول:

«يَا رَبِّ وَأَنْتَ تَعْلَمُ ضَعْفِي عَنْ قَلِيلٍ مِنْ بَلَاءِ الدُّنْيَا وَعُقُوبَاتِهَا وَمَا يَجْرَى فِيهَا مِنَ الْمَكَارِهِ عَلَى أَهْلِهَا عَلَى أَنَّ ذَلِكَ بَلَاءٌ وَمَكْرُوهٌ قَلِيلٌ مَكْنُتُهُ يَسِيرٌ بَقَاؤُهُ قَصِيرٌ مُدَّتُهُ فَكَيْفَ احْتِمَالِي لِبَلَاءِ الْآخِرَةِ وَجَلِيلِ وَقُوعِ الْمَكَارِهِ فِيهَا وَهُوَ بَلَاءٌ تَطُولُ مُدَّتُهُ وَيَدُومُ مَقَامُهُ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْ أَهْلِهِ».

والذى يستفاد ضمناً من العبارات المذكوره أن نار جهنم مخلوق فطن، يشعر بالرعب من غضب مالك خازن النار فيتأرجح هنا وهناك، كما يفهم من تلك

ص: ٧٨

١- (١). «حطم» من ماده «حطم» على وزن «حتم» بمعنى هدم وكسر الشىء ويطلق على الأشياء التى تتهشم بقوه ومن هنا كان أحد أسماء جهنم الحطمه.

٢- (٢) «توثبت» من ماده «وثوب» بمعنى القفز.

٣- (٣) فى ظلال نهج البلاغه، ج ٣، ص ٤٦ (باقتباس).

التعبيرات أنّ لعذاب جهنم بعد جسمى هو حرقه النار وآخر معنوى يتمثل فى مجاوره الشيطان.

ص: ٧٩

أَيُّهَا الْيَفْنَ الْكَبِيرُ، الَّذِي قَدْ لَهَزَهُ الْقَتِيرُ، كَيْفَ أَنْتَ إِذَا التَّحَمَّتْ أَطْوَاقُ النَّارِ بِعِظَامِ الْأَغْنِيَاقِ، وَنَشَبَتِ الْجَوَامِعُ حَتَّى أَكَلَتْ لُحُومَ السَّوَاعِدِ. فَاللَّهُ اللَّهُ مَعَشَرَ الْعِبَادِ! وَأَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي الصَّحِّهِ قَبْلَ السُّقْمِ، وَفِي الْفُسْيحِ قَبْلَ الضُّيْقِ. فَاسْعَوْا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا. أَسِيهِرُوا عُيُونَكُمْ، وَأَضْمِرُوا بَطُونَكُمْ، وَأَسِيهِرُوا أَعْيُنَكُمْ، وَأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ، وَخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَمَّا تَبَخَّلُوا بِهَا عَنْهَا، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: «إِنْ تَنْصِرُوا اللَّهَ يَنْصِرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ» وَقَالَ تَعَالَى: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ». فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ، وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ؛ اسْتَنْصِرْكُمْ «وَلَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». وَاسْتَقْرِضْكُمْ «وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ». وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ «لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا».

الشرح والتفسير: الامتحان الإلهي

تغيرت نبره الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه ليخاطب الكهول ويستعرض لهم جانباً من أشد عذاب وأهوال يوم القيامة، ثم يدعو عباد الله كافه اغتنام الفرصه بغيه الخلاص من عذاب الله ونقمته ليقدم تعاليم دقيقه بهذا الشأن يتمثل أحدها في الانفاق فقال عليه السلام:

«أَيُّهَا الْيَفْنَ الْكَبِيرُ، الَّذِي قَدْ

لَهْزَةٌ (١) الْقَتِيرُ (٢)، كَيْفَ أَنْتِ إِذَا التَّحَمْتِ (٣) أَطْوَاقُ النَّارِ بِعِظَامِ الْأَعْنَاقِ، وَنَشِبَتْ (٤) الْجَوَامِعُ (٥) حَتَّى أَكَلَتْ لُحُومَ السَّوَاعِدِ (٦)».

السؤال الذى يطرح نفسه هنا: لماذا خاطب الإمام عليه السلام الشيخ المسن؟ لعل ذلك يعود إلى أن شمس عمره توشك على المغيب - وإن كان الموت يأتى كل أحد بغته - وعليه أن يركز فى الانتباه لنفسه، أو لأن للكحول تأثيراً على أسرهم وأبنائهم وباستطاعتهم نصحتهم ووعظهم.

العبارة:

«قَدْ لَهْزَةُ الْقَتِيرُ» استناداً إلى أن

«لهز» يعنى فى الأصل نفوذ الشىء واتساعه فى شىء آخر و

«قتير» من ماده قتر بمعنى التضيق والتصعب فالعبارة تفيد أن الشيخوخه قد نفذت فى كل كيانهم فقد ضعفت العظام وبهت الدماغ والأعصاب وعجزت أعضاء البدن كافه.

وقد أشار الإمام عليه السلام إلى نوعين من العذاب الأليم الذى يحيق بأهل جهنم، أحدهما أطواق النار التى تطوق أعناق المجرمين وتتغلغل فى لحومهم حتى تبلغ عظامهم والآخر غل الجامعه التى تربط أيديهم إلى أعناقهم بحيث تجرح سواعد أيديهم، طبعاً هذا العذاب وإن كان شديد الألم إلا أنه يعتبر رحمه بفعل دوره فى حجزهم عن الذنب والمعصيه.

ثم واصل كلامه عليه السلام موجهاً الخطاب لجميع العباد فقال:

«فَاللَّهُ اللَّهُ مَعَشَرَ الْعِبَادِ!

ص: ٨٢

١- (١). «لهز» من ماده «لهز» على وزن «محض» المخالطه والنفوذ فى شىء.

٢- (٢) «قتير» تعنى فى الأصل رؤوس المسامير فى حلقات الدرع ثم اطلق على كل أمر صعب ومرهق وبما أن فتره الكهوله تعدّ إحدى المشاكل الشديده فقد اطلق القتير على الكهل وهذا هو المعنى المراد بها فى الخطبه.

٣- (٣) «التحمت» من ماده «لحم» على وزن «فهم» بمعنى اندكت واستحكمت وتعنى فى العبارة المذكوره أن أطواق النار تلتصق بعظام الرقبه.

٤- (٤) «نشبت» من ماده «نشب» على وزن «رجب» التعلق.

٥- (٥) «جوامع» جمع «جامعه» الغل لأنها تجمع اليدين إلى العنق.

٦- (٦) «سواعد» جمع «ساعد».

وَأَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي الصَّحَّةِ قَبْلَ السُّقْمِ، وَفِي الْفُسْحَةِ قَبْلَ الضُّيْقِ. فَاسْعَوْا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا(١)».

فقد أشار الإمام عليه السلام هنا إلى نعمتين كبيرتين؛ إحداهما السلامة والعافية والأخرى إعداد الإمكانيات التي تمكن الإنسان من الإقدام على أي عمل. نعم فهو يحذر الجميع من استغلال هذه الفرص والخلاص من تبعات المسؤولية.

وتشير العبارة

«فَاسْعَوْا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ» إلى سلسلة من التكاليف التي لا مناص للإنسان من القيام بها، فقد كان السائد لدى الأقوام السابقة أنّ الدائن يستعبد المدين ما لم يتمكن من أداء دينه، ولا يعتق ما لم يسدد ذلك الدين، فالعبارة المذكورة يمكن أن تكون كناية عن هذا المطلب.

والعبارة:

«مَنْ قَبِلَ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا» إشارة إلى أنّ الشخص المدين إن تخلف عن أداء الدين خرج عن ملكيته ما كان مرتهاً لدى المدين (طبعاً بمقدار الطلب) فقد أشار الإمام عليه السلام إلى ضروره أداء الديون الإلهية والمراد بها الواجبات بغيه تحرير رهائهم لديه والمراد به أنفسهم.

ثم واصل الإمام عليه السلام بالخوض في تفاسير العبارات التي ذكرها سابقاً بصورة كليه فركز على خمسة مواضيع وقال:

«أَسْهَرُوا عُيُونَكُمْ، وَأَضْمِرُوا(٢) بَطُونَكُمْ، وَاسْتَعْمَلُوا أَقْدَامَكُمْ، وَأَنْفَقُوا أَمْوَالَكُمْ، وَخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فِجُودًا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَبْخُلُوا بِهَا عَنْهَا».

والمراد من

«أَسْهَرُوا عُيُونَكُمْ» أسهروا عيونكم المناجاة في الليل سيما صلاة التهجد.

«وَأَضْمِرُوا بَطُونَكُمْ» إشارة إلى الصيام،

«وَاسْتَعْمَلُوا أَقْدَامَكُمْ» إشارة إلى قيام الليل أو السعي في قضاء حوائج الناس واغاثه الملهوفين،

«وَأَنْفَقُوا أَمْوَالَكُمْ» إشارة إلى الخمس والزكاة الواجبه والصدقات المستحبه

«وَخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فِجُودًا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ» إشارة إلى العبادة وتهذيب النفس والجهاد في سبيل الله.

ص: ٨٣

٢-٢) . «اسهروا» من ماده «سهر» على وزن «سفر» بمعنى اليقظه فى الليل.

٣-٣) «اضمروا» من ماده «ضمور» على وزن «عبور» بمعنى الضعف وتتعدى فى باب الأفعال.

ثم استدلل الإمام عليه السلام على كلامه بالاستشهاد بآيتين من القرآن فقال:

«فَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: «إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ» (١)».

وقال تعالى: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ» (٢).

وقال عليه السلام فى شرحه لهذه الآيات:

«فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ، وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ؛ اسْتَنْصَرَكُمْ «وَلَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»

وَاسْتَقْرِضَكُمْ «وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ»

وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ «لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا».

إشاره إلى أن الله اعتمد غايه اللطف فى الكلام ليتعظ من كان له أدنى استعداد لطاعته بتلك التعبيرات المفعمه باللطف والمحبه فيحث الخطى على التسليم لله.

والحقيقه أن كلام الإمام عليه السلام جواب لسؤال هو هل يمكن لله تعالى الذى له جند السماوات والأرض أن يستعين بعبده الضعيف العاجز الذى لا يملك لنفسه سوى ما أفاض الله عليه؟ أم يستقرض عبده الضعيف الذى يرتع فى نعمه وهو الذى بيده خزائن السماوات والأرض؟ فلو أراد الله اعانته ضعيف لما لا يعينه، ولو أراد اثراء فقير لما لا يقوم هو بهذا العمل؟ أشار الإمام عليه السلام إلى أن الهدف من كل هذه الأمور هو الامتحان والاختبار.

جدير بالذكر أن جميع ما ذكر اقتباس من القرآن الكريم، إذ قال تعالى فى موضع «وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوا بَعْضَكُمْ بَعْضًا» (٣).

وفى موضع آخر: «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» (٤) وآيات أخرى.

ص: ٨٤

١- (١) سورة محمد، الآية ٧.

٢- (٢) سورة الحديد، الآية ١١.

٣- (٣) سورة محمد، الآية ٤.

٤- (٤) . سورة الملك، الآية ٢.

فَبَادِرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ جِيرَانِ اللَّهِ فِي دَارِهِ. رَافِقَ بِهِمْ رُسُلَهُ، وَأَزَارَهُمْ مَلَائِكَتَهُ، وَأَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ نَارِ أَبَدًا، وَصَانَ أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَى لُغُوبًا وَنَصَبًا: (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ). أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ!

الشرح والتفسير: الانتقال إلى جيران الله

خلص الإمام عليه السلام في ختام الخطبه إلى نتيجته واضحه وهى أن كان الأمر كذلك

«فَبَادِرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ جِيرَانِ اللَّهِ فِي دَارِهِ».

ثم خاض عليه السلام فى خصائص هؤلاء الجيران فقال:

«رَافِقَ بِهِمْ رُسُلَهُ، وَأَزَارَهُمْ مَلَائِكَتَهُ، وَأَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ (١) نَارِ أَبَدًا، وَصَانَ (٢) أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَى لُغُوبًا (٣) وَنَصَبًا (٤): (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (٥)».

فقد بين الإمام عليه السلام بهذه العبارات الرائعه أربع خصائص لجيران الله اثنان منها لهما

ص: ٨٥

١- (١). «حسيس» من ماده «حس» تعنى الصوت الخفيف أو الضعيف.

٢- (٢) «صان» من «صيانه» بمعنى المحافظه.

٣- (٣) «لغوب» مصدر بمعنى شده العياء.

٤- (٤) «نصب» بمعنى التعب. وذهب البعض إلى أن لغوب بمعنى التعب الروحى والنصب التعب البدنى. وعلى هذا الأساس فليس فى الجنّه ومجاوره الله من تعب روحى ولا بدنى.

٥- (٥) سورة الحديد، الآية ٢١.

بعد معنوى والاثنان الآخران لهما بعد مادى؛ فمرافقه الأنبياء وزياره الملائكه كرامتان معنويتان وكرامتان روحيتان لا مثل لهما كما أن عدم سماع أدنى صوت لنار جهنم وصون الاجساد من أى تعب ونصب كرامتان ماديتان لا نظير لهما كذلك.

وليت شعرى أى كرامه أسمى من أن يرافق الإنسان هؤلاء المقربين فى غرف الجنه ويشمل بهذه النعم المعنويّه والماديّه.

ويؤكد الإمام عليه السلام ضمنياً بالاستفاده من الآيه الشريفه على أهميه هذه النعم الأخرويه ويعدها من فضائل الله العظمى.

والعباره:

«وَأَكْرَمَ أَسْمَاءَهُمْ...» اقتباس من الآيه: «لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ»(١).

والعباره:

«وَصَانَ أَجْسَادَهُمْ...» إشاره إلى الآيه الشريفه: «لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَجَسٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ»(٢).

وهنا يرد هذا السؤال: ترى من هم جيران الله الذين لهم هذه الكرامات؟

فالتعبير بجيران الله يشير إلى أنهم من خواص الله ومقربيه بحيث استحقوا اسم جيران الله ويتضح من زياره الملائكه والأنبياء لهم أنهم ليسوا أنبياء ولا ملائكه، وعليه فلا بد أن يكونوا من الصديقين والشهداء والحواريين الذين تمحوروا حول الأنبياء والأولياء وأصبحوا على ما هم عليه فى ظل الورع والتقوى وتهذيب النفس ليشملوا بكل هذه العناية الإلهيه، على غرار ما قال القرآن الكريم: «وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا»(٣).

والشاهد على هذا الموضوع ما ذكره الإمام عليه السلام فى رساله ٢٧ بشأن تلك الثلثه

ص: ٨٦

١- (١) سوره الأنبياء، الآيه ١٠٢.

٢- (٢) سوره فاطر، الآيه ٣٥.

٣- (٣) سوره النساء، الآيه ٦٩.

من المتقين الذى بلغوا درجه من الورع والتقوى ومنزله رفيعه من الزهد وعدم الاعتناء بزخارف الدنيا واكتسبوا بحق اسم جيران الله.

ثم اختتم خطبته لإتمام الحجّه فقال:

«أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ، وَهُوَ حَشْبُنَا وَنَعْمَ الْوَكِيلُ!».

وعليه فقد أتمّ الحجّه عليهم من جانب ودعا لهم بالموفقيه من جانب آخر وأفصح بالتالى عن توكله على الله فى جميع الأحوال.

تأمل

طريق السير والسلوك إلى الله

لقد كشف الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه عن أروع الدروس التى يمكن أن ينطوى عليها من سلك سبيل الحقّ بغيه التريه والتهذيب كما تطرق بعبارات قصيره وعميقه المعنى إلى منهج السير والسلوك إلى الله تعالى.

فقد أثار لديهم الشعور بخشيّه الله من خلال ذكره لجانب من العذاب الأليم لنار جهنم، ثم حذرهم من أن أعمارهم وعافيتهم إنّما هى أمانه مستودعه وستعاد يوماً ما إلى صاحبها.

وعليه فلا بدّ من اغتنام الفرصه والمبادره إلى العمل كما ورد فى الحديث النبوى الشريف:

«إِغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ؛ حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سُقْمِكَ وَفِرَاعَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ وَشَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ» (١).

ثم أشار إلى العباده وتهذيب النفس فأوصى بإحياء الليل وقله الطعام وتوظيف الجوارح فى خدمه الخلق والسعى إلى الجهاد ومن ثم انفاق الأموال، وبالتالى الحد من الجسم لصالح الروح ليث الأمل فى قلوب السالكين بوعد الله من خلال استشهاده ببعض الآيات القرآنيه.

ص: ٨٧

١- (١) كنز العمال، الحديث رقم ٤٣٤٩٠؛ بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٧٥ مع اختلاف طفيف.

وأخيراً رسخ الدوافع المعنويّة عن طريق ذكر الثواب العظيم الذي ينتظرهم جوار قرب الله. نعم فقد أدى معلم الإنسانيّة العظيم وقائد الغرّ المحجلين حقّ المطلب بعبارات قصيرة واضحة في إطار تعاليم متكامله.

ص: ٨٨

قاله لِلْبُرْجِ بْنِ مُسَهْرِ الطَّائِي، وَقَدْ قَالَ لَهُ بِحَيْثُ يَسْمَعُهُ:

«لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ»، وَكَانَ مِنَ الْخَوَارِجِ (١)

نظرة إلى الخطبه

نعلم أنّ الخوارج - تلك الفئة الجاهله والمتعصبه التي ثارت على الإمام عليه السلام بعد التحكيم في صفين - وكان شعارهم

«لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ» ومرادهم عدم ضروره تعيين حكم يوم صفين، فلا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ؛ وقد استعمل هذا الشعار بصيغه منحرفه وخاطئه من قبل الخوارج، وحين رفع بُرْج بن مُسَهْر الطائى هذا الشعار عند الإمام عليه السلام، عنفه عليه السلام بكلمات لاذعه وعنيفه، حتى لا يجر واحداً غيره على رفع هذا الشعار المضل (قدمنا شرحاً وافياً بشأن هذا الشعار الذى رفعته هذه الفئة الضاله فى الخطبه ٤٠ من هذا الشرح)

ص: ٨٩

١- (١) سند الخطبه: ذكر صاحب مصادر نهج البلاغه أنّ أبا هلال العسكري ذكر هذا الكلام فى كتابه الصناعتين قبل أن يجمع المرحوم السيد الرضى نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٦١).

اسْكُتْ قَبْحَكَ اللَّهُ يَا أَثْرَمُ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ فَكُنْتُ فِيهِ ضَيْلًا شَخْصُكَ، خَفِيًّا صَوْتُكَ؛ حَتَّى إِذَا نَعَرَ الْبَاطِلُ نَجَمَتْ نُجُومَ قَرْنِ الْمَاعِزِ.

الشرح والتفسير: صه يا أحمق

فى بدايه الكلام أجبَر الإمام عليه السلام هذا الخارجى على السكوت. ثم ليعرفه جيداً الناس ذكر صفاته السيئه وسابقته البشعه، فقال:

«اسْكُتْ قَبْحَكَ اللَّهُ يَا أَثْرَمُ».

كلمه «أثرم» التى تعنى الشخص الذى ضرب على فمه وكسرت أسنانه الإماميه إشاره إلى أن فمك واسنانك تشير إلى أن مخالفيك ضربوك لأنك بذيء اللسان، إضافة إلى ذلك فإن من كسرت أسنانه الأماميه لا يستطيع أن يتكلم بطلاقه والأفضل له أن يسكت.

ثم واصل ذكر ماضيه السيء فقال:

«فَوَاللَّهِ لَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ فَكُنْتُ فِيهِ ضَيْلًا (١) شَخْصُكَ، خَفِيًّا صَوْتُكَ؛ حَتَّى إِذَا نَعَرَ الْبَاطِلُ نَجَمَتْ (٢) نُجُومَ قَرْنِ الْمَاعِزِ (٣)».

إشاره إلى أنك لم تحضر ولم تدافع عن الحق عند ظهور الإسلام حين بعثه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أو ظهور ولايه الحق لأمير المؤمنين على عليه السلام بل كنت شخصاً ضعيفاً لا يكثر لكلامك، أما الآن وقد صدع صوت الباطل فقد انضمت إليه لتطلق ذلك الشعار عن حماقه وجهل، ويتضح من خلال تأمل سوابق هذا الرجل ومن شاكلة

ص: ٩١

١- (١). «ضئيل» من ماده «ضئوله» على وزن «كهوله» تعنى النحيف المهزول.

٢- (٢) «نجمت» من ماده «نجم» بمعنى الظهور والبروز ويقال للكواكب نجوم كونها تظهر فى السماء.

٣- (٣) «ماعز»، الشاه.

العقيدة والظروف التي كانت سائده آنذاك أنّ هذه المواجهه العنيفه من قبل الإمام عليه السلام والعبارات المحقره له كانت غايه فى الحكمه، ولولا ذاك لكان يخشى انخداع الأفراد السطحين بزيف ذلك الشعار.

والخوارج فئه سطحيه متعصبه جاهله خلقت العديد من الإرباكات للمجتمع الإسلامى. كما أنّ قسوتهم وغلظتهم فاقت الوصف فى تاريخ الإسلام، ولحسن الحظ فقد تعرفت عليهم المجتمعات الإسلاميه طيله التاريخ فاقصتهم عن الساحه ولعل هنالك القليل من سليليهم والذين لا يتظاهرون وبذلك العقيدة الباطله.

تأمل

من هو بُرج بن مسهر؟

اعتبر ابن أبى الحديد برج بن مسهر أحد شعراء الخوارج الذى ينتمى إلى يعرب بن قحطان؛ إلّا أنّ البعض يعتقد أنّ برج بن مسهر الشاعر هو شخص آخر، عاش فى العهد الجاهلى (ويحتمل أنه أدرك ظهور الإسلام) وقد روى أبو تمام أبياتاً من شعره فى الحماسه(١).

وبرج بن مسهر الطائى الخارجى الذى حقره الإمام عليه السلام شخص مجهول لم يرد اسمه فى كتب الرجال المعروفه، ويؤيد ذلك عباره أمير المؤمنين عليه السلام حين خاطبه بأنك شخص ضئيل ومجهول ولا قدره لك على الكلام.

ص: ٩٢

يَحْمَدُ اللَّهَ فِيهَا وَيُثْنِي عَلَى رَسُولِهِ وَيَصِفُ خَلْقًا مِنَ الْحَيَوَانِ (١)

نظرة إلى الخطبه

تعدّ هذه الخطبه من الخطب الجامعه فى نهج البلاغه والتي تسهب فى المعارف الدينيه وتتكون فى الواقع من ستة أقسام، فى القسم الأول - وعلى غرار أغلب خطب نهج البلاغه - جرى الكلام فى حمد الله والثناء عليه وذكر أسمائه وصفاته بعبارات غايه فى الدقه والروع.

وتطرق القسم الثانى إلى رساله الرسول صلى الله عليه وآله ومشاريعه العمليه.

وركز فى القسم الثالث على خلق بعض الأحياء كنموذج حى لآيات علم الله وقدرته سيما بشأن النمل وخلق السماوات والأرض والشمس والقمر.

وخاض - فى القسم الرابع - فى نتائج ما قيل ليكشف عن عظمه الخالق التى تقف وراء هذه المشاهد العجيبه وحذر أولئك الذين يرون هذه الآيات وينكرونها عملياً.

ص: ٩٣

١- (١) سند الخطبه: ذكر هذه الخطبه جمع من الأعلام ممن عاش بعد السيد الرضى كالمرحوم الطبرسى فى الاحتجاج والزمخشري فى ربيع الأبرار بالإضافة إلى آخرين ويتضح من الاختلاف بين ما ذكره وما ذكره السيد الرضى أنهم رووها من مصدر آخر غير نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٦٧).

وتطرق فى القسم الخامس ثانىه إلى خلقه كائن عجب آخر هو الجراده وخاض فى جزئيات خلقه.

واختتم الخطبه فى القسم الأخير ليخلص فى نتيجه جامعه لينهى خطبه ببحث كلى بشأن نظام الخلق وعظمه الخالق وخضوع جميع المخلوقات لذاته القدسيه.

جدير ذكره أن تنظيم الخطب هنا يخلت فى أغلب شروح نهج البلاغه؛ فقد ذكر البعض هذه الخطبه بالرقم ٢٣١ (مثل ابن أبى الحديد وفيض الإسلام) بينما ذكروا بدلاً من هذه الخطبه التى وردت بالرقم ١٨٥ فى نسخه صبحى الصالح خطبه همام؛ والبعض بالرقم ٢٢٧ (مثل نسخه بنياد نهج البلاغه وشرح ابن ميثم).

وذكرها المرحوم الشارح الخوئى بالرقم ١٨٤؛ ولكننا - كما يعلم الإخوه القراء - نتبع نسخه صبحى الصالح.

ص: ٩٤

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ، وَلَا تَحْوِيهِ الْمَشَاهِدُ، وَلَا تَرَاهُ النَّوَظِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَابِرُ، الدَّالُّ عَلَى قَدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ، وَبِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلَى وَجُودِهِ، وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَاشَبَهُ لَهُ. الَّذِي صَدَقَ فِي مِيعَادِهِ، وَارْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ، وَقَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِهِ، وَعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ. مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَرْزَلِيَّتِهِ، وَبِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ الْعَجْزِ عَلَى قُدْرَتِهِ، وَبِمَا اضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَنَاءِ عَلَى دَوَامِهِ. وَاحِدٌ لَا يَبْعِدُ، وَدَائِمٌ لَا يَأْمِدُ، وَقَائِمٌ لَا يَبْعِدُ. تَتَلَقَّاهُ الْأَذْهَبَانُ لِابْتِمَاشِعَرِهِ، وَتَشْهَدُ لَهُ الْمَرَاثِي لِابْتِمَاحَضَرِهِ. لَمْ تُحِطْ بِهِ الْأَوْهَامُ، يَلُ تَجَلَّى لَهَا بِهَيَا، وَبِهَا امْتَنَعَ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا حَاكَمَهَا. لَيْسَ بِعِزِّ كِبَرِ امْتَدَّتْ بِهِ النَّهَائِيَاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجْسِيمًا، وَلَا بِعِزِّ عِظَمِ تَنَاهَتْ بِهِ الْغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيمًا؛ بَلْ كَبَّرَ شَأْنًا، وَعَظَّمَ سُلْطَانًا.

الشرح والتفسير: معرفه الله الحقيقيه

ما أن استهل الإمام عليه السلام الخطبه بحمد الله والثناء عليه حتى خاض في صفاته التي تنفي عنه الجسميه والحدوث والشبيه والمثيل فقال عليه السلام:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ، وَلَا تَحْوِيهِ الْمَشَاهِدُ، وَلَا تَرَاهُ النَّوَظِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَابِرُ».

فما جاء في هذه الصفات الأربع أمور تنفي أي شائبه جسميه عن الله تعالى، فلا عين تراه ولا حواس تدركه ولا مكان يحويه ولا شيء يخفيه.

«شواهد» جمع

«شاهد» بمعنى الحس و

«مشاهد» جمع

«مشهد» بمعنى

مكان الحضور والظهور.

«نَوَاطِرُ» جمع

«نَاطِرَةٌ» قوه البصره و

«سَوَاتِرُ» جمع

«سَاتِرَةٌ» بمعنى الستر وكل ما يستر الأشياء.

فالصفات المذكوره والمقتبسه فى الواقع من القرآن الكريم فى عدد من الآيات تبطل عقيدته المجسمه (الفرقه التى تقول بجسميته الله) وتكشف مدى بعد أصحابها عن التعاليم الإسلاميه.

ثم أشار عليه السلام إلى صفات أخرى ومنها صفه الأزليه وتنزيهه عن كل شبيه ومثيل فقال عليه السلام:

«الدَّالُّ عَلَى قَدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ، وَبِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلَى وَجُودِهِ، وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَأَشْبَهَ لَهُ».

تستند هذه الأدله الثلاثه إلى هذه النقطة وهى استحاله مضى سلسله العلل ومعاليل العالم إلى مالا نهايه، لأن التسلسل باطل، وعليه فحدوث الموجودات دليل على وجود العله الأنزليه والأبديّه التى ينبع وجودها من ذاتها؛ فالكل حادث وهو القديم، والكل مخلوق وهو الخالق، لأن ذاته الطاهره لا متناهيه من جميع الجهات فليس له شبيه ولا مثيل، لاستحاله وجود وجودين لا متناهيين من جميع الجهات ذلك أن كلاً منها يحد الآخر أمياً المخلوقات المحدوده من جميع الجهات بما فيها الزمان والمكان إنما تعددت أشباهها وأمثالها.

ثم تطرق عليه السلام إلى صفتين من صفات الذات وهما تعدان من صفات الفعل فقال:

«الَّذِي صَدَقَ فِي مِعَادِهِ، وَارْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ، وَقَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِهِ، وَعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ».

نعم، فليس فى وعوده غير الصدق، ذلك لأن التخلف فى الوعد إما يعزى إلى العجز أو إلى الجهل أو الحاجه (مثلاً يعد الإنسان ثم يعجز ويتخلف عمياً وعد بعد القيام به، أو يعد ثم يفهم لاحقاً ما كان ينبغى عليه أن يعد مثل ذلك أو يعد ويرى أن خلف الوعد لصالحه) ومن الطبيعى أن أياً من الصفات الثلاث؛ العجز والجهل والحاجه ليست لها من سبيل إلى الذات القدسيه ومنها يستحيل عليه خلف الوعد.

وأشار في بيانه للصفة الثانية إلى سمو مقام الله عن الظلم، وهو ذات الأمر الذي يفرزه العجز والجهل أو الحاجة.

ثم ركز عليه السلام على جانبين من جوانب عدله أحدهما في عدم التمييز والآخر العدل في القضاء والعقاب والثواب، وعليه فالعبارات الثلاث

«وَأَرْتَفَعَ عَيْنَ ظُلْمِ عِيَادِهِ» «وَقَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِهِ، «وَعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ» تشير جميعها إلى عداله الله ونفى الظلم عنه في مختلف الجوانب.

ثم تطرق عليه السلام إلى صفات أخرى من صفات الجمال والجلال فقال:

«مُسْتَشْهَدٌ بِحُدُوثِ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَرْزَلِيَّتِهِ، وَبِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ الْعَجْزِ عَلَى قُدْرَتِهِ، وَبِمَا اضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَنَاءِ عَلَى دَوَامِهِ».

فقد قال الإمام عليه السلام في العبارة الأولى: إنَّ الله قد جعل حدوث الأشياء دليل على أزلّيته، ذلك لأننا نرى في هذا العالم مجموعه من الموجودات تنتهي إلى علل سابقه بصيغه سلسله من العلل والمعاليل، فهل يمكن أن تستمر سلسله العلل والمعاليل إلى مالانهايه؟ وكلّ علّه معلوله لآخر وبعباره أخرى هل نقبل تسلسل العلّه والمعلول إلى مالانهايه؟

الجواب عن هذا السؤال بالسلب قطعاً، لأنّ مفهوم ذلك أنّ المالانهايه تتطلب التبدل إلى موجود غني، أو بتعبير آخر تتبدل مالانهايه الصفر إلى عدد، وعليه فإننا ندرّك من حدوث الأشياء وجوداً أزلياً ووجوده من ذاته وهو واجب الوجود.

وأشار في العبارة الثانية إلى حقيقه هي أنّ في جبين كلّ موجود علامه على العجز، فالأعمار والقدرات والاستعدادات كلّها محدوده، وهذا العجز يكشف أنّ وراءها يد القدره المطلقه التي أفاضت القدره على كلّ شيء بالمقدار الذي تطلّبتّه حكمته.

وجرى الحديث في العبارة الثالثه عن فناء الكائنات، وهو الفناء الذي يسير طواعيه وقد كمن لها الموت بالمرصاد شئت أم أبت، ومن الواضح أنّ هذه الكائنات الفانيه ليست خالقه لنفسها كما أنّ وجودها لا ينبع من ذاتها وإلّا لما آلت إلى الفناء،

وعليه فهناك قدره تفوقها أزليته وأبديته والكلّ مستند في وجوده إلى الذات المقدّسه، والذي نود بيانه هنا أنّه ما الفارق بين العبارة

«مُسْتَشْهَدٌ بِحُدُوثِ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَزَلِّيَّتِهِ» والعبارة السابقه

«الدَّالُّ عَلَى قِدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ؟» فهل العبارةتان تفيدان اثبات أزليه الله عن طريق حدوث الموجودات؛ أي أنّها صفة وضحت بعبارتين أم أنّ لكلّ منهما مفهوماً مستقلاً؟ طبعاً فصاحه وبلاغه الإمام عليه السلام تستلزم أن تختزن كلّ عبارة مفهوماً جديداً.

فلا- يستبعد أن تكون العبارة السابقه إشاره إلى الدلالة التكوينيّة والعبارة الأخيره إشاره إلى الدلالة التشريعيّة، أي كما يدلّ حدوث الموجودات على أزليته الله بلسان التكوين ففي الآيات القرآنيّة وروايات المعصومين وردت مثل هذه الاستدلالات بعبارات مختلفه.

قال القرآن الكريم: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» (١).

وقال في موضع آخر: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ» (٢).

فالآيه في الواقع إشاره لبرهان العليه الذي جاء في الفلسفه لاثبات وجود الله وهو أنّ العالم الذي نعيش فيه حادث لا شك، فهل وجد هذا الحادث بدون علّه أم أنّه علّه لنفسه أم أنّه معلول لعله أخرى معلوله لعله أخرى أو مخلوق لله تعالى واجب الوجود؟ الذي وجوده في ذراته ولا يبقى سوى الاحتمال الرابع بعد الإلتفات إلى بطلان الاحتمالات الثلاثة الأولى.

ثم ذكر الإمام عليه السلام ثلاث صفات أخرى من صفات الله تعالى فقال:

«وَاحِدٌ لِّابْعَدَدٍ، وَدَائِمٌ لِّابْتِمَادٍ، وَقَائِمٌ لِّابِعَمَدٍ».

والمراد من الواحد العددي الأشياء التي لها شبيه ومثيل وثاني وثالث ولكن لم يوجد إلّما فرد منها؛ كالشمس في المنظومه الشمسيه فهي واحده فقط لا غير ولكن لها ثان.

ص: ٩٨

١- (١). سورة الرحمن، الآيتان ٢٦ و ٢٧.

٢- (٢) سورة طور، الآيه ٣٥.

فهذا المعنى لا- يصح بالنسبة لله تعالى؛ لأنَّ وجوده لا متناهٍ من جميع الجهات ويستحيل عليه التعدد، ولذلك فوحده الذات القدسيه ليست وحده عدديه، بل بمعنى انعدام الشبيه والنظير والمثيل لها، وهو ذات المعنى الوارد في سورة التوحيد: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ»^(١).

وبعبارة أخرى يمكن التعدد في الواحد العددي؛ لكنه يستحيل في الواحد الذاتي.

وأشار في العبارة الثانية

«دَائِمٌ لَأَبَآمِد» إلى أنَّ دوام وجوده سبحانه ليس بدوام زماني لأنَّ ذاته القدسيه تفوق الزمان والمكان بل المراد منه الدوام الذاتي.

ومفهوم العبارة

«فَإِنَّكُمْ لَأَبَآمِد» أنَّ قيامه بذاته؛ لا- بمساعدته الآخر وبعبارة أخرى فإنَّ القيام ذو مفهوم مادي وهو وقوف الشيء على قدميه أو بالاستعانة بعمود، كما له مفهوم يفوق المادة وهو أنَّه وجود مدير ومدبر لعالم الوجود ودون الاستناد إلى شيء آخر وهذا هو معنى قائميه الله تعالى.

بعبارة أخرى فإنَّ جميع الموجودات تعتمد على ذاته القدسيه وهو قائم بهذه الذات.

ثم بلغ كلام الإمام عليه السلام ذروته ليخوض في تلك الذات المطلقة إلى الحد الذي يسعه الفكر البشري فشرح الذات المقدسه بأسلوب رائع ضمن عبارة قصيره وعميقه المعنى بما يبعدها عن التشبيه ولا ينتهي إلى تعطيل المعرفه فقال:

«تَلَقَّاهُ الْأَذْهَانُ لَأَبْمَشَاعَرِهِ^(٢)، وَتَشْهَدُ لَهُ الْمَرَائِي^(٣) لَأَبْمَحَاضَرِهِ^(٤)».

ص: ٩٩

١- (١) أشرنا في شرحنا للخطبه ٦٥ في الجزء الثالث من هذا الشرح إلى حديث عميق المعنى والذي بيته أمير المؤمنين عليه السلام في رده على السائل الذي سأله عن وحدانيه الله تعالى، فذكر عليه السلام للواحد أربعة معانٍ يستحيل اثنان منهما على الله بينما يصح الآخران (راجع نفحات الولاية، ج ٣، ص ٤١).

٢- (٢) «مشاعره» تعني الإدراك بواسطه الحواس ومادته شعور بمعنى الاحساس.

٣- (٣) «مرائي» جمع مرءاء تطلق أحياناً على العين حيث تنعكس فيها صور الموجودات.

٤- (٤) «محاضره» بمعنى الحضور والمجالسه.

دليل واضح إشاره إلى أنّ آثار عظمته وقدرته وعلمه وحكمته التي ملأت العالم على وجوده؛ الوجود الكائن خلف حجب الغيب وما وراء الطبيعه وجعل كلّ شيء تجلياً لعلمه وقدرته.

وقال في مواصلته لكلامه عليه السلام:

«لَمْ تُحِطْ بِهِ الْأَوْهَامُ (١) ، بَلْ تَجَلَّى لَهَا (٢) بِهَا، وَبِهَا امْتَنَعَ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا حَاكَمَهَا».

فالإمام عليه السلام طبق ما ورد أبطل مذهب التعطيل إلى جانب نفى التشبيه؛ أي أنّه حذر من مغبه خطأ أولئك الذين يزعمون أنّهم لا يفهمون من صفات الله تعالى سوى صفاته السلبيّه، إلى جانب أولئك الذين هبطوا بالله تعالى إلى درجه الممكنات فقالوا: له صفات محدوده وممكنه، فقد تحدّث من جانب عن تلقى الأذهان وتجلي الصفات ومن جانب آخر عن عدم احاطه الأفكار بالذات القدسيّه وصفاتها وينتج من ذلك أنّ لدينا علماً إجمالياً بالنسبه لذاته وصفاته سبحانه رغم عجزنا عن الاستغراق في تفاصيلها وجزئياتها.

ثم قال عليه السلام:

«لَيْسَ بِذِي كِبَرٍ امْتَدَّتْ بِهِ النَّهَائِيَّاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجَسُّيماً، وَلَا بِذِي عِظَمٍ تَنَاهَتْ بِهِ الْغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجَسُّيداً؛ بَلْ كَبَّرَ شَأْنًا، وَعَظَّمَ سُلْطَانًا».

إشاره إلى أننا حين نقول:

«الله أكبر» إنّما يقتدح أحياناً إلى ذهن الأفراد غير المطلعين إلى أنّ أبعاده الوجوديه ملأت شرق العالم وغربه وشماله وجنوبه، وحين نقول:

«الله عظيم» يتصورون أنّه كذلك بالنسبه لسائر الموجودات كالجبال والبحار والسموات، والحال ليس لكبره وعظمته من بعد جسمي، بل كبره وعظمته معنوي،

ص: ١٠٠

١- (١). «أوهام» جمع «وهم» على وزن «فهم» تعني لغوياً ما يخطر على القلب ولكن تشير القرائن إلّا أنّها وردت في هذه الخطبه وسائر الخطب بمعنى الأفكار الخياليه.

٢- (٢) «تجلى لها» تعود الضمائر الست في هذه العبارة والعبارتين التاليتين إلى الأوهام ومفهومها في العبارة الأولى أنّ الله تعالى تجلى للعقول عن طريق الإدراكات العقليه وللأنظمة التي يراها العقل في عالم الخلقه وسلم عن طريق الإدراك العقلي باستحاله إدراك ذاته على العقول. وحوكم العقل بادعائه درك كنه ذاته من قبل العقل نفسه (عليك بالدقه). أمّا ما ذكره البعض من احتمالات أخرى لعوده الضمائر فلا يبدو صحيحاً.

لأنه إن كان الله جسماً كبيراً لاشتمل حتماً على أجزاء ونهايه وزمان ومكان بينما هو أسمى وأرفع من كل ذلك ويالها من كلمات رائعة تلك التي ساقها الإمام الصادق عليه السلام لذلك الشخص الذي قال عنده: الله أكبر، فسأله عليه السلام:

«أَكْبَرُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ؟»، قال:

«مِنْ كُلِّ شَيْءٍ».

فأشار عليه الإمام عليه السلام:

«بِأَنَّكَ جَعَلْتَ لَهُ حُدُوداً فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ». فقال الشخص فماذا أقول: قال عليه السلام: قل:

«اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُوصَفَ»^(١).

إشاره إلى أننا لا نعدو صفات مخلوقاته في كل صفة نطبقها عليه ذلك لأن فكرنا محدود في الاستيعاب، وعليه فهو أسمى من كل الصفات وهذا ما أكدته القرآن الكريم بقوله: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ»^(٢). (الذين يصفونه بما يليق به).

ص: ١٠١

١- (١) الكافي، ج ١، ص ١١٧، ح ٨.

٢- (٢). سورة الصافات، الآيتان ١٥٩ و ١٦٠.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الصَّفِيُّ، وَأَمِينُهُ الرَّضِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِوُجُوبِ الْحُجَّجِ، وَظُهُورِ الْفَلَجِ، وَإِضَاحِ الْمُنْهَجِ؛ فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ صَادِعًا بِهَا، وَحَمَلَ عَلَى الْمَحَجَّةِ دَالًّا عَلَيْهَا، وَأَقَامَ أَعْلَامَ الْإِهْتِدَاءِ وَمَنَارَ الضِّيَاءِ، وَجَعَلَ أَمْرَاسَ الْأَسْئِلَامِ مَتِينَةً، وَعُرَى الْإِيمَانِ وَثِيقَةً.

الشرح والتفسير: الأبعاد الوجودية للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام من بيان صفات الجمال والجلال خاض في الأصل الثاني للدين أى الشهادة بنبوه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله فوصفه بتلك الصفات التى تكشف عن أبعاده الوجودية كافة فقال:

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الصَّفِيُّ، وَأَمِينُهُ الرَّضِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ -».

حقاً إنَّ الله تعالى إن اصطفى شخصاً واعتبره أميناً وارتضاه من خلقه فذلك لكمال إخلاصه وطهارته على جميع المستويات، فهذه العبارات إشاره إلى عصمه النبى صلى الله عليه وآله من الذنب والخطأ.

ثم خاض عليه السلام فى الأهداف المتوخاه من بعثته صلى الله عليه وآله وتعاليمه فقال:

«أَرْسَلَهُ بِوُجُوبِ الْحُجَّجِ، وَظُهُورِ الْفَلَجِ (١)، وَإِضَاحِ الْمُنْهَجِ».

وهكذا بين الإمام عليه السلام من خلال هذه العبارات الثلاث أهداف البعثة التى تتمثل فى إتمام الحجّه وانتصار الحق على الباطل وايضاح سبيل السعاده. آنذاك تناول

المهام العمليّة للنبي صلى الله عليه وآله فقال:

«فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ صَادِعًا (١) بِهَيَا، وَحَمَلَ عَلَى الْمَحَجَّةِ دَالًّا عَلَيْهَا، وَأَقَامَ أَعْلَامَ الْإِهْتِدَاءِ وَمَنَارَ الضِّيَاءِ، وَجَعَلَ أَمْرَاسَ (٢) الْإِسْلَامِ مَتِينَةً، وَعُزَى (٣) الْإِيمَانِ وَثِيقَةً».

فقد ورد الحديث بادئ الأمر عن الخوض في إبلاغ الرسالة بصورة كليه على غرار ما ورد في القرآن الكريم: «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ» (٤).

ثم خاض في الجزئيات في أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله دعا الناس إلى جاده الصواب وعرض لهم علامات لسير على هذا النهج ونصب لهم مصابيح الهدى حتى لا يضلوا الطريق في ظلمه الليل ولا يتخلفوا عن مواصلة السير، وبالتالي رسخ أسس الإسلام وشدّ عرى الإيمان بشرح وافٍ وتديير محكم.

وقلّما نجد كلاماً يستعرض هذا المطلب بشأن أهداف النبي صلى الله عليه وآله وخططه في الدعوه بهذه العبارة القصيره والعميقه.

العبارة:

«جَعَلَ أَمْرَاسَ الْإِسْلَامِ مَتِينَةً» كأنّه شبه الإسلام بالخيمه التي شدّت بحبال متينه من كلّ جانب إلى الأرض لتحول دون إقتلاعها من قبل العواصف وليست هذه الحبال سوى بعض الأمور من قبيل الجمعه والجماعه والحج والزكاه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد التي حفظت على الدوام بيضه الإسلام وذاادت عن كيانه، فالإسلام بخير ما طبقت هذه التعليمات الإسلاميه فإنّ ضعفت هيمن الأعداء على المسلمين.

والعبارة:

«وَعُزَى الْإِيمَانِ وَثِيقَةً» شبهت الإيمان بحبل له عدّه عقد لابدّ من التمسك بها للنجاه من قعر البئر أو الخلاص من المطبات، ومن الطبيعي أنّ هذه العقد

ص: ١٠٤

١- (١). «صادع» من ماده «صدع» على وزن «صبر» تعنى فى الأصل الشقّ ولما كان شق الأرض يدعو إلى ظهور النباتات فإنّ الصدع يستبطن معنى الظهور والجهر.

٢- (٢). «أمراس» جمع «مرس» على وزن «مرض» يعنى الحبل.

٣- (٣) «عرى» جمع «عروه» بمعنى العقده.

٤- (٤) سورة الحجر، الآيه ٩٤.

إن كانت ضعيفه وخاويه فلا- يتعذر على الإنسان النجاه فحسب بل يشرف على سقوط خطير فهذه العقده هي فروع الإسلام وتعليماته في مختلف مشاريعه العباديه والاجتماعيه التي صرحت بها الأخبار والروايات، ومن ذلك ما ورد في الحديث النبوى الشريف أنه صلى الله عليه و آله سأل أصحابه يوماً:

«أَيُّ عُرَى الْإِيمَانِ أَوْثَقُ؟» قالوا: «اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ؟» وذكر البعض الصلاة أو الزكاه و... فقال صلى الله عليه و آله:

«بَلَى فِي ذَلِكَ فَضْلٌ، وَلَكِنْ أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالتَّبَعُضُ فِي اللَّهِ وَتَوَلَّى أَوْلِيَاءَ اللَّهِ وَالتَّبَرَى مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ»(١).

طبعاً يمكن أن تكون المفاهيم الأخلاقيه التي أشارت إليها الروايات من قبيل التوكل والتفويض والتسليم والرضا والصبر واليقين وما شابه ذلك من عرى الإيمان وليست هنالك أى منافاه مع بعضها البعض الآخر.

ص: ١٠٥

١- (١) الكافي، ج ٢، ص ١٢٦، ح ٦.

وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ، وَجَسِيمِ النُّعْمَةِ، لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ، وَخَافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ، وَلَكِنَّ الْقُلُوبَ عَلَيْهِ، وَالْبَصَائِرُ مَدْخُولَةٌ! أَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى صِيٍّ غَيْرِ مَا خَلَقَ، كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ، وَأَتَقَنَ تَرْكِيبَهُ، وَفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصِيرَ، وَسَوَّى لَهُ الْعَظْمَ وَالْبَشِيرَ! انظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ فِي صِيٍّ غَيْرِ جُجَّتِهَا، وَلَطَافِهِ هَيْئَتِهَا، لَاتَكَادُ تُنَالُ بِلِحْظِ الْبَصْرِ، وَلَا بِمُسْتَدْرَكِ الْفِكْرِ، كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا، وَصَبَّتْ عَلَى رِزْقِهَا، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى جُجْرِهَا، وَتُعْتَدُّهَا فِي مُسَيِّتِهَا. تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبُرْدِهَا، وَفِي وَرْدِهَا لِصِدْرِهَا؛ مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا، مَرْزُوقَةٌ بِوَفْقِهَا؛ لَا يُعْفَلُهَا الْمَنَانُ، وَلَا يَحْرِمُهَا الدِّيَانُ، وَلَوْ فِي الصَّفَا أَلْيَاسِ، وَالْحَجَرِ الْخَامِسِ! وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي مَحَارِي أَكْلِهَا، فِي غُلُوبِهَا وَسُفْلِهَا، وَمَا فِي الْجُوفِ مِنْ شَرَّاسِيْفِ بَطْنِهَا، وَمَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذُنِهَا، لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَبًا، وَلَقَيْتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَبًا! فَتَعَالَى الَّذِي أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا، وَبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا! لَمْ يَشْرِكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ، وَلَمْ يُعْنَهُ عَلَى خَلْقِهَا قَادِرٌ. وَلَوْ ضَرَبْتَ فِي مَيَازِينِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ، مَا دَلَّتْكَ الدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ النَّخْلَةِ، لِإِدْقِيقِ تَفْصِيْلِ كُلِّ شَيْءٍ، وَغَامِضِ اخْتِلَافِ كُلِّ حَيْءٍ. وَمَا الْجَلِيلُ وَاللَّطِيفُ، وَالثَّقِيلُ وَالْخَفِيفُ، وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ، فِي خَلْقِهِ إِلَّا سَوَاءً.

الشرح والتفسير: قدرته المطلقة في خلق الكائنات

عاد الإمام عليه السلام ثانيه إلى موضوع معرفه الله الذي استهل به خطبته وعرج فيها

على معرفه النبي صلى الله عليه وآله ليخوض هنا في أدله اثبات وجود الله وعلمه وقدرته المطلقة، فحذر أولئك الذين ضلوا الطريق فقال:

«وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ، وَجَسِيمِ النُّعْمَةِ، لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ، وَخَافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ».

إشاره إلى أمرين: أنه لو استعمل الفكر لا تضح آثاره عاجلاً على أعمال الإنسان؛ الأول التفكير في عظمه قدره الله الذي خلق النجوم السماوية العظيمة ومليارات الكواكب في المجرة ومئات الملايين من المجرات بحيث لم يتضح لأحد سعه ملكه وعظمته، وكل ما نوره بشأن عظمه العالم إنما يقتصر على الأشياء التي لا تتجاوز دائره علمنا القاصر، ولعل كل ذلك لا يعدو ورقه شجره بلغت عنان السماء في وسط غابه كثيفه، فالتفكير بهذا الشأن يجعل الإنسان خاضعاً لهذه القدره فيقبل على الله ويتعلق به قلبه فينير باسمه وذكره حياته.

والآخر التفكير في النعم كونها مألوت وجودنا وهي متصله منذ لحظه انعقاد النطفه حتى ختام العمر؛ فقد سخر لنا لشمس والقمر والسماوات والأرض ومنحنا التصرف في السحب والرياح والأمطار، فقد بسط نعمته في كل مكان وجعل الجميع يتغذى على رزقه، والحق أن شكر النعمه المودع في فطره كل إنسان يسوقه إلى معرفه المنعم.

ثم تساءل عليه السلام ترى ما العامل الذي يصد الإنسان عن السبيل ويسوقه إلى العذاب الأليم مع وجود كل هذه الدوافع القويه؟ فقال:

«وَلَكِنَّ الْقُلُوبَ عَلِيلَةً، وَالْبَصَائِرَ مَدْخُولَةً!»^(١).

فقد أشار الإمام عليه السلام هنا إلى سببين رئيسيين، لأن المراد من القلوب العقول التي تعطل عن المعرفه أثر الهوى والهوس وسائر الآفات، والمراد من البصائر عيون البصيره التي تطرح عليها حجب المعصيه والتعصب وحب الذات.

وبالطبع فإن هذه الأمور طارئه على أصل الخلقه بل الغفله والهوى والهوس

ص: ١٠٨

١- (١) «مدخوله» من ماده «دخل» على وزن «دغل» بمعنى الفساد.

والشهوة هي التي قادت إلى ذلك، فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارة القصيره إلى موانع المعرفة والتي أفصح عنها القرآن الكريم بقوله: «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (١).

وقوله: «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً» (٢).

كما تضمنت العديد من الآيات القرآنية دعوه الجميع إلى تأمل أسرار الخلق والتفكر في قدره الله ونعمه عليهم يعودون عن هذا الطريق إلى جاده الصواب.

ثم ركز الإمام عليه السلام على بعض الكائنات العجيبه في هذا العالم بعد فراغه من بيان أسرار الخليقه بصوره كليه فقال:

«أَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرٍ مَّا خَلَقَ، كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ، وَأَتَقَنَ تَرْكِيْبَهُ، وَفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ، وَسَوَّى (٣) لَهُ الْعِظْمَ وَالْبَشْرَ! (٤)».

حيث أشار الإمام عليه السلام إلى سته أمور بشأن الحيوانات والحشرات الغايه في الصغر؛ الخلق المحكم، التركيب الصحيح، الإشتمال على الأذن والعين، والنظام الخاص في العظام والجلد، نعم فهذه الحشرات تتمتع بالأعضاء والوسائل كافه التي تحتاجها رغم صغرها فقد أفاض الله عليها بقدر جسمها وحاجتها ما أفاضه على بعض الحيوانات العظيمة كالفيل والجمل وبالطبع يبدو خلق هذه الكائنات الصغيره أعظم من تلك الكبيره لما فيها من دقه وظرافه عجيبه.

ثم خاض الإمام عليه السلام في مرحله أدق في تفاصيل مخلوقين صغيرين غالباً ما لا يكثر الإنسان لخلقتهم بعبارات رائعه، فقال بادئ الأمر بشأن النمله:

«انظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا، وَلَطَافِهِ هَيْئَتِهَا، لَاتَكَادُ تُنَالُ بِلِحْظِ الْبَصْرِ، وَلَا بِمُشْتَدِّكِ الْفِكْرِ».

ص: ١٠٩

١- (١) سورة المطففين، الآية ١٤.

٢- (٢) سورة الجاثية، الآية ٢٣.

٣- (٣) «سوى» من ماده «تسويه» بمعنى التنظيم والترتيب.

٤- (٤) «بشر» جمع «بشره» بمعنى ظاهر جلد البدن وتأتى بمعنى الإنسان.

ثم قال عليه السلام:

«كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا، وَصِيَّبَتْ عَلَى رِزْقِهَا، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى حُجْرِهَا، وَتُعِدُّهَا فِي مُسَدِّتَقَرِّهَا. تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبُرْدِهَا، وَفِي وَرْدِهَا (١) لَصَدْرِهَا (٢)».

نعم، فهذا المخلوق الضعيف على درجه من الفطنه بحيث يعرف كيف يمارس حياته، فهو يتجول بهذه اليد والرجل الصغيره فى الجبل والصحراء ويتسلق الأشجار ويختار ذلك النوع من الطعام من بين مختلف الأَطعمه والذى ينسجم مع طبيعته ومزاجه ويجلب إلى عشه الحبوب من الطرق القريبه والبعيده فهو يختار حتى هذه الحبوب ويسلك بعض الطرق المتشعبه فى عشه كى لا يخلق بعض المتاعب لسائر جنسه فى الحركه والعبور ثم يضع هذه الحبوب فى مكان معين بغيه الحيلوله دون فسادها، ويعمد فى فصل الصيف بإلهام ذاتى ودون أن يرى فصل الشتاء - أى ولد فى تلك السنه - لادّخار بعض الحبوب والمواد الغذائيه التى يحتاجها فى المستقبل خشيه هطول الأمطار وتعذر الحركه فى فصل الشتاء فيلتقط ما يعينه على قضاء تلك المدّه.

ثم قال عليه السلام:

«مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا، مَرْزُوقَةٌ بِوَفْقِهَا؛ لَا يَغْفُلُهَا الْمَنَّانُ، وَلَا يَحْرِمُهَا الدَّيَّانُ (٣)، وَلَوْ فِى الصُّفَا (٤) الْيَابِسِ، وَالْحَجَرِ الْجَامِسِ! (٥)».

أشار إلى أن الله سبحانه وتعالى قد عمّ لطفه هذه الموجودات الصغيره التى تعيش فى الجبال والصحارى والسهول فزودها بالطعام الذى يلائم طبيعتها وقد وفر لها ما تحتاجه من غذاء ورطوبه لازمه عن طريق الهواء حتى وإن كانت تعيش فى جوف صخره صماء، والهمها قدره التزود بالطعام لتلك التى تفتقد فيها هذه القدره وهذا حقاً ما يذهل العقول.

ص: ١١٠

١- (١) «الورد» بمعنى العطش وهنا كناية عن القدره.

٢- (٢) «صدر» الرجوع بعد الورود وهى هنا كناية عن العجز والفقدان.

٣- (٣) «ديان» بمعنى المفيد والحاكم والمدبر.

٤- (٤) «صفا» بمعنى الحجر الأملس لا شقوق فيه.

٥- (٥) «جامس» جامد.

هل تدري هذه الحشرة أنه يتعذر عليها الخروج من عشها في بعض أيام الشتاء؟ وهل تفهم المقدار الذى تحتاجه من المواد الغذائية فى تلك المدّة؟ وهل تعى طبيعه المواد التى يمكن أن تبقى سالمه أو فاسده خلال هذه المدّة؟ وهل تعلم أين هذه المواد وكيف يجب عليها الحصول عليها؟

نعم، إنها تعرف كل ذلك بعد أن علمها خلقها.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى البنيه العجيبه لهذا المخلوق الحى الصغير فقال:

«وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أَكْلِهَا، فِي عُلوِّهَا وَسُفْلِهَا، وَمَا فِي الْجَوْفِ مِنْ شَرَّاسِيفٍ (١) بَطْنِهَا، وَمَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذُنِهَا، لَفَضَّيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَبًا، وَلَقَيْتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَبًا!».

إشاره إلى أنّ الإنسان لو تأمل خلق هذا الموجود الصغير الذى لا يرى بسهولة لرآى عالمًا عجيبًا حقًا فذلك الرأس الغايه فى الصغر يضم العين والأذن والفم وقرنان كأنهما هوائيان تستفيد منهما فى الإرتباط بالعالم الخارجى وتحوى بطنها شىء أشبه بالمعدة والأمعاء واحاطت به أضلاع غايه فى الصغر والدقه كما لها أعصاب وعضلات ظريفه تتناسب مع حاجتها ويتولى دماغها الصغير إدامه حياتها المعقده، ولأرجلها مفاصل مختلفه ولكل مفصل وظيفه معينه على غرار مفاصل الحيوانات الكبرى.

ثم خلس الإمام عليه السلام ممّا سبق إلى هذه النتيجة فقال:

«فَتَعَالَى الَّذِى أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا، وَبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا! لَمْ يُشْرِكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ، وَلَمْ يُعْنَهُ عَلَى خَلْقِهَا قَادِرٌ».

فقد لفت الإمام عليه السلام فى هذه العبارة انتباه الجميع إلى موضوعين:

وهو أنّ الله سبحانه وتعالى خلق هذا الجسد الظريف على يد ورجل ظريفه تستطيع حمله بل أحيانًا تحمل حملًا ثقيلًا يفوق دفعه أضعاف وزنها، والغريب أنّها

ص: ١١١

١- (١). «شراسيف» جمع «شُرُوف» بمعنى الاضلاع التى تشرف على البطن.

تتسلق الحائط الأملس بهذا الحمل وتلتصق أحياناً بالسقف وتواصل طريقها وهو العمل الذى يتعذر على أى إنسان بطل القيام به، أضف إلى ذلك فقد خلق لها جهازاً عظيماً يناسب طبيعتها والذى عبّر عنه الإمام عليه السلام بالدعائم، وهذا الجهاز ليس ثقيلاً بحيث يحدّ من حركتها ولا خفيفاً وظريفاً إلى الدرجة التى لا تستطيع حفظ حياتها وما بجوفها.

ثم أشار عليه السلام إلى نقطه مهمّة أخرى فقال:

«وَلَوْ صَرَبْتَ فِي مَيَدَاهِ بِفِكْرِكَ لَتَبْلُغَ غَايَاتِهِ، مَا دَلَّتْكَ الدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلِ هُوَ فَاطِرُ النَّخْلِ، لِذَقِيقِ تَفْصِيْلِ كُلِّ شَيْءٍ، وَغَامِضِ اخْتِلَافِ كُلِّ حَيٍّ».

أى لا تعتقدوا أنّ بنيه كائن كبير كالنخلة الضخمه أعقد من بنيه موجود صغير كالنملة، لأنكم إن نظرتم بدقّه فإنّ لكليهما بنيه غايه فى التعقيد والدقّه وتحكم كلّ منهما قوانين معينه وتبدو عليهما الهدايه الإلهيه منذ الولاده حتى الممات بالإضافة إلى أنّ لتلك الشجره الكبيره أعضاء مختلفه صغيره وكبيره وقويه وضعيفه بحيث يؤدّى كلّ منهما وظيفه معينه تتناسب معه (وعلى هذا الضوء تتضح علاقه العله والمعلول فى العبارات المذكوره).

وزبدته الكلام إنّ الإنسان يرى أحياناً آثاراً مختلفه من حيث الصغر والكبر لصانع اساعه التى لا يعدو حجمها ساتيماً واحداً وأخرى التى تبلغ بضعه أمتار، أو كتاب من بضع صفحات وآخر ذو عشره أجزاء، فإنّ الإنسان حين يقارنها مع بعضها ويرى وحده الأصول الكليه السائده فيها ويقف على انسجام الآداب التى ضمها ذلك الكتاب الصغير وذلك الكبير يفهم أنّ هذين الأثرين يعودان إلى مصدر واحد وأنّ الذى أبدعهما واحد أيضاً.

ثم أشار عليه السلام إلى نقطه مهمّة أخرى لمواصله كلامه السابق فقال:

«وَمَا الْجَلِيلُ وَاللَّطِيفُ، وَالثَّقِيلُ وَالْخَفِيفُ، وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ، فِي خَلْقِهِ إِلَّا سَوَاءً».

إشاره إلى أنّ الصغير والكبير والبسيط والمعقد إنّما يتصور بالنسبه لموجود

محدود القدره ويمتنع عليه ما كان خارجاً عن استعداده ويصعب عليه ما كان بمنتهى استعداده ويسهل عليه ما كان دون قدرته، أمّا الله تبارك وتعالى اللامتناهى القدره فالجميع لديه على حد سواء، فلا فرق عنده بين تسيير المنظومه الشمسيه وتسيير ذره من الغبار، وخلق نمله غايه فى الصغر مع خلق شجره غايه فى الضخامه.

وحمل حبه قمح بالنسبه لنمله يفرق عما عليه فى حمل حبتين، فلعل حملها للأولى يبدو سهلاً بينما يشقّ عليها حمل الثانيه والحال لا نشعر نحن البشر بأدنى فارق بين الحالتين.

كما أننا نستطيع فى تصوراتنا الذهنيه أن نتصور قطره ماء كما نستطيع بنفس البساطه تصور بحر متلاطم من المياه.

لعل هذه الأمثله تستطع إيضاح عمق البحث الذى ذكرناه بشأن قدرته المطلقه سبحانه.

تأمل

حياه النمل العجيبه

رغم أنّ طبيعه النمل بفعل كثرتها وتنوعها وتواجدها فى الجبال والصحراء وداخل البيوت بحيث لا تحضى باهتمام عامه الناس، لكنها تبدو عجيبه للغاية بالنسبه للعلماء الذين فكروا لأكثر من عقدين بشأن حياتها فالدراسات التى أجريت بشأن أسرار خلقه هذه الكائنات فتحت الباب على مصراعيه أمام الوقوف على عظمه الخالق ونشير هنا إلى جانب من تلك الدراسات:

١. إنّ الحيوانات والحشرات التى تعيش بصوره جماعيه ليست بالقليله من قبيل:

الطيور والأسماك والغزلان بينما قليله هى الحيوانات التى تستند حياتها الجماعيه على أساس تقسيم الوظائف والأعمال وأبرزها النمل فلإنّث النمل وظيفه جمع

الطعام وحفظ الفراخ وحتى حراسه ملكه النمل فى عشها، ووظيفه الذكور تلقيح الملكه كما أن وظيفه الملكه وضع البيوض، والغريب فى الأمر أن الذكور تموت بعد التلقيح، وهنالك طائفه منها تبدو كمجموعه مسلحه لها مجسات قويه تنبرى للدفاع بها عن نفسها وصد هجمات الأعداء على لاعشاش.

٢. تقوم العاملات بوظيفه ثقب الأرض وايجاد حفرة بالتدريج لتوفر لبقيتها الحياه تحت سطح الأرض إلّا أن جميع النمل لا يعيش تحت الأرض فهنالك طائفه منها التى يطلق عليها «النجاره» تعتمد إلى ثقب الأخشاب لتصنع أعشاشها بداخلها

٣. تملك النمله - على الرغم من صغرها ودقّه هيكلاها - جميع الأجهزه التى يملكها الحيوان الكبير بل لديها ما يفوق تلك الحيوانات من قبيل: الأرجل الإضافيه والمجسات التى تمكنها من التعرف على الوسط الذى تعيش فيه.

٤. هناك نوع من النمل يتعدى على بعض الأحياء ومن ذلك النمل المعروف بالحنطى والذى يخدمه البرغوث النباتى، فهذه الحشرات تفرز سائلاً حلواً كالعسل يتغذى عليه النمل، كما يستفيد سائر النمل من بعض الحشرات التى تضع بيوضها على قشور الأشجار.

٥. إذا لا يعترىكم العجب فإنّ بعض النمل يمارس الزراعه، فهناك نوع من النمل يدعى المظلى حيث يرتب مزرعه صغيره حول أعشاشها ويزرعها بالفطريات الصغيره وتقوم العاملات بفصل قطع صغيره من الأوراق وتضعها على رأسها فتبدو وكأنها مظلله وهذا سبب التسميه.

٦. هنالك نوع من النمل يدعى بالحرس الذى يتنقل كالبدو من مكان إلى آخر، وهو فى الواقع حشرات مفترسه تتجنبها حتى الفيله وإلّا كبدتها خسائر جسيمه، وطائفه من هذه الحشرات التى تعيش فى المناطق الحاره تأكل اللحوم، فإن هاجمت حيواناً افترسته ونهشت لحمه وعضلاته ولا تبقى منه سوى العظام وخلال مدّه وجيزه.

٧. للنمل عادة رأس كبير وخصر نحيف وجثته قويه فهي قادره على حمل الحبوب التي تعادل بضعه أضعاف وزنها وتتسلق الجدران التي لا يقوى على تسلقها الأبطال من حملة الأثقال، نعم فالنملة وخلافاً لجثتها الصغيره تحمل ما يبلغ عشره أضعاف وزنها وتنقله من مكان لآخر.

٨. نظره النملة للمستقبل وإدارتها رائعه جداً، فهي تفكر في الصيف بمؤونه الشتاء والحال ربّما لم تكن شاهدت الشتاء طيله عمرها، فتلتقط الحبوب وتخرجها أحياناً من عشّها لكي لا تفسد، وأحياناً أخرى تشطرها نصفين حتى لا تخضر وتنمو.

٩. للنمل خبره عجيبه بالمكان فقد ذكر العلماء أنّهم جعلوا نملة وسط دائره من النار فحاولت الخروج ولم تستطع حتى ماتت وكان ذلك في مركز الدائره، أي أبعد نقطه عن النار.

١٠. ذكر العلماء أنّ النمل أنواع ربّما يتجاوز الأربعة آلاف وأنّ عدده على الأرض عشره أضعاف عدد الناس، وتفيد المطالعات الحديثه أنّ النمل سبق الإنسان في التغلب على مشكله الازدحام، فملايين النمل تتخذ أقصر الطرق لتبلغ مقصدها بأسرع وقت ودون أي تأخير.

إنّ عجائب عالم النمل ليفوق ما ذكرناه وقد سطرت العديد من المقالات والكتب بهذا الشأن، ومن هنا تتضح أهميته المسأله التي ركز عليها الإمام عليه السلام في هذه الخطبه من شرحه لخلق الله سبحانه(١).

ص: ١١٥

١- (١) راجع دائره المعارف لموريس باركر وحياه الحيوان للدميري.

وَكَذَلِكَ السَّمَاءُ وَالْهَوَاءُ، وَالرِّيَّاحُ وَالْمَاءُ. فَانظُرْ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ، وَالْمَاءِ وَالْحَجَرِ، وَاخْتِلَافِ هَذَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَفَجُّرِ هَذِهِ الْبِحَارِ، وَكَثْرَةِ هَذِهِ الْجِبَالِ، وَطُولِ هَذِهِ الْقِلَالِ وَتَفَرُّقِ هَذِهِ اللَّغَاتِ، وَالْأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفَاتِ. فَالْوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ الْمُقَدَّرَ، وَجَحَدَ الْمُدَبِّرَ! زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، وَلَا لِاخْتِلَافِ صُورِهِمْ صَانِعٌ؛ وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى حُجَّتِهِ فِيمَا ادَّعَوْا، وَلَا تَحْقِيقِ لِمَا ادَّعَوْا، وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ، أَوْ جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ؟!

الشرح والتفسير: نظره إلى كائنات السموات والأرض

تحدث الإمام عليه السلام في القسم السابق من الخطبه عن عجائب خلق النمل وبغيه دفع التوهم بأن العجائب التي تسلب العقول وتخطف الأبصار ربما تنحصر في هذه الموارد صرح مباشرة بأن تأمل مواضع هذا العالم الواسع في أرضه وسمائه إنما ينطوى على مثل هذه العجائب أيضاً، فركز الإمام عليه السلام هنا على ست عشره ظاهره عجيبه في هذا العالم من السماء والأرض إلى بعض الأمور المرتبطه بالإنسان فقال:

«وَكَذَلِكَ السَّمَاءُ وَالْهَوَاءُ، وَالرِّيَّاحُ وَالْمَاءُ».

وواصل كلامه قائلاً:

«فَانظُرْ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ، وَالْمَاءِ وَالْحَجَرِ، وَاخْتِلَافِ هَذَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَفَجُّرِ هَذِهِ الْبِحَارِ، وَكَثْرَةِ هَذِهِ الْجِبَالِ، وَطُولِ هَذِهِ الْقِلَالِ (١) وَتَفَرُّقِ هَذِهِ اللَّغَاتِ، وَالْأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفَاتِ».

ص: ١١٧

١- (١) «القلال» جمع «قله» بمعنى قمه الجبل.

فقد طرح الإمام عليه السلام هنا سلسله من الموجودات المتنوعه فى هذا العالم لكلّ منها مميزاتا عجيبه وخصائصها الجمّه، والمراد من السماء مجموعه العالم العلوى من الثوابت والسيارات إلى المجرات وعليه فالشمس والقمر فى الجملة القادمه من قبيل ذكر الخاص بعد العام وأنا لنعلم أنّ السماء بهذا المعنى تنطوى على خلقه غاية فى الدهشه كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم: «لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» (١).

المراد من الهواء هو ذلك الهواء المحيط بالكره الأرضيّه، الأكثر حيويه من كلّ شىء والأكثر من كلّ شىء.

والرياح (جمع ریح) والتي له عدّه وظائف فى تسيير عجله حياه الإنسان والكائنات الحيه فهى تسوق السحب والغيوم إلى الأراضى الجافه والقاحله فتخرج النباتات، وتبث الأمواج فى البحار وتزود الكائنات البحريه بالأوكسجين وتنقل الهواء الملوث من مكان إلى آخر وتبعث إلى المدن بهواء الغابات النقى.

والماء هنا بقرينه الرياح إشاره إلى نزول الأمطار التى تبعث الحياه كما ذكر ذلك القرآن الكريم: «وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً» (٢).

ثم أمر الإمام عليه السلام بتأمّل مختلف كائنات هذا العالم من الشمس والقمر إلى النباتات والأشجار والمياه والأحجار (يبدو أنّ المراد من الماء الذى ذكر هنا إلى جانب الحجر هو العيون والأنهار الجاريه) واختلاف الليل والنهار إشاره إلى النظام الدقيق ذو النور والظلمه حيث يعقب كلّ منهما الآخر وينبثق من بركتهما الفصول الأربعة وتلك الليالى الساكنه والهادئه والأيام المفعمه بالحركه والتي أشارت إليها العديد من الآيات القرآنيّه.

العباره:

«وَتَفَجَّرِ الْبِحَارِ» يمكن أن تكون إشاره إلى ظهور البحار أو الحركه التى

ص: ١١٨

١- (١) سوره غافر، الآيه ٥٧.

٢- (٢) سوره الحجر، الآيه ٢٢.

تظهر تلك الأمواج العاتية ونعلم أنّ البحار مركز عجائب مخلوقات الله حيث ورد في دعاء الإمام السجاد عليه السلام:

«يا مَنْ فِي الْبِحَارِ عَجَائِبُهُ»^(١) وأنها مصدر مهم للمواد الغذائية والمعدنيّة ووسيله مناسبه للنقل بصوره واسعه جدا ومصدر ظهور السحب وهطول الأمطار.

وكثره الجبال إشاره إلى عددها الجم والذى جعلها تبدو كدرع يحيط بالكره الأرضيه وتكسر الرياح العواتى وتحفظ بالسحب لسقى الأراضى وتمنح الأرض الهدوء والاستقرار إزاء عمليه المد والجزر الناشئه من الجاذبيه الأرضيه، كما أنّ سفوحها مرعى خصب للدواب والأنعام. كما أنّ استطاله القطعان تؤدى إلى ادخار المياه بصوره برّد أو حبات ثلج على سفوحها فتنحدر تدريجيا إلى الأراضى القاحله فتسقيها بالمياه، كما تسقى الإنسان والحيوان، قال القرآن الكريم: «وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ»^(٢).

وأشار الإمام عليه السلام فى النهايه إلى نقطه مهمه من حياه الإنسان والتى تتمثل فى اختلاف اللغات واللهجات وكثره الألسن، فكيف تعددت هذه اللغات وكيف كان لكل قوم لغتهم الخاصه مع أنّ الجميع ينحدر من ذات الأب والأم؟ فالآن هنالك أكثر من ألف لغه فى العالم بما فيها اللغات الرسميه والمحليه، وقد أفاض الله على الإنسان استعداداً لخلق اللغه بحيث تتمكن كل جماعه من اختراع لغه ووسيله للتفاهم بينها ولعل ذلك لكى تنحصر أسرارهم بينهم دون أن يطلع عليها الآخرون، قال القرآن الكريم: «الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ»^(٣).

وقال أيضاً: «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ»^(٤).

ص: ١١٩

١- (١). دعاء أبو حمزه الثمالى.

٢- (٢) سورة النازعات، الآيات ٣٠-٣٣.

٣- (٣) سورة الرحمن، الآيات ١-٤.

٤- (٤) سورة الروم، الآية ٢٢.

ولما فرغ الإمام عليه السلام من استدلالاته الرصينه والمقنعه فى إثبات وجود الله أتجه صوب من ينكر وجود الله ليفند دعواه الواهيه بدليلين. (طبعاً قلما يرى فى القرآن ونهج البلاغه كلام بشأن الماديين ومنكرى الذات الإلهيه القدسيه، ذلك لأنهم كانوا قلّه قليله آنذاك وكان أكثر الناس ممن يعتقدون بالأديان والمذاهب).

فقال عليه السلام:

«فَالْوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ الْمُقَدَّرَ، وَجَحَدَ الْمُدَبِّرَ!».

إشاره إلى أنّ آثار التدبير فى أرجاء عالم الخلق كافه على درجه من الوضوح بحيث لا يستحق منكر مدبر العالم سوى الويل واللعنه.

ثم قال عليه السلام:

«زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، وَلَا لِاخْتِلَافِ صُورِهِمْ صَانِعٌ».

طبعاً هذه العبارة بسبب النظرة الساذجه التى يبديها الإنسان عادة تجاه العلف المهمل والحال من وجهه نظر عالم النبات أنّ كلّ ورقه منها هى دفتر من معرفه الله تعالى وقد توصل العلماء المعاصرون اليوم إلى أنّ آلاف الأنوع من هذا النبات يخترن العديد من الخواص الطبيه والعلاجيه ولكلّ منها بنيه معقده، الجذور والسيقان والأوراق والبذور كلّ منها تبدو أعجب من الاخرى، إذن يتّضح من تأملها أنّ لها زارعاً وخالقاً عليمًا وقديرًا.

ثم فند الإمام عليه السلام قولهم بدليلين: فقال أولاً:

«وَلَمْ يُلْجَأُوا (١) إِلَى حُجَّةٍ فِيمَا ادَّعَوْا، وَلَا تَحْقِيقٍ لِمَا أُوْعُوا (٢)».

والدليل الثانى أنّ لكلّ بناء منظم ومبنى مرتب مهندس ومعمار فقال عليه السلام:

«وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ، أَوْ جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ».

وتوجد اليوم العديد من الآثار والمباني هنا وهناك فى الكره الأرضيه وقد مرّت عليها آلاف السنين وحفظت كآثار تراثيه لما فيها من دقه وفنون وليس هنالك أحد

ص: ١٢٠

١- (١). «يلجأوا» من ماده «لجؤ» على وزن «غروب».

٢- (٢) «اوعوا» من ماده «وعى» على وزن «سعى» تعنى فى الأصل حفظ الشىء فى القلب ومنه الوعاء.

من عباد الله ولا أحد من الماديين من يدعى أنّ هذه المباني ظهرت بواسطة الأمطار والرياح والعواصف أو أنها رتبت من قبل أفراد جهال من عديمي الخبرة عن طريق الصدفة، بل يجمع الجميع دون استثناء على وجود الباني لها صاحب العقل والشعور ويشيد بهندسته وفنه في البناء.

والعبارة:

«أَوْجِنَايَهُ مِنْ غَيْرِ جَانٍ» إشاره إلى أنه ليس فقط البناء بحاجة إلى علم وتدبير بل التخريب والجنايه المتعمده تحتاج إلى تخطيط الشخص العاقل الذي يتعين عليه انتخاب الزمان والمكان والوسيله وكيفيه ممارسه العمل لتحقيق الهدف.

ويستعان اليوم بذوى الخبرة والاختصاص فى هدم بعض المباني الضخمه بغيه تفادى وقوع العوارض الجانيه، وعليه فالبناء والهدم المبرمج كلاهما يحتاج إلى العقل والتدبير.

والدليل على هذا الكلام ما سيرد فى القسم القادم من هذه الخطبه وكلام الإمام عليه السلام عن الجراد وبنيته العجيبه وعمله التخريبي المنظم ضد النباتات.

تأمل

قبات من برهان النظم

ما قاله الإمام عليه السلام فى العبارة الأخيره من هذه الخطبه:

«وَهَيْلُ يَكُونُ بِنَاءً مِنْ غَيْرِ يَانٍ، أَوْجِنَايَهُ مِنْ غَيْرِ جَانٍ» إشاره لطيفه إلى البرهان المعروف ببرهان النظم الذى يعدّ من أهم الاستدلالات على معرفه الله.

توضيح ذلك: أننا حين نرد مبنياً ضخماً ذا عدّه طبقات يحتوى على غرف متعدده، وصاله للاستقبال، ومطبخ وحمام، ومرافق صحيه، ومصاعد وحين ننظر إلى الجدران والسقوف المزينه بالمرايا الجميله والنقوش الظريفه الملونه ووسائل التكييف والتبريد ومد أنابيب المياه والغاز وخطوط الكهرباء والهاتف فنرى كلّ شىء منظم ومرتب.

فهل هنالك من أحد - مهما كانت درجته من العقل والشعور - يحتمل أنّ الصدفة الناشئه من الحوادث الطبيعیه المختلفه هى التى تقف وراءه؟ أم أنّ عدّه عمال أميين

ص: ١٢١

جمعوا مقداراً من مواد البناء فبنوا هذا البناء الرائع دون أن يكون لديهم أدنى فن أو خبره؟

قطعاً أنّ كلّ من يحتمل هذا الشيء إمّا أن يمزح أو أنّه فقد عقله، فالعقلاء كافه يحكمون بأنّ بعض الأفراد الأذكياء أعدّوا خريطه مسبقه ثم تكاتف عدد من المهندسين البنائين المهرة والمختصين وذوى المهن المنزليه ليشيدوا معاً هذا المبنى.

ويصدق هذا الكلام على كلّ بناء وكل مصنع وكل كتاب علمي... ويعبر عن ذلك ببرهان النظم ويقال إنّ النظم يدل دائماً على عقل وشعور من يأتي به، وكلّما كان النظم أدق وأعقد كان صاحبه أوعى عقلاً وشعوراً وعلماً.

ولو تأملنا بنيه نمله والتي يمكن أن نقضى عليها لحظه واحده دون أن نلتفت إليها لوقفنا على أنّها أعظم وأهم من تلك المباني الشاهقه والضخمه، فبنيه الأرجل، ومفاصلها والأيدى والمجسّات والعين الغايه فى الصغر وجهاز الشامه القوى الذى يمكنها من الشمّ من مسافات بعيدة والفم والأمعاء وجهاز الهضم وسلسله الأعصاب والأهم من كلّ ذلك الدماغ الغايه فى الصغر والخارق للذكاء لكشف كلّ منها بمفرده خلقه من قبل خالق عالم وقدير.

أضف إلى ذلك فإنّ هذه الحشره الصغيره تتغذى وتنمو وتتجب بينما ذلك المبنى الضخم موجود جامد خالٍ من الروح لا يأكل ولا يشرب ولا ينمو ولا ينجب.

والحقّ أنّ إيماننا ليتعمق بذلك الخالق القادر والعالم إن اتجهنا صوب بنيه الإنسان وأجهزته الغايه فى التعقيد كالقلب والدماغ والأعصاب وألوف الكيلومترات من الشرايين والأوعيه الدمويه التى تغذى كلّ لحظه جميع ذرات البدن.

أضف إلى ذلك فإننا نعلم أنّ العالم يحتوى على مئات الألوف من أنواع النباتات ومئات الألوف من أنواع الحيوانات والطيور والحشرات... ولكلّ منها قصته العجيبه والمذهله.

والقرآن المجيد جعل كلّ واحده منها آيه من آياته فقال: «سُنُّرِبِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ» (١).

ص: ١٢٢

وإن شئت قلت في الجراد، إذ خلق لها عيني حمراوين، وأسرج لها دفتين قمرأوين، وجعل لها السمع الخفي، وفتح لها الفم السوي، وجعل لها الحس القوي، ونابتين بهما تقرض، ومنجلين بهما تقبض. يوهبها الزراع في زرعهم، ولما يس تطيعون ذبها، ولو أجبوا بجمعهم، حتى ترد الحرت في نزواتها، وتقضى منه شهواتها. وخلقها كله لا يكون إصبعا مستدقه.

الشرح والتفسير: صنع الجراد

يمكن تصنيف الحشرات إلى ثلاثة أنواع؛ الصنف الذي يخدم الإنسان كالنحل الذي يزودنا بالشهد وعامه النحل التي تنقل حبوب اللقاح وتنمي ثمار الأشجار.

والصنف الآخر الحشرات غير المؤذي (ظاهرياً) التي لا تعود على الإنسان بالنعف ولا تصيبه بضرر، والصنف الثالث الحشرات التي تعد من الآفات مثل الجراد.

وقد أسهب الإمام عليه السلام في الأقسام السابقة من هذه الخطبه في عجائب خلقه النمل في أنها وجودات خاليه من الأضرار غالباً ومجدّه ومثابره يمكن أن تكون نموذجاً للإنسان؛ لكنه تحدّث هنا عن حشره تعدّ من وسائل العذاب الإلهي وبإمكانها أن تجهز جيشاً لتتجهم به على الحقول والمزارع ولا يسع قوه الحد من زحفها، وهكذا يفصح الله تعالى عن قدرته في جميع الجهات ويرسخ لدى الإنسان شعور الخوف والرجاء.

فقال:

«وإن شئت قلت في الجرادة (١)، إذ خلق لها عينيّ حمراوين، وأسيرج لها حدقتين قمرأوين (٢)، وجعل لها السمع الخفيّ، وفتح لها الفم السويّ (٣)».

وأضاف قائلاً:

(وجعل لها الحسّ القويّ، ونابين (٤) بهما تقرض، ومنجلين (٥) بهما تقبض».

صرح بعض العلماء بأنّ الجرادة حشره عجيبه يشبه كلّ عضو منها أحد الحيوانات، وبعبارة أخرى مع أنّها تبدو حشره ضعيفه ولكنها تشبه عشره حيوانات قويه، فوجهها كوجه الفرس، وعيونها كعيون الفيل ورقبتها كرقبة البقره، ومجساتها كقرني الضبي وصدورها كصدر الأسد وبطنها كبطن العقرب وأجنحتها كأجنحة العقاب وسيقانها كسيقان الجمل وأرجلها كأرجل النعامه وذيلها كذيل الحيه، وقد أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارات إلى سبع خصائص عجيبه فيها؛ كالعيون والأحداق والأذن الخفيه والفم والشعور القوي والأسنان الحاده والعضوين اللذين يشبهان منجلين على جانبي الفم (وسنعرض لها في التأمّلات).

ثم تطرق عليه السلام إلى الأخطار العظيمه لهذه الحشره التي تبدو ضعيفه فقال:

«يزهّبها الزرّاع في زرّعهم، ولما يسدّ تطيعون ذبّها، ولو أجلبوا بجمّعهم، حتّى تردّ الحرث في نزواتها (٤)، وتفضّى منه شهواتها. وخلقها كلّه لا يكون إصبعا مستدقه (٧)».

حقّاً أنّه لمن العجب أنّ كبار أبطال التاريخ كلّما جهّزوا جيشاً لمقاومه هذه الحشره الضعيفه فشلوا في التخلص منها؛ فأسرّاب الجرّاد تظهر كقطع السحب

ص: ١٢٤

١- (١). «الجرادة» من ماده «جرد» على وزن «فرد» بمعنى إزاله القشور ويبدو أنّ هذه المفرده اقتبست منها.

٢- (٢) «قمرأوين» تشنيه «قمرأ» من ماده «قمر» و «القمرأ» مفرده وصفيه تعنى المضىء.

٣- (٣) «سوى» بمعنى الكائن الكامل الذى لا عيب فيه.

٤- (٤). «نابين» تشنيه «ناب» السن الأمامى.

٥- (٥) «منجلين» تشنيه «منجل» كناية هنا عن أرجل الجرّاد أو أيديها القوسيه الشكل وتمسك بهما الأوراق والسيقان.

٦- (٦) «نزوات» جمع «نزوه» بمعنى الوثوب.

٧- (٧) «مستدقه» من ماده «دقه» بمعنى النحافه ومستدقه بمعنى نحيفه.

الكبيره فى السماء فتهجم بعتة على البساتين والمزارع الواسعه، فتلتهم خلال مده قصيره سيقان النباتات وأغصانها وأوراقها فتحيلها إلى أشجار عاريه جرداء من الأوراق والثمار.

ويستعان اليوم بالطائرات التى ترش المبيدات الحشريه وسائر الوسائل لمواجهة خطر هذه الآفه مع ذلك لم تحرز سوى بعض التقدم وفى بعض الأحيان، وإن كانت حملة الجراد قويه، فإنّ الوسائل المعاصره هى الأخرى تعجز عن مواجهتها.

تأمل

عجائب الجراد

إنّ إحدى الحشرات العجيبه هى الجراد، الحشره التى تبدو بصورة عاديه خاليه من الضرر والأذى حيث تعيش هنا وهناك فى المزارع والبساتين والوديان والجبال، ولكن ما أن تتلقى بعض الأوامر المشفره حتى تتكاثر بسرعه وتتطاير كأسراب عظيمه بمثابة السحب فى السماء لتخط على كل مزرعه وبستان فتحيله خراباً.

ويقول العلماء: إنّ بنيه هذه الحشره غايه فى التعقيد والدهشه ومن ذلك لها عيان مركبتان وثلاثه عيون بسيطه، وتتكون عيونها المركبه من أربعة آلاف قسم ولكل قسم بنيته الخاصه وتشكل من جميع هذه العيون المركبه رؤيه واحده.

أمّا العيون الثلاثه البسيطه فتقع فى أعلى الرأس، ويتألف صدرها من ثلاث حلقات وبطنها من عشر حلقات تشبه بعضها البعض الآخر.

لها زوجان من الأجنحه زوج أمامى بصيغه مقوسه لا يستعمل فى الطيران ووظيفته حفظ أجنحه الطيران الظريفه التى تنطبق حين الاستراحه لتحفظ تحت الأجنحه الأماميه القويه.

وقد استطالت أرجلها الخلفيه لتساعد فى القفز والوثوب، تضع الجراده بيوضها فى فصل الصيف أو الربيع، حيث تخرج هذه البيوض بواسطه نوع من المواد

من ذيلها فتضعها فى ثقب من الأرض تصنعها بنفسها، وتمتاز صغار الجراد التى تتفقس عن البيوض بشده النهم والحرص فتأكل كل ما يصادفها فى طريقها، ومن هنا لابد من التعرف على موضع بيوضها من أجل مكافحتها والتصدي لصغارها قبل تفقيسها من البيوض.

والجراد أنواع وأقسام منه الجراد البحرى والجراد المراكشى والجراد الإيطالى الذى يسبب خساره للمزارع أكثر من غيره من سائر الأنواع، ومن عجائب هذه الحشره أنها تغير شكلها ست مرات منذ تفقيسها من البيضه إلى تكاملها كحشره قادره على الطيران. وتبدو أسراب الجراد على درجه من السعه بحيث تغطى آلاف الكيلومترات المربعه من السماء(1).

ص: ١٢٤

١- (١) انظر: الزلجى الحديث تأليف وترجمه محمد كاظم المالكى، ج ٢، ص ٣٢٩؛ قاموس معين، كلمه الجراد.

فَتَبَارَكَ اللَّهُ الَّذِي يَسْجُدُ لَهُ (مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا)، وَيُعْفِرُ لَهُ خَدًّا وَوَجْهًا، وَيُلْقِي إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ سَلْمًا وَضَعْفًا، وَيُعْطِي لَهُ الْقِيَادَ رَهْبَةً وَخَوْفًا! فَالطَّيْرُ مُسَيَّرَةٌ لِأَمْرِهِ؛ أَحْصَى عَدَدَ الرِّيشِ مِنْهَا وَالنَّفْسَ، وَأَرْسَى قَوَائِمَهَا عَلَى النَّدَى وَالْيَيْسِ؛ وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهَا، وَأَحْصَى أَجْنَاسَهَا. فَهَذَا غُرَابٌ وَهَذَا عُقَابٌ. وَهَذَا حَمَامٌ وَهَذَا نَعَامٌ؛ دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بِاسْمِهِ، وَكَفَلَ لَهُ بَرزُقِهِ.

وَأَنْشَأَ (السَّحَابَ الثَّقَالَ) فَأَهْطَلَ دِيَمَهَا، وَعَدَّدَ قِسْمَهَا. فَبَلَّ الْأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا، وَأَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ جُدُوبِهَا.

الشرح والتفسير: الله العظيم

بين الإمام عليه السلام في ختام الخطبه خلاصه عامه ليعتبر موجودات الأرض والسماء كافه وأنواع الطيور والسحب والرياح مؤتمره بأمره سبحانه وتعالى فقال:

«فَتَبَارَكَ (١) اللَّهُ الَّذِي يَسْجُدُ لَهُ (مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا)» (٢)

، وَيُعْفِرُ (٣) لَهُ خَدًّا (٤)

ص: ١٢٧

١- (١). «تبارك» من ماده «برك» فى الأصل من «البرك» على وزن «الفرك» بمعنى صدر الناقه ولما كانت الجمال تلصق صدرها بالأرض حين الاستقرار فقد استعملت هذه المفرده بمعنى ثبات الشئ واستقراره ومنه البركه لبقاء الماء مدّه فيها، ويقال للشئ مبارك إن ثبت واستقر خيره، وعليه فإن استعملت هذه المفرده بشأن الله عنت كثره بركته وخلودها.

٢- (٢). سوره الرعد، الآيه ١٥.

٣- (٣) «يعفر» من ماده «عفر» و «عفر» على وزن «فقر» و «سفر» بمعنى التراب والتعفير بمعنى التمرغ بالتراب.

٤- (٤) «خد» تعنى فى الأصل الشق ثم اطلق على ما فى الوجه ووردت هنا بمعنى جانبى الوجه.

وَوَجْهًا، وَيُلْقِي إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ سَلْمًا وَضَعْفًا، وَيُعْطَى لَهُ الْقِيَادَ رَهْبَةً وَخَوْفًا!«.

ربّما يكون السجود هنا إشاره إلى الخضوع الإرادى للذات الإلهية المقدّسه فاعله أصحاب العقول والذى يفهم من كلمه «مَنْ»، كما يحتمل أن يكون المراد من السجود الإرادى التشريعى والتكوينى، إستناداً إلى أنّ مفرده «مَنْ» تشمل هنا ذوى العقول وغيرهم (أى لها حيثيه تغليبيه كما فى الاصطلاح).

ويمكن أن تكون العبارة

«طَوْعاً وَكَرْهًا» إشاره إلى هذا المعنى، لأنّ السجود التشريعى قائم على أساس الإرادة، بينما ليست هنالك مثل هذه الإرادة فى السجود التكوينى، وعليه فربّما تكون إشاره إلى الطائفه التى تسجد مختاره لله والأخرى التى تسجد حين البلاء والشده كما ورد فى القرآن الكريم: «فَإِذَا رَكِبُوا فِي يَوْمِ الْقُلُوبِ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ»(١).

كما أنّ العبارة

«يُعْفَرُ لَهُ...» إن فسّرت بمعناها الحقيقى فهى إشاره إلى السجده الاعتياديه التى يضع فيها الإنسان جبهته على التربه، وإن فسرت بالمعنى المجازى فهى شامله للخضوع التشريعى والتكوينى.

كما أنّ العبارة

«يُلْقَى إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ...» وارده بهذا المعنى أيضاً فى أنّ طائفه من العقلاء يخضعون لله إنطلاقاً من الرغبه والاختيار والشعور بالضعف والعجز بينما تعيش الموجودات غير العاقله حاله التسليم لقوانين الخلق دون إرادته واختياره.

وتشير العبارة

«يُعْطَى لَهُ الْقِيَادَ...» إلى مرحله أبعد من مرحله الطاعه لأنّ الإنسان يسمع أمر المولى فى الطاعه فينهض ويباشر العمل، أمّا فى القيادة فهو يسلم نفسه لمولاه ليأخذه حيث يشاء.

ثم وذهب بعض اللغويين إلى التمييز بين «الرهبه» و «الخوف» فى أنّ الخوف يعنى مطلقه، بينما تعنى الرهبه الخوف المقرون بالاضطراب وضبط النفس.

ثم خاض الإمام عليه السلام ثانيه فى جانب من مخلوقات الله العجيبه هى الطيور التى

ص: ١٢٨

تمتاز حقاً بعالمها العجيب. فلا يقتصر الأمر على تحليقها إلى السماء باتجاه مضاد للجاذبيه الأرضيه فتنتقل هنا وهناك بسرعه فائقه، بل تمتاز بنيتها ببعض الأشياء المعقده من جميع الجهات والتي سنعرض إلى جانب منها فى ختام هذا البحث فقال:

«فَالطَّيْرُ مُسَخَّرَةٌ لِأَمْرِهِ».

والعبارة اقتباس من الآيه الشريفه: «أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (١).

ثم أسهب الإمام عليه السلام فى شرح هذه الطيور فأشار إلى بعض الأمور المهمه فقال:

«أَخْصَى عَدَدَ الرَّيشِ (٢) مِنْهَا وَالنَّفْسَ، وَأَرْسَى (٣) قَوَائِمَهَا عَلَى النَّدى (٤) وَالْيَبْسِ؛ وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهَا، وَأَخْصَى أَجْنَاسَهَا. فَهَذَا غُرَابٌ وَهَذَا عُقَابٌ. وَهَذَا حَمَامٌ وَهَذَا نَعَامٌ؛ دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بِاسْمِهِ، وَكَفَّلَ لَهُ بَرَزِقَهُ».

أشار الإمام عليه السلام فى هذه العبارات إلى أمور رائعه، فعدّ ريش الطيور من أغرب عجائبها فكلّ منها يشبه البرعم الجميل الذى غاصت جذوره بصوره سطحيه فى لحم بدنه وظهرت أغصانه وأوراقه بصوره منتظمه وتجمعت على بعضها بهيئه خاصه على جوانب الرأس والعنق والجناح والصدر وما أن يسقط أحد منها حتى ينمو آخر غيره فلطافتها عجيبه وألوانها أعجب.

ثم أشار إلى أقدامها فقد صممت بعضها لليابسه فهى قصيره ومحكمه، وأخرى للفائده عند حافات البحار والأنهار فهى طويله ومرتفعه وبرقبه طويله لتمكن الطائر من تناول طعامه من داخل المياه.

ثم تطرق عليه السلام إلى موادها الغذائيه حيث لكل حصته من الحبوب وما شابه ذلك

ص: ١٢٩

١- (١) سورة النحل، الآيه ٧٩.

٢- (٢). «الريش» معروف لدى الطيور وبما أنّ الريش غالباً ما يكون للزينة فقد اطلقت هذه المفرده على الثياب المزينه.

٣- (٣) «أرسى» من ماده «رسو» على وزن «رسم» بمعنى الثبات وأرسى بمعنى أثبت.

٤- (٤) «الندى» و «نداوه» بمعنى الرطوبه والبلل.

والطريف فى الأمر أنّ أياً من الطيور لا يملك أسناناً لقضم هذه الحبوب وبالمقابل زودت بمعدّه (والتي يطلق عليها اسم القانصه) والتي تمتاز بحراراتها الشديده فتفرز بعض السوائل التي تطحن الحبوب وتمتصها، وحيث لا- تمتلك الوقت الكافى لالتقاط الحبوب خشيه مهاجمتها من مختلف الأعداء فقد زودت بعضو آخر هو الحوصله التي تشبه الكيس فتقوم عن طريقها بجمع سريع لتلك الحبوب ثم تهضمها وتمتصها.

ثم أشار إلى أنواع مختلفه ومتفاوته للطيور حيث لكلّ بئته الخاصه وطريقته المختصه به كالغراب والعقاب إلى الحمام والنعام والتي انطوت على العديد من العجائب والغرائب بما يبهت الإنسان فتعالى الله الملك الحقّ الذى أبدع كلّ هذا الخلق.

ولعل العبارة

«دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بِاسْمِهِ» تشير إلى هذا الموضوع حيث إنّه سبحانه خلق كل طائر من هذه الطيور على ضوء ما أراده من خصائص والواقع هذه دعوه تكويته مع مجموعه الخصائص التي عبّر عنها بالاسم وشيبه تلك العبارة التي وردت فى القرآن الكريم بشأن خلق جميع الموجودات: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»^(١).

واختتم الإمام عليه السلام خطبته بالإشارة إلى السحب التي تعدّ المصدر الأصلي بما تفيضه من مياه ضروريه لحياء جميع الموجودات فقال:

«وَأَنْشَأَ «السَّحَابَ الثَّقَالَ»^(٢)

فَأَهْطَلَ^(٣) دِيمَهَا^(٤)، وَعَدَدَ قِسْمَهَا. فَبَلَ الْأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا وَأَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ جُدُوبِهَا^(٥)».

ص: ١٣٠

١- (١) سورة يس، الآية ٨٢.

٢- (٢) . سورة الرعد، الآية ١٢.

٣- (٣) . «اهطل» من ماده «هطل» على وزن «حتم» بمعنى تتابع المطر.

٤- (٤) «ديم» جمع «ديمه» مطر يدوم فى سكون بلا رعد ولا برق.

٥- (٥) «جدوب» و «جدب» على وزن «جم» بمعنى اليبس الناشىء من عدم نزول المطر.

وإننا لنعلم أن السحب على أنواع فهناك السحب المغطاه التي تخلو تقريباً من المياه وتلك التي تحمل قليلاً من الماء، والنوع الثالث السحب المتجمعه المليئه بالمياه والشديده الرطوبه وكأنها بحار علقت في عنان السماء وتكون عادة في الطبقات السفلى من الجو والتي عبّر عنها القرآن الكريم بالسحاب الثقيل فقال:

«وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا ۖ سِيقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ» (١).

تأمل

دروس عظيمه بعبارات قصيره

تعلمنا من هذه الخطبه عدّه دروس؛ ومن ذلك أن نتأمل أسرار عظمه الله حتى في أصغر موجودات هذا العالم، فما أكثر الموجودات الصغيره والتي لا تبدو في ظاهرها مهمه كالنمل والجراد بينما تختزن عجائب أسرار الخلقه، فما علينا إلّا أن نعيد النظر في رؤيه كلّ شيء وكأنا نراه لأول مرّه لنقف على عجائبه فنستدل من خلالها على خالقها الحكيم والقادر العليم.

جدير ذكره أن الأسلاف ذكروا بعض الأمور عن أسرار خلق الموجودات ولا سيما الحيوانات والتي لا تخلو من الأساطير والخرافات والحال ما ذكره الإمام عليه السلام في هذه الخطبه وسائر خطب نهج البلاغه عن أسرار الخلقه يخلو تماماً من أي إغراق وخرافه واسطوره.

ص: ١٣١

فِي التَّوْحِيدِ وَتَجْمَعُ هَذِهِ الْخُطْبَةُ مِنْ أُصُولِ الْعِلْمِ

مَا لَا تَجْمَعُهُ خُطْبَةٌ (١)

نظرة إلى الخطبه

تحدّث الإمام عليه السلام في هذه الخطبه عن صفات الله تعالى ليشير إلى أكثر من سبعين صفة حيث لم يلاحظ ذكر هذا العدد من صفات الجلال والجمال في أي من سائر الخطب.

والواقع كشف الإمام عليه السلام في هذه الخطبه عن قدرات تفكيره الربّاني في شرح وتوضيح أعقد المسائل العقائديه، فتطرق إلى تفاصيل صفاته تعالى الثبوتيه والسلبيه

ص: ١٣٣

١- (١) سند الخطبه: قال صاحب مصادر نهج البلاغه أنّ السيد المرتضى (رحمه الله) قال: «إنّ شرح أصول التوحيد والعدل اقتبست من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام وخطبه وكل ما قاله المتكلمون هنا هو شرح لهذه الكلمات». وأضاف: «إنّ الطبرسي ذكر هذه الخطبه مع اختلاف يفيد أنّه أخذها من مصدر آخر غير نهج البلاغه، كما روى المرحوم الكليني قبل السيد الرضى بعض هذه الخطبه في الجزء الأوّل من اصول الكافي». (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٧٧) ومن جانب آخر فإنّ مضامين الخطبه على درجه من الرفعه والسمو بحيث يستحيل صدورها من غير الإمام المعصوم وحبّه الله وأننا لنعلم أنّ أحد أدله صحه استناد الروايات إلى المعصومين عليهم السلام هو علو مضمونها.

والإضافيه بنظام خاص ورائع، وما أحرانا أن نعدّ ذلك بمنزله سورة التوحيد - التي اعتبرتها بعض الروايات أنّها تعدل ثلث القرآن الكريم - في نهج البلاغه.

والخطبه في الحقيقه قسم واحد هو شرح أسماء الله وصفاته لكننا من باب المسامحه نقسمها إلى ثلاثة أقسام، قسم يتحدّث عن صفات الله الثبوتيه والقسم الآخر في صفاته السلبيه وقسم ثالث في قدرته تعالى في مسأله المعاد وعوده الناس إلى الحياه الأخرويه.

وبالتالى فإنّ كلّ من يتأمّل هذه الخطبه ليقطع بأنّ أحداً من الفلاسفه الإلهيين في الماضى والحاضر لم يقدموا مثل هذه الصوره الرائعه والدقيقه والجليه بشأن الله تعالى؛ حتى أنّ من يطالع على هذه الخطبه من غير المسلمين لا يملك إلّا الإشاده بقائلها.

ص: ١٣٤

مَا وَحَدَهُ مِنْ كَيْفِهِ، وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مِنْ مَثَلِهِ، وَلَا إِيَّاهُ عَنَى مِنْ شَبَّهَهُ، وَلَا صَيَّرَهُ مِنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ. كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْدُوعٌ، وَكُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَعْلُولٌ. فَاعِلٌ لِبِاضِطِرَابِ آلِهِ، مُقَدَّرٌ لِابْجُولِ فِكْرِهِ، غَنِيٌّ لَا بِأَسِيْتَفَادِهِ. لَا تَصِيْحْبُهُ الْأَوْقَاتُ، وَلَا تَرْفُودُهُ الْأَدْوَاتُ؛ سَبَقَ الْأَوْقَاتُ كَوْنَهُ، وَالْعَدَمَ وَجُودَهُ، وَالْإِتِّدَاءَ أَرْزُلَهُ. بِتَشْعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَمْشَعَرَ لَهُ، وَبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الْأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لَاضِدًا لَهُ، وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَمْ قَرِينَ لَهُ. ضَادُّ النُّورِ بِالظُّلْمَةِ، وَالْوُضُوحِ بِالْجُمُودِ بِالْبَلْبَلِ، وَالْحُرُورِ بِالصَّرْدِ. مُؤَلَّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا، مُقَارَنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا، مُقَرَّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا، مُفَرَّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا.

الشرح والتفسير: أضواء مهمته في صفات الله

تشتمل هذه الخطبه الشريفه كما ورد سالفاً على مواضيع قيمه ومباحث هامه في علم الله والتي بينت بمنتهى الفصاحه والبلاغه وحسن الأسلوب وانسجام العبارات، فقد استهل الإمام عليه السلام الخطبه بالإشاره إلى جانب من صفات الله السليبيه فقال:

«مَا وَحَدَهُ مِنْ كَيْفِهِ، وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مِنْ مَثَلِهِ، وَلَا إِيَّاهُ عَنَى مِنْ شَبَّهَهُ، وَلَا صَمَدَهُ (١) مِنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ».

ص: ١٣٥

١- (١). «صمد» من ماده «صمد» تعنى أحياناً العظمه وأحياناً أخرى الصلابه والاستحكام كما تعنى الطهاره والتنزه وهذا هو المعنى المراد بها فى هذه العبارة.

فقد أشار الإمام عليه السلام في أول صفه من صفاته السلبيه إلى مسأله نفى الكيفيه عن الله تعالى، تلك الحاله التي تعرض على الجسم المادى أو الموجود الروحانى وبما أن طرو العوارض دليل على المخلوقيه فإنّ الذات الإلهيه الطاهره لا تطرأ عليها الكيفيه كونها أزليه وأبديه.

ثم نفى الإمام عليه السلام عن الله فى الصفه الثانيه أى شبيه ومثيل، ذلك إن كان له مثل وكانت هذه المثلثه فى جميع الجهات لأصبح عينه، وإن كانت فى بعض الجهات لزم منها التركيب (تركيب ما به الاشتراك وما به الامتياز) والتركيب لا ينسجم مع كونه واجب الوجود، ذلك لأنّ كلّ مركب يحتاج إلى أجزاء ولا معنى للحاجه فى واجب الوجود، وبعباره أخرى تكون الأجزاء فى المرتبه السابقه للكل، وعليه إن كان واجب الوجود لكانت تلك الأجزاء، لا (الكل) المولود من تلك الأجزاء، ومن جانب آخر فإنّ الذى يلزم من الأجزاء التعدد والتعدد محال فى واجب الوجود، لأنّ واجب الوجود لامتناهٍ من جميع الجهات ويستحيل وجود لامتناهيين من جميع الجهات.

ونفى الشبيه فى الصفه الثالثه عن الذات القدسيه، فالذات اللامتناهيه من جميع الجهات لا شبيه لها (الفارق بين المثل والشبيه أنّ المثل يلاحظ فى جميع الجهات أو أكثر الصفات بينما الشبيه يمكن فى بعض الجهات).

وقال فى الصفه الرابعه والخامسه: من أشار إلى الله أو توهمه لم يعرفه، لأنّ الإشاره الحسيه دلالة على الجسميه والاشتمال على الجهه والمكان المنزّه الله منها، وتوهمه يعنى جعل حدود لذاته اللامحدوده، وعلى هذا الأساس نقول ليس لأحد درك ذاته سبحانه وعلمنا به هو علم إجمالى فنقول مثلاً: الله خالق وخالق لهذا العالم.

ثم أشار عليه السلام إلى صفتين أخريين فقال:

«كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ، وَكُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَغْلُوبٌ».

قلنا كراراً أنّ الله وجود لا- متناهٍ من جميع الجهات ولا يستوعبه فكرنا المحدود، ولهذا فهو أسمى من الخيال والقياس والظن والوهم، فإن قيل: فكيف نعرف الله؟ نقول: عن طريقين رئيسيين؛ الأول الإشاره إلى آثاره وأفعاله التي ملأت عالم الوجود وكلّما أمعنا النظر في شيء رأيناه إجمالاً- خلفه، والآ-خر عن طريق تحليل حقيقه الوجود التي تنتهى إجمالاً- بواجب الوجود والذي يصطلح عليه (برهان الصديقين) والذي أشير إليه في الأحاديث والأدعيه بعنوان

«يا مَنْ دَلَّ عَلَى ذَاتِهِ بِذَاتِهِ» وهو أيضاً علم إجمالى؛ لا- علم بكنهه وحقيقه ذاته الخارجه عن متناول جميع الأفكار بما فيها أفكار الأنبياء والأولياء.

كما توضح هذه النقطة أنّ كلّ شيء قائم بآخر سواء بصوره عرض عارض على ذلك الشيء أو بصوره وجود جوهرى متوقف عليه، على كلّ حال معلول آخر والله تعالى واجب الوجود ليس بمعلول؛ بل هو القيوم؛ أى القائم بذاته وقيام الآخرين به.

ثم أشار عليه السلام إلى أفعاله وتدبيره وغناه فقال:

«فَاعِلٌ لِّابَاضِطِرَابِ آلِهِ، مُقَدَّرٌ لَّا بِجَوْلٍ (١) فِكْرِهِ، غَنِيٌّ لِّابِاسْتِفَادِهِ».

لأنّ الشخص إنّما يستعين فى عمله بالوسائل والأدوات من حيث كانت قدرته محدوده ولا بدّ له من الاستفاده والاستعانه بتلك الوسائل ومن يحتاج فى تدبيره الفكر والمطالعه فإنّما يعزى ذلك لمحدوديه علمه وهذا ما يدفعه لزياده فكره ومطالعاته؛ أمّا من كان علمه وقدرته لامتناهين فهو غنى عن كلّ ذلك كما أنّ جميع الأغنياء غيره يصبحون أغنياء عن طريق كسب المال والمقام وأمثال ذلك من خارج وجودهم أمّا الله تعالى فهو الغنى بالذات.

قال تعالى فى القرآن الكريم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» (٢).

ص: ١٣٧

١- (١) «جول» و «جولان» بمعنى الحركه فى كل اتجاه وجولان الفكر بمعنى التفكير.

٢- (٢) سوره فاطر، الآيه ١٥.

ثم واصل كلامه عليه السلام في بيان هذه الصفات فقال:

«لَا تَصِحُّهُ الْأَوْقَاتُ، وَلَا تَزِيدُهُ (١) الْأَدْوَاتُ؛ سَبَقَ الْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ، وَالْعَدَمَ وَجُودُهُ، وَالْإِبْتِدَاءَ أَزْلُهُ».

العباره:

«لَا تَصِحُّهُ الْأَوْقَاتُ...» تشير إلى أَنَّ الزمان أمر حادث واللَّه تعالى الأزلي والأبدي الذات لم ولن يقترن بالحوادث كما لم تكن الأدوات والآلات سنده ومعينه.

والفارق بين هذه العباره والعباره:

«فَاعِلٌ لِّابِضٍ طِرَابِ آلِهِ» يمكن أن تكون في أَنَّ الكلام في العباره السابقه في أفعال الله التي لا تتطلب الآلات والأدوات؛ بينما تشير هذه العباره إلى عدم استعانتها بهذه الأدوات في بقائه.

العباره:

«سَبَقَ الْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ...» في الواقع، شرح للعباره

«لَمَّا تَصِحُّهُ الْأَوْقَاتُ» لأننا حين نقرّ بأن وجوده أسمى من الزمان والمكان نخلص إلى نتيجة أنّ وجوده سبق الزمان وتقدم على العدم وأنّ أزليته مقدمه على كلّ بدايه.

وهنا يرد هذا السؤال، وهو أنّ الإمام عليه السلام قال: وجوده سبق عدمه والحال العدم ليس بالشىء الذى يسبقه وجود الله والجواب يمكن القول إنّ المراد من العدم هنا هو انعدام المخلوقات أى أنّ الله تعالى كان موجوداً حين لم يكن أى من الموجودات.

ويقال أحياناً هذه العباره كناية عن كون الله واجب الوجود لأنّ الذات الواجبه الوجود كائنه وستكون على الدوام وتتغلب على العدم ولا يعرض لها العدم بأى شكل من الأشكال.

وتشير العباره:

«وَالْإِبْتِدَاءَ أَزْلُهُ» إلى أنّ الذات الأزليه والأبديه أسمى من أن يكون لها ابتداء.

ثم خاض عليه السلام في صفات أخرى كلّ واحده منها أهم من الأخرى فقال:

ص: ١٣٨

«بِتَشْعِيرِهِ (١) الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَمْ شَعَرَ لَهُ»، لأنَّ وجود الحواس من لوازم المخلوقات الممكنه الوجود ويتنزّه عن ذلك واجب الوجود، أضيف إلى ذلك أنَّ الحواس من عوارض الموجودات، والعرض والمعروض شيان مختلفان بينما نعلم أن ليس للتركيب من سبيل إلى ذات الله.

بعبارة أخرى لقد دلَّ الله تعالى بخلقه الحواس لعباده أنَّ الاحساس والحواس عارضه ومنفصله عن ذات الأشياء، وهنا فهم العباد أن ليس له حواس لأنَّ ذاته ليست محلًّا للعوارض.

ثم قال عليه السلام:

«وَبِمُضَادَّتِهِ بَيَّنَّ الْأُمُورَ عُرِفَ أَنْ لَاضِدًا لَهُ، وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيَّنَّ الْأَشْيَاءَ عُرِفَ أَنْ لَأَقْرَبِينَ لَهُ» وتفسير هذا الكلام أنَّ وجودين متضادين يكونان قطعاً محدودين ولهما حالتان مختلفتان، والحال الذات الإلهية ليست محدوده ولا شيء عارض عليها، كما أنَّ الموجودين المقرونين محدودان ولهما عوارض مشابهه بينما الذات الإلهية لامحدوده من كلِّ الجهات وعاريه من كلِّ العوارض.

وواصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى بعض المصاديق من الأمور المتضاده فقال:

«ضَادُّ النَّوْرِ بِالظُّلْمَةِ، وَالْوُضُوحُ بِالْبُهْمَةِ (٢)، وَالْجُمُودُ بِالْبَلْبَلِ، وَالْحَرُورُ بِالصَّرْدِ (٣)».

طبعاً ينطوى هذا التضاد على فلسفه تتمثل في ايجاد التوازن وإزاله آثار السوء لكلِّ شيءٍ بآخر، فلو أشرقت الشمس على جانب من الكره الأرضية دائماً وغط الجانب الآخر منها في ظلمه دائمه لزلت الحياه عاجلاً؛ فالجانب الذى يتعرض إلى الشمس يحترق بفعل شدّه الحراره ويهلك، كما ينجمد ويزول ذلك الذى يعيش الظلمه: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ» (٤)؛ «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ

ص: ١٣٩

١- (١). «تشعير» من «شعور» بمعنى العلم والمعرفة وتعنى هنا العلم بالشى عن طريق الحواس.

٢- (٢) «بهمه» بمعنى السواد والليالى الظلماء والمعنى الأول هو المطلوب.

٣- (٣) «صرد» بمعنى البرد وقيل إنها مفردة فارسيه.

٤- (٤). سورة القصص، الآية ٧١.

الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَا تَيْكُم بَلِيل تَسِي كُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ» (١)؛ «وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسِي كُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (٢).

قد يقال هنا إن الظلمه أمر عدمى وليس بالشىء الذى خلقه الله أو يكون مضاداً للنور.

وهو ذات السؤال الذى ورد فى الآيه الشريفه: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ» (٣).

ولكن بالإلتفات إلى هذه النقطة وهى أن ظلمه الليل وأمثالها ليست ظلمه مطلقه لتكون عدميه، بل ضعف شديد للنور ومن هنا حين تطفأ المصابيح فى الليل فجأه لا نكاد نرى شيئاً مطلقاً، ولكن بالتدرىح تعتاد عيوننا ذلك النور الضعيف فى جوف الظلمه فنبداً برؤيه الأشياء من حولنا، وعليه فالظلمه مخلوق من مخلوقات الله مضاده للنور.

ويمكن أن تكون العبارة

«وَالْوُضُوحُ بِالْبَهْمَةِ» إشاره إلى اختلاف الألوان وفلسفه ذلك تمييز الأشياء عن بعضها البعض الآخر، فالوضوح إشاره إلى الألوان الفاتحه والبهمه إلى الألوان الغامقه والقاتم، أو إشاره إلى الحالات شبه المضيئه وشبه المظلمه بين الطلوعين والغروبين.

«وَالْجُمُودُ بِالْبَلْبَلِ» أشار إلى اليابسه والبحار والأشياء الجامده والمرطوبه والتى لكل منها فلسفته الوجوديه المختصه به.

كما تشير

«وَالْحَرُورَ بِالصَّرْدِ» إلى فصول السنه أو بصوره كليه الحراره والبروده والتى لكل منهما دوره فى حياه ورشد الكائنات الحيه.

ثم أشار عليه السلام إلى أربع صفات أخرى فقال:

«مُؤَلَّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا، مُقَارِنٌ بَيْنَ

ص: ١٤٠

١- (١) . سورة القصص، الآيه ٧٢.

٢- (٢) سورة القصص، الآيه ٧٣.

٣- (٣) سورة الأنعام، الآيه ١.

مُتَبَايِنَاتِهَا، مُقَرَّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا، مُفَرَّقٌ بَيْنَ مُتَمَدِّدَاتِهَا». حيث تطرق الإمام عليه السلام إلى أمور غاية في الأهميه اعتمدها الله سبحانه وتعالى في تدبير عالم الوجود، فقد جمع في أغلب الموارد بين الضدين فربط بين الروح هذا الجوهر اللطيف الذي يفوق المادة مع هذا الجسم الترابي وجعل عدّه موجودات مختلفه إلى جانب بعضها البعض الآخر الأمر الذي نلاحظه في تركيب بدن الإنسان والحيوان والنبات حيث جعل عشرات الفلزات وأشباه الفلزات إلى جانب بعضها البعض الآخر ليخلق منها ذلك التركيب البديع، والعجيب أنه جعل الجاذبيه والتناقض بين الضدين كالقطب الكهربائي الموجب والقطب السالب وبين القطبين المتشابهين أوجد حاله من التنافر كما في القطبين الموجبين أو القطبين السالبيين كما جعل جاذبيه بين الجنس المذكور والمؤنث والتنافر بين المتجانسين.

وهكذا فقد أشار الإمام عليه السلام إلى أربعة أقسام من موجودات العالم: قسم منها متضاد كالنور والظلمه والروح والجسم، وآخر متباين كأنواع النباتات والحيوانات المتباينه غير المتضاده وقد جعل الله بينها جميعاً نوعاً من الألفه.

والقسم الثالث تلك المتباعده وقد قربها الله كالأزواج من قومين منفصلين عن بعضهما البعض الآخر ويقترنان ببعضهما إثر الحبّ والمودّه.

وأخيراً القسم الرابع الأمور القريبه من بعضها ذاتاً، وقد ابعدها الله عن بعضها بتدبيره لهذا العالم مثل كرات المنظومه الشمسيه التي كانت مع بعضها البعض حسب النظرية المعروف ففصلها الله تعالى وخلق المنظومه الشمسيه.

رغم أنّ الأجزاء المركبه للنباتات وأوراقها تنفصل عنها بعد الجفاف وتتحول إلى عناصر فعاله لتنميه سائر الأشجار والنباتات كما أنّ سحب الغيوم أحياناً تتصل مع بعضها من مختلف المناطق بواسطة الرياح فتتهطل الأمطار الحيويه، كما يأمر الرياح بحملها إلى مناطق أخرى.

نعم! فربوبيته وتدبيره تقتضى أحياناً أن يجمع بين الضدين وأحياناً أخرى للتقريب بين المتباينين وثالثه تقريب المتباعده وإبعاد المتقارب.

كيفية الجمع بين الضدين

يعتقد البعض أنّ العالم مؤلف من جمع الأضداد والتضاد سبب التكامل وحسب بعض الحكماء

«لولا التّضادُّ ما صحَّ الفَيْضُ عَنِ الْمَبْدَأِ الْجَوَادِ». كما استدل البعض على هذا المطلب بعبارته الإمام عليه السلام الواردة في الخطبه:

«مُؤَلَّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا، مُقَارَنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا...».

ويرى اتباع المدرسه الماديّه الديالكتيكيه أنّ أحد المبادئ الأربعة يتمثل في الجمع بين الضدين ويزعمون أنّ كلّ موجود يحمل ضده في داخله وبظهور الضد يزول الموجود السابق ويضربون على ذلك مثال البيضه والدجاجه وأمثال ذلك ليخلصوا في النتيجة إلى أنّ المجتمع الرأسمالي ييلور مضطراً داخله ضده الذي يتمثل في المجتمع الاشتراكي والشيوعي وما تظهر حتى تزول الرأسماليه، وهكذا طرحوا مبادئهم الواهيه الجوفاء على هذا الأساس بحيث اتضح ضعفهم وعجزهم عملياً على مستوى الظاهر، وقد لمسنا كيفيه إنهيار هذه المدرسه.

ويجب الإلتفات إلى أنّ الجمع بين الضدين (أو النقيضين) مصطلح فلسفي يعنى الجمع في محل واحد من جميع الجهات بمعنى أنّ يكون الشيء الواحد أسوداً وأيضاً في آن واحد، وهذا محال؛ أو يكون مكان معين في لحظه معينه ليلاً ونهاراً أو يكون الإنسان حيّاً وميتاً في زمن معين ومن الطبيعي أنّ الجمع بين هذين النقيضين محال بهذا المعنى، ولكن أحياناً يكون المراد الجمع العرفي: كأن يجتمع جسمان أبيض وأسود مع بعضهما في آن واحد أو في زمنين متصلين، فأحياناً يكون الجسم أيضاً وأخرى أسوداً.

وهذا المعنى ليس ممكناً فقط فحسب بل شمل جوانب عظيمه من هذا العالم وعلى ضوء هذه النقطة نعود إلى أصل الموضوع فنقول: في العالم الذي نعيش فيه فإنّ مدبره هو الذات الإلهيه القدسيه التي أشاعت نظام الأضداد، وكما ورد في كلام

الإمام عليه السلام فقد مزج النور بالظلمه والحراره والبروده واليبوسه والبلل ووظف نظام الليل والنهار والفصول الأربعة والسحب والأمطار والشمس ببعض الأعمال المهمه، وأحياناً يلاحظ بين الأمثال أنّ عضواً من أعضاء الإنسان أو النبات ليس فقط لا يتضادان بل هما منسجمان مع بعضهما.

على كلّ حال فإنّ التضاد بالصيغه المذكوره من شأنه في أغلب المواقع أن يلعب دوراً مهماً في تطوير المجتمع البشرى وتكامل الكائنات؛ والتنافس البناء في كلّ مجتمع مدعاه للتطور وعاده ما يؤدى إلى القوّه والمنعه في مختلف المجالات حتى أنّ وجود الشيطان أمام المؤمنين مدعاه لتأصل ورسوخ إيمانهم.

ص: ١٤٣

لَا يُشْمَلُ بِحَدٍّ، وَلَا يُحَسَبُ بِعَدٍّ، وَإِنَّمَا تَحُدُّ الْأَدْوَاتُ أَنْفُسَهَا، وَتُشِيرُ الْأَلَاتُ إِلَى نَظَائِرِهَا. مَنَعَتْهَا «مُنْدٌ» الْقَدَمَةَ، وَحَمَّتْهَا «قَدٌ» الْأَزْلِيَّةَ، وَجَبَّتْهَا «لَوْلَا» التَّكْمِلَةَ! بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ، وَبِهَا امْتَنَعَ عَنِ نَظَرِ الْعُيُونِ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ السُّكُونُ وَالْحَرَكَةُ، وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَرًا هُوَ أَجْرَاهُ، وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَيْدَاهُ، وَيَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَحْدَاثُهُ! إِذَا لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ، وَلَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ، وَلَامْتَنَعَ مِنَ الْأَزْلِ مَعْنَاهُ، وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءَهُ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمْيَامٌ، وَلَا لَتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ. وَإِذَا لَقَامَتْ آيَةُ الْمَصْنُوعِ فِيهِ، وَلَتَحَوَّلَ دَلِيلًا بَعِيدًا أَنْ كَانَ مَدْلُولًا عَلَيْهِ، وَخَرَجَ بِسُلْطَانِ الْإِمْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُؤَثَّرَ فِيهِ مَا يُؤَثَّرُ فِي غَيْرِهِ. الَّذِي لَا يَحْوِلُ وَلَا يَزُولُ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْأُقُولُ. لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُودًا، وَلَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُودًا. جَلَّ عَنِ اتِّخَاذِ الْأَبْنَاءِ، وَطَهَّرَ عَنِ مَلَامَسِهِ النَّسَاءِ.

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام في هذا القسم إلى صفات أخرى من صفات الله السليبيه فقال:

«لَا يُشْمَلُ بِحَدٍّ، وَلَا يُحَسَبُ بِعَدٍّ، وَإِنَّمَا تَحُدُّ الْأَدْوَاتُ أَنْفُسَهَا، وَتُشِيرُ الْأَلَاتُ إِلَى نَظَائِرِهَا».

وتفسير العبارة الأولى والثانية واضح لأن الله وجود لا-متناه من جميع الجهات ولو كان محدوداً لما كان واجب الوجود، بل لأصبح ممكن الوجود كذلك لو حسب بعدد لكان من الممكنات التي يمكن عدّها، وقولنا إن الله واحد لا بمعنى الواحد

العددي بل بمعنى عدم وجود مثيل له: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» (١).

بينما اختلف شراح نهج البلاغه في تفسيرهم للعبارتين الثالثه والرابعه بسبب الإبهام الذى يسودها ولعلّ مفتاح حلّ المشكله فى تفسير هاتين العبارتين يكمن فى هذا الأمر وهو أنّ القرائن تشير إلى أنّ المرحوم السيد الرضى قد حذف العبارات المرتبطه بهاتين العبارتين درجاً على عادته فى الاقتطاف.

ورغم حرص المرحوم الرضى على عدم بتر العبارات المرتبطه مع بعضها إلا أنّ ذلك قد يقع سهواً ونسياناً أحياناً.

والشاهد على سقوط بعض العبارات فى هذه الخطبه ما ورد فى «تحف العقول» حيث قال الإمام عليه السلام:

«لا- تَفَوُّتُهُ «متى» ولا- تَدْنِيهِ «قد» ولا- تَحْبُجُّهُ «لعلّ» ولا تُقَارِنُهُ «مع» ولا تَشْتَمِلُهُ «هو» إنّما تَحَدُّ الأدوات أَنْفُسَهَا وَتَشِيرُ الآلَةُ إِلَى نَظَائِرِهَا».

فهذه الكلمات (بعض العبارات مثل متى وقد ولعل ومع وهو) تحدد نفسها (أى تستعمل فقط حين يكون للزمان والمكان وعدم العلم إليها من سبيل) وهذه العبارات إنّما تشير إلى نظائرها (النظائر الموجوده فى عالم الممكنات لا الذات المقدسه التى لا نظير لها).

ثم أكد عليه السلام هذا الكلام بقوله:

«مَنْعَتَهَا «مُنْدٌ» الْقِدْمَةَ، وَحَمَّتَهَا «قُدٌ» الْأَزَلِيَّةَ، وَجَبَّتْهَا «لَوْلَا» التَّكْمِلَةَ!» (٢).

توضيح ذلك: أنّ المفرده

«مُنْدٌ» تستعمل حيث السيره التاريخيه لوجود الشىء، وعليه واستناداً إلى استعمال هذه المفرده بشأن الممكنات يمكن التوصل بسهولة إلى أنّها حادثه وليست قديمه، كما أنّ المفرده

«قُدٌ» حين تستعمل فى الماضى تعنى

ص: ١٤٦

١- (١) سورة الشورى، الآيه ١١.

٢- (٢) لا يبدّ من الإلتفات إلى أنّ الكلمات (مند وقد ولولا) فى العبارات الثلاث فاعل للأفعال منعت وحمد وجنبت ومفعولها قدمه وأزليته وتكمله، وتعود الضمائر المؤنثه فى منعتها وحممتها وجنبتها إلى المخلوقات.

وقوع الشيء القريب من الزمن الحاضر وهذا أيضاً لا ينسجم مع الأزليه، كما تستعمل المفردة

«لَوْلَمَا» حيث المانع الذى يكمن فى طريق تكامل الشيء، كالتقول الذى نقله القرآن الكريم على لسان الكافرين حين مخاطبتهم للمستكبرين: «لَوْلَمَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ» (١). واستناداً إلى أزليته وأبديته سبحانه وكماله المطلق فلا تستعمل بحقه هذه الأدوات والعبارات.

ثم قال الإمام عليه السلام فى بيانه لصفات أخرى من صفات الله أنه تجلى للعقل بخلقه لمخلوقاته ومن هنا تعذرت رؤيته بهذه العيون:

«بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ، وَبِهَا امْتَنَعَ عَنِ نَظْرِ الْعُيُونِ».

نعم، فآثاره واضحه فى كل زاويه من زوايا عالم الوجود ومنها ندر ك وجوده المقدس؛ مع ذلك لا يمكن رؤيته بعين، لأن رؤيه العين تختص بالأجسام ذات الزمان والمكان والأجزاء والجهه، والله منزّه عن كل هذه الأمور.

ثم تعرض الإمام عليه السلام لمسأله مهمه أخرى ليتحدّث بشأن نفى السكون والحركه عن الذات القدسيه فقال عليه السلام:

«وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ السُّكُونُ وَالْحَرَكَهٗ، وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاءُ، وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاءُ، وَيَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَخْدَاتُهُ!».

نعم، فالحركه والسكون من عوارض الممكنات، والحركه أن يكون للشيء موضعين أو حالتين فى زمانين، والسكون أن يكون له فى زمانين نفس المكان والحاله، وعليه فالسكون حادث والحركه كذلك؛ لأن كلا الصفتين بيان للحاله الثانيه للشيء التى مضى عليها الزمان، بعبارة أخرى فى الحاله الأولى لا سكون ولا حركه بينما للسكون والحركه معنى فى الحاله الثانيه، فإن كان فى المكان الأول سكون كان فى موضع آخر حركه.

أضف إلى ذلك إن كانت الحركه فى المكان والزمان والكيفيه وما شابه ذلك فهى من عوارض الجسم وكذلك إن كانت الحركه فى الجوهر، وأنا لنعلم أن الله ليس

ص: ١٤٧

بجسم ولا بجوهر.

والنتيجة هي أنّ الحركة والسكون من مخلوقات الله ومن الممكنات وليس لها من سبيل قط إلى الذات القدسيّة واجبه الوجود.

ثم خاض الإمام عليه السلام ليذكر ثمانيه أدله على هذا الموضوع فقال:

الأول: لوجرت عليه الحركة والسكون

«إِذَا لَتَفَاوَتْ ذَاتُهُ» ونعلم أنّه وجود ذو كمال مطلق وليس لأىّ تغيير من سبيل إلى ذاته الثابته.

والثاني لزم أيضاً:

«وَلَتَجْزَأُ كُنْهَهُ» لأنّ ما يلزم الحركة بلوغ الموجود نقطه لم تكن عنده، وعليه فوجوده مركب ممّا ما بالفعل وما بالقوّه.

والثالث:

«وَلَا مَتْنَعُ مِنَ الْأَنْزَلِ مَعْنَاهُ»، لأنّ الحركة والسكون كما قلنا حادثان وذاته سبحانه أزليّه وقديمه ويستحيل الجمع بين الحادث والقديم.

والرابع: يلزم من الحركة

«وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءَهُ إِذْ وَجِدَ لَهُ أَمَامَهُ»، لأنّ للحركة بأى اتجاه وبأى مفهوم لها جهه تعدّ أماميه وما يعاكسها جهه خلفيه.

والخامس: يلزم من الحركة البحث عن الكمال، فمن عانى النقص يبحث عن الكمال

«وَلَا لَتَمَسَّ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النَّقْصَانُ»، لأنّ الحركة إمّا إلى النقص أو الكمال، ومهما كانت فهى تعنى عدم مطلقه الموجود المتحرك.

السادس: لو تخللته الحركة لظهرت فيه آيه الخلق

«وَإِذَا لَقَامَتْ آيَهُ الْمَصْنُوعِ فِيهِ».

السابع: أنّه لو كان كذلك لكان دليلاً على وجود خالق آخر، لا أن تكون المخلوقات دليلاً عليه:

«وَلَتَحْوَلَ دَلِيلًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولًا عَلَيْهِ».

الثامن: فسوف لن يؤثر عليه ما يؤثر على غيره بسبب قوّته المطلقه

«وَخَرَجَ بِسُلْطَانِ الْإِمْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُؤَثَّرَ فِيهِ مِمَّا يُؤَثَّرُ فِي غَيْرِهِ». إشاره إلى أنّ سلطته المقتدره وغير القابله للتغيير إلّا أن يكون فى

معرض الحوادث وما يؤثر في غيره لا يؤثر عليه، لأنَّ ذاته القدسيه ليست قابله للتغيير.

ص: ١٤٨

وزبيده الكلام فإنَّ الحركة سواء كانت في العرض أو الجوهر، في الكمية (كنمو بدن الإنسان أو النبات) أو في الكيفية (كتغير الألوان في عالم الطبيعه وزيادة ونقصان الحرارة والبروده في فصول السنه) وسواء كانت نحو الكمال (كنمو الطفل) أو نحو النقصان (كالضعف والعجز لدى الكهول) ليس لها من سبيل إلى الذات القدسيه، واجب الوجود وكمال مطلق وتختص الحركة بالممكنات والوجودات الناقصه.

أضف إلى ذلك فإنَّ الحركة عباره عن الجزئيه والحدوث التي ليس لها من سبيل إلى الذات الأزلئيه.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى بيان سبع صفات أخرى ذات علاقته قويه بمسأله الحركة فقال:

«الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْأَفُولُ».

فالتغير والزوال والأفول والغروب كلها من عوارض الموجودات الممكنه والمحدوده والناقصه ولا تتصور هذه الصفات على الله.

ثم قال عليه السلام:

«لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُودًا، وَلَمْ يُوَلَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُودًا. جَلَّ عَنِ اتِّخَاذِ الْأَبْنَاءِ، وَطَهَّرَ عَنِ مُلَامَسَةِ النِّسَاءِ».

لا شك في أنَّ كلَّ هذه الأمور من قبيل الولاده والزواج والولد والابن من عوارض الوجودات الجسمئيه، والله سبحانه ليس بجسم وليست له عوارض جسمئيه، أضف إلى ذلك كلَّ هذه الأمور من علامات الحدوث وكذلك الحاجه، وهوليس بحادث ولا محتاج.

والعباره:

«لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُودًا» إشاره إلى الوضع المعروف لدى الكائنات الحيه التي تولد من أحد ومن جانب آخر يولد منهم أولادهم، وعليه فلا يبدو النقص على آدم عليه السلام أنه صاحب ولد لكنه لم يولد من أحد لا يبدو وارداً لأنَّ آدم عليه السلام كان فرداً استثنائياً، إضافه إلى أنَّ آدم إن لم يولد من إنسان فقد ولد من التراب وهذا بحد ذاته نوع ولاده.

ص: ١٤٩

لَا تَنَالُهُ الْاَوْهَامُ فَتَقْدِرُهُ، وَلَا تَتَوَهَّمُهُ الْفِطْنُ فَتَصَوِّرُهُ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْحَوَاسُّ فَتَحِسُّهُ، وَلَا تَلْمَسُهُ الْاَيْدِي فَتَمَسُّهُ. وَلَا يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ، وَلَا يَتَبَدَّلُ فِي الْاَحْوَالِ. وَلَا تُبْلِيهِ اللَّيَالِي وَالْاَيَّامُ، وَلَا يُغَيِّرُهُ الضِّيَاءُ وَالظَّلَامُ. وَلَا يُوصِفُ بِشَيْءٍ مِنَ الْاَجْزَاءِ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالْاَعْضَاءِ، وَلَا بِعَرَضٍ مِنَ الْاَعْرَاضِ، وَلَا بِالْغَيْرِيَّةِ وَالْاَبْعَاضِ. وَلَا يُقَالُ: لَهُ حَيْدٌ وَلَا نِهَايَةٌ، وَلَا انْقِطَاعٌ وَلَا غَايَةٌ؛ وَلَا أَنَّ الْاَشْيَاءَ تَحْوِيهِ فَتَقْلَهُ اَوْ تُهْوِيهِ، اَوْ اَنَّ شَيْئًا يَحْمِلُهُ، فَيَمِيلُهُ اَوْ يُعَدِّلُهُ. لَيْسَ فِي الْاَشْيَاءِ بَوَالِجٍ، وَلَا عَنْهَا بِخَارِجٍ. يُخْبِرُ لَا يَلْسَانٌ وَلَهَوَاتٍ، وَيَسْمَعُ لَا بِخُرُوقٍ وَاَدْوَاتٍ. يَقُولُ وَلَا يَلْفِظُ، وَيَحْفَظُ وَلَا يَنْحَفِظُ، وَيُرِيدُ وَلَا يُضْمِرُ.

يُحِبُّ وَيَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ، وَيُبْغِضُ وَيَغْضِبُ مِنْ غَيْرِ مَسَقَّةٍ. يَقُولُ لِمَنْ اَرَادَ كَوْنَهُ: (كُنْ فَيَكُونُ)، لَابْصَوْتٍ يَقْرَعُ، وَلَا بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ؛ وَاِنَّمَا كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ اَنْشَاءٌ وَمَثَلَةٌ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كَائِنًا، وَلَوْ كَانَ قَدِيمًا لَكَانَ اِلَهَا ثَانِيًا.

الشرح والتفسير: جانب من صفاته المطلقة

إِنَّ مِنْ النِّقَاطِ الْمَهْمَةِ الْوَاضِحَةِ وَالْمَتَجَلِيَةِ فِي كَلِمَاتِ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذِهِ الْخُطْبَةِ هِيَ نَفِيهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى أَيْ صِفِهِ مِنَ الصِّفَاتِ الْمَادِيَّةِ وَالْجِسْمِيَّةِ بِعِبَارَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ أَغْلَبَ النَّاسِ يَعَانُونَ مِنَ التَّشْبِيهِ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَيَصُورُونَ لَهُ فِي أَدْهَانِهِمْ بَعْضَ صِفَاتِ الْمَخْلُوقَاتِ وَهَذَا خَطَأٌ جَسِيمٌ لَا يَغْفَرُ.

وقد ركز هذا الموحد العارف بالله كراراً على هذه المسألة لينقذ مخاطبيه من هوه التشبيه بعبارات غايه فى الجمال والروعه والدقه.

ومن هنا قال فى مواصلته للأبحاث السابقه فى هذا الجانب من الخطبه:

«لَمَّا تَنَالَهُ الْأَوْهَامُ فَتَقَدَّرَهُ، وَلَمَّا تَوَهَّمَهُ الْفِطْنُ فَتَصَوَّرَهُ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْحَوَاسُّ فَتَحِسُّهُ، وَلَا تَلْمَسُهُ الْأَيْدِي فَتَمَسُّهُ. وَلَا يَنْغَيِّرُ بِحَالٍ، وَلَا يَتَبَدَّلُ فِي الْأَحْوَالِ. وَلَا تُنْبِئُهُ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ، وَلَا يُغَيِّرُهُ الضِّيَاءُ وَالظَّلَامُ».

«أَوْهَام» جمع

«وَهْم» بمعنى قوه الخيال التى تتعلق بالماده والمحسوسات ولو أحاط الوهم بالله لكان له مكان وزمان وكيفيه وكميه، بينما ذاته المقدسه منزّهه عن هذه الأمور فللجسم أجزاء والزمان والمكان والتغير والحركه أمور ليست لها من سبيل إلى ذاته اللامتناهيّه.

«فِطْن» جمع

«فِطْنَه» قوه العقل ويقال

«الْفِطْن» وتنشط قوه العقل أيضاً بمساعده الواهم والتصورات الذهنيه المتعلقه بالأجسام، وعليه فلو أدرك بالعقل وبمساعده الوهم لظهرت ثانيه قضيه العوارض الجسميه.

العباره:

«ولا- تَلْمَسُهُ...» بالنظر إلى أنّ اللمس يختلف عن المس، حيث يطلق المس على التماس بالأجسام بينما يطلق اللمس على الطلب والسعى للتماس - إشاره إلى أنّه مهما يسعى الإنسان للمسّه تعالى بيده لما أمكن ذلك لأنّه ليس بجسم فيلمس.

وأما بالالتفات إلى ثبات ذاته فإنّ تغييره بمرور الزمان والحوادث كالنور والظلمه ليس بممكن؛ لأننا قلنا كراراً أنّه وجود كامل ولا متناهٍ من جميع الجهات وبفوق المكان والزمان والحركه، ومثل هذه الذات لا تتأثر بالحوادث والتغيرات كما لا يجرى عليها ليل ونهار ونور وظلمه.

ثم أردف ذلك عليه السلام بقوله:

«وَلَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَجْزَاءِ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ، وَلَا بِعَرَضٍ مِنَ الْأَعْرَاضِ، وَلَا بِالْغَيْرِيَّةِ وَالْأَبْعَاضِ».

ص: ١٥٢

من الواضح أنّ جميع هذه الأمور أى الاشتمال على الأجزاء وأعضاء البدن وقبول العوارض - مثل الألوان والكميّة المتفاوتة والكيفيّة - كلّها من خواص الجسم والجسمانيات والماده والممكنات وكذلك التفاوت مع الأشياء الأخرى، لأنّه يلزم من ذلك التركب من قدر مشترك وما به الامتياز، وكل تركب دليل على احتياج المركب إلى أجزائه والموجود المحتاج لا يكون واجب الوجود.

ثم بين الإمام عليه السلام صفات أخرى فى مواصلته لبيان صفاته السلبيّة فقال:

«وَلَا يُقَالُ: لَهُ حَدٌّ وَلَا نِهَائِيَّةٌ، وَلَا انْقِطَاعٌ وَلَا غَايَةٌ؛ وَلَا أَنَّ الْأَشْيَاءَ تَحْوِيهِ فَتَقِلُّهُ (١) أَوْ تُهْوِيهِ (٢)، أَوْ أَنَّ شَيْئًا يَحْمِلُهُ، فَيَمِيلُهُ أَوْ يُعَدِّلُهُ».

هذه الصفات الست (الحد والنهائية والانقطاع والغاية والاحاطة والحمل) كلّها من صفات الأجسام واللّه منزّه عن الجسميه فليس لهذه الصفات من سبيل إلى ذاته المقدّسه.

وعلى فرض أنّ بعض هذه الصفات صادقه على غير الموجودات الماديّة، فمما لا شك فيه أنّها من صفات ممكن الوجود المحدود من كلّ جهه دائماً، وقلنا كراراً أنّ ذات واجب الوجود لامتناهيه من جميع الجهات وعليه فلا تجرى أى من هذه الصفات على تلك الذات.

أضف إلى ذلك فإنّ للصفات المذكوره لوازم هى الأخرى مرتبطه بعالم الأجسام، فالاحاطه بالشىء تؤدى إلى رفعه أو خفضه، وحمل الشىء يسبب أحياناً ميله إلى جانب معين أو ثباته وكل ذلك من صفات الأجسام.

بل ذهب بعض الفلاسفه إلى أنّه لا يمكن وصف اللّه تعالى باللانهايه لأنّه قد يتداعى منه اللانهايه الجسميه، على كلّ حال سعى الإمام عليه السلام فى جوانب هذه

ص: ١٥٣

١- (١). «تقل» من ماده «قل» على وزن «ذل» بمعنى الرفع ولهذا اطلقت القله على قمه الجبل حيث تقع فى ارفع نقطه منه.

٢- (٢) «تهوى» من ماده «هوى» على وزن «تهى» بمعنى السقوط من شاهق، و «هوا» على وزن «قفا» تطلق على الحب والرغبه.

الخطبه لانتقال مخاطبيه من الوقوع فى فخ التشبيه فنزه الله تعالى عن كل صفة من صفات مخلوقاته.

ثم أردف حديثه عن الصفات بذكر صفات أخرى فقال عليه السلام:

«لَيْسَ فِي الْأَشْيَاءِ بَوَالِجٌ (١)، وَلَا عَنْهَا بِخَارِجٌ».

قد يتصور البعض من هذه العبارات التي وردت بشأن إحاطه الله تعالى بجميع الأشياء فى هذه الخطبه وسائر الخطب والروايات أنّ هنالك شيئاً من التناقض فكيف يكون هنالك وجود لا داخل فى الأشياء ولا خارج عنها، إلّا أنّ هذه حقيقة واقعه، ففى تشبيه ناقص يمكن القول إنّ ذاته المقدّسه هى روح عالم الوجود، وروح الإنسان فى بدنه لا- بمعنى أنّها جزء من البدن كما أنّها خارجه من البدن لا بصفتها غريبه عنه بل لها احاطه تدبير وتصرف فى الجسم، وإن خرجت هذه الروح من الجسم قطعت علاقه تدبيرها وتصرفها؛ فيموت. فالله تعالى بمنزله عالم الوجود.

ثم خاض عليه السلام فى بيان خمس صفات أخرى فقال:

«يُخْبِرُ لَلْبِلْسَانِ وَلَهَوَاتٍ (٢)، وَيَسْمَعُ لَلْبُخْرُوقِ (٣) وَأَدَوَاتٍ. يَقُولُ وَلَا يَلْفِظُ، وَيَحْفَظُ وَلَا يَتَحَفَّظُ، وَيُرِيدُ وَلَا يُضْمِرُ».

إشاره إلى اطلاق بعض الصفات على الله تعالى كالسميع والحفيظ والمتكلم والمريد؛ لكنه مجرد من العوارض الجسميه والأسباب الماديّه، لأنّه ليس بجسم ولا ماده، والسميع أو الحفظ بمعنى علمه بجميع الأقوال والكلمات وحفظه لجميع الحوادث الماضيه وهى نتيجته للحفظ والسمع والإراداه، بعبارته أخرى فإنّ هذه العبارات من قبيل المجازات التى تفوق الحقيقه ولا ينبغى أبداً حين نسمع هذه

ص: ١٥٤

١- (١) «والج» من ماده «لوج» تعنى الدخول.

٢- (٢). «لهوات» جمع «لهاه» اللحمه فى سقف أقصى الفم وقيل معلقه بالحلق ومن هنا فهى تطلق على الحلق وقدوردت فى هذه الخطبه بهذا المعنى.

٣- (٣). «خروق» جمع «خرق» على وزن «برق» بمعنى الشقّ الذى يوجد فى الحائط أو فى غيره وتعنى هنا ثقب الأذن.

الألفاظ التي ابتدعها البشر لحياته اليوميّة وتتصف عادة بالجسميه والماديّه أن نتصور أنّها تجري كذلك على الذات القدسيّه، بل لا بدّ من التخلص من الأغطيه الجسميّه والماديّه كافه حين استعمال هذه الألفاظ بشأن الله تعالى، وهي بالتالي من قبيل:

«حُدِّ الغاياتِ واتُّرِكَ المَبادِيءُ» ليتمكن استعمالها بشأن الله تعالى.

احتمل بعض شراح نهج البلاغه أنّ المراد في العبارة

«يُحْفَظُ وَلَا يَتَحَفَّظُ» أنّ الله تعالى يحفظ الموجودات من الحوادث وهو لا يحتاج إلى حافظ، ولكن بالإلتفات إلى سائر الصفات التي وردت قبل هذه الصفه يتّضح أنّ المفهوم الصحيح لهذا الكلام ما ورد سابقاً بمعنى الإشاره إلى قوّه الحافظه.

ثم أشار عليه السلام إلى صفتين فقال:

«يُحِبُّ وَيَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ، وَيُغْضُ وَيُغْضَبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ».

رغم أنّ البعض تصور معنيين مختلفين لـ

«يُحِبُّ وَيَرْضَى» وكذلك

«يُغْضُ وَيُغْضَبُ» غير أنّ سياق كلام الإمام عليه السلام يفيد أنّهما ذات معنى واحد أو استعملتا بمعنى واحد.

على كلّ حال فهاتان الصفتان تشبهان الصفات المذكوره سابقاً، لأسبابهما بعد سماوى، لكن نتيجهما تصدق على الله فمحبّتنا ورضانا ممزوجه برقه القلب ونوع من الرغبه الباطنيّه كما أنّ بغضنا وغضبنا لألم ومعاناه باطنيّه مقرونه بإثاره الأعصاب وارتفاع ضغط الدم، ومن البديهي أنّ هذه المعاني ليست صادقه على الله، ولذلك فسّروا هذه الأوصاف بالنتيجه، فقالوا إنّ حبّ الله لعباده ورضاه عنهم بهذه الصيغه أنّه يشملهم عملياً بنعمه وتوفيقاته وبغضه وغضبه على شخص في أن يسلبه النعمه والتوفيق والسعاده.

هذا النوع من التفسير بالنتيجه أحد المبادئ الأساسيه الذي يستعمل بشأن العديد من صفات الله.

ثم قال عليه السلام:

«يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ: «كُنْ فَيَكُونُ» (١)

،لَابْصَوْتُ يَقْرَعُ، وَلَا بِنْدَاءٍ يُسْمَعُ؛ وَإِنَّمَا كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَمَثَلَهُ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كَائِنًا، وَلَوْ كَانَ قَدِيمًا لَكَانَ إِلَهًا ثَانِيًا».

مراد الإمام عليه السلام من هذا الكلام أن العبارة

«كُنْ فَيَكُونُ» وردت في الآيات القرآنية بمعنى الأمر اللفظي؛ ليس من قبيل أوامر الملوك والسلاطين لمن دونهم بحيث يجرون بعض الألفاظ على ألسنتهم ويسمعون مخاطبتهم، وربما يدفعهم الحرص أحياناً للصرخ حتى يسمع صوتهم من مكان بعيد، بل أوامر الله تعالى هي أوامر تكوينية وبتعبير آخر هي فعل، فإن أراد شيئاً (الإرادة أيضاً بمعنى العلم بالنظام الأصح) يوجد مباشرة، فلو أراد لوجدت الكائنات في لحظة واحدة كما توجد في تلك اللحظة السماء والأرض والنجوم والمجرات ولو أراد أيضاً لوجدت بصورة تدريجية خلال ألف سنة أو ملايين السنين دون زياده أو نقصه.

وفعل الله هو خلق الموجودات ليس على سبيل شبيه سابق؛ لأنَّ الأمر لو كان كذلك للزم تعدد الوجود الأنزلي وتعدد الإله والمعبود، وكما ذكرنا في أبحاث التوحيد فإنَّ التعدد في هذا المورد محال لأنَّ الوجود اللامتناهي واللامحدود من جميع الجهات يأبى التعدد.

ص: ١٥٦

لَمَّا يُقَالُ: كَانَ بَعِيدًا أَنْ لَمْ يَكُنْ، فَتَجَرَّى عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحَدَّثَاتُ، وَلَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ فَضْلٌ، وَلَا لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ، فَيَسِي تَوَى الصَّائِعِ وَالْمَصْنُوعِ، وَيَتَكَافَأُ الْمُتَبَدِّعُ وَالْيَدِيدُ. خَلَقَ الْخَلَائِقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالِ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَسِي تَعْنِ عَلَى خَلْقِهَا بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ. وَأَنْشَأَ الْأَرْضَ فَأَمْسَى كَهَا مِنْ غَيْرِ اشْتِعَالِ، وَأَرْسَاهَا عَلَى غَيْرِ قَرَارٍ، وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمٍ، وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمٍ، وَحَصَّنَهَا مِنَ الْأَوْدِ وَالْأَعْوِجَاجِ، وَمَنَعَهَا مِنَ التَّهَافُتِ وَالْإِنْفِرَاجِ. أَرْسَى أَوْتَادَهَا، وَضَرَبَ أَسْدَادَهَا، وَاسْتَفَاضَ عُيُونَهَا، وَخَدَّ أَوْدِيَّتَهَا؛ فَلَمْ يَهِنْ مَا بَنَاهُ، وَلَا ضَعُفَ مَا قَوَّاهُ. هُوَ الظَّاهِرُ عَلَيْهَا بِسُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَهُوَ الْبَاطِنُ لَهَا بِعِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَالْعَالِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا بِجَلَالِهِ وَعِزَّتِهِ. لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنْهَا طَلَبُهُ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ فَيُغْلِبُهُ، وَلَا يَقْوَتُهُ السَّرِيعُ مِنْهَا فَيَسْبِقُهُ، وَلَا يَخْتَانُ إِلَى ذِي مَالٍ فَيَزُقُّهُ. خَصَّ عَمَّ الْأَشْيَاءَ لَهُ، وَذَلَّتْ مُسِي تَكِينَهُ لِعَظَمَتِهِ، لَا تَسْتَطِيعُ الْهَرَبُ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَى غَيْرِهِ فَتَمْتَنِعُ مِنْ نَفْعِهِ وَضَرِّهِ، وَلَا كُفَّ لَهُ فَيُكَافِئُهُ، وَلَا نَظِيرَ لَهُ فَيَسَاوِيَهُ.

الشرح والتفسير: صفات أخرى في الجمال والجلال

أشار الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه إلى صفات أخرى من صفات الله ليكمل ما تطرق إليه سابقاً، فاتجه بادئ الأمر صوب أزليته الله تعالى فقال عليه السلام:

«لَا يُقَالُ: كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، فَتَجَرَّى عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحَدَّثَاتُ، وَلَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ

ل، وَلَا لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ، فَيَسْتَوِي الصَّانِعَ وَالْمَصْنُوعَ، وَيَتَكَافَأُ الْمُبْتَدِعَ وَالْبَدِيعَ (١)».

ثم خاض في شرح صفة أخرى من صفاته البارزة تعالى أي قدرته فتعرض لمسألة الابدع والخلق دون سابقه فقال:

«خَلَقَ الْخَلَائِقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالِ خَلَاءٍ مِنْ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَى خَلْقِهَا بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ». فحين نتأمل عالم الخلقه تطالعنا أنواع لا تحصى من المخلوقات في عالم الحشرات والنباتات والجمادات التي يمتاز كل منها ببنيته البديعه وخلقه الرائع الخاص، وهي الموجودات التي ليس لها من سابقه وقد كساها الله سبحانه حله الوجود من طيات العالم وساقها لمسيرتها التكاملية، والحال لو كان للإنسان بعض الصناعات لاكتسبها من الآخرين، فمثلاً تأمل الإنسان أجنحه الطيور وكيفيه طيرانها ففكر في صنع طائره غايه في البساطه، ثم جاء العلماء في زمان لاحق الواحد تلو الآخر ليستفيدوا من الاختراع السابق ويجدوا في إتمامه حتى بلغ الأمر ذروه تكامله في عصرنا الراهن.

وعلى هذا الأساس فإن علماءنا إمّا يستلهمون من الطبيعه في اختراعاتهم أو من الآخرين فهم لا يقومون بعمل دون سابقه ولا يقومون به دون الاستعانه بالآخرين والحال أعمالهم محدوده بينما الله تعالى وفي ايجاده لهذه المخلوقات المتنوعه كافه والتي لا تعد ولا تحصى ليس بحاجة إلى سابقه ولا لمعونه أحد.

ثم أتجه عليه السلام إلى جانب آخر من قدرته اللامتناهيه فقال:

«وَأَنْشَأَ الْأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ اشْتِغَالٍ، وَأَرْسَاهَا عَلَى غَيْرِ قَرَارٍ، وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمٍ، وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمٍ، وَحَصَّنَهَا مِنَ الْأَوْدِ (٢) لِأَعْوَجَاجٍ، وَمَنَعَهَا مِنَ التَّهَافُتِ (٣) وَالْإِنْفِرَاجِ (٤)».

ص: ١٥٨

١- (١) من الواضح أن الضمائر في بينها وعليها تعود إلى المحدثات، وأن قراءه صفات المحدثات بصيغه الإضافه وبدون الألف واللام (كما وردت في بعض النسخ) لأصبح المطلب أكثر وضوحاً، كما يصبح مفهوم العبارة أوضح إن استبدلت المبتدع بالمبتدع كما في بعض النسخ لأن المبتدع يعنى الخالق والبديع في هذه الحاله يعنى المخلوق والذي له معنى اسم المفعول.

٢- (٢) «أود» بمعنى الثقل الذي يوجب الاعوجاج.

٣- (٣) «التهافت» يعنى التساقط.

٤- (٤) «الانفراج» يعنى الانشقاق.

من المسلم به اليوم من قِبَل الجميع أنّ الكره الأرضيّه تدور منذ ملايين السنين حول نفسها والشمس في مدار معين في الحركة وهذه الحركة على درجه من السرعة المنتظمه والهادئه بحيث لا يشعر بها سكان الأرض ممّا دفع العلماء السابقين لاعتبار الأرض ثابتة ومركز العالم، ترى ماهذه القدره العظيمه التي حفظت ثبات الكره الأرضيّه منذ ملايين السنين ورغم تعدد حركاتها دون دعائم وأعمده، ودون أدنى تشقق وتحطم أجزاء رغم مضي كلّ هذه المدّه الزمانيّه؛ وهل من قدره غير القدره الإلهيّه من شأنها القيام بهذا العمل؟ إننا لنعلم اليوم أنّ المسافه التي جعلت الأرض بهذا البعد عن الشمس وفي وضع طبيعي معلول للتعاادل بين قوّه الجاذبه والدافعه، وعلى أساس الجاذبيّه فإنّ كلّ كتلتين تجذب إحداهما الأخرى بقوه تتناسب طردياً مع حاصل ضرب الكتلتين وعكسياً مع مربع المسافه بينهما. فهذه القوّه تجعل الأرض تندفع بسرعه نحو الشمس فتتجذب إليها وتتحوّل إلى بخار، ومن جانب آخر فإنّ الحركة الدورانيّه حول المركز تسبب فرار ذلك الجسم من المركز والتي تسمى قوّه الطرد المركزيه وكلّما كانت الحركة أسرع كانت القوّه الطارده أكبر، ولذلك حين يدور القلاب الحجري بسرعه ويترك فجأه فإنّه يقذف إلى نقطه بعيده، وعليه وبغيه دوران الأرض في مدارها لملايين السنين بصوره طبيعيه لا بدّ من مساواه قوّه الجاذبيّه للقوّه الطارده، وتختل لهذه المعادله لو إزدادت أو قلت المسافه وكذلك لو ازدادت أو قلت الحركة فنتيه الأرض في الفضاء أو تنجذب باتجاه الشمس.

وهنا يرد هذا السؤال: لم كلّ هذه العبارات المختلفه؟

ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّها من قبيل العطف التفسيري؛ ولكن يبدو أنّ الإمام عليه السلام استعمل كلّ عبارته بمعنى معين ليوضح جوانب الموضوع كافّه، توضيح ذلك إن أريد ثبات جسم فلا بدّ من موضع يستند إليه، ومن ثم حاجته لدعائم وأعمده قويه ومحكمه، وقد قال الإمام عليه السلام إنّ الله أثبت الأرض دون الحاجه إلى

هذه الأمور، فهي تسيح في الفضاء بانتظام دون موضع وأعمده، ثم أشار في العبارة اللاحقه إلى أن الله حال دون إعوجاج الأرض أو تهافتها وانفراجها وأودها، ولكل من هذه المفردات معنى معين، فالأود إشارة إلى الثقل والضغط الذى يؤدى إلى الإعوجاج، كما يوجب أحياناً التهافت أو الانفراج فى البناء، والله حفظ الأرض من كل ذلك.

ثم تطرق عليه السلام إلى سائر عجائب الأرض والتدبير الإلهى لإعدادها للحياه البشرىة فقال عليه السلام:

«أُرْسَى أَوْتَادَهَا، وَضُرِبَ أَسْدَادُهَا(١)، وَاسْتَفَاضَ عُيُونُهَا، وَحَدَّ(٢) أَوْدِيَّتَهَا؛ فَلَمْ يَهِنْ مَا بَنَاهُ، وَلَا ضَعُفَ مَا قَوَّاهُ».

فالعبارة الأولى إشارة إلى العديد من الآيات القرآنية الواردة بشأن الجبال وأن الله وتد بها الأرض وجعلها كالمسامير، فقد جاء فى سورة النبا: «وَالْجِبَالُ أَوْتَادًا»(٣)(٤) ولما كان أحد آثار الجبال أنها تكمن بصورة سد فى مقابل السيول والعواصف فقد عبّر عنها بالأسداد، وبالنظر إلى أن الخلل والشق فى الجبال والمواضع الخالية فى بعض أقسامها يؤدى إلى خزن الماء ومن ثم جريان العيون، وكذلك شقوق الجبال التى تؤدى إلى ظهور الأودية وانحدار مياه الأمطار إلى الأودية فقد ركز عليها الإمام عليه السلام فى خطبته.

ولما أراد عليه السلام الإشارة إلى ربوبية الله وتدبيره التى تعدّ من صفات أفعاله فقد تطرق إلى صفات الذات وأشار بعبارات غاية فى الروعه والدقه إلى علم الله وقدرته ووحدانيته فقال:

«هُوَ الظَّاهِرُ عَلَيْهِ بِسُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَهُوَ الْإِطْنُ لَهَا بِعِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَالْعَالِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا بِجَلَالِهِ وَعِزَّتِهِ. لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنْهَا طَلَبُهُ، وَلَا

ص: ١٦٠

١- (١) . «أسداد» جمع «سد».

٢- (٢) «خد» أخذ فى الأصل من خد الإنسان الواقع على طرفى الوجه ثم اطلق على الشقوق الواسعه والعميقه فى الأرض. وذكر فى الخطبه بمعنى الشق.

٣- (٣) . سورة النبا، الآية ٧.

٤- (٤) راجع شرح هذا الموضوع فى التفسير الأمثل ذيل الآية ٣ من سورة الرعد والآيه ١٥ من سورة النحل.

يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ فَيَغْلِبُهُ، وَلَا يَفُوتُهُ السَّرِيعُ مِنْهَا فَيَسْبِقُهُ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى ذِي مَالٍ فَيَزُقُّهُ».

أساس كل هذه الصفات في الواقع علمه وقدرته اللامتناهية، ومن له القدره اللامتناهية يغلب كل شيء ويسمو على كل موجود، لا يغلبه شيء ولا يفر من قدرته وبالطبع غنى عن الكل، لأنه القادر على كل شيء.

كما أن من كان علمه لامتناهياً فهو عليم ببواطن الأشياء وظواهرها بل الظاهر والباطن لديه على حد سواء، كما يتساوى لديه القوى والضعيف والبعيد والقريب والأعلى والأسفل.

ولا يخفى الدور الذي يلعبه الالتفات إلى هذه الصفات في تربيته الإنسان وتزكيتة بغض النظر عن الارتقاء بمستوى معرفته.

ثم واصل كلامه عليه السلام في شرحه لقدره الله تعالى في عالم الوجود فقال:

«خَضَعَتِ الْأَشْيَاءُ لَهُ، وَذَلَّتْ مُسْتَكِينَةً لِعَظَمَتِهِ، لَأَسْتَطِيعَ الْهَرَبَ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَى غَيْرِهِ فَتَمْتَنِعَ مِنْ نَفْعِهِ وَضَرِّهِ».

نعم فالعالم كله ملك الله وقوانينه حاكمه في كل مكان وأينما اتجهنا فإتماً نحن خاضعين لسلطانه وليس خارج ذلك إلى العدم ولا معنى للفرار من سلطته.

وهنا يتساءل شراح نهج البلاغه أن الفرار من الضرر ممّا لا شك فيه؛ ولكن ما المراد بالهروب من المنفعة؟

فأجابوا: إن المراد بأن الشخص إذا لم يرد أن يكون مديناً لآخر لكي لا يخضع له أو بعباره أخرى يهرب من منافعه وعطاياه لكي لا يضطر للخضوع له؛ فإن مثل هذا العدد لا معنى له إزاء الله ولطفه وقهره.

قال تعالى: «قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً» (١).

ص: ١٦١

ثم جرى الكلام هنا عن الامتناع عن قبول رحمه الله وعقابه فأشار عليه السلام إلى أن لا سبيل أمامكم سوى القبول سواء أراد بكم رحمه أو مصيبه إزاء رحمته؛ ففي كل الأحوال أنتم مدينون له.

ثم اختتم عليه السلام الخطبه بالتأكيد على وحدانيته سبحانه فقال:

«وَلَا كُفَّاءَ لَهُ فَيُكَافِئُهُ، وَلَا نَظِيرَ لَهُ فَيَسَاوِيَهُ».

قلنا مراراً، إنّ الذات الإلهية لامتناهيه من جميع الجهات، ومن الطبيعي أن تستحيل الأثنيه في الوجود اللامتناهي، لأنّ التعدد إنّما يقتصر دائماً بالمحدوديه، لأنّ كلّ واحد منهما فاقد لوجود الآخر، أو بعبارة أخرى فإنّ حدّ كلّ واحد منهما نقطه نهايته وهذا ما لا ينسجم مع الذات الإلهية اللامتناهيه وغير المحدوده.

والجدير بالذكر أنّ هذا القسم ينطلق بالتوحيد ويختتم بالتأكيد عليه بعد ذكر سلسله من صفات الذات وصفات الأفعال.

ص: ١٦٢

هُوَ الْمُفْنَى لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا، حَتَّى يَصِيرَ مَوْجُودُهَا كَمَفْقُودِهَا. وَلَيْسَ فَنَاءُ الدُّنْيَا بَعْدَ ائْتِدَاعِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ اِنْتِشَائِهَا وَاخْتِرَاعِهَا. وَكَيْفَ وَلَوْ اجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا مِنْ طَيْرِهَا وَبَهَائِمِهَا، وَمَا كَانَ مِنْ مُرَاحِهَا وَسَائِمِهَا، وَأَصْنَافِ اَسْنَاخِهَا وَأَجْنَاسِهَا، وَمُتَبَلِّدِهَا وَأَكْيَاسِهَا، عَلَى إِحْدَاثِ بَعُوضِهَا، مَا قَدَرَتْ عَلَى إِحْدَاثِهَا، وَلَمَا عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلِ إِلَى إِيجَادِهَا، وَلَتَحَيَّرَتْ عَقُولُهَا فِي عِلْمِ ذَلِكَ وَتَاهَتْ، وَعَجَزَتْ قُوَاهَا وَتَنَاهَتْ، وَرَجَعَتْ خَاسِئَهُ حَسِيرَةً، عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ، مُقَرَّةٌ بِالْعَجْزِ عَنِ اِنْتِشَائِهَا، مُدْعِنَةٌ بِالضَّعْفِ عَنِ اِنْفَائِهَا!

الشرح والتفسير: العجز عن خلق بعوضه

تحدث الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه عن قضيه فناء العالم وقدره الله المطلقه على خلق العالم وعدمه بعد أن فرغ من أبحاثه العميقه فى الأقسام السابقه من هذه الخطبه بشأن خلق العالم ولا سيما الأرض وعجائبها فقال:

«هُوَ الْمُفْنَى لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا، حَتَّى يَصِيرَ مَوْجُودُهَا كَمَفْقُودِهَا».

ثم واصل كلامه فقال:

«وَلَيْسَ فَنَاءُ الدُّنْيَا بَعْدَ ائْتِدَاعِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ اِنْتِشَائِهَا وَاخْتِرَاعِهَا. وَكَيْفَ وَلَوْ اجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا مِنْ طَيْرِهَا وَبَهَائِمِهَا، وَمَا كَانَ مِنْ مُرَاحِهَا (١) وَسَائِمِهَا (٢)، وَأَصْنَافِ اَسْنَاخِهَا (٣) وَأَجْنَاسِهَا، وَمُتَبَلِّدِهَا (٤) أَمَمِهَا وَأَكْيَاسِهَا،

ص: ١٦٣

١- (١). «مراح» من ماده «روح» مأوى الحيوانات.

٢- (٢) «سائم» من «سوم» على وزن «قوم» الراعى وتعنى فى الأصل الذهب خلف الشىء.

٣- (٣) «اسناخ» جمع «سنخ» تعنى الأصول والجذور وهنا تعنى أنواع الحيوانات.

٤- (٤) «متبلده» من ماده «بلاد» بمعنى الغباء مقابل الذكاء.

عَلَى إِحْدَاثِ بَعُوضِهِ، مَا قَدَّرَتْ عَلَى إِحْدَاثِهَا، وَلَا عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلِ إِلَى إِيجَادِهَا».

فهذا الكلام لا يعد حقيقه إبان صدوره من الإمام عليه السلام آنذاك، بل هو حقيقه واقعه اليوم، ذلك أنه لو اجتمع علماء العالم كافة لخلق بعوضه لعجزوا عن ذلك، لأنّ قضيه بعث الحياه فى الجمادات مستحيله، أضف إلى ذلك فإنّ بنيه البعوضه من حيث الأ-جنحه والأرجل والدماغ والأعصاب وجهاز الهضم والانجاب على درجه من التعقيد والدقه فغير الخالق سبحانه لا يستطيع المخلوق خلق بعوضه.

وتشير كلّ عبارته من العبارات:

«مَا قَدَّرَتْ عَلَى إِحْدَاثِهَا، وَلَا عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلِ إِلَى إِيجَادِهَا» إلى نقطه معينه، فالعبارته الأولى تشير إلى عجز الإنسان والحيوان عن خلق بعوضه، بينما تشير العبارته الثانيه إلى الجهل بتلك الأسباب والعوامل.

وقد ورد مثل هذا المعنى فى القرآن الكريم بشأن خلق الذباب حيث قال تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ» (١).

ثم قال عليه السلام:

«وَلَتَحَيَّرْتَ عَقُولُهَا فِي عِلْمِ ذَلِكَ وَتَاهَتْ، وَعَجِزَتْ قُوَاهَا وَتَنَاهَتْ، وَرَجَعَتْ خَاسِمَةً (٢) حَسِيرَةً (٣)، عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ، مُقَرَّرَةٌ بِالْعَجْزِ عَنْ إِنشَائِهَا، مُدْعِنَةٌ بِالضَّعْفِ عَنْ إِفْنَائِهَا».

نعم لو عزمت هذه البعوضه الصغيره على أذى الإنسان وسائر الحيوانات ولم يحد الله من انجابها لتكاثرت بشكل يضيق الحياه على الإنسان ولعجزت كلّ المبيدات عن مواجهتها، وما نشاهده اليوم من القضاء عليها فى بعض المناطق بفعل المواد السامه فذلك لأنّها محدوده فى انجابها وإلا لكانت كالجراد فى خروجها عن

ص: ١٦٤

١- (١) سورة الحج، الآية ٧٣.

٢- (٢). «خاسمته» من ماده «خسأ» على وزن «مدح» تعنى فى الأصل الذله وخاسىء بمعنى الذليل والعاجز.

٣- (٣) «حسير» من «حسر» على وزن «حبس» تعنى فى الأصل العرى ورفع غطاء شىء ثم استعملت بمعنى الضعف والتعب.

السيطره ولشككت أسراباً عظيمة تملأ أركان الفضاء، وهذه البعوضه التي تبدو في ظاهرها ضعيفه قد كشفت في بعض الأحيان عن قدرتها - بإذن الله - لتهاجم أحياناً بصورة جماعيه فيلاً فتقضى عليه.

ويمتاز بعضها - في ظروف معينه - بنقلها للميكروبات الخطيره أو السموم القاتله فتشعر الإنسان بعجزه عن مواجهتها لتثبت له مدى قدرتها.

تأملان

١. المعاد الجسماني واعاده المعدوم

تحدّث بعض شرّاح نهج البلاغه بشأن المعاد الجسماني عند العبارة

«هُوَ الْمُفْنِي لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا» التي تصدر بها هذا الجانب من الخطبه واستشهدوا على ذلك بهذه الآية: «يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ» (١).

ثم أضافوا أنّ جميع الأنبياء وخاصه النبي الأكرم صلى الله عليه و آله أخبر عن فناء هذا العالم، وأضافوا أنّ الفلاسفه خالفوا هذا الأمر لا على أساس عدم إمكانيه فناء العالم، بل على أساس استحاله انعدام العالم مع بقاء العله وهي الذات الإلهيه المقدسه.

ثم خاضوا في شرح مسأله امتناع إعادته المعدوم وأشاروا إلى شكّ البعض في مسأله المعاد الجسماني، والحقّ فناء العالم ليس بمحال، لأنّ الله فاعل مختار وإن رأى المصلحه خلق الشيء أو عدمه، كما ليس هنالك من شكّ في المعاد الجسماني، فقد صرّح القرآن في العديد من آياته بهذا الأمر، كما أنّه ليس هنالك من دليل عقلي على امتناعه (٢).

وليست هنالك من علاقته بين مسأله استحاله إعادته المعدوم ومسأله المعاد، لأننا إن قلنا إعادته المعدوم مستحيله؛ يعني ذلك أنّ إعادته ذلك الشيء بجميع خصوصياته حتى الزمان والمكان محال وبالطبع ليست هنالك من عوده للزمان الذي مضى، إلّا

ص: ١٦٥

١- (١) سورة الأنبياء، الآية ١٠٤.

٢- (٢) انظر: هذا الموضوع في الجزء الأول من نفحات الولاية بحث المعاد الجسماني.

أنّ عوده الإنسان في المعاد يوم القيامة لا تعنى عوده الزمان والمكان الماضيين، فليس هنالك من عاقل يزعم بعوده ذلك الزمان الذى عاشه في الدنيا يوم القيامة، بل المراد عوده إنسان بجميع خصائصه في زمان ومكان آخر، مثلاً حين يحيى المسيح عليه السلام ميتاً فسيكون ذلك الشخص السابق قطعاً وإن أحياه في زمان ومكان آخر، وهكذا إحياء الأموات في القيامة.

وزبد الكلام فما جاء في هذه الخطبه هو بعينه ما ورد في القرآن الكريم، بل شرح الإمام عليه السلام في الواقع آيات المعاد هنا بعبارات رائعة وعميقه.

٢. الخلقه العجيبه للبعوض!

صرّح الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه لواجتمعت الكائنات كافّه لخلق بعوضه لما استطاعت، ولواطق الله العنان للبعوض في التكاثر لما كانت هنالك من قوّه في العالم قادره على القضاء عليها وكما أسلفنا فإنّ هذا الكلام لا يبدو حقيقه على عهد نزول القرآن وعصر الإمام فحسب بل هو كذلك حتى في عصرنا الراهن.

ف للبعوضه خلقه معقده؛ أغلبها لا- تعيش سوى في المياه الراكده في حافات الأنهار والمستنقعات وما شابه ذلك، وتضع اثني البعوض ما يقرب من ١٥٠ بيضه في كلّ مرّه لتفقس عن بعوضه ولكلّ بعوضه وليده انبوب تنفسى نحيف للغاية يرتبط بسطح المياه تتعلق به البعوضه، ثم تظهر بعد بضعه أيام قشره على جوانبه كما يحدث الكثير من التغيرات في بنيتها داخل القشره التي تبدو ظاهراً عديمه الحركة، وبعد عدّه أيام تخرج البعوضه غير الكامله من تلك القشره فتطير وتقضى سائر عمرها لتعيش في الهواء.

والتغيرات التي تطرأ خلال هذه المدّه القصيره على بنيه البعوضه وتحولها من كائن مائي إلى طائر حقاً لمذهله وعجيبه.

يقول العلماء إنّ ذكور البعوض تتغذى على عصاره الفواكه وسوائل النباتات؛

بينما تتغذى الاناث على امتصاص الدم فهي تلسع الإنسان وتمتص دمه كماده غذائيه.

والبعوض حشرات صغيره لها جناحان ولو وُضعت تحت المجهر لشوهدت بنيتها الظريفه والعجيبه ويستحيل على الإنسان صنع مثلها فضلاً عن كائن حي قادر على التغذية والنمو والانجاب.

والعجيب أن بعضها عديمه اللون بحيث لا ترى بالعين المجرده.

والبعوض العادى وإن كانت حشرات مؤذيه قد تسلب الإنسان القوى والشديد البنيه نومه ليله كامله، لكنها غالباً ليست خطيره، مع ذلك هنالك بعض البعوض خطير وسام بحيث يستطيع القضاء على أقوى الحيوانات(١).

ص:١٦٧

١- (١) القاموس.

وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ، يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحِدَهُ لَأَشْيَءَ مَعَهُ كَمَا كَانَ قَبْلَ ابْتِدَائِهَا، كَذَلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا، بِلَا وَقْتٍ وَلَا مَكَانٍ، وَلَا حِينَ وَلَا زَمَانَ.

عُدِمَتْ عِنْدَ ذَلِكَ الْأَجَالُ وَالْأَوْقَاتُ، وَزَالَتِ السُّنُونَ وَالسَّاعَاتُ. فَلَا شَيْءَ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ الْأُمُورِ. بِلَا قُدْرَةٍ مِنْهَا كَانَ ابْتِدَاءُ خَلْقِهَا، وَبِغَيْرِ امْتِنَاعٍ مِنْهَا كَانَ فَنَائُهَا، وَلَوْ قَدَّرَتْ عَلَى الْإِمْتِنَاعِ لَدَامَ بَقَاؤُهَا.

لَمْ يَتَكَاءَ بِهِ صُنْعٌ شَيْءٍ مِنْهَا إِذْ صَيَّنَعَهُ، وَلَمْ يُوَدِّهِ مِنْهَا خَلْقٌ مِمَّا خَلَقَهُ وَبَرَّأَهُ، وَلَمْ يُكُونَنَّهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَانِ، وَلَا لِخَوْفٍ مِنْ زَوَالٍ وَنُقْضَائِهِ، وَلَا لِإِلْسِيَتِ بَعَائِنِهَا عَلَى تَمَدُّ مَكَائِرِهَا، وَلَا لِإِلْخِيَارِ بِهَا مِنْ ضِدِّ مُتَاوِرٍ، وَلَا لِإِلْزَادِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ، وَلَا لِإِمْكَاتَرِهِ شَرِيكَ فِي شِرْكِهِ، وَلَا لِوَحْشِهِ كَانَتْ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْهَا.

الشرح والتفسير: الغنى عن الخلق

قال الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه ومواصله لكلامه السابق بشأن وجود العالم وعدمه:

«وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ، يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحِدَهُ لَأَشْيَءَ مَعَهُ. كَمَا كَانَ قَبْلَ ابْتِدَائِهَا، كَذَلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا، بِلَا وَقْتٍ وَلَا مَكَانٍ، وَلَا حِينَ وَلَا زَمَانَ.»

ثم واصل كلامه فقال:

«عُدِمَتْ عِنْدَ ذَلِكَ الْأَجَالُ وَالْأَوْقَاتُ، وَزَالَتِ السُّنُونَ وَالسَّاعَاتُ.»

ثم استنتج من ذلك:

«فَلَا شَيْءَ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ

الأُمُورِ. بِإِلَاقِدْرِهِ مِنْهَا كَانَ ائْتِدَاءُ خَلْقِهَا، وَبِغَيْرِ ائْتِنَاعِ مِنْهَا كَانَ فَنَاقُهَا، وَلَوْ قَدَّرَتْ عَلَيَّ ائْتِنَاعِ لَدَامَ بَقَاؤُهَا».

إشاره إلى تسليم جميع عالم الخلقه لإرادته الله سبحانه وتعالى، فليس له من اختيار في بدايه خلقه ولا حين زواله ونهايه حياته، فلو كان خلقه وفناؤه بيده لعاش الخلود، فمما لا شك فيه كل كائن يسعى لبقائه.

طبعاً هذا الكلام لا يتنافى مع كون الإنسان مختاراً في أفعاله، لأنّ مراد الإمام عليه السلام بيان بدايه الخلقه وختامه الخارج عن الإراده والاختيار والذي يتم وفق الحكمة والمصلحه.

ثم أشار عليه السلام إلى هذه النقطة فقال:

«لَمْ يَتَّكَأْ دُهُ (١) صُنْعَ شَيْءٍ مِنْهَا إِذْ صَنَعَهُ، وَلَمْ يُوْذَدْ (٢) مِنْهَا خَلْقُ مَا خَلَقَهُ وَبَرَأَهُ».

لأنّ التعب والضعف والعجز من خصائص الإنسان المحدود القدره، فإنّ أراد القيام بعمل يفوق طاقته فإنه يعجز، وإن كان بمستوى طاقته فإنه يشعر بالتعب أمّا بالنسبه لمن كانت قدرته مطلقه فحمل القشه من الأرض والجبل العظيم لديه على حد سواء فهو ليس بحاجة لوسيله أو أده ليستعين بها وإرادته تكفي في ذلك: «إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (٣).

وينسجم كلام الإمام عليه السلام هذا مع ما ورد في جانب من آيه الكرسي: «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَوَلَّى يَوْمَ الْقِيَامَةِ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى يُدْعَى بِحَمْدِهِ» (٤) وقال في موضع آخر بعد الإشاره إلى خلق السماء والأرض «وَلَمْ يَعْنَى بِخَلْقِهَا» (٥).

ثم خاض عليه السلام في بيان هذه النقطة المهمه في أن خلقه لعالم الخلقه لم يكن لجلب

ص: ١٧٠

١- (١). «يتكأده» من «كاد» على وزن «وعد» بمعنى المشقه والعبارة هنا تعني لا يشق عليه وكؤود: كثير المشقه.

٢- (٢) «يؤده» من ماده «أود» على وزن «قول» بمعنى الثقل ولم يؤده بمعنى لم يثقل عليه.

٣- (٣) سورة يس، الآيه ٨٢.

٤- (٤). سورة البقره، الآيه ٢٥٥.

٥- (٥) سورة الاحقاف، الآيه ٣٣.

نفع أو دفع ضرر لأنه غنى بالذات ولا فناءه بعد خلقه لتعب منه، وهكذا ينفي أى حاجه تحتاجها الذات القدسيه فى خلق العالم ومن ثم فى فئاته.

فقد أشار عليه السلام فى القسم الأول إلى الأهداف السبعه التى يتطلع إليها الإنسان عاده فى قيامه بأعماله ثم نفاها جميعاً عن الله تعالى كونها دلالات على الضعف والعجز والنقص فقال إنه لم يخلق الموجودات لتوطيد حكومته كونه وجوداً لا متناهى وغنى من جميع الجهات:

«وَلَمْ يُكَوِّنْهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ».

كما أنه واجب الوجود الذى ليس للزوال والنقصان من سبيل إليه
«وَلَا لِحَوْفٍ مِنْ زَوَالٍ وَنُقْصَانٍ».

كما ليس له مثيل:

«وَلَا لِلْأَشْيَاءِ بِهَا عَلَى نَدِّ مَكَاتِرِ (١)».

وبما أنه لا ضد له ولا عدو والكل خاضع لسيطرته

«وَلَا لِلْإِحْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدِّ مُتَاوِرٍ (٢)».

كما أنه ليس بحاجه لمخلوقاته ليقضى بها حاجته

«وَلَا لِلْإِزْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ».

وحيث له شريك ولا قرين

«وَلَا لِمُكَاتَرِهِ شَرِيكَ فِي شَرِكِهِ».

وكذلك:

«وَلَا لَوْحْشِهِ كَانَتْ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْهَا».

لأن الوحشه حيث الشعور بالخطر من جانب العدو أو بروز المشاكل والمصائب ولا عدوله ولا مشكله تجرى عليه، ومن الطبيعى أن هذه الأهداف السبعه إنما تعود لجلب المنفعه ودفع الضرر، لكن الإمام عليه السلام شرحها بأسلوب رائع وركز على جميع المصاديق بما لا يتصور أبلغ وأفصح منه ومن الواضح حين تنتفى كل هذه الأهداف يثبت أن الله خلق الخلق إفاضه ولطفاً بالمخلوقات لا لجلب منفعه، لأن جلب المنفعه ودفع الضرر من لوازم الممكنات وهو واجب الوجود.

- ١- (١) «مكآثر» من «الكآثره» كما تطلق على من يطلب الكآثره.
- ٢- (٢) «المآور» من ماده «آور» على وزن «آور» تعنى المهاجم.

هل هناك زمان دون مخلوق

ما ذكره الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه حول فناء الدنيا في البدايه والنهايه حيث إن الله واحدٌ أزليٌّ أبدى ليس له بدايه ولا- نهايه، آثار سؤالاً لدى شراح نهج البلاغه وهو كيف مرت مدّه لم يظهر فيها الفيض من الذات الإلهيه الفياضه على الدوام وأجابوا بأنّ المراد ليس إنعدام وجود الأشياء بصوره مطلقه بل في مرحله الذات الإلهيه، أى كانت هنالك موجودات لكنها ليست مستقله عنه (طبعاً هذا الجواب لا يبدو مقنعاً).

إن السؤال الأهم الذى نطرحه هنا هو: كيف ينسجم ما طرحه الإمام عليه السلام بشأن فناء العالم مع ظاهر الآيات القرآنيه؟ فقد صرح القرآن في عدّه آيات أنّ هذا العالم سيتعرض إلى الدمار فى خاتمه المطاف لا أنّه يعدم بالمرّه إذ قال: «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ» (١).

وقال فى موضع آخر: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ» (٢).

كما قال: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا» (٣).

إضافه إلى ذلك يقول إنّ الموتى يخرجون من قبورهم، ويعتقد أغلب العلماء أنّ الجنّه والنار موجودتان الآن طبق ظاهر الآيات والروايات وأعمالنا هى التى تبلورهما، فكيف والحال هذه يصرح بانعدام جميع الأشياء بنهايه العالم ولا يبقى سوى الله فيزول حتى الزمان والمكان؟ كما ورد فى الخطبه المذكوره، والذى يقال

ص: ١٧٢

١- (١) سورة التكوير، الآيات ١-٦.

٢- (٢) سورة ابراهيم، الآيه ٤٨.

٣- (٣) سورة طه، الآيات ١٠٥-١٠٧.

فى جواب السؤال الأول: كما أنّ الله فىاض فهو حكيم على الاطلاق وفاعل ليس بمجبر فمممكن أن تقتضى حكمته أن لا يكون شىء فى البدايه ثم يوجد، وعليه فإنّ فىضه لا يمنع من انعدام الإشياء قبل خلقها.

ويقال فى الجواب على السؤال الثانى، إنّ العالم يتحطم فى البدايه كما ورد فى الآيات المذكوره، لكنه يعدم بعد ذلك بصوره كليه بحيث لا- يبقى سوى الذات القدسيه ثم يكتسب كلّ ما فنى - بطريقه إعاده المعدوم وبالطبع بشكلها المعقول (1)- حله الحياه وكما كان فى السابق بالضبط من تلك الجنّه والنار والإنسان والقبور وهذا أمر معقول وسنشير إلى هذا المطلب فى القسم القادم من الخطبه أيضاً.

ص: ١٧٣

١- (١). لإعاده المعدوم صيغتان؛ صيغه غير معقوله وأخرى معقوله، والصيغه غير المعقوله أن يعود الموجود الذى فنى بجميع خصائصه بما فيه الزمان إلى ما كان عليه فى السابق وهذا محال حيث لا معنى لعوده الزمان ثم إنّه تناقض، أمّا الصيغه المعقوله فهى أن يعاد كلّ شىء بصورته السابقه ما عدا الزمان، ولعل عدم الإلتفات إلى هذا الفارق أدى إلى ذلك النزاع اللفظى بين العلماء بشأن إعاده المعدوم فرآها البعض محاله بينما رآها البعض الآخر ممكنه.

ثُمَّ هُوَ يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا، لِلْسَّامِ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي تَضْرِيْفِهَا وَتَدْبِيرِهَا، وَلَا لِرَاحِهِ وَاصِلَهُ إِلَيْهِ، وَلَا لِثِقَلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ. لَا يُمَلُّهُ طَوْلُ بَقَائِهَا فَيَدْعُوهُ إِلَى سُرْعِهِ إِفْنَائِهَا، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ دَبَّرَهَا بِلُطْفِهِ، وَأَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ، وَأَتَقَنَهَا بِقُدْرَتِهِ، ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا، وَلَا اسْتِعَانَهُ بِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهَا، وَلَا لِانْصِرَافٍ مِنْ حَالِ وَخَشِهِ إِلَى حَالِ اسْتِثْنَاءِ، وَلَا مِنْ حَالِ جَهْلِ وَعَمَى إِلَى حَالِ عِلْمٍ وَالتَّمَّاسِ، وَلَا مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ إِلَى غِنَى وَكَثْرَةٍ، وَلَا مِنْ ذُلٍّ وَضَعْفٍ إِلَى عِزٍّ وَقُدْرَةٍ.

الشرح والتفسير: دوام الخلقه والفناء

لما فرغ الإمام عليه السلام من بيانه لأهداف عالم الخلق تحدّث في هذا الجانب من الخطبه عن فناء العالم والهدف من ذلك فقال:

«ثُمَّ هُوَ يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا، لِلْسَّامِ (١) دَخَلَ عَلَيْهِ فِي تَضْرِيْفِهَا وَتَدْبِيرِهَا، وَلَا لِرَاحِهِ وَاصِلَهُ إِلَيْهِ، وَلَا لِثِقَلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ. لَا يُمَلُّهُ طَوْلُ بَقَائِهَا فَيَدْعُوهُ إِلَى سُرْعِهِ إِفْنَائِهَا».

فجميع هذه الأمور كالتعب والعجز والملايه وطلب الراحة، ناشئه من محدوديه القوه وقدره الفاعل وليس لهذه الحوادث من سبيل إلى صاحب القدره المطلق، فهذه كلّها صفات الممكنات ومن توهم مثل هذه الصفات على الله فقد وقع في هوه

ص: ١٧٥

١- (١). «سأم» بمعنى التعب والملل ونفى الملل في العبارات التاليه ليس تكراراً بل نفى في العبارة الأولى الملل الناشئ من تدبير العالم من الذات القدسيه، وفي العبارة التاليه الملل الناشئ من طول بقاء العالم.

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا أو هنالك من يحتمل هذه الأمور على الله لينفيها الإمام عليه السلام؟

لا- شك فى أن أصحاب العقول السليمه لا- يتصورون مثل هذا الاحتمال، إلا أن هذه الوسوسه قد تساور أذهان بعض الأفراد العاديين، أولئك الذين يرون الله جسمًا ويرون له أذنًا وعينًا ويدًا ورجلاً وظفيره ويا له من وهم ساذج! والسؤال الآخر الذى يرد هنا أن الإمام عليه السلام يذكر هذه الأهداف لنفى فناء الدنيا إلا أنه لم يذكر بدل ذلك أى هدف ايجابى والجواب على هذا السؤال واضح: أن الله حكيم وكل أفعاله تستند إلى الحكمة التى تعود آثارها وفوائدها على الإنسان وسائر الموجودات، لا إلى ذاته القدسيه الغنيه عن كل شىء، ولعل الهدف الأصلي من هذا الفناء حتى لا يشتهب الإنسان فيتصور وجوده من نفسه ويعتقد بأزليه وأبديته السماء والأرض وليعلم أن كل شىء متوقف على إرادته الله.

ثم قال عليه السلام فى مواصلته لكلامه وفى خلاصه للأبحاث السابقه:

«وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ دَبَّرَهَا بِالْطُّفِيِّ، وَأَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ، وَأَتَقَنَهَا بِقُدْرَتِهِ، ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا، وَلَا اسْتِعَانَةَ بِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهَا، وَلَا لِإِنصَافٍ مِنْ حَالٍ وَخَشَهُ إِلَى حَالِ اسْتِئْثِنَاسٍ، وَلَا مِنْ حَالِ جَهْلِ وَعَمَى إِلَى حَالِ عِلْمٍ وَالتَّمَّاسِ (١)، وَلَا مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ إِلَى غِنَى وَكَثْرَةٍ، وَلَا مِنْ ذُلٍّ وَضَعَةٍ (٢) إِلَى عِزٍّ وَقُدْرَةٍ».

فما بينه الإمام عليه السلام فى ختام هذه الخطبه وضمن ست عبارات نفى الأهداف التى لا تليق بذاته الطاهره بالنسبه لخلق العالم؛ باختلاف طفيف مع الأهداف السبعه التى مضت فى الأقسام السابقه فذكرها الإمام عليه السلام هنا بصيغه خلاصه وبعبارات جديده وخلاصتها أنه لم تكن لديه من حاجه لإيجاد عالم الخلق ولا فى فئانه ولا فى

١- (١). «التماس» من لمس بمعنى الطلب.

٢- (٢) «ضعه» من ماده «وضع» بمعنى الخسه.

وهنا يطرا هذا السؤال أيضاً: إن كان خلق الله للعالم ثم إفناؤه ثم الخلق الجديد لا لنفع ولا حاجة ودفع نقص فماذا كان هدفه من ذلك ولماذا لم يشر الإمام عليه السلام إلى ذلك الهدف؟

والجواب على عن هذا السؤال هو ما ذكرناه سابقاً فهو وجود كامل من جميع الجهات، وليس هنالك لقيامه بأفعاله ما يعود إليه، بل يعود عادة على المخلوقات والممكنات دون أن يعود عليه بشيء، وبعبارة أخرى كل ما لدى مخلوقاته منه وليس لديهم من شيء فيهبوه لله: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ» (١).

ص: ١٧٧

وَهِيَ فِي ذِكْرِ الْمَلَّاحِمِ (١)

نظرة إلى الخطبة

تتكون هذه الخطبة في الواقع من قسمين، تطرق الإمام عليه السلام في القسم الأول إلى قوم سيتصدون في المستقبل للدفاع عن الحق والقيام من أجل بسط القسط والعدل في عصر يُملأ فيه العالم بالمفاسد ويضيق فيه الناس والذي يتناسب مع ظهور المهدي عليه السلام وصحبه.

وفي القسم الثاني وعظ أصحابه وأهل زمانه في اجتناب الفتن وعدم التفرق عن إمامهم.

وجدير ذكره أنّ المدائني - كما ورد في سند الخطبة - ذكر في كتابه (صفين) أقسام أخرى من هذه الخطبة التي لم يذكرها المرحوم السيد الرضى وقال في

ص: ١٧٩

١- (١) سند الخطبة: روى هذه الخطبة أبو الحسن المدائني من علماء القرن الثالث في كتاب (صفين) وتبدأ الخطبة التي رواها «إذا كثر فيكم الاخلاط...» ثم ذكر الخطبة بعد عبارات مفصلة مع اختلاف وإضافات بما يفيد أنه أخذها من مصدر آخر لأنه أولاً عاش لفترة مديده قبل السيد الرضى، وثانياً ما نقله يحتوى على إضافات بالنسبة لما نقله السيد الرضى كما ذكر جانب منها الزمخشري في ربيع الابرار (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٧٨).

آخرها: إنّ رجلاً من أهل البصره قال لرجل من أهل الكوفه إلى جانبه: أشهد أنّه كاذب على الله ورسوله. قال الكوفى: وما يدريك؟ (فلم يجبه) ثم أضاف، قال الكوفى: والله ما نزل من المنبر حتى شلت يد الرجل البصرى ورجله فحملوه إلى بيته ومات فى تلك الليله(١).

ص: ١٨٠

١- (١) مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٧٩؛ كما رواه ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغه، ج ٦، ص ١٣٦.

أَلَمْ أَبَايَ وَأُمِّي، هُمْ مِنْ عِدَّةِ أَسْمَائِهِمْ فِي السَّمَاءِ مَعْرُوفَةٌ وَفِي الْأَرْضِ مَجْهُولَةٌ. أَلَا فَتَوَقَّعُوا مَا يَكُونُ مِنْ إِذْبَارِ أُمُورِكُمْ، وَأَنْقِطَاعِ وَصْلِكُمْ، وَاسْتِعْمَالِ صِغَارِكُمْ. ذَاكَ حَيْثُ تَكُونُ ضَرْبَةُ السَّيْفِ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَهْوَنَ مِنَ الدَّرْهِمِ مِنْ حِلِّهِ. ذَاكَ حَيْثُ يَكُونُ الْمُعْطَى أَكْثَرَ أَجْرًا مِنَ الْمُعْطَى. ذَاكَ حَيْثُ تَشْكُرُونَ مِنْ غَيْرِ شَرَابٍ، بَلْ مِنَ النُّعْمَةِ وَالنَّعِيمِ، وَتَحْلِفُونَ مِنْ غَيْرِ اضْطِرَارٍ، وَتَكْذِبُونَ مِنْ غَيْرِ إِحْزَاجٍ. ذَاكَ إِذَا عَضَّكُمْ الْبَلَاءُ كَمَا يَعَضُّ الْقَتَبُ غَارِبَ الْبَعِيرِ. مَا أَطْوَلَ هَذَا الْعَنَاءَ، وَأَبْعَدَ هَذَا الرَّجَاءَ!

الشرح والتفسير: الحوادث المرعبة

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة بالحديث عن طائفه من خواص الله تعالى الذين ينهضون بمهمته خاصة فقال:

«أَلَا بَابِي وَأُمِّي (١)، هُمْ مِنْ عِدَّةِ أَسْمَائِهِمْ فِي السَّمَاءِ مَعْرُوفَةٌ وَفِي الْأَرْضِ مَجْهُولَةٌ».

والسؤال من هي هذه الطائفة وما مهمتها؟ مرّ ذلك مجملاً في متن الخطبة ومن هنا كان هنالك اختلاف بين شراح نهج البلاغه، فالبعض يعتقد أنّهم الأحد عشر معصوماً من ولد علي عليه السلام الذين هم أسماؤهم في السماء معروفة، بينما لا يعرفهم في الأرض سوى طائفه معينه.

ص: ١٨١

١- (١). ذكر بعض شراح نهج البلاغه (الخوئي) في تركيب العبارة المذكورة أنّ (هم) مبتدأ و (بأبي وأمي) في محل خبر و (من) ببيانيه وهذه العبارة تشبه العبارة (بأبي أئتم وأمي) والتي استخدم فيها هنا بدل الضمير المخاطب ضمير الغائب في آخر الجملة.

وذكر بعض علماء أهل السنّة أنّ المراد بهم طائفه من المؤمنين والأولياء الذين عبّر عنهم بالقطب والأبدال، وهى العبارات التى عادة ما يستخدمها المتصوفه فى كلماتهم، إلّا أنّ العديد من القرائن تشير إلى أنّ المراد بهم الإمام المهدي عليه السلام وخواص أصحابه لأنّ الإمام عليه السلام، أخبر بعد هذه العبارة عن حوادث خطيره تذكر الإنسان بعلامات آخر الزمان وظهور المهدي عليه السلام. أضف إلى ذلك فقد ورد فى جانب من الخطه التى رواها المدائنى فى كتاب (صفيين) (١) إشاره إلى الخسف فى البيداء وهروب طائفه منها وأنا لنعلم أنّ الخسف فى البيداء من علامات الظهور التى أشارت إليها الروايات (٢).

ويّضح منها أنّ مهمتهم هى تلك المهمّة التى أشارت من الروايات فى مصادر الفريقين ومنها

«يَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا» (٣).

وطرح البعض هذا السؤال: كيف يقول الإمام عليه السلام (بأبى أئتم وأمى) والحال أنّ المهدي أحدهم بينما البقيه هم أصحابه؟

والجواب على هذا السؤال أنّه صدرت مثل هذه العبارات من الأئمه عليهم السلام بشأن من لهم مهمّات خاصه، ومن ذلك ما ورد ذيل زياره وارث

«بِأَبِي أَنْتُمْ وَأُمِّي طِبْتُمْ وَطَابَتِ الْأَرْضُ الَّتِي فِيهَا دُفِنْتُمْ» التى وردت عن بعض الأئمه عليهم السلام حين قرأوا هذه الزياره على قبور شهداء كربلاء.

ونقل المرحوم الأربلى فى كشف الغمه عن النّبى الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال: رأيت عمى الحمزه وأخى جعفر بن أبى طالب فى المنام فقلت لهما:

«بِأَبِي وَأُمِّي أَنْتُمَا أَيُّ الْأَعْمَالِ وَجَدْتُمَا أَفْضَلُ؟» فقالا: فديناك بآبائنا وأمّهاتنا:

«وَجَدْنَا أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ الصَّلَاةَ عَلَيْكَ وَسَقَى الْمَاءِ وَحُبَّ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ» (٤).

ص: ١٨٢

١- (١). مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٤٧٨.

٢- (٢) انظر: بحث علامات الظهور فى كتاب سفينه البحار ماده «هدى»؛ بحار الأنوار، ج ٢، ص ١١٩ و ١٨١.

٣- (٣) وردت هذه الروايات فى جميع الكتب المؤلفة بشأن المهدي عليه السلام بما فيها كتب الفريقين.

٤- (٤) كشف الغمه، ج ١، ص ٩٥؛ بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٢٨٤.

ثم تنبأ الإمام عليه السلام بالحوادث الخطيره مُستقبلاً والتي تنتظر الناس، وهي الحوادث التي تشبه العلامات التي ذكرت في الظهور فقال عليه السلام:

«أَلَا فَتَوَقَّعُوا مَا يَكُونُ مِنْ إِدْبَارِ أُمُورِكُمْ، وَانْقِطَاعِ وُصْلِكُمْ، وَاسْتِعْمَالِ صِغَارِكُمْ».

ومن الطبيعي أن تبدأ مسيره التخلف وتقطع الأواصر الاجتماعيه حين يتزعم بعض الأفراد قليلي الخبره والسذج والذين يفتقرون إلى الكفاءه، لكن لماذا تتجه طائفه من الزعامات إلى الصغار وقليلى التجربه فى الإداره والتدبير؟ لا شك فى كونهم فئه من المهزوزين والآذان الصاغيه لكل أمر وهذا من أكبر عوامل البؤس والشقاء.

ثم خاض عليه السلام فى شرح هذه الحوادث الأليمه فقال:

«ذَاكَ حَيْثُ تَكُونُ ضَرْبُهُ السَّيْفِ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَهْوَنَ مِنَ الدَّرْهِمِ مِنْ حِلِّهِ. ذَاكَ حَيْثُ يَكُونُ الْمُعْطَى أَعْظَمَ أَجْرًا مِنَ الْمُعْطَى».

فقد ذكر الإمام عليه السلام بادئ ذى بدئ فى هذا الجانب من الخطبه مسأله حليه وحرمة الأموال وذلك لتوقف المصير المادى والمعنوى للمجتمعات عليها حيث أشار عليه السلام إلى أن جمع الأموال الملوثة بالحرام والغصب والرشوه والغش إنما يبلغ درجه فى المجتمع بحيث يكون تحصيل الدرهم من الحلال أعقد من تحمل ضربه السيف فى المعركه، ومن هنا قلما يتعرض من ينفق أمواله فى سبيل الله آنذاك إلى الأجر والثواب لأنهم يعلمون أن أموالهم ليست طاهره، إلا أن الآخذين لا يعلمون ذلك، أو أنهم يعلمون لكنهم يضطرون لأخذ تلك الأموال المشكوكه أو المحرمه، وعليه فلا مسؤوليه عليهم أمام الله وأجرهم وثوابهم ثابت عنده بينما تبدو القضية معكوسه لو كان المجتمع سليماً وعلى ضوء الحديث النبوى المعروف:

«إِنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى»^(١) فيكون أجر المعطى أعظم من المعطى له.

على كل حال فما ورد فى كلام الإمام عليه السلام بشأن كثرة الأموال الحرام فى آخر الزمان صرحت بها بعض الروايات ومن ذلك ما ورد فى الحديث النبوى الشريف:

ص: ١٨٣

١- (١) ميزان الحكمه، ج ١، ص ٤٣ ماده «اخ».

«أَقَلُّ مَا يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ أَخٌ يُوثَقُ بِهِ أَوْدِرُهُمْ مِنْ حَلَالٍ» (١).

ويُتَّضح ممَّا ذكرنا آنفا أنَّ العبارة لا تنطوي على مفهوم معقد ومجهول كما ذهب إلى ذلك بعض شراح نهج البلاغه فقدموا عدَّة احتمالات مستبعده وضعيفه.

ثم خاض عليه السلام في سائر المشكلات التي يعانى منها ذلك المجتمع الفاسد والذي ينتظره الناس بحكم الإجماع فقال:

«ذَاكَ حَيْثُ تَسْكُرُونَ مِنْ غَيْرِ شَرَابٍ، بَلْ مِنَ النَّعْمَةِ وَالنَّعِيمِ، وَتَحْلِفُونَ مِنْ غَيْرِ اضْطِرَّارٍ، وَتَكْذِبُونَ مِنْ غَيْرِ إِحْرَاجٍ».

فأى مجتمع إنَّما يؤول إلى الإنهيار إن شهد هذه البليات الثلاث، الأثرياء يسكرون بالثروه فينسون الله وخالقه، وبالطبع فإنَّ سكر النعمة أخطر من سكر الشراب، فسكر الشراب قد ينتهى بعد مرور ليله بينما قد يستمر سكر النعمة طيله العمر، كذلك القسم من غير اضطرار والذي يوهن من شأن الله تعالى، والكذب من دون احراج الذى يزيل الثقة والاطمئنان وبالتالي تتعقد الحياه فى ظلَّ هذا المجتمع.

وقال عليه السلام فى اختتامه لهذا التكهن:

«ذَاكَ إِذَا عَضَّكُمْ (٢) الْبَلَاءُ كَمَا يَعَضُّ الْقَتَبُ (٣) غَارِبَ (٤) الْبُعِيرِ مَا أَطْوَلَ هَذَا الْعَنَاءَ، وَأَبْعَدَ هَذَا الرَّجَاءَ!».

يعتقد أغلب الشراح أن هذه العبارة منفصلة عن العبارات السابقة فإنَّ السيد الرضى - طبق عاداته - أسقط بعض العبارات حين اقتطافه لبعض العبارات الرائعة لخطب الإمام عليه السلام.

ولا يبدو هذا الكلام مستبعداً، لأنَّ

«ذَاكَ» تشير ظاهراً إلى النجاه والفرج الذى سيحصل للمؤمنين بعد كلِّ ذلك البلاء، والعبارة

«مَا أَطْوَلَ هَذَا الْعَنَاءَ وَأَبْعَدَ هَذَا الرَّجَاءَ» شاهد متين على هذا المعنى حيث قال عليه السلام: هنالك أمل فى النجاه بعد كلِّ هذا البلاء.

ص: ١٨٤

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٥٧.

٢- (٢). «عَضَّ» من ماده «عَضَّ» على وزن «خزَّ» تستعمل كناية عن الحوادث التي تزعج الإنسان.

٣- (٣) «قَتَبُ» جهاز الناقة (اطار صغير أصغر قليلاً من سنام الناقة يوضع عليها ليجلس عليها الراكب).

٤- (٤) «الغارب» موضع بين العنق والسنام.

«ألا بآبى وأُمى» أنّ الإمام عليه السلام كان ينتظر تلك الفئه التى تنتشل المجتمع الإسلامى من الشر والفساد، وعلى كلّ حال فإنّ أنسب تفسير لمجموع هذا البحث ما ذكر سابقاً وقلنا إنّنا نأظر لحوادث آخر الزمان المريره ونجاه المجتمع البشرى منها بواسطه الإمام المهدي عليه السلام.

وهنا لابدّ من الإشاره إلى نقطتين ضروريتين: الأولى أنّه لماذا شبّه الإمام عليه السلام البلاء بالقتب (خشبه توضع على الناقه لحل مشكله سنامها الذى يؤذى ظهر الناقه)؟ لا يستبعد أنّ هذا التشبيه على أساس أنّ القتب يوضع لانقاذ الناقه من مشكله بروز السنام، لكنه يخلق مشكله أخرى فى أنّه يؤذى ظهر الناقه ورقبتها ويجرحها أحياناً، والبلاء فى ذلك الزمان والحوادث هكذا فى أنّ التفكير بالسبيل للخلاص منها يخلق مشكله أخرى للناس.

والسؤال الذى يطرح نفسه كيف يصرح عليه السلام باستبعاد الأمل بالنجاه بينما تورد الروايات قرب ذلك الأمل؟

والجواب أنّ ظهور الإمام عليه السلام مشروط بشرائط إن تحققت كان الفرج قريباً وإن لم تتحقق فهو بعيد؛ وبعباره أخرى يمكن للمؤمنين بتوفيرهم لشرائط الظهور من قبيل التزكيه والتهذيب والاستعداد الكامل والأدعيه المتواصله أن يقربوا ظهور الإمام عليه السلام بينما إن تركت هذه الأمور تأخر الظهور، وعليه فالظهور قريب من جهه وبعيد من جهه والذى نأمل أن يكون قريباً بلطف الله ورحمته.

تأمل

الحوادث الأليمه آخر الزمان

وردت فى هذه الخطبه وبعض خطب نهج البلاغه وروايات النّبى الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام بعض الأخبار عن المستقبل المظلم والمعقد الذى ينتظر المؤمنين.

ومن خصائص ذلك الزمان عدم إكتراث أغلب الناس بالحلال والحرام. فيرون

كل ما يقع في أيديهم حلالاً كيفما حصلوا عليه ومن أي شخص اقتنصوه وهذه القذاره تلوث جميع حياتهم.

الخاصيه الأخرى سكر النعمه الذى يؤدى إلى نسيان المبدأ والمعاد فيعيش الإنسان فى عالم من الجهل على غرار من يسكر من الشراب، كما أنّ الإبتعاد عن الأحكام والتمسك بالحجج الواهيه لممارسه الأفعال غير المباحه والتعويل على الحيل الشرعيّه من الخصائص الأخرى لذلك الزمان وبالتالي تتحول البدع إلى سنن وتلبس السنن ثوب البدع.

جاء فى الحديث النبوى الشريف:

«يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا أَكَلَ الرَّبَا فَإِنْ لَمْ يَأْكُلْهُ أَصَابَهُ مِنْ غُبَارِهِ» (١).

كما ورد فى حديث آخر فى وصايا الرسول صلى الله عليه و آله إلى ابن مسعود أنّه يأتى على الناس زمان يتناولون فيه الأُطعمه اللذيذه ويركبون المراكب الفارهه ويتزين الرجال لنسائهم وتخرج النساء دون حجاب ويشاركن فى التجمعات حتى وصفهم النبي صلى الله عليه و آله بأنهم منافقو الأمه فى آخر الزمان ثم قال:

«يَا بَنَ مَسِيْعُوْدُ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ عَلَى دِيْنِهِ مِثْلُ الْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرَةِ بِكَفِّهِ» (٢)، وسائر الحوادث الأليمه التى يطول ذكرها.

هذه النبوءات وبالإضافه إلى جانبها الاعجازى هى تحذير للمسلمين المخلصين للإسلام فى ضبط أنفسهم ويعلم أنّ هذا العصر سينتهى بظهور المهدي الموعود (أرواحنا فداه).

ص: ١٨٤

١- (١) مستدرک الوسائل، ج ١٣، الباب ١ من أبواب الربا، ح ١٨.

٢- (٢) . سفينه البحار، ماده زمان.

أَيُّهَا النَّاسُ، أَلْقُوا هَذِهِ الْأَنْزِمَةَ الَّتِي تَحْمِلُ ظُهُورُهَا الْأَثْقَالَ مِنْ أَيْدِيكُمْ، وَلَمَّا تَصَدَّعُوا عَلَى سُلْطَانِكُمْ فَتَيَّدُوا غَبَّ فِعَالِكُمْ. وَلَا تَفْتَحِمُوا مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ قَوْرِ نَارِ الْفِتْنَةِ، وَأَمِيطُوا عَنْ سِنَنِهَا، وَخَلُّوا قَصِيدَ السَّبِيلِ لَهَا: فَقَدْ لَعَمْرِي يَهْلِكُ فِي لَهَبِهَا الْمُؤْمِنُ، وَيَسْلَمُ فِيهَا غَيْرُ الْمُسْلِمِ.

إِنَّمَا مَثَلِي بَيْنَكُمْ كَمَثَلِ السَّرَاجِ فِي الظُّلْمَةِ، يَسْتَضِي بِهِ مَنْ وَلَجَهَا.

فَاسْمَعُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَعُوا، وَأَحْضِرُوا آذَانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا.

الشرح والتفسير: وصايا للنجاه من الفتنة

ما أن فرغ الإمام عليه السلام من كلامه عن الحوادث الأليمه في المستقبل في الجانب السابق من هذه الخطبه حتى ذكر أصحابه هنا ببعض الوصايا التي تنجيهم من أخطار تلك الأحداث فقال عليه السلام:

«أَيُّهَا النَّاسُ، أَلْقُوا هَذِهِ الْأَنْزِمَةَ (١) الَّتِي تَحْمِلُ ظُهُورُهَا الْأَثْقَالَ مِنْ أَيْدِيكُمْ».

هذه العبارة كناية عن أن الحوادث ستقع حولكم وتحمل آثار الفتنة والفساد فعليكم أن لا تتزعموها ولا تسهموا في تطورها، فالواقع أنه يذكرهم بما أمر به القرآن الكريم حين يقول: «وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ» (٢).

ص: ١٨٧

١- (١). «أزمه» جمع «زمام»، معروفه.

٢- (٢) سورة المائدة، الآية ٢.

ثم أضاف:

«وَلَا تَصَدَّعُوا (١) عَلَى سُلْطَانِكُمْ فَتَذُمُوا غِبَّ (٢) فِعَالِكُمْ. وَلَمَّا تَقْتَحِمُوا (٣) مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ فَوْرِ (٤) نَارِ الْفِتْنَةِ، وَأَمِيطُوا (٥) عَنْ سَنَنِهَا (٦)، وَخَلُّوا قَصْدَ السَّبِيلِ (٧) لَهَا».

هذا الكلام إشاره إلى أن الناس إن لم يسهموا في استفحال الفتن ولم يلجوها وابتعدوا عنها وقطعوا دابرها فسوف لن تنامي مخلفاتها والقضيه بالضبط أشبه بسيل الماء العظيم الذى يعجز الناس عن السيطرة عليه، لكنهم إن فسحوا المجال لكى ينحدروا إلى الوديان والسهول فإن الاضرار التى تصيبهم ستكون أقل مما لو ولجوه وكانوا فى وسطه.

ثم ذكر عليه السلام عله ذلك فقال:

«فَقَدْ لَعَمْرِي يَهْلِكُ فِي لَهَبِهَا الْمُؤْمِنُ، وَيَسْلَمُ فِيهَا غَيْرُ الْمُسْلِمِ».

إشاره إلى أن موج الفتنة على درجه من القوه بحيث لو انبرى المؤمنون لمواجهته لهلكوا ولسلم غيرهم من نحي نفسه عنها، وعليه لا ينبغي تبديد الطاقات عبثاً فى مثل هذه الموارد، بل لابد من الحفاظ عليها والتربص حتى تحين الفرصه المناسبه وهذا بالضبط الفلسفه الأصليه للتقيه فى المسائل الدينيه والاجتماعيه والسياسيه التى تعنى ببساطه حفظ الطاقات وانتظار الفرصه.

ثم اختتم الإمام عليه السلام الخطبه بالإشاره إلى موقعه بغيه فواق الغافلين والانتفاع بفيوضاته عليه السلام فقال:

«إِنَّمَا مَثَلِي بَيْنَكُمْ كَمَثَلِ السَّرَاحِ فِي الظُّلْمَةِ، يَسْتَضِي بِهِ مَنْ»

ص: ١٨٨

١- (١). «تصدعوا» من ماده «صدع» على وزن «صبر» تعنى فى الأصل التشقق ثم جاءت بمعنى التفرق والاختلاف أو افشاء الشىء وأريد بها التفرق.

٢- (٢) «غِبَّ» عاقبه الشىء كما جاء بمعنى بين يوم ويوم وأريد به هنا المعنى الأول.

٣- (٣) «تقحموا» من ماده «أقحام» الإلقاء بالنفس دون رويه.

٤- (٤) «فور» و «فوران» معروف.

٥- (٥) «اميطوا» من ماده «ميط» على وزن «صيت» بمعنى الإبتعاد ومعنى الأبعاد فى باب الأفعال.

٦- (٦) «سنن» بمعنى الطريق و «سنن» على وزن «كهن» جمع «سنه» بمعنى الأساليب.

٧- (٧) «قصد السبيل» يعنى وسط الطريق سواء طريق الحق أم الباطل ولكن غالباً ما تطلق على السبيل الوسط للحق قال القرآن: «وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ» (النحل، الآيه ٩) وأريد بها فى الخطبه المعنى الأول.

وَلَجَّهَا. فَاسْمَعُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَعُوا(١) ، وَأَخْضِرُوا آذَانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا».

نعم، فالإمام عليه السلام حين يتكهن بحوادث المستقبل المريره وظلمات الفتن يشير إلى سبيل النجاه فيقول: إنكم إنما تنجون من شر الأشرار والفتن التي يثيرها المفسدون إن سمعتم ما أقول لكم وحفظتموه وفكرتم فيه كما ينبغي.

وقد شبه الإمام عليه السلام نفسه هنا بالسراج المنير في أمواج الظلمه ثم أمر الناس بالاستضاءه بنور هذا السراج، فقد أمر أولاً بسماع كلامه وحفظه ثم أردفه بالأمر للتعلم به وإدراك حقيقته (وهذا هو الفارق بين مفهوم العبارة

«فَاسْمَعُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَعُوا»، والعبارة

«وَأَخْضِرُوا آذَانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا» حيث الأولى سماع وإدراك وحفظ والأخرى دقه وتعمق).

تأمل

الانسحاب من الفتن

أحياناً تظهر في المجتمعات البشريه بعض الفتن التي لا يقوى الأفراد المؤمنون على مواجهتها، كما لا يستطيعون تشكيل خليه للوقوف بوجهها وليس للأفراد الذين يقفون مباشره إزاء هذه الفتن ويقتحمونها من مصير سوى الهزيمة والانسكار.

فأفضل سبيل في ظل هذه الظروف هو الانسحاب من أمام سيول الفتنة والتربص بالفرصة المناسبه بغيه مواجهتها، وبالطبع فإن الاجراءات المتهوره لا تنطوى على نتيجة سوى التضحية بالطاقات والقضاء على الفرص المستقبلية، وهذه هي فلسفه النهي عن النهضات في عصر أئمه العصمه عليهم السلام وهذا في الواقع فرع من فروع التقيه التي تهدف إلى حفظ القوى واستغلالها في الوقت المناسب.

فقد أكد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الخطبه على هذه النقطة وأكد عليها مع أنه أشجع فرد في الأمة ومن ابطال مواجهه أعداء الإسلام وخصوم الدعوه.

ص: ١٨٩

١- (١) «وعى» من ماده «وعى» على وزن «سعى» بمعنى الفهم والحفظ وتحذف منها الواو حين ترد بصيغه فعل الأمر والفعل المضارع.

فِي الْوَصِيَّهِ بِأُمُور (١)

نظرة إلى الخطبه

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبه إلى ثلاثه أمور مهمه: أوصى أولاً بالورع والتقوى واجتناب المعصيه وذكرهم بنعم الله لتكون لهم دافعاً نحو التقوى والطاعه.

ثم ذكرهم بالموت والانتقال من الدنيا وكيفيه هذا الانتقال بعبارات تهز النفس لتكون عاملاً نحو الطاعه وترك المعصيه.

وأخيراً حذّر من سرعه انقضاء الأيام والليالي والساعات ولا بدّ من الجد والمثابره للترود للدار الآخره.

ص: ١٩١

١- (١) سند الخطبه: لم يرد في كتاب مصادر نهج البلاغه مصدر آخر لهذه الخطبه غير نهج البلاغه سوى كتاب الإعجاز والإيجاز للثعالبي ويتضح من كثره الاختلافات مع ما جاء في نهج البلاغه أنه رواها من مصدر آخر غير نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٧). طبعاً مضمون الخطبه على درجه من الرفعه بحيث يبدو من المستبعد جداً صدورها من غير الإمام المعصوم.

أَوْصِيَكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ، بِتَقْوَى اللَّهِ وَكَثْرَةِ حَمْدِهِ عَلَى آيَاتِهِ إِلَيْكُمْ، وَنِعْمَائِهِ عَلَيْكُمْ، وَبَلَائِهِ لَدَيْكُمْ. فَكَمْ خَصَّكُمْ بِنِعْمِهِ، وَتَدَارَكُكُمْ بِرَحْمِهِ! أَعُورُتُمْ لَهُ فَسْتَرَكُمُ، وَتَعَرَّضْتُمْ لِأَخْذِهِ فَأَمْهَلَكُم!

الشرح والتفسير: التوصية بالتقوى والحمد

دعا الإمام عليه السلام جميع مخاطبيه في هذا القسم من الخطبة كما أشرنا سابقاً إلى التقوى وشكر الله على نعمه فقال:

«أَوْصِيَكُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ، بِتَقْوَى اللَّهِ وَكَثْرَةِ حَمْدِهِ عَلَى آيَاتِهِ إِلَيْكُمْ، وَنِعْمَائِهِ عَلَيْكُمْ، وَبَلَائِهِ (١) لَدَيْكُمْ».

رغم أن

«آلاء» و «نعماء» تستعمل في أغلب الموارد بمعنى واحد هو النعمة، إلا أن البعض يعتقد أن آلاء إشارة إلى النعم المعنوية ونعماء إشارة إلى النعم المادية؛ سيما إن وردت المفردتان مع بعضهما.

وتستعمل كلمه

«البلاء» بمعنى الامتحان والاختبار أو بمعنى الحوادث السارّة والأليمه وفي العبارة السابقة وبالنظر إلى تناسق العبارات فهي بمعنى الحوادث السارّة، وقال البعض: المقصود هو الحوادث الأليمه التي يختبر الله الإنسان بها وتسبب ارتقاء رتبته وزيادة ثوابه عند الله وتعتبر نعمه بالنظر إلى هذا الأمر.

ص: ١٩٣

١- (١) «بلاء» أحياناً من ماده «بلو» ناقص واوى وأخرى من ماده «بلى» ناقص يائى والأولى بمعنى الاختبار والامتحان، فالامتحان بوفور النعمة أحياناً وندرتهأ، وأحياناً بسلب النعم والآفات. قال الله تعالى «بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً» (الأنبياء، الآية ٣٥) والثانية تعنى الكبر ثم وردت بمعنى النعم والحوادث الأليمه التي تنهك الإنسان، كما وردت هذه المفردة بمعنى اختبار، لأنها ثقيله على جسم الإنسان وروحه.

على كل حال فكلام الإمام عليه السلام هذا شبيه ما إستند إليه علماء الكلام فى بحث معرفه الله، وقالوا: الدافع الرئيسى لهذا البحث هو مسأله شكر المنعم، لأنّ الإنسان يرى نفسه غارقاً فى النعم وحيث إنّ شكر منعم النعمه كامن فى فطره الإنسان فإنّه يفكر فى واهب النعمه فيتجه إليه ليتعرف عليه ومن شأن هذا الأمر أن يكون سبباً لطاعته وتركه للمعصيه.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى شرح بعض هذه النعم فقال:

«فَكَمْ خَصَّكُمْ بِنِعْمِهِ، وَتَدَارَكَكُمْ بِرَحْمَتِهِ! أَعُورُتُمْ (١) لَهُ فَسْتَرَكُمُ، وَتَعَرَّضْتُمْ لِأَخْذِهِ (٢) فَأَمْهَلَكُمُ!».

فقد أشار الإمام عليه السلام بادئ الأمر إلى النعم والرحمه المختصه بهذه الأُمَّه مثل خاتميه النّبى الأكرم صلى الله عليه وآله وكونها خير أُمَّه وعدم نزول البلاء على الأُمَّه ما دام النّبى فيهم أو هم يستغفرون، ثم خاض عليه السلام بعد ذلك إلى مسأله ستر الله تعالى مقابل خرق هذا الستر من قبل العصاه وكذلك إعطاء المهله الكافيه من أجل التوبه والعوده إلى النفس وعدم العجله فى معاقبتهم وكل واحده منها نعمه عظيمه للغاية.

ص: ١٩٤

١- (١) «أعورتم» من ماده «عار» بمعنى العيب وكل شىء يعدّ اظهارها عيباً يطلق عليه العوره وحين يرد فى باب الأفعال كما ورد فى العبارة فهو يعنى إظهار العيب.

٢- (٢) «أخذ» وردت هذه الكلمه بمعنى العقاب.

وَأَوْصِيَكُمْ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وَإِقْلَالِ الْغَفْلَةِ عَنْهُ. وَكَيْفَ غَفَلْتُمْ عَمَّا لَيْسَ يُغْفَلُكُمْ، وَطَمَعُكُمْ فِيمَنْ لَيْسَ يُمَهَّلُكُمْ! فَكَفَىٰ وَاِعْظَاءً بِمَوْتِي عَيَّائْتُمُوهُمْ، حُمِلُوا إِلَىٰ قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ، وَأُنزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ، فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عُمَّارًا، وَكَأَنَّ الْآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَارًا. أَوْحَشُوا مَا كَانُوا يُوطِنُونَ، وَأَوْطَنُوا مَا كَانُوا يُوحِشُونَ، وَاشْتَغَلُّوا بِمَا فَارَقُوا، وَأَضَاعُوا مَا إِلَيْهِ انْتَقَلُوا. لَاعَنُ قَبِيحَ يَسْتَطِيعُونَ انْتِقَالَ، وَلَا فِي حَسَنِ يَسْتَطِيعُونَ ازْدِيَادًا. أَنَسُوا بِاللُّدُنْيَا فَغَرَّتْهُمْ، وَوَثِقُوا بِهَا فَصَرَعَتْهُمْ.

الشرح والتفسير: أفضل الوعظ

أشار الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة إلى نقطه مهمه من شأنها أن تكون دافعاً قوياً للتقوى آنفه الذكر؛ والتي تكمن في ذكر الموت، فأوصى بصوره عامه إلى ذكر الموت فقال:

«وَأَوْصِيَكُمْ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وَإِقْلَالِ الْغَفْلَةِ عَنْهُ. وَكَيْفَ غَفَلْتُمْ عَمَّا لَيْسَ يُغْفَلُكُمْ، وَطَمَعُكُمْ فِيمَنْ لَيْسَ يُمَهَّلُكُمْ!».

نعم! فليس هنالك من عقل يسوغ للإنسان الغفله عن حادثه لا بد له من الوصول إليها، وعدم الإكتراث للشىء الذى لا أمل فى الفرار منه، فالعاقل من يقرّ بهذه الحقيقه فى أنّ الموت مصير حتمى لجميع الناس، بل الموجودات كافه، وما أعظم ما قال الشاعر:

كُلُّ ابْنِ انْتَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ

يَوْمًا عَلَىٰ آلِهِ حَدْبَاءٍ مَحْمُولُ

ثم خاض الإمام عليه السلام فى شرح دقيق يهزّ الأعماق فى تفاصيل لحظات الموت خلال ١٢ عباره صغيره وعميقه المعنى فقال:

«فَكَفَىٰ وَاِعْظَاءً بِمَوْتِي عَيَّائْتُمُوهُمْ، حُمِلُوا إِلَىٰ قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِينَ، وَأُنزِلُوا فِيهَا غَيْرَ نَازِلِينَ.».

نعم! فقد حملوا على أكتاف الناس ليتجهوا بهم صوب موطنهم الأبدى دون رغبتهم وأوردوهم حفره القبر دون إرادتهم.

ثم كشف عليه السلام عن مصيرهم بيانه لصفيتين فقال:

«فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عُمَّارًا (١) ، وَكَأَنَّ الْآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَارًا.».

إشاره إلى أنّ كل شىء ينتهى فى لحظه فيبلغ بهم البعد عن الدنيا درجه كأنهم لم يعيشوا فيها ويقتربوا من الآخره وكأنهم عاشوا فيها منذ الأزل.

ثم قال عليه السلام:

«أَوْحَشُوا مَا كَانُوا يُوطِنُونَ، وَأَوْطَنُوا مَا كَانُوا يُوحِشُونَ».

أجل! كانوا يشعرون بالوحشه حين يمرون بتلك القبور الهامده فيشيحون عنها بوجههم، سيما إن كان مرورهم بالليل، بينما أصبحت الآن وطنهم ولو عادوا اليوم بهذه الحال إلى بيوتهم ومساكنهم لاستوحش منهم الناس وبالعكس سيعيشون هم أيضاً تلك الوحشه - إن كان لهم إدراك وشعور -.

من جانب آخر فإن مشكلتهم الرئيسيّه أنهم لم يعمرُوا دار الآخره واستفرغوا كل طاقاتهم في عمران الدنيا حيث وصف ذلك الأمام عليه السلام في مواصلته لكلامه فقال:

«وَأَشْتَغَلُوا بِمَا فَارَقُوا، وَأَضَاعُوا مَا إِلَيْهِ انْتَقَلُوا».

والأسوأ من ذلك لا مجال هنا لتلافي ما فرط منهم وهذا ما أكدّه الإمام عليه السلام بقوله:

«لَا عَنْ قَبِيحٍ يَسْتَطِيعُونَ انْتِقَالَ، وَلَا فِي حَسَنٍ يَسْتَطِيعُونَ ازْدِيَادًا».

فهل لثمار الشجره إن انفصلت عنها من عوده إليها ومواصله حياتها ناضجه كانت أم فاسده؟ وهل الوليد الذي يخرج من بطن أمه سواء كان جينياً كاملاً أم ناقصاً يستطيع العوده إلى رحمها ويواصل نموه؟ كلا، نعم هذا هو حال أصحاب الدار

ص: ١٩٥

١- (١) «عمار» جمع «عامر» من ماده «عماره» و «عمران» معروفه.

الآخريه ليس لهم من سبيل إلى العوده ولذلك تغلق صحيفه أعمالهم وإلى الأبد، فلا يسعهم تلافى سيئه ولا إضافه حسنه، ولعل هذه أعظم مصيبه يفجع بها أصحاب الدنيا الآثمين، وإلا فإن اقترن الموت بالأعمال الصالحه فلا يعد مصيبه فحسب بل سعاده ورحمه فهو لا يعنى سوى تحطيم القفص وانطلاق الروح الإنسانيه وتحليقها فى الفضاء العلوى، ومن هنا حين نزلت ضربه أشقى الأولين والآخريين عبد الرحمن بن ملجم على رأس مولى المتقين على عليه السلام قال:

«فُرْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ».

ثم تناول عليه السلام سبب ذلك البؤس والشقاء فقال:

«أَنَسُوا بِالدُّنْيَا فَعَزَّتْهُمْ، وَوَثِقُوا بِهَا فَصَرَعَتْهُمْ (١)».

نعم! فالوثوق بالدنيا كالوثوق بالسراب الذى يدعو الإنسان فى الصحراء المحرقه نحوه فلا يزيده إلا عطشاً ويحيل أمله يأساً، أو كالاعتماد على الجدار الرخو الذى ينهار عاجلاً أم أجلاً فيبقى الإنسان تحت أنقاضه.

تأمل

ذكر الموت

لم يقتصر التأكيد على ذكر الموت ونهايه الحياه على أمير المؤمنين عليه السلام بل هذا ما أكدته اساتذه الأخلاق والهداه إلى الصراط وفى مقدمتهم جميعاً القرآن الكريم بغيه إيقاظ الغافلين الموتى فى أن هذه الحياه زائله وليست خالده، فأطفال الأمم هم شباب اليوم وشباب اليوم هم كهول الغد وكهول الغد كأوراق الخريف التى تتساقط بريح الأجل لتلتحق بصفوف الأسلاف.

ويبدو الإلتفات إلى هذه الحقيقه مدعاه لليقظه والاعتبار، فأغلب الناس يجدون فى العمل وكأنهم مخلصون فى هذه الدنيا، والحال ليس هنالك م من طمأنينه لاستمرار هذه الحياه ولولساعه أخرى، ويكفى الإلتفات إلى هذه النقطه فى انزال

ص: ١٩٧

١- (١) «صرعت» من ماده «صرع» على وزن «فرع» بمعنى التمريغ بالتراب.

الإنسان من مركب الغرور وفتح عينه على الحقائق وإناره الطريق أمامه.

ويبدو ذكر الموت وختم الحياه مفيداً نافعاً حين يتأمل الإنسان تلك الأحداث التي تواجهه حين الموت والانفتاح على العبارات والأشياء التي ركز عليها أمير المؤمنين في هذه الخطبه؛ فالانفصال عن الأعزّه، ومغادره الثروه والقصور والمقامات، والإبتعاد عن الأحبّه، ونزول تلك الحفره تحت التراب، والأهم من كل ذلك غلق صحيفه الأعمال واستحاله تلافى الأخطاء كل هذه الأمور تعدّ أعظم واعظ وأفضل ناصح.

ومن هنا جاء في الحديث النبوي الشريف:

«إِنَّ أَكْبَسَ الْمُؤْمِنِينَ، أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ وَأَشَدَّهُمْ لَهُ اسْتِعْدَادًا» (١).

وفي حديث آخر أنه صلى الله عليه وآله سئل:

«هَلْ يَحْشُرُ مَعَ الشُّهَدَاءِ أَحَدٌ» فقال:

«نَعَمْ مَنْ يَذْكُرُ الْمَوْتَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ عِشْرِينَ مَرَّةً» (٢).

ونختتم هذا البحث بحديث ينطوي على الدروس والعبر ورد بهذا الشأن عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال:

«إِنَّ ابْنَ آدَمَ إِذَا كَانَ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا وَأَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ مَثَلٌ لَهُ مَالُهُ وَعَمَلُهُ وَوَلَدُهُ، فَيَلْتَفِتُ إِلَى مَالِهِ وَيَقُولُ: وَاللَّهِ إِنِّي كُنْتُ عَلَيْكَ حَرِيصًا شَجِيحًا فَمَا لِي عِنْدَكَ؟ فَيَقُولُ: خُذْ مِنِّي كَفَنَكَ، قَالَ: فَيَلْتَفِتُ إِلَى وُلْدِهِ فَيَقُولُ: وَاللَّهِ إِنِّي كُنْتُ لَكُمْ مُحِبًّا وَعَلَيْكُمْ مُحَامِيًّا فَمَاذَا لِي عِنْدَكُمْ، فَيَقُولُونَ:

تُؤَدِّيكَ إِلَى حُفْرَتِكَ وَنُورِيكَ فِيهَا، قَالَ فَيَلْتَفِتُ إِلَى عَمَلِهِ فَيَقُولُ: إِنِّي وَاللَّهِ كُنْتُ فِيكَ لَزَاهِدًا وَإِنْ كُنْتُ عَلَيَّ لِثَقِيلًا. فَمَاذَا عِنْدَكَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا قَرِينُكَ فِي قَبْرِكَ وَيَوْمَ نَشْرِكَ حَتَّى أَعْرَضَ أَنَا وَأَنْتَ عَلَيَّ رَبِّكَ» (٣).

ص: ١٩٨

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ١٦٧.

٢- (٢) المحجّه البيضاء، ج ٨، ص ٢٤٠.

٣- (٣) الكافي، ج ٣، ص ٢٣١، ح ١.

فَسَبِّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ فِي مَنَازِلِكُمْ الَّتِي أُمِرْتُمْ أَنْ تَعْمُرُوهَا، وَالَّتِي رَغِبْتُمْ فِيهَا، وَدُعِيتُمْ إِلَيْهَا. وَأَسْبِّحُوا نِعْمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَتِهِ، وَالْمَجْرَانِ بِهِ لِمَعْصَتِهِ، فَإِنَّ عَمَلًا مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ. مَا أَسْرَعَ السَّاعَاتِ فِي الْيَوْمِ، وَأَسْرَعَ الْأَيَّامِ فِي الشَّهْرِ، وَأَسْرَعَ الشُّهُورِ فِي السَّنَةِ، وَأَسْرَعَ السِّنِينَ فِي الْعُمُرِ!

الشرح والتفسير: سبيل النجاه

كشف الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه سبيل النجاه بعد أن فرغ من التذكير بالموت ونهايه الحياه الدنيا والانتقال السريع إلى عالم الآخرة والحسره على ما بدر من تقصير واسراف فقال عليه السلام:

«فَسَابِقُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ إِلَى مَنَازِلِكُمُ الَّتِي أُمِرْتُمْ أَنْ تَعْمُرُوهَا، وَالَّتِي رَغِبْتُمْ فِيهَا، وَدُعِيتُمْ إِلَيْهَا».

قطعاً المراد من المنازل منازل الآخرة التي ورد الحث في الآيات والروايات على إعمارها كما ورد الحث على الرغبة فيها والدعوة إليها، حيث قال الله تعالى في كتابه الكريم: «وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ» (١).

وقال في موضع آخر: «وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٌ» (١) وقال في سورة البقره: «وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِأَذْنِهِ» (٢).

ثم أشار عليه السلام إلى سبيل آخر من سبل النجاه فقال:

«وَأَسْتَيْمُوا نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَتِهِ، وَالْمُجَانِبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ».

ويمكن أن يكون هذا الكلام إشارة إلى إكمال النعم الماديّة الدنيويّة أو إتمام هذه النعم مع زياده نعم الله الكبرى في القيامة، لأنّ الصبر على الطاعة والإبتعاد عن المعصية بمقتضى الآيه الشريفه: «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ» (٣) سبب زياده النعم الماديّة والمعنويّة الدنيويّة والأخرويّة، ونعلم أنّ الشكر الحقيقي في أن يستعين الإنسان بنعم الله على طاعته ولا يستغلها أبداً ويتقوى بها على معصيته.

ونقرأ في حديث عن علي عليه السلام أنّه قال:

«أَقْلُ مَا يَلْزِمُكُمْ اللَّهُ أَنْ لَا تَسْتَعِينُوا بِنِعْمَتِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ» (٤).

ثم قال في الختام كدليل على ما ذكر:

«فَإِنَّ عَدَاً مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ. مِمَّا أَشِيرَعِ السَّاعِيَاتِ فِي الْيَوْمِ، وَأَشِيرَعِ الْأَيَّامِ فِي الشَّهْرِ، وَأَشِيرَعِ الشُّهُورِ فِي السَّنَةِ، وَأَشِيرَعِ السِّنِينَ فِي الْعُمُرِ!» (٥).

والمراد من الغد في هذه العبارة إمّا الموت كما قال الشاعر:

عَلَى الْمَوْتِ إِعْدَادُ النَّفُوسِ وَلَا أُرْبَعِيداً غَداً مَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ غَدٍ

أو المراد يوم القيامة كما ورد في الخطبه ٢٨:

«أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارُ وَغَداً السَّبَاقُ».

ولكن بالإنلتفات إلى أنّ جانباً مهمّاً من هذه الخطبه ركز على الموت ونهايه

ص: ٢٠٠

١- (١) سورة يونس، الآيه ٤٥

٢- (٢) سورة البقره، الآيه ٢٢١.

٣- (٣) . سورة ابراهيم، الآيه ٧.

٤- (٤) نهج البلاغه، الكلمه ٣٣٠.

٥- (٥) «عمر» على وزن «دهل» وعمر على وزن «ظهر» كلاهما بمعنى واحد أى مدّه الحياه، وقال البعض يطلق العمر على

الأربعين سنة الأولى والعمر بضميتين على جميع العمر أو الشق الثاني منه.

الحياه الدنيا وغلق صحيفه الأعمال؛ فالمعنى الأوّل هو الأمثل والعبارات الواردة بشأن سرعه مضي الأيام والشهور والسنوات والعمر شاهد آخر على هذا المعنى.

والطريف في الأمر أنّ الإمام عليه السلام ولتوضيح سرعه مضي العمر انطلق من أجزاءه الصغيره فأشار في البدايه إلى سرعه مضي الساعات في اليوم ثم مضي الأيام في الشهر والشهور في السنه والسنوات في العمر ليتّضح تماماً هذا المرور السريع والحقّ أنّ الأمر كذلك. فأغلب الكهول حين يسألون: كيف مضي عمركم؟ يجيبون:

أسرع من البرق أو كطرفه العين، كأننا بالأمس كنّا نلعب مع الصبيه في الأزقه ونسرح ونمرح مع الشباب، ولم نكد ننظر في المرآه حتى طالعنا علامات الكهوله وبدت واضحه على رؤوسنا ووجوهنا، فضعف البدن وشلت الأعضاء عن الحركة وانحنت القامه وتقطعت الأنفاس.

والحقّ أنّ الخطبه برمتها سيما الجانب الأخير منها تحذير غايه في التأثير لإيقاظ العقول النائمه، قال ابن أبي الحديد في ختام هذه الخطبه:

«كَلَامٌ شَرِيفٌ وَجِيزٌ بِالْغَيْ فِي مَعْنَاهُ وَالْفَضْلُ كُلُّهُ نَادِرٌ لَا نَنْظِيرَ لَهُ»^(١).

ص: ٢٠١

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٣، ص ١٠٠.

فى الإيمانِ ووجوبِ الهجره (١)

نظره إلى الخطبه

رغم قصر هذه الخطبه إلا أنها عظيمه المضامين ومؤلفه من أربعة أقسام، خاض القسم الأول فى أقسام الإيمان (الإيمان الراسخ والمتقلب) وتطرق الثانى إلى مفهوم الهجره فى الإسلام على أنها من المفاهيم المستمره والدائمه، وأشار فى القسم الثالث إلى صعوبه إدراك بعض أحاديث المعصومين أو تعذر تحملها، وأخيراً أشار القسم الرابع إلى سعه علمه عليه السلام داعياً الجميع للانتهال من منبعه الفياض قبل فقده.

ص: ٢٠٣

١- (١) سند الخطبه: روى هذه الخطبه عدد من الأعلام ممن عاش قبل وبعد السيد الرضى. كما روى بعضها كل من المرحوم محمد بن حسن الصفار المتوفى عام ٢٩٠ فى بصائر الدرجات والمرحوم الصدوق المتوفى عام ٣٨١ فى عيون الأخبار والخصال. ورواها الأمدى فى غرر الحكم والثعالبى فى الإيجاز والإعجاز باختلاف (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٩).

فَمِنَ الْإِيْمَانِ مَا يَكُونُ ثَابِتًا مُسْتَقِرًّا فِي الْقُلُوبِ، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ عَوَارِي بَيْنَ الْقُلُوبِ وَالصُّدُورِ، إِلَى أَجْلِ مَعْلُومٍ، فَمَاذَا كَانَتْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ مِنْ أَحَدٍ فَقِفُوهُ حَتَّى يَحْضُرَهُ الْمَوْتُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقَعُ حَدُّ الْبَرَاءَةِ.

الشرح والتفسير: الإيمان الثابت والأجوف

كما أشير سابقاً فقد أشار الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبه إلى أقسام الإيمان الثابت منه وغير الثابت، فقال:

«فَمِنَ الْإِيْمَانِ مَا يَكُونُ ثَابِتًا مُسْتَقِرًّا فِي الْقُلُوبِ، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ عَوَارِي بَيْنَ الْقُلُوبِ وَالصُّدُورِ، إِلَى أَجْلِ مَعْلُومٍ».

فتقسيم الإيمان إلى ثابت ومستقر وأجوف ومتزلزل وبعبارة أخرى عارٍ مما وردت الإشارة إليه في الأخبار والروايات.

فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآيه الشريفه: «وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ» (١):

«فَالْمُسْتَقَرُّ الْإِيْمَانُ الثَّابِتُ وَالْمُسْتَوْدَعُ الْمَعَارُ» (٢).

وفي حديث آخر عن أبي الحسن عليه السلام في تفسير الآيه السابقه:

«مَا كَانَ مِنَ الْإِيْمَانِ الْمُسْتَقَرُّ فَمُسْتَقَرٌّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَبْدًا وَمَا كَانَ مُسْتَوْدَعًا سَلَبَهُ اللَّهُ قَبْلَ الْمَمَاتِ» (٣).

ص: ٢٠٥

١- (١). سورة الأنعام، الآيه ٩٨.

٢- (٢) ميزان الحكمه، ج ١، ص ٢٦٥، ح ١٣٥٠.

٣- (٣) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٥١، ح ٢٠٧.

ورغم الاختلاف في تفسير الآيه المذكوره؛ ومن ذلك ما قيل أنّ المراد من المستقر أولئك الذين قرّوا في الدنيا من الرحم والمستودع أولئك الذين ما زالوا في الأرحام، إلّا أنّ ذلك لا يمنع من أن يكون للآيه عدّه تفاسير.

على كلّ حال فإن كان للإنسان نفس مطمئنّه ورسخ الإيمان في أعماقه كان إيمانه مستقراً ولا يتزلزل مهما تغيرت الظروف وتعرض للترغيب والترهيب؛ بينما يمكن زواله بسهولة إزاء المغريات ما لم يكن راسخاً.

وأسباب تزلزل الإيمان متعدده؛ منها عدم الانفتاح على الأدله المحكمه واتباع الهوى وضعف النفس ومقارفة الذنوب والمعاصي، فكلّ من هذه الأمور قد يزلزل الإنسان آواخر عمره ليغادر الدنيا في خاتمه المطاف بلا إيمان.

والعبارة:

«عَوَارِي بَيْنَ الْقُلُوبِ وَالصُّدُورِ» كناية عن أنّ الإيمان لم يتسلل لحدّ إلى قلب الإنسان وروحه ولذلك لم يستقر، أشبه بالإنسان الذي يبلغ جدار منزل ولا يدخله، فبالطبع ليس لهذا الشخص من استقرار.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فحذر من البراءة من الأفراد قبل اختتام عمرهم، ذلك لأنّ مصير الإنسان يتّضح آخر عمره؛ فقال عليه السلام:

«فَإِذَا كَانَتْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ مِنْ أَحَدٍ فَفَقِّهُوهُ حَتَّى يَخْضِرَهُ الْمَوْتُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقَعُ حُدُّ الْبَرَاءَةِ».

وعلى هذا الضوء فلا يمكن إصدار الأحكام القطعيه بحقّ أي شخص، لا بشأن الفرد المؤمن ولا غير المؤمن، لإمكانية عوده كلّ منهما آخر الطريق بفعل بعض العوامل المختلفه، وإن كان هنالك من حكم فهو حكم مرحلي ومؤقت.

تأمل

عناصر ثبات الإيمان

أشار الإمام عليه السلام في القسم الأول من هذه الخطبه المذكوره آنفاً إلى تصنيف الإيمان إلى صنفين مستقر ومتزلزل، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما هي العناصر

ص: ٢٠٦

التي تقف وراء زعزعه الإيمان وثباته؟

وتبدو الإجابة عن هذا السؤال واضحة إجمالاً، فالكبائر والاستخفاف بالوظائف الشرعيّة لمن دواعى زعزعه الإيمان وسوء العاقبه؛
إلّا أنّ الآيات والروايات أكّدت على أمور معينه، منها:

مجالسه رفاق السوء والمنافقين؛ ففي الآيه ٢٨ و ٢٩ من سوره الفرقان يُعرب بعض أصحاب النار يوم القيامة عن أسفهم لاتخاذهم
بعض الأصدقاء فيقولون: «يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي».

وفي الآيه ٥٦ و ٥٧ من سوره الصافات ينادى أحد أصحاب الجنّه صاحبه الضال في جهنم: «تَاللَّهِ إِن كِدَّتْ لَتَزِدِينَ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ
رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ».

وسئل الإمام الصادق عليه السلام عمّا يثبت الإيمان في قلب الإنسان؟ فقال:

«الَّذِي يُثَبِّتُهُ فِيهِ الْوَرَعُ، وَالَّذِي يُخْرِجُهُ مِنْهُ الطَّمَعُ» (١).

وروى عنه عليه السلام أنّه قال:

«مَنْ كَانَ فِعْلُهُ لِقَوْلِهِ مُوَافِقًا فَانْتَبَتْ لَهُ الشَّهَادَةُ بِالنَّجَاهِ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ فِعْلُهُ لِقَوْلِهِ مُوَافِقًا فَإِنَّمَا ذَلِكَ مُسْتَوْدَعٌ» (٢).

كما بين أميرالمؤمنين على عليه السلام لكميل سبيل ثبات الإيمان فقال:

«يَا كَمِيلَ! إِنَّمَا تَشِيْتَحِقُّ أَنْ تَكُونَ مُشِيْتَقْرًا إِذَا لَزِمْتَ الْجَادَّةَ الْوَاضِحَةَ الَّتِي لَا تُخْرِجُكَ إِلَى عَوْجٍ وَلَا تُزِيلُكَ عَنْ مَنَهْجٍ مَا حَمَلْنَاكَ
عَلَيْهِ وَهَدَيْنَاكَ إِلَيْهِ» (٣).

طبعاً لا تقتصر عناصر ثبات وزعزعه الإيمان على ما ذكر سالفاً، غير أنّها تمثل أهم تلك العناصر.

ص: ٢٠٧

١- (١) ميزان الحكمه، ج ١، ص ١٣٥٩.

٢- (٢) الكافي، ج ٢، ص ٤٢٠.

٣- (٣) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٢٧٢.

وَالْهَجْرَةُ قَائِمَةٌ عَلَى حِدِّهَا الْأَوَّلِ. مَا كَانَ لِلَّهِ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ حَاجَةٌ مِنْ مُسْتَسِيرٍ الْأَمَّةِ وَمُغْلِبِنَهَا. لَا يَقَعُ اسْمُ الْهَجْرَةِ عَلَى أَحَدٍ بِمَعْرِفِهِ الْحُجَّةِ فِي الْأَرْضِ. فَمَنْ عَرَفَهَا وَأَقْرَبَهَا فَهُوَ مُهَاجِرٌ. وَلَا يَقَعُ اسْمُ الْإِسْتِضْعَافِ عَلَى مَنْ بَلَغَتْهُ الْحُجَّةُ فَسَمِعَتْهَا أُذُنُهُ وَوَعَاها قَلْبُهُ.

إِنَّ أَمْرَنَا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ، لَا يَحْمِلُهُ إِلَّا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ ائْتَمَنَ اللَّهُ قَلْبَهُ لِلْإِيمَانِ، وَلَا يَعِي حَدِيثَنَا إِلَّا صُدُورٌ أَمِينَةٌ، وَأَخْلَامٌ رَزِينَةٌ.

أَيُّهَا النَّاسُ، سَيَلُونِي قَبِيلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَلَنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مَنِي بِطُرُقِ الْأَرْضِ، قَبِيلَ أَنْ تَشْعَرَ بِرَجُلِهَا فِتْنَةً تَطَأُ فِي خِطَامِهَا، وَتَذْهَبُ بِأَخْلَامِ قَوْمِهَا.

الشرح والتفسير: سلوني قبل أن تفقدوني

أشار الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة إلى ثلاثة أمور مهمّة: الأول تفسير واضح لمفهوم الهجرة، فنحن نعلم أنّ الهجرة كانت من علامات الإيمان أوائل الدعوة؛ أي أنّ من آمن وكان في سائر المناطق غير المدينة ومنها مكة وجب عليه الالتحاق بالنبي صلى الله عليه وآله في المدينة؛ لينهل من تعاليم الإسلام ويشد بحضوره شوكة المؤمنين، إلّا أنّ الهجرة فقدت مفهومها كما يبدو بعد بسط الإسلام لنفوذه على الجزيرة العربية، وعليه فلم يعد من ضروره لأنّ يلتحق بالنبي من آمن في سائر المناطق، غير أنّ الهجرة بمفهومها الواقعي أي جوهر الهجرة وروحها ما زال باقياً

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى هذا المعنى من الهجره فقال:

«وَالهَجْرَةُ قَائِمَةٌ عَلَى حَدِّهَا الْأَوَّلِ. مَا كَانَ لِلَّهِ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ حَاجَةٌ مِنْ مُسْتَسِرٍّ (١) الْأُمَّةِ وَمُغْلِبِنَهَا» (٢).

«إمّه»: بكسر الهمزة فى العبارة المذكوره بمعنى (الحاله) وتشير هنا إلى الإيمان، أى الشخص الذى يكتم إيمانه، إلا أن البعض قرأها بضم الهمزة ليصبح معنى العبارة، أولئك الأفراد من الأمة الإسلاميه الذين كتموا إيمانهم وأولئك الذين أعلنوه.

ثم تطرق الإمام عليه السلام بعد هذا البيان الإجمالى إلى شرح معنى الهجره بكلام رقيق فقال:

«لَمَّا يَفْعُ اسْمُ الْهَجْرَةِ عَلَى أَحَدٍ بِمَعْرِفَةِ الْحُجَّةِ فِي الْأَرْضِ. فَمَنْ عَرَفَهَا وَأَقْرَبَهَا فَهُوَ مُهَاجِرٌ. وَلَا يَفْعُ اسْمُ الْأَسْتِضَاعِ عَلَى مَنْ بَلَغَتْهُ الْحُجَّةُ فَسَمِعَتْهَا أُذُنُهُ وَوَعَاها قَلْبُهُ» (٣).

وزيده كلام الإمام عليه السلام أن الهجره باقيه فى كل زمان ومكان على غرار عصر النبى الأكرم صلى الله عليه وآله، لكن ليس بمعنى انتقال المؤمن من مكان إلى آخر، بل بمعنى معرفه حجّه الله أى خليفه رسول الله الحق، وحسب تعبير الحديث النبوى الشريف معرفه إمام الزمان والإيمان به، سواء حصل هذا الأمر عن طريق الهجره المكاتبه أو بدونها، فالمهاجر الحق من عرف إمام زمانه، لأنّ الهدف من الهجره الذى يتمثل فى معرفه حجّه الله فى الأرض قد حصل عليه، ومن لم يكن كذلك فهو مستضعف قد يكون معذوراً وقد لا يكون كذلك.

فأولئك الذين تعذر عليهم السبيل إلى المعرفه هم من الطائفه الأولى (معذورون) وأولئك الذين اتيح لهم سبيل المعرفه ولم يغتتموه فهم من الطائفه الثانيه (غير معذورين).

ص: ٢١٠

١- (١) «مستسر» من ماده «سر» بمعنى الشخص الذى يكتم شيئاً.

٢- (٢) طبقاً لما ورد فى العبارة فإنّ (ما) فى العبارة (ما كان لله...) نافية، إلا أن بعض شراح نهج البلاغه اعتبروها زمانيه بمعنى (ما دام) وقالوا إنّ مفهوم العبارة هو أنّ الهجره باقيه ما دام الله بحاجه إلى إيمان الناس والحاجه هنا بمعنى الطلب والمراد منها أوامر الله ونواهيه للناس، ولكن يبدو المعنى الأول أنسب.

٣- (٣) لابدّ من الالتفات إلى أنّ (إلاً) محذوفه فى بعض نسخ صبحى الصالح لكنّها موجوده فى النسخ المصححه وليس للعبارة من معنى صحيح بدون (إلاً).

ويطلق «المستضعف» في القرآن والروايات الإسلاميّة على معنيين: الأوّل:

الأفراد الذين يعانون من الضيق في الحياه الماديّه كما ورد في الآيه ٥ من سوره القصص: «وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ». هذه الآيه إشاره إلى قصه بنى اسرائيل والفراعنه وتشير إلى أصل كلّى في باب المستضعفين.

الثانى: الأفراد الذين يعانون من الضيق من الناحيه الدينيه ولا يستطيعون الهجره من مناطقهم وقد قال القرآن الكريم فيهم: «وَمَا لَكُمْ لَاتَمَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا»^(١). فهذه الآيه تتحدّث عن مسلمى مكه الذين تعذرت عليهم الهجره وضيق عليهم المشركون فى أداء مناسكهم الدينيه بحريه وقد شجع القرآن مسلمى المدينه على إنقاذهم من مخالِب المشركين واطلق عليهم اسم الاستضعاف.

ولهذه المفرده معنى ثالث فى الروايات حيث يراد بها الشخص العاجز عن تحرى الحقّ ومعرفته؛ سواء بسبب الضعف الفكرى أو بعده عن مصادر التحقيق.

ففى الخبر سنل الإمام الباقر عليه السلام عن المستضعف فقال:

«هُوَ الَّذِي لَا يَهْتَدِي حِيلَهُ إِلَى الْكُفْرِ فَيَكْفُرُ وَلَا يَهْتَدِي سَبِيلًا إِلَى الْإِيمَانِ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُؤْمِنَ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكْفُرَ»^(٢).

ومراد الإمام عليه السلام فى الخطبه هو المعنى الثالث.

وسنقدم شرحاً وافياً فى بحث التأمّلات بشأن حقيقه الهجره.

ثم أشار عليه السلام إلى الأمر الثانى فقال:

«إِنَّ أَمْرَنَا صَعْبٌ مُسْتَضْعَبٌ»^(٣)، لَيَحْمِلُهُ إِلَّا عَبْدٌ

ص: ٢١١

١- (١). سوره النساء، الآيه ٧٥.

٢- (٢) الكافى، ج ٢، ص ٤٠٤، باب المستضعف، ح ١.

٣- (٣). «مستعصب» من ماده «صعب» بمعنى المشكل وصعوبه فهم الشىء ومجيبىء المفردتين صعب ومستعصب مع بعضهما، للتأكيد.

مُؤْمِنٌ اِمْتَحَنَ اللَّهُ قَلْبَهُ لِلإِيمَانِ، وَلَا يَعِي (١) حَدِيثَنَا إِلَّا صُدُورٌ أَمِينَةٌ، وَأَحْلَامٌ رَزِينَةٌ (٢)».

لقد ورد مثل هذا التعبير في سائر الروايات عن الأئمة المعصومين عليهم السلام وربما يكون إشاره إلى الروايات التوحيدية العميقة المتعلقة بصفات الله الجماليه والجلاليه ومقامات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام وأفعالهم في عالم التكوين بإذن الله وشفاعتهم الواسعه لمذنبى الأئمة وعلمهم بالغيب وحوادث المستقبل بتعليم الله تعالى والتي لا- يحتملها كل شخص؛ ذلك لأن أغلب الجهال يرون صفات الله على غرار صفات المخلوق ويرون النبي والإمام المعصوم كسائر الناس العاديين، فمن الطبيعي أن لا- يتحمل أمثال هؤلاء الأفراد استيعاب تلك الأحاديث، على غرار ما جاء في بعض خطب نهج البلاغه حيث إن أمير المؤمنين عليه السلام حين أشار إلى جانب من الأخبار الغيبية أنهم بعض الجهال الذين ضاق عليهم قبول ذلك الكلام بالكذب والعياذ بالله.

وستتطرق إلى جانب من هذه المقامات في آخر هذه الخطبه وبالتأكيد سوف لن يتحملة الجميع.

والعلاقه بين هذا القسم من الخطبه وما ذكره الإمام عليه السلام بشأن الهجره أن من يهاجر لمعرفة إمام زمانه عليه أن يتحلى بصدر رحب وروح واسعه وفكر رصين ليتسنى له الانتهاال من فيض هذه العيون الربانيه الجياشه.

ثم قال عليه السلام في الأمر الثالث:

«أَيُّهَا النَّاسُ، سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَلَا نَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ الْأَرْضِ، قَبْلَ أَنْ تَشْغَرَ (٣) بِرِجْلَيْهَا فِتْنَةٌ تَطَأُ فِي خِطَامِهَا (٤)،

ص: ٢١٢

١- (١) «يعي» من ماده «وعى» على وزن «سعى» بمعنى الفهم والحفظ.

٢- (٢) «رزينه» من «رزانه» بمعنى الوقار ورزين بمعنى الشخص الوقور.

٣- (٣) . «تشغر» من «شغور» على وزن «شعور» لها عدّه معان ومنها الهجوم الذى يناسب العبارة المذكوره ومن معانيهاالرفع ورفع الرجل بمعنى شروع الحركه أى قبل حركه الفتنة.

٤- (٤) «خطام» بمعنى «زمام» والعبارة «تطأ في خطامها» كناية عن كون الفتنة كالداببه فى ارسالها وطيشها ولا قائد لها.

وَتَذَهَبُ بِأَحْلَامٍ (١) قَوْمَهَا.

هذا الكلام هو الآخر من الأحاديث الصعبة والمستصعبه بشأن مقامات المعصومين التي لا يتحملها الجهال؛ إلا أن علياً عليه السلام قالها كراراً وأجاب كل شخص بما سأل.

والجدير بالذكر أن هذا الكلام لم يقتصر على مصادر الشيعة بل رواه علماء العامة أيضاً، قال يحيى بن سعيد بن المسيب حسب نقل الاستيعاب:

«ما كان أحد من الناس يقول سلوني غير علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه» (٢).

كما روى في ذلك الكتاب عن أبي الطفيل قال: رأيت علياً عليه السلام خطب وقال:

«سئلوني فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم؛ وسلوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليلاً نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل» (٣).

كما ورد عن عبد الله بن عباس في كتاب الاستيعاب أنه قال:

«والله لقد أعطى علي بن أبي طالب تسعة أعشار العلم وأيم الله لقد شاركتكم في العشر العاشر» (٤).

ونختتم هذا الكلام بحديث آخر ذكره محمد بن يوسف البلخي في كتابه، فقد روى:

أن علياً عليه السلام خطب الناس فقال:

«سلوني قبل أن تفقدوني...» سلوني عن طرق السماوات فإني أعرف بها من طرق الأرض، فقام إليه رجل من وسط القوم وقال له:

أين جبرئيل في هذه الساعة. فرمق بطرفه إلى السماء ثم رمق بطرفه إلى المشرق ثم رمق بطرفه إلى المغرب فلم يجد موطناً فالتفت إليه وقال: يا هذا الشيخ أنت جبرئيل. فقال الرجل: بخ بخ لك يا علي بن أبي طالب إن الله يباهي بك ملائكته.

قال ذلك ثم صفق طائراً من بين الناس (٥).

وضمنياً فإن أعلميته عليه السلام بطرق السماء بالنظر لأهميتها بالنسبة للأرض.

ص: ٢١٣

١- (١) «أحلام» جمع «حلم» على وزن «نهم» بمعنى العقل كما وردت بمعنى النوم والرؤيا والمعنى الأول هو المراد.

٢- (٢) الاستيعاب، ج ٢، ص ٥٠.

٣- (٣) المصدر السابق، ص ٥٢.

٤- (٤) المصدر السابق، ص ٥٠.

٥- (٥) احقاق الحق، ج ٧، ص ٢٦١ وجاءت هذه الرواية مع اختلاف طفيف في بحار الأنوار (من كتاب فضائل شاذان بن جبرئيل) ج ٣٩، ص ١٠٨، ح ١٣.

نعلم أنّ التاريخ الإسلامي كتب على أساس الهجرة أي أنّ المسلمين لم يعتمدوا ميلاد النبي صلى الله عليه وآله كمبدأ للتاريخ ولا بعثته، بل جعلوا المبدأ عام الهجرة وهذا يدل على أنّ أهم فصل في حياة المسلمين كان الهجرة، والواقع أنّ الهجرة هي التي فتحت صفحة جديده في تاريخ الإسلام لتكون انطلاقه للحكومة الإسلاميه وتقدم المسلمين في جميع المجالات.

فالوسط المكي لم يستطع استيعاب رساله بصوره تامه رغم الدعوه النبويه التي استمرت ثلاث عشره سنه، لأنّ زعماء قريش الطغاه سعوا للقضاء على كلّ حركه تهدد كيانهم في مهدها؛ حيث كانوا يرون الوثنيه راعيه لمصالحهم والتوحيد خطراً عليها؛ إلّا أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أعدّ خلال هذه الفتره طائفه من الفتيه المخلصين فأوفدهم إلى المدينه قبل أن يهاجر إليها ثم التحقت بهم صفوه من أهل المدينه فاتفقوا وتعاهدوا حتى قدم رسول الله فاستقبل هنالك وأخذ ينشر الإسلام بكلّ حريه وتمكن من بناء مسجد.

واستمرت الهجرة كفريضه إلهيه؛ أي أنّ كلّ فرد كان يعتنق الإسلام وأينما كان في الجزيره العربيه ينبغي عليه الإلتحاق بالمدينه وشد ظهور المسلمين، أمّا أولئك الذين لم يهاجروا فلم يشملوا بالولايه الإسلاميه حسب النص القرآني الصريح «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا» (١).

ويبدو أنّ موضوع الهجرة قد انتهى إبان فتح مكه وبسط نفوذ الإسلام على جميع المنطقه، ولم يُعتبر الأفراد الذين قدموا إلى المدينه من مكه بعد ذلك التاريخ من المهاجرين حيث ورد في الحديث النبوي الشريف:

«لَا هِجْرَةَ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ» (٢).

ص: ٢١٤

١- (١) سورة الانفال، الآية ٧٢.

٢- (٢) كنز العمال، ح ٤٦٢٥١.

ثم اتسع مفهوم الهجره فأصبح المهاجر من يغادر بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، كما يعتبر من زمره المهاجرين من يهجر منطقته إلى أخرى لدفع شر خصوم الدعوه، لذلك جاء في الحديث النبوي الشريف:

«أَيُّهَا النَّاسُ هَاجِرُوا وَتَمَسَّكُوا بِالْإِسْلَامِ فَإِنَّ الْهَجْرَةَ لَا تَنْقَطِعُ مَا دَامَ الْجِهَادُ»^(١).

ثم تجاوزت الهجره هذا المعنى لتشمل الهجره الباطنيه والمعنويه بالإضافة إلى الهجره المكانيه والخارجيه، فقد ورد في الحديث النبوي الشريف:

«وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ»^(٢).

كما ورد عن علي عليه السلام أنه قال:

«يَقُولُ الرَّجُلُ هَاجِرْتُ وَلَمْ يُهَاجِرْ إِنَّمَا الْمُهَاجِرُونَ الَّذِينَ يَهْجُرُونَ السَّيِّئَاتِ وَلَمْ يَأْتُوا بِهَا»^(٣).

وعلى هذا الضوء فمن يهاجر من مكان إلى آخر دون أن تكون له هجره معنويه وباطنيه، أي لا يتعد عن الذنوب والمعاصي، فهو ليس في زمره المهاجرين الواقعيين.

ويبدو دليل هذا الاتساع في مفهوم الهجره واضحاً، لأن روح الهجره وجوهرها الانتقال من الكفر إلى الإيمان ومن المعصيه إلى الطاعه.

ومن هنا يدخل في دائره الهجره من عرف إمام كل زمانه ثم سارع إلى الإلتحاق به لنيل المعارف الدينيه كما ورد في الخطبه.

ص: ٢١٥

١- (١) كنز العمال، ح ٦٤٢٦٠.

٢- (٢) ميزان الحكمه، ج ١١، ح ٢١٠٦٥.

٣- (٣) سفينه البحار، ماده هجره.

يَحْمَدُ اللَّهَ وَيُثْنِي عَلَى نَبِيِّهِ وَيَعْطُ بِالتَّقْوَى (١)

نظرة إلى الخطبه

تعدّ هذه الخطبه من أبلغ خطب أمير المؤمنين عليه السلام وتتكون من عدّه أقسام:

القسم الأول: في حمد الله والثناء عليه والشهادة للنبي صلى الله عليه وآله بالنبوه والرساله وتطرق وتطرق فيها لنصره صلى الله عليه وآله على و آله على أعدائه بلطف الله.

القسم الثاني: تضمّن التأكيد على مسأله التقوى، فقد دعى الجميع إلى الاستعداد لسفر الآخره والحديث عن نهايه الحياه وخطوره الموت والحوادث التي تعقبه.

القسم الثالث: الحديث عن المصير المشرق للصالحين في الدار الآخره ونعم الجنّه العظيمه والسكينه التامه والثواب الأخرى العظيم الخالد ضمن التأكيد على

ص: ٢١٧

١- (١) سند الخطبه: قال ابن أبي الحديد: وأعلم أنّ هذه الخطبه من أعيان خطبه ومن ناصح كلامه ونادره، وفيها من صناعه البديع الرائعه المستحسنه البريئه من التكلف ما لا يخفى. وقد أخذها ابن نباته فأودعها خطبه وشذّر بها كلامه. وقال صاحب مصادر نهج البلاغه بعد نقله لهذا الكلام: فلو لم يكن ابن أبي الحديد اطلع عليها في غير نهج البلاغه لم يقل إنّها من أعيان خطبه مع ملاحظه أنّ ابن نباته توفي سنه ٣٧٤ هجرى أى قبل صدور نهج البلاغه. وروى الآمدى من هذه الخطبه في غرر الحكم. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢٣).

تقلب الدنيا وشرح العذاب الأخرى الذى ينتظر المجرمين فى الآخرة.

القسم الرابع: عاد الإمام عليه السلام إلى ما بينه فى القسم الثانى من الخطبه ليحث الجميع بعبارات جديده على التأهب للرحيل إلى عالم الآخرة.

القسم الخامس وهو القسم الأخير من الخطبه: خاطب فيه الإمام عليه السلام أصحابه وحذرهم من التسرع والقيام بالنهضات غير المجديه والقرارات الساذجه بغيه نيل الشهاده وأمثال ذلك، وصرح بأن الشهاده ستكون من نصيب من سار على الطريق المستقيم وإن مات على فراشه.

ص: ٢١٨

أَحْمَدُهُ شُكْرًا لِإِنْعَامِهِ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى وَظَائِفِ حُقُوقِهِ، عَزِيزَ الْجُنْدِ، عَظِيمَ الْمَجْدِ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ دَعَا إِلَى طَاعَتِهِ، وَقَاهَرَ أَعْدَاءَهُ جِهَادًا عَنِ دِينِهِ؛ لِأَيْتِيهِ عَنِ ذَلِكَ اجْتِمَاعٌ عَلَى تَكْذِيبِهِ، وَالتَّمَّاسُ لِإِطْفَاءِ نُورِهِ.

الشرح والتفسير: نبى الرحمة والجهاد

استهل الإمام عليه السلام هذا الجانب من الخطبه بحمد الله والثناء عليه فقال:

«أَحْمَدُهُ شُكْرًا لِإِنْعَامِهِ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى وَظَائِفِ حُقُوقِهِ؛ عَزِيزَ الْجُنْدِ، عَظِيمَ الْمَجْدِ (١)».

التعبير بـ

«الوظائف والحقوق» لعله إشاره إلى الواجبات الدينيه كالصوم والصلاه والخمس والزكاه التى لا تتم بصوره كامله إلا بتوفيق الله، ويمكن أن تكون إشاره إلى حقوق الله التى تفرزها نعمه كنعمة الأذن والعين والعقل والفتوه والمعافاه التى يتطلب كل واحده منها شكراً.

ثم خاض فى الشهاده للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالرساله وبعض صفاته فقال:

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ دَعَا إِلَى طَاعَتِهِ، وَقَاهَرَ أَعْدَاءَهُ جِهَادًا عَنِ دِينِهِ؛ لِأَيْتِيهِ (٢) عَنِ ذَلِكَ اجْتِمَاعٌ عَلَى تَكْذِيبِهِ، وَالتَّمَّاسُ لِإِطْفَاءِ نُورِهِ».

ص: ٢١٩

١- (١) «مجد» بمعنى الشرف والجلال والوقار والعظمه، وهذه الصفه تختص بصوره تامه بالله تعالى.

٢- (٢). «يئنيه» من ماده «ثنو» على وزن «سعى» تعنى فى الأصل طى الخبر وحين تقترن بالعطف على وزن «كتف» بمعنى طى الضلع وهى كناية عن الانصراف عن الشىء وعدم الاهتمام به.

فقد أشار الإمام عليه السلام في هذا الجانب من خطبته إلى نقطتين مهمتين في سيره النَّبِيِّ الأكرم صلى الله عليه وآله؛ الأولى، أنه منتصر دائماً في قتاله لأعدائه، وهذا دليل واضح على زعامته صلى الله عليه وآله وخططه في مواجهه الأعداء وخصوم الدعوه، إلى جانب الإمداد الغيبي والعنايه الإلهيه.

والأخرى، أنّ اتحاد الأعداء ووقوفهم بوجهه لم يؤثر على عزمه وإرادته صلى الله عليه وآله ويصرفه عن دعوته، فكان يحث الخطي - بصبرٍ على المصاعب - نحو هدفه حتى بلغه.

ومن الحوادث التاريخيه المعروفه عندما جاء رؤوساء قريش إلى أبي طالب وأرادوا أن يكلموا النبي صلى الله عليه وآله وقالوا له: يا محمّد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهه، وسفّهت الأحلام، وفرقت الجماعه.. فإن كنت إنّما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنّما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا التي يأتيك رثياً تراه قد غلب عليك - وكان يسمون التابع من الجن رثياً - فربّما كان ذلك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه، فقال لهم:

«ما جئت بما جئكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، مبلّغكم رسالات ربّي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئكم به فهو حظكم في الدنيا والآخره، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» (١).

وكذلك عندما جاء رؤساء قريش إلى أبي طالب وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا وقد آتيناك تفضي بيننا وبين ابن أخيك، فإنه سفّه أحلامنا، وشتم آلهتنا، فدعا أبو طالب

ص: ٢٢٠

١- (١) سيره ابن هشام، ج ١، ص ٣١٧.

رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: يا ابن أخى هؤلاء قومك يسألونك، فقال:

«مَاذَا يَسْأَلُونَنِي؟»، قالوا: دعنا وآلهتنا ندعك وآلهك، فقال:

«أَتَعْطُونَنِي كَلِمَةً وَاحِدَةً تَمْلِكُونَ بِهَا الْعَرَبَ وَالْعَجَمَ؟»، فقال له أبو جهل: لله أبوك نعطيك ذلك عشر أمثالها، فقال:

«قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، فقاموا وقالوا: «أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ» (١).

وروى أن النبي صلى الله عليه وآله استعبر ثم قال:

«يَا عَمَاءُ لَوْ وُضِعَتِ الشَّمْسُ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرُ فِي شِمَالِي مَا تَرِكَ هَذَا الْقَوْلُ حَتَّى أَنْفَذَهُ أَوْ أُقْتَلَ دُونَهُ»، فقال له أبو طالب:

امض لأمرك فوالله لا أخذلك أبداً (٢).

ص: ٢٢١

١- (١) سورة ص، الآية ٥.

٢- (٢) انظر: بحار الأنوار، ج ٩، ص ١٤٣؛ تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٦٧.

فَاعْتَصِمُوا بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّ لَهَا حَبْلًا وَثِيقًا عَزُوتُهُ، وَمَعْقِلًا مَنِيعًا ذُرُوتُهُ.

وَيَادِرُوا الْمَوْتَ وَغَمَرَاتِهِ، وَأَمْهَدُوا لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ، وَأَعِدُّوا لَهُ قَبْلَ نَزُولِهِ فَإِنَّ الْغَايَةَ الْقِيَامَةَ؛ وَكَفَى بِعَدْلِكَ وَاعِظًا لِمَنْ عَقَلَ، وَمُعْتَبَرًا لِمَنْ جَهِلَ! وَقَبِيلَ بُلُوغِ الْغَايَةِ مَا تَعَلَّمُونَ مِنْ صِيْقِ الْأَرْمَاسِ، وَشِدَّةِ الْإِبْلَاسِ، وَهَوْلِ الْمُطَّلَعِ، وَرَوْعَاتِ الْفَرْعِ، وَاخْتِلَافِ الْأَضْلَاحِ، وَاسْتِكَاتِ الْأَسْمَاعِ، وَظُلْمَةِ اللَّحْدِ، وَخَيْفَةِ الْوَعْدِ، وَغَمِّ الضَّرِيحِ، وَرَذَمِ الصَّفِيحِ.

الشرح والتفسير: الأهوال القادمة

خاض الإمام عليه السلام بعد حمد الله والثناء عليه والشهادة للنبي صلى الله عليه وآله بالرساله، فى موضوع مهم ومصيرى فى حياه الإنسان ألا وهو التقوى فقال:

«فَاعْتَصِمُوا بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّ لَهَا حَبْلًا وَثِيقًا عَزُوتُهُ، وَمَعْقِلًا (١) مَنِيعًا (٢) ذُرُوتُهُ (٣)».

فالواقع أنّ عالم الدنيا بمنزله البئر الذى يتعذر الخلاص من مخاطره سوى من خلال التمسك بجبل متين ألا وهو التقوى، ثم شبهه التقوى بالحصن الحصين حيث ينجو من تحصن فيه من الأخطار أو كقمه الجبل المنيعه وعلى هذا الأساس فإنّ التقوى وسيله للنجاه من حضيض الذلّه إلى ذروه السعاده والعزّه كما أنّها الدرع الذى يقى الإنسان عواصف الشهوات والهوى والهوس.

ص: ٢٢٣

- ١- (١) «معقل» بمعنى الملجأ والجبل المرتفع من العقل بمعنى المنع.
- ٢- (٢) «منيع» من «منع» بمعنى الأصب الصعب المنال والبرج العالى.
- ٣- (٣) «ذروتة» تطلق على قمه الجبال والجانب المرتفع من كلّ شىء.

ثم تعرض الإمام عليه السلام إلى أهم وسائل العبرة والعظة فرسمها بصورة دقيقة ومعبره فقال:

«وَبَادِرُوا الْمَوْتَ وَغَمْرَاتِهِ، (١) وَاْمَهْدُوا لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ، وَأَعِدُّوا لَهُ قَبْلَ نُزُولِهِ:

فَإِنَّ الْغَايَةَ الْقِيَامَةَ؛ وَكَفَى بِذَلِكَ وَأَعْظَا لِمَنْ عَقَلَ، وَمُعْتَبَرًا لِمَنْ جَهَلَ!«.

فمن الطبيعي أنه ينبغي للشخص المقبل على سفر مليء بالأخطار والذي لا عوده فيه، من التأهب التام له وتوفير جميع السبل التي تلزم للمسير إليه وهو السفر المعروف بسفر الآخرة الشاق، ومما لا شك فيه أنه ليس هنالك أى خشية أو قلق إن اتجه الإنسان إليه بصحيفه أعمال مليئه بالحسنات وخاليه من السيئات، وهنا خاض الإمام عليه السلام فى ذكر جانب من الحوادث المريره للموت والقبر فقال:

«وَقَبِيلَ بُلُوغِ الْعَمَايَةِ مَا تَعْلَمُونَ مِنْ ضَيِّقِ الْأَرْمَاسِ (٢)، وَشِدَّةِ الْإِبْلَاسِ (٣)، وَهَيْزُولِ الْمُطَّلَعِ (٤)، وَرَوْعَاتِ (٥) الْفُرْعِ، وَاخْتِلَافِ الْأَضْلَاعِ (٦)، وَاسْتِكَاكِ (٧) الْأَسْمَاعِ، وَظُلْمَةِ اللَّحْدِ، وَخَيْفَةِ الْوَعْدِ، وَغَمِّ الضَّرِيحِ (٨)، وَرَدْمِ (٩) الصَّفِيحِ (١٠)».

بالإلتفات إلى أن الموت لا- يعنى لنا انتهاء كل شىء حيث تبقى الروح بعد الموت تعيش الحياه الأخرى الخالده، فإن القبور الضيقه والمظلمه مقارنه بالبيوت الواسعه والجميله تبدو غايه فى الوحشه إلى جانب القلق المتعلق بضغطة القبر والخوف من

ص: ٢٢٤

- ١- (١) . «غمرات» جمع «غمره» على وزن «ضربه» بمعنى إزالة آثار الشىء، ثم اطلقت هذه المفردة على ما يغطى تمام وجه الأرض، ووردت فى هذه الخطبه بمعنى غمرات الموت وشدائده التى تستولى على تمام وجود الإنسان.
- ٢- (٢) . «أرماس» جمع «رمس» بمعنى القبر والتراب وهذا هو المعنى المراد بها أى القبر.
- ٣- (٣) «إبلاس» تعنى فى الأصل الحزن الذى يصيب الإنسان فى أوقات الشده.
- ٤- (٤) «مطلع» تعنى فى الأصل الموضع المرتفع ثم اطلق على مواقف يوم القيامة أو عالم البرزخ الذى يطلع فيه الإنسان على نتيجة أعماله.
- ٥- (٥) . «روعات» جمع «روع» بمعنى الخوف.
- ٦- (٦) «اضلاع» جمع «ضلع» المواضع جوانب الصدر.
- ٧- (٧) «استكاك» من ماده «سك» بمعنى سد الشىء واستكاك الاسماع صممها على أعتاب الموت.
- ٨- (٨) «ضريح» القبر أو اللحد فى وسط القبر.
- ٩- (٩) «ردم» غلق الشىء كما تطلق على السد الكبير ومل الحفره بالتراب.
- ١٠- (١٠) «الصفيح» الحجر العريض.

المستقبل وفقد الأعزّه والأحبّه والشعور بالوحده المطلقه وتآكل أعضاء الجسم تحت التراب وبالتالي الانتقال من الوسط الهادىء والمرفه إلى الوسط المرعب، كلّ ذلك من الأمور التى يهتز لها الإنسان لمجرّد التفكير بها فيحذر الإمام عليه السلام من ضروره التأهب لمثل هذا السفر الشاق والمليبىء بالأخطار.

جدير ذكره أنّ الإمام عليه السلام جسّد لمخاطبيه بهذه العبارات العشر الفصيحه والبلغه كلّ الأمور ذات الصله بالموت والقبر وكأنّهم يرونها عياناً؛ وهى الأمور التى ينتظرها الجميع دون استثناء والتفكير فيها ينتشل الإنسان من نوم الغفله مهما كانت عميقه فيوقظه ويجبره على إصلاح أعماله وأقواله.

ولعل هذا هو السبب فى ما ورد من الوصايا الإسلاميه التى توصى بوضع الميت على الأرض قبل وضعه فى قبره حين يحمل إليه والترىث مدّه ثمّ التقدم ووضع ثانيه على الأرض والصبر مدّه أخرى وهكذا حتى يرد ذاك الموضع الموحش (١).

ص: ٢٢٥

١- (١) وسائل الشيعه، ج ٢، ص ٨٣٨ وكتاب الطهاره، أبواب الدفن، باب ١٦، ح ٦.

فَاللَّهُ اللَّهُ عِبَادَ اللَّهِ! فَإِنَّ الدُّنْيَا مَاضِيَةٌ بِكُمْ عَلَى سَيِّئِن، وَأَنْتُمْ وَالسَّاعَةُ فِي قَرْن. وَكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا، وَأَزِفَتْ بِأَفْرَاطِهَا، وَوَقَفَتْ بِكُمْ عَلَى صِرَاطِهَا. وَكَأَنَّهَا قَدْ أَشْرَفَتْ بِرِزَالِهَا، وَأَنَاخَتْ بِكَلَالِهَا، وَأَنْصَرَمَتْ الدُّنْيَا بِأَهْلِهَا، وَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِصْنِهَا، فَكَانَتْ كَيَوْمِ مَضَى، أَوْ شَهْرٍ انْقَضَى، وَصَارَ جَدِيدُهَا رَثًّا، وَسَيَمِينُهَا غَثًّا. فِي مَوْقِفِ ضَنْكِ الْمَقَامِ، وَأُمُورِ مُشْتَبِهَةِ عِظَامِ، وَنَارِ شَدِيدِ كَلْبِهَا، عَالٍ لَجْبِهَا، سَيَاطِعِ لَهَبِهَا، مُتَعَيِّظِ زَفِيرِهَا، مُتَأَجِّجِ سَيَعِيرِهَا، بَعِيدِ خُمُودِهَا، ذَاكَ وَقُودِهَا، مَخُوفِ وَعِيدِهَا، عَمِ قَرَارِهَا، مُظْلِمَةِ أَقْطَارِهَا، حَيَامِيَةِ قُدُورِهَا، فَظِيْعَةِ أُمُورِهَا. (وَسَيَقِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا) قَدْ أَمِنَ الْعِيدَابُ، وَانْقَطَعَ الْعِتَابُ؛ وَزُخِرْ حُوا عَنِ النَّارِ، وَأَطْمَأَنَّتْ بِهِمُ الدَّارُ، وَرَضُوا الْمَثْوَى وَالْقَرَارَ. الَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا زَاكِيَةً، وَأَعْيُنُهُمْ بَاكِيَةً، وَكَانَ لَيْلُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ نَهَارًا، تَخَشَعًا وَاسْتِغْفَارًا؛ وَكَانَ نَهَارُهُمْ لَيْلًا تَوَحُّشًا وَانْقِطَاعًا. فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُمُ الْجَنَّةَ مَأْبًا، وَالْجَزَاءَ ثَوَابًا، (وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا) فِي مُلْكِ دَائِمٍ، وَنَعِيمٍ قَائِمٍ.

الشرح والتفسير: أهوال المحشر!

ما أن فرغ الإمام عليه السلام من التذكير بالموت وشدائده حتى حث الجميع على الاستعداد والتأهب لهذا السفر الخطير والمرعب فتحدث بعبارات رائعة عن بدايه القيامة واختتام الدنيا فقال:

«فَاللَّهُ اللَّهُ عِبَادَ اللَّهِ! فَإِنَّ الدُّنْيَا مَاضِيَةٌ بِكُمْ عَلَى

سَنَنْ (١) ، وَأَنْتُمْ وَالسَّاعَةُ فِي قَرْنٍ (٢) . وَكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا (٣) ، وَأَزِفَتْ (٤) بِأَفْرَاطِهَا (٥) ، وَوَقَفَتْ بِكُمْ عَلَى صِرَاطِهَا . وَكَأَنَّهَا قَدْ أَشْرَفَتْ بِرِلازِلِهَا ، وَأَنَاخَتْ (٦) بِكَلَاكِلِهَا (٧) .

العباره:

«وَأَنْتُمْ وَالسَّاعَةُ فِي قَرْنٍ» وبالالتفات إلى أن القرن هو الحبل الذي يربط به البعيران، إشاره إلى أن المسافه بينكم وبين القيامه ليست بعيده، كما يمكن أن تكون العباره إشاره إلى القيامه الصغرى أى الموت أو القيامه الكبرى بمعنى يوم القيامه، ذلك لأن عمر الدنيا مهما كان فهو قليل ولا بد أن تحل القيامه، والفارق بين العباره

«وَكَأَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ بِأَشْرَاطِهَا» والعباره

«وَأَزِفَتْ بِأَفْرَاطِهَا» هو أنه قال فى العباره الأولى قد جاءت علامات الآخره بينما تطرق فى العباره الأخرى إلى توفر مقدماتها.

وذهب البعض إلى أن العباره

«وَأَنَاخَتْ بِكَلَاكِلِهَا» إشاره إلى مصاعب القيامه، فالبعير حين ينام ويلصق صدره بالأرض يقذف بثقله على الأرض، لكن لا يبعد أن تكون إشاره قضيه الموت والقيامه كالناقه التى تنام على عتبه أبواب الجميع. كناية عن أن أحداً لا ينجو منه.

ثم قال بشأن أوضاع الدنيا:

«وَأَنْصَبَرَمَتِ الدُّنْيَا بِأَهْلِهَا، وَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِهَا (٨) ، فَكَأَنَّتْ كَيَوْمِ مَضَى أَوْشَهْرٍ أَنْقَضَى، وَصَيَّرَ جَدِيدُهَا رَتًّا (٩) ، وَسَيِّمِينُهَا عَثًّا (١٠) .»

نعم، فأولئك الذين كانت أعمارهم قصيره كأنها بمثابة يوم ومن عمّر طويلاً

ص: ٢٢٨

١- (١) . «سنن» بمعنى الطريق والأسلوب وتطلق على الجاده أيضاً.

٢- (٢) «قرن» ما يقرن به البعيران.

٣- (٣) «اشراط» جمع «شرط» على وزن «شرف» بمعنى العلامات.

٤- (٤) «ازفت» من ماده «ازف» على وزن «شرف» بمعنى قربت.

٥- (٥) «افراط» جمع «فرط» على وزن «شرط» جبل صغير وعلامه والمراد بها هنا المعنى الثالث.

٦- (٦) «أناخت» من «أناخ» بمعنى نوم الدابته.

٧- (٧) «كلاكل» جمع «كلكل» بمعنى الصدر.

٨- (٨) . «حضن» بمعنى الصدر.

٩- (٩) «رت» بمعنى قديم.

١٠- (١٠) «غث» بمعنى المهزول ويقابل السمين.

العبارة:

«أَخْرَجْتَهُمْ مِنْ حِصْنِهَا» إشاره إلى أن الدنيا أخذتهم مدّه بأحضانها ثم رمتهم إلى الموت وتشير العبارات

«صَارَ جَدِيدُهَا رَتْناً، وَسَدِّمِينُهَا غَنّاً» إشاره إلى تقلب جميع نعم الدنيا فالجديد يصبح قديماً ويزول والسمان يضعفون ويودعون هذا العالم.

ثم واصل عليه السلام كلامه عن وضع الإنسان في نهاية الدنيا ليخوض في مواقف القيامة وكان هنا كلام مقدر وربما لم يورد السيد الرضى بعض العبارات على طريقته في الاقتطاف ليصف العصاه الظلمه حين يردون المحشر ويرون ذلك المشهد المرعب فقال:

«فِي مَوْقِفِ ضَنْكَ (١) الْمَقَامِ، وَأُمُورٍ مُشْتَبِهَةٍ عِظَامٍ، وَنَارٍ شَدِيدٍ كَلْبَهَا (٢)، عَالٍ لَجْبَهَا (٣)، سَاطِعٍ لَهْبَهَا، مُتَعَيِّظٍ زَفِيرُهَا، مُتَأَجِّجٍ (٤) سَعِيرُهَا، بَعِيدٍ خُمُودُهَا، ذَاكٍ (٥) وَقُودُهَا، مَخُوفٍ وَعِيدُهَا، عَمٍ (٦) قَرَارُهَا، مُظْلَمَةٍ أَقْطَارُهَا، حَامِيَةٍ قُدُورُهَا، فَطَبَعَهُ أُمُورُهَا».

يشير التعبير بالموقف إلى مشهد القيامة أو مشهد جهنم، بقريته الصفة التي جاءت بعد ذلك وجدير ذكره أن الإمام عليه السلام يئن بهذه العبارات والصفات الاثنتي عشره التي وصف بها نار جهنم جميع هذه الاعجازات الإلهية بدقه متناهية وفصاحه تامه بحيث يقض مضاجع الآثمين.

النار المحرقه والخطيره، النار الشديده اللهب والتي تتداعى منها تلك الأصوات الرهيبة بفعل ما يحدث فيها من انفجارات، فهي لا تخدم أبداً ودخانها كثيف وقاتل تلتهم كل ما حولها بحيث تحيل النهار الواضح إلى ظلمه مطلقه.

ص: ٢٢٩

١- (١). «ضنك» بمعنى الشده والضيق.

٢- (٢) «كلب» بمعنى عضه الكلب ثم استعملت في كل انزعاج وشده.

٣- (٣). «لجب» بمعنى اضطراب الأمواج.

٤- (٤) «متأجج» من ماده «أجج» بمعنى إشعال النار المقرون بالصوت.

٥- (٥) «ذاك» من ماده «ذكاء» على وزن «دواء» بمعنى إشتد لهيبها وحرارتها.

٦- (٦) «عم» صفة مشبهه تعنى العمى من ماده «عمى» على وزن «جفا».

فالإمام عليه السلام يشير إلى هذه الصفات وكأنه يراها بأم عينيه خلف حجب الغيب.

ثم خاض عليه السلام في أوضاع أهل الجنة فرسم لها صورته دقيقه بما يؤجج نيراناً من الشوق في قلوب المؤمنين فقال مستشهداً بالآية الكريمة: «وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا (١)»

:قَدْ أُمِنَ الْعَذَابُ، وَأَنْقَطَعَ الْعِتَابُ؛ وَزُخْرِحُوا (٢) عَنِ النَّارِ، وَأَطْمَأْنَنَتْ بِهِمُ الدَّارُ، وَرَضُوا الْمَثْوَى وَالْقَرَارَ».

حيث أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة القصيره إلى خمسة امتيازات عظيمه لهذه الطائفه الورعه من أصحاب الجنة والتي يمكن خلاصتها في السكينه والطمأنينه المطلقه حيث الأمان من العذاب وغياب العتاب وابتعاد عن النار والاستقرار التام في الجنة والرضا بهذه العاقبه.

آنذاك خاض الإمام عليه السلام في شرح جانب من أعمال هذه الفئة فقال:

«الَّذِينَ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا زَاكِيَةً، وَأَعْيُنُهُمْ بَاكِيَةً، وَكَانَ لِيْلُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ نَهَارًا، تَخَشَعًا وَاسْتِغْفَارًا؛ وَكَانَ نَهَارُهُمْ لَيْلًا، تَوَحُّشًا وَانْقِطَاعًا».

حيث رسم الإمام عليه السلام بهذه الصفات الأربع مقامهم الرفيع بأجمل الصور ليعتبره العنصر الذي جعلهم من أصحاب الجنة.

فمن جانب كانت أعمالهم في الدنيا طاهره ونقيه عن الرياء والعجب والفخر، وكانت أعينهم باكيه من خشيه الله وعلى مصاب المظلومين من عباد الله، ومن جانب آخر كانوا ينقطعون في الليل للتهجد والعباده والخشوع والخضوع والاستغفار كما كان نهارهم ليلاً بسبب ابتعادهم عن أهل الدنيا والتنازع على المتع الماديّه فلا يعيشون سوى الانقطاع إلى الله، نعم هذه هي صفات أصحاب الجنة من ذوى المقامات الرفيعه والسعداء من أصحاب النجاه فاستحقوا بذلك تلك الدرجات، ومن هنا اختتم الإمام عليه السلام كلامه بالقول:

«فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُمُ الْجَنَّةَ مَأْبًا، وَالْجَزَاءَ ثَوَابًا، «وَكَانُوا

ص: ٢٣٠

١- (١). «زمر» جمع «زمره» على وزن «عمره» طائفه صغيره.

٢- (٢) «زحزحوا» من ماده «زحزح» على وزن «قهقهه» بمعنى الإبعاد.

أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا» (١)

فِي مُلْكٍ دَائِمٍ، وَنَعِيمٍ قَائِمٍ».

وعلى هذا الضوء فقد أشار الإمام عليه السلام إلى أهليتهم واستعدادهم بالإضافة إلى أجرهم وثوابهم العظيم، فقد حاربوا هوى أنفسهم مدّة قليلة وأثبتوا أهليتهم ورفعوا مقامهم من خلال عبادتهم لربهم وخشيتهم منه وسهرهم الليالي بالعبادة وإخلاصهم لله تعالى فأفاض الله الجواد الكريم عليهم عظيم أجره وثوابه الذي يفوق تلك الأعمال والذي لا يعرف من معنى للزوال والفناء.

ص: ٢٣١

١- (١) سورة الفتح، الآية ٢٦.

فَارْعَوْا عِبَادَ اللَّهِ مَا بَرِعَائِيهِ يَفُوزُ فَائِزُكُمْ، وَيَاضَاعَتِيهِ يَخْسِرُ مُبْطِلُكُمْ.

وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ مُرْتَهِنُونَ بِمَا أَسْلَفْتُمْ، وَمَيِّدُونَ بِمَا قَدَّمْتُمْ. وَكَأَنَّ قَدْ نَزَلَ بِكُمْ الْمَخُوفُ، فَلَا رَجْعَهُ تَنَالُونَ، وَلَا عَثْرَهُ تُقَالُونَ.

اسْتَعْمَلْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَعَفَا عَنَّا وَعَنْكُمْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ.

الشرح والتفسير: الاستعداد للرحيل

تابع الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه في بيانه لمصير الطالحين والصالحين حين الموت وفي القيامه، مطلباً يؤدى إلى النجاه والتوفيق حين الموت والعرض على الله فقال:

«فَارْعَوْا عِبَادَ اللَّهِ مَا بَرِعَائِيهِ يَفُوزُ فَائِزُكُمْ، وَيَاضَاعَتِيهِ يَخْسِرُ مُبْطِلُكُمْ (١)».

من الواضح أن عبارته الإمام عليه السلام البليغه هذه إشاره إلى التقوى والعمل الصالح الذى يدعو إلى الفلاح بينما يدعو التولى عنه إلى الفشل والخسران كما صرح القرآن الكريم بهذا الشأن قائلاً: «وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِيهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ» (٢).

ثم واصل كلامه فى الحديث عن قصر عمر الإنسان وذم التعويل على ما بقى منه

ص: ٢٣٣

١- (١) «مبطل» من ماده «بطلان» بمعنى إبطال الحق.

٢- (٢) سورة النور، الآية ٥٢.

والإبهام الذى يحيط بلحظه الموت فدعى الجميع لادّخار العمل الصالح والمساوغة للخيرات فقال:

«وَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ مُرْتَهِنُونَ بِمَا أَسْلَفْتُمْ، وَمَدِينُونَ (١) بِمَا قَدَّمْتُمْ».

يا له من تعبير رائع (التعبير بالرهن والدين) بالنسبة للذنوب السالفة وكأنّ الذنوب تطوق عنق الإنسان كدين ليكون بمنزله المرهون بكلّ كيانه إزاء هذا الدين فلا ينفك عنه ما لم يتب ويبادر إلى تلافى ما فرط منه بالعمل الصالح، الأمر الذى أكّده القرآن الكريم: «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ» (٢).

ورد فى الحديث النبوى الشريف (الخطبة الشعباتية فى أهميته شهر رمضان):

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَنْفُسَكُمْ مَرْهُونَةٌ بِأَعْمَالِكُمْ فَفُكُّوْهَا بِاسْتِغْفَارِكُمْ» (٣).

ثم حذر الجميع فقال:

«وَكَأَنَّ قَدْ نَزَلَ بِكُمْ الْمَخُوفُ، فَلَا رَجْعَةَ تَنَالُونَ، وَلَا عَتْرَةَ تُقَالُونَ» (٤).

فالحقيقه هى أنّ الإمام عليه السلام يشير إلى هذه النقطة وهى أنّ الموت يمكن أن يأتى الإنسان فى كلّ حادثه لا سيما أننا نرى موت الفجاءه أثر السكته القلبيّه أو سائر حوادث الموت الذى لا- عوده فيه والتي تعجز أمامه جميع الأسباب الظاهريّه، ثم اختتم الإمام عليه السلام هذا الجانب من الخطبه بدعاء قصير وجامع فقال:

«اسْتَعْمَلْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَعَفَا عَنَّا وَعَنْكُمْ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ».

ص: ٢٣٤

١- (١) «مدِينون» من ماده «دين» بمعنى الجزاء ويقال المدِينون لمن جُوزوا على عمل قاموا به.

٢- (٢) سورة المدثر، الآيه ٣٨.

٣- (٣) وسائل الشيعه، ج ٧، ص ٢٢٧، ح ٢٠، الباب ١٨ من أبواب حكم شهر رمضان.

٤- (٤) «تقالون» من ماده «إقاله» بمعنى الإعادة وتعنى هنا قبول العذر.

إِلْزَمُوا الْأَرْضَ، وَاصْبِرُوا عَلَى الْبَلَاءِ. وَلَا تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُمْ وَسُيُوفِكُمْ فِي هَوَى السِّنْتِكُمْ، وَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِمَا لَمْ يُعَجِّلْهُ اللَّهُ لَكُمْ. فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ عَلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ عَلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وَحَقِّ رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ مَاتَ شَهِيدًا، وَوَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَإِنَّهُ تَوَجَّبَ ثَوَابَ مَا نَوَى مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ، وَقَامَتِ النَّيَّةُ مَقَامَ إِضْلَاتِهِ لِسَيِّئِهِ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةً وَأَجَلًا.

الشرح والتفسير: لكل شيء أجل ومدته

خاطب الإمام عليه السلام في القسم الأخير من هذه الخطبة أولئك الذين يتطلعون إلى الشهادة بفارغ الصبر ودون تروٍ ويتعجلون في مواجهه العدو بعيداً عن تخطيط الإمام عليه السلام فقال:

«إِلْزَمُوا (١) الْأَرْضَ، وَاصْبِرُوا عَلَى الْبَلَاءِ. وَلَا تُحَرِّكُوا بِأَيْدِيكُمْ وَسُيُوفِكُمْ فِي هَوَى السِّنْتِكُمْ، وَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِمَا لَمْ يُعَجِّلْهُ اللَّهُ لَكُمْ».

فكما أنّ هنالك من يتهرب من الجهاد في سبيل الله، هنالك من يتعجل ويبغي الشهادة قبيل أوانها، ورغم أنّ نيات هؤلاء الأفراد مقدسه لكن الأعمال التي لا تخضع للتخطيط وتسبق أوانها تنطوي على العديد من الأخطاء والانعكاسات السلبية.

ومن هنا نهى الإمام عليه السلام عن مثل هذه الأفعال ثم قال بصيغته دليل لما ذكر:

«فَإِنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ عَلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ عَلَى مَعْرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وَحَقِّ رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ مَاتَ

١- (١). «الزموا» من «لزوم» بمعنى الملازمه والعبارة إلزموا الأرض الأمر بالتوقف والسكون.

شَهِيداً، وَوَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَاسْتَوْجِبَ ثَوَابَ مَا نَوَى مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ، وَقَامَتِ النَّبِيُّ مَقَامَ إِضْلَاتِهِ (١) لِسَيْفِهِ».

واختتمها بالعباره:

«فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةً وَأَجْلاً».

وتبدو هذه العباره مجديه فى كلِّ عصر وزمان وتشكل رداً حاسماً على المتسرعين من الأفراد من ذوى النيات الطاهره الذين ربّما يعشقون الجهاد والشهاده لكنهم لا يميزون الوقت المناسب من غير المناسب فهم يتحرقون على الدوام ويمارسون بعض الضغوط على زعامتهم إلاّ أنّ الزعيم الحكيم من لا يستجيب للضغوط ولا يتعجل النتائج، لكنه يبشرهم بأنّ الله سيثيبهم على تلك النيات إن كانوا صادقين فى دعواهم وإيمانهم بالمبدأ والمعاد والنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام فسيحصلون لا شك على ثواب المجاهدين فى سبيل الله والشهداء ولا يصدق هذا الكلام على الجهاد والشهاده فحسب بل يشمل جميع أفعال الخير التى ينبغى ممارستها فى وقتها المناسب، وقد وردت مثل هذه العباره فى الخطبه الخامسه من نهج البلاغه بتعبير آخر إذ قال:

«وَمُجْتَنِبِي الثَّمَرَةِ لِعَيْرِ وَقْتِ ائِنَاعِهَا كَالزَّارِعِ بَعِيرِ أَرْضِهِ».

ويصدق هذا الكلام على عصرنا وزماننا إذ إنّ هنالك طائفه تسعى لمواجهة المنافقين فى الداخل والأعداء فى الخارج دون التطلع إلى الفرصه المناسبه والتخطيط الدقيق، أو تعيش حاله من الانتظار الممل لظهور الإمام المهدي عليه السلام والقتال بين يديه والذى يقال لجميع هؤلاء إنّ الله سيعطيكم أجر المجاهدين والشهداء إن صدقتم فى إيمانكم وأخلصتم فى نياتكم.

تأمل

الثورات المتعجله

قد يضيق البعض ذرعاً فى المجتمعات التى تعيش حاله من المعاناه بفعل العدو

ص: ٢٣٦

١- (١) «اصلات» بمعنى سل السيف.

الداخلي أو الخارجى فيعمد إلى القيام بالثوره فى غير وقتها، الأمر الذى لا يؤدى إلى فشل تلك الثوره فحسب بل يوقظ العدو ويسلب زمام المبادره فى المستقبل، وهذه إحدى المعضلات التى تواجه القيادات الحكيمه.

وقد حفل تاريخ التشيع بالعديد من هذه الثورات المتعجله عقب واقعه كربلاء التى جوبهت بالنهى من جانب الأئمه عليهم السلام، مع ذلك فقد التحق بها بعض من اشياهم المخلصين.

والقضية المهمه هى أن الثوره ضد العدو بغيه القضاء عليه تتطلب العديد من الشروط التى يسعى القائد الحكيم لتوفرها جميعاً لتفضى الثوره إلى نتائجها المتوخاه منها.

فالقائد عاده يرى ما لا يراه الفرد العادى ويتمتع بسعه افق تجعله يرى ويفكر فى ما خلف هذا الواقع، والذى تفيده هذه الخطبه أن أميرالمؤمنين عليه السلام ورغم كونه أعظم بطل ومجاهد فى الإسلام قد عانى من مثل هؤلاء الأفراد إلى جانب أولئك المتقاعسين عن الجهاد.

فقد عانى فى الواقع من افراط وتفريط هاتين الطائفتين.

فبعض الأفراد لا يكاد يسمع الآيات والروايات الوارده فى مقام الشهداء وثواب الشهاده ودعوه الناس لهذا المضمار حتى يعيشوا حاله عجيبه من عشق الشهاده، إلا أن الإمام عليه السلام يريهم أفضل سبيل والذى تلخص فى نصحهم عدم الاستعجال واليقين بأن الله سيعطيهم أعظم الأجر والثواب إن صدقوا فى إيمانهم وأخلصوا فى نيّاتهم.

يَحْمَدُ اللَّهَ وَيُثْنِي عَلَى نَبِيِّهِ وَيُوصِي بِالزُّهْدِ وَالتَّقْوَى (١)

نظرة إلى الخطبه

تألف هذه الخطبه في الواقع من ثلاثه أقسام:

القسم الأول: في حمد الله والثناء عليه المقرون بذكر النعم وجانب من صفات الجلال والجمال، ثم الشهاده للنبي صلى الله عليه وآله بالرساله وتوضيح الظروف التي بعث فيها النبي وهدايه الأُمَّه.

القسم الثاني: الحديث عن التقوى وبركاتها والوصيه بالتمسك بهذه العروه الإلهيه في جميع شؤون الحياه.

القسم الثالث: تحذير أصحاب الدنيا من الغرور بها والكشف عن الدنيا وعيوبها ليعتبر بذلك الآخرون.

ص: ٢٣٩

١- (١) سند الخطبه: ذكر ابن أبي الحديد اختلاف الروايه في بعض كلماتها، ممّا يدل على أنه رآها في غير نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٢٨).

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْفَاشِي فِي الْخَلْقِ حَمْدُهُ، وَالْغَالِبِ جُنْدُهُ، وَالْمُتَعَالَى جُدُّهُ أَحْمَدُهُ عَلَى نِعْمِهِ التُّوَامِ، وَالْآلِيهِ الْعِظَامِ. الَّذِي عَظَّمَ حِلْمُهُ فَعَفَا، وَعَدَلَ فِي كُلِّ مَا قَضَى، وَعَلِمَ مَا يَمْضَى وَمَا مَضَى، مُبْتَدِعِ الْخَلَائِقِ بِعِلْمِهِ، وَمُنْشِئِهِمْ بِحُكْمِهِ، بِلاَ اقْتِدَاءٍ وَلاَ تَعْلِيمٍ، وَلاَ اخْتِدَاءٍ لِمِثَالِ صَانِعِ حَكِيمٍ، وَلاَ إِصَابِهِ خَطَأً، وَلاَ حُضْرَهُ مَلَا.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ابْتَعَثَهُ وَالنَّاسُ يَضْرِبُونَ فِي غَمْرِهِ، وَيُمُوجُونَ فِي حَيْرِهِ. قَدْ قَادَتْهُمْ أَرْمَةُ الْحَيْنِ، وَاسْتَتَلَقَتْ عَلَى أَفْنَدَتِهِمْ أَقْفَالُ الرَّيْنِ.

الشرح والتفسير: بديع خلق الله

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة التي تعدّ من أفصح خطبه عليه السلام بحمد الله والثناء عليه ووصفه بثلاث صفات فقال:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الْفَاشِي (١) فِي الْخَلْقِ حَمْدُهُ، وَالْغَالِبِ جُنْدُهُ، وَالْمُتَعَالَى جُدُّهُ».

التعبير

«الْفَاشِي فِي الْخَلْقِ حَمْدُهُ» التي تفيد سعه حمد الله في جميع مخلوقاته يمكن أن تشير إلى حمده من قبل الأقسام المؤمنة والثناء عليه، أو إشارته إلى الحمد والثناء التي تعيشه موجودات العالم كافة ولا سيما إزاء نعم الله بلسان الحال والقال فتسبح الله وتقدهسه وتحمده، وغلبه جند الله تستند إلى أن جند الله تعالى لا

ص: ٢٤١

١- (١). «الفاشي» من مادة «فشو» على وزن «كشف» بمعنى الانتشار والاتساع.

يقتصرون على ملائكته سبحانه بل كل ما فى العالم، وليس لأحد مقاومته والوقوف بوجهه: «وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» (١).

والعبارة:

«وَالْمُتَعَالَى جَدُّهُ» اقتباس من الآية الشريفة: «وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا» (٢) وبالالتفات إلى أَنَّ الجِدَّ هنا تعنى العظمة فإنها إشارة لعظمة الذات الإلهية المقدسة (٣).

ثم ركز الإمام عليه السلام على النعم الماديّة والمعنويّة ليحمد الله ويشنى عليه إزاء تلك النعم فقال:

«أَحْمَدُهُ عَلَى نِعْمِهِ التُّوَامِ (٤)، وَآلَائِهِ الْعِظَامِ».

بالنظر إلى أَنَّ (توأم) على وزن (غلام) جمع (توأم) على وزن (جوهر) بمعنى الأشياء المقترنه مع بعضها فإنها تشير إلى النعم الإلهية التي تكون عادة متصله ومتتاليه، فمثلاً نعمه اللسان هي وسيله للتكلم وكذلك عنصر لدفع الطعام تحت الأسنان بغيه مضغه من جانب كونه وسيله مهمه لابتلاع الطعام وتذوق الأطحمة وللإطلاع على سلامه الطعام من فساده وهكذا سائر النعم التي لا تعد ولا تحصى، وهل يطيق الإنسان احصاء نعم الله وأفضاله؟

ويمكن أن تكون «آلاء» مقابل «نعم» إشارة إلى النعم المعنويّة فى مقابل النعم الماديّة، ثم خاض فى معرفه الله فحمده واثنى عليه وذكره بخمس صفات من شأن كل واحد منها أن تكون دافعاً لحمد الله والثناء عليه فقال عليه السلام:

«الَّذِي عَظُمَ حِلْمُهُ فَعَفَا، وَعَدَلَ فِي كُلِّ مَا قَضَى، وَعَلِمَ مَا يَمْضَى وَمَا مَضَى، مُبْتَدِعَ الْخَلَائِقِ بِلِعْلِمِهِ، وَمُنْشِئِهِمْ بِحُكْمِهِ».

فهذه الصفات الخمس التي تنطلق من سعه حلم الله تعالى وتنتهى بخلق الخلائق

ص: ٢٤٢

١- (١) سورة الفتح، الآية ٧.

٢- (٢) . سورة الجن، الآية ٣.

٣- (٣) فالتعبير عن الجد بهذا الأسم لعظم مقامه.

٤- (٤) «توأم» على وزن «غلام» جمع «توأم» على وزن «جوشن» تعنى فى الأصل المولود مع غيره فى بطن واحد ويقال لهما التوأمين، ثم اطلق على كل شىء يقترن بآخر ويشير فى العبارة المذكوره إلى أَنَّ نعم الله سبحانه وتعالى ليست مفردة بل مقرونه عادة بالعديد من النعم.

وابداع الكائنات تعدّ أهم صفات الله التي تشمل العلم والقدرة والعدالة واللطف والرحمة.

ثم أشار إلى هذه الحقيقة أن خلق الله تعالى دون أدنى سابقه تعلم وتجربه ومشوره فقال عليه السلام:

«بَلَا أَفْتِدَاءَ وَلَا تَعْلِيمَ، وَلَا اخْتِدَاءَ (١) لِمِثَالِ صَانِعِ حَكِيمٍ، وَلَا إِصَابِهِ خَطَأً، وَلَا حَضْرَهُ مَلَأَ».

فالواقع إنّ الشخص الذى يستلهم من الآخرين فى صناعته إنّما يستند إلى ذلك فى واحده من طرق خمس:

الأول: أن يقلد غيره، والثانى: أن يتعلم، والثالث: أن يرى صناعه عالم غيره فيستفيد منها فى تحقيق غرضه، والرابع: الاستفادة من أخطائه السابقه والخروج بتجربه، والخامس: أن يستشير جماعه معينه ويتعاون معها، أمّا الله الصانع الحكيم فخلقه لا يستند إلى سابقه وغنى عن كلّ ما قيل سابقاً ومن هنا يطلق على خلقه الابداع (الخلق دون سابقه).

وتبدو هذه المسأله فى غايه الأهميه إذ إنّ الإنسان مهما صنع ومهما ابدع وابتكر إنّما شاهد نماذج ذلك فى عالم الخلق؛ فمثلاً الذين اخترعوا الطائره فمما لا شك فيه أنهم استفادوا واستلهموا تصميمها من الطيور، ومن هنا كان هنالك شبه كبير بين أنواع الطائرات وأنواع الطيور، وفى نفس الوقت وبغية تحقيق أهدافهم عليهم أن يستفيدوا من علوم السابقين وتجاربهم ويقوموا باختباراتهم الواسعه والمتكرره ليتمكنوا من تلافى أخطائهم عن طريق الاختبار والتجربه، وعاده ما يعمدون إلى تشكيل بعض المجالس وعقد المؤتمرات والندوات لهذا الغرض والحال فإنّ الصانع الحكيم ليس بحاجة إلى أى من هذه الأمور فى خلقه الواسع والأنواع الخارجه عن الحدود من مخلوقاته.

ولما فرغ الإمام عليه السلام من حمد الله والثناء عليه خاض فى الشهاده للنبي صلى الله عليه وآله

ص: ٢٤٣

١- (١). «الاحتذاء» يعنى التنسيق من ماده «حذو» على وزن «جذب» بمعنى التنسيق والانسجام.

بالرسالة والأوضاع على عهد بعثته ليشرحها بعبارات قصيره وعظيمه المعنى وليكشف النقاب عن مضمون تلك الدعوه فتبدو واضحه وجليه وملموسه، فقال:

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ ابْتَعَثَهُ وَالنَّاسُ يَضْرِبُونَ فِي غَمْرِهِ (١)، وَيُمُوجُونَ فِي حَيْرِهِ. قَدْ قَادَتْهُمْ أَرْمَهُ الْحَيْنِ (٢)، وَاسْتَعْلَقَتْ عَلَى أَفْدَتِهِمْ أَقْفَالُ الرَّيْنِ (٣)».

فقد استعار الإمام عليه السلام عده تشبيهات لرسم صورته واضحه لما كانت عليه الناس في العصر الجاهلي؛ فقد شبههم أحياناً بالشخص الذى وقع فى ورطه مرعبه فهو لا ينفك عن الصراخ وطلب النجده، وأحياناً أخرى شبههم بأن أزمهم انيطت بأيدي أفراد فاسدين مفسدين لا- يقودونهم سوى إلى الهاويه، وأخيراً شبه قلوبهم بالمخازن المقفله بحيث لم يلجها أى علم ومعرفه وفضيله.

حقاً، إن الإنسان ما لم يقف على وضع الناس فى العصر الجاهلي من الناحيه الفكرية والعقائديه والأخلاقية والاجتماعية والسياسية لا يسعه إدراك عظمه النبى صلى الله عليه وآله وعظمه الدعوه الإسلاميه، ومن هنا يذكر الإمام عليه السلام فى العديد من خطب نهج البلاغه وبعبارات غايه فى الروعه والجمال الوضع آنذاك للأجيال الذين لم يدركوا ذلك العصر أو أنهم أدركوا واقعه ولكنهم نسوه ومن ذلك ما قاله فى الخطبه الثانيه من النهج:

«أَرْسَلَهُ بِالذِّينِ الْمَشْهُورِ... وَالنَّاسُ فِي فِتْنٍ أَنْجَزَمَ فِيهَا جَعَلَ الذِّينِ...».

ووقال عليه السلام فى الخطبه ٢٦:

«إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا... وَأَنْتُمْ مَعْشَرُ الْعَرَبِ فِي شَرِّ دِينٍ وَفِي شَرِّ دَارٍ...».

والخطبه ٥٩:

«بَعَثَهُ وَالنَّاسُ ضَلَالٌ فِي حَيْرِهِ وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنِهِ...».

ص: ٢٤٤

١- (١). «غمره» الماء الكثير الذى يغطى كل شىء ثم اطلق على كل شده.

٢- (٢) «حين» بفتح الحاء تعنى الموت والهلكه واستعمل بمعنى الغم والههم الشديد الذى يؤدى بالإنسان إلى الموت وحين بكسر الحاء بمعنى الزمان وقد وردت فى هذه الخطبه بالمعنى الأول.

٣- (٣) «رين» بفتح الراء تعنى الصدأ الذى يصيب المعادن والذى يفيد الفساد والتلف أو ضياع شفافيه المعدن ولمعانه.

«أَرْسَلَهُ وَأَعْلَامُ الْهُدَى دَارِسَهُ وَمَنَاهِجُ الدِّينِ طَامِسَهُ...».

حقًا لو نظرنا إلى عبارات الإمام عليه السلام في هذه الخطب مع بعضها البعض الآخر لتجسدت أمامنا صورته غاية في الروعة عن الأوضاع في العصر الجاهلي والمشاكل التي كان يعاني الناس منها آنذاك على الصعيد العقائدي والاجتماعي والأخلاقي وبالتالي سنقف على مدى أهميته الإسلام والجهود التي بذلها رسول الله صلى الله عليه وآله في الإرتقاء بذلك المجتمع وتحويله من مجتمع جاهلي ذي تقاليد متوحشه إلى مجتمع إسلامي ذي مبادئ إنسانية عالية.

عِبَادَ اللَّهِ! أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا حَقُّ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، وَالْمُوجِبَةُ عَلَى اللَّهِ حَقِّكُمْ، وَأَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيْهِ بِاللَّهِ، وَتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى اللَّهِ: فَإِنَّ التَّقْوَى فِي الْيَوْمِ الْحِزْبُ وَالْجُنَّةُ، وَفِي غَدِ الطَّرِيقِ إِلَى الْجَنَّةِ. مَسَلِكُهَا وَاضِحٌ، وَسَالِكُهَا رَابِحٌ، وَمُسْتَوْدَعُهَا حَافِظٌ. لَمْ تَبْرَحْ عَارِضَةً نَفْسِيهَا عَلَى الْأُمَّمِ الْمَاضِينَ مِنْكُمْ وَالْغَابِرِينَ، لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا غَدًا، إِذَا أَعَادَ اللَّهُ مَا أَبَدَى، وَأَخَذَ مَا أُعْطِيَ، وَسَأَلَ عَمَّا أَسَدَى. فَمَا أَقَلَّ مَنْ قَبَلَهَا، وَحَمَلَهَا حَقَّ حَمْلِهَا! أَوْلَيْكَ الْأَقْلُونَ عَدَدًا، وَهُمْ أَهْلُ صِفَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِذْ يَقُولُ: (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ).

الشرح والتفسير: التقوى كنه في الدنيا ونور في الآخرة

يشكل هذا الجانب من خطبه الإمام عليه السلام هدفها الأصلي وما مضى في القسم الأول يمثل في الواقع مقدمه وتمهيداً لهذا القسم، ذلك لأنه لا موضوعيته للحديث عن الورع والتقوى ما لم يكن هناك إيمان بالله وإيمان بنبوه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال عليه السلام:

«عِبَادَ اللَّهِ! أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا حَقُّ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، وَالْمُوجِبَةُ عَلَى اللَّهِ حَقِّكُمْ».

وهذا التعبير بشأن التقوى بديع، فهو يمثل حقَّ الله من جانب على عباده ومن جانب آخر يجعل للعباد حقَّاً على الله تعالى، أما حقَّ الله فدليل ذلك أن نتيجة الورع والتقوى هو طاعه جميع أوامر الله ونواهيه وطاعه حقَّ الله لدى عباده، وأما حقَّ العباد على الله فكونهم يستحقون على أثرها الأجر والثواب.

وقد ذهب العديد من شرّاح نهج البلاغه إلى أنّ التقوى هنا تعنى الطاعة التامه لأوامر الله تعالى، والحال أنّ التقوى هى خشية الله الباطنيه والالتزام بالمبادئ التى يكون أثرها طاعه أوامر الله.

فالتقوى تظهر فى مراحلها الابتدائيه بصوره العداله وفى مراحل أروع بصوره العصمه وكل ذلك من الصفات الباطنيه.

والشخص الذى يستخف بالطاعه ولا يكثر للذنوب هو شخص عديم التقوى وذلك الشخص الملتزم يتعاليم الدين والعامل بها هو المتقى وتظهر آثار كل من الحالتين على الأعمال.

ثم قال عليه السلام فى تحصيل هذه الجوهره الثمينه:

«وَأَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيَّهَا بِاللَّهِ، وَتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى اللَّهِ».

نعم، فسلك سبيل التقوى، التقوى التى تحيط بحياه الإنسان، ليست ميسره إلّا بتوفيق الله، حتى أنبياء الله وأوليائه يفوضون أمورهم إلى الله ويسألونه الأخذ بأيديهم ويقولون: «وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» (١).

وورد فى الدعاء الذى ورد الحث عليه عقب زياره الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام:

«كَلِّمًا وَفَقَّتَنِي بِخَيْرٍ فَأَنْتَ ذَلِيلِي عَلَيْهِ وَطَرِيقِي إِلَيْهِ» (٢).

ثم أشار عليه السلام إلى معطين مهمين من معطيات التقوى كدليل عليها فقال:

«فَإِنَّ التَّقْوَى فِي الْيَوْمِ الْحِزْبُ وَالْجَنَّةُ».

نعم! فمعظم الحوادث المريره الفرديه والاجتماعيه التى تعكر صفو حياه الإنسان فى هذا العالم معلوله للمعصيه والخروج عن جاده العدل والانصاف؛ فالتقوى تنقذ الإنسان فى هذا العالم من السقوط فى مستنقع الذنب وعواقبه الخطيره وتجعله يعيش حياه هانئه مقرونه بالسكينه والسعاده وفخير زاد يتزود به الإنسان

ص: ٢٤٨

١- (١) سورة هود، الآيه ٨٨، ورد هذا الكلام فى القرآن على لسان النبى شبيب عليه السلام تجاه قومه الطاعين.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٩٩، ص ٥٥.

هى التقوى كما تقول الآيه الشريفه: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» (١).

التي تعنى دخول الجنه والتلذذ بنعمها الخالده، فهل هناك من جوهره ثمينه أثنى من التقوى بحيث تحفظ الإنسان فى الدنيا وتنجيه فى الآخره.

ثم أشار فى مواصلته لحديثه إلى ثلاثه أمور مهمه بشأن التقوى فقال عليه السلام فى الأمر الأول:

«وَفِي غَدِّ الطَّرِيقِ إِلَى الْجَنَّةِ. مَسْلُكُهَا وَاضِحٌ، وَسَالِكُهَا رَابِحٌ، وَمُسْتَوْدَعُهَا حَافِظٌ».

إلا أن وضوح جاده التقوى ومسلكها كونها من جانب منسجمه بصوره تامه مع فطره الإنسان، ومن جانب آخر قد بين مسار هذه الجاده فى عالم التشريع فى الكتاب والسنة النبويه المطهره.

وأما ربح السالك لهذا الطريق كونها تسوق المتقين إلى الجنه وفق الآيه القرآنيه:

«تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا» (٢) هذا من جانب، ومن جانب آخر تنقذ صاحبها فى الدنيا من الدنس والدنائمه والحياه المظلمه وتجعله سعيداً ذا عزه لدى الجميع، أما حفظها لمستودعها (إذا اعتبرنا مستودع بمعنى اسم المفعول) فسبب ذلك أن الله تعالى تعهد بمثوبه المتقين والورعين، وعليه فأمانه هؤلاء محفوظه لدى الله وملائكته الله حفظت أعمال المتقين، وإن اعتبرنا مستودع بمعنى اسم المكان فإن موضع التقوى هو القلب الذى يحفظها بعناء ويصونها من كل شىء، واعتبر البعض (حافظ) بمعنى المحفوظ وعليه يصبح معنى الجملة، المتقون محفوظون فى ظل التقوى.

الأمر الثانى الذى أشار إليه الإمام عليه السلام هى أن التقوى حقيقه خالده لا تتأثر بالزمان والمكان فقال:

«لَمْ تَبْرَحْ» (٣) عَارِضَةٌ نَفْسَهَا عَلَى الْأُمَمِ الْمَاضِينَ مِنْكُمْ

ص: ٢٤٩

١- (١) سوره البقره، الآيه ١٩٧.

٢- (٢) . سوره مريم، الآيه ٦٣.

٣- (٣) . «تبرح» من ماده «برح» بمعنى الإبتعاد لكنها تعطى معنى الإيجاب حين تقترن بكلمه النفسى.

وَالْغَابِرِينَ (١) ، لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا غَدًا، إِذَا أَعَادَ اللَّهُ مَا أَبْدَى وَأَخَذَ مَا أَعْطَوْا سَأَلَ عَمَّا أُسْدَى (٢)».

نعم فالتقوى كالتقصر الجميل الفخم والهادئ الذى يدعو إليه الجميع والذى كان وما زال ماثلاً أمام أعين جميع الناس وقد دعى إليه الجميع من جانب الكتب السماوية وأنبياء الله وأوليائه، فقد صرح القرآن الكريم قائلاً: «وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ» (٣).

وقال الإمام عليه السلام فى الأمر الثالث:

«فَمَا أَقْلَ مَنْ قَبَلَهَا، وَحَمَلَهَا حَقَّ حَمْلِهَا! أُولَئِكَ الْأَقْلُونَ عِدَدًا، وَهُمْ أَهْلُ صِفَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِذْ يَقُولُ: «وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ» (٤)».

والسؤال الذى يرد: لم كان طلاب التقوى قلائل مع ما لها من الأهميه؟ ولا يبدو الجواب على هذا السؤال صعباً، ذلك لأن التقوى تعنى مخالفه هوى النفس ومخالفه هوى النفس ليس بالأمر الهين، فسيبيل التقوى ينطوى على الكثير من المطبات والصعوبات وإن كانت عاقبته حلوه هنيهه، ذلك لأن جاده هوى النفس معبده وللسائرين ولكن عاقبتها فى غايه الخطوره.

إن الله تعالى لما خلق الجنه قال لجبرئيل: انظر إليها. فلما نظر إليها قال:

«يَا رَبِّ لَا يَتْرُكُهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا» فلما حَفَّها بالمكاره قال: انظر إليها. فلما نظر إليها قال:

«يَا رَبِّ أَخْشَى أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ» ولما خلق النار قال: انظر إليها. فلما نظر إليها قال:

«يَا رَبِّ لَا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ» فلما حَفَّها بالشهوات قال: انظر إليها، فلما نظر إليها قال:

«يَا رَبِّ أَخْشَى أَنْ يَدْخُلَهَا كُلُّ أَحَدٍ» (٥). فهذا الحديث فى الواقع شرح لما ورد عن النبى

ص: ٢٥٠

١- (١). «الغابرين» جمع «غابر» من غبور على وزن «عبور» تعنى بقاء الشىء وعليه فغابرين تعنى الباقين.

٢- (٢) «اسدى» من ماده «سدى» على وزن «عبا» بمعنى الإحسان والعطاء.

٣- (٣) سوره النساء، الآيه ١٣١.

٤- (٤) سوره سبأ، الآيه ١٣.

٥- (٥). بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٧٢.

الأكرم صلى الله عليه وآله وعن وعلى عليه السلام:

«حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ» (١).

القسم الثالث

إشاره

فَأَهْطَعُوا بِأَشْيَاءِكُمْ إِلَيْهَا، وَالظُّلُوا بِجِدِّكُمْ عَلَيْهَا، وَاعْتَاضُوهَا مِنْ كُلِّ سَيْلٍ خَلْفًا، وَمِنْ كُلِّ مُخَالِفٍ مُوَافِقًا. أَيْقَظُوا بِهَا نَوْمَكُمْ، وَاقْطَعُوا بِهَا يَوْمَكُمْ، وَأَشْعِرُوا قُلُوبَكُمْ، وَارْحَضُوا بِهَا دُنُوبَكُمْ، وَدَاوُوا بِهَا الْأَشْيَاءَ قَامًا، وَبَادِرُوا بِهَا الْحِمَامَ، وَاعْتَبِرُوا بِمَنْ أَضَاعَهَا، وَلَا يَعْتَبِرَنَّ بِكُمْ مَنْ أَطَاعَهَا. أَلَا فَصُونُوهَا وَتَصَوَّنُوا بِهَا، وَكُونُوا عَنِ الدُّنْيَا نَزَاهًا، وَإِلَى الْآخِرَةِ وُلَاهًا. وَلَا تَضَعُوا مَنْ رَفَعْتَهُ التَّقْوَى، وَلَا تَزْفَعُوا مَنْ رَفَعْتَهُ الدُّنْيَا. وَلَا تَشْتِمُوا بَارِقَهَا، وَلَا تَشْتِمَعُوا نَاطِقَهَا، وَلَا تُجِيبُوا نَاعِقَهَا وَلَا تَسْتَضِيئُوا بِإِشْرَاقِهَا، وَلَا تُفْتِنُوا بِأَعْلَاقِهَا، فَإِنَّ بَرَقَهَا خَالِبٌ، وَنُطِقَهَا كَاذِبٌ، وَأَمْوَالُهَا مَحْرُوبَةٌ، وَأَعْلَاقُهَا مَسْلُوبَةٌ. أَلَا وَهِيَ الْمُتَصِّدِيَةُ الْعُنُونُ، وَالْجَامِحَةُ الْحَزُونُ، وَالْمَائِنَةُ الْخَوُونُ، وَالْجَحُودُ الْكُنُودُ، وَالْعُنُودُ الصَّدُودُ، وَالْحَيُودُ الْمَيُودُ.

الشرح والتفسير: سماع نداء التقوى

خاض الإمام على عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه في بحث واسع وعميق عن آثار التقوى على الإنسان صاحب البصيره وتطرق إلى أبعادها المختلفه باثنتى عشره عباره قصيره وعميقه المعنى فقال عليه السلام:

«فَأَهْطَعُوا (٢) إِلَيْهَا، وَالظُّلُوا (٣) بِجِدِّكُمْ

ص: ٢٥١

١- (١) بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٧٢؛ نهج البلاغه، خطبه ١٧٦.

٢- (٢). «اهطعوا» من ماده «هطوع» على وزن «طلوع» بمعنى الاندفاع سريعاً نحو الشىء.

٣- (٣) «الظلوا» من ماده «لظ» على وزن «خط» بمعنى الإلحاح على الشىء.

عَلَيْهَا، وَاعْتَاضُوهَا مِنْ كُلِّ سَلَفٍ خَلْفًا، وَمِنْ كُلِّ مُخَالِفٍ مُوَافِقًا».

وكانت التقوى قد دعت إلى نفسها جميع الناس وقد بينت للجميع آثارها الطيبة والمحمودة ولذلك قال الإمام عليه السلام سارعوا إليها بأذانكم لسماعها ثم انهضوا وجدوا واجتهدوا في تحصيل مقدماتها فإن كانت لكم تقوى فسوف لن تحزنوا على ما يفوتكم من حطام الدنيا واعلموا أن التقوى حافظتكم من مخالفكم.

ويمكن أن تكون

«مُخَالِفٍ» في العبارة إشارة إلى الذنوب السالفة التي تزول آثارها بالتقوى، أو المراد اعداء الإنسان ومخالفوه، لأن الله وعد المتقين بالنصر والغلبة إذ قال تعالى في كتابه العزيز: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ» (١)، وقال: «وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَآ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا» (٢).

ثم نصحنا بست عبارات أخرى فقال:

«أَيَّقِظُوا بِهَا نَوْمَكُمْ وَأَقْطَعُوا بِهَا يَوْمَكُمْ، وَأَشْعِرُوهَا قُلُوبَكُمْ، وَارْحُضُوا (٣) بِهَا ذُنُوبَكُمْ، وَدَاوُوا بِهَا الْأَسْقَامَ».

وعبارة

«أَيَّقِظُوا بِهَا نَوْمَكُمْ» يمكن أن تكون إشارة إلى النوم العادي، أى ينبغي فى ظل التقوى قضاء جانب من الليل فى العبادة والتفرغ لمناجاة الله تعالى:

«فى مقابل وأقطعوا بها يومكم» كما يُحتمل أن يكون المراد، اليقظة من نوم الغفلة بالتقوى، والعبارة

«أَشْعِرُوهَا قُلُوبَكُمْ» بالنظر إلى أنّ (شعاره هى الثياب الملاصقة للبدن) فيمكن أن تكون إشارة إلى تنوير القلب بالتقوى أو اجعلوا التقوى شعاركم وعلامتكم أو ايقظوا قلوبكم بالتقوى (حيث إنّ أشعروا من مادة شعور).

والعبارة:

«دَاوُوا بِهَا الْأَسْقَامَ» إشارة إلى الأسقام الباطنية التى تعالج بواسطة التقوى.

وقال فى العبارة التاسعة حتى الثانية عشره:

«وَبَادِرُوا بِهَا الْحِمَامَ (٤)، وَاعْتَبِرُوا

ص: ٢٥٢

٢-٢) سورة آل عمران، الآية ١٢٠.

٣-٣) «ارحضوا» من «رحض» على وزن «محض» بمعنى الغسل.

٤-٤) . «الحمام» بكسر الحاء الموت.

بِمَنْ أَضَاعَهَا، وَلَا يَعْتَبِرَنَّ بِكُمْ مَنْ أَطَاعَهَا. أَلَا فَصُونُوهَا وَتَصُونُوا (١) بِهَا».

وقد جاء فى القرآن الكرىم قوله تعالى: «سَابِقُوا إِلَى مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» (٢). وقال تعالى فى موضع آخر: «وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِك خَيْرٌ» (٣).

والعبارة

«واعتبروا...» إشاره إلى أنّ عاقبه عدم التقوى واضح لك فى هذه الحياه الدنيا وترونها بأُم أعينكم كما تقرأونها فى التاريخ بشأن الأفراد والمجتمعات التى سارت إلى ذلك المصير المشؤوم والأسود فما عليكم إلّا الاعتبار بهم ولا- تكونوا ممن يعتبر بهم الآخرون، وقد أشار القرآن فى قصه يوسف وإخوته وامراه عزيز مصر إلى النتائج السلبيه التى عمت البعض بسبب انعدام التقوى والبركات التى ساقتها التقوى ليوست فقال تعالى: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولَى الْأَلْبَابِ» (٤).

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى عواقب الانغماس فى الدنيا التى يفرزها انعدام التقوى فحذر من هذه الدنيا الغرور بتسع عبارات قال فيها:

«وَكُونُوا عَنِ الدُّنْيَا نُزَاهًا (٥)، وَإِلَى الْآخِرَةِ وُلاَهَا (٦). وَلَمَا تَضَعُوا مَن رَفَعْتُهُ التَّقْوَى، وَلَمَا تَرْفَعُوا مَن رَفَعْتُهُ الدُّنْيَا. وَلَمَا تَشْتِيْمُوا (٧) بَارِقَهَا (٨) وَلَا تَسْمَعُوا نَاطِقَهَا، وَلَا تُجِيبُوا نَاعِقَهَا (٩). وَلَا تَسْتَضِيْمُوا بِإِشْرَاقِهَا،

ص: ٢٥٣

١- (١) «تصونوا» من ماده «صون» على وزن «قوم» بمعنى الحفظ وتصون بالتشديد بمعنى حفظ النفس.

٢- (٢) . سورة الحديد، الآية ٢١.

٣- (٣) سورة الأعراف، الآية ٢٦.

٤- (٤) سورة يوسف، الآية ١١١.

٥- (٥) . «نزاه» جمع «نازه» بمعنى عفيف النفس.

٦- (٦) . «ولاه» جمع «واله» بمعنى المشتاق.

٧- (٧) . «لا تشيموا» من ماده «شيم» على وزن «غيب» نظر إليه أين يمطر.

٨- (٨) «بارق» السحاب الذى يقده منه البرق و جاء أيضاً بمعنى السيف البراق.

٩- (٩) «ناعق» من ماده «نعق» على وزن «برق» بمعنى مناداه الحيوانات ثم اطلقت على المناداه بصوره عامه.

وَلَا تُفْتَنُوا بِأَعْلَاقِهَا (١)».

ففى الواقع إنَّ الإمام عليه السلام لفت الانتباه فى هذه العبارات العميقة المعنى إلى طرق نفوذ الدنيا إلى فكر الإنسان وروحه ليحذر منها جميعاً وضروره الإبتعاد عن زخارف الدنيا وزبرجها والتوجه إلى الآخرة واسناد المتقين وعدم الإكتراث لمقامات أصحاب الدنيا وغض الطرف عن الأموال والثروات والقصور والزينة الظاهريه وصم الاسماع عن وساوس المتهافتين على الدنيا وتنحيتهن جانباً وعدم الانخداع بمظاهر الدنيا البراقه والانقطاع عن جميع الأمور التى تذلل صاحبها.

والحقّ أن كلّ من امتثل هذه التحذيرات وسار على الدرب سوف لن يقع فى شباك الشيطان وفتح طلاب الدنيا.

ثم تطرق عليه السلام إلى أدله تحذيراته السابقه فقال:

«فَإِنَّ بَرِّقَهَا خَالِبٌ (٢) ، وَنُطْفَهَا كَاذِبٌ ، وَأَمْوَالُهَا مَحْرُوبَةٌ (٣) ، وَأَعْلَاقُهَا مَسْلُوبَةٌ».

فالواقع إنَّ كلّ دليل من هذه الأدله الأربعة إشاره إلى جانب من التعبيرات السابقه:

فبرق الدنيا خادع لا- حقيقه له وليس وراءه مظر وكلامها كاذب بدليل أنّها لم تف لأحد من الناس فى أى وقت من الأوقات، وأموالها منهوبه من قبل أصحاب الدنيا ينهبونها من غيرهم، وكونها مسروقه من غيرهم فى أنّ كلّ شخص يمتلك مالاً نفسياً على الظاهر يجعل صاحب الدنيا يتطلع إليه فيسلبه إياه فى الوقت المناسب.

ثم عاد الإمام عليه السلام ثانياه ليحذر مخاطبيه من الوقوع فى ورطه الدنيا من خلال ذكره لست رذائل من رذائلها فقال عليه السلام:

«أَلَا وَهِيَ الْمُتَصَدِّئَةُ (٤) الْعُنُونُ (٥) ، وَالْجَامِحَةُ (٦)»

ص: ٢٥٤

١- (١) «اعلاق» جمع «علقه» على وزن «فتنه» بمعنى الشئء النفيس (وإن كانت له حيشه ظاهريه) وتوجب تعلق النفس بها.

٢- (٢) . «خالب» من «خلابه» بمعنى الخادع.

٣- (٣) «محروبه» بمعنى منهوبه.

٤- (٤) . «المتصدية» بمعنى المرأه تتعرض إلى الرجال وتميلهم إليها من ماده تصدى بمعنى التعرض.

٥- (٥) «عنون» من ماده «عن» على وزن «ظن» بمعنى الظهور.

٦- (٦) «جامحه» من «جموح» على وزن «فتوح» الصعبه على ركبها.

الْحَرُونُ (١) ، والمَائِنَّهُ (٢) الْخَوُونُ (٣) ، وَالْجَحُودُ الْكَنُودُ (٤) ، وَالْعَنُودُ الصَّدُودُ (٥) ، وَالْحَيُودُ (٦) الْمَيُودُ (٧) .

ص: ٢٥٥

-
- ١- (١) . «حرون» بمعنى «الجامحه» أيضاً مع هذا الفارق أن الجموح، حيوان يركض هنا وهناك مضطرباً، وعنون، حيوان معاند متمرد يقف ولا يتحرك.
 - ٢- (٢) «مائنه» أى كاذبه من ماده «مين» على وزن «عين» بمعنى الكذب.
 - ٣- (٣) «خؤون» المبالغه فى الخيانه.
 - ٤- (٤) «الكنود» الجحود والبخل وتعنى فى الأصل الأرض التى لا يظهر عليها شىء.
 - ٥- (٥) «صدود» أى المعترض والمانع من ماده «صد» وتستعمل بمعنيين الاعراض والمنع.
 - ٦- (٦) «حيود» من ماده «حيد» على وزن «صيد» تعنى الميل عن الطريق.
 - ٧- (٧) «ميود» بمعنى المنحرف والمضطرب من ماده «ميدان» على وزن «ضربان» بمعنى الانحراف والاضطراب.

حَالَهَا انْتَقَالَ، وَوَطَّأَتْهَا زَلْزَالٌ، وَعِزُّهَا ذُلٌّ، وَجِدُّهَا هَزْلٌ، وَعَلُوُّهَا سُفْلٌ. دَارُ حَرْبٍ وَسِلْبٍ، وَنَهَبٌ وَعَطَبٌ. أَهْلُهَا عَلَى سَاقٍ وَسَيْتَاقٍ، وَلِحَاقٍ وَفِرَاقٍ. قَدْ تَحَيَّرَتْ مِذَاهِبُهَا، وَأَعْجَزَتْ مَهَارِبُهَا، وَخَابَتْ مَطَالِبُهَا؛ فَأَسْلَمَتْهُمْ الْمَعَاوِلُ، وَلَفَظَتْهُمْ الْمَنَازِلُ، وَأَغْيَتْهُمْ الْمَحَاوِلُ: فَمِنْ نَاجٍ مَعْقُورٍ، وَلَحْمٍ مَجْزُورٍ، وَشِئْلُومَ ذُبُوحٍ، وَدَمٍ مَسْفُوحٍ، وَعَاضٌ عَلَى يَدَيْهِ، وَصَافِقٌ بِكُفَيْهِ، وَمُرْتَفِقٌ بِخَدَيْهِ، وَزَارٌ عَلَى رَأْيِهِ، وَرَاجِعٌ عَنِ عِزِّهِ؛ وَقَدْ أَدْبَرَتِ الْحِيلَةَ، وَأَقْبَلَتِ الْغِيلَةَ، (وَلَمَاتِ حِينَ مَنَاصِ) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! قَدْ فَمَاتَ مَيَا فَمَاتَ، وَذَهَبَ مَيَا ذَهَبَ، وَمَضَّتِ الدُّنْيَا لِحَالِ بِأَلِهَا، (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ).

الشرح والتفسير: عاقبه أصحاب الدنيا

بالنظر إلى أنّ حبّ الدنيا والتعلق الشديد بالأموار الماديّة هو أساس أنواع الذنوب والمعاصي والجنايات، وبالنظر إلى أنّ عصر الإمام عليه السلام شهد بسبب الفتوحات الإسلاميّة سعة الثروات التي عمّت البلاد الإسلاميّة وانغمس بعض الناس في حاله من الدعة والرفاهية وبطر النعمة، فقد نهى الإمام عليه السلام في خطبته الناس عن التكالب على الدنيا والانغماس في لذاتها فكشف بعبارة قلّما يرى نظيرها آثار السوء للتعلق بهذه الدنيا، ولذلك أكّد الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة بخمس عبارات قصيرة على تفاهه النعم الماديّة فقال:

«حَالَهَا انْتَقَالَ، وَوَطَّأَتْهَا زَلْزَالٌ، وَعِزُّهَا ذُلٌّ،

وَجِدُّهَا هَزْلٌ، وَعُلُوُّهَا سُفْلٌ (١)».

أمّا تغير حال الدنيا فليس بخافٍ على أحد؛ فما أكثر أولئك الذين تربعوا على عرش السلطه ليلاً ويفكرون في الاستيلاء على البلدان، فلم يطلع عليهم الفجر حتى زالت عروشهم وفارقوا الحياه فبين لحظه وأخرى تنهاوى عروش الأقوياء ويحل محلهم الضعفاء فيصبح أعزّه الأمس أذله اليوم.

وأمّا زلزله وطأتها وخطواتها فذلك لأنّ مقر الإنسان في هذا العالم متزلزل على الدوام، فعلى أى شىء إستند من قبيل المال والثروه والفتوه والصحه والسلامه فهى متقلبه وليست ثابتة، وأمّا أنّ عزّتها عين ذلّتها، فقد فسّر ذلك بعض الشراح أنّ العزّه الماديّه واللامشروعه سبب الذلّه فى الآخره، وقال البعض الآخر إنّ سبب الإبتعاد عن الله فى هذه الدنيا؛ إلّا أنّ التفسير الأنسب هو أنّ العزّه الماديّه تؤدّى إلى التعلق الشديد وهو التعلق الذى يسوقه إلى الذلّه ويجعله يعيش الخنوع مقابل كائن من كان بغيه حفظها، وأمّا أنّ جدّها هزل فسبب ذلك التقلب وسرعه الزوال وعدم الاستقرار، وأمّا علوها تسافل فلائّن الأفراد من ذوى المقامات الرفيعه يخضعون للعديد من المطبات بغيه حفظ مناصبهم ومواقعهم ويستعينون من أجل حفظ تلك القدره بالأفراد الفاسدين والطحين.

ثم أكمل هذا الموضوع بذكره لصفيتين أخريين فى وصف الدنيا فقال:

«دَارُ حَرْبٍ وَسَلْبٍ، وَنَهْبٍ وَعَطَبٍ. أَهْلُهَا عَلَى سَاقٍ وَسِيَّاقٍ (٢) ، وَلِحَاقٍ وَفِرَاقٍ (٣)».

المفردات

«حَرْبٍ وَسَلْبٍ، وَنَهْبٍ» وإن كانت جميعها تشير إلى معنى أخذ أموال الآخرين؛ لكن يبدو هنالك اختلاف دقيق بينها،

«حَرْبٍ» أخذ جميع أمواله لأنها

ص: ٢٥٨

١- (١) «علو وسفل» بمعنى الأعلى والأسفل والتي تلفظ أحياناً بضم الحرف الأوّل وكسره.

٢- (٢) «ساق» بمعنى «ساق» الرجل. والعباره «على ساق» تطلق على من يقف على رجل ويستعد للقيام بعمل. وسياق من ماده سوق بمعنى التقدم والاندفاع وعليه فالعباره على ساق وسياق أنّ أهل الدنيا يتأهبون للحركه للعالم الآخر.

٣- (٣) «لحاق وفراق» نقطتان متقابلتان بمعنى الإلتحاق والانفصال.

فسّرت لغوياً بهذه العبارة

«أَخَذُ جَمِيعَ مَالِهِ».

لكن

«سلب» غالباً فسّرت بمعنى أخذ ثياب الأفراد وما في أيديهم ولذلك ورد في الحديث:

«مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ»^(١).

وأما

«نَهَب» التي وردت لغوياً بمعنى الغنيمه فربّما تكون إشارة إلى الاغتنام الجماعي، وعليه يصبح معنى كلام الإمام عليه السلام أنّ الدنيا تسلب الإنسان جميع وجوده أو جانباً منه أو قد تأتي جماعه من السّلايين ليتحكموا بالأمر فيسلبوا الناس أموالهم.

نعم، فالدنيا لو نظرنا إليها يامعان لوجدناها ميداناً لصراع السّلايين والناهيين الذين يمارسون فيها السلب والنهب بصور مختلفه وهذا العمل لا ينتهي سوى إلى الهلكه والزوال، والحال يستعد جميع الناس إلى السفر نحو العالم الآخر وليس هنالك من يعلم بما يصيبه غداً، ثم أشار الإمام عليه السلام بثلاث عبارات أخرى إلى جانب آخر من مصائب الدنيا وعبوبها فقال:

«قَدْ تَحَيَّرْتُ مَذَاهِبُهَا، وَأَعْجَزْتُ مَهَارِبُهَا»^(٢)، وَخَابَتْ مَطَالِبُهَا».

إشارة إلى أنّ الإنسان اليقظ كلّما حاول النجاة من مصائبها لم يكن الأمر عليه سهلاً فتشخيص سبيل الفرار منها يبدو متعذراً والأعقد منه الظفر بموضع الهروب.

وقد جربنا هذه المسألة عند الأفراد الذين يتعلقون بالدنيا ثم يصحون من غفلتهم وينوون الهروب فإنّ العديد من المشاكل تعرقل حركتهم وعليهم بذل قصارى جهدهم بغية الوصول إلى سبيل الخلاص، ثم أشار عليه السلام إلى مصير أصحاب الدنيا حين يقفون على أعتاب الموت فقال:

«فَأَسْلَمَتْهُمْ الْمَعَاقِلُ»^(٣)، وَلَفَظَتْهُمْ الْمَنَازِلُ، وَأَعْيَتْهُمْ الْمَحَاوِلُ»^(٤).

ص: ٢٥٩

١- (١) بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٧٣، كما ورد هذا الحديث عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله في سنن البيهقي، ج ٦، ص ٣٠٧ و ٣٠٩.

٢- (٢) . «مهارب» جمع «مهرب» على وزن «مطلب» بمعنى مكان الهروب.

٣- (٣) . «معاقل» جمع «معقل» على وزن «مجلس» بمعنى القلعه الحصينه والملجأ.

- ٤-٤) «لفظت» من ماده «لفظ» على وزن «حلف» بمعنى رمت ويقال لهذه الألفاظ كأنها ترمى من الفم.
- ٥-٥) «محاوّل» جمع «محاله» على وزن «حواله» تعنى الحذق وحسن التدبير والتصرف.

نعم! حين يطفح بهم الكيل ويتخلى عنهم كل شيء ويجعلهم وحيدين أمام الحوادث فلا يسع أقوى الأقوياء الدفاع عنهم حيث النتائج العكسيه التي تنتهى بهم إلى الموت وحالهم كما يضرب به المثل: «إذا حل الموت أعيى الطبيب».

وبالتالى سوف لن يكون مصير من اغتروا بالدنيا إلا كما قال الإمام عليه السلام::

«فَمِنْ نَاجٍ مَعْقُورٍ (١)، وَلَخِمٍ مَجْزُورٍ (٢)، وَشَلْوٍ (٣) مَذْبُوحٍ، وَدَمٍ مَسْفُوحٍ (٤)، وَعَاضٍ (٥) عَلَى يَدَيْهِ، وَصَافِقٍ (٦) بِكَفَيْهِ، وَمُرْتَفِقٍ (٧) بِخَدَيْهِ (٨)، وَزَارٍ (٩) عَلَى رَأْيِهِ، وَرَاجِعٍ عَنِ عَزْمِهِ».

فقد بين الإمام عليه السلام عاقبه ومصير المغرورين بالدنيا فالصور التسع الواردة فى الفقره المذكوره لا تُبقى مجالاً لما هو أفصح وأبلغ وأدق منها فهذه الأصناف التسعه يُشعر كل منها بنوع من ضربات الدنيا التي تهز كيان المغرورين بها والقدر الجامع بينهم جميعاً مصيرهم البؤس والشقاء والحسره والندم؛ سواء أولئك الذى تلقوا ضربات ثقله وسيقوا نحو الموت أو أولئك الذين بقوا ولم تعد أمامهم سوى الحسره.

وقد عكس التاريخ نماذج كثيره لكل من هذه الأصناف التسعه ولعل الكثير منا

ص: ٢٦٠

١- (١). «معقور» من ماده «عقر» على وزن «فقر» يعنى مجروح وقتل أو قطع يد الناقه ورجلها.

٢- (٢) «مجزور» من ماده «جزر» بمعنى المسلوخ.

٣- (٣) «شلو» بعض لحم الحيوان المذبوح.

٤- (٤) «مسفوح» يعنى «مسفوك» من ماده «سفح» على وزن «صبر» بمعنى السفك وتستعمل عادة فى سفك الدماء.

٥- (٥) «عاض» من ماده «عض» على وزن «سد» ويطلق هذا اللفظ عادة على أولئك الذين يعضون أيديهم بأسنانهم من شدّه الندم.

٦- (٦) «صافق» من ماده «صفق» على وزن «دفع» تعنى ضرب اليدين ببعضها مع الصوت وتشير هنا إلى الأشخاص الذين يضربون أيديهم ببعضها من شدّه الحسره.

٧- (٧) «مرتفق» بمعنى الشخص الذى يستند على يديه ووردت فى العبارة كناية عن الشخص الحائر الذى وضع رأسه على يديه وغرق فى التفكير، وارتفاق يعنى الاستناد.

٨- (٨) «خديه» مثنى «خد» لدى الإنسان وهو معروف.

٩- (٩) «زار» بمعنى اللوم والتوبيخ من ماده «زرى» ولذلك وردت بمعنى الاستصغار والاستحقار.

قد رآها خلال مدّه عمره القصيره.

ثم اختتم الخطبه بالإشاره إلى هذه الحقيقه أنّه حين حلول الحوادث الشاقه والموت الحتمى تغلق جميع السبل فقال:

«وَقَدْ أَذْبَرْتِ الْحَيْلَةَ، وَأَقْبَلْتِ الْغَيْلَةَ (١)، «وَلَاتَ (٢) حِينَ مَنَاصٍ (٣)».

وأضاف عليه السلام:

«هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! قَدْ فَاتَ مَا فَاتَ، وَذَهَبَ مَا ذَهَبَ، وَمَضَتِ الدُّنْيَا لِحَالِ بِأَلِهَا (٤)، «فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ».

نعم! فأولئك الذى ركبوا يوماً موجة الغرور وعاشوا فى تلك القصور الفارهه وضمنوا أنفسهم من امراء الأرض والسماء لم يجدوا بدأ حين أتاهم القضاء ونزل بهم المقدور سوى الاستسلام بكلّ ذلّه ومغادره الدنيا وكأنّهم لم يكونوا فيها، فلم تبكهم عينٌ ولم يصدع عليهم خاطر، ثم واصلت الدنيا من بعدهم مسيرتها وأعقبهم مجيئ الأقبام والأمم المقتدره والقويه الذين حلوا وفنوا فطواهم غبار النسيان ومحو من صفحه التاريخ.

والعباره: «وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ» المقتبسه من القرآن المجيد (٥) أوردتها الإمام عليه السلام بشأن طائفه من الأقبام السابقه التى عاشت غرور الاختلاف وظنت الخلود فى الحياه الدنيا وحين حلّ بها عذاب الله تعالت أصواتها طالبه النجده إلّا أنّ وقت النجاه قد ولى ومضى.

والعباره: «فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ» آيه قرآنيه أخرى (٦) أشارت إلى حال الفراعنه حين غرقوا جميعاً فى البحر وخلفوا تلك القصور والعيون والنعم للآخرين وغادروها دون أن يبكيهم أحد.

ص: ٢٤١

١- (١). «الغيلة» بمعنى الشر والقرار الخطير الخفى وتطلق هذه المفرده على الاغتيال.

٢- (٢) «لات» أداه نفى كانت فى الأصل لا نافية أضيفت إليها التاء للتأكيد بينما قيل إنّها زائده وللمبالغه.

٣- (٣) «مناص» بمعنى من ماده «نوص» الفرار.

٤- (٤) «بال» بمعنى القلب والخاطر.

٥- (٥). سورة ص، الآيه ٣.

٦- (٦). سورة الدخان، الآيه ٢٩.

ولعلّ التعبير بعدم بكاء السماء عليهم والأرض كناية عن حقاره ودناءه قرنائهم وأصحابهم فى الحياه الدنيا، ذلك لأنّ المعروف عند العرب أنّهم حين يريدون الإشارة إلى علو منزله شخص بعد أن فقدوه يقولون: لقد بكته السماوات والأرض وأظلم لفقده الشمس والقمر.

كما قيل إنّ قد يكون المراد من بكاء أهل السماء والأرض ذلك لأنّ الملائكة أحياناً تبكى على المؤمنين والمقرّبين من الله تعالى، بينما لا تبكى على الظلمه والجبارين.

ص: ٢٤٢

وَهِيَ تَتَضَمَّنُ ذَمَّ إِبْلِيسَ لَعْنَهُ اللَّهُ، عَلَى اسْتِكْبَارِهِ وَتَزَكُّهُ السُّجُودَ لِإِدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَظْهَرَ الْعَصِيَّةَ وَتَبَعَ الْحَمِيَّةَ، وَتَحْذِيرَ النَّاسِ مِنْ سُلُوكِ طَرِيقَتِهِ (١).

نظرة إلى الخطبه

قيل في شأن هذه الخطبه أنّ أهل الكوفه عاشوا حاله كبيره من الفساد آواخر خلافه الإمام عليه السلام إثر ازدياد الثروات وانتقال الثقافه الفاسده من بعض البلدان المجاوره للبلاد الإسلاميه والمشاكل التي خلفتها فتره الخلافه في المجتمع

ص: ٢٤٣

١- (١) سند الخطبه: قال صاحب مصادر نهج البلاغه بعد أن ذكر أنّ هذه أطول خطب أمير المؤمنين عليه السلام على ما ذكره الشارحون وهي في عده فصول في المواعظ والزواجر وأنّ طائفه ممن عاشوا قبل السيد الرضى ذكروها في كتبهم وكانت نسخه خطيه عند السيد ابن طاووس ذكرها في كتابه (اليقين) وقال رأيت هذه النسخه مع أخبار في فضائل أهل البيت عليهم السلام وردت عن الأعلام السابقين ويعود تاريخها إلى سنه ٢٨٠ هجرى، كما روى المرحوم الكليني فصلاً من هذه الخطبه في الجزء الرابع من كتابه الكافي كما روى المرحوم الصدوق بعضها في كتابه (من لا يحضره الفقيه) ورواها بعد السيد الرضى؛ الزمخشري في (ربيع الأبرار) وروى الماوردي في (أعلام النبوه) المعجزه التي رواها أمير المؤمنين عليه السلام عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في حركه الشجره (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٥٦).

الإسلامي، وفي مقدمتها التفاخر والتعصب القبلي والنعرات الجاهلية حتى بلغ الأمر ببعض الفتيه الطائشين إلى التنازع فيما بينهم فإذا جرح أحدهم أو ضرب استعان بقبيلته فتهب دون أدنى تريث وتمحيص لنجدته ويراق المزيد من الدماء، فانبى الإمام عليه السلام بهذه الخطبه بغيه إطفاء الفتنة فعرض بالذم للكبر والعصبيه القبليه الجاهليه، فأدى حقّ الكلام وبالغ في النصح والوعظ، فهي خطبه غايه في الفصاحه والبلاغه والإثاره ومن هنا سُميت بالقاصعه وإن لم ترد مفرده (القاصعه) في هذه الخطبه.

وذكر بعض شراح نهج البلاغه وجوهاً أخرى لسبب التسميه على ضوء تعدد معاني مفرده القاصعه؛ فقد ذكر المرحوم الشارح الخوئي سبعة وجوه في تسميه هذه الخطبه بالقاصعه إستند كل واحد منها إلى أحد معاني (القصع) لغوياً ويبدو ما ذكرناه هو أنسب الجميع.

على كل حال تتألف هذه الخطبه من عدّه أقسام صنفها كل من شراح نهج البلاغه حسب ذوقه وطريقته فقسمها البعض إلى خمس أقسام وآخر إلى أحد عشر قسماً وثالث إلى تسعة عشر قسماً.

ومن الواضح أنّ جميع أقسام هذه الخطبه تدور حول محور واحد هو ذمّ التعصب الجاهلي والتكبر والفخر، ولا سيما التعصبات القبليه والعرقيه التي تعدّ مصدراً للعديد من الاختلافات والإرباكات والمفاسد الاجتماعيه وتتضح هذه الحقيقه من خلال التمعن في عموم الخطبه إلى جانب سبب ايرادها من قبل الإمام عليه السلام ونحن بدورنا نقسمها إلى عشرين قسماً:

القسم الأول: بعد حمد الله والثناء عليه أشار إلى طرد الشيطان لتعصبه وتكبره على آدم عليه السلام.

القسم الثاني: إشاره لخلق الإنسان من الطين والذي يبعث فيه روح التواضع، والتذكير ثانيه بسوء عاقبه الشيطان بسبب كبره وتعصبه.

القسم الثالث: تحذير الجميع من الوقوع فى فخ الشيطان والسير فى طريقه.

القسم الرابع: ذم الأفراد الذين سقطوا فى شباك التكبر والفخر الجاهلى الموهوم.

القسم الخامس: تحذير الجميع من اجتناب طاعه وإتباع الحكام المتكبرين والمتعصبين.

القسم السادس: الوصيه بالاعتبار بالأقوام السابقه والعاقبه السيئه التى كانت بانتظار المتكبرين منهم والسعاده التى نالها المتواضعون وفى مقدمتهم أنبياءهم عليهم السلام.

القسم السابع: الحديث عن الحياه المتواضعه لموسى بن عمران وأخيه هارون عليهما السلام وما كانا يرتديان من ثياب بسيطه حين دخولهما على فرعون المتكبر المغرور وبالتالى تواضع أولياء الله فى جميع شؤون حياتهم.

القسم الثامن: الإشاره إلى اختيار الأرض الجافه والمحرقه لبناء الكعبه بمواد البناء البسيطه ليترد عنهم الكبر والغرور وتصوير الشعائر التى ترمز إلى البساطه والتواضع التام.

القسم التاسع: أشار فيه الإمام عليه السلام إلى مختلف شباك الشيطان ولا- سيما الظلم والجور واعتبر إمتثال الفرائض الدينيه كالصوم والصلاه والزكاه وسيله لمقاومه الشيطان.

القسم العاشر: يشير إلى مصادر التعصب والغرور.

القسم الحادى عشر: إشاره إلى التعصب الإيجابى وعلاماته وآثاره.

القسم الثانى عشر: اعتبر مصير الأمم السابقه درساً وعبره ودعى الجميع للنظر فى سيره تلك الأقوام.

القسم الثالث عشر: الحديث عن الآثار المباركه للوحده والألفه وعواقب السوء للفرقه والتشتت والاختلاف.

القسم الرابع عشر: أعاد مخاطبيه ثانيه إلى التاريخ الماضى والتذكير بالآثار السلبيه لاختلاف أبناء اسماعيل واسحاق وبنى اسرائيل.

القسم الخامس عشر: أشار عليه السلام إلى النعمة العظيمة في وجود النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وآثارها على المجتمع الإسلامي.

القسم السادس عشر: عرض فيه بالذم لتلك الطائفة من الناس التي عادت القهقري بعد الدعوه إلى عادات الجاهليته.

القسم السابع عشر: ركز فيه على الأفعال المشينه للناكثين والقاسطين.

القسم الثامن عشر: أشار فيه الإمام عليه السلام إلى منزلته من النبي بصفته أول من آمن به من الرجال ولازمه تلك المدّه.

القسم التاسع عشر: تحدّث فيه الإمام عليه السلام عن معجزه الشجره التي تحركت من مكانها نحو النبي بأمره صلى الله عليه وآله.

القسم العشرون: تحدّث فيه عن مناقب أهل البيت عليهم السلام واختتم به الخطبه بعنوانه «مسك الختام».

ص: ٢٦٦

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَبَسَ الْعِزَّ وَالْكَبْرِيَاءَ؛ واختارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمَا حِمَى وَحَرَمًا عَلَى غَيْرِهِ، وَأَصَيْطَفَاهُمَا لِجَلَالِهِ. وَجَعَلَ
 اللَّعْنَةَ عَلَى مَنْ نَازَعَهُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ. ثُمَّ اخْتَبَرَ بِذَلِكَ مَلَائِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ، لِيُمَيِّزَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، فَقَالَ سُبْحَانَهِ
 وَهُوَ الْعَالِمُ بِمُضَمَّرَاتِ الْقُلُوبِ، وَمَحْجُوبَاتِ الْعُيُوبِ: (إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ
 سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ) اعْتَرَضَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَأَفْتَحَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ، وَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لِأَصْلِهِ. فَعَدُوا لِلَّهِ
 إِمَامَ الْمُتَعَصِّبِينَ، وَسَلَفَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، الَّذِي وَضَعَ أُسَاسَ الْعَصَبِيَّةِ، وَنَازَعَ اللَّهَ رِذَاءَ الْجَبْرِيَّةِ، وَأَدْرَعَ لِبَاسَ التَّعَزُّزِ، وَخَلَعَ قِنَاعَ التَّنَدُّلِ.

أَلَا تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اللَّهُ بِتَكْبَرِهِ، وَوَضَعَهُ بِتَرْفُّعِهِ، فَجَعَلَهُ فِي الدُّنْيَا مَدْحُورًا، وَأَعَدَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ سَعِيرًا!؟

الشرح والتفسير: الشيطان رأس العصبيه

كما أشير في سبب الخطبه أن الهدف الأصلي من هذه الخطبه الطويله والمفعمه بالمواعظ والإرشادات الساميه التي تهذب
 الإنسان، مواجهه الكبر والغرور والعصبيّه الجاهليه والطائفية التي كانت مصدر النزاعات القبليه الدمويه على عهد الإمام عليه
 السلام، وعلى هذا الضوء استهل الإمام عليه السلام خطبته بحمد الله والثناء عليه، الله المتجلبب

بالعظمة والكبرياء التي لا تليق إلا بذاته القدسيّة فقال:

«الْحَمِيدُ لِمَه الَّذِي لَبَسَ الْعِزَّ وَالْكَبْرِيَاءَ، وَاخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمَا حِمِّيًّا (١) وَحَرَمًا عَلَى غَيْرِهِ، وَاصِيَةً طَفَاهُمَا لِجَلَالِهِ. وَجَعَلَ اللَّعْنَةَ عَلَى مَنْ نَازَعَهُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ».

لا شك في أنّ العزّه والعظمة مختصه بالذات الإلهيّة المقدّسه، ذلك لأنّ كلّ ما سواه كائنات ضعيفه وعاجزه أمامه، إضافه إلى أنّ كلّ ما لديها منه، متى ما شاء أفاضه عليها ومتى شاء سلبه منها.

والعبارات الخمس الوارده في هذه الخطبه من قبيل قوله عليه السلام: لبس العز والكبرياء والتي لا تليق بغيره وأنهما صفتان مختصتان بالله تعالى ويعبر عنهما أحياناً بالحمى والحرم (المنطقه المحظوره التي لا يحق للغير الدخول فيها) كما يعبر عنها بأنّ الله تعالى اختارهما لنفسه وخص باللعن من سلك سبيل التكبر والفخر، كلّ هذه العبارات المختلفه تهدف إلى إيضاح حقيقه واحده حيث تشير جميعها إلى أن لا سبيل لعباد الله أمام الذات الإلهيّة القدسيّه سوى التواضع تجاهها وتجاه بعضهم البعض الآخر.

والواقع هو إنّ الله سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى الكبر ولا بحاجه إلى أن يمدحه الآخرون به، فذاته القدسيّه عظيمه من جميع الجهات، ولكن لما كان الكبر والفخر لدى العباد مصدرراً للبؤس والشقاء وظلم الناس لبعضهم البعض الآخر، فقد ورد هذا التحذير في العبارات السابقه من هذا الأمر ودعى الجميع للبساطه والتواضع.

وعلى هذا الأساس أشار الإمام عليه السلام في مواصلته لكلامه إلى أول امتحان للتواضع حين خلق الله آدم عليه السلام فقال:

«ثُمَّ اخْتَبَرَ بِذَلِكَ مَلَائِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ، لِيُمَيِّزَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَهُوَ الْعَالِمُ بِمُضَمَّرَاتِ الْقُلُوبِ، وَمَحْجُوبَاتِ الْغُيُوبِ: «إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ»

ص: ٢٤٨

١- (١). «حمى» بمعنى المنطقه الممنوعه من ماده «حمایه» بمعنى الممانعه والدفاع عن الشىء ومن هنا تطلق الحمیّه على وزن «جزیه علی» المريض الذى يجتنب ما یضّر به.

سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ».

وبالطبع فإنَّ اختبار الله يختلف عن اختبار العباد؛ فإننا حين نختبر أحداً نريد أن نبدل جهلنا به إلى علم ولذلك يعبر عن هذا الامتحان بالاختبار؛ أما الله تعالى طبق ما ورد سالفاً، العالم بمكنونات القلوب ومحجوبات الغيوب لا يريد قط بهذه الاختبارات إضافه شيء لعلمه، بل اختباره لتظهر النيات الباطنية والخلقيه والأسرار الخفيه لعباده بلباس الأفعال فيستحقوا الثواب والعقاب، ذلك لأنَّ النيه لوحدها ليست كافيه فى هذا الأمر، والثواب والعقاب إنما يترتب على الأعمال.

وهذا ما ذكره الإمام عليه السلام فى موضع آخر من نهج البلاغه إذ قال:

«إِنَّهُ يَخْتَبِرُهُمْ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ لِيَتَبَيَّنَ السَّخِطُ لِرِزْقِهِ وَالرَّاضَى بِقِسْمِهِ وَإِنْ كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لَكِنْ لِيُظْهِرَ الْأَفْعَالَ الَّتِي بِهَا يَسْتَحِقُّ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ» (١).

ثم خاض عليه السلام فى شرح قضيه إبليس وسبب تمرده على أمر الله تعالى فقال:

«اغْتَرَضَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَافْتَحَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ، وَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لِأَصْلِهِ. فَعَدُوا لِلَّهِ إِمَامُ الْمُتَعَصِّبِينَ، وَسَلَفُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، الَّذِي وَضَعَ أَسَاسَ الْعَصِيَّةِ، وَنَازَعَ اللَّهَ رِذَاءَ الْجَبْرِيَّةِ، وَادَّرَعَ (٢) لِيَأْسَ التَّعَزُّزِ (٣)، وَخَلَعَ فَنَاعَ التَّدَلُّلِ».

فالواقع أنَّ السبب الرئيسى لتمرده إبليس عملياً على أمر الله تعالى هو تعصبه وغروره الذى أفرزه حسابه الخاطى والذى يستند إلى الفخر والأنانيه حيث لم ير فى خلق آدم سوى حيثه التراب ولذلك عد نفسه أفضل منه فقال: «خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» (٤) بينما أغفل تماماً الجانب المهم فى وجود آدم إلهو الروح الإلهيه: «وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» (٥).

ص: ٢٤٩

١- (١) نهج البلاغه، الكلمه ٩٣.

٢- (٢) «ادرع» من «درع» على وزن «فكر» بمعنى الثوب ويستعمل أحياناً بمعنى لبس الثوب.

٣- (٣) «تعزز» بمعنى افتخر ورأى نفسه عزيزاً.

٤- (٤) . سورة ص، الآيه ٧٦.

٥- (٥) سورة ص، الآيه ٧٦.

نعم! فالعجب والأنايته أسوأ حجاب يصد الإنسان عن إدراك أوضاع الحقائق.

وقد التبس الأمر على إبليس حتى فى تقيمه لأفضليته النار على التراب، لأنّ التراب هو المصدر الأساس للحياه ونمو النباتات وتفتح الأزهار والثمار وأنواع البركات، وبينما تقتصر فاعليتها على بعض جانب من حياه الإنسان.

على كل حال فإنّ تعبير الإمام عليه السلام إبليس بأنّه عدو الله إشاره إلى أنّه لم يكن عدواً لآدم فحسب، بل كان عدواً لخالق آدم ومتمرداً على أوامره فقد أرسى أولى لبنات العصبية ومنهج التكبر والاستكبار، العمل الذى يعتبر فى الواقع محاربه لله تبارك وتعالى؛ ذلك لأنّ العزّه والعظمه لا تليق إلاّ بذاته المقدّسه وجمال عباد الله فى تواضعهم فالتكبر والغرور حسب ما ذكر علماء الأخلاق من أمّهات الرذائل.

روى أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام أنّه سأله عن أدنى مراحل الكفر والإلحاد؟ فقال عليه السلام:

«إِنَّ الْكِبْرَ أَذْنَاهُ»^(١). كما ورد فى الخبر عن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام أنّهما قالوا:

«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»^(٢).

ثم اتجه الإمام عليه السلام إلى مخاطبيه ليحذّرهم من عاقبه الشيطان السيئه فقال:

«أَلَا تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اللَّهُ بِتَكْبِيرِهِ، وَوَضَعَهُ بِتَرْفُوعِهِ، فَجَعَلَهُ فِي الدُّنْيَا مَدْحُورًا»^(٣)، وَأَعَدَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ سَعِيرًا؟».

فالعباره إشاره لآيات القرآن الكريم حيث قال تعالى: «فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ»^(٤).

وقال تعالى فى موضع آخر: «قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ

ص: ٢٧٠

١- (١). الكافي، ج ٢، ص ٣٠٩، ح ١، باب الكبر.

٢- (٢) المصدر السابق، ص ٣١٠.

٣- (٣). «مدحور» بمعنى مطرود من ماده «دحر» على وزن «دهر».

٤- (٤) سورة الحجرات، الآيتان ٣٤ و ٣٥.

تَبَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ» (١).

القسم الثاني

إشارة

وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُورٍ يَخْطَفُ الْأَبْصَارَ ضِيَاءُؤُهُ، وَيَبْهَرُ الْعُقُولَ رُؤَاؤُهُ، وَطِيبَ يَأْخُذُ الْأَنْفَاسَ عَرْفُهُ، لَفَعَلَ. وَلَوْ فَعَلَ لَظَلَّتْ لَهُ الْأَعْنَاقُ خَاضِعَةً، وَلَخَفَّتِ الْبُلُوعَى فِيهِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ. وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَبْتَلِي خَلْقَهُ بِبَعْضِ مَا يَجْهَلُونَ أَصْلَهُ، تَمَيِّزاً بِالِاخْتِبَارِ لَهُمْ، وَنَفِيّاً لِلِاسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ، وَإِبْعَاداً لِلْخِيَلَاءِ مِنْهُمْ.

فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَخْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ، وَجَهْدَهُ الْجَهِيدَ، وَكَانَ قَدْ عَبَدَ اللَّهَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ، لَا يُدْرِي أَمِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي الْآخِرَةِ، عَنْ كِبَرِ سَاعِهِ وَاحِدِهِ. فَمَنْ ذَا بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسْلُمُ عَلَى اللَّهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ؟ كَلَّا، مَا كَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِيُدْخِلَ الْجَنَّةَ بَشِراً بِأَمْرٍ أَخْرَجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكاً. إِنَّ حُكْمَهُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ وَأَهْلِ الْأَرْضِ لَوَاحِدٌ. وَمَا بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ هَوَادَةٌ فِي إِبَاحِهِ حِمَى حَرَّمَهُ عَلَى الْعَالَمِينَ.

الشرح والتفسير: الاعتبار بعاقبه إبليس

قال الإمام عليه السلام في هذا القسم من الخطبة في مواصلته لاختبار إبليس الذي ذكر سابقاً بعد أن أشار إلى قضيه مهمه وهي أن الله تبارك وتعالى يختبر عباده بأمور تخفى فلسفتها عليهم وربما يشق عليهم تحملها:

«وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُورٍ يَخْطَفُ» (٢)

ص: ٢٧١

١- (١) سورة ص، الآيتان ٨٤ و ٨٥.

٢- (٢). «يخطف» من «خطف» على وزن «عطف» بمعنى الأخذ بسرعته.

الْأَبْصَارَ ضَيَاؤُهُ، وَيَبْهَرُ (١) الْعُقُولَ رُؤَاؤُهُ (٢) وَطِيبٌ يَأْخُذُ الْأَنْفَاسَ عَزْفُهُ (٣) لَفَعَلَ وَلَوْ فَعَلَ لَظَلَّتْ لَهُ الْأَعْنَاقُ خَاضِعَةً، وَلَخَفَّتِ الْبُلُؤَى فِيهِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ».

إشاره إلى أنّ الامتحان الإلهي إنّما يفقد أثره إذا كان منسجماً مع رغبات العباد وميولهم؛ ذلك لأنّ الجميع سوف يعملون على أساسه؛ سواءً كانوا من عباد الله أو من عبده الأهواء ولا ينطوي مثل هذا الامتحان على أية نتيجة، أما إن كان على خلاف رغباتهم فآنذاك تمتاز صفوف المؤمنين المخلصين من العاصين المتكبرين.

فامتحان أصحاب الغرور والتكبر ينبغي أن يكون في الأمور التي تستهدف غرورهم وتكبرهم على غرار الامتحان الذي حصل للملائكة وإبليس.

ومن هنا قال الإمام عليه السلام في مواصلته لكلامه:

«وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَبْتَلِي خَلْقَهُ بَعْضُ مَا يَجْهَلُونَ أَضْلَهُ، تَمْيِيزًا بِالِاخْتِبَارِ لَهُمْ، وَنَفِيًّا لِلِاسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ، وَإِبْعَادًا لِلْخِيَلَاءِ (٤) مِنْهُمْ».

وعلى هذا الضوء تتضح عليه خفاء فلسفه الأحكام الشرعيّه، طبعاً تبدو واضحة لدينا فلسفه العديد من هذه الأحكام بحكم العقل والآيات والروايات الواردة بهذا الشأن، إلّا أنّ جانباً مهماً من هذه الأحكام ما زال مبهماً، وذلك لمعرفة المطيع المخلص من المتمرد العاصي. جدير ذكره إنّ هنالك أدله أخرى غير ما ذكر في خفاء أسرار هذه الأحكام.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى عاقبه فعل إبليس المتكبر والمتعصب ليعتبر بها الجميع فحذرهم من مغبه اتباع خطواته حتى لا يبتلوا بما ابتلى به من عاقبه سيئه فقال:

ص: ٢٧٢

١- (١). «يبهر» من ماده «بهر» على وزن «بحر» بمعنى الحيره والبهت.

٢- (٢) «رواء» بمعنى حسن المنظر.

٣- (٣) «عرف» بمعنى الرائحه الطيبه.

٤- (٤) «خِيَلَاء» بمعنى التكبر.

«فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ، وَجَهْدَهُ (١) الْجَهِيدَ، وَكَانَ قَدْ عَبَدَ اللَّهَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ، لَأَيُّدْرَى أَمِنْ سِنِي (٢) الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي الآخِرَةِ، عَنْ كَبِيرِ سَاعِهِ وَاحِدِهِ».

والعبارة

«لا يُدْرَى أَمِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي الآخِرَةِ» لا تعنى عدم علم الإمام بهذا الأمر، بل إشارة إلى أن الناس لا يعلمون بذلك، والمراد من سنوات الدنيا هذه السنوات التي نعيشها والمعلومه المقدار، كما أن سنوات الآخرة ما أشير إليه كراراً في القرآن الكريم ومن ذلك: «وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ» (٣).

وهنا يرد هذا السؤال: كيف يمكن زوال ستة آلاف سنة من العبادة بساعه من التكبر؟ والجواب واضح؛ فالبناء عمل شاق وطويل، أما الهدم فعمل بسيط وسريع، فقد يستغرق بناء بيت عدّه سنوات إلّا أن حريقاً يحيله خراباً خلال لحظات، كما بينى السد العظيم فى عدّه سنوات بينما ينهار بطرفه عين بفعل الزلزال أو تفجيره بالديناميت والمواد المفجرة، ومسأله إحباط الأعمال بفعل بعض الذنوب لمن المطالب المهمه التي ستعرض إليها فى مبحث التأملات.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فأشار إلى أن مصير المتكبرين من البشر هو ذات مصير إبليس فقال:

«فَمَنْ ذَا بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسَلِّمُ عَلَى اللَّهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ؟ كَلَّا، مَا كَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِيَدْخِلَ الْجَنَّةَ بَشَرًا بَأْمُرٍ أُخْرِجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكًا».

ثم قال عليه السلام فى التأكيد على هذا المعنى:

«إِنَّ حُكْمَهُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ وَأَهْلِ الْأَرْضِ لَوَاحِدٌ. وَمَا بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ هِيَ وَادَّةٌ (٤) فِي إِيَّاحِهِ حِمَى (٥) حَرَمِيَهُ عَلَى الْعَالَمِينَ».

إشاره إلى أن جميع المكلفين سواسيه أمام الله تعالى وليس لأى أحد أى امتياز على آخر، فليس لله مع أحد من قرابه، والمعصيه من أى عيدٍ صدرت هى معصيه،

ص: ٢٧٣

١- (١). «جهد» على وزن «مهد وجهد» على وزن «كفر» كلاهما يعنى السعى الجاد وجهيد على وزن «فعليل» من هذه الماده يذكر للتأكيد وعليه فجهد وجهيد تعنى منتهى السعى.

٢- (٢). «سنى» هى سنين فى الأصل وحذفت النون للإضافه.

٣- (٣) سورة الحج، الآيه ٤٧ وقريب من هذا المعنى سورة السجده، الآيه ٥.

٤- (٤). «هواده» بمعنى اللين والرخصه.

٥- (٥) «حمى» بمعنى المنطقه المحظوره من حمى على وزن «نفى» بمعنى المنع والاعراض.

والطاعة هي الطاعة فلا ينبغي أن يتصور البعض أنّ العقاب الأليم الذى شمل إبليس على تكبره يختص به والآخرين بمعزل عن ذلك إن ارتكبوا نفس الفعل.

تأملات

١. حبط الأعمال

جاء فى هذا الجانب من الخطبه أنّ عباده ستة آلاف سنه قد ذهبت هدرًا بفعل ساعه من الكبر ومسأله الاحباط والتكفير، وبعبارة أخرى زوال الأعمال الحسنه أو تدارك الأعمال السيئه بالتوبه والطاعة، لمن المسائل المهمه التى حظيت باهتمام المتكلمين والمفسرين وأرباب الحديث.

فالذى يستفاد من بعض الآيات القرآنيه أنّ هناك سلسله من الأعمال السيئه التى من شأنها القضاء على الأعمال الصالحه ومنها الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر الذى ورد فى الآيه ٨٨ من سورة الأنعام: «وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» والآيه ١٤٧ من سورة الأعراف: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ» وصرحت الآيه ٧ من سورة العنكبوت بشأن التكفير قائله: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ».

طبعاً هذا لا- يعنى جعل السيئات والحسنات أمام بعضهما البعض الآخر يوم القيامة بحيث لو كانت الحسنات أكثر لما اكرث للسيئات أو لو كانت السيئات أكثر أهملت الحسنات بصوره كليته، فليس هنالك هذا النوع من الاحباط والتكفير وهولا ينسجم مع الآيات القرآنيه أيضاً فقد جاء فى الآيتين ٧ و ٨ من سورة الزلزال: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ».

وزيده الكلام إنّ لكل عمل صالح وطالح آثاره الخاصه عند الله يوم القيامة، ولكن لهذا المطلب استثناءات فهناك بعض الأعمال الصالحه التى تغطى الأخطاء، وبعض الأعمال القبيحه التى تزيل الحسنات (١).

ص: ٢٧٤

١- (١) للوقوف على المزيد بهذا الشأن انظر: التفسير الأمثل ذيل الآيه ٢١٧ من سورة البقره.

٢. هل إبليس من الملائكة؟

جاء في هذا القسم من الخطبه أنّ إبليس كان من الملائكة وقد طرده الله من الجنّة ومن حضيره الحقّ لتلك المعصيه الكبيره.

ولعل هذه العبارة توحى بأنّ إبليس كان حقاً من الملائكة بينما يصريح القرآن علانيته: «كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» (١).

كما جاء في القرآن من جانب آخر أنّ الملائكة معصومون ولا يقارفون المعصيه قط: «بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» (٢). فكيف لملك معصوم أن يتمرد على أوامر الله ويسلك طريق الكفر ومخالفه الله تعالى؟!!

ومن هنا يتضح أنّ إبليس كان في مصاف الملائكة بفعل عبادته الكثيره ولم يكن حقاً من الملائكة فهذه العبارة وإن كانت مجازيه إلّا أنّ القرائن الكثيره والواضحه تزيل أىّ إبهام.

٣. كبر إبليس أساس كفره

يستفاد من الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه وهذه الخطبه أن كبر إبليس أدى بالتالى إلى كفره، أقصى درجات الكفر، ذلك لأنه اعترض على حكمه الله وعدّ أمره بالسجود لآدم منافياً للحكمه ولذلك عوقب بأشدّ العذاب وهو الطرد من حضيره القدس وحبطت أعماله وعبادته التى استغرقت سته آلاف سنه.

فالكلام يحمل رساله واضحه للجميع هى عدم الاستخفاف بالكبر والعصبيه، التى قد تقود أحياناً إلى الكفر واحباط الأعمال والطرده من القرب الإلهي، طبعاً كان بإمكان إبليس أن يرجع ويتوب، ولكن كان أوّل شرط فى توبته طاعه أمر الله فى

ص: ٢٧٥

١- (١) سورة الكهف، الآيه ٥٠.

٢- (٢) . سورة الأنبياء، الآيتان ٢٦ و ٢٧.

السجود لآدم عليه السلام، فقد جاء في الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ إِبْلِيسَ سَجَدَ لِلَّهِ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ بِهِ وَالتَّكْبِيرِ عُمَرَ الدُّنْيَا، مَا نَفَعَهُ ذَلِكَ وَلَا قَبْلَهُ اللَّهُ مِنْهُ مَا لَمْ يَسْجُدْ لِأَدَمَ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يَسْجُدَ لَهُ» (١).

٤. وحده حكم الله في الجميع

إنَّ أحدَ الدروس المهمّة في هذا الجانب من الخطبه هي أنّ علاقة الخلق بالخالق علاقة الطاعة والعبودية وأنَّ جميع مخلوقات الله سواسيه في الأحكام في الشرائط المتساويه أو المتشابهه وما يعتقد طائفه من اليهود والنصارى أنّهم أبناء الله وخواصه وسوف لن ينالهم سوى جانب من العقاب على أعمالهم: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ» (٢). إنّما هي عقيدته خاطئه وفكره باطله.

وعليه فإنَّ كلّ كبر وعصبيه وعصيان سيؤدي إلى الطرد من رحم الله وسوف لن يكون مصير كلّ من ارتكب هذه المعصيه سوى مصير إبليس، وهذه القاعده ساريه على جميع العباد على اختلاف مراتبهم.

ص: ٢٧٤

١- (١) الكافي، ج ٨، ص ٢٧١.

٢- (٢) سورة المائدة، الآية ١٨.

فَأَحْذَرُوا عِبَادَ اللَّهِ عَدُوَّ اللَّهِ أَنْ يُعَدِّيَكُمْ بَدَائِهِ، وَأَنْ يَسْتَفْزَكُمْ بِبَدَائِهِ، وَأَنْ يُجْلِبَ عَلَيْكُمْ بِخَيْلِهِ وَرَجَلِهِ. فَلَعَمْرِي لَقَدْ فَوَّقَ لَكُمْ سَيِّئَهُمُ الْوَعِيدِ، وَأَغْرَقَ إِلَيْكُمْ بِالنَّزْعِ الشَّدِيدِ، وَرَمَاكُمْ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ، فَقَالَ: (رَبِّ بِمَا أَعُوذُنِي لِأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)، فَمَذْفَأٌ بِغَيْبِ بَعِيدٍ، وَرَجْمًا بِظَنٍّ غَيْرِ مُصْتَبٍ، صَدَقَهُ بِهِ أَثْنَاءَ الْحَمِيَّةِ، وَإِخْوَانُ الْعَصِيَّةِ، وَفُرْسَانُ الْكِبْرِ وَالْجَاهِلِيَّةِ. حَتَّى إِذَا انْقَادَتْ لَهُ الْجَرَامِحُ مِنْكُمْ، وَاسْتَحْكَمَتِ الطَّمَاعِيَّةُ مِنْهُ فِيكُمْ، فَجَنَمَتِ الْجِبَالُ مِنَ السَّرِّ الْخَفِيِّ إِلَى الْأَمْرِ الْجَلِيِّ، اسْتَفْحَلَ سُلْطَانُهُ عَلَيْكُمْ، وَدَلَفَ بِجُنُودِهِ نَحْوَكُمْ، فَأَفْحَمُوكُمْ وَلَجَاتِ الدُّلِّ، وَأَحْلَوْكُمْ وَرَطَاتِ الْقَتْلِ، وَأَوْطَوْكُمْ إِثْخَانَ الْجِرَاحِ، طَغْنَا فِي عُيُونِكُمْ، وَحَزَا فِي حُلُوفِكُمْ، وَدَقَّا لِمَنَاخِرِكُمْ، وَقَصَدَا لِمَقَاتِلِكُمْ، وَسَوَقَا بِحَزَائِمِ الْقَهْرِ إِلَى النَّارِ الْمُعَدَّةِ لَكُمْ. فَأَصْبَحَ أَغْظَمَ فِي دِينِكُمْ حَزَجًا، وَأَوْرَى فِي دُنْيَاكُمْ قَدْحًا مِنَ الدِّينِ أَصْبَحْتُمْ لَهُمْ مُنَاصِبِينَ، وَعَلَيْهِمْ مُتَأَلِّبِينَ. فَاجْعَلُوا عَلَيْهِ حَدَّكُمْ، وَلَهُ جَدَّكُمْ.

الشرح والتفسير: أعدى أعداء الإنسان

خاض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة في الاستنتاج من قصه ضلال الشيطان وطرده من الرحمه إثر كبره وعصبيته ليحذر الجميع من سوء العاقبه والمصير فقال:

«فَأَحْذَرُوا عِبَادَ اللَّهِ عَدُوَّ اللَّهِ أَنْ يُعَدِّيَكُمْ (١) بَدَائِهِ، وَأَنْ

ص: ٢٧٧

١- (١). «يعدى» من «عدو» على وزن «صبر» تعنى فى الأصل التجاوز والعدوان والعداوه معروفه و «عدوى» بمعنى الرخص وكذلك بمعنى انتقال المرض من شخص لآخر وهذا هو المراد فى العبارة أى أنّ الشيطان ينقل إليكم مرضه فى التعصب والغرور.

يَسْتَفِرُّكُمْ (١) بِنِدَائِهِ، وَأَنْ يُجْلِبَ (٢) عَلَيْكُمْ بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ (٣). وعبارته الإمام عليه السلام هذه اقتباس من القرآن الكريم حيث قال تعالى: «وَأَسْتَفِرُّزُ مِنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ» (٤).

وخيل تعنى الفرس وكذلك الفرسان وأريد بها هنا المعنى الثانى ورجل تعنى المشاه وهى إشاره إلى كثره الأعوان الذين يقفون إلى جانب الشيطان سواء من نوعه أو من البشر والذين يعينونه على إضلال الآخرين؛ فبعضهم سريع كالفرسان والآخر بطيء كالمشاه.

وبالطبع فإن الصفات الرذيله وعوامل المعصيه ومراكز الفحشاء والدعايات السامه والمضله ووسائل الذنوب تعدد من أعوان الشيطان وجنوده حيث حدّر الإمام عليه السلام الناس من كل هذه الأمور.

ثم أقسم الإمام عليه السلام بعمره لتأكيد هذا الكلام فقال عليه السلام:

«فَلَعَمْرِي لَقَدْ فَوَّقَ (٥) لَكُمْ سَهْمَ الْوَعِيدِ، وَأَغْرَقَ (٦) إِلَيْكُمْ بِالنَّزْعِ (٧) الشَّدِيدِ، وَرَمَاكُمْ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ».

ثم استشهد الإمام عليه السلام بقوله تعالى عن إبليس:

«فَقَالَ: رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ».

أما قسم الإمام عليه السلام بعمره فيشير إلى أنّ القضيّه غايه فى الجديه؛ وليت شعري أى

ص: ٢٧٨

١- (١). «يستفر» من «استفزاز» بمعنى الاستنهاض والإثارة.

٢- (٢) «يجلب» من «جلب» بمعنى الصراخ بشخص أو نقله من موضع إلى آخر.

٣- (٣) «رجل» جمع «راجل» بمعنى المشاه.

٤- (٤) سورة الاسراء، الآية ٦٢.

٥- (٥). «فوق» من «فوق» موضع الوتر من السهم، إشاره إلى أنّ الشيطان استعد لاطلاق سهمه عليكم والمفردة تشير إلى هذا المعنى.

٦- (٦) «اغرق» من ماده «اغراق» و «غرق» على وزن «ورق» استوفى مد قوسه ويطلق أيضاً على كل عمل بمنتهى السعى.

٧- (٧) «نزع» بمعنى استئصال الشيء أو جره مثل مد القوس.

شئ أشرف من عمر الإمام وقوله عليه السلام إنَّ الشيطان فَوْقَ لكم سهم الوعيد واغرق إليكم بالزرع الشديد إشاره إلى أن خطر الشيطان قد أحاط بكم بأخدع صورته التي قلما تخطئ وقد دلکم على سبله وذلك من خلال المظاهر الماديّة للدنيا وتزيين نعمها الماديّة والغرق في مستنقع الشهوات واللذات.

وتعبير الإمام عليه السلام بأنَّ الشيطان جند طاقاته وقواه كافه واستعد للهجوم عليكم وقد استهدفكم من مكان قريب فكنتم في مرماه من كل جانب، إشاره إلى كثره عناصر الوسواس الشيطانيه في باطن الإنسان وخارجيه، فهوى النفس من جهه والعوامل الخارجيه للمعصيه من جهه أخرى.

والعبارة «لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» التي تبدأ بلام القسم ونون التوكيد الثقيله وتنتهى بالمفرده أجمعين، شاهد على أنه بمنتهى الجد في تحقيق اهدافه المشؤومه، ومن هنا لابد أن يعيش الناس اليقظه والحذر حتى لا يقعوا في شباك فخه ومصائده.

جدير ذكره أن العبارة:

«رَبِّ بِمَا أَعُوَيْتَنِي...» من أكاذيب الشيطان وافترائاته على الله تعالى والتي تشير إلى مدى تمرده ووقاحته بحيث يفتري على الله مثل هذا الكذب، الله الذى يهدى الجميع ويزودهم بعناصر الهدى، ولما كان كلام الشيطان واضح البطلان فالقرآن لا يرد عليه، فكيف يضلّه الله سبحانه وتعالى وهو الذى أمره والملائكة بقوله: «فَإِذَا نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» فالشرف الذى حظى به آدم عليه السلام على أساس روح الله التى نفخت فيه، إلّا أنّ الشيطان الحسود والأنانى تجاهل ذلك واكتفى بالنظر إلى خلقه من الطين! فهل الضلال كان من جانب الله أم من نفس الشيطان؟!

ثم قال عليه السلام فى مواصلته لكلامه:

«قَدْفَا بَغَيْبِ بَعِيدٍ، وَرَجْمًا بَظَنٍّ غَيْرِ مُصِيبٍ».

فقد وردت العبارة

«رَجْمًا بَظَنٍّ غَيْرِ مُصِيبٍ» بهذه الصيغه فى أغلب نسخ نهج البلاغه والتي يظن أحيانا أنها لا تنسجم مع الآيه الشريفه: «وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ

إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ» (١) والحال إن الآيه الشريفه نازله بشأن قوم سبأ لا بشأن جميع الناس وإلا فالمؤمنون ليسوا بقله فى أمم الأنبياء.

ورجحت طائفه من شراح نهج البلاغه النسخه الأخرى التى لا تتضمن كلمه «غير» وبصيغته:

«رَجْمًا بَطْنٌ مُّصَيَّبٌ» لأنهم قالوا إن ظن الشيطان بشأن الناس مطابق للواقع حيث لم ينج من وساوسه سوى قله قليله من الناس وهذا ما صرح به القرآن الكريم إذ قال: «وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِى الشُّكُورُ» (٢) وقال فى موضع آخر: «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ» (٣).

أضف إلى ذلك بأنّها أكثر انسجاما مع العبارة التالىة فى هذه الخطبه التى قال فيها:

«صَدَقَهُ بِهِ أَبْنَاءُ الْحَمِيَّةِ، وَإِخْوَانُ الْعَصْبِيَّةِ، وَفُرْسَانُ الْكِبْرِ وَالْجَاهِلِيَّةِ».

فالعباره:

«أَبْنَاءُ الْحَمِيَّةِ» كناية عن أنهم عجنوا بالكبر على درجه وكأنهم أصبحوا أبناءه كما أنّ التعبير إخوان العصبية كناية عن علاقتهم الوثيقه بالعصبيات القبليه والقوميّه وما شابه ذلك.

والعباره

«وَفُرْسَانُ الْكِبْرِ وَالْجَاهِلِيَّةِ» كناية عن أنهم بلغوا درجه من الكبر والجهل والغرور وكأنهم اعتلوا مركباً من الجهل والكبر اندفعوا به إلى الأمام.

ثم قال الإمام عليه السلام:

«حَتَّى إِذَا انْقَادَتْ لَهُ الْجَامِحَةُ (٤) مِنْكُمْ، وَاسْتَحْكَمَتِ الطَّمَاعِيَّةُ (٥) مِنْهُ فَيُكْمُ، فَانْجَمَتِ (٦) الْحَالُ مِنَ السَّرِّ الْخَفِيِّ إِلَى الْأَمْرِ الْجَلِيِّ. اسْتَفْحَلَ (٧) سُلْطَانُهُ

ص: ٢٨٠

١- (١) . سورة سبأ، الآيه ٢٠.

٢- (٢) . سورة سبأ، الآيه ١٣.

٣- (٣) سورة ص، الآيه ٢٤.

٤- (٤) . «جامحه» بمعنى الحيوان الجامح. من «جموح» على وزن «فتوح».

٥- (٥) «الطماعيه»، «طماعيه» و «طمع» بمعنى واحد.

٦- (٦) . «انجمت» من «نجوم» بمعنى ظهرت كما يطلق على النبات بدون ساق لأنه يظهر من الأرض و يطلق على النجوم لأنها

تظهر في السماء.

٧-٧) «استفحل» من ماده «استفحال» ومن «فَحَل» على وزن «نخل» بمعنى العظيم البارز و «استفحال» الثقيل والمتعب.

عَلَيْكُمْ، وَدَلَفَ (١) بِجُنُودِهِ نَحْوَكُمْ».

إشاره إلى أنّ إبليس يسعى بادئ الأمر إلى الهيمنه على الأفراد الذين يتمردون عليه ثم يرسخ قاعدته لديهم ثم يبسط نفوذه عليهم فيهجم عليهم بجنوده والحال فهم فقدوا قدرتهم الدفاعية وعانوا من أنواع المصائب الماديّة والمعنويّة، كما أشار الإمام عليه السلام بثمان عبارات قصيره عميقه المعنى إلى آثار ذلك الهجوم الشيطاني الواسع فقال:

«فَأَقْحَمُواكُمْ (٢) وَلَجَاتِ الدُّلِّ، وَأَحْلَوْكُمْ وَرَطَاتِ (٣) القَتْلِ، وَأَوْطَأُواكُمْ (٤) إِثْخَانَ (٥) الجِرَاحِ، طَغْنَا فِي عُيُونِكُمْ، وَحَزًّا (٧) فِي حُلُوقِكُمْ، وَدَقًّا لِمَنَاخِرِكُمْ (٨)، وَقَصْدًا لِمَقَاتِلِكُمْ، وَسَوْقًا بِخَزَائِمِ (٩) القَهْرِ إِلَى النَّارِ المُعَدَّةِ لَكُمْ».

فهذه العبارات الغايه فى الدقه والبيان والمقرونه بمنتهى البلاغه والفصاحه تجسد عظم بؤس المهزومين أمام الشيطان، الذين إن هربوا من جنده وأعوانه ولجأوا إلى كهف فسوف لن يكون سوى كهف الذل والهوان وإن قاوموا فليس لهم من مصير سوى الموت والفتناء كما أنّ موتهم سوف لن يكون هيناً بل ممزوج بالضرب والجرح وغرز السهام فى العيون وقطع الحناجر وتحطيم الأنوف وبالتالي سوف يجرون إلى نار الغضب الإلهية.

ثم خلس عليه السلام إلى استنتاج قاطع فقال:

«فَأَصْبَحَ أَعْظَمَ فِي دِينِكُمْ حَزْجًا (١٠)،

ص: ٢٨١

- ١- (١) «دلف» من «دلوف» بمعنى المشى ببط ورفع الخطوات القصيره وتشير هنا إلى التقدم التدريجى للشيطان.
- ٢- (٢) . «اقحموكم» من ماده «قحوم» بمعنى العمل دون تروى و «اقحام» يعنى حمل شخص بالقوه على عمل معين.
- ٣- (٣) «ولجات» بمعنى الملاجئ والكهوف جمع «ولجه» على وزن «درجه» ما يلجا إليه الماره عند المشاكل.
- ٤- (٤) «ورطات» بمعنى المشاكل والمهالك جمع «ورطه» على وزن «غفله».
- ٥- (٥) «اوطأوكم» من ماده «وطئ» بمعنى الوطئ بالارجل.
- ٦- (٦) «اثخان» من «ثخونه» تعنى فى الأصل الضخامه والغلظه و «اثخان» المبالغه فى قتل العدو.
- ٧- (٧) . «حز» بمعنى القطع.
- ٨- (٨) «مناخر» جمع «منخر» الانف أو خرم الانف.
- ٩- (٩) «خزائم» جمع «خزامة» على وزن «كتابه» حلقه توضع فى أنف البعير فيشد فيها الزمام ويسحب عند الجماع.
- ١٠- (١٠) . «حرج»، على وزن «خرج» و «حرج» على وزن «حرم» بمعنى الانزعاج والمحدوديه الشديده وتعنى فى الأصل اجتماع الأشجار والتفافها.

وَأُورَى (١) فِي دُنْيَاكُمْ قَدْحاً (٢) مِنَ الدِّينِ أَصْبَحْتُمْ لَهُمْ مُنَاصِبِينَ (٣) ، وَعَلَيْهِمْ مُتَأَلِّبِينَ (٤) .

فَاجْعَلُوا عَلَيْهِ حَدَّكُمْ (٥) ، وَلَهُ جِدُّكُمْ (٦) .»

إشاره إلى أنّ إبليس أعدى أعدائكم في الدين والدنيا وخطره أعظم من خطر كلِّ عدو فلا بد من تجنيد طاقاتكم لمواجهته.

وقد عبّر الإمام عليه السلام عن الفساد بالحرص يعني الصعوبه والمشقه (ووردت في بعض النسخ جرح والتي تبدوانسب للعباره) وعن وساوس الشيطان المضللّ بالقدح (ما يشعل به النار)، لأنّ قداحه صغيره يمكن لها أن تحرق بيتاً أو حياً، ووساوس الشيطان قد تقود أحياناً إلى تصدع مجتمعات وإنهيارها، ولا سيما العصبيات العمياء والكبر والغرور كما ذكر في الخطبه حيث تأجيج نيران القبليه التي تدعو إلى مزيد من سفك الدماء واغراق الأرض بها من الأفراد الأبرياء.

والتعبير بالجِد بفتح الجيم بمعنى القطع تشير إلى قطع العلاقه مع إبليس وعدم طاعه أو امره (وقد ورد الجِد في بعض النسخ بكسر الجيم والذي يعني السعى والمثابره والذي يبدو أنسب للعبارات السالفه) فالبعض يبذل قصارى جهده وسعيه في مجاهدته لإبليس وجنده.

ص: ٢٨٢

١- (١) . «أُورَى» من ماده «وَرَى» على وزن «نَفَى» تعنى فى الأصل الاخفاء ويطلق الورى على النار الكامنه فى الوسائل الناريه وتقتدح عن طريق الجدحه وتعنى فى هذه العبارة اشعال النار.

٢- (٢) «قَدْح» اخراج النار من الآله (شئ أشبه بالكبريت).

٣- (٣) «مناصبين» جمع «مناصب» بمعنى المجاهر بالعداوه من ماده نصب بمعنى العداوه.

٤- (٤) «متألبين» طائفه تجتمع على القيام بعمل من ماده «ألب» على وزن «سلب» بمعنى الاجتماع.

٥- (٥) «حدّ» و «حدّت» بمعنى الشدّه والغضب، وفى الأصل بمعنى الحدّه.

٦- (٦) «جدّ» يعنى القطع. ولما كان كلّ موجود عظيم يمتاز عن الآخرين فقد اطلق على الجِد وورد فى الآيه الشريفه «وأنّه تعالى جَدُّ رَبِّنَا» إشاره إلى عظمه الله والمعنى المراد بها قطع العلاقه.

فَلَعَمْرُ لِلَّهِ لَقَدْ فَخَرَ عَلَىٰ أَصِيلِكُمْ، وَوَقَعَ فِي حَسَبِكُمْ، وَدَفَعَ فِي نَسَبِكُمْ، وَأَجْلَبَ بِخَيْلِهِ عَلَيْكُمْ، وَقَصَدَ بِرَجْلِهِ سَبِيلَكُمْ، يَفْتَنُصُونَكُمْ بِكُلِّ مَكَانٍ، وَيَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ بَنَانٍ. لَاتَمْتَنُّونَ بِحَيْلِهِ، وَلَا تَدْفَعُونَ بِعَزِيمِهِ، فِي حَوْمِهِ ذُلًّا، وَحَلَقِهِ ضَبِيقًا، وَعَرِصَهُ مَوْتَ، وَجَوْلَهُ بِلَاءً. فَمَا طَفُّوا مِمَّا كَمَنَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ الْعَصِيَّةِ وَأَحْقَادِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّمَا تِلْكَ الْحَمِيَّةُ تَكُونُ فِي الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَنَحْوَاتِهِ، وَنَزَعَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ. وَاعْتَمِدُوا وَضَعَ التَّدْلِيلِ عَلَىٰ رُؤُوسِكُمْ، وَإِلْقَاءَ التَّعَزُّزِ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، وَخَلَعَ التَّكْبِيرِ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ، وَاتَّخَذُوا التَّوَاضِعَ مَسْلَحَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ؛ فَإِنَّ لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ جُنُودًا وَأَعْوَانًا، وَرَجُلًا وَفُزْسَانًا، وَلَا تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَىٰ ابْنِ أُمَّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضَّلَ جَعَلَهُ اللَّهُ فِيهِ سِوَىٰ مَا أَلْحَقَتِ الْعَظْمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عِدَاوَةِ الْحَسَنِ، وَقَدَحَتِ الْحَمِيَّةُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَارِ الْغَضَبِ، وَنَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ مِنْ رِيحِ الْكِبْرِ الَّذِي أَعْقَبَهُ اللَّهُ بِالنَّدَامَةِ، وَالزَّمَهُ آثَامَ الْقَاتِلِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

الشرح والتفسير: التحذير من التشبه بالشیطان أو قابيل

عباً الإمام عليه السلام فى هذا المقطع من الخطبه الجميع للوقوف بوجه الشيطان ووساوسه وأشار إلى سوابقه السيئه وعداوته بعبارات تفيض فصاحه وبلاغه فقال:

«فَلَعَمْرُ لِلَّهِ (١) لَقَدْ فَخَرَ عَلَيَّ أَضْلِكُمْ، وَوَقَعَ فِي حَسْبِكُمْ (٢)، وَدَفَعَ فِي نَسْبِكُمْ، وَأَجْلَبَ بِخَيْلِهِ عَلَيْنَكُمْ وَقَصَدَ بِرَجْلِهِ سَبِيلَكُمْ».

وهذه العبارات العميقة المعنى هي اقتباس من الآيات القرآنية الشريفة؛ فالآية ٣٣ من سورة الحجر تشير إلى أنّ الشيطان حقر آدم بهذه الصيغة قائلاً: «لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» فغروره وحسده وتكبره جعله يتناسى العبارة: «نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي» من كلام الله والتي تعدّ من أعظم مفاخر آدم عليه السلام، كما قال تعالى عن إبليس في الآية ١٢ من سورة الأعراف «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» والحال لو تخلى عن كبره وغروره لأيقن أنّ التراب هو مصدر أنواع البركات وأساس حياه الموجودات وهو أفضل من النار، وصرّحت الآية ٦٤ من سورة الإسراء أنّ الله تعالى قال له: «وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ» كما قال تعالى عن الشيطان في الآية ١٦ من سورة الأعراف: «لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ».

وهنا تكمن خطوره هذا العدو الذي ينبغي الحذر منه فهو لا يقَرّ بشخصيه آدم الرفيعه ولا يسلم بنسبه وقد جند طاقاته كافه من أجل اغوائه واضلاله.

ثم قال عليه السلام في مواصلته لكلامه:

«يَقْتَنِبُونَكُمْ (٣) بِكُلِّ مَكَانٍ، وَيَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ بَنَانٍ (٤). لَأَتَمْتِعُونَ بِحَيْلِهِ، وَلَا تَدْفَعُونَ بِعَزِيمِهِ. فِي حَوْمِهِ (٥) ذُلٌّ، وَحَلَقِهِ ضَبِيقٌ، وَعَرَصِهِ مَوْتٌ، وَجَوْلَهُ بَلَاءٌ».

ص: ٢٨٤

١- (١). «لعمركم الله» «عمر»، بفتح «العين» بمعنى العمر، بضم «العين» يستعمل في القسم وعليه فالعبارة لعمري تعني أقسم بنفسى و «لعمركم الله»؛ تعني ببقاء ذات الله تعالى.

٢- (٢) «حسب» تذكر هذه العبارة عادة مقرونه بالنسب لكنهما مختلفان في المعنى. فالحسب في الأصل قدر الشيء ومنزلته وشرفه وبما أنّ الأصل والنسب يؤثر على منزله الإنسان وقدره فإنّ هذه المفردة تشمل أيضاً النسب الرفيع والعزیز فيقال الحسب لمقدار كلّ شيء، والواقع أنّ هذه المفردة أخذت من مادة حساب لأنّ الأفراد يحسبون مفاخرهم ومفاخر آبائهم عند ذكر الحسب.

٣- (٣). «يقتنصون» من مادة «قنص» على وزن «حبس» بمعنى يصيدون.

٤- (٤). «بنان» جمع «بنانه» تعني لغوياً الأصابع ورؤوس الأصابع والشخص الذي تقطع بنانه لا يقوى على العمل.

٥- (٥) «حومه» بمعنى أهم موضع في الشيء وتطلق الحومه على القسم الرئيسي من القتال أو الذل.

«وَيَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ بَنَانٍ» تشبه ما ورد في القرآن الكريم بشأن هجوم الملائكة على الكفار يوم بدر: «وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ» (١). فإنّ قطع كلّ بنان إن كان بشأن الأيدي يؤدّي بالإنسان إلى العجز عن الإتيان بأغلب الأعمال، ذلك لأنّ لكلّ عمل وسيله ووسائل الأعمال عادة الأصابع والأيدي، وإن كان المراد بنان الأرجل فذلك يؤدّي إلى اختلال توازن الإنسان حين المشى والعبارة الواردة في الخطبه إشاره إلى أنّ الشياطين يهجمون عليكم ويعيقونكم عن العمل بحيث يسلبونكم زمام التفكير والقدرة على اتخاذ القرار.

ثم ركز الإمام عليه السلام على لب الموضوع فاستعار تشبيهات غايه في الجمال وبمنتهى الفصاحه والبلاغه ليحذر الجميع من الآثار السيئه للعصبيه العمياء والكبر الأجوف فقال عليه السلام:

«فَأَطْفَأُوا مَا كَمَنَّ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ الْعَصِيْبِيَّةِ وَأَخْقَادِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّهَا تَلْكُ الْحَمِيَّةُ تَكُونُ فِي الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَنَخَوَاتِهِ (٢)، وَنَزَعَاتِهِ (٣) وَنَفَثَاتِهِ (٤)».

فقد شبه الإمام عليه السلام بهذه العبارات العصبيات الطائشه والأحقاد الجاهليه بالنار الكامنه في أعماق القلوب التي تقتدح فجأه وتلتهم جميع كيان الإنسان فتسرى إلى الخارج لتعم وتحرق أمم بأسرها، ويعدّ الإمام عليه السلام هذه الصفه الرذيله من وساوس الشيطان والتي تنتقل من الخارج إلى بواطن المسلمين أي هي قريبه من المسلم الحقّ.

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً:

«وَاعْتَمِدُوا وَضَعَ التَّدْلِيلِ عَلَى رُؤُوسِكُمْ، وَإِلْقَاءَ التَّعَزُّزِ

١- (١). سورة الأنفال، الآية ١٢.

٢- (٢). «نخوات» جمع «نخوه» بمعنى الكبر.

٣- (٣) «نزعات» جمع «نزعه» بمعنى الفساد من ماده «نزع» على وزن «وضع» بمعنى الدخول في فعل بقصد الافساد.

٤- (٤) «نفثات» جمع «نفثه» بمعنى ما يخرج من الفم من اللعاب وفي الأصل من ماده «نفث» على وزن «حبس» بمعنى النفخ واستعملت هنا لخروج مقدار من اللعاب حين النفخ على الشيء وهي كناية عن وساوس الشيطان في العبارة، السائد بين السحرة أنّهم يقرأون بعض الأوراد عند السحر وينفخون على الشخص المطلوب فهي كناية عن الوسوسة.

تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، وَخَلَعَ التَّكْبِيرِ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ؛ وَاتَّخَذُوا التَّوَاضِعَ مَسْلَحَةً (١) بَيْنَكُمْ وَيَبِينَ عَدُوَّكُمْ إِبْلِيسَ وَجُنُودَهُ».

فقد شبه الإمام عليه السلام في هذه العبارات التواضع بالتاج والتعزز بما يلقي تحت الأقدام ممّا لا قيمه له وشبه التكبر بالغل الذي يوضع على العنق والبساطه بالمسلحه أو بالموضع الذي يحفظ الإنسان من مكائد العدو وكلّ منها يحمل رساله واضحه للناس ولا سيما الأفراد المؤمنين منهم.

ثم بين الإمام عليه السلام دليلاً واضحاً لهذه الوصايا فقال:

«فَإِنَّ لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ جُنُوداً وَأَعْوَاناً، وَرَجِلاً وَفُرْسَاناً».

طبعاً ليس جميع هؤلاء من الجن بل بعضهم من الناس الشياطين من الضالين والمضللين أعوان الشيطان وأنصاره وقد قال القرآن الكريم: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ» (٢).

وهنا تطرق الإمام عليه السلام بعبارة قصيره وعميقه المعنى إلى قصه قاييل الشخص الثاني بعد الشيطان الذي إعتراه الكبر والعصبيّه فارتكب جنايه عظيمه وغاص في وحل الندم والشقاء فقال عليه السلام:

«وَلَا تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَى ابْنِ أُمَّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضَّلَ جَعَلَهُ اللَّهُ فِيهِ سِوَى مَا أَلْحَقَتِ الْعُظْمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عَدَاوَةِ الْحَسَدِ».

العبارة

«ابن أُمّه» بدلاً من أخ إشاره إلى البعد العاطفي للموضوع، أى أنّ التكبر فعل فعله رغم تلك العلاقة العاطفيّه بينهما فدفعه لقتل أخيه ولعلنا نلمس شبيهه هذا المعنى فى قصه موسى وهارون حين نقم على عباده بنى إسرائيل للعجل وقد أخذ برأس أخيه هارون فناداه على سبيل آثاره عواطفه: «يَبْتَنُومَ لَأَتَأْخُذَ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي» (٣).

ص: ٢٨٦

١- (١). «مسلحه» بمعنى موضع الجمع وبعبارته أخرى يطلق على المواضع ومخازن السلاح لأنهم يجمعون عاده مقداراً من الأسلحه فى الموضوع وقد وردت بهذا المعنى فى العبارة السابقه.

٢- (٢) سورة الأنعام، الآية ١١٢.

٣- (٣) سورة طه، الآية ٩٤.

والعبارة:

«سوى ما أَلْحَقَتْ» من قبيل ما يصطلح عليه بالاستثناء المنقطع وقد وردت هنا لشده الّذم كأن نقول: «ليس لفلان من فضل سوى الكذب والخيانة».

والعبارة:

«عِدَاوَةُ الْحَسِيدِ» إشاره إلى أنّ الحسد يؤدّي بالإنسان إلى العداوه والخصومه؛ العداه الّذى من شأنه أن يكون مدعاه لقتل الأخ لأخيه.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى توضيح هذا الأمر فقال:

«وَقَدَحَتِ الْحَمِيَّةُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَارِ الْغَضَبِ، وَنَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ مِنْ رِيحِ الْكِبْرِ الَّذِي أَعَقَبَهُ اللَّهُ بِهِنَّ النَّدَامَةَ، وَالزَّمَهُ آثَامًا (١) الْقَاتِلِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

ويستفاد من هذه العبارات أنّ الانحرافات إنّما تنطلق بادئ الأمر من باطن الإنسان ثم يعمقها الشيطان لتطال آثارها المشؤومه الإنسان وعليه فكلّ ما هنالك يعزى إلى باطن الإنسان الملوّث وهذا رد حاسم على أولئك الّذين يقولون لماذا يفعل الشيطان كل هذا ولماذا يبتلىنا الله تعالى بكلّ تلك المصائب.

وقد نقل ابن أبى الحديد عند هذه العبارة حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله رواه المؤرخ المعروف الطبرى أنّه قال:

«مَا مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْهَا وَذَلِكَ بِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ».

وأضاف ابن أبى الحديد: إنّ كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى هذه الخطبه يؤيد ذلك (٢).

وقد وردت عدّه أبحاث مطوله فى الروايات الإسلاميه بشأن إقامه السنه الحسنه والسنه السيئه وآثارهما سنتطرق إلى ذلك إن شاء الله فى محله والذى يمكن قوله على نحو الخلاصه: إنّ كلّ من سن فعل خير وحثّ الناس على القيام به فهو شريك لهم فى الأجر والثواب ومن سن سنه سيئه فهو شريك لهم فى الذنب والمعصيه بسبب انتهاكه للحرمات وتشجيعه الناس من ضعف الإيمان على المعصيه.

ص: ٢٨٧

١- (١) «آثام» جمع «إثم» بمعنى الذنب وتعنى فى الأصل تلك الحاله التى يصل إليها روح و عقل الإنسان و يمنع من الوصول الى الكمال والحسنات.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٣، ص ١٤٦.

أَلَا وَقَدْ أَمَعْتُمْ فِي الْبَغْيِ، وَأَفْسَدْتُمْ فِي الْأَرْضِ مَصَارِحَهُ لِلَّهِ بِالْمُنَاصَبَةِ، وَمُبَارَزَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْمُحَارَبَةِ. فَاللَّهُ اللَّهُ فِي كَثِيرِ الْحَمِيَةِ وَفَخِرِ الْحِيَاهِلِيِّهِ! فَإِنَّهُ مَلَأَ قَمَحَ الشَّنَانِ، وَمَنَافِخَ الشَّيْطَانِ، الَّتِي خَمَدَعَ بِهَا الْأَمَمَ الْمَاضِيَةَ، وَالْقُرُونَ الْخَالِيَةَ. حَتَّى أَعْنَقُوا فِي حَنَادِسِ جَهَالَتِهِ، وَمَهَاوِي ضَلَالَتِهِ، دُلَّالًا عَنْ سِيَاقِهِ، سُلْسَاءً فِي قِيَادِهِ. أَمْرًا تَشَابَهَتْ الْقُلُوبُ فِيهِ، وَتَتَابَعَتْ الْقُرُونَ عَلَيْهِ، وَكَبْرًا تَضَايَقَتْ الصُّدُورُ بِهِ.

أَلَمَّا فَالِحَ ذَرَّ الْحَيِّ ذَرَ مَنْ طَاعَهُ سَيَادَاتِكُمْ وَكُتُبَاتِكُمْ! الَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَنْ حَسَبِهِمْ، وَتَرَفَّعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ، وَأَلْقُوا الْهَجِيئَةَ عَلَى رَبِّهِمْ، وَجَاحَدُوا اللَّهَ عَلَى مَا صَنَعَ بِهِمْ، مُكَابِرَةً لِقَضَائِهِ، وَمُغَالَبَةً لِأَلَايِهِ. فَإِنَّهُمْ قَوَاعِدُ أَسَاسِ الْعَصَبِيَّةِ، وَدَعَائِمُ أَرْكَانِ الْفِتْنَةِ، وَسُيُوفُ اعْتِرَاءِ الْحِيَاهِلِيِّهِ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَكُونُوا لِنِعْمِهِ عَلَيْكُمْ أَضْدَادًا، وَلَا لِفُضْلِهِ عِنْدَكُمْ حُسَادًا. وَلَا تَطِيعُوا الْأَدْعِيَاءَ الَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصِفْوِكُمْ كَدْرَهُمْ، وَخَلَطْتُمْ بِصَحْتِكُمْ مَرَضَهُمْ، وَأَدْخَلْتُمْ فِي حَقِّكُمْ بَاطِلَهُمْ، وَهُمْ أَسَاسُ الْفُسُوقِ، وَأَحْلَاسُ الْعُقُوقِ. اتَّخَذْتُمْ إِبْلِيسَ مَطَايَا ضَلَالٍ. وَجُنْدًا بِهِمْ يَصُولُ عَلَى النَّاسِ، وَتَرَاجِمَهُ يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، اسْتِرَاقًا لِعُقُولِكُمْ وَدُخُولًا فِي عُيُونِكُمْ، وَنَفْثًا فِي أَسْمَاعِكُمْ.

فَجَعَلَكُمْ مَرْمَى نَبْلِهِ، وَمَوْطِئَ قَدَمِهِ، وَمَأْخَذَ يَدِهِ.

الشرح والتفسير: اجتناب تبعيه المتكبرين

لما فرغ الإمام عليه السلام من تلك المقدمات في المقاطع السابقة بشأن مخاطر الكبر

والغرور والعصبيه حذر مخاطبيه مباشره من سوء عاقبه السير على هذا المسار الشيطاني وألقى باللائمه على أولئك الذين يثيرون الخلافات والنزاعات ويؤججون نيران الصراعات تحت ذرائع واهيه تستند إلى العصبيه القبليه والتفاخر الذى تقوم به جماعه على أخرى فقال عليه السلام:

«أَلَا وَقَدْ أَمَعْتُمْ (١) فِي الْبُعْيِ، وَأَفْسَدْتُمْ فِي الْأَرْضِ مُصَارِحَةً (٢) لِلَّهِ بِالْمَنَاصِبِ (٣)، وَمُبَارَزَةً لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْمَحَارِبِ».

ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أن المخاطب بهذه العبارات هم جند الشام واتباع معاويه ولعلمهم إستندوا فى ذلك إلى خطاب الإمام عليه السلام اللادع والشديد الذى لم يكن مناسباً لما عليه أهل الكوفه والعراق، فى حين يفهم من سبب هذه الخطبه وسائر الخطب أن مخاطبى الإمام عليه السلام هم طغاه الكوفه والعراق الذين كانوا يثيرون الصراعات بين القبائل وأدوا إلى المزيد من الفساد وإراقه الدماء انطلاقاً من التعصبات الجاهليه والقبليه؛ الأمر الذى يعتبر عداءً صريحاً لله من جانب وحرماً شعواء على المؤمنين من جانب آخر.

ثم اشتد كلام الإمام عليه السلام فخاطبهم قائلاً:

«اللَّهُ فِي كِبَرِ الْحَمِيَّةِ وَفَخْرِ الْجَاهِلِيَّةِ! فَإِنَّهُ مَلَأَ الْكِنَانِ، وَمَنَافِخِ الشَّيْطَانِ».

وبالنظر إلى أن

«ملاقح» جمع

«ملقح» على وزن مجرم، فإن مفهوم العبارة أن الكبر والتعصب سبب ايجاد البغض والعداوه وكذلك

«منافخ» جمع

«منفخ» على وزن «مصرف» وسيله ينفخ بواسطتها ومفهومها أن الشيطان يوسوس فى القلوب عن هذا الطريق ويسوقهم إلى الفساد.

ثم أشار عليه السلام إلى آثار ومخاطر هذه الوسوس والنفخات الشيطانيه فقال:

ص: ٢٩٠

١- (١) . «أمعنتم» من ماده «إمعان» بمعنى المبالغه فى القيام بشيء مشتقه فى الأصل من ماده «معن» على وزن «دهن» بمعنى ارتواء الأرض بالماء.

٢- (٢) «مصارحه» من ماده «صرح» بمعنى الوضوح والظهور ومصارحه تعنى مواجهه الشخص بصوره عليه.

٣- (٣) «مناصبه» من ماده «نصب» على وزن «نسب» بمعنى التعب والمشقة كما تعنى المناصبه التظاهر بالعداوه التى تؤدى إلى تعب ومعاناه الطرفين.

«الَّتِي خَدَعَ بِهَا الْأَمَمَ الْمَاضِيَةَ، وَالْقُرُونَ الْخَالِيَةَ. حَتَّى أَعْنَقُوا(١) فِي حَنَادِسِ(٢) جَهَالَتِهِ، وَمَهَاوِي(٣) ضَلَالَتِهِ، ذُلًّا(٤) عَنِ سِيَاقِهِ، سُلْسًا(٥) فِي قِيَادِهِ».

ثم أضاف عليه السلام قائلاً:

«أَمْرًا تَشَابَهَتْ الْقُلُوبُ فِيهِ، وَتَتَابَعَتْ الْقُرُونُ عَلَيْهِ، وَكَبِرًا تَضَايَقَتْ الصُّدُورُ بِهِ».

فى إشاره إلى أنّ مسأله الكبر والغرور وآثارها ومخاطرها الجمه أمر متجذر فى جميع الأمم والشعوب والذى كان مصدر الحروب الدمويه والنزاعات الواسعه ومختلف أنواع الجرائم والجنايات والحماقات.

فالتكبر والتعصب صفتان سودتا وجه التاريخ البشرى واللتان تعتبران من أهم شباك الشيطان فى العصور الماضيه والحاضره والقادمه.

نقل أحد شراح نهج البلاغه (المرحوم محمد جواد مغنيه) فى شرحه أنّ الفيلسوف الانجليزى المعروف (راسل) قال: إنّ كلّ إنسان يجب أن يكون إلهاً والغريب قلّ من يعتقد أنّ هذا الأمر محال، ثم يضيف هذا الشارح العالم أنّ هذا الكلام صحيح إلّا أنّ أولئك الذى يتمنون أن يكونوا آلهه ولا يبلغون ذلك يعمدون لاشباع رغباتهم الباطنيه إلى التكبر والفخر بالعظام الباليه لأبائهم أو ما هم عليه من مقام أو ذكر أسمائهم فى الصحف.

ثم ركز الإمام عليه السلام على الموضوع الأصيل للقضيه والذى يكمن فى الطاعه العمياء لزعماء القبائل والمفسدين والمتكبرين الأنانيين الذين يدعون الناس إلى أهوائهم وملذّاتهم ويثيرون الفتن والمفاسد فقال عليه السلام:

«أَلَا فَالْحَدَرَ الْحَدَرَ مِنْ طَاعِهِ سَادَاتِكُمْ

ص: ٢٩١

١- (١). «أعنقوا» من ماده «عنق» بمعنى الرقبه و «عناق» الاسراع فى الذهاب خلف الشىء.

٢- (٢) «حنادس» جمع «حناس» على وزن «قبرص» بمعنى الظلام ومن هنا يقال حنادس لليالى الثلاثه الأخيره فى الشهر لشده ظلمتها وامتزاجها بالمحاق.

٣- (٣) «مهاوى» جمع «مهواه» يعنى الحفره كما تعنى الحفره العميقه التى يقع فيها السيل وليس له من سبيل.

٤- (٤) «ذلل» جمع «ذلول» بمعنى الشخص المنقاد والمستسلم للحيوان الهادئ.

٥- (٥) «سلس» جمع «سلس» على وزن «خشن» بمعنى السهل والمنقاد.

وَكِبْرَائِكُمْ! الَّذِينَ تَكْبَرُوا عَنْ حَسَبِهِمْ، وَتَرَفُّعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ، وَأَلْقُوا الْهَجِيئَةَ (١) عَلَى رَبِّهِمْ، وَجَاحَدُوا اللَّهَ عَلَى مَا صَنَعَ بِهِمْ، مُكَابِرَةً لِقَضَائِهِ، وَمُغَالَبَةً لِآيَاتِهِ (٢)».

فهذا الكلام فى الواقع اقتباس من الآيه القرآنيه الشريفه التى يظهر فيها الناس ندمهم يوم القيامه على طاعتهم لكبرائهم وزعمائهم فيقولون: «رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنُتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا» (٣).

وإننا كلّمنا تأملنا تاريخ البشريه الماضى نرى أنّ أحد العناصر الرئيسيه فى الحروب والصراعات وإراقه الدماء كان يكمن فى التكبر والعصبيات القبليه والقوميّه والتى ما زالت قائمه لحد الآن، وهى أحد العوامل المهمه فى نشوب الحرب العالميه الأولى والثانيه التى حطمت دولاً من العالم وأودت بحياه الملايين من الناس، والحال لو أمعن الإنسان النظر لأدرك أنّ أصله من التراب وأصله الآخر نطفه لا قيمه لها ونهايته جثه متعفنه، فقد نهى الإسلام عن الافتخار بالآباء والمناصب والتمسك ببعض الألقاب التى تفرز الغرور والغفله، فقد جاء فى الحديث النبوى الشريف:

«حُبُّ الرَّجُلِ دِينَهُ، وَمُرُوتُهُ، خُلُقُهُ، وَأَصْلُهُ عَقْلُهُ» (٤).

فقد قاله النبى الأكرم صلى الله عليه وآله حين حاول البعض الاستخفاف بسلمان الفارسى حين سأله عن نسبه، فرد عليهم بأنّ نسبه عتقه من العبوديه بواسطه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله.

والعبارة:

«أَلْقُوا الْهَجِيئَةَ عَلَى رَبِّهِمْ» إشاره إلى أنّ هؤلاء رأوا أنّ نسبهم هو الأفضل ونسب الآخرين أدنى، ثم نسبوا دناءه نسب الآخرين إلى الله تعالى، واعتقدوا أنّ الله تعالى خلق خلقاً فاضلاً وكانوا هم من ذلك الخلق، وخلق تعالى خلقاً أدنى هم الآخرون كما نسبوا لأنفسهم ما نالوا من النعم الإلهيه على أنّها تستند

ص: ٢٩٢

١- (١). «هجينه» بمعنى الفعله القبيحه والمستهجنه من ماده هجونه.

٢- (٢) «آلاء» جمع «ألاء» على وزن «جفا» أو إلّا- على وزن «فعل» بمعنى النعم وقيل بمعنى خصوص النعم المعنويه خاصه حين تأتى مع مفرده النعمه، ويقال: «النعم والآلاء».

٣- (٣) سوره الأحزاب، الآيتان ٦٧ و ٦٨.

٤- (٤) بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٣٨١، ح ١٦.

إلى كفائهم وجدارتهم وتنكروا لنعم الله وآلائه وألطافه.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى ذكر السبب الذى يقف وراء ضروره عدم تبعيه مثل هؤلاء الأفراد فقال:

«فَانَّهُمْ قَوَاعِدُ أَسَاسِ الْعَصَبِيَّةِ، وَدَعَائِمُ أَرْكَانِ الْفِتْنَةِ، وَسُيُوفُ اغْتِرَاءِ (١) الْجَاهِلِيَّةِ».

فقد شبه الإمام عليه السلام العصبية والفتنة بالبيت، وأعمدته دعاه الفساد، وأركانه المتكبرون الأنانيون، وقد نهى الجميع عن السكن فى هذا البيت، كما شبه عليه السلام الشعارات السائده فى زمان الجاهلية لإثاره القبائل وتأليبها على بعضها البعض الآخر، بالسيوف الحاده، ثم شبه زعماء الفساد بهذه السيوف.

فقد كان السائد فى العصر الجاهلى أن أیه قبيله من القبائل إذا ما تعرضت لتهديد من الطرف الآخر عمد زعمائها بدلاً من اعتماد الفكر والمنطق فى إصلاح الأمور وإرساء الصلح والسلام إلى تأليب الآخرين على اطلاق شعارات الحرب مستغلين جميع الوسائل من أجل إثارة عواطف الأفراد الجهال بغيه تأجيج نار الحرب، سيما أن كل قبيله كانت تنادى الأخرى بأسماء آبائها وأجدادها السابقين فرعماء القبائل فى الواقع هنا بمنزله السيوف.

ويشير التاريخ إلى أن الزعماء المتهافتين على المناصب والمقامات فى العصور السابقه كانوا يعبثون الجماهير بمختلف الشعارات ويزجون بالجهال فى أتون الحرب بغيه الحفاظ على مصالحهم ومقاماتهم ولعلنا نلمس اليوم ما عليه وسائل الإعلام العالميه التى تعتمد شتى الأساليب وبصوره واسعه بغيه الحفاظ على الحكومات الاستكباريه ومصالح كبار رؤساء الأموال، وكما قال القرآن الكريم: «إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذَلَّةً» (٢)، وهذه هى الفئه التى وقفت على الدوام بوجه الأنبياء الذين بعثوا لتنوير عقول الناس وهدايتهم إلى

ص: ٢٩٣

١- (١) «اعتزاء» بمعنى النسب من ماده «عزو» على وزن «رزم».

٢- (٢) . سورة النمل، الآية ٣٤.

الصراط المستقيم وبسط القسط والعدالة الاجتماعيه، فهبت لمعاداتهم ومواجهتهم:

«وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ» (١).

ثم أضاف عليه السلام:

«فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَكُونُوا لِنَعْمِهِ عَلِيكُمُ أَضْدَادًا، وَلَا لِفَضْلِهِ عِنْدَكُمُ حُسَادًا».

في الواقع إن هؤلاء الذين يكفرون بنعم الله ويسلكون سبيل الكبر والغرور بدلاً من توظيف هذه النعم في خدمه الخلق إنما يهبون لمناجزه نعمهم ويحسدون أنفسهم في ما أفاض الله عليهم ذلك لأن فعل هؤلاء بالنتيجة يتفق مع ما عليه الحساد والأعداء، فكلاهما ينشد سلب النعمه والفضل الإلهي من الآخرين.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطه أخرى فقال:

«وَلَا تُطِيعُوا الْأَدْعِيَاءَ» (٢).

ذهب بعض الشراح إلى أن المراد بالأدعياء ذلك المعنى الأصلي (الأفراد الذين لا حسب لهم ولا نسب، أبناء الحرام) بينما فسرها البعض الآخر بأن المراد بها المنافقين، ذلك لأن النفاق إنما هو نتيجة دناءه النسب وخسه الجوهر، وأخيراً هناك من فسرها بالوضيعين.

جدير ذكره أن التكبر الذي يعدّ الموضوع الأصلي لهذه الخطبه إنما يستند إلى عقده الحقاره، وهذا ما صرحت به الروايه الوارده عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال:

«مَا مِنْ رَجُلٍ تَكَبَّرَ أَوْ تَجَبَّرَ إِلَّا لِدَلَّةٍ وَجَدَهَا فِي نَفْسِهِ» (٣).

ثم خاض عليه السلام في شرح أوصاف طائفه الأدعياء فقال:

«الَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوِكُمْ كَدْرَهُمْ، وَخَلَطْتُمْ بِصَحْتِكُمْ مَرَضَهُمْ، وَأَدْخَلْتُمْ فِي حَقِّكُمْ بَاطِلَهُمْ».

إشاره إلى أن هؤلاء المنافقين المستكبرين إنما استغلوا حسن نياتكم وأنفذوا

ص: ٢٩٤

١- (١) سوره سبأ، الآيه ٣٤.

٢- (٢) «أدعياء» جمع «دعى» على وزن «جلى» تعنى فى الأصل المتبنى أى الولد من أب آخر ومن ينسب نفسه لآخر، وبما أن مثل هؤلاء الأفراد لا يمتلكون نسباً واضحاً يطلق عليهم الأدعياء ووردت بمعنى عديم النسب أو ابن الزنا.

٣- (٣) الكافى، ج ٢، ص ٣١٢.

إليكم نياتهم السيئه وأمراضهم النفسيه وأعمالهم المريضة والمطالب الباطله ورسخوها في أوساطكم؛ وعليه فما عليكم إلا التعرف عليهم والانسحاب من تبعيتهم وطرح أفكارهم الفاسده وخططهم الشيطانيه من أوساطكم.

ثم أفصح الإمام عليه السلام عن التعريف بهم فقال:

«وَهُمْ أَسَاسُ الْفُسُوقِ، وَأَخْلَاسُ (١) الْعُقُوقِ (٢)».

بالنظر إلى معنى الفسوق وهو الخروج عن الطاعه والعقوق الذى يطلق على مطلق العصيان، فإن المراد بالعباره السابقه أن جميع المعاصي والمفاسد الاجتماعيه إنما تنبع من المفسدين والمستكبرين حيث يقوم هؤلاء الأفراد باستقطاب الناس وشدهم إليهم كونهم مصداق للعباره:

«النَّاسُ عَلَى دِينِ مَلُوكِهِمْ».

ثم تحدت الإمام عليه السلام عن العلاقه القائمه بين هذه الفئه وإبليس ومدى ارتباط افكارهم وخططهم بوساوسه فقال:

«اتَّخَذَهُمْ إِبْلِيسُ مَطَايَا ضَلَالٍ. وَجُنْدًا بِهِمْ يَصُولُ (٣) عَلَى النَّاسِ، وَتَرَاجِمَهُ يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، اسْتِرَاقًا لِعُقُوقِكُمْ وَدُخُولًا (٤) فِي عُيُونِكُمْ، وَنَفْثًا (٥) فِي أَسْمَاعِكُمْ».

فالواقع، إنما يمتطي إبليس هذه الفئه بالدرجه الأولى لإضلال الناس وإغوائهم، ثم يستعين بها في هجومه عليهم فإن استسلموا لقنهم مطالبه بلسان زعماء هذه الفئه الضاله فيعطل لديهم جميع مصادر الفهم والإدراك بما فيها العقل والعين والاذن؛ فيسلبهم عقلهم بأمانيه البعيده وأهوائه ورغباته ويزين لهم الدنيا، فيصادر بصيرتهم ويقرأ في آذانهم كلمات الخداع ويوسوس إليهم فلا تكون عاقبتهم إلا تلك التى

ص: ٢٩٥

١- (١). «أحلاس» جمع «حلس» على وزن «حرص» بمعنى كساء رقيق يكون على ظهر البعير ملازماً له، ثم اطلق «الحلس» على كل شيء ملازم لآخر ولذلك يقال للأفراد الذين يلازمون البيوت «أحلاس البيوت».

٢- (٢) «عقوق» تعنى فى الأصل التقطيع والتمزيق ثم اطلقت هذه الكلمه على مخالفه الأب والأم والآخريين و «أحلاس العقوق» بمعنى الأفراد الملازمين للطغيان والعصيان.

٣- (٣). «يصول» من ماده «صوله» بمعنى الهجوم.

٤- (٤) «دخول» معروف المعنى ولكن يأتى بمعنى الفاسد أيضاً وهذا ما أريد به فى العباره.

٥- (٥) «نفث» تعنى فى الأصل طرح مقدار من لعاب الفم وحيث يقترن بالنفخ فقد وردت بمعنى النفخ أيضاً.

أشار الإمام عليه السلام إليها في خطبته وعلى هذا الأساس فقد جعلكم أهدافاً لسهامه ووطأكم بقدمه واستحوذ عليكم:

«فَجَعَلَكُمْ مَرْمَى نَبْلِهِ (١) ، وَمَوْطِئَ قَدَمِهِ ، وَمَأْخَذَ يَدِهِ».

فمن الطبيعي أن يتيه الإنسان تحت أرجل الشيطان ويكون بدنه عرضه لسهامه ويحكم عليه قبضته إذا ما فقد عقله وبصيرته وإدراكه.

وقد ذهب أغلب شراح نهج البلاغه إلى أن العبارة «وَمَا أَخَذَ» إشارة إلى الأسر في مخالاب الشيطان، وعليه يكون مفهوم العبارات الثلاث أن الشيطان يقضى عليكم أو يذلكم أو يأسرکم، إلّا أن التفسير الذي أوردناه يبدو أنسب مع العبارات السابقة.

والمواقع أن هذه الكلمات العميقة للإمام عليه السلام بشأن نفوذ الشيطان في الإنسان اقتباس من القرآن الكريم إذ قال تعالى: «وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ» (٢).

وقال تعالى في الآية ١١٢ من سورة الأنعام: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا» وقد مر شبيه ما ورد في هذه العبارة في الخطبة السابعة حين قال:

«اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ لِأَمْرِهِمْ مَلَكَاً وَاتَّخَذَهُمْ لَهُ أَشْرَاكاً... فَنَظَرَ بِأَعْيُنِهِمْ، وَنَطَقَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، فَرَكِبَ بِهِمُ الزَّلَّلَ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الْخَطَلَ».

تأمل

التكبر والعصبيه

«التكبر» يعنى الشعور بالأفضليه من الآخرين، و

«التعصب» يعنى التعلق غير المنطقي بشخص والتفاني في الدفاع عنه بصورة عمياء، أو الغلو في الحب للقبيله

ص: ٢٩٦

١- (١) . «نبل»، السهام.

٢- (٢) سورة الأنعام، الآية ١٢١.

وتمجيدها بحق وبغير حق، وتعصب من ماده عصب على وزن غضب بمعنى الأوعيه الخاصه التي تربط عضلات الإنسان بدماعه وتشكل سلسله الأعصاب.

ثم اطلقت على الفئه والجماعه المنسجمه فكراً والمتعاضده فيما بينها، ويطلق على هذه الجماعه

«عُصبه» على وزن

«سُفْره» وتطلق مفرده

«تعصّب» عاده على التبعيه الهمجيه المطلقه والتي يفرزها عاده الجهل وضيق التفكير والكبر؛ لأنّ الشخص الذى يريد أن يلصق بنفسه قيمه معينه يسعى لإكبار من يتعلق به أو يتعلق بهم، فيتجاهل نقط ضعفهم ويبالغ فى تضخيم نقاط قوتهم إن وجدت فيهم.

وهذه الرذيله الأخلاقية الجاهلية إذا انطلقت من التعصب العرقى والقبلى فإنها تؤدى إلى اندلاع النزاعات والحروب والعنف والصراعات الدمويّة التي حدثت فى التاريخ القديم والتاريخ المعاصر.

ولعل أحداً لم يأمن مخاطر الكبر والعصبيّة منذ التاريخ الجاهلى حتى تاريخنا الراهن. فقد نشب فى العصر الجاهلى قتالان عنيفان بين القبائل العربية باسم الفجار المعروفه فى التاريخ. حيث حدثت فجار الأولى حين كان لفرد من قبيله بنى كنانه دين بدمه رجل من قبيله هوازن الذى ما كان يستطيع تسديد دينه؛ فشاهد الرجل الهوازنى قرداً فى سوق عكاظ (السوق الذى كان يعقد كلّ سنه قرب الطائف) وقال:

هل من رجل يبيعنى هذا القرد مقابل دينى من فلان الكنانى ومراده من هذا الكلام تحقير الرجل الكنانى الذى عجز عن تسديد دينه، وهنا قام رجل من كنانه فقتل القرد، فصرخ الهوازنى بوجه الرجل واستنجد الكنانى بقبيلته فاقتتل القبيلتان قتالاً شديداً.

وفجار الثانية التي حدثت بعد وفاه عبد المطلب، وسببها أنّ فتى من قبيله بنى غفار جلس فى زاويه من سوق عكاظ ومد رجليه وكان يقول: أنا أفضل العرب ومن لم يقبل ذلك فليقطع رجليّ، فانبرى له فتى جاهل من قبيله بنى قيس وسل سيفه وضربه على رجليه، فاقتتل قبيلتيهما قتالاً شديداً حتى تصالحا بعد مدّه من

العداوة والخصومه (١)، وما شهدته القرن العشرين متمثلاً في الحرب العالميه الثانيه وكان سببها كما نعلم العصبيه الألمانيه النازيه والتي خلفت عشرات الملايين من القتلى وعشرات الملايين من الجرحى والعديد من المفقودين وذلك الخراب العظيم الذى حلّ بأوروبا وسائر دول العالم، وحتى اليوم فإنّ العوامل الرئيسيّه التي تقف وراء اعتداءات المستكبرين والجنه الاسرائيليين لا تستند إلى شىء سوى إلى الكبر والتعصب.

وبالنظر لما ذكرناه سابقاً نقف على عمق كلام الإمام عليه السلام فى إظهاره لكلّ هذا القلق من النتائج الوخيمه للكبر والعصبيّه، وفى ذلك ورد عن النّبى صلى الله عليه و آله:

«مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ حَبَّةٌ مِنْ خَزْدَلٍ مِنْ عَصَبِيَّةٍ، بَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ أَعْرَابِ الْجَاهِلِيَّةِ» (٢).

كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«مَنْ تَعَصَّبَ أَوْ تَعَصَّبَ لَهُ فَقَدْ خَلَعَ رَبْقَ الْإِيمَانِ» (٣).

ص: ٢٩٨

-
- ١- (١) . الكامل، لابن الأثير، ج ١، ص ٥٨٨ و ٥٨٩.
 - ٢- (٢) منهاج البراعه، ج ١١، ص ٣٠٩.
 - ٣- (٣) المصدر السابق.

فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الْأُمَّمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَصَوْلَاتِهِ، وَقَائِعِهِ وَمَثَلَاتِهِ، وَاتَّعِظُوا بِمَثَاوِي خُدُودِهِمْ، وَمَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ، وَاسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ لَوَاقِحِ الْكِبْرِ، كَمَا تَسْتَعِيدُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ.

فَلَوْ رَخَّصَ اللَّهُ فِي الْكِبْرِ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ لِخَاصِّهِ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ؛ وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرِهَ إِلَيْهِمُ التَّكَاثُرَ، وَرَضِيَ لَهُمُ التَّوَاضِعَ، فَأَلَصَّ قُومًا بِالْأَرْضِ خُدُودَهُمْ، وَعَفَّرُوا فِي التُّرَابِ وُجُوهَهُمْ. وَخَفَضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَكَانُوا قَوْمًا مُسْتَضْعَفِينَ. قَدْ اخْتَبَرَهُمُ اللَّهُ بِالمَخْمَصَةِ، وَابْتَلَاهُمُ بِالمَجْهَدَةِ، وَامْتَحَنَهُمُ بِالمَخَاوِفِ، وَمَخَضَهُمْ بِالمَكَارِهِ. فَلَا تَعْتَبِرُوا الرِّضَى وَالسُّخْطَ بِالمَالِ وَالوَلَدِ جَهْلًا بِمَوَاقِعِ الفِتْنَةِ، وَالاخْتِبَارِ فِي مَوْضِعِ الغِنَى وَالِاقتِدَارِ، فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

(أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ). فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ بِأَوْلِيَائِهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَعْيُنِهِمْ.

الشرح والتفسير: آفة التكبر

لما فرغ الإمام عليه السلام من تحذيراته في المقطع السابق من هذه الخطبة من تبعية المستكبرين والعصاه المتعصيين، أخذ في هذا الجانب من الخطبة بيد مخاطبيه ليغوص بهم في أعماق التاريخ ويوقفهم على مصير الأمم المستكبره وأئمة الكبر

والغرور فى التاريخ القديم فقال:

«فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الْأُمَّمَ الْمُشْتَكِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَصَوْلَاتِهِ، (١) وَوَقَائِعِهِ وَمَثَلَاتِهِ (٢)».

فقد عرض لنا القرآن الكريم كيف كانت عاقبه الطغاه سبيته ومصيرهم أسود كفرعون وجنوده حيث هلكوا غرقاً فى أمواج البحر وكانت أجسامهم طعمه لحيثان البحار، وطغاه مع أقوامهم هلكوا تحت الزلازل الشديده ومنهم من أمطروا بالحجاره أو خسف بهم الأرض ومنهم من قلب الله بهم مدنهم فجعل عاليها سافلها كقوم لوط، وطائفه أخذهم بالطوفان والعواصف التى جعلتهم كأعجاز النخل الخاويه كقوم عاد، بينما أخذ البعض الآخر بالصاعقه ليحيلهم أجساداً خاويه بطرفه عين كما قال تعالى فى محكم كتابه العزيز: «فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (٣).

ثم قال عليه السلام:

«وَاتَّعِظُوا بِمَثَاوِي (٤) خُدُودِهِمْ، وَمَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ، (٥) وَاسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ لَوَاقِحِ الْكِبَرِ، (٦) كَمَا تَسْتَعِيدُونَ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ».

يبدو أنّ الوصايا الثلاث التى ذكرها الإمام عليه السلام:

«اعتبروا» و «اتَّعِظُوا» و «اسْتَعِيدُوا» إشاره إلى المراحل الثلاث التى تنتظر الإنسان اليقظ فى مسيرته نحو الحقّ حين تأمله لسيره الماضين: وأهمها مصير الأمم السابقيه بما كانت تمتلكه من نعم وما كانت عليه من عزه وقدره ثم الت إلى الزوال أثر الكبر والغرور، لكى يتعلم الدروس والعبر من تاريخ حياتهم ومماتهم فيستعيد بالله فى خاتمه المطاف حتى لا

ص: ٣٠٠

١- (١) «صولات» جمع «صول» على وزن «قول» بمعنى التسلط والغلبه.

٢- (٢) «مثالات» جمع «مثله» على وزن «عضله» بمعنى العقوبه ومن ذلك العذاب الذى نزل على الأمم السابقيه والذى اصبح يضرب به المثل.

٣- (٣) سوره العنكبوت، الآيه ٤٠.

٤- (٤) . «مساوى» جمع «مساوى» من ماده «ثواء» بمعنى الإقامه فى موضع، وعليه فالمساوى بمعنى المنزل والمكان.

٥- (٥) «جنوب» جمع «جنب» على وزن «جمع» بمعنى الجبهه والجانب.

٦- (٦) «لواقح» جمع «لاقح» من ماده «لقاح» تشير فى العبارة إلى عوامل ظهور الكبر والغرور.

يُصاب بالكبر والغرور.

وتشير العبارة

«كَمَا تَشِيءُ تَعِيدُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ» إلى آثار الكبر المشؤومة والتي تعد من الحوادث المريرة التي لا تقل عن الزلازل والعواصف والحوادث الطبيعية المفجعة الأخرى.

ثم طرق هذا المعلم الرباني العظيم سبيلاً آخر بغية خلق النفرة في قلوبهم إزاء الكبر والغرور فقال عليه السلام:

«فَلَمَّا رَخَّصَ اللَّهُ فِي الْكِبْرِ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ لِخَاصِّهِ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَّائِهِ؛ وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرَّهَ إِلَيْهِمُ التَّكَابُرَ، وَرَضِيَ لَهُمُ التَّوَاضُعَ، فَأَلْصَقُوا بِالْأَرْضِ خُدُودَهُمْ، وَعَفَّرُوا (١) فِي التُّرَابِ وَجُوهَهُمْ. وَخَفَّضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَكَانُوا قَوْمًا مُسْتَضْعَفِينَ».

لعل بعض المتكبرين يعتقدون أنّ التكبر يكشف عن الشخصيه وأنها بالتالي نعمه من نعم الله تعالى، فالإمام عليه السلام يشير إلى أنّ هذا العمل لو كان نعمه وكرامه لأنعم به تعالى على أنبيائه وأوليائه قبل كلّ شخص آخر؛ بينما نرى القضية معكوسه تماماً حيث كرهة تعالى إليهم الكبر والغرور، والتواضع بمثابة تاج وضع على رؤوسهم، وعلى هذا الأساس عاشوا الخضوع لله تعالى فكانوا يعفرون وجوههم بالتراب، كما عاشوا البساطه والتواضع للمؤمنين.

والعبارة:

«وَخَفَّضُوا أَجْنِحَتَهُمْ» كناية لطيفه عن التواضع، لأنّ الطيور حين تريد أن تحنو على فراخها تضمها تحت أجنحتها بعد أن تفتحها لها.

والعبارة:

«وَكَانُوا قَوْمًا مُسْتَضْعَفِينَ» لا تفيد هنا معنى الضعف والعجز، بل تعني أنّهم كانوا لا يتكبرون على أبناء مجتمعهم فهم عباد بسطاء وأنهم يشاطرون الآخرين حياتهم.

ثم هم الإمام عليه السلام برفع الخطأ واللبس الذي شاب بعض المستكبرين الذين اعتقدوا بأنّ المال والأولاد علامات على القرب من الله تعالى، فخاض في بعض

ص: ٣٠١

١- (١). «عفروا» من ماده «عفر» بمعنى التمرغ بالتراب.

التفاصيل من سيره وحياه خاصه أولياء الله وأنبيائه وما تعرضوا له من امتحانات واختبارات بعبارات فصيحاه وبلغه ليركز على أربعة أنواع من الاختبارات فقال:

«قَدْ اخْتَبَرَهُمُ اللَّهُ بِالْمَحْمَصَةِ (١)، وَابْتَلَاهُمْ بِالْمَجْهَدَةِ (٢)، وَامْتَحَنَهُمْ بِالْمَخَافِ، وَمَخَضَهُمْ (٣) بِالْمَكَارِهِ».

فطرق الله تعالى الامتحانيه لا تحصي، فأحياناً بالنعمة وكذلك بالنقمه، وتاره بالمرض والسقم وأخرى بالصحه والعافيه وثالثه بالعزّه وأخرى بسلبها؛ لكن يمكن تقسيم هذه الاختبارات إلى أقسام متعدده؛ الضيق في المعيشه والجوع والعطش، الحوادث الشاقه والأليمه من قبيل المصائب التي تحملها المسلمون الأوائل في شعب أبي طالب حتى مختلف الغزوات وحاله اللأمن التي كان يفرضها عليهم خصوم الدعوه، إلى جانب الأمراض والمعاناه التي سادت حياه جميع أنبياء الله، إنّما تعدّ دليلاً على هذه الامتحانات ومن ذلك حياه موسى بن عمران عليه السلام منذ ولادته حتى لجوئه إلى بيت النبي شعيب عليه السلام، وحين انبرى لدعوه الفراعنه وما أعقبها من حوادث أليمه والمصائب التي عاشها في بني اسرائيل، وكذلك مختلف المراحل التي شهدتها نبي الله إبراهيم عليه السلام في حياته من بابل حتى أرض مصر ثم مكه ولا سيما سيره النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله والغنيه عن التوضيح، كلّها شواهد حيه على هذا الأمر.

ثم خاض عليه السلام في دفع خطأ مهم بعد ذكره لهذه المقدمه والذي أصيب به العديد من الناس في الماضي والحاضر والذي يتمثل في ظنهم بأنّ كثرة الأموال والأولاد دليل على التوفيق والسعاده والقرب من الله تبارك وتعالى فقال عليه السلام:

«فَلَا تَعْتَبِرُوا

ص: ٣٠٢

١- (١). «مخمصه» بمعنى الجوع وخلو البطن من الطعام، ومن ماده «خمص» على وزن «لمس» بمعنى الجوع الشديد الذي يدعو إلى خسف البطن.

٢- (٢) «مجهده» مصدر ميمي بمعنى المشقّه من «جهد» على وزن «مهد» و «جهد» على وزن «كفر» بمعنى التعب الناتج من السعي والحركه.

٣- (٣) «مخض» من ماده «مخض» على وزن «خفض» تعنى في الأصل، تحريك اللبن ليخرج زبده، ثم أُطلقت على كل حركه شديده وشاقه.

الرَّضَى وَالسُّخْطَ بِالْمَالِ وَالْوَلَدِ جَهْلًا بِمَوَاقِعِ الْفِتْنَةِ، وَالْإِخْتِبَارِ فِي مَوْضِعِ الْغِنَى وَالْإِقْتِدَارِ».

ثم استدل عليه السلام بآيه قرآنيته أشارت صراحة إلى هذا الأمر فقال:

«فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (١)»».

ثم خالص من الآية الشريفه إلى هذه النتيجة فقال:

«فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ الْمُشْتَكِبِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ بِأَوْلِيَائِهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَعْيُنِهِمْ».

فالعباره

«فِي أَنْفُسِهِمْ» بشأن المستكبرين إشاره إلى أنهم ليسوا على شيء من الفضيله، بل هم عباد ضعاف وعاجزون يرون أنفسهم كباراً.

والعباره

«فِي أَعْيُنِهِمْ» (استناداً لعوده الضمير للمستكبرين) تشير إلى أن عباد الله ليسوا ضعافاً وعاجزين قط، بل المستكبرون يظنونهم مستضعفين بفعل زهدهم وورعهم وتقواهم وطاعتهم لأوامر الله، ومن هنا يتضح اختلاف مفردة المستضعف هنا مع ما وردت في العباره السابقه حيث قال عليه السلام الأنبياء مستضعفون إشاره إلى تواضعهم ووزهدهم وبساطه حياتهم، وقوله أولياء الله المستضعفين في عين المستكبرين إشاره إلى الضعف والعجز والذلة التي يظنونها.

تأمل

تصحيح خطأ

أشارت العديد من الآيات القرآنيته إلى هذا الموضوع حيث إنه كان في الأقسام السابقه بعض الأفراد الذين يعتقدون بأن كثره الاموال والأولاد دليل على القرب من الله تعالى، وقد دفع بهم هذا التصور الخاطئ لأن يعتقدوا لأنفسهم ببعض المقامات المعنويّه بموازاه تلك الإمكانيات الماديّه الضخمه ليوردوا هذا الأمر بصيغه مغالطه

ص: ٣٠٣

فیزعموا أنّ هذه نعم الله فمن شمله الله بهذه النعم فقد أحبه، ومن أحبه الله كان مقرباً منه، وعلى هذا الأساس كانوا ينظرون باستخفاف إلى المؤمنين على المستوى المادى والمعنوى.

وقد غفلوا عن أنّ إفاضه الإمكانيات الماديّة إنّما يستند إلى عده عوامل، فقد تكون نعمه من نعم الله، كما قد تكون للامتحان والاختبار أو الاستدراج للعذاب، أى أنّ الله سبحانه وتعالى إنّما يتابع نعمه على بعض الأفراد الذين لا يمكن إصلاحهم فيسلبها تعالى منهم بغته ليكون ذلك أشد وقعاً على قلوبهم وأكثر إيلاًماً. والقضية أشبه بالضبط بذلك المعتدى الذى يتسلق شجره ثم يأخذ بالتسلق شيئاً فشيئاً حتى يسقط فجأه فتتطم جميع عظامه.

ص: ٣٠٤

وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَىٰ بُنَىٰ عِمْرَانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونَ (عليهما السلام) عَلَىٰ فِرْعَوْنَ، وَعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ الصُّوفِ، وَبِأَيْدِيهِمَا الْعِصِيُّ، فَشَرَطَا لَهُ إِنْ أَسْلَمَ بَقَاءَ مُلْكِهِ، وَدَوَامَ عِزِّهِ؛ فَقَالَ:

«أَلَمْ تَعْجَبُونَ مِنْ هَذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ الْعِزِّ، وَبَقَاءَ الْمُلْكِ؛ وَهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ الْفَقْرِ وَالذُّلِّ، فَهَلَّا أُلْقِيَ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ؟» إِعْظَامًا لِلذَّهَبِ وَجَمْعِهِ، وَاحْتِقَارًا لِلصُّوفِ وَبُئْسَهُ! وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِأُنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الدُّهْبَانِ، وَمَعَادِنَ الْعُقَيْانِ، وَمَعَارِسَ الْجِنَانِ، وَأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّمَاءِ وَوُحُوشَ الْأَرْضِ بَيْنَ لَفْعَلٍ، وَلَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلَاءُ، وَبَطَلَ الْجَزَاءُ، وَاضْمَحَلَّتِ الْأَنْبَاءُ، وَلَمَّا وَجَبَ لِلْقَائِلِينَ أَجُورُ الْمُبْتَلِينَ، وَلَا اسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ، وَلَا لَزِمَتِ الْأَسْمَاءُ مَعَانِيهَا. وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أَوْلَىٰ قُوَّهِ فِي عَزَائِمِهِمْ، وَضَعَفَهُ فِيمَا تَرَى الْأَعْيُنُ مِنْ حَالَاتِهِمْ، مَعَ قَنَاعِهِ تَمَلُّ الْقُلُوبِ وَالْعُيُونَ غِنَىٰ، وَخِصَاصَهُ تَمَلُّ الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ أَدَىٰ.

الشرح والتفسير: درس وعبره في قصة موسى عليه السلام

تابع الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه من خلال طريق آخر ينطوي على الدروس والعبر ذم الكبر والغرور والعصبيه التي تشكل المحور الأصلي لهذه الخطبه، فأشار إلى قصه موسى بن عمران عليه السلام حين دخل مع أخيه هارون على

فرعون وكانا يرتديان تلك الثياب البسيطة فتعرضا إثر ذلك لاستخفاف فرعون المتكبر فقال عليه السلام:

«وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَىٰ بَنُ عِمْرَانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ، وَعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ (١) الصُّوفِ، وبِأَيْدِيهِمَا الْعِصِيُّ، (٢) فَشَرَطَا لَهُ إِنْ أَسْلَمَ بَقَاءَ مُلْكِهِ، وَدَوَامَ عِزِّهِ».

فقد دخل موسى وهارون عليهما السلام بذلك اللباس البسيط وعصا الرعى على فرعون ليحطما كبريائه وطغيانه ويبينا له ولحاشيته أنّ العزّه ليست في الأموال والكنوز وكثره الخدم ليعلنا نهايه ذلك النوع من العيش وانطلاقه العهد الجديد في الحكومه الإلهيه بواسطه المستضعفين.

ثم واصل عليه السلام حديثه فتطرق إلى ردود الفعل التي ابداهها فرعون إزاء دعوه موسى وهارون فقال عليه السلام:

«فَقَالَ: «أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ هَذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ الْعِزِّ، وَبَقَاءَ الْمُلْكِ؛ وَهَمَيَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ الْفَقْرِ وَالذُّلِّ، فَهَلَّا أُلْقِيَ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَةٌ (٣) مِنْ ذَهَبٍ؟ إِعْظَامًا لِلذَّهَبِ وَجَمْعِهِ، وَاخْتِقَارًا لِلصُّوفِ وَلُبْسِهِ!».

نعم! فالنظام المادى للجهاز الفرعونى يدور حول هذا المحور فى أنّ من كانت إمكاناته فى الذهب والجواهر أكثر كانت شخصيته أسمى، وثياب الصوف البسيطة إنّما هى لباس الشخصيات الوضيعه فى المجتمع؛ أى لم يكن هنالك أى دور للقيم الإنسانيه فى بيان شخصيه الإنسان فى ظلّ ذلك النظام، والقيم الاعتباريه والخياليه هى التى تحدد معيار الشخصيه.

وقد تعرض الإمام عليه السلام لشرح هذه الحقيقه بعبارات غايه فى الروعه والبيان والتى لم تكن لها آنذاك قيمه واقعيه بينما كان يحسبها كذلك فرعون وحاشيته فقال:

«وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الذُّهَبَانِ (٤)، وَمَعَادِنَ

ص: ٣٠٤

١- (١). «مدارع» جمع «مدرع» على وزن «منبر» بمعنى الجبهه.

٢- (٢) «عصيّ» جمع «عصا».

٣- (٣). «أساوره» و «أساور» جمع «أسوره» وجمع «سوار»، على وزن «غبار» أو «سوار» على وزن «كتاب» وهى فى الأصل كلمه فارسىه (دستور) بمعنى السوار الذى يوضع فى اليد للزينه.

٤- (٤). «ذهبان» جمع «ذهب» معروف.

العُقَيَانِ (١)، وَمَغَارِسَ (٢) الْجِنَانِ، وَأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّمَاءِ وَوُحُوشَ الْأَرْضِ بَيْنَ لَفْعَلٍ، وَلَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلَاءُ، وَبَطَلَ الْجَزَاءُ، وَاضْمَحَلَّتِ الْأَنْبَاءُ، وَلَمَّا وَجَبَ لِلْقَائِلِينَ أَجُورَ الْمُتَّبِلِينَ، وَلَا اسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ، وَلَا لَزِمَتِ الْأَسْمَاءُ مَعَانِيهَا».

إشاره إلى أنّ الحكيم تبارك وتعالى يستطيع أن يمد أنبياءه بجميع أسباب القوّه ويزينهم بمختلف صنوف الذهب والمجوهرات والثروات ويغدق عليهم القصور ووسائل الراحة، بل يجعل أنبياءه أغنى الملوك والسلطين - لأنّه خالق السماوات والأرض ومالك كلّ شيء - لكنه حكيم فإن فعل ذلك سيزول الهدف الأصلي لبعث الأنبياء والدعوه إلى الله تعالى، بل ستكون النتيجة معكوسه وتتحول القيم والمثل إلى ما يضادها ويفسد الإيمان وتسوء الأخلاق والتربيه.

ولذلك خاض الإمام عليه السلام فى تفاصيل ست مفاصد فى بيان الآثار السيئه لمثل هذا الأمر وهى:

١. انعدام معطيات الامتحان الإلهى للعباد فى ظلّ هذه الظروف، ذلك لأنّ الأفراد غير المؤمنين وبسبب ما عليه الأنبياء من إمكانات وزينه سيندفعون إليهم دون الاقتناع بمنهجهم ودعوتهم.

٢. زوال ثواب المحسنين، ذلك لأنّ إيمانهم لا يكون خالصاً فى ظلّ تلك الشرائط.

٣. لا- يعدّ الوعد الإلهى وأخبار الوحي بشأن الحلال والحرام دافعاً لطاعه الناس، بل الدوافع الماديّه هى التى تحركهم، كما أنّ سيرتهم سوف لن تعدّ أسوه ونموذجاً للعباد.

ص: ٣٠٧

١- (١). «عقيان» مفردّه وهو نوع من الذهب الخالص.

٢- (٢) «مغارس» جمع «مغرس» يعنى محلّ غرس الأشجار.

٤. سوف لن يحصل المؤمنون بالأنبياء على الأجر الجزيل الذى يناله المجاهدون فى سبيل الله.

٥. لا يستحق المؤمنون المخلصون ثواب المحسنين ذلك لأنهم لم يتحملوا عناءً.

٦. بعض الصفات المقدّسه والأسماء من قبيل المؤمن والصالح والمجاهد والمخلص سوف تفقد مصاديقها الواقعيه كما ستفقد بعض الصفات التى تنسب إلى الأنبياء من قبيل الزهد والورع والتقوى وعدم التعلق بالدنيا مفهومها ومعناها.

ثم قال الإمام عليه السلام فى توضيحه لهذا المعنى:

«ولكنَّ الله سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولَى قُوَّةٍ فِي عَزَائِمِهِمْ، وَضَعَفَهُ فِيمَا تَرَى الْأَعْيُنُ مِنْ حَالَاتِهِمْ، مَعَ قَنَاعِهِ تَمَلُّا الْقُلُوبِ وَالْعُيُونَ غِيًّا، وَخَصَّاصَهُ (١) تَمَلُّا الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ أَدْيًّا».

فالواقع إنهم كانوا رجالاً أشداء باستطاعتهم اقتناء الذهب والمجوهرات ووسائل الزينه، إلّا أنهم جعلوا كل أسباب الترف ومباهج الدنيا التى تعدّ مصدراً للكبر والغرور والفخر والعجب والأنانيه وراء ظهورهم، وجعلوا الهدف الرسالى أمام عيونهم.

ص: ٣٠٨

١- (١) «خصاصه» من «خصاص» على وزن «أساس» تعنى فى الأصل الشق الذى يظهر فى جدار البيت ثم اطلق على الفقر والحاجه التى توجب الشده فى العيش.

وَلَوْ كَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لَاتْرَامُ، وَعِزَّهُ لِاتِّصَامٍ، وَمُلْكُ تَمِيدٍ نَحْوَهُ أَعْنَاقُ الرَّجَالِ، وَتَشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ الرَّحَالِ، لَكَانَ ذَلِكَ أَهْوَنَ عَلَى الْخَلْقِ فِي الْإِعْتِبَارِ، وَأَبْعَدَ لَهُمْ فِي الْإِسْتِكْبَارِ، وَلَا مَنُوا عَنْ رَهْبِهِ قَاهِرِهِ لَهُمْ، أَوْ رَغْبِهِ مَائِلِهِ بِهِمْ، فَكَانَتِ النَّيِّاتُ مُشْتَرِكَةً، وَالْحَسِنَاتُ مُقْتَسِمَةً. وَلَكِنَّ اللَّهَ سَبِّحَانَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الْإِتْيَاعُ لِرُسُلِهِ، وَالتَّصَدُّقُ بِكُتُبِهِ، وَالْخُشُوعُ لَوَجْهِهِ، وَالْإِسْتِكَانَةُ لِأَمْرِهِ، وَالْإِسْتِسْلَامُ لِطَاعَتِهِ، أُمُورًا لَهُ خَاصَّةً لِاتِّشَابِهَا مِنْ غَيْرِهَا شَائِبَةٌ. وَكَلَّمَا كَانَتِ الْبُلُوبُ وَالْإِخْتِبَارُ أَعْظَمَ كَانَتِ الْمَثُوبَةُ وَالْجَزَاءُ أَجْزَلَ.

الشرح والتفسير: زهد الأنبياء

أشار الإمام عليه السلام في القسم السابق من الخطبه بوضوح إلى الحياه المتواضعه للأنبياء ومنهم موسى بن عمران عليه السلام، ثم واصل كلامه في هذا الجانب من الخطبه لبيان الآثار المعنويّه والتربويّه للبساطه والتواضع فقال:

«وَلَوْ كَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لَاتْرَامُ(١) ، وَعِزَّهُ لِاتِّصَامٍ(٢) ، وَمُلْكُ تَمِيدٍ نَحْوَهُ أَعْنَاقُ الرَّجَالِ، وَتَشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ(٣) الرَّحَالِ(٤) ، لَكَانَ ذَلِكَ أَهْوَنَ عَلَى الْخَلْقِ فِي الْإِعْتِبَارِ، وَأَبْعَدَ لَهُمْ فِي الْإِسْتِكْبَارِ،

ص: ٣٠٩

١- (١). «ترام» من ماده «روم» على وزن «قوم» تعنى الطلب.

٢- (٢) «تصام» من ماده «ضيم» بمعنى الذله.

٣- (٣) «عقد» جمع «عقده».

٤- (٤). «رحال» جمع «رحل» ما يوضع على ظهر البعير ويجلس عليه و«شد الرحال» تعنى الاستعداد للسفر أو السفر.

وَلَا تُنَوُّوا عَنْ رَهْبِهِ قَاهِرَهُ لَهُمْ، أَوْ رَغْبَهُ مَائِلَهُ بِهِمْ، فَكَانَتْ النَّيِّاتُ مُشْتَرَكَةً، وَالْحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةً».

نعم، فالمحور الأصلي الذي حظى باهتمام الأنبياء هو الإخلاص وطهاره التيه، والحق أن الأنبياء عليهم السلام لو كانوا ذوى قوه قاهره وملكوا كنوز الأرض وعاشوا حياتهم فى القصور مترفين كالسلاطين لما اعتبر بهم الناس، وإذا آمن بهم البعض فإما عن خوف من سلطانهم، وإما عن طمع فى ملكهم، حيث

«النَّاسُ عَبِيدُ الدِّنْيَا».

ثم قال عليه السلام مؤكدا هذا الكلام:

«وَلَكِنَّ اللَّهَ سَبِّحَانَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الْإِتِّبَاعَ لِرُسُلِهِ، وَالتَّصْدِيقَ بِكُتُبِهِ، وَالخُشُوعَ لَوَجْهِهِ، وَالِاسْتِكَانَةَ (١) لِأَمْرِهِ، وَالِاسْتِشْلَامَ لِطَاعَتِهِ، أُمُورًا لَهُ خَاصَّةً لَاتَشُوبُهَا (٢) مِنْ غَيْرِهَا شَائِبَةٌ».

فقد أشار الإمام عليه السلام فى الواقع إلى خمسة أشياء ينبغى أن تتم جميعها على أساس الإخلاص فى التيه وهى: ١. قبول دعوه الأنبياء، ٢. التصديق بالكتب السماويه، ٣. الخشوع العملى للذات الإلهيه القدسيه، ٤. التسليم القلبي لأوامر الله، ٥. التسليم العملى وإمتثال الأوامر، وعلى هذا الأساس ينبغى أن ينطلق الإيمان والعمل والأخلاق من قاعده الإخلاص؛ فقد قال تعالى فى القرآن الكريم: «أَلَا اللَّهُ الدِّينُ الْخَالِصُ» (٣) وقال تعالى فى موضع آخر: «وَمَا أُمُورُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» (٤).

ثم أشار عليه السلام فى مواصلته لكلامه إلى هذه النتيجة فقال:

«وَكُلَّمَا كَانَتْ الْبُلُوبَى وَالِاخْتِبَارُ أَعْظَمَ كَانَتْ الْمَثُوبَةُ وَالْجَزَاءُ أَجْزَلَ».

ص: ٣١٠

١- (١). «استكانه» تعنى الخضوع.

٢- (٢) «تشوب» من «شوب» على وزن «شوق» تعنى الخدعه وخلط شىء مع آخر للخداع.

٣- (٣). سوره الزمر، الآيه ٣.

٤- (٤) سوره البينه، الآيه ٥.

إشاره إلى أنّ بساطه حياه الأنبياء وانصرافهم عن زخارف الدنيا وزبرجها جعل المؤمنين إزاء امتحان أشدّ صعوبه، وبالطبع كلّ ما كان الامتحان أشق وأصعب كان الأجر والثواب أعظم وأبلغ وهذا فى الواقع درس عظيم فى الإخلاص لجميع الأفراد الذين يسعون إلى السير على خط الأنبياء حيث ينبغى أن يسيروا على نفس النهج ليستطيعوا إعداد الأتباع المخلصين.

ص: ٣١١

أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ، سُبْحَانَهُ، اخْتَبَرَ الْأُولِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، إِلَى الْآخِرِينَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ؛ بِأَحْجَارٍ لَاتَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ.

فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ «الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِيَامًا». ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بَقَاعِ الْأَرْضِ حَجْرًا، وَأَقْلَّ نَتَائِقِ الدُّنْيَا مِيدْرًا، وَأَضْيَقِ بُطُونِ الْأُودِيَةِ قُطْرًا. بَيْنَ جِبَالِ خَشِيشَتِهِ، وَرِمَالِ دَمْتِهِ، وَعُيُونِ وَشَلِّهِ، وَقُرَى مُنْقَطَعِهِ؛ لَأَيِّزُ كُوبَهَا خُفًّا، وَلَمَّا حَافِرٌ وَلَا ظَلْفٌ. ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَوَلَدَهُ أَنْ يَتَنَوَّأُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ، فَصَارَ مَنَابَهُ لِمُنْتَجِعِ أَسْفَارِهِمْ، وَغَايَهُ لِمُلْقَى رِحَالِهِمْ. تَهْوَى إِلَيْهِ ثِمَارُ الْأَفْنَدِهِ مِنْ مَفَاوِزِ قِفَارِ سَحِيقِهِ وَمَهَاوِي فِجَاجِ عَمِيقِهِ، وَجَزَائِرِ بَحَارِ مُنْقَطَعِهِ، حَتَّى يَهْزُوا مَنَاكِبَهُمْ ذُلًّا يَهْلُلُونَ لِلَّهِ حَوْلَهُ، وَيَزْمُلُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ شُغْنًا غُبْرًا لَهُ. قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَشَوْهُوا بِأَعْضَاءِ الشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمْ، ابْتِلَاءً عَظِيمًا، وَامْتِحَانًا شَدِيدًا، وَاخْتِبَارًا مُبِينًا، وَتَمَحِصًا بَلِيغًا، جَعَلَهُ اللَّهُ سَبَبًا لِرَحْمَتِهِ، وَوُضَلَّهُ إِلَى جَنَّتِهِ.

الشرح والتفسير: الدروس والعبر في بيت الله

سلك الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه سبيلًا آخر لمتابعه الغايه الأصلية التي تتمثل في القضاء على التكبر والدعوه للبطاطه والتواضع ليشرحه بعبارات غايه في الروعه والجمال والبلاغه بحيث عجز البلغاء والفصحاء أن يأتوا بمثلها فقال:

«أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ، سُبْحَانَهُ، اخْتَبَرَ الْأُولِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، إِلَى الْآخِرِينَ مِنْ

هَذَا الْعَالَمِ؛ بِأَحْجَارٍ لَا تُضُرُّ وَلَا تُنْفَعُ، وَلَا تُبْصَرُ وَلَا تَسْمَعُ. فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ «الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِيَامًا».

فالذى يستفاد من هذه العبارة أنّ الكعبة التى هى أقدم معبد فى العالم قد بنيت لأول مرّه فى زمن آدم عليه السلام (ثم جدد بناؤها على عهد إبراهيم الخليل عليه السلام) كما يفهم أنّ بساطتها ومواد بنائها البدائيه تهدف إلى عدم لفت انتباه الآخرين إلى جانبها وبعدها المادى، بل الاستغراق فى أبعادها المعنويّه حيث بين عليه السلام: أنّ الكعبة تحظى بمركزيه يتوجه إليها الجميع ليأتوا كلّ سنه لأداء شعائر الحجّ ومناسكه بما يؤدى إلى تنامى شوكة المسلمين وقوتهم وعزّتهم ووحدهم وسمّوهم وعلوّ شأنهم ومبادئهم فى مختلف الاتجاهات.

فالعباره الوارده فى كلام الإمام عليه السلام اقتباس من الآيه الشريفه: ٩٧ من سوره المائده التى تقول: «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ».

وقد ورد

«القيام» هنا كمصدر بمعنى اسم الفاعل أى تقويم حياه الناس من الناحيه الماديه والمعنويّه، على غرار الدعائم القويه التى يقوم عليها البيت والخيمه.

فبيت الله هو رمز الوحده وقوه المسلمين ورفعتهم وعظمتهم من جانب ومن جانب آخر فإنّه ينطوى على المناسك التى تطهر القلب من دنس المعصيه وتفيض عليه نور الهدى وتغمره بالرحمه الإلهيه.

ولما فرغ الإمام عليه السلام من ذكر بساطه الكعبه، عرج على التعرض لخصائص الأرض التى تضم البيت وهى مكه فقال:

«ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرَ (١) بَقَاعِ الْأَرْضِ حَجْرًا، وَأَقَلَّ نَتَائِقَ (٢) الدُّنْيَا مَدْرًا (٣). وَأَضْيَقَ بُطُونِ الْأُودِيَةِ قَطْرًا (٤). بَيْنَ جِبَالِ حَشِينِهِ، وَرِمَالِ

ص: ٣١٤

١- (١). «أوعر» من «وعر» على وزن «قعر» تعنى الأرض الوعره والشديده.

٢- (٢). «نتائق» جمع «نتيقه» بمعنى البقاع المرتفعه من ماده «نتق»، على وزن «فتق» بمعنى الحفر والارتفاع.

٣- (٣) «مدر» بمعنى الطين اليابس.

٤- (٤) «قطر» بمعنى البلد والمنطقه.

دَمْتَهُ (١) ، وَعُيُونٌ وَشَلَهُ (٢) ، وَقَرَى مُنْقَطِعَهُ؛ لَأَيِّزُ كَو (٣) بِهَا خُفٌّ (٤) ، وَلَا حَافِرٌ (٥) وَلَا ظَلْفٌ (٦)».

فقد كشف الإمام عليه السلام بهذه الصفات الثمان لأرض مكة عن محروميه هذه الأرض من مختلف الجهات؛ فقد تحدّث بادئ الأمر عن وعورتها وصعوبتها بحيث يرى كلّ من تشرف بها أنّ بيت الله واقع في وادٍ ضيق بين الجبال الشامخه والقاحله والتي يصعب تسلقها، حتى استطاعوا اليوم حفر العديد من الأنفاق والمنعطفات لشقّ الشوارع التي يمكنها اختراق تلك الجبال بغيه مرور الناس عليها.

ثم أشار عليه السلام إلى قله التربه الصالحه للزراعه؛ والحقّ أن كذلك، حيث يضطرون اليوم لحمل التربه من المناطق القريبه والنائيه إليها بغيه غرس بعض الأشجار، ثم تطرق عليه السلام إلى ضيق وديانها، فنحن نعلم أنّ الوديان الواسعه التي تضم الأراضي الزراعيه الصالحه للزراعه تعدّ من أفضل البقاع لمعيشه الإنسان، والعديد من المدن الكبيره إنّما تقع في مثل هذه الوديان، بينما تتعذر الحياه والعيش بأى شكل من الأشكال في الوديان الضيقه.

ثم أشار عليه السلام إلى جبال مكة الوعره التي قلما ينمو فيها نبات والرمال الناعمه التي يصعب السير عليها، وتنقلها الرياح من مكان إلى آخر وعيونها قليله المياه، والمناطق المعموره المتفرقه على تلك الصحارى الجرداء والتي تتوسطها، ليتطرق بالتالى إلى عدم صلاحية تلك الأرض لتربيه الحيوانات الأليفه كالجمال والبقر والشاه. حقاً لولم يكن بيت الله وسط تلك الجبال فإنّ أحداً سوف لن يفكر أن تكون مكة موضع سكناه إلّا أنّ الله تبارك وتعالى اختار هذه المنطقه كأفضل موضع للعباده

ص: ٣١٥

١- (١) «دمته» من ماده «دماثه» بمعنى اللينه.

٢- (٢) «وشله» بمعنى قليل الماء من «وشل» على وزن «حشر».

٣- (٣) «يزكو» من «زكاه» بمعنى النمو.

٤- (٤) «خف» تعنى فى الأصل النعل وهى هنا كناية عن الدابه لأنّ أسفل قدمها كالحذاء.

٥- (٥) «حافر» من الحفر وتعنى قدم الفرس.

٦- (٦) «ظلف» كناية عن البقر والغنم.

ودعى المستطيعين كافة إلى التوجه إليها للإتيان بمناسك الحج بهدف تهذيب النفوس والقضاء على آثار الكبر والغرور.

وهذه هي الحقيقة التي أذعن لها خليل الله إبراهيم عليه السلام الذي أمر بإعادة بناء الكعبة حيث قال: «رَبَّنَا إِنِّي أَسِيَكْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ» (١).

وحين فرغ الإمام عليه السلام من ذكر موضع البيت وخصائص أرض مكة، تطرق إلى شعيرة الحج وزيارته بيت الله الحرام الذي بدأ منذ خلق آدم وسيستمر حتى نهايه الخليقه فقال:

«ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَوَلَدَهُ أَنْ يَتَنَوَّأُوا (٢) أَعْطَاهُمْ (٣) نَحْوَهُ، فَصَيَّرَ مَثَابَهُ (٤) لِمُنْتَجِعِ (٥) أَسْفَارِهِمْ، وَغَايَهُ لِمُلْقَى رِحَالِهِمْ (٦). تَهَوَّى إِلَيْهِ ثَمَارُ الْأَفْنَدِهِ مِنْ مَفَاوِزِ (٧) قِفَارِ (٨) سَحِيقِهِ (٩) وَمَهَاوِي (١٠) فَجَاجِ (١١) عَمِيقِهِ، وَجَزَائِرِ بَحَارِ مُنْقَطِعِهِ».

فهذه العبارات الرائعة للإمام عليه السلام اقتباس من الآيات القرآنية الشريفة، حيث اعتبر الإمام عليه السلام مكة بصفتها «مثابه» على غرار ما صرح به القرآن الكريم: «وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً» (١٢). كما عبّر عنها بالمنتجع (الموضع الذي يقصد لتحقيق المنافع) كما جاء في الآية القرآنية الشريفة: «لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ» (١٣). والعبارة

ص: ٣١٤

- ١- (١) سورة إبراهيم، الآية ٣٧.
- ٢- (٢). «يتنوا» من ماده «ثنى» بمعنى طوى الشيء، أو تقريب شيء من آخر.
- ٣- (٣) «اعطاف» جمع «عطف» على وزن «كتف» بمعنى كتف الانسان.
- ٤- (٤). «مثابه» مكان الرجوع «ثوب» على وزن «فوق» بمعنى العوده.
- ٥- (٥) «منتجع» يعنى محل الفائدة من «نجوع» بمعنى المنفع ولذلك يقال منتجع لمكان الراحة والمنتزه أيضاً.
- ٦- (٦) «ملقى رحالهم» يعنى محط رحالهم، من الأصل «إلقاء» و «رحال» جمع «رحل».
- ٧- (٧) «مفاوز» جمع «مفازه» بمعنى الصحراء.
- ٨- (٨) «قفار» جمع «قفر» بمعنى خلو المكان من السكن.
- ٩- (٩) «سحيقه» بمعنى البعيده من «سحق» على وزن «سقف» بمعنى التلين والتبعيد.
- ١٠- (١٠) «مهاوى» جمع «مهوى» منخفضات الأراضي من «هوى» على وزن «حلى» بضم «الحاء» وتشديد «الياء» بمعنى السقوط والوقوع.
- ١١- (١١) «فجاج» جمع «فج» بمعنى الطرق الواسعه بين الجبال من «فج» على وزن «حج» بمعنى فتح الساقين وتبعيدهما عن بعضهما.
- ١٢- (١٢). سورة البقره، الآية ١٢٥.
- ١٣- (١٣). سورة الحج، الآية ٢٨.

«تهوى إليه ثمار الأفتده» اقتباس من الآيه الشريفه: «فَجَعَلَ أَفْتِدَهُ مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ» (١).

وتنسجم العبارة

«من مفاوز قفار» مع الآيه الشريفه: «وَأَذُنٌ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ» (٢).

وهكذا تحدّث عن توجه مختلف الأقوام من مناطق العالم إلى مكة وأردفها بالإشارة إلى مناسك الحج والأعمال التي تختزن الدروس والعبر فقال:

«حَيْتِي يَهْزُوا (٣) مَنَّا كِبَهُمْ ذُلًّا يَهْلَسُونَ لِلَّهِ حَيْوَلَهُ، وَيَزْمَلُونَ (٤) عَلَى أَقْدَامِهِمْ شُعْتًا (٥) غُبْرًا (٦) لَهُمْ. قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ (٧) وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَشَوْهُوا (٨) بِإِعْفَاءِ (٩) الشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمْ».

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة القصيره إلى جانب من مناسك الحج من قبيل ارتداء ملابس الإحرام وترك ما يحرم على المحرم من الزينه، وكذلك الطواف حول البيت والسعى بين الصفا والمروه وفق آداب معينه ينطوي كلّ واحد منها على تعليمات تربويه من دروس الحج، والحقّ لا يسع الإنسان الوقوف على عمق تأثير هذه التعليمات ما لم يؤدّي الإنسان تلك المناسك ويطلع عن كتب على هذا المشروع التهذيبي. ثم قال عليه السلام في مواصلته لكلامه:

«إِبْتِلَاءٌ عَظِيمًا، وَامْتِحَانًا شَدِيدًا، وَاخْتِبَارًا مُبِينًا، وَتَمَحِيصًا بَلِيغًا، جَعَلَهُ اللَّهُ سَبَبًا لِرَحْمَتِهِ، وَوُضَلَّهُ إِلَى جَنَّتِهِ».

ص: ٣١٧

١- (١) سورة إبراهيم، الآيه ٣٧.

٢- (٢) سورة الحج، الآيه ٢٧.

٣- (٣). «يهزوا» من ماده «هزّ» على وزن «حظ» بمعنى التحريك.

٤- (٤) «يرملون» من ماده «رمل» على وزن «عمل» بمعنى الهرولة.

٥- (٥) «شعث» جمع «أشعث» بمعنى الشعر مع تلبد فيه.

٦- (٦) «غبر» جمع «اغبر»: من علا بدنه الغبار.

٧- (٧) «سرابيل» جمع «سربال»: الثياب.

٨- (٨) «شوهوا» من ماده «شوه» على وزن «قول» بمعنى أنّ مناظرهم مشوّهه.

٩- (٩) «إعفاء» بمعنى الترك و «اعفاء الشعور» يعنى ترك الشعر بلا قص.

فالتعبير بالابتلاء والامتحان والاختبار يدل جميعاً على الامتحان، إلا أنها ذكرت مره بوصف عظيم وأخرى شديد وثالثه مبين، والمراد الامتحان المهم للغايه الذى يكون كبيراً وشديداً وواضحاً، وامتحان الحج ينطوى على هذه الصفات الثلاث.

والعبارة

«تَمْحِصاً بَلِيغاً» إشاره إلى نتیجه هذا الامتحان الذى يترك بصماته العميقه فى تطهير القلوب واخلاص النيات، حيث ورد فى الخبر أن زائر بيت الله بعد إتيانه بتلك المناسك العظيمه يعود كما ولدته امه، حيث قال الإمام الصادق عليه السلام: قال أبى:

«مَنْ أَمَّ هَذَا الْبَيْتَ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا مَبْرَأً مِنَ الْكِبْرِ، رَجَعَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَهَيْئَةِ يَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» (١).

وبالطبع فإن كل هذه الكلمات فى إطار تحقيق هدف الخطبه المتمثل بمكافحه الكبر والغرور والعجب والأنانيه، لأن الحج يخلع عن الإنسان ثوب الغرور والكبر ويلقنه درس التواضع والإخلاص.

ص: ٣١٨

١- (١) الكافي، ج ٤، ص ٢٥، باب فضل الحج والعمرة، ح ٢.

وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرَامَ، وَمَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَّاتٍ وَأَنْهَارٍ، وَسِيَهْلٍ وَقَرَارٍ، جَمَّ الْأَشْجَارِ، دَانَى الثَّمَارِ، مُلْتَفِّئِ الثُّبْنِ، مُتَّصِلِ الْقُرَى، بَيْنَ بُرْهٍ سَمْرَاءَ، وَرَوْضِهِ خَضْرَاءَ، وَأَرْيَافِ مُحَدِّقِهِ، وَعِرَاصِ مُعَدِّقِهِ، وَرِيَاضِ نَاصِرِهِ، وَطُرُقِ عَامِرِهِ، لَكَانَ قَدْ صَعَرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلَاءِ. وَلَوْ كَانَ الْإِسَاسُ الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا، وَالْأَحْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا، بَيْنَ زُمُرَدِهِ خَضْرَاءَ، وَيَاقُوتِهِ حَمْرَاءَ، وَنُورِ وَضِيَاءِ، لَخَفَّفَ ذَلِكَ مُصِيرَ عَارِعَةِ الشُّكِّ فِي الصُّدُورِ، وَلَوَضَعَ مُجَاهِدَةً إِيْلَيْسَ عَنِ الْقُلُوبِ، وَلَنَفَى مُعْتَلَجَ الرَّيْبِ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ، وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ، إِخْرَاجًا لِلتَّكْبِيرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسْكَانًا لِلتَّذَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَلِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَابًا فَتْحًا إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسْبَابًا ذُلًّا لِعَفْوِهِ.

الشرح والتفسير: الكعبة المقدسة

واصل الإمام عليه السلام هنا ما ذكره في المقطع السابق من الخطبه، فأشار إلى هذه النقطة وهي أن الله كان قادراً على أن يجعل البيت في أروع البقاع مناخاً، ويشيدها ويزينها بالأحجار الكريمه؛ إنما أنه لم يفعل ذلك خشية إلتفات الناس وتركيزهم على الجوانب الماديّه فيقلّ أجرهم وثوابهم، فأشار عليه السلام لهذا الأمر بعبارات بمنتهى الروعه والجمال بما يعجز الآخرون عن الإتيان بمثله فقال عليه السلام:

«وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ

بَيْتُهُ الْحَرَامَ، وَمَشَاعِرُهُ (١) الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَّاتٍ وَأَنْهَارٍ، وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ، جَمَّ (٢) الْأَشْجَارِ، دَانِي الثَّمَارِ، مُلْتَفَّ (٣) الْبُنَى، (٤) مُتَّصِلَ الْقُرَى، بَيْنَ بَرْهٍ (٥) سَمَرَاءَ، (٦) وَرَوْضِهِ خَضْرَاءَ، وَأَرْيَافٍ (٧) مُحْدَقَةٍ (٨)، وَعِرَاصٍ (٩) مُغْدَقَةٍ (١٠)، وَرِيَاضٍ نَاضِرَةٍ (١١)، وَطُرُقٍ عَيَامِرِهِ، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلَاءِ».

فقد رسم الإمام عليه السلام صورته رائعه ودقيقه لمنطقه نضرة من خلال اثنتي عشرة صفة مختلفه.

فذكر الإمام عليه السلام كلما ينبغي ذكره بهذا الخصوص فأشار عليه السلام بدقه متناهيه إلى جميع مواضع الجمال التي تتصف بها الأرض الجميله والمعموره فبلغ بها منتهى الفصاحه والبلاغه والبديع والبيان، فالواقع لو كان البيت في منطقته نظره حسنه جميله المناخ، لتبدل إلى مُتَنَزَّهٍ لطيف يقصده الناس من أجل الاستجمام والرفاهيه، ولزالت الدروس التربويه والأخلاقية للحج.

ثم قال عليه السلام بشأن بِنَانِ الْكَعْبَةِ:

«وَلَوْ كَانَ الْإِسَاسُ (١٢) الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا، وَالْأَحْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا، بَيْنَ زُمْرَدَةٍ خَضْرَاءَ، وَيَأْقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، وَنُورٍ وَضِيَاءٍ، لَخَفَّفَ ذَلِكَ

ص: ٣٢٠

- ١- (١). «مشاعر» جمع «مشعر» موضع تقام فيه بعض مناسك الحج ويقال له «مشعر» حيث تجرى فيه الشعائر الإسلاميه.
- ٢- (٢) «جم» كثير.
- ٣- (٣). «ملتف»: مجتمع ومتراكم من ماده «لف» على وزن «كف».
- ٤- (٤) «بنى» جمع «بنيه» يعنى بناء.
- ٥- (٥) «بره» و «بُرَّ» بمعنى الشعير.
- ٦- (٦) «سمراء» معروفه اللون.
- ٧- (٧). «أرياف» جمع «ريف» تعنى القرية.
- ٨- (٨) «محدقه» يعنى الموضع الذى تكثر فيه البساتين.
- ٩- (٩) «عراص» جمع «عرصه» فناء الدار.
- ١٠- (١٠) «مغدقه» يعنى كثيره وفى الأصل من «غدق» على وزن «شفق» بمعنى الماء الوفير.
- ١١- (١١) «ناضره» الخضراء من ماده «نضره» الرفاهيه الحاصله بسبب وفور النعمه.
- ١٢- (١٢). «أساس» بكسر الهمزه جمع «أس» (بفتح أو بكسر أو بضم الهمزه) دعامه.

مُصَارَعَهُ (١) الشَّكَّ فِي الصُّدُورِ، وَلَوْضَعَ مُجَاهِدَهُ إِبْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ، وَلَنَفَى مُعْتَلِجَ (٢) الرِّيبِ مِنَ النَّاسِ.

قطعاً أنّ فلسفه الحجّ تهدف إلى دفع الإنسان إلى مقاومه هوى النفس والوساوس الشيطانيه، وتصبح هذه المقاومه ضعيفه إن كانت لهذه المناسك مسحه جماليه، بينما تصبح مقاومه الوساوس الشيطانيه والأهواء النفسيه أقوى حين تقام هذه المناسك بنوع من الصعوبه والمشقه في ذلك الوسط الجاف والبسيط؛ وعلى هذا الأساس تشتد مقاومه عباد الله ويصبح إيمانهم أقوى وأرسخ وتنفعهم الآثار التربويه للحج.

والمراد من

«مُصَارَعَهُ الشَّكِّ» مبارزه وساوس الشك والهواجس التي تخطر على قلب المؤمن وهي الوساوس الباطنيه، والمراد من «مجاهده إبليس» وساوسه الخارجيه، ومفهوم العبارة

«مُعْتَلِجَ الرِّيبِ» تلاطم أمواج الشكوك التي تطغى على المؤمنين في التكليف الدينيه الشاقه، و

«شكّ» و«ريب» وإن فسّرت بمعنى واحد إلّا أنّ بعض أرباب اللغه ذهب إلى أنّ الريب بمعنى الشك والترديد الذي يرفع عنه الغطاء لاحقاً، بينما يمكن أن يكون الشك باقياً.

ثم خالص الإمام عليه السلام إلى نتیجه كليه فقال:

«وَلَكِنَّ اللَّهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ، وَيَتَّبِعُهُمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ، إِخْرَاجاً لِلتَّكْبِيرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسْكَاناً لِلتَّدَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَلِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَاباً فَتْحاً (٣) إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسْتَبَاباً دُلَّالاً (٤) لِعَفْوِهِ».

إشاره إلى أنّ الواجبات الشرعيه كالصوم والصلاه والحج والزكاه والخمس

ص: ٣٢١

١- (١). «مصارع» من «صرع» على وزن «فرع»: الصرع في الأرض و يقال المصروع على من أصيب بمرض الصرع لأنه يطرحه أرضاً.

٢- (٢) «معتلج» تعنى «التلاطم» من ماده «اعتلاج» يعنى نزاع أحدهما للآخر.

٣- (٣). «فتحاً» بمعنى «الفتح» معروفه.

٤- (٤) «ذلل» جمع «ذلول» بالمعنى التسليم والانقياد.

والجهاد فى سبيل الله وكذلك بعض النواهى وترك الأهواء والرغبات غالباً ما تكون ثقيله وشاقه، لتمييز صفوف المطيعين والمتواضعين إزاء أوامر الله من العصاه والمتكبرين عبده الأهواء، ولولا ذاك لما إمتازت هذه الصفوف عن بعضها البعض الآخر.

والمفردات

«شدائد» و «مجاهد» و «مكاره» وإن كانت متقاربه المفهوم والمعنى وأنها تشير جميعاً إلى الأعمال الشاقه والصعبه، لكنها تستند إلى ثلاث رؤى؛ الشده التى تتطلب الصبر والمشقه التى تستلزم التحمل والحلم والكراهيه التى تقتضى الصبر والاستقامه.

جدير ذكره أن الإمام عليه السلام قد بين أربع نتائج من قبيل اللازم والملزوم لهذا الأمر وهى: ١. إزالة الكبر من القلوب. ٢. استبداله بالتواضع الذى يمثل الهدف الأصلى للخطبه. ٣. فتح أبواب الجنه. ٤. شمول العفو والرحمه.

تأمل

«أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ أَحْمَرُهَا!»

ما ورد آنفاً فى كلام الإمام عليه السلام هو عين ما صرحت به الروايات

«أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ أَحْمَرُهَا» (١) ويشير هذا الحديث المروى عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله إلى أن الطاعه وأعمال الخير تختزن أجراً وثواباً أعظم كلما كانت الطاعه وأعمال الخير شاقه على الجسم عند الإمتثال.

«أَحْمَرًا» من ماده

«حَمَزًا» تعنى لغوياً الشده والصعوبه والمشقه، ويفيد هذا التعبير أن للأعمال الشاقه والثقيله والمجهده قيمه عظيمه عند الله تعالى. وسبب ذلك واضح فهى تتطلب قوه وطاقه أكبر على مستوى الروح والجسم بغيه الإتيان بها، ونعلم جميعاً أن أجر الأعمال وثوابها على قدر مشقتها والقوه اللازمه للإتيان بها.

ص: ٣٢٢

١- (١). بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ١٩١.

ولا تقتصر هذه القوه على الجانب البدنى (مثل حج بيت الله مشياً على الأقدام فى ظل ظروف تشير إلى عظمه هذه السنه) فغالباً ما تتعداها إلى الجانب الروحى والمعنوى؛ فمثلاً- «إخلاص التيه» بحيث لا يقارفاها أى شائبه فى التوجه لغير الله لا تبدو عمليه سهله وبالأمر الهين، وكذلك يبدو التواضع والخشوع الذى لا ينسجم مع روحه الإنسان المتمرده أمراً فى غايه الصعوبه، ومن هنا شق على إبليس تحمله فشق على نفسه عصى الطاعه والعبوديه وإلى الأبد.

فكل مشقه من هذه المشقات توجب عظيم الثواب والأجر من جهه وتهذب النفس البشريه وعلى هذا الضوء كانت الرياضات مدعاها لصفاء النفس وقوتها واقتدارها.

وبالطبع فإن مكافحه الكبر والعصبيه التى تعدّ الموضوع الأصلي لهذه الخطبه لمن أبرز مصاديق الحديث الشريف

«أفضل الأعمال أحمرها» كما أنّ حج بيت الله الحرام فى تلك البقعه الصعبه والوعره والمحرقة وطبق آدابها المعروفه لتشق على النفس البشريه؛ من قبيل الإحرام والسعى بين الصفا والمروه وطواف بيت الله والوقوف بصحراء عرفه والمشعر ومنى وحلق الرأس وهى من المصاديق الأخرى الواضحه للحديث الشريف.

فَاللَّهُ اللَّهُ فِي عَاجِلِ الْبُغْيِ، وَآجِلِ وَخَامِهِ الظُّلْمِ، وَسُوءِ عَاقِبِهِ الْكِبْرِ، فَإِنَّهَا مَصِيدُهُ إِبْلِيسَ الْعُظْمَى، وَمَكِيدَتُهُ الْكُبْرَى، الَّتِي تُسَاوِرُ قُلُوبَ الرِّجَالِ مُسَاوِرَةَ السُّمُومِ الْقَاتِلَةِ، فَمَا تُكْدِي أَيْدَاءً، وَلَا تُشْوِي أَحْدَاءً، لَا عَالِمًا لِعِلْمِهِ، وَلَا مُقَلًّا فِي طَمْرِهِ. وَعَنْ ذَلِكَ مَا حَرَسَ اللَّهُ عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَوَاتِ وَالزَّكَوَاتِ، وَمُجَاهَدَةَ الصِّيَامِ فِي الْأَيَّامِ الْمَفْرُوضَاتِ، تَسْكِينًا لِأَطْرَافِهِمْ، وَتَخْشِيعًا لِأَبْصَارِهِمْ، وَتَذْلِيلًا لِنُفُوسِهِمْ، وَتَخْفِيزًا لِقُلُوبِهِمْ، وَإِذْهَابًا لِلْخِيَلَاءِ عَنْهُمْ، وَلِيَمَّا فِي ذَلِكِ مِنْ تَغْفِيرِ عِتْيَاقِ الْوُجُوهِ بِالتُّرَابِ تَوَاضَعًا، وَالتِّصَاقِ كَرَائِمِ الْجَوَارِحِ بِالْأَرْضِ تَصَاغُرًا، وَلُحُوقِ الْبُطُونِ بِالْمُتُونِ مِنَ الصِّيَامِ تَذَلُّلًا؛ مَعَ مَا فِي الزَّكَاةِ مِنْ صَيْرِفِ ثَمَرَاتِ الْأَرْضِ وَغَيْرِ ذَلِكَ إِلَى أَهْلِ الْمَسْكَنَةِ وَالْفَقْرِ.

انظروا إلى ما في هذه الأفعال من قمع نواجم الفخر، وقذع طوالع الكبر.

الشرح والتفسير: آفة الكبر والغرور

واصل الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه متابعه الهدف الأصلي لهذه الخطبه والذي يتمثل بدم الكبر والغرور واستعراض سوء آثاره، غير أنه سلك طريقاً رائعاً بهذا الخصوص فاتجه صوب الفرائض والعبادات والواجبات ليبين مدى تأثيرها في القضاء على آثار الكبر والغرور.

فحذر بادئ الأمر وبصوره كليه من العواقب السيئه للبغي والظلم فقال:

«فَاللَّهُ اللَّهُ

ص: ٣٢٥

فِي عَاجِلِ الْبَغْيِ، وَآجِلِ وَخَامِهِ الظُّلْمِ، وَسُوءِ عَاقِبِهِ الْكِبْرِ».

ثم تطرق عليه السلام إلى السبب الجلى على هذا التحذير فقال:

«فَإِنَّهَا مَصِيدَةٌ (١) إِبْلِيسَ الْعُظْمَى، وَمَكِيدَتُهُ الْكُبْرَى، الَّتِي تُسَاوِرُ (٢) قُلُوبَ الرِّجَالِ مُسَاوِرَةَ السُّمُومِ الْقَاتِلَةِ، فَمَا تُكْدِي (٣) أَبَدًا، وَلَا تُشْوِي (٤) أَحَدًا، لَا عَالِمًا لِعِلْمِهِ، وَلَا مُقْلًا (٥) فِي طِمْرِهِ (٦)».

فالأمر الثلاثة التي حذر منها الإمام عليه السلام في بدايه كلامه والتي تتمثل بالبغي والظلم والكبر من قبيل اللازم والملزوم لبعضها البعض الآخر.

فالأفراد المتكبرون لا يرون سوى أنفسهم ولذلك فهم لا يرون من أهميته لحقوق الآخرين فيرتكبون أنواع الظلم والجور والذي يعد من الشباك الخبيثه والخطيره للشيطان والتي لا ينجو منها سوى أولياء الله والصالحين من الأفراد المؤمنين.

والعبارة:

«فَمَا تُكْدِي أَبَدًا...» إشاره إلى عموميه هذا التحذير؛ فلا يتصور العالم أن بإمكانه النجاه من هذه المصيده بما لديه من علم ومعرفه فقط، أو ينجو من آثاره شخص فقير بفقره، فكل شخص بدون استثناء معرض للتلوث بالبغي والظلم والكبر ستكون عاقبته سيئه ومريره.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى العبادات الإسلاميه ليركز على جانب مهم منها فشرح الانعكاسات الإيجابيه لهذه العبادات في القضاء على آثار الكبر والغرور وإحياء روح التواضع والبساطه فقال:

«وَعَنْ ذَلِكَ مَا حَرَسَ اللَّهُ (٧) عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَوَاتِ

ص: ٣٢٤

١- (١). «مصيده» (بسكون الصاد وفتح الياء) وقرأها البعض بكسر الميم وتعنى الفخ.

٢- (٢). «تساور» من «سور»، على وزن «غور» بمعنى الوثوب والمقاتله وتعنى هنا نفوذ السموم فى القلوب.

٣- (٣) «تكدى» من ماده «كدى» على وزن «كسب» بمعنى البخل والحبس والتعطيل.

٤- (٤) «تشوى» من ماده «شئ» على وزن «شر» تاتى بمعنى الطبخ أحياناً وأخرى بمعنى اليد والقدم وأطراف الجسم وإن وردت فى باب الأفعال عنت تخطيء المقتل.

٥- (٥) «مقل» تعنى الفقير من ماده «قليل».

٦- (٦) «طمر» الكساء البالى.

٧- (٧). اختلف الشراح والمفسرون فى تركيب هذه الجملة «عَنْ ذَلِكَ مَا حَرَسَ اللَّهُ». قال ابن أبى الحديد: إن «ما» زائده و «ذلك» إشاره إلى الظلم والتكبر، وعلى هذا الضوء يصبح مفهوم الجملة أن الله حفظ عباده من هذه الأمور الثلاثة بواسطة الصوم

والصلاه والزكاه، وقال المرحوم الشارح الخوئي: إنّ «عن» هنا سببيه وما مصدرية ومعنى الجملة إنّ الله لهذا السبب حفظ عباده عن الكبر والغرور والظلم بواسطه الصلاه والصوم والزكاه.

وَالزَّكَّاتِ، وَمُجَاهِدَهُ الصَّيَامِ فِي الْأَيَّامِ الْمَفْرُوضَاتِ، تَسْكِينًا لِأَطْرَافِهِمْ (١)، وَتَخَشِيَةً لِأَبْصَارِهِمْ، وَتَذَلِيلًا لِنُفُوسِهِمْ، وَتَخْفِيزًا (٢) لِقُلُوبِهِمْ، وَإِذْهَابًا لِلْخِيَلَاءِ (٣) عَنْهُمْ».

إشاره إلى أن أحد الجوانب الفلسفيه المهمه لهذه العبادات تحطيم دوافع الكبر والغرور الذى يفضى إلى البغى والظلم، فأداب الصلاه وأركانها تدعو الإنسان بصورة كامله إلى التواضع من قبيل الوقوف كالعبد الخاضع لله ومن ثم الركوع والأهم من كل ذلك السجود يربى فى الإنسان روح التواضع من جهه ومن جهه أخرى يصدّه عن الذنب والمعصيه: «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» (٤).

كما أن الزكاه تعدّ فى الواقع نوعاً من التقدير والاحترام للمحتاجين، فتعمل بدورها على إزالة الكبر والغرور عن روح الاثرياء والتمكّنين، وهكذا الصوم الذى يجعل الإنسان فى مصاف الفقراء والمحتاجين بما يشعر به الإنسان من جوع وعطش والذى يحطم بالتالى كبره وغروره؛ طبعاً لا تنحصر فلسفه هذه العبادات بما ذكرناه آنفاً، إلّا أنّ ما مضى كان جانباً من فلسفتها والتى أشار إليها الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه.

وقد أشير إلى هذا المعنى فى عدد من الروايات والأحاديث؛ فقد جاء فى الحديث المروى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال:

«إِنَّ عِلَّةَ الصَّلَاةِ أَنَّهَا إِفْرَارٌ بِالرُّبُوبِيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى وَخَلْعُ الْأَنْدَادِ وَقِيَامُ بَيْنَ يَدَيْ الْجَبَّارِ حَيْلٌ جَلَالُهُ بِالذُّلِّ وَالْمَسِيكِنَةِ وَالْخُضُوعِ وَالْإِعْتِرَافِ...» (٥).

ص: ٣٢٧

١- (١). «أطراف» من ماده «طرف» على وزن «هدف» بمعنى قطعه من أى شىء وأطراف الجسم هى الأيدى والأرجل.

٢- (٢). «تخفيض» من «خفض» على وزن «لفظ» تعنى السهوله واللين والتنزيل.

٣- (٣) «خيلاء» بمعنى التكبر والأنانيه.

٤- (٤) سوره العنكبوت، الآية ٢٥.

٥- (٥) وسائل الشيعه، ج ٣، ص ٤، كتاب الصلاه، أبواب أعداد الفرائض ونوافلها، ح ٧.

كما قال عليه السلام فى فلسفه الزكاه:

«وَهُوَ مَوْعِظَةٌ لِأَهْلِ الْغِنَى وَعِبْرَةٌ لَهُمْ لِيَسْتَدْلُوا عَلَى فَقَرَاءِ الْآخِرَةِ بِهِمْ» (١).

كما روى عنه عليه السلام فى فلسفه الصوم:

«عِلَّةُ الصَّوْمِ عِزْفَانُ مَسِّ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ لِيَكُونَ ذَلِيلًا مُسْتَكِينًا...» (٢).

ثم خاض الإمام عليه السلام فى شرح ما ذكره فى العبارات السابقة بصوره إجماليه حول فلسفه الصوم والصلاه والزكاه فقال:

«وَلَمَّا فِي ذَلِكَ مِنْ تَغْفِيرِ (٣) عِتَاقِ (٤) الْوُجُوهِ بِالتُّرَابِ تَوَاضِعًا، وَالتَّصَاقِ كَرَائِمِ (٥) الْجَوَارِحِ بِالْأَرْضِ تَصَاغُرًا (٦)، وَلُحُوقِ الْبُطُونِ بِالْمُتُونِ (٧) مِنَ الصِّيَامِ تَذَلُّلًا؛ مَعَ مَا فِي الزَّكَاةِ مِنْ صَرَفِ ثَمَرَاتِ الْأَرْضِ وَغَيْرِ ذَلِكَ إِلَى أَهْلِ الْمَسْكَنَةِ وَالْفَقْرِ».

حقاً إن ما ورد هنا، هو جانب من الجوانب الفلسفيه لهذه العبادات الإسلاميه المهمه، ذلك لأن العبادات تنطوى على العديد من الجوانب ذات الأهميه وفى مقدمتها تفعيل روح التواضع والبساطه ومناهضه الكبر والغرور، وفلسفه النهى عن الفحشاء والمنكر للصلاه وكونها معراج المؤمن إلى جانب تربيته روح التقوى والإخلاص فى ظل الصوم ونبذ آفه التمايز الطبقي فى الزكاه وغيرها من العبادات مما لا يسع الإنسان التناكر لدوره وجدواه.

ص: ٣٢٨

١- (١) وسائل الشيعه، ج ٦، ص ٥، كتاب الزكاه، أبواب ما تجب فيه الزكاه وما تستجب فيه، باب ١، ح ٧.

٢- (٢) من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٧٣، ح ١٧٦٧.

٣- (٣). «تغفير» تعنى التمرغ فى التراب من «عفر» بمعنى التراب والغبار.

٤- (٤) «عتاق» جمع «عتيق» بمعنى الشىء الثمين والقيم، و «عتاق الوجوه» إشاره إلى القسم المهم من وجه الإنسان، هى الجبهه.

٥- (٥). «كرائم» جمع «كريمه» نفيس، ثمين، شريف.

٦- (٦) «تصاغر» من ماده «صغر» معروفه.

٧- (٧). «متون» جمع «متن» بمعنى الظهر ويأتى بمعنى الأصل والمراد المعنى الأول.

وقد وردت إشارات واضحة في الأخبار والروايات إلى هذه الأمور، من ذلك ما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام:

«إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَعْلَمُ لِمَ اخْتَرْتُكَ مِنْ بَيْنِ خَلْقِي؟ قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا، فَقَالَ تَعَالَى: «يَا مُوسَى إِنِّي قَلَّبْتُ عِبَادِي ظَهْرًا وَبَطْنًا فَلَمْ أَجِدْ أَحَدًا أَذَلَّ لِي نَفْسًا مِنْكَ يَا مُوسَى إِنَّكَ إِذَا صَلَّيْتَ وَضَعْتَ خَدَّيْكَ عَلَى التُّرَابِ» (١).

ثم خلاص عليه السلام إلى هذه النتيجة فقال:

«أُنْظَرُوا إِلَى مَا فِي هَذِهِ الْأَفْعَالِ مِنْ قَمْعٍ (٢) نَوَاجِمٍ (٣) الْفَخْرِ وَقَدْعٍ (٤) طَوَالِعِ الْكِبَرِ». جدير ذكره أن بعض هذه العبادات تتكرر كل يوم حتى لا يشهد الإنسان يوماً يخلو فيه من مفهوم نبذ الكبر.

تأمل

فلسفة العبادات

لاشك في أن الله تبارك وتعالى غني عن عبادتنا وعباده الملائكة ولو سلك جميع من في السموات والأرض طريق الإيمان أو الكفر لما أضاف ذلك إلى جلاله شيئاً أو انتقص منه: «إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ» (٥).

وكذلك قال: «وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» (٦).

وكل إنسان مهما كان له من شيء فمن الله تعالى ونفحه من نفحاته سبحانه، وعليه فلا يستطيع هذا المخلوق أن يقوم بفعل من شأنه زياده عظمه الله، ومن هنا يمكن الاستنتاج أن فلسفة الأحكام وفائدتها ولا سيما العبادات إنما تعود على الإنسان نفسه، وللعبادات فلسفه مشتركه وفلسفه خاصه؛ فالفلسفه المشتركه للعبادات تتمثل في الخضوع والتواضع لله وتحطيم صنم الكبر والغرور والطغوى والعصيان، أضف إلى ذلك فإن العباده تذكر الإنسان بالله وتبث الروح في قلبه ونفسه

ص: ٣٢٩

١- (١) من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٣٦٣.

٢- (٢). «قمع» بمعنى القهر.

٣- (٣). «نواجم» جمع «ناجمه» كلما يطلع ويظهر. من «نجم» على وزن «حجم» بمعنى الطلوع والظهور.

٤- (٤) «قدع» تعنى الكف والمنع.

٥- (٥) سورة إبراهيم، الآية ٨.

٦- (٦) سورة آل عمران، الآية ٩٧.

وتزِيل عنه آثار الغفله، وهكذا فإنّ العبادات تأخذ بالإنسان دائماً إلى مسير العبوديّة والطاعة.

ناهيك عن أنّ لكلّ عباده فلسفتها المختصه بها؛ فالصلاه تنهى عن الفحشاء والمنكر والصوم يشد من عزم الإنسان في مواجهه هوى النفس، والزكاه تحد أو تقضى على التمايز الطبقي، والحج يؤدّي إلى وحده المسلمين وتنامى قدره الإسلام وشوكته، وقد وردت الإشارات لكلّ هذه الأمور في الروايات الإسلاميّه بشأن فلسفه الأحكام(١).

ص: ٣٣٠

١- (١) راجع كلمات نهج البلاغه القصار، الكلمه ٢٥٢.

وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَمَا وَجَدْتُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لَشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا عَنْ عَلِّهِ تَحْتَمِلُ تَمْوِيَةَ الْجُهَلَاءِ، أَوْ حُجَّه تَلِيْطُ بِعُقُولِ السُّفَهَاءِ غَيْرِكُمْ. فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبُونَ لِأَمْرٍ مَا يُعْرَفُ لَهُ سَبَبٌ وَلَا عَلَّةٌ. أَمَّا إِيْلَيْسُ فَتَعَصَّبَ عَلَى آدَمَ لِأَضْلِهِ، وَطَعَنَ عَلَيْهِ فِي خَلْقَتِهِ، فَقَالَ: أَنَا نَارِي وَأَنْتَ طِينِي.

وَأَمَّا الْأَغْيَاءُ مِنْ مُتْرَفِهِ الْأُمَمِ، فَتَعَصَّبُوا لِإِثَارِ مَوَاقِعِ النَّعَمِ، فَقَالُوا: (نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ).

الشرح والتفسير: العصبية الطائشه

خاض الإمام عليه السلام هنا في بيان نقطه أخرى لمواجهة الكبر والغرور والعصبية الجاهليه وخلصتها أن للأفراد المتعصبين أدلتهم على ذلك وإن كانت ضعيفه وواهيه وخاطئه؛ إلا أن تعصبكم القبيح أدى إلى هذه النزاعات وسفك الدماء بما ليس له مبرر، وهذا يعنى أن تعصبكم أسوأ وأقبح من ذلك التعصب.

فقال عليه السلام:

«وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَمَا وَجَدْتُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لَشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا عَنْ عَلِّهِ تَحْتَمِلُ تَمْوِيَةَ (١) الْجُهَلَاءِ، أَوْ حُجَّه تَلِيْطُ (٢) بِعُقُولِ السُّفَهَاءِ غَيْرِكُمْ. فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبُونَ لِأَمْرٍ مَا يُعْرَفُ لَهُ سَبَبٌ وَلَا عَلَّةٌ».

ص: ٣٣١

١- (١). «تمويه» يعنى الخداع وتعنى فى الأصل طلى النحاس بالذهب لخداع الآخرين.

٢- (٢) «تليط» من ماده «لوط» على وزن «موت» بمعنى الالتصاق وتستعمل عباره «لاط بقلبي» لمن تعلق بشيء لا يفارقه وكأنه لصق به. وتستعمل هذه المفرده بصيغه أجوف واوى وأجوف يائى.

إشاره إلى أنه كلما تأملنا تاريخ الأسلاف والأقوام المعاصره نخلص إلى هذه النتيجة أنهم كانوا يمتلكون ذريعه لتعصبهم من قبيل إخفاء الحقيقه على الجهّال أو اختراق أفكار السفهاء والسذج وبالنتيجه تحقيق سلسله من المنافع الماديّه، بينما ليس لتعصبكم أى أثر أو فائده ويفتقر إلى أى دليل، سوى الكلمات البذيئه والجنويّه والافتتال الطائش الذى ينتهى إلى سفك الدماء، والفرار بين الجهّال والسفهاء هو أنّ الجهّال يفتقرون إلى أدنى علم بينما للسفهاء حض من علم، ومن شأن بعض الأسباب الواهيّه أن تسوق الطائفتين لتحقيق أهداف ومنافع المتعصبين والمستكبرين.

طبعاً ليس مراد الإمام عليه السلام أنّ تعصبكم معلول لعدم وجود علّه، ذلك لأنّ لكلّ شىء فى العالم على ضوء النظره الفلسفيه علّه، بل المراد أنّه كان لمن سبقكم من المتعصبين بعض الذرائع الظاهريّه الخادعه، وأنكم لتفتقرون حتى إلى هذه الذرائع، فالمتعصبين الذين خاطبهم الإمام عليه السلام كانوا يتصفون بضحاله ثقافتهم وعقائدهم الجاهليّه التى أفرزت ذلك التعصب والتى لا تصلح أن تكون ذريعه أبداً.

ثم أشار عليه السلام إلى نموذجين من التعصبات التى يبدو أنّها كانت معززه ظاهرياً ببعض الأدله وإن لم تكن صائبه؛ أحدهما تعصب إبليس واستكباره والآخر تعصب الأثرياء المستكبرين أصحاب الثروه فقال:

«أَمَّا إبْلَيْسُ فَتَعَصَّبَ عَلَى آدَمَ لِأَصْلِهِ، وَطَعَنَ عَلَيْهِ فِي خِلْقَتِهِ، فَقَالَ: أَنَا نَارِيٌّ وَأَنْتَ طِينِيٌّ».

لا- شك فى أنّ إبليس خلق من النار، حيث كان ينحدر من الجن الذين خلقوا من النار بينما خلق آدم من الطين والتراب، وللنار ظاهرياً نور وشعاع، بينما يمتاز الطين بالظلمه، الأمر الذى يمكن أن يكون ذريعه لإبليس فى الكبر، والحال تمتاز النار بأنّها محرقه والطين باعث الحياه، أضف إلى ذلك فإنّ فضيله آدم بفعل الروح الإلهيّه التى ولجت فيه حيث قال تعالى: «فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ»

سَاجِدِينَ» (١) لكن إبليس وبفعل أنانيته وتعصبه لم يشأ إدراك تلك الحقيقة.

ثم خاض عليه السلام في الطائفة الثانية وهم الأثرياء المتكبرون من الأمم السابقة الذين ابطرتهم النعمة وكثره عددهم حيث كانوا يتباهون بذلك والحال ليست لديكم حتى هذه الذرائع في تعصبكم فقال:

«وَأَمَّا الْأَغْنِيَاءُ مِنْ مُتْرَفِهِ (٢) الْأُمَمِ، فَتَعَصَّبُوا لِآثَارِ مَوَاقِعِ (٣) النَّعْمِ، فَقَالُوا: «نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ» (٤).

إشاره إلى أنهم جعلوا نعم الله في الجوانب الماديّة التي تشمل القوّة البشريّة والأموال الطائله وسيله للكبر والتعصب وتمردوا على دعوه الأنبياء حتى شملهم العقاب الإلهي، أمّا تعصب مخاطبي الإمام عليه السلام فقد دفعهم إلى الاقتتال والنزاع تحت طائله ذراع واهيته وطفوليته، فهي لا تشبه تعصب الشيطان ولا تعصب المترفين المستكبرين السابقين، بل تدور حول محور بعض الأمور التي لا تصلح لأن تكون حجه قط، وهذا أسوأ أنواع التعصب.

ص: ٣٣٣

١- (١) سورة الحجر، الآية ٢٩.

٢- (٢). «مترفه» و «مترف» كما ورد في لسان العرب من ماده «ترف» على وزن «هدف» بمعنى التعم ويقال عادة للشخص أغرته وفره النعمة وساقته للطغيان.

٣- (٣) «مواقع» جمع «موقع» بمعنى المحلّ و مواقع النعم إشاره إلى النعم التي يستفاد منها والمراد من الآثار اللذات التي تتوفر لأصحاب النعم.

٤- (٤) سورة سبأ، الآية ٣٥.

فَبِإِنْ كَانَ لِأَيْدٍ مِنَ الْعَصِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ، وَمَحَامِدِ الْأَفْعَالِ، وَمَحَاسِنِ الْأُمُورِ، الَّتِي تَفَاضَلَتْ فِيهَا الْمُجْرَدَاءُ وَالنُّجْدَاءُ مِنْ بَيِّنَاتِ الْعَرَبِ وَيَعَاسِيِبِ الْقَبَائِلِ؛ بِالْأَخْلَاقِ الرَّغِيْبَةِ، وَالْأَحْلَامِ الْعَظِيْمَةِ، وَالْأَخْطَارِ الْجَلِيْلَةِ، وَالْأَثَارِ الْمَحْمُودَةِ. فَتَعَصَّبُوا لِخِلَالِ الْحَمِيدِ مِنَ الْحِفْظِ لِلْجَوَارِ، وَالْوَفَاءِ بِالذَّمَامِ، وَالطَّاعَةِ لِلْبِرِّ، وَالْمَعْصِيَةِ لِلْكَبْرِ، وَالْأَخْذِ بِالْفُضْلِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْبَغْيِ، وَالْإِعْظَامِ لِلْقَتْلِ، وَالْإِنْصَافِ لِلْخَلْقِ، وَالْكَظْمِ لِلغَيْظِ، وَاجْتِنَابِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ.

الشرح والتفسير: العصبية الممدوحة

التعصب كما ذكرنا سابقاً بمعنى التعلق الشديد بالشىء والذى يظهر بصورتين؛ بصوره سلبية ويراد بها التعلق الشديد الهمجى البعيد عن المنطق بالمسائل ذات القيمة الدنيئة وربما العديمه القيمة والوهمية التى تفضى إلى العديد من الخلافات والنزاعات الدموية.

والصوره الإيجابية والمراد بها الصمود والإصرار على الأمور ذات المثل والقيم الإنسانيه والأخلاقية والاجتماعية الرفيعة، وهذا التعصب ليس فقط منزّه عن العيب والذنب، بل يعتبر من نقاط القوه والإيجابية، من قبيل من يصمد لحفظ الدين والإيمان أو حفظ الوطن والعرض والشرف.

ومن هنا سعى الإمام عليه السلام لدفع مخاطبيه المتعصبين للنجاه من تعصباتهم السلبيه

والقيحه فاقترح عليهم العصبية الإيجابية ليشبع تطلعاتهم العاطفي ويسوق قواهم الباطنية نحو المشروع الإيجابي، وهذه هي الخطه التي ينبغي أن يمارسها جميع الزعماء الحكماء في مجتمعاتهم بغيه إصلاح المفاسد الاجتماعيه، فبدلاً من الوقوف بوجه الأمواج العاتيه للدوافع السلبيه لابد من السعي إلى تغيير مسارها ودفعها باتجاه القنوات الإيجابيه ولذلك قال عليه السلام:

«فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الْعَصْبِيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ، وَمَحَامِدِ الْأَفْعَالِ، وَمَحَاسِنِ الْأُمُورِ، الَّتِي تَفَاضَلَتْ فِيهَا الْمُجِدَاءُ (١) وَالنُّجَدَاءُ (٢) مِنْ بَيِّنَاتِ الْعَرَبِ وَيَعَاسِبِ (٣) الْقَبَائِلِ».

أى لا- ينبغي أن يكون مثلكم فى هذه الأمور الجهال الذين يفتقرون إلى المنطق، بل عليكم الإقتداء والتأسى بالعقلاء والأفراد الواعين الذين يتسابقون فى كسب الفضائل ونيل مكارم الأخلاق ويوظفون إمكاناتهم كافة فى ميدان هذا السباق الإنسانى.

ثم خاض عليه السلام فى شرح ذلك بوضع عبارات قصيره فقال:

«بِالْأَخْلَاقِ الرَّغْبِيَّةِ، وَالْأَحْلَامِ الْعَظِيمَةِ، وَالْأَخْطَارِ الْجَلِيلَةِ، وَالْأَنْثَارِ الْمَحْمُودَةِ».

فالواقع إن هذه الصفات الأربع التى وردت فى كلام الإمام عليه السلام تبين أبعاد شخصيه الإنسان، التى تتمثل فى الأخلاق الكريمة والفكر الحر والمقام الرفيع والآثار الحميده (كالاتار العلميه والخدمات الاجتماعيه) وبالطبع فإن الشخص الذى ينال هذه الصفات هو إنسان فاضل يسعه أن يكون قدوه وأسوه للآخرين.

ثم ركز الإمام عليه السلام فى مواصلته لكلامه على جزئيات وتفصيل المسائل الأخلاقيه ليشير إلى عشره نماذج من مكارم الأخلاق والصفات الإنسانيه البارزه داعياً الجميع إلى التمسك بها فقال:

«فَتَعَصَّبُوا لِخِلَالِ الْحَمْدِ مِنَ الْحِفْظِ لِلْجَوَارِ، وَالْوَفَاءِ بِالذَّمَامِ، (٤) وَالطَّاعَةِ لِلْبَرِّ، وَالْمَعْصِيَةِ لِلْكَبِيرِ، وَالْأَخْذِ بِالْفُضْلِ، وَالْكَفِّ عَنِ

ص: ٣٣٦

١- (١). «مجداء» جمع «مجيد» بمعنى العزيز والعظيم.

٢- (٢) «نجداء» جمع «نجيد» بمعنى الشجاع من «نجد» بمعنى الأرض المرتفعه.

٣- (٣) «يعاسيب» جمع «يعسوب» وهو أمير النحل. ويستعمل مجازاً بمعنى رئيس القوم كما هنا.

٤- (٤). «ذمام» يعنى العهد.

البُغْيِ، والأَعْظَامِ لِلْقَتْلِ، وَالْإِنصَافِ لِلخَلْقِ، وَالْكُظْمِ لِلغَيْظِ، واجْتِنَابِ الفَسَادِ فِي الأَرْضِ».

ومما لا شك فيه أنّ الإنسان الجامع لهذه الصفات العشر هو إنسان ماجد كما أنّ المجتمع الذي تسوده هذه الخصال هو مجتمع سليم وسعيد ومتطور من جميع الجهات.

جدير ذكره أنّ الصفات المذكوره على صنفين؛ فبعضها تشير إلى اجتناب المفسد الفردي والاجتماعي مثل اجتناب القتل ومخالفة الكبر والابتعاد عن الفساد في الأرض، والبعض الآخر يشير إلى الأفعال النافعه والبناءه مثل حفظ الحقوق والوفاء بالعهد والإتيان بالخيرات والبذل والجود.

أمّا حفظ الجوار فيعني رعايه حقوق الجار التي ورد التأكيد عليها في الشريعة الإسلاميّه، فقد روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«حُسْنُ الْجَوَارِ يَغْمُرُ الدِّيَارَ وَيَزِيدُ فِي الأَعْمَارِ»^(١).

وبالطبع فإنّ

«حُسْنُ الْجَوَارِ» لا يقتصر على كف الأذى عن الجار فحسب، بل لا بدّ من نجدته ومدّ يد العون إليه، وإن تعرض للأذى منه جابهه بكلّ رفق وود، والحقّ لو التزم الجميع بهذه التعاليم الإسلاميّه لسادت المحبّه جميع ربوع العالم.

والوفاء بالذمام إشاره إلى الالتزام بالعهود التي تحظى بفائق الأهميّة في الشريعة السمحاء. وانصاف الخلق إشاره إلى عدم التفريط بحقوق النفس والآخرين والنظر بعين واحده، فينبغي أن يريد للآخرين ما يريد لنفسه ويرفض للآخرين ما يرفضه لنفسه.

تأمل

العصبيّه الإيجابيه والسلبيّه

يختزن الإنسان العديد من الدوافع المعقده التي لو ترك لها العنان وانطلقت من

ص: ٣٣٧

١- (١) الكافي، ج ٢، ص ٦٦٧، ح ٨.

مصادر الجهل لأدت إلى نتائج سلبية للغاية وأحياناً تكون قاتله، ويتوجب على قادة المجتمع في مثل هذه الحالات أن لا ينجسوا لمواجهه هذه الدوافع بغية القضاء عليها فحسب، بل لابد من تصحيح مسيرتها وإعادتها إلى الطريق الصحيح، وبعبارة أخرى لابد من توظيفها من خلال اختيار البدائل الإيجابية دون الاقتصار على مواجهتها.

فالسيل العظيم ربّما يؤدّي إلى القضاء على أموال الناس وهدر طاقاتهم ما لم تتمّ السيطرة عليه، غير أنّه يكون سبباً للعمّان والبناء من قبيل إنتاج الطاقه الكهربائيه وتشغيل المصانع الكبيره وخزن المياه طيله السنه وانعاش قطاع الزراعه لو بوشر ببناء سد عظيم بغية السيطرة على ذلك السيل.

ويبدو هذا المطلب واضحاً جلياً في النصوص الدينيه؛ فقد ورد على سبيل المثال في خطبه النكاح:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحَلَّ النِّكَاحَ وَحَرَّمَ الزَّنا وَالسَّفَاحَ» فالله تبارك وتعالى لم يأمر قط بقمع وكبت الغريزه الجنسيه، بل طرح موضوع النكاح الشرعي كى لا يؤدّي الأمر إلى الأعمال التي تتنافى مع العفه، وحين نصح نبى الله لوط عليه السلام قومه ونهاهم عن إتيان الفاحشه اقترح عليهم الزواج من بناته فقال: «هُؤْلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ»^(١).

وجاء في سوره النور بشأن حدّ الزنا: «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ»^(٢) ثم رافقته دعوه عامه لأبناء المجتمع إلى الزواج والتكافل الاجتماعى بهذا الشأن فقال: «وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ»^(٣).

كما صرّحت بعض الروايات الإسلاميه:

«فَأَمَّا سُؤْمُ الْمَرْأَةِ فَكَثْرَةُ مَهْرِهَا...»^(٤).

ص: ٣٣٨

١- (١) سوره هود، الآيه ٧٨.

٢- (٢) . سوره النور، الآيه ٢.

٣- (٣) سوره النور، الآيه ٣٢.

٤- (٤) وسائل الشيعه، ج ١٥، الباب ٥ من أبواب المهور، ح ١١.

كما ورد في البعض الآخر:

«وَمِنْ شُؤْمِهَا شِدَّةُ مَوْتِهَا» (١).

فقد تعارف بين الناس وجود بعض الأمور من قبيل الشؤم والتفائل ولكن بصوره خرافيه وغايه في الضرر؛ فما كان من الإسلام إلّا أن كساها ثوب المنطق دون أن ينبرى لاقتلاعها.

والقضية هذه جاريه عينها على التعصب؛ فهناك بعض الدوافع الباطنيه للإنسان التي تسوقه نحوالتعصب فإن خلى بينه وبينها ساقته إلى الجوانب السلبيه التي تؤدى إلى الكبر والغرور وربّما الاختلاف والنزاعات الدمويه؛ إلّا أن الإمام عليه السلام سعى توجيهه باتجاه الجوانب الإيجابيه فصرح أنه إن كان ولا بدّ لهؤلاء الأفراد والقبائل من التعصب فليكن هذا التعصب فى مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال والدفاع عن المظلومين ومواجهه الظالمين ومدّ يد العون إلى المعوزين والمحتاجين.

ص: ٣٣٩

١- (١) وسائل الشيعه، ج ١٥، الباب ٥ من أبواب المهور، ح ١٠.

وَاحْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالْأُمَّمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثَلَاتِ بِسُوءِ الْأَفْعَالِ، وَذَمِيمِ الْأَعْمَالِ.

فَتَذَكَّرُوا فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَحْوَالَهُمْ، وَاحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ.

فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي تَفَاوُتِ حَيَاتِهِمْ، فَالزُّمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ الْعِزَّةُ بِهِ شَأْنَهُمْ، وَرَاحَتِ الْأَعْيَادُ لَهُ عَنْهُمْ، وَمُيِّدَتِ الْعِزَّةُ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَانْقَادَتِ النُّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ، وَوَصِيَلَتِ الْكِرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلَهُمْ مِنَ الْاجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ، وَاللُّزُومِ لِلْأُلْفَةِ، وَالتَّحِيَّاتِ عَلَيْهَا، وَالتَّوَاصِي بِهَا، وَاجْتَنَبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ، وَأَوْهَنَ مُنْتَهَهُمْ؛ مِنْ تَضَاعُنِ الْقُلُوبِ، وَتَشَاخُنِ الصُّدُورِ، وَتَدَابُرِ النُّفُوسِ، وَتَخَاذُلِ الْأَيْدِي.

الشرح والتفسير: الاعتبار بالماضين

دعا الإمام عليه السلام في هذا القسم وبعض الأقسام القادمة مخاطبيه إلى تأمل أحوال الأمم السابقة فاستعرض عناصر ضعفهم وقوتهم وعرفهم بالأسباب التي تقف وراء نجاحهم وفشلهم في مختلف زوايا حياتهم، حتى ينفثوا على تجاربهم ويشقوا طريقهم الصائب في حياتهم في ظل الاستفادة من التاريخ، وهذا النوع من التعليم والتعلم عن طريق النظر في تاريخ الأمم السالفة) مما أكدته القرآن الكريم في أكثر السور القرآنية والذي لا يخفى مدى تأثيره ودوره.

فقال عليه السلام:

«وَاحْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالْأُمَّمِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْمَثَلَاتِ بِسُوءِ الْأَفْعَالِ، وَذَمِيمِ الْأَعْمَالِ. فَتَذَكَّرُوا فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَحْوَالَهُمْ، وَاحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ».

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارة إلى مصير بعض الأقوام مثل قوم عاد، وشمود وقوم نوح وقوم لوط وعاقبه الفراعنه وأمثال نمرود وما أصابهم من العذاب بفعل أعمالهم القبيحة فحذّرهم من مغتبه الإبتلاء بذات المصير.

والعبارة:

«سُوءِ الْأَفْعَالِ وَذَمِيمِ الْأَعْمَالِ» يمكن أن تكون تأكيداً لمعنى معين هو الأفعال القبيحة والذميمة، وهنالك احتمال آخر أن سوء الأفعال إشارة إلى الأعمال السيئه وذيمة الأعمال، الأفعال المستهجنة وإن لم تبلغ مرحلة الذنب مثل الغفلة عن المحرومين وترك الانصاف والبذل والعطاء والأثره.

ولما فرغ الإمام عليه السلام من هذا البيان الإجمالى خاض فى التفاصيل ليستفيد من ذات الأسلوب القرآنى الذى طرح كراراً بغيه بيان المسائل المهمه فقال:

«فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي تَفَاوُتِ حَيَاتِهِمْ، فَالزَّمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ الْعِزَّةُ بِهِ شَأْنَهُمْ، وَرَاحَتِ الْأَعْيَادُ لَهُ عَنْهُمْ، وَمُرِدَّتِ الْعِرَافِيَةُ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَانْقَادَتِ النَّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ، وَوَصَلَتِ الْكِرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلُهُمْ».

ثم تطرق عليه السلام إلى بيان العناصر التى تقف وراء هذه الأمور الخمسه (العزّه ودحر العدو والعافيه والنعمة والكرامة) فقال:

«مِنَ الْاجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ، وَاللُّزُومِ لِلْإِلْفَةِ، وَالتَّحَاصُّصِ عَلَيْهَا، وَالتَّوَاصِي بِهَا».

ورغم أن هذه العناصر الأربعة تعود جميعاً إلى مسأله الاتحاد والوحده، غير أن كل واحد يعالج نقطه معينه: فاجتناب الفرقه ناظر لنفى عناصر التفرقه والاختلاف ولزوم الإلفه لترسيخ عوامل الوحده، والتحاض إشارة إلى الحض والتشجيع (ربما التشجيع العلمى) والتواصى المراد به عن طريق البيان والحوار.

ثم أشار عليه السلام إلى الجانب السلبى لهذه المسأله؛ أى التفرقه وعناصرها فحذّرهم بعبارات عميقه المعنى من ضروره نبذ عوامل الفرقه والاختلاف فقال:

«وَاجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ (١)، وَأَوْهَنَ مُنْتَهُم (٢)».

ص: ٣٤٢

١- (١) «فقره» وجمعها «فقرات» بمنزله العمود الذى يشد ظهر الإنسان ويجعله يستقيم وينحى.

٢- (٢) «مُنْتَهُ» بمعنى القوه و «مِنْتَهُ» على وزن «عِزّه» بمعنى النعمه العظيمه التى توجب القدره والقوه وقال الراغب فى المفردات إنها مشتقه فى الأصل من «مَنْ» وحده الوزن.

آنذاك ركز الإمام عليه السلام على العوامل الخاصه بعد ذكره لهذا المبدأ الكلى فقال:

«مِنْ تَصَاغُنِ الْقُلُوبِ، وَتَشَاخُنِ الصُّدُورِ، وَتَدَابُرِ النَّفُوسِ، وَتَخَاذُلِ الْأَيْدِيِ».

فهذه العناصر الأربعة هي العوامل الرئيسيّة للاختلاف والتي لبعضها جانب باطنى من قبيل الأحقاد الكامنه فى الصدور والحسد والبخل بينما لبعضها الآخر جانب ظاهرى من قبيل تولى البعض عن البعض الآخر وترك الأخوه والمؤمنين عند الحوادث والشدائد، نعم! لو سادت هذه الأمور أیه أمه لكسرت فقرتها وسلبتها قوتها وقدرتها.

ص: ٣٤٣

وَتَدَبَّرُوا أحوَالَ المَاضِيَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ، كَيْفَ كَانُوا فِي حَالِ التَّمْحِيصِ وَالبَلَاءِ. أَلَمْ يَكُونُوا أَثْقَلَ الخَلَائِقِ أَعْبَاءً، وَأَجْهَدَ العِبَادِ بَلَاءً، وَأَضْيَقَ أَهْلِ الدُّنْيَا حَالًا. اتَّخَذَتْهُمْ الفِرَاعِنَةُ عَيْدًا فَسَامُوهُمْ سُوءَ العَدَابِ، وَجَزَّ عَوْهُمْ المُرَارَ، فَلَمْ تَبْرَحِ الحَالُ بِهِمْ فِي دُلِّ الهَلَكَةِ وَقَهْرِ العَلْبَةِ، لِأَيِّجِدُونَ حِيلَةً فِي امْتِنَاعِ، وَلَمَّا سَبِيلًا إِلَى دِفَاعِ. حَتَّى إِذَا رَأَى اللهُ سُبْحَانَهُ جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الأَذَى فِي مَحَبَّتِهِ، وَالإِحْتِمَالَ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ، جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَائِقِ البَلَاءِ فَرَجًا، فَأَبْدَلَهُمُ العِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ، وَالأَمْنَ مَكَانَ الخَوْفِ، فَصَارُوا مُلُوكًا حُكَّامًا، وَأئِمَّةً أَغْلَامًا، وَقَدْ بَلَغَتِ الكِرَامَةُ مِنَ اللهِ لَهُمْ مَا لَمْ تَذْهَبِ الأَمَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ.

الشرح والتفسير: عناصر انتصار المؤمنين الأوائل

بالنظر إلى أن الموضوع الأصلي لهذه الخطبة يتمثل في مواجهه الكبر والغرور والعصبيات السلبيه وقد بين الإمام عليه السلام ذلك في الفصل السابق ولفت انتباه مخاطبيه إلى أحوال الأمم السالفه وانتصاراتهم ونجاحهم في ظل وحدتهم وإلقتهم، وعاد ثانياه ليلفت أنظارهم إلى التأمل في سيره الأمم السابقيه وما عانوه من امتحانات شاقه وعسيره ليستعرض لهم كيفيه نجاحهم في تلك الامتحانات وتسلطهم على العدو، فأفاض الله عليهم العزّه والعظمه ومنحهم الأمن فقال:

«وَتَدَبَّرُوا أحوَالَ المَاضِيَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكُمْ، كَيْفَ كَانُوا فِي حَالِ التَّمْحِيصِ وَالبَلَاءِ».

ثم تطرق عليه السلام إلى توضيح تلك الامتحانات الصعبة فقال:

«أَلَمْ يَكُونُوا أَثْقَلَ الْخَلَائِقِ أَعْبَاءً (١)، وَأَجْهَدَ الْعِبَادِ بَلَاءً، وَأَضْيَقَ أَهْلَ الدُّنْيَا حَالًا».

ثم غاص أكثر في التوضيح بهذا الشأن ليركز على ما واجهتهم من صعوبات في حياتهم فقال:

«اتَّخَذْتُهُمُ الْفِرَاعِنَةَ عَيْبِدًا فَسَامُوهُمْ (٢) سُيُوءَ الْعِيَادِ، وَجَزَّ عُوْهُمُ الْمُرَارَ (٣)، فَلَمَّ تَبْرَحِ الْجِيَالِ بِهِمْ فِي ذُلِّ الْهَلَاكِهِ وَقَهْرِ الْغَلْبَةِ، لَا يَجِدُونَ حِيلَةً فِي امْتِنَاعِ، وَلَا سَبِيلًا إِلَى دِفَاعِ».

ورغم أن خطوب حياه الأقبام السابقة وامتحاناتهم الصعبة والشاقه لا تقتصر على زمان الفراعنه، ولكن بما أن القرآن أشار كراراً إلى المصائب التي عانى منها بنو إسرائيل في زمان فرعون والتي يعرفها جميع المسلمين، فقد أشار الإمام عليه السلام على وجه الخصوص إلى تلك الحقبه حيث تحول فيها الجميع إلى عبيد من جانب وكانوا يضطرونهم إلى أعقد الأعمال ويزودونهم بأدنى الإمكانيات وحين يشعرون بالخطر يعمدون إلى قتل رجالهم واستحياء نسائهم واستعمالهن للخدمه، وقد مضت عليهم عدّه سنين ولم يكن لهم من سبيل للنجاه حتى تطف الله عليهم فكانت معجزه الله في انتصارهم على عدوهم بهلاك الفراعنه وأعوانهم، حيث قال عليه السلام في مواصلته لكلامه

«حَتَّى إِذَا رَأَى اللَّهُ سُيُبْحَانَهُ جِدًّا الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الْأَذَى فِي مَحَبَّتِهِ، وَالْإِحْتِمَالَ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ، جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَائِقِ الْبَلَاءِ فَرَجًا».

نعم! فحين يجتاز الإنسان الامتحان يبعث الله عليه ما يفرج عنه مشكلاته وفتشرك عليه شمس النصر والغلبه، الأمر الذي لمسناه في موسى عليه السلام وقومه.

فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارة إلى نصرهم بصورة كليته، ثم خاض في التفاصيل فقال:

«فَأَبْدَلَهُمُ الْعِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ، وَالْأَمْنَ مَكَانَ الْخَوْفِ، فَصَارُوا مُلُوكًا»

ص: ٣٤٦

١- (١) «أعباء» جمع «عبء» على وزن «فكر» بمعنى الحمل الثقيل.

٢- (٢) . «ساموا» من ماده «سوم» على وزن «قوم» بمعنى البحث عن شيء أو إجبار الآخرين على العمل وكذلك الاستمرار أى أن العبارة «ساموهم...» تعنى استمرارهم فى عذاب بنى اسرائيل.

٣- (٣) . «مرار» نوع من الشجره المره المذاق. ثم اطلقت على كلّ حادث مرير.

حُكَّامًا، وَأَيْمَهُ أَعْلَامًا، وَقَدْ بَلَغَتِ الْكِرَامَةَ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ مَا لَمْ تَذْهَبِ الْأَمَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ».

وقد ورد المزيد من التوضيح في القرآن المجيد بشأن بني إسرائيل والفراعنه بهذا الخصوص والذي يكشف النقاب عن دقائق هذا النصر فقال تعالى: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَهُ كَانُوا فِيهَا فَآكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ»(١).

وقال تعالى في موضع آخر: «وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ»(٢).

ص: ٣٤٧

١- (١) سورة الدخان، الآيات ٢٥-٢٨.

٢- (٢) سورة القصص، الآية ٥.

فَانظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ الْأُمَلَاءُ مُجْتَمِعَةً، وَالْأَهْوَاءُ مُؤْتَلِفَةً، وَالْقُلُوبُ مُعْتَدِلَةً، وَالْأَيْدِي مُتْرَادِفَةً، وَالسُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةً، وَالْبَصَائِرُ نَافِذَةً، وَالْعَزَائِمُ وَاحِدَةً. أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَابًا فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِينَ، وَمُلُوكًا عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ! فَانظُرُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ، حِينَ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ، وَتَشَتَّتِ الْأُلْفَةُ، وَاخْتَلَفَتِ الْكَلِمَةُ وَالْأَفِيدَةُ، وَتَشَعَّبُوا مُخْتَلِفِينَ، وَتَفَرَّقُوا مُتَحَارِبِينَ، قَدْ خَلَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كِرَامَتِهِ، وَسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ نِعْمَتِهِ، وَبَقِيَ قَصَصُ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ عِبْرًا لِلْمُعْتَبِرِينَ.

الشرح والتفسير: الوحدة والفرقه، والنصر والهزيمة

بعد أن فرغ الإمام عليه السلام من كلامه السابق بشأن الأقوام السابقة ومصيرهم الذى يختزن الدروس والعبر، خلص فى هذا المقطع من الخطبه إلى نتيجة ليركز على العنصر الرئيسى للنصر المتمثل باتحاد الصفوف والعنصر الرئيسى للفشل المتمثل بتفريق الصفوف ليشير إلى أبعاد وحده الكلمه من خلال عدّه عبارات بسبع جمل فقال:

«فَانظُرُوا كَيْفَ كَانُوا حَيْثُ كَانَتِ الْأُمَلَاءُ (١) مُجْتَمِعَةً، وَالْأَهْوَاءُ مُؤْتَلِفَةً، وَالْقُلُوبُ مُعْتَدِلَةً، وَالْأَيْدِي مُتْرَادِفَةً، وَالسُّيُوفُ مُتَنَاصِرَةً، وَالْبَصَائِرُ نَافِذَةً، وَالْعَزَائِمُ وَاحِدَةً.

أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَابًا فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِينَ، وَمُلُوكًا عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ».

فالإمام عليه السلام أشار بهذه العبارات الغايه فى الروعه والعميقه المعنى إلى الاتحاد

١- (١). «أملاء» جمع «ملاء» بمعنى الجماعه و القوم وأحياناً بمعنى الأيدى المتعاونه مثل أشرف القوم.

والاتفاق فى جميع مظاهره ليعده عنصر الإقتدار والرفعه، الاتفاق فى التطلعات والرغبات والخطط والمشاريع والاتفاق فى العمل والاتفاق عند الصلح والقتال وبالتالي وحده الصفوف فى جميع مظاهر الحياه.

ويبدو الدليل على هذا الكلام واضحاً تماماً؛ ذلك لأنه ليس للأفراد بمفردهم من قدره كبيره وكل واحد منهم كالفطره بحيث لو كانت فى صحراء وأشرفت عليها أشعه الشمس أو هبت عليها الريح لحولتها إلى بخار، غير أنّ هذه القطرات أن اجتمعت مع بعضها البعض شكلت تلك البحار العظيمه التى من شأنها أن تكون مصدر لكل خير وبركه، فخطب العنكبوت بمفرده ضعيف وايل للزوال ولايسعه الصمود أمام أدنى نسيم، غير أنّهم اليوم يلفونها مع بعضها ليصنعوا منها بدله مضاده للرصاص والتى تفوق مقاومتها جميع المقاومات وهذا هو دور الاتحاد والاتفاق.

ولعل هذه العبارات وارده بشأن بنى إسرائيل حين نهض موسى بن عمران عليه السلام بالأمر ووحد صفوفهم فشملتهم العنايه الإلهيه والألطف الربّانيه فورثوا حكمومه مصر والبلدان المجاوره لها، حتى تشكلت بعد موسى عليه السلام حكومات مقتدره كحكمومه داود وسليمان عليهما السلام، وربّما يكون أصلاً كلياً وعماماً حصل كراراً فى تاريخ الأمم السابقيه، وكلّما كان هنالك اتحاد واتفاق ووحدته قرار وخطه حكيمه كان هنالك الانتصار والغلبه، على كلّ حال فإنّ شرح الإمام عليه السلام يكشف النقاب عن هذه الحقيقه أنّه وإن كانت عدّه عوامل ضروريه للنصر والتقدم إلّا أنّ أهمها مسأله الاتحاد والاتفاق.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فذكر العنصر الرئيسى فى الفشل والهزيمه وهو الاختلاف؛ الاختلاف فى وجهات النظر وتشتت الصفوف، ثم أشار إلى أبعاده المختلفه بخمس عبارات فقال:

«فَانظُرُوا إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ، حِينَ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ، وَتَشَتَّتِ الْأَلْفَةُ، وَاخْتَلَفَتِ الْكَلِمَةُ وَالْأَفْنِدَةُ، وَتَسَعَّبُوا مُخْتَلِفِينَ،

وَتَفَرَّقُوا مُتَحَارِبِينَ، قَدْ خَلَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كِرَامَتِهِ، وَسَلَبَهُمْ غَضَارَهُ (١) نِعْمَتِهِ، وَبَقِيَ قَصَصُ أَخْبَارِهِمْ فِيكُمْ عِبْرًا لِلْمُعْتَبِرِينَ».

نعم، فحين تتجه طاقات أمه نحو الاختلاف، وتستبدل الإلفه والمحبه بالنفره والعداوه وتتصاعد فيها ألسنه لهيب اختلاف الكلمه وتفرق الأفكار إنما تخوض حربها ضد نفسها وتهدر طاقاتها بدلاً من تصديها لعدوها الذي ينوى القضاء عليها، والله سبحانه وتعالى ينزع عنها لباس العزّه ويكسيها لباس الذل والهوان.

ويمكن أن يكون هذا الجانب من كلام الإمام عليه السلام إشاره إلى قصه بنى إسرائيل بعد تلك الانتصارات الممتاليه حين فقدوا مجدهم وعزّتهم إثر الاختلاف والتشتت فتفرقوا فى الأرض، وربّما يكون إشاره إلى جميع الأقسام التى تعيش حاله السقوط بسبب كفران النعمه والاختلاف والتشتت عقب الانتصارات الباهره التى تحقّقها فى ظلّ الاتحاد ووحده الكلمه.

ص: ٣٥١

١- (١). «غَضَارَهُ» بمعنى السعه.

فَاعْتَبِرُوا بِحَالِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَبَنِي إِسْحَاقَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ (عليهم السلام). فَمَا أَشَدَّ اعْتِدَالَ الْأَحْوَالِ، وَأَقْرَبَ اشْتِبَاهِ الْأَمْثَالِ!

تَأَمَّلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشْتِيهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ، لِيَالِي كَانَتِ الْأَكَاْسِرَةُ وَالْقِيَاصِرَةُ أَرْبَابًا لَهُمْ، يَحْتَازُونَهُمْ عَنْ رَيْفِ الْأَفَاقِ، وَبَحْرِ الْعِرَاقِ، وَخُضْرَةِ الدُّنْيَا، إِلَى مَنَابِتِ الشَّيْحِ، وَمَهَيَا فِي الرِّيْحِ، وَنَكَدِ الْمَعَاشِ، فَتَرَكُوهُمْ عِيَالَهُ مَسِيَاكِينَ إِخْوَانَ دَبْرٍ وَوَبْرٍ، أَذَلَّ الْأَمَمِ دَارًا، وَأَجِيدَ بِهِمْ قَرَارًا، لِيَأْوُونَ إِلَى جَنَاحِ دَعْوِهِ يَعْتَصِمُونَ بِهَا، وَلَمَّا إِلَى ظِلِّ أُلْفِهِ يَعْتَمِدُونَ عَلَى عَرْهَا. فَالْأَحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ، وَالْأَيْدِي مُخْتَلِفَةٌ، وَالْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ؛ فِي بِلَاءِ أَرْزُلٍ، وَأَطْبَاقِ جَهْلِ! مِنْ بَنَاتِ مَوْوُودِهِ، وَأَصْنَامِ مَعْبُودِهِ، وَأَرْحَامِ مَقْطُوعِهِ، وَغَارَاتِ مَشْنُونِهِ.

الشرح والتفسير: الاعتبار بولد إسماعيل وإسحاق

تابع الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه ما ذكره في المقاطع السابقه بشأن العناصر التي تقف وراء انتصار وفشل الأمم السابقه فركز على المصاديق العينيّه لهذا الموضوع وأخذ بيد مخاطبيه ليغوص بهم في أعماق التاريخ فيكشف لهم النقاب عن قصه ولد إسماعيل وإسحاق عليهما السلام وبنى إسرائيل ليعتبروا بهم فقال:

«فَاعْتَبِرُوا بِحَالِ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَبَنِي إِسْحَاقَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. فَمَا أَشَدَّ اعْتِدَالَ (١) الْأَحْوَالِ،

ص: ٣٥٣

١- (١). «اعتدال» الحد الوسط بين الافراط والتفريط وأيضاً المساواه بين الشئيين وتشابهما (كل واحده عدل الأخرى) وهو المعنى المراد في العبارة.

وعلى هذا الضوء فقد دعاهم الإمام عليه السلام لمقارنه أنفسهم بمن سبقهم ليتعرفوا على عناصر نجاحهم وإخفاقهم لكي لا يقعوا في شباك الشيطان ويعيشوا هوى النفس والغرور والتعصب.

وهنا لابد من الالتفات إلى أنّ ولد إبراهيم عليه السلام ينقسمون إلى ثلاث طوائف؛ طائفة هم بنو إسماعيل الذين يعدون أجداد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وبنو إسحاق الذين يتفرعون إلى فرعين؛ فرع هم بنو يعقوب الذين يشكلون قوم بني إسرائيل وفرع آخر هم بنو «عيسو» ومن نسلهم «الأدوميون» (قوم من أولى القوّه كانوا يقطنون في منطقه «أدوم» التي تمتد من جنوب البحر الميت إلى شمال الحجاز).

ويحتمل أن يكون المراد بالعبارات السابقة قد أشار إلى قانون كلّى في أنّ التاريخ يعيد نفسه باستمرار وعاده ما تعيش الشعوب والأمم ظروفًا متشابهة تستطيع من خلالها كلّ أمّة أن تحدد معالم مصيرها.

ثم تطرق عليه السلام إلى شرح هذا الكلام بأسلوب الاجمال والتفصيل الذى يلعب دوراً في بيان الحقيقة فقال:

«تَأْمَلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشَبُّهِهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ، لِيَأْتِيَ كَانَتِ الْأَكَاسِرَةُ (٢) وَالْقِيَاصِرَةُ (٣) أَرْبَابًا لَهُمْ، يَحْتَازُونَهُمْ (٤) عَنْ رِيْفِ (٥) الْأَفَاقِ، وَبَحْرِ الْعِرَاقِ، وَخُضْرَةِ الدُّنْيَا، إِلَى مَنَابِتِ الشَّيْحِ (٦)، وَمَهَافِي (٧) الرِّيحِ، وَنَكَدِ (٨) الْمَعَاشِ».

ص: ٣٥٤

- ١- (١) «اشتباه» لها معنيان؛ الأول الخطأ في الفهم أو العمل و الثاني تشابه شيئين والمعنى الثاني هو المراد في العبارة أيضاً.
- ٢- (٢) . «أكاسره» جمع «كسرى» (بكسر وفتح الكاف) لقب عام لملوك ايران قبل الإسلام.
- ٣- (٣) «قياصره» جمع «قيصر» على وزن «حيدر» لقب عام لملوك الروم.
- ٤- (٤) «يحتازونهم» من ماده «حيازه» بمعنى التملك والمعنى المراد في هذه العبارة أنّهم يقبضونهم عن الأرض الخصبه.
- ٥- (٥) «ريف» الأرض الخصبه والزراعيه.
- ٦- (٦) «شيع» نبات مر ذات ريحه طيبه.
- ٧- (٧) «مهافي» جمع «مهفي» المواضع التي تهفّ فيها الرياح أى تهب.
- ٨- (٨) «نكد» بمعنى الشيء القليل.

إشاره إلى أنهم سلبوهم حياه القرى والمدن المباركه وهجروهم إلى الصحارى والمناطق الجرداء القاحله.

ثم قال عليه السلام:

«فَتَرَكُوهُمْ عَالَهُ (١) مَسَاكِينَ إِخْوَانَ دَبْرٍ (٢) وَوَبْرٍ (٣) ، أَدَلَّ الْأُمَمِ دَارًا ، وَأَجِيدَ دَبْهُمُ قَرَارًا لَأَيُّوُونَ (٤) إِلَى جَنَاحِ دَعْوِهِ يَغْتَصِمُونَ بِهَا ، وَلَا إِلَى ظِلِّ أُلْفِهِ يَغْتَمِدُونَ عَلَى عِزِّهَا».

انذاك خاض عليه السلام فى شرح معطيات هذا الوضع فقال:

«فَالْأَحْوَالُ مُضْطَرِبَةٌ ، وَالْأَيْدِي مُخْتَلِفَةٌ ، وَالْكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ ، فِي بَلَاءٍ أَزَلٍ (٥) ، وَأَطْيَاقٍ جَهْلٍ ! مِنْ بَنَاتٍ مَوْوُودَةٍ (٦) ، وَأَصْنَامٍ مَعْبُودَةٍ ، وَأَرْحَامٍ مَقْطُوعَةٍ ، وَغَارَاتٍ (٧) مَشْنُونَةٍ (٨)».

إشاره إلى أن اختلاف الآراء وتششت الأفكار، إنما تفرز على الدوام المحن والخطوب التى تصيب المجتمعات البشرى فتطمرها فى وادى الجهل، كما يشير تاريخ الجاهليه إلى أنهم كانوا يمارسون الأعمال الهمجيه والبربريه، وقد أشار الإمام عليه السلام إلى أربعة نماذج منها؛ فكانوا يعمدون إلى وأد بناتهم أحياءً تحت ذريعه حفظ الحرمه وابرار الغيره والنجاه من الفضيحه والعار، ويعبدون الأحجار التى كانوا يصنعونها بأيديهم فكان لكل قبيله صنمها ووثنها، فقريش وبنو كنانه والأوس

ص: ٣٥٥

١- (١) . «عاله» جمع «عائل» الفقير و «عيلوله» قضاء حوائج الآخرين.

٢- (٢) «دبر» جمع «دبره» على وزن «شجره» القرحة فى ظهر الدابه.

٣- (٣) «وير» شعر الجمال والمراد فى العبارة أنهم رعاه.

٤- (٤) . «يأوون» من ماده «إواء» على وزن «كتاب» بمعنى الدخول والسكن فى مكان.

٥- (٥) . «أزل» بمعنى الشده؛ وتأتى بمعنى الحبس أيضاً.

٦- (٦) «موؤوده» من «وأد» على وزن «رعد» تعنى فى الأصل الثقل، ثم اطلقت على البنت التى كانت تدفن وهى حيّه فى عصر الجاهليه أيضاً، لأنهم كانوا يخفونها تحت التراب ويضعون فوقها الكثير من التراب.

٧- (٧) «غارات» جمع «غار» تعنى فى الأصل الهجوم، وحين يكون الهجوم من كل جانب يقال له «غارات مشنونه».

٨- (٨) «مشنونه» من «شن» على وزن «ظن» الهجوم من كل جانب.

والخزرج كانوا يعبدون «مناه»، وبنو ثقيف «اللاه والعزى» وهذيل «سواع» وبنو كلب «ود» وسائر الطوائف كانت تعبد سائر الأصنام، وقد نصب «هبل» كأعظم صنم لهم في الكعبة بينما كان «اساف» و «نائله» على الصفا والمروه فكان الجميع يعظم هذه الأصنام الثلاثة فتحولت الكعبة مركز التوحيد والعبوديه إلى أكبر معبد وثنى للأصنام.

وقطع الرحم الوارد في كلام الإمام عليه السلام يمكن أن يكون إشاره إلى قتلهم أولادهم خشيه الفقر أو بصفته عباده يتقربون بها لأصنامهم، وتشير «الغارات المشنونه» الحروب المتعدده التي كانت تنشب بين القبائل العربيه في العصر الجاهلى تحت مختلف الذرائع، حتى ذهب بعض المؤرخين إلى أنّ نار تلك الحروب لم تكن تطفأ حتى ظهر الإسلام فوضع حداً للاقتتال القبلى وقتل الأولاد ووأد البنات وعباده الأوثان.

وهذا هو مصير من يقطع أواصر الوحده ويقبل على الاختلاف والتشتت والنفاق والذى يتجلى بصيغه معينه فى كل أمه ولا يقتصر على العصر الجاهلى.

تأمل

القطره والبحر

لعلنا سمعنا كراراً هذا الكلام فى أنّ قطرات الأمطار ليس لها من قيمه تذكر بمفردها، غير أنّها إن اتصلت بسائر القطرات وشكلت نهراً عظيماً وتراكت مع بعضها البعض الآخر ألفت كتله عظيمه من شأنها القيام ببعض الأعمال الكبيره ومن ذلك إنتاجها للقوه الكهربائيه التى تشغل المصانع والمعامل الضخمه، وتضيئ المدن والقرى وتسقى قطاعات واسعه من المزارع والحقول، وبالتالي يمكنها إضفاء الحياه والحيويّه.

ويبدو أنّ الناس كذلك، فكلّ إنسان مهما كانت قدرته وطاقته لا يمكنه القيام ببعض الأعمال بمفرده، على غرار قطره المطر، ولكن ما أن تتضافر هذه الجهود الصغيره حتى يكون لها تأثيراتها الواضحه فى هذا العالم، فهى لا تشكل درعاً

حصيناً العدو فحسب، بل تلعب دورها في عالم الاقتصاد والعلم والمعرفة فتؤدي إلى كل ذلك الرقى والتقدم والإزدهار، والحقّ لولا- تلاقح قطرات علم العلماء طيله التاريخ وفي المجتمعات البشريّه لما شهدنا ليوم كلّ هذا التقدم العلمي الهائل ولما كان التمدن يفوق مدنيه العصور الحجرية.

وإذا دبّ الاختلاف في صفوف المجتمعات البشريّه فلا تتوقف عجله الرقى والتقدم فحسب، بل تنعدم كلّ القدرات والقوى في اتون الاقتتال الداخلي والذي لا يفضى سوى إلى الدمار والخراب والتخلف.

وقد أكد الإمام عليه السلام مراراً في هذه الخطبه الشريفه على هذا المعنى، فأخذ بيد مخاطبيه إلى أعماق التاريخ البشري ليربهم عن كثر نتائج الاتحاد والفرقه.

من جانب آخر فقد ورد مثل هذا التأكيد في الآيات القرآنيه والروايات الإسلاميه؛ ولكن ما تجدر الإشارة إليه أنّ الظفر بوحده الصفوف لا يبدو بالأمر الهين بل يحاط بالعديد من الصعوبات والعوائق، ومنها التعصب والكبر والفخر وترجيح المصالح الذاتيه الضيقه والقصيره الأمد على المنافع العامه والبعيده الأمد، وقد عدّها الإمام عليه السلام في هذه الخطبه من العقبات التي تعترض سبيل الوحده.

وقد أكد الإمام عليه السلام هذا المعنى في سائر خطب نهج البلاغه أيضاً؛ ومن ذلك ما ورد في الخطبه ١٢٧ أنه قال:

«وإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذُّبِّ».

كما وردت إشاره رائعه إلى هذا المعنى في الخطبه ٨٦:

«وَلَا تَبَاغَضُوا فَإِنَّهَا الْحَالِقَةُ».

ونختتم هذا الكلام بالرساله المهمه التي صرح بها القرآن الكريم في قوله تعالى:

«وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ»(١).

ص: ٣٥٧

فَانظُرُوا إِلَى مَوَاقِعِ نِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا فَعَقَدَ بِمِلَّتِهِ طَاعَتَهُمْ، وَجَمَعَ عَلَى دَعْوَتِهِ أُلُفَّتَهُمْ: كَيْفَ نَشَرَتِ النُّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا، وَأَسَالَتْ لَهُمْ حِيَدَ دَاوِلَ نَعِيمِهَا، وَانْتَفَتِ الْمِلَّةُ بِهِمْ فِي عَوَائِدِ بَرَكَتِهَا، فَأَصْدَبُوا فِي نِعْمَتِهَا غَرَقِينَ، وَفِي خُضْرِهِ عَيْشَتِهَا فَكَيْهِينَ. قَدْ تَرَبَّعَتِ الْأُمُورُ بِهِمْ، فِي ظِلِّ سُلْطَانِ قَاهِرٍ، وَأَوْتَهُمُ الْحَالُ إِلَى كَنْفِ عِزِّ غَالِبٍ، وَتَعَطَّفَتِ الْأُمُورُ عَلَيْهِمْ فِي ذُرَى مُلْكِكَ ثَابِتٍ. فَهُمْ حُكَّامٌ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَمُلُوكٌ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضَيْنِ. يَمْلِكُونَ الْأُمُورَ عَلَى مَنْ كَامَانَ يَمْلِكُهَا عَلَيْهِمْ، وَيُضْمُونَ الْأَحْكَامَ فِيمَنْ كَانَ يُضْمِيهَا فِيهِمْ! لَاتُعْمَزُ لَهُمْ فَنَاءٌ، وَلَا تُفْرَعُ لَهُمْ صَفَاءٌ.

الشرح والتفسير: عزتكم بالاسلام

بعد كلام الإمام عليه السلام في القسم السابق من هذه الخطبه بشأن خطوب العصر الجاهلي والمشاكل والإرباكات والفقر وعدم الاستقرار التي اتصف بها، تناول هنا شرح المعطيات المباركه التي حصلوا عليها في ظل انبثاق دعوته النبي الأكرم صلى الله عليه و آله وما أصبحوا عليه من اتحاد وإلفه ومحبه، ليشرح هذا الأمر بعبارات غاية في الجمال والبلاغه فقال:

«فَانظُرُوا إِلَى مَوَاقِعِ نِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا، فَعَقَدَ بِمِلَّتِهِ طَاعَتَهُمْ، وَجَمَعَ عَلَى دَعْوَتِهِ أُلُفَّتَهُمْ».

نعم؛ فقد كان كل قوم وقبيله بل كل فرد في العصر الجاهلي يلهث خلف مصالحه ورغباته الضيقه حتى سادهم جو من الفرقة والاختلاف والتشتت، فجمعهم الله

تبارك وتعالى تحت رايه واحده فى ظلّ الإسلام والتوحيد فانقلب كلّ شىء رأساً على عقب.

ثم تطرق عليه السلام إلى بيان هذه النعم من خلال تشبيهات واستعارات رائعة ليتطرق إلى الواحده تلو الأخرى فقال:

«كَيْفَ نَشَرْتِ النَّعْمَةَ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا، وَأَسَالَتْ لَهُمْ حَيْدَاوِلَ (١) نَعِيمِهَا، وَالتَّتَفَّتِ الْمَلَّةُ بِهِمْ فِي عَوَائِدِ بَرَكَتِهَا، فَأَصْبَحُوا فِي نِعْمَتِهَا غَرَقِينَ، وَفِي خُضْرِهِ عَيْشَهَا فَكَيْهِنَ (٢)».

فقد شبه الإمام عليه السلام هذه النعم بالطيور التى تفتح اجنحتها لتضم إليها صغارها فتمنحها الدفء والحنان والأمان، ثم شبهها ثانية بالماء العذب الفرات الذى ينحدر نحو الحقول والمزارع فيجعلها خضراء نضرة، ونتيجة ذلك الغرق فى النعم والعيش بأمان فى ظلّ حياه هائنه وديعه.

ثم واصل كلامه عليه السلام ليشير إلى نعمه الحكومه الإسلاميه، الحكومه العزيزه والمقتدره فقال:

«قَدْ تَرَبَّعَتِ (٣) الْأُمُورُ بِهِمْ، فِي ظِلِّ سُلْطَانِ قَاهِرٍ، وَأَوْتُهُمُ الْحَالَ إِلَى كَنْفِ عِزِّ غَالِبٍ، وَتَعَطَّفَتِ الْأُمُورُ عَلَيْهِمْ فِي ذُرَى (٤) مُلْكٍ ثَابِتٍ».

والتاريخ الإسلامى أفضل شاهد على جميع ما ذكره الإمام عليه السلام بهذه العبارات حيث انتصار العرب بالخصوص والمسلمين بصوره عامه فى ظلّ الإسلام، الأمر الذى يقرّه مؤرخو الشرق والغرب.

ثم أشار فى ختام هذا الكلام إلى النصر المطلق للمسلمين على خصومهم بعبارة بليغه فقال:

«فَهُمْ حُكَّامٌ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَمُلُوكٌ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِينَ. يَمْلِكُونَ الْأُمُورَ عَلَى مَنْ كَدَانَ يَمْلِكُهَا عَلَيْهِمْ، وَيُمْضُونَ الْأَحْكَامَ فِيمَنْ كَانَ يُمْضِيهَا فِيهِمْ! لَا

ص: ٣٦٠

١- (١). «جداول» جمع «جدول» بمعنى مجرى النهر.

٢- (٢) «فكهيّن» جمع «فكه» على وزن «خشن» بمعنى الراضين والفرحين فى الأصل من «فكاهه» على وزن «قباله» بمعنى المزاح والضحك، يقول البعض أنّ أصلها «فاكهه» أى أنّ المزاح حلو كالفكاهه الحلوه.

٣- (٣). «تربعت» من «تربع» بمعنى الاقامه باطمئنان فى مكان.

٤- (٤) «ذرى» جمع «ذروه» (بضم الذال وكسرها) فوق كلّ شىء مثل قله الجبال.

تُغَمَزُ (١) لَهُمْ قَنَاهُ (٢) ، وَلَا تُقْرَعُ (٣) لَهُمْ صَفَاهُ (٤) .

إشاره إلى سطوه الحكام والسلاطين فى العهود السابقه عليهم إثر اختلافهم وفرقتهم وضعفهم وعجزهم حتى استعبدوهم بينما بث فيهم الإسلام روح الاتحاد والقدره والعزّه فانحنوا لهم حيث تحولوا إلى قوّه لا تقهر.

قال أحد المستشرقين: بلغ المسلمون درجه من القوّه بحيث يوصف بالجنون كلّ من يفكر فى مواجهتهم.

ص: ٣٤١

١- (١) «تغمز» من ماده «غمز» على وزن «همز» تعنى الإشاره بالعين واليد للتعييب وتأتى بمعنى الانحناء وهنا المراد هو المعنى الثانى.

٢- (٢) «قناه» به بمعنى الرمح وتأتى بمعنى العصا أيضاً، ويقال لمسير الماء المستقيم أيضاً وهنا المراد هو المعنى الأول.

٣- (٣) «لا تقرع» من ماده «قرع» على وزن «فرع» يعنى صدم شىء بآخر بحيث يصدر عنهما صوت عالٍ.

٤- (٤) «صفاه» بمعنى الحجر الصلد وفى العبارة كناية عن القوّه.

أَلَا وَإِنَّكُمْ قَدْ نَفَضْتُمْ أَيْدِيَكُمْ مِنْ حَبْلِ الطَّاعَةِ، وَتَلَمَّتُمْ حِصْنَ اللَّهِ الْمَضْرُوبَ عَلَيْكُمْ، بِأَحْكَامِ الْجَاهِلِيَّةِ. فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ ائْتَنَّنَ عَلَى جَمَاعِهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ فِيمَا عَقَدَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَبْلِ هَذِهِ الْأُلْفَةِ الَّتِي يَنْتَقِلُونَ فِي ظِلِّهَا، وَيَأْوُونَ إِلَى كَنْفِهَا، يَنْعَمُ لَأَيِّعْرِفُ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ لَهَا قِيَمَةً، لِأَنَّهَا أَرْجَحُ مِنْ كُلِّ ثَمَنٍ، وَأَجَلُّ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ.

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ صِرْتُمْ بَعْدَ الْهَجْرَةِ أَعْرَابًا، وَبَعْدَ الْمَوَالَاهِ أَحْزَابًا. مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا بِاسْمِهِ، وَلَا تَعْرِفُونَ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا رَسْمَهُ.

تَقُولُونَ: النَّارَ وَلَا الْعَارَ! كَأَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُكْفِتُوا الْإِسْلَامَ عَلَى وَجْهِهِ انْتِهَاكَ لِحَرِيمِهِ، وَنَقْضًا لِمِيثَاقِهِ الَّذِي وَضَعَهُ اللَّهُ لَكُمْ حَرَمًا فِي أَرْضِهِ، وَأَمْنًا بَيْنَ خَلْقِهِ. وَإِنَّكُمْ إِنْ لَجَأْتُمْ إِلَى غَيْرِهِ خَارِبَكُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ، ثُمَّ لَجِبْرَائِيلُ وَلَمَّا مِيكَائِيلُ وَلَا مُهَاجِرُونَ وَلَا أَنْصَارٌ يَنْصُرُونَكُمْ إِلَّا الْمُقَارَعَةَ بِالسَّيْفِ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَكُمْ.

وَإِنَّ عِنْدَكُمْ الْأَمْثَالَ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَقَوَارِعِهِ، وَأَيَّامِهِ وَقَائِعِهِ، فَلَا تَسْتَبْطِنُوا وَعَيْدَهُ جَهْلًا بِأَخْذِهِ، وَتَهَاوُنًا بِبَطْشِهِ، وَيَأْسًا مِنْ بَأْسِهِ. فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَعَمْرٍَا يَلْعَنُ الْقُرْنَ الْمَاضِيَةَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِلَّا لِمَتْرِكِهِمُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ. فَلَعَنَ اللَّهُ السُّفَهَاءَ لِرُكُوبِ الْمَعَاصِي، وَالْحُلَمَاءَ لِتَرْكِ التَّنَاهِي.

أَلَا وَقَدْ قَطَعْتُمْ قَيْدَ الْإِسْلَامِ، وَعَطَلْتُمْ حُدُودَهُ، وَأَمَّتُمْ أَحْكَامَهُ.

أشار الإمام عليه السلام في المقاطع السابقة إلى شؤون بني إسرائيل وضعفهم قبل قيام موسى عليه السلام ومن ثم قوتهم واقتدارهم في ظل حركة موسى التي وحدت صفوفهم وبالتالي ضعفهم وذلتهم ثانيه حين تولوا عن الدين الجديد ودعوه موسى، فذكر المسلمين بهذه المراحل الثلاث، المرحله الأولى المتعلقة بالعصر الجاهلي، والمرحلة الثانيه المرتبطه بانبثاق الدعوه الإسلاميه وما انطوت عليه من انتصارات باهره والذى مر علينا فى الأقسام السابقه، وخاض هنا فى تفاصيل المرحله الثالثه التى انطوت على تخلف المسلمين عن الوحده والانتصارات السابقه فقال:

«أَلَا وَإِنَّكُمْ قَدْ نَفَضْتُمْ (١) أَيْدِيَكُمْ مِنْ حَبْلِ الطَّاعَةِ، وَتَلَمَّتُمْ (٢) حِصْنَ اللَّهِ الْمَضْرُوبَ عَلَيْكُمْ، بِأَحْكَامِ الْجَاهِلِيَّةِ».

ثم خاض عليه السلام فى شرح هذا الكلام فقال:

«فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ امْتَنَّ عَلَى جَمَاعِهِ هَذِهِ الْأُمَّهَ فِيمَا عَقَدَ بَيْنَهُمْ مِنْ حَبْلِ هَذِهِ الْأَلْفَةِ الَّتِي يَتَّقُلُونَ فِي ظِلِّهَا، وَيَأْوُونَ إِلَيْ كَنْفِهَا (٣) ، بِنِعْمَةٍ لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ لَهَا قِيَمَةً، لِأَنَّهَا أَرْجِحُ مِنْ كُلِّ ثَمَنٍ، وَأَجَلُّ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ».

فكل هذه العبارات تشير إلى أهميه الاتحاد والإلفه، الأمر الذى أكدته القرآن الكريم فى عدّه مواضع فى قوله تعالى: «وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا (٤)» (٥).

ص: ٣٦٤

١- (١). «نفضتم» من ماده «نفض» على وزن «نفض» بمعنى تحريك الشىء لإخراج ما فى داخله والمراد فى العبارة تقطع عرى الطاعه.

٢- (٢) «تلمتم» من ماده «تلم» على وزن «عزم» بمعنى الخرق والكسر.

٣- (٣). «كنف» بمعنى الحمايه.

٤- (٤) سورة آل عمران، الآيه ١٠٣.

٥- (٥) وشاهدنا آثار هذا الأمر القرآنى وتعليمات الإمام فى أيامنا هذه، وقد أعدّ أعداء الإسلام والاستعمار الغربى خططاً جهنميه ضد البلدان الإسلاميه ولبنان ليسيطروا عليها بواسطه عملائهم فى المنطقه، لكى تضمن حمايه إسرائيل من جانب ولتكون قاعده من جانب آخر للتطاول على سائر البلدان الإسلاميه غير أنّ الشعب اللبنانى عبّر عن وحدته فى ذلك اليوم التاريخى (يوم ٢٦ محرم الحرام ١٤٢٦) ليخرج بتلك المسيرات المليونيه ويطلق الشعارات المعاديه للامبرياليه فأفشل تلك الخطط: «وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ».

فكشف النقاب أكثر عن الموضوع ليقول صراحه:

«وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ صِرْتُمْ بَعْدَ الْهَجْرَةِ أَعْرَابًا وَبَعْدَ الْمَوَالَاهِ أَحْزَابًا. مَا تَتَعَلَّقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا بِاسْمِهِ وَلَا تَعْرِفُونَ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا رَسْمَهُ».

فقد أفصح الإمام عليه السلام في هذه العبارات عن مدى قلقه على أوضاع المسلمين آنذاك وكيف بدت عليهم آثار العصبية القبلية التي جهد النبي صلى الله عليه وآله على إزالتها في ظلّ التعاليم الإسلامية السمحاء، فكانت هذه العصبية أساس الاقتتال وسفك الدماء ولذلك صرّح لهم الإمام عليه السلام: (أنكم لتتحدثون عن الإسلام والإيمان بينما لا تحسنون من الإسلام سوى اسمه ومن الإيمان سوى شكله)، نعم! إنكم لتتطقون بالشهادتين وتأتون ظاهرياً بالصوم والصلاة لكنكم غافلون عن تعاليم هذا الدين.

ثم شرح الإمام عليه السلام هذه العبارة فقال:

«تَقُولُونَ: النَّارَ وَلَمَّا الْعَارَ! كَأَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُكْفِتُوا(١) الْإِسْلَامَ عَلَى وَجْهِهِ انْتِهَاكَ لِحَرِيمِهِ، وَنَقْضًا لِمِيثَاقِهِ الَّذِي وَضَعَهُ اللَّهُ لَكُمْ حَرَمًا فِي أَرْضِهِ، وَأَمْنَا بَيْنَ خَلْقِهِ».

عبارة هذه الشعار

«الْتِمَارَ وَلَمَّا الْعَارَ» اطلقت حسب بعض الشراح لأول مرّة من قبل «أوس بن حارثه»(٢) وهو من الشعارات التعصبيه البعيده عن الإسلام. فهؤلاء يزعمون أنهم مستعدون لدخول النار، لكنهم ليسوا مستعدين لأنّ تظهر عليهم القبيله الفلانيه، أو يراق لهم دم ولا يردون الصاع صاعين. فالإمام عليه السلام يصف هذا الكلام بأنّه نقض العهود والتراجع عن الإسلام.

ص: ٣٦٥

١- (١). «تكفتوا» من ماده «اكفاء» بمعنى الانقلاب.

٢- (٢). عاش في عصر الجاهليته؛ وروى حفيده «حميد بن منهب» أنّ جده أوس بن الحارثه قدم على النبي صلى الله عليه وآله وبايعه مع سبعين نفر من قبيله «طى». (أسدالغابه، ج ١، ص ١٤١).

وقال جمع من شراح نهج البلاغه إن العبارة

«النار ولأ العار» عظيمه إن كانت في الأهداف القدسيه، بينما تعدّ قببته ومذومه إن كانت في المفخر القبليه الواهيه.

إنما يصح هذا الكلام إن لم تكن النار بمعنى جهنم، بل كانت بمعناها الواسع الذي يشمل نار المشاكل الدينويه أيضاً، مثلاً يقال (نتحمل جميع المحن وحتى الموت لكننا لا نقبل بسيطره الكفار على البلاد الإسلاميه) فالشعار بالطبع صحيح؛ أما أن يقال (نحن مستعدون لدخول النار لكننا لا نتحمل أفضليه القبيله الفلانيه) فالشعار هنا خاطئ وينسجم مع العصبية الجاهليه.

وعليه فلا يبدو صحيحاً ما ذكره المحقق التستري في شرحه لنهج البلاغه حيث صرح بأن هذا التقسيم مضحك، ذلك لأن من قال بهذا التقسيم إنما فسّر النار بمعناها الواسع، رغم إن ما ورد في كلام الإمام عليه السلام على لسان المتعصبين آنذاك يرد به الجانب السلبي لذلك الشعار.

ثم أشار عليه السلام إلى العاقبه السيئه لهذا الأسلوب فقال:

«وإنكم إن لخرأتم إلى غيره (١) حاربتكم أهيل الكفر، ثم لجبرائيل ولما ميكائيل ولما مهاجرزون ولما أنصار (٢) ينصرونكم إلا المقارعة (٣) بالسيف (٤) حتى يحكم الله بينكم».

إشاره إلى أنكم حين كنتم متمسكين آنذاك بالإسلام فقد أمدكم الله بنصرته بملائكته وعنايته الغيبية التي عمت الأنصار والمهاجرين، فحرت الأعداء ونلتم

ص: ٣٦٦

١- (١). مرجع الضمير في «غيره» هو الإسلام الذي سبق ذكره، كما احتمال البعض أن يكون المراد الله.

٢- (٢). جاءت مفردة «لا» في أربعة موارد وردت في هذه الجملة ولو كانت «لا» نافيه للجنس لابد أن يرد جبرائيل وميكائيل والمهاجرون والأنصار بالنصب، كما جاء في بعض النسخ. وإن اعتبرناها «لا» نافيه (اللام المشببه بليس) فلا بد أن تقرأ الكلمات الأربع المذكوره بالرفع كما جاءت في النسخه الموجوده.

٣- (٣) «المقارعه» النزاع والقتال والضرب.

٤- (٤) العبارة «إلا المقارعة بالسيف» يحتمل أن تكون من قبيل الاشتناء المنقطع، إشاره إلى أنه سوف لن يكون لكم من نصير ومعين سوى الضرب بالسيف والذي لا يسعها أن تؤدى إلى النصر مع ما أنتم عليه من الفرقه، وعليه ستهزمون، كما ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أن العبارة المذكوره استثناء متصل، أى أن معينكم الوحيد سيوفكم التي فيها نصركم، ولكن يبدو أن هذا الاحتمال لا ينسجم مع سياق عبارات الإمام عليه السلام.

النصر وعشتم العزّه والكرامه والأمن، ولكن ستسلبون كل ذلك إذا وليتم ظهوركم للإسلام وعليه فما لكم إلّا العوده إلى الإسلام الأصيل واطردوا عن أنفسكم الكبر والغرور والعصبيه الجاهليه واطفئوا نيران الفرقة لتشملكم عنايه الله وألطافه.

ثم حذرهم الإمام عليه السلام ودعاهم لمقارنه أوضاعهم بما أصاب الأمم الظالمه من قبلهم، فاستعرض لهم نماذج العقاب الإلهي كما ورد في القرآن الكريم فقال:

«وَإِنَّ عِنْدَكُمْ الْأَمْثَالَ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَقَوَارِعِهِ، وَأَيَّامِهِ وَوَقَائِعِهِ».

والعبارات الأربع

«بأس» و «قوارع» و

«أيام» و

«وقائع» كلها إشاره إلى العاقبه الثقيله والصعبه للأمم المذنبه السالفه، ولكن لكل من هذه العبارات مفهومها الخاص؛ فالبأس تعنى القتال والعذاب والقوارع إشاره إلى العقوبات الشاقه من قبيل طوفان نوح والزلزله التي أصابت قوم لوط وصاعقه قوم عاد وثمود، والأيام إشاره إلى مجموع الأيام التي تشهد وقوع هذه الحوادث، والوقائع هي هذه الحوادث بما فيها المقدمه وذى المقدمه وآثارها ونتائجها.

و

«أيام الله» هنا إشاره إلى أيام الأمم السابقيه الصعبه والمرعبه، فقد جاء في القرآن المجيد بشأن قوم عاد: «إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ» (١). وقال إثر ذلك: «تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ» (٢). وسائر الآيات الكثيره الوارده بشأن قوم فرعون ونوح وأمثالهم.

ثم قال عليه السلام:

«فَلَا تَسْتَبْطِئُوا (٣) وَعِيدُهُ جَهْلًا بِأَخْذِهِ، وَتَهَاوُنًا بِبَطْشِهِ (٤)، وَيَأْسًا مِنْ بَأْسِهِ».

أى إن تأخر عقاب العصاه لبضعه أيام أو بضعه شهور فلا تظنوا باستحاله وقوعه،

ص: ٣٦٧

١- (١) . سورة القمر، الآيه ١٩.

٢- (٢) سورة القمر، الآيه ٢٠.

٣- (٣) . «تستبطنوا» من ماده «استبطاء» «بُطِئ» على وزن «قفل» ضد السرعه.

٤- (٤) «بطش» تعنى فى الأصل الحصول على شىء بالقوّه، وردت بمعنى العقاب لأنهم يقبضون على المجرم بالقوّه حين العقوبه.

فقد اثبت التاريخ وقوع هذا العذاب رغم تأخيره، وبالطبع فليس لهذا التأخير من أهميته مقارنة بعمر العالم.

ثم خاض عليه السلام في أسباب هذا الموضوع (التشابه في المصير) ليركز على أهمها فقال:

«فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَلْعَنِ الْقُرْنَ الْمَاضِيَةَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِلَّا لِتَرْكِهِمُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ. فَلَعَنَ اللَّهُ السُّفَهَاءَ لِرُكُوبِ الْمَعَاصِي، وَالْحُلَمَاءَ (١) لِتَرْكِ التَّنَاهِي».

والكلام إشاره إلى الآيه القرآنيه الشريفه التي تقول: «لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» (٢).

وبالطبع وردت إشارات إلى سائر عوامل سقوطهم في القسم القادم من الخطبه؛ إلا أن عبارته الإمام عليه السلام تشير إلى أن أفدح أخطائهم تركهم فريضه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك لأن تطبيق جميع الأحكام الشرعيه يتوقف على إحياء هاتين الفريضتين، فإن أُقيمتا أُقيمت جميع الفرائض وإن تركتا تعطلت سائر الفرائض والت إلى الفناء والزوال، ولذلك ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«إِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ... فَرِيضَةٌ عَظِيمَةٌ بِهَا تُقَامُ الْفَرَائِضُ» (٣).

وستنتظر إن شاء الله في الخطب القادمه إلى الأهميه الفائقه لفريضه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام في الموضوع الذي ورد الحديث فيه صراحه عن هذه الفريضه.

ثم اختتم الإمام عليه السلام كلامه في هذا الجانب من الخطبه بالقول:

«أَلَا وَقَدْ قَطَعْتُمْ قَيْدَ الْإِسْلَامِ، وَعَطَلْتُمْ حُدُودَهُ، وَأَمْتُّمْ أَحْكَامَهُ».

ص: ٣٤٨

١- (١). «الحلماء» جمع «حليم» بمعنى العاقل ومن ماله «حلم» على وزن «سُبُل» بمعنى العقل.

٢- (٢) سورة المائده، الآيتان ٧٨ و ٧٩.

٣- (٣) الكافي، ج ٥، ص ٥٦.

هذه الكلمات تشير إلى أنّ الاكتفاء بظاهر الإسلام وبعض الطقوس الظاهريّة ليس مدعاه للنجاه، بل لا بدّ من الالتزام بأحكامه وتعاليمه وإقامه حدوده وتحكيم الإسلام في جميع المجالات وأنتم لستم كذلك، فأنتم تتشّدقون باسم الإسلام وتصرفون تصرف الجاهليّه، ومع ذلك تتوقعون العزّه والإقتدار.

ص: ٣٦٩

أَلَمْأ وَقَدْ أَمَرَنِي اللَّهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ وَالنَّكْثِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، فَأَمَّا النَّاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُ، وَأَمَّا الْقَاسِيَةُ طُونَ فَقَدْ جَاهَدْتُ، وَأَمَّا الْمَارِقَةُ فَقَدْ دَوَّخْتُ، وَأَمَّا شَيْطَانُ الرَّذْهَةِ فَقَدْ كُفَيْتُهُ بِصَيْعِقِهِ سَمِعَتْ لَهَا وَجْبَهُ قَلْبِهِ وَرَجَّهُ صَدْرِهِ، وَبَقِيَتْ بَقِيَّتَهُ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ. وَلَئِنْ أَدْنَى اللَّهُ فِي الْكُرْهِ عَلَيْهِمْ لِأَدِيلِنَّ مِنْهُمْ إِلَّا مَا يَتَشَدَّرُ فِي أَطْرَافِ الْبِلَادِ تَشَدُّرًا.

الشرح والتفسير: تكليفي في قتال المفسدين

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه إلى معاركة المعروفه ضد الفئات الظالمه في الجمل و صفين والنهروان وكيف كشف لهم عن قدرته وقوته، وكأنه أراد بهذا الكلام أن يلوح بقوته لبعض القبائل المتمرده التي عاشت الاقتتال مع بعضها بفعل العصبيات القبليه ويلقها حجراً ويفهمها أنها إن واصلت هذه المسيره الخاطئه ستجابه بأشد العذاب فقال:

«أَلَمْأ وَقَدْ أَمَرَنِي اللَّهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ وَالنَّكْثِ (١) وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، فَأَمَّا النَّاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُ، وَأَمَّا الْقَاسِيَةُ طُونَ (٢) فَقَدْ جَاهَدْتُ، وَأَمَّا الْمَارِقَةُ (٣)»

ص: ٣٧١

- ١- (١). «نكث» بمعنى نقض العهد. وأهل النكث إشارة إلى طلحه والزبير وأمثالهما ممن بايع الإمام عليه السلام ثم نقضوا البيعه وقاتلوا الإمام عليه السلام في معركة الجمل وأخيراً قتلوا ويقال لهم الناكثون.
- ٢- (٢). «قاسطون» من ماده «قسط» تأتي بمعنى الظلم والعداله، وتشير هنا إلى أصحاب معاويه الذين كانوا جائرين عن الحق وظالمين بحق الناس.
- ٣- (٣) «مارقه» من ماده «مروق» على وزن «غروب» بمعنى الخروج من شيء وغالباً هو السهم حين يطلق من القوس ويتجاوز الهدف، وقيل المارقه للخوارج في النهروان بسبب إفراطهم وتعصبهم وتحجرهم وأنهم كفروا الجميع غيرهم (كالوهابيه).

فَقَدْ دَوَّخْتُ (١)».

إشاره إلى: أن قتالي لهذه الفئات الثلاث كان بأمر الله تعالى، ويستند هذا الكلام إلى الروايه الوارده عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال لأمير المؤمنين على عليه السلام:

«وَأَنَّكَ سَتُقَاتِلُ بَعْدِي النَّاكِثِينَ وَالْقَاسِطِينَ وَالْمَارِقِينَ» (٢).

وقد ورد هذا الكلام في (أسد الغابه) أنه عليه السلام قال:

«عَهْدُ إِلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاكِثِينَ وَالْقَاسِطِينَ وَالْمَارِقِينَ» (٣). هذا أولاً.

ثانياً: إشاره إلى أنني هزمت الفئات الثلاث، أما أصحاب الجمل فقد تفرقوا أيادي سباً وكسرت شوكة خوارج النهروان، كما تحطم معاويه وصحبه يوم صفين، غير أن حيله ابن النابغه عمر بن العاص قد أنقذته من الهزيمه المطلقه.

ثم واصل عليه السلام كلامه ليركز على زعيم الخوارج حرقوص بن زهير وكنيته ذوالثديه، الذي قتل شر قتله يوم النهروان فقال:

«وَأَمَّا شَيْطَانُ الرَّذْهَةِ (٤) فَقَدْ كَفَيْتُهُ بِصَعْقِهِ (٥) سَمِعْتُ لَهَا وَجْبَهُ (٦) قَلْبِهِ وَرَجَّهُ (٧) صَدْرِهِ».

وهناك خلاف بين شراح نهج البلاغه بشأن هذه الصاعقه، فقد ذهب البعض إلى أن صاعقه من السماء نزلت حقاً على زعيم الخوارج ذوالثديه فأهلكته وقذفت بجسمه في تلك الحفره (ردهه بمعنى حفره ماء) بينما يعتقد البعض الآخر أن تلك الصاعقه هي الصراخات الشجاعه المدويه التي كانت تنطلق من الإمام عليه السلام في بدايه المعركه، فكانت هذه الصراخات تقض مضاجع البعض ومنهم ذو الثديه الذي إعتراه

ص: ٣٧٢

١- (١) «دَوَّخْتُ» من ماده «دوخ» على وزن «فوق» بمعنى أضعف وأذل.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٦، ص ١٣٠.

٣- (٣) أسد الغابه، ج ٤، ص ٣٣.

٤- (٤) «ردهه» النقره التي يتجمع فيها الماء، ويقال للغرف والصالات الواسعه في البيوت.

٥- (٥) «صعقه» أخذت في الأصل من الصاعقه التي تسبب الهلاك. ثم اطلقت على الهلاك أو الخوف الذي يصيب قلب الإنسان.

٦- (٦) «وجبه» بمعنى السقوط والخفقان والعطل والسكوت، ومفرده «وجبه» تطلق على وقت الطعام.

٧- (٧) «رجه» من ماده «رجح» على وزن «حجج» بمعنى الاهتزاز والارتعاد.

الربع فصعق وصرع أرضاً لينحدر إلى تلك الحفرة، ثم هدد ما تبقى من أولئك الأوغاد العتاه فقال:

«وَبَقِيَتْ بَقِيَّتُهُ مِنْ أَهْلِ الْبُغِيِّ. وَلَئِنْ أَدَانَ اللَّهُ فِي الْكَرِّهِ عَلَيْهِمْ لِأَدِيلِنَ (١) مِنْهُمْ إِلَّا مَا يَتَشَدَّرُ فِي أَطْرَافِ الْبِلَادِ تَشَدُّرًا (٢)».

وتشير العبارة:

«أَهْلِ الْبُغِيِّ» إلى ظلمه الشام وأصحاب معاوية الذين كانوا سيهلكون لولا قضيه التحكيم يوم صفين، فالإمام عليه السلام يقول: لو أُتِيحت لي الفرصه لقصيت عليهم وأرسيت حكمه العدل والقسط في ربوع البلاد الإسلاميه كافة.

ولعل ذكر هذا المعنى بصيغته الجملة الشرطيه يشير إلى أنّ الإمام عليه السلام سوف لن يُوفَّق لشن هجومه الكاسح عليهم، فقد طالته المنيه قبل أن يقوم بهذا العمل؛ ولكن على كل حال أعلن عن استعداداه التام لمواجهتهم مادام فيه عرق ينبض ويعلم ضمناً صبحه خططه المستقبلية.

تأمل

من هو ذو الثدييه؟

اسمه حرقوص بن زهير السعدى التميمى المعروف بذي الخويصره، ذى الثدييه ومُخدج، ولا يعلم وجه تسميته بذي الخويصره؛ ولكن بالنظر إلى اللحم الزائد فى عضده كالثدى فى الصدر لقب بذي الثدييه، كما عرف بالمُخدج اليد لنقص فى يده.

جاء فى التفاسير فى ذيل الآيه ٥٨ من سوره التوبه: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسِيخُطُونَ». والمصادر التاريخيه تؤكد أنه لما انتهت غزوه حنين وقف رسول الله صلى الله عليه وآله فى موضع اسمه «جعرانه» لتوزيع الغنائم فطلب أبو سفيان وبعض المسلمين من قريش المزيد من الغنائم؛ فمنحهم رسول الله صلى الله عليه وآله أموالاً كثيره لتأليف قلوبهم، فنهض ذو الثدييه وخاطب

ص: ٣٧٣

١- (١) «أديلن» من ماده «دوله» تعنى الانتقال وتأتى أحياناً بمعنى الضعف والمراد هنا هو المعنى الأول؛ أى لأمحقنهم.

٢- (٢) «يتشدر» من «تشدر» أى يتفرق.

رسول الله قائلاً: «إعدل يا محمد!».

فقال صلى الله عليه وآله:

«ويحك! فمن ذا يعدل إن لم أعدل؟». فاستأذنه عمر أن يضرب عنقه، فنهاه النبي صلى الله عليه وآله وقال:

«دَعِيهِ، فَسَيَخْرُجُ مَنَ ضَنْبِي هَذَا قَوْمٌ يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيهِ،... تُحْتَفَرُ صِيَالَاتُكُمْ فِي جَنْبِ صِيَالَتِهِمْ، وَصَوْمُكُمْ عِنْدَ صَوْمِهِمْ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لِيُجَاوِزَ تَرَاقِيهِمْ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدٌ مُخْدَجُ الْيَدِ، إِحْدَى يَدَيْهِ كَأَنَّهَا تُدِي أَمْرًا أَوْ بَضْعَةً تَدْرَدَرُ»(١).

وعلى ضوء هذه النبوءة فقد ظهرت فته في الأمة الإسلامية تقرأ القرآن وتعبد الله، ولكن حقيقة الأمر أنهم خارجون عن الدين ولا يعرفون حقيقته.

وهذه الحقيقة معروفة بين المسلمين حتى أن عائشة المعروفة ببغضها لعلی عليه السلام قالت بعد النهروان وقتل ذی الثديہ: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«يَقْتُلُهُ خَيْرُ أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي»(٢).

وقد تحققت هذه النبوءة بعد صفيين وقضيه التحكيم، حيث اجتمع الخوارج عند عبد الله بن وهب الراسبي، فخطبهم ذوالثديہ ودعاهم للقتال وكان زعيمهم عبد الله بن وهب (وإن كانت الزعامه الفكرية والعقائديه لذي الثديہ)(٣).

يذكر أن أمير المؤمنين عليه السلام أخبرهم أن قوماً يخرجون من الدين ويقاثلون المسلمين وعلامتهم رجل (مُخْدَجُ الْيَدِ)(٤).

وكان الناس يبحثون عن ذی الثديہ، لكنهم لم يعثروا عليه، فطعنوا في علی عليه السلام وقالوا: خدعنا ابن أبي طالب لئلا نقاتل إخواننا(٥).

ص: ٣٧٤

١- (١) جاء هذا الحدث وتنبأ رسول الله صلى الله عليه وآله في كتب السننه المعتمره (مع اختلاف طفيف) من قبيل: صحيح البخارى، ج ٧، ص ١١١ و ج ٨، ص ٥٢؛ صحيح مسلم، ج ٣، ص ١١٢؛ مسند أحمد، ج ٣، ص ٥٦ و ٦٥؛ مصنف ابن أبي شيبه، ج ٨، ص ٧٤١؛ شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ٢٦٦؛ تاريخ الطبرى، ج ٢، ص ٣٦٠؛ أسد الغابه، ج ٢، ص ١٣٩ وكنز العمال، ج ١١، ص ٣٠٧ فما فوق.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ٢٦٧ و ٢٦٨؛ البدايه والنهايه، ج ٧، ص ٣٣٧.

٣- (٣) راجع، تاريخ الطبرى، ج ٤، ص ٥٤ و ٥٥.

٤- (٤) مصنف ابن أبي شيبه، ج ١٠، ص ٧٤٠.

٥- (٥) المصدر السابق، ص ٧٣٧.

وكان على عليه السلام يقول:

«ما كَذِبْتُ وَلَا كُذِّبْتُ».

فطلب ذا الثدييه طلباً شديداً وقلب القتلى ظهراً لبطن فلم يعثر عليه، ثم قال:

اطلبوا الرجل وأنه لفى القوم، فلم يزل يتطلبه حتى وجدته وهو رجل مخدج اليد كأنها ثدى فى صدره، فكبر على عليه السلام وسجد شاكرًا (١).

ص: ٣٧٥

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد، ج ٢، ص ٢٧٥-٢٧٧.

أَنَا وَضَعْتُ فِي الصُّغَرِ بِكَلَاكِلِ الْعَرَبِ، وَكَسَرْتُ نَوَاجِمَ قُرُونِ رَبِيعَةَ وَمُضَرَ. وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ. وَضَعْنِي فِي حَجْرِهِ وَأَنَا وَلِمَدَّ يَضُّهُنِّي إِلَى صِدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمَسِّنِي جَسَدَهُ، وَيُسَمِّنِي عَرَفَهُ. وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذِبَةً فِي قَوْلٍ، وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ.

وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيمًا أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسِيلُكَ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ، لَيْلُهُ وَنَهَارُهُ. وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرُ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عِلْمًا، وَيَأْمُرُنِي بِالْإِقْتِدَاءِ بِهِ. وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِزُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحَرَاءِ فَأَرَاهُ، وَلَمَّا يَرَاهُ غَيْرِي. وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْنَهُ وَاحِدًا يَوْمًا فِي الْأَسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا. أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ، وَأَشْمُ رِيحَ النَّبُوَّةِ.

وَلَقَدْ سَجَعْتُ رَنَّهُ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: «هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيْسَ مِنْ عِبَادَتِهِ.

إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ، وَلَكِنَّكَ لَوْزِيرٌ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ».

الشرح والتفسير: التريه في كنف النبي صلى الله عليه وآله

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه إلى أمرين مهمين بغيه تقويه معنويات

أصحابه في مقابل الأعداء والأوباش ومثیری الفتن القبليين؛ فتطرق إلى موقفه في الغزوات الإسلامیة أمام صناديد العرب والضربات الموجهة التي كان يسدها لهم، ليرعب ذلك الخصم العنيد، ومن ثم عرج على قرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله والتي تنحصر به دون غيره، ليندفع المؤمنون بكل قوه وإخلاص لطاعه وأوامره، وعليه فلا ينبغي التصور بأن الإمام عليه السلام خاض في الإشاده بنفسه في هذا الجانب من الخطبه؛ الأمر الذي يتناقض والجوانب السابقه من الخطبه، بل الإمام يتابع هدفاً أسمى من هذه التصورات. فقال بادئ الأمر:

«أَنَا وَضَعْتُ فِي الصَّغَرِ بِكَلَاكِلِ الْعَرَبِ وَكَسَرْتُ نَوَاجِمَ (١) قُرُونٍ رَيْبَعَهُ وَمُضْرًا».

والتعبير بالصغر في العبارة السابقه والذي يقابل الكبر إشارة إلى شبابه عليه السلام؛ لا الطفوله، فالعبارة سائده لدى الجميع إذا إن الأفراد الذين تقدم بهم العمر حين يريدون الإشارة إلى عصر الفتوه يقولون: (لقد فعلت كذا وكذا في الصغر).

على كل حال تتداعى في عبارة الإمام عليه السلام هذه الخواطر الرائعة للانتصارات التي تحققت في المعارك الإسلامیة؛ سيما الضربات التي سددها في ميدان «بدر» إلى «عتبه» و «الوليد» و «حنظله» وحين دفاعه المستميت في ميدان «أحد» عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أمام حشود الأعداء والضربه المهلكة التي سددها يوم الأحزاب إلى أشجع شجعان العرب «عمرو بن عبدود» وذاع صيته في أرجاء الجزيرة العربيه كآفه، ثم بطولاته في فتح «مكة» وغزوه «حنين» وسائر الغزوات الإسلامیة والتي تكشف برمتها عن مدى إقتدار الإمام عليه السلام وشجاعته وصموده في الحروب دفاعاً عن الإسلام ونبي الإسلام صلى الله عليه وآله وتكشف عن الجانب المعنوي والروحي، وبالطبع فإن استعراض هذه الأمور يبيث حاله الرعب والذعر في صفوف الأعداء ويدفع المؤمنين لخوض الجهاد.

ص: ٣٧٨

١- (١) «نواجم» جمع «ناجمه» من «نجم» على وزن «حجم» بمعنى الطلوع والظهور ويقال نواجم القرون وهي من قبيل الحاق الصفه بالموصوف.

وذكر بعض شراح نهج البلاغه كلاماً رائعاً بهذا الخصوص فينبوا أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أمضى ثلاثه عهود بعد البعته؛ الأوّل: العهد الذي استغرق ثلاث عشرة سنه في مكه والذي اكتفى فيه بإعداد صحبه لمقاومه الأعداء دون اللجوء إلى السيف. والثاني: الذي يبدأ منذ الهجره حتى معركة الأحزاب والذي كان موقف المسلمين فيها يقتصر على الدفاع. والثالث: عهد فتح مكه وغزوه حنين والذي تميز بالهجوم وإن كان الهدف إطفاء نار الفتنة.

وقد كان على عليه السلام إلى جانب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يضحى بنفسه طيله هذه العهود، حيث بات على فراش النبي ليفديه بنفسه في الفتره الأولى، ولا تنسى مواقفه في الفتره الثانيه يوم بدر وأحد والأحزاب، كما تقدم الصفوف في فتح مكه وحنين في الفتره الثالثه (١).

وقال بعض الكتاب إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يدافع عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حتى قبل البعته وأشار إلى قصه حدثت حين كان عليه السلام في الثامنه من عمره فقد كان يقول:

إنّ النبي لا يتحدّث في بيته عن العبيد ويخاطب الغلمان بالشباب ولا يغضب عليهم ولم يقل لأحدهم أف (٢).

والتعبير

«بِكَلَاكِلٍ» (جمع كل كل بمعنى عظام الصدر) إشاره إلى الأبطال والزعماء في المجتمع آنذاك، و«قرون» جمع «قرن» كناية عن المقتدرين من الأفراد وأنّ قرن الحيوان من أعضائه القويه.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى الأمر الثاني من هذا القسم؛ وهو علاقته الحميمه بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله والتي ابتدأت منذ الطفوله حتى آخر عمره حيث تربى عليه السلام في كنفه صلى الله عليه وآله فقال:

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ».

ص: ٣٧٩

١- (١) في ظلال نهج البلاغه (شرح محمّد جواد مغنيه لنهج البلاغه)، ج ٣، ص ١٥١-١٥٥.

٢- (٢) المصدر السابق، نقلت هذه العبارة عن عبدالرحمن الشرقاوى.

ثم قال لمزيد من الايضاح:

«وَصَدَّعْنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ يَضُّ مُنَى إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْتُمُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمَسِّنِي جَسَدَهُ، وَيُسَمِّنِي عَرَفَهُ (١). وَكَانَ يَمْضَعُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ».

فالعباره تفيد أنّ النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله لم يفرق قط بينه وبين ولده، وقد احتضن الإمام عليه السلام منذ كان صغيراً وأفاض عليه من أخلاقه الساميه وغمره بالحب والحنان، وأضاف عليه السلام:

«وَمَا وَجَدَ لِي كَذِبَةً فِي قَوْلٍ، وَلَا خَطْلَةً (٢) فِي فِعْلٍ».

إشاره إلى أنّه تربى في حضن النّبي صلى الله عليه وآله بحيث كان بمنتهى الصدق والإخلاص في القول والفعل والسير على الحقّ دون أدنى انحراف.

ثم تطرق عليه السلام إلى بيان هذه النقطة وهي: إنّى إن اتبعت النّبي صلى الله عليه وآله قبل البعثه واعتزرتك بلك الفتره وافتخر بلك الفرصه، فذلك لأنّ النّبي صلى الله عليه وآله كان يتمتع منذ نعومه أظفاره بهدى الله والطافه فقال:

«وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صِيَامِي اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ لَمَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيمًا (٣) أَعْظَمَ مَلِكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسِيلُكَ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنِ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارُهُ. وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ (٤) أَثَرُ أُمَّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عِلْمًا، وَيَأْمُرُنِي بِالِاقْتِدَاءِ بِهِ».

أى أنّ رعايه النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله لم تكن مقتصره على الجوانب الظاهريه فحسب، بل كان يعلمنى كلّ يوم درساً في الأخلاق والكمال والفضيله وكنت أعى ذلك.

وتشير العباره

«علماً» إلى العلامات التي كانت توضع سابقاً على الطرق في الصحارى حتى يهتدى بها المسافرون في مسيرتهم فلا يضلون الطريق فيتجهون بكلّ ثقه إلى مقصدهم، وقد كانت لعلى عليه السلام هذه الهدايه إلى الحقّ.

ص: ٣٨٠

١- (١). «عرف» بمعنى الرائح الزكيه.

٢- (٢) «خطله» من ماده «خطل» على وزن «خطر» بمعنى الخطأ الذى ينشأ عن عدم الرؤيه.

٣- (٣). «فطيم» من «فطام» معروفه.

٤- (٤). «فصيل» ولد الناقه الفطيم.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى أحد الفصول المهمّة في حياة النّبي صلى الله عليه وآله قبل البعثه؛ أي عبادته في غار حراء فقال:

«وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءِ فَأَرَاهُ، وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي. وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَخَدِيجَهُ وَأَنَا نَالْتُهُمَا. أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ، وَأَشْمُ رِيحَ النَّبُوَّةِ».

فالعباره تشير إلى أنّ عبادته صلى الله عليه وآله في غار حراء كانت تتكرر لسنوات حيث قال الإمام عليه السلام:

«وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءِ» كما تشير إلى أنّ عليّاً فقط كان يراه.

أضف إلى ذلك فقد مضت على الدعوه الإسلاميه سنوات ولم يؤمن بها إلّا ثلاثة:

النّبي وخديجه وعلي (صلوات الله وسلامه عليهم).

وأما بشأن رؤيه نور الوحي واستشمام ريح النبوه فقد حملها بعض شرّاح نهج البلاغه على الجوانب المعنويّه بينما ذهب البعض الآخر إلى عدم المانع على حملها على الجوانب الظاهريّه والماديّه، أي أنّه حين نزول الوحي كان هنالك نور يسطع منه لا يراه سوى النّبي صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام كما كان الجو يتعطر برائحته زكيه لا يشمها سواهما ولا مانع من وجود بعض الكائنات الماديّه التي يدرکها الأفراد من ذوى الشعور القوي بينما يتعذر إدراكها على الآخرين، فمثلاً يقال: إنّ بعض الطيور ذات الحاسه القويه بإمكانها إدراك الأشعه فوق البنفسجيه أو الأشعه الحمراء التي يتعذر إدراكها علينا نحن البشر وستتحدث في مبحث التأمّلات عن عبادته النّبي صلى الله عليه وآله في غار حراء وإيمان خديجه عليها السلام وعلي عليه السلام بصفتها أول من آمن بالله وصدق بالنّبي.

ثم أشار عليه السلام إلى أمر آخر بشأن علاقته بالنّبي فقال:

«وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّهُ (١) الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: «هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ آيَسَ مِنْ عِبَادَتِهِ».

ص: ٣٨١

١- (١). «رَنَّهُ» بمعنى العويل والصوت الحزين ويطلق أحياناً على الصراخ الشديد.

وأضاف عليه السلام فقال لى رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ، وَلَكِنَّكَ لَوْزِيرٌ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ».

لعل هنالك من يقول: هنالك من لا يزال يعبد الشيطان فكيف التوفيق بين هذا الكلام وما جاء فى هذه الخطبه؟ والجواب واضح فى أن عرى الطاعه المطلقه للشيطان وعلى جميع المستويات التى كانت سائده فى العصر الجاهلى والتى تشمل الوثنيه وعبوديه الأصنام والانحرافات الأخلاقية والمظالم الاجتماعيه الشديده قد انهارت بظهور الإسلام وظهرت الفئات الخيره الكثيره المؤمنه فى كل قرن وإن لم تكن أكثر عدداً وعدّه من اتباع الشيطان فإنّ كيفيتهم الوجوديه ومقاماتهم لأرفع وأسمى.

بعباره أخرى فقد صرح الشيطان منذ اليوم الأول قائلاً: «وَلَا غُورِيَّتَهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» (١). وقد زال هذا المعنى بانثاق الدعوه الإسلاميه، فطائفه كبيره من المؤمنين من ذوى الإيمان القوى والعمل الصالح قد خرجوا من تبعيه الشيطان بالإضافة إلى المخلصين والمراد بهم خاصه أولياء الله.

على كل حال فإنّ هذه العباره من قبيل العديد من الروايات التى سنشير إليها لاحقاً، والتى تشير إلى مدى عظم منزله على عليه السلام بالنسبه للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقد كان صنوه فى كل شىء سوى النبوه، وهذه هى الحقيقه التى وردت فى حديث المنزله الذى ورد مفصلاً فى كتب الفريقين، حيث إنّ النبي صلى الله عليه وآله استخلف علياً عليه السلام على المدينه فى غزوه تبوك فلما سأله الإمام أخبره صلى الله عليه وآله بحديث المنزله.

والحديث حسبما رواه ابن عباس ونقلته مصادر العامه المعتبره كحديث صحيح السند أنّ علياً عليه السلام بكى لما استخلفه رسول الله صلى الله عليه وآله على المدينه حين انطلق إلى تبوك فقال له صلى الله عليه وآله:

«أما ترضى أن تكون منى بمنزله هارون من موسى إلا أنه ليس بعمى نبي». ثم قال:

«إنه لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي».

ص: ٣٨٢

رواه الحاكم فى المستدرک وقال حدیث صحیح السند، كما رواه الذهبى فى تلخیص المستدرک وصرح بصحته؛ كما ورد فى سائر المصادر مثل: مسند أحمد، ذخائر العقبى، مناقب الخوارزمى، الإصابه لابن حجر عسقلانى وسائر المصادر التى يضيق المقام عن ذكرها (١).

تأملات

١. العلاقة الحميمة بين على عليه السلام والنبي صلى الله عليه وآله

لقد كانت هذه العلاقة منذ كان على عليه السلام فى طفولته حين تعرضت مكة لتلك الأزمة الاقتصادية والقحط الشديد الذى أصابها، وكان لأبى طالب أولاد كثيرون فشق عليه ذلك فطلب النبى صلى الله عليه وآله - وذلك قبل نبوته - من العباس الذهاب معه إلى بيت أبى طالب على أن يكفل أحد أبنائه، ويكفل النبى آخر فأتيا أبى طالب فقال لهما: اتركا لى عقيلاً واحملاً من تريدان، فاختار النبى صلى الله عليه وآله عليه و آله علياً عليه السلام والعباس جعفرأ، ومنذ ذلك الحين لازم على عليه السلام النبى صلى الله عليه وآله حتى بعث فأمن به وصدقته (٢).

وكانت اليد الغيبية وراء تلك الحادثة ليكون على عليه السلام منذ نعومه أظفاره إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وآله فيتربى على يديه وقد تتلمذ على يد رسول الله صلى الله عليه وآله حتى رأى نور الوحي وشم رائحته وسمع صوت جبرئيل، بل سمع حتى رنه الشيطان حين المبعث وبالتالى كانت له علاقة تامه بعالم الغيب حتى خاطبه النبى الأكرم صلى الله عليه وآله:

«إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وَتَرَى مَا أَرَى إِلَّا أَنْتَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ» (٣).

ص: ٣٨٣

١- (١) أشار المرحوم السيد شرف الدين فى كتابه «المراجعات» إلى هذه الحديث وكذلك ومحققو كتاب المراجعات فى هوامشهم إلى مصادر عديده لهذا الحديث. (المراجعات، ص ٢٦١، مراجعه ٢٦). وذكر فى كتاب إحقاق الحق أكثر من مئة صفحه حول هذا الحديث ومصادره من كتب السنه (إحقاق الحق، ج ٥، ص ١٣٢-٢٣٨).

٢- (٢) انظر: تاريخ الطبرى، ج ٢، ص ٥٧ و ٥٨.

٣- (٣) أشار إلى أنّ على بن أبى طالب عليه السلام كان أول الناس إسلاماً بصورة مفصله فى الجزء الثالث من هذا الكتاب.

يقع غار حراء على سفح جبل يعرف اليوم بجبل النور، وكان هذا الجبل خارج مكة أمّا اليوم وبسبب اتساع مكة فإنّ جبل النور وغار حراء أصبحا داخلها، ويستغرق صعود هذا الجبل ما يقارب الساعة.

والغار المذكور غار صغير يستوعب شخصين في حال الوقوف للعبادة واثنان أو ثلاثة عند الجلوس، ولكن إلى جانبه موضع واسع يستوعب الكثير، والجدير بالذكر أنّ جانبي الغار مفتوحان ليدخله هواء لطيف، بحيث لا يشعر الإنسان بالحرارة الشديدة في فصل الصيف، وبغض النظر عمّا سبق فهو موضع للاختلاء والملبىء بالمعنويات.

وكان صلى الله عليه وآله قبل البعثة وأحياناً حتى بعد البعثة يذهب إلى غار حراء بعيداً عن ضوضاء الجاهلية وعبادة الأصنام والخرافات السائدة في ذلك العصر، فيناجي الله ساعات وأياماً في ذلك الغار، ويفكر في خلق السماوات والأرض؛ والغريب أنّ من يدخل الغار ويتجه إلى الشمال فإنّه يستقبل الكعبة وبيت المقدس.

ويستفاد من بعض الروايات أنّه صلى الله عليه وآله كان يذهب إلى غار حراء حتى بعد النبوة ليعتد عن أذى المشركين ويخوض في عبادة الله ومناجاته وكان معه أحياناً على عليه السلام وخديجه عليها السلام، ونعلم أنّ الوحي كان أوّل نزوله عليه هناك.

قال ابن أبي الحديد في شرحه: وأمّا حديث مجاورته صلى الله عليه وآله بحراء فمشهور وقد ورد في كتب الصحاح أنّه كان يجاور في حراء من كلّ سنة شهراً، وكان يطعم في ذلك الشهر من جاءه من المساكين فإذا قضى جواره من حراء كان أوّل ما يبدأ به إذا انصرف أن يأتي باب الكعبة فيطوف سبعمائة ثم يرجع إلى بيته، حتى جاءت السنة التي أكرمه الله فيها بالرسالة، فجاور في حراء ومعه أهله خديجه وعلي ابن أبي طالب وخادم له. فجاءه جبرئيل بالرسالة.

(إنّ هذا الحديث يبدو إشارته إلى النزول الدفعي للقرآن على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في شهر رمضان؛ ولا ينافي النزول التدريجي في ٢٧ من رجب) (١).

٣. النَّبِيُّ الْأَكْرَمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَبْلَ الْبَعْثَةِ

كثيراً ما يتساءل الناس عن الدين الذي كان يعتنقه النَّبِيُّ الْأَكْرَمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَبْلَ الْبَعْثَةِ؛ ولم ينزل آنذاك الدين الإسلامي الحنيف؟

يقال أحياناً إنَّه كان على دين شيخ الأنبياء، إبراهيم الخليل عليه السلام، وهذا الكلام صائب من جانب حيث كان صلى الله عليه و آله موحداً عابداً لله، والتوحيد من أبرز خصائص دين إبراهيم عليه السلام، ورغم أنَّ جميع الأنبياء كانوا موحدين، إلَّا أنَّ ذلك ليس دليلاً على أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَبْلَ الْبَعْثَةِ كان متعبداً بشريعة إبراهيم في فروع الدين كافة.

ويفهم من كتاب المرحوم ابن زهره (غنيه) أنَّ هذا السؤال كان مطروحاً منذ ذلك الوقت، وقد أفرد فصلاً في كتابه لهذا الموضوع؛ وهو: هل كان النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَبْلَ الْبَعْثَةِ بشريعة سالف الأنبياء، ورغم أنَّه ذكر كلاماً مختصراً بهذا الخصوص، لكنه اكتفى بأنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَبْلَ الْبَعْثَةِ كان يعمل بدينه دون أن يذكر أى دليل على ذلك.

وورد في حاشية الطبعة الأخيره لهذا الكتاب أنَّ هذا السؤال كان مطروحاً منذ عهد السيد المرتضى والشيخ الطوسي، حيث صرح البعض بصوره كليته: أنَّه صلى الله عليه و آله كان يتبع ما سبقه من أديان، ونفى البعض الآخر ذلك، وأمسك آخرون عن الكلام، وروى عن الشيخ الطوسي أنَّه قال: إنَّه صلى الله عليه و آله كان على شرعه خاصه قبل النبوه نزلت عليه عن طريق الوحي دون أن يتبع الأنبياء السابقين.

ويعتقد العلماء المجلسي أنَّه كان للنبي هذا المقام قبل البعثة، فكانت تحدّثه الملائكة فيسمع كلامهم وكان أحياناً أخرى يلهم في الرؤيا الصادقه، وبلغ مقام النبوه في الأربعين من عمره حيث نزل عليه القرآن والشريعة الإسلاميه؛ ثم استدل على ذلك بسته أدله (١).

وما أجدر علمائنا الأعلام أن يلتفتوا إلى الخطبه القاصعه وكلام أمير المؤمنين عليه السلام بشأن ما كان عليه النَّبِيُّ الْأَكْرَمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَبْلَ الْبَعْثَةِ حيث قال:

ص: ٣٨٥

«وَلَقَدْ قَرَأَ اللَّهُ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ».

فهذا الكلام يشير صراحة إلى أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لم يكن متبعاً لما سبقه من أديان، بل كانت له منهجيته الخاصّة التي بلغت عن طريق الإلهام من ذلك الملك العظيم وكان صلى الله عليه وآله ملتزماً بها.

فكيف يعلمه هذا الملك العظيم سبل مكارم الأخلاق، ولا يلهمه الواجبات، وهكذا يتّضح الجواب عن السؤال بشأن تعبد النبي صلى الله عليه وآله قبل البعث بما سبقه من أديان، من عدمه (١).

ص: ٣٨٦

١- (١) للمرحوم العلامة المجلسي بحث بهذا الخصوص في كتاب بحار الأنوار حيث يعتقد أنّه صلى الله عليه وآله كان نبياً قبل البعث لكنه لم يكن رسولاً. (ج ١٧، ص ٢٧٧-٢٨١) وللфخر الرازي بحث بهذا الشأن في كتاب المحصول (ج ١، ص ٤٢٦، طبعه دارالكتب العلميّة).

وَلَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمَّا آتَاهُ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ قَدْ ادَّعَيْتَ عَظِيمًا لَمْ يَدَّعِهِ آبَاؤُكَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ بَيْتِكَ، وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْرًا إِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ وَأَرَيْنَاهُ، عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيُّ رَسُولٍ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «وَمَا تَسْأَلُونَ؟» قَالُوا:

تَدْعُونَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ حَتَّى تَنْقَلَعَ بِعُرُوقِهَا وَتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ، «فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَإِنْ فَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ ذَلِكَ، أَتُؤْمِنُونَ وَتَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «فَإِنِّي سَأَرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ، وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَا تَفِيئُونَ إِلَيَّ خَيْرًا، وَإِنْ فِيكُمْ مَنْ يُطْرَحُ فِي الْقَلْبِ، وَمَنْ يُحَزَّبُ الْأَحْزَابِ». ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «يَا أَيُّهَا الشَّجَرَةُ إِنْ كُنْتَ تُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتَعْلَمِينَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَانْقَلِعِي بِعُرُوقِكَ حَتَّى تَقِفِي بَيْنَ يَدَيَّ يَا ذَنُ اللَّهِ». فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَانْقَلَعَتْ بِعُرُوقِهَا، وَجَاءَتْ وَلَهَا دَوِيُّ شَدِيدٍ، وَقُصِفَتْ كَقُصْفِ أَجْنَحِ الطَّيْرِ؛ حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُرْفَرِفَةً، وَأَلْقَتْ بَعْضَ نِصْفِهَا الْأَعْلَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَبَعْضَ أَغْصَانِهَا عَلَى مَنْكَبِي، وَكُنْتُ عَنِ يَمِينِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - فَلَمَّا نَظَرَ الْقَوْمُ إِلَى ذَلِكَ قَالُوا عُلُوءًا وَاسْتِكْبَارًا: فَمُرَّهَا فَلْيَأْتِكَ نِصْفُهَا وَيَبْقَى نِصْفُهَا، فَمَرَّهَا بِذَلِكَ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نِصْفُهَا كَأَعْجَبِ إِقْبَالِ وَأَشَدِّهِ دَوِيًّا، فَكَادَتْ تَلْتَفُ بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - فَقَالُوا - كُفْرًا وَعُتُوءًا -: فَمُرَّ هَذَا النِّصْفَ فَلْيَرْجِعْ إِلَيَّ نِصْفِيهِ كَمَا كَانَ، فَمَرَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَرَجَعَ؛ فَقُلْتُ أَنَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ إِنِّي أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَوَّلُ مَنْ

أَقْرَبُ بِأَنَّ الشَّجَرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلَتْ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى تَصْدِيقًا بِبُتُوْتِكَ، وَإِجْلَالًا لِكَلِمَتِكَ. فَقَالَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ: بَلْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ، عَجِيبُ السَّحْرِ خَفِيفٌ فِيهِ، وَهَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلَّا مِثْلُ هَذَا! يَغْنُونَنِي.

الشرح والتفسير: معجزه حركه الشجره

أشار الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه الذي يعدّ من أهم جوانبها إلى إحدى معجزات النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله في مكة وقد شهدها الإمام عليه السلام ليؤكد علاقته الحميمه به صلى الله عليه وآله وسبقه إلی الایمان، وهی المعجزه التي قل من رآها من المسلمين آنذاك فقال عليه السلام :

«وَلَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمَّا آتَاهُ الْمَلَأُ (١) مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ قَدْ ادَّعَيْتَ عَظِيمًا لَمْ يَدَّعِهِ آبَاؤُكَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ بَيْتِكَ، وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْرًا إِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ وَأَرَيْتَنَا، عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيُّ وَرَسُولٌ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ».

العبارة:

«الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ» تشير إلى أنّ هذه المعجزه حدثت في مكة وحين جهر النّبي صلى الله عليه وآله بدعوته وسمعها الكثير من الناس، ولكن لم يكن يتمتع المسلمون بقوّه وقدره، وإلّا لما تجرّأ خصوم الدعوه بالتحدّث معه بهذه الطريقه الفظه.

على كلّ حال ظن أولئك أنّهم يختبرون النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وقد سنحت الفرصه لرسول الله صلى الله عليه وآله، لأنّ يثبت لهم حقايقه دعوته من خلال المعجزه التي طلبوها (لا التي يريدونها) ولذلك جاء في هذه الخطبه:

«فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «وَمَا تَسْأَلُونَ؟» قَالُوا: تَدْعُونَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ حَتَّى تَنْفَلِحَ بِعُرْوِقِهَا وَتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ».

فما كان منه صلى الله عليه وآله

:«فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَإِنْ فَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ ذَلِكَ، أَتُؤْمِنُونَ وَتَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ؟» قَالُوا: نَعَمْ».

جدير ذكره أنّه صلى الله عليه وآله قال:

«فَإِنْ فَعَلَ اللَّهُ» ولم يقل:

«فَإِنْ فَعَلْتُ» إشاره إلى أنّ

ص: ٣٨٨

المعجزه بيد الله وإن ظهرت على يد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

والعبارة:

«أَتُؤْمِنُونَ» و «تَشْهَدُونَ» إشاره إلى الإيمان القلبي بالإضافة إلى الشهاده بالحق ظاهرياً.

على كل حال فلم يقرّوا بالأمرين فما كان منه صلى الله عليه وآله إلّا أن:

«قَالَ: «فَإِنِّي سَأُرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ، وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَا تَفِيئُونَ إِلَيَّ خَيْرًا، وَإِنَّ فِيكُمْ مَن يُطْرَحُ فِي الْقَلْبِ (١)، وَمَن يُحْرَبُ الْأَحْزَابَ».

والعبارة:

«وَإِنَّ فِيكُمْ...» إشاره إلى أبي جهل وعتبه وشيبه وأمّيه بن خلف الذين قتلوا يوم بدر ورمى بأجسادهم في بئر كانت هناك.

والعبارة:

«مَنْ يُحْرَبُ الْأَحْزَابَ» إشاره إلى أبي سفيان. فالواقع أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أكمل طلبهم المعجزه بثلاثه أخبار غيبه يعدّ كل منها معجزه، عدم إيمانهم وطرح بعضهم في البئر ومعركه الأحزاب التي حدثت بعد سنوات عديده لاحقاً.

ثم إنتفت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى أصل سؤالهم وإنتفت إلى الشجره

«ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «يَأْتِيهَا الشَّجَرَةُ إِنْ كُنْتَ تُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتَعْلَمِينَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَانْقَلِعِي بِعُرْوِكَ حَتَّى تَقِفِي بَيْنَ يَدَيَّ يَا ذَنِّ اللَّهِ».

وخطاب النبي صلى الله عليه وآله لتلك الشجره يفيد أنّ للنباتات والجمادات نوعاً من الإدراك والشعور الذي أفاضه عليها الله، كما تفيد العبارة القادمه أنّها مؤمنه أيضاً بالله واليوم الآخر ولكن ما حقيقه هذا الإيمان وكيفيه ذلك الشعور والإدراك، وهل لها بعد اختياري أم إجباري، فذلك من الأمور التي ليست واضحه لدينا على وجه الدقه.

ولدينا العديد من الآيات القرآنيه التي تشير إلى ذلك الإيمان والشعور والإدراك لدى جميع الأشياء بما فيها الجمادات وتفيد أنّها تسبح الله وتقدهسه، وقد أسهب المفسرون بهذا الشأن (٢).

ص: ٣٨٩

١- (١). «قلب» من ماده «قلب» تعنى التغيير كما وردت بمعنى البئر.

٢- (٢) للاطلاع أكثر راجع التفسير الأمثل، ج ١٢، ذيل الآيه ٤٤ سوره الاسراء «تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا».

فاستطرد أمير المؤمنين على عليه السلام وقال:

«فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَأَنْتَلَعْتُ بِعُرْوَتِهَا، وَجَاءَتْ وَلَهَا دَوِيٌّ (١) شَدِيدٌ، وَقَصِفٌ (٢) كَقَصْفِ أَجْنَحِ الطَّيْرِ؛ حَتَّى وَقَفْتُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُرْفَرَفَهُ (٣)، وَأَلْقْتُ بِغُضِّ نَبْهَا الْأَعْلَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَبِغُضِّ أَغْصَانِهَا عَلَى مَنْكِبِي، وَكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ».

فالذى يستفاد من هذه العبارة أن تلك الشجرة كانت ضخمة بحيث صاحبت حركتها أصوات عالية كانت مدويه، فألقت ببعض أغصانها على النبي صلى الله عليه وآله وبالبعض الآخر على علي عليه السلام، فكانت تلك معجزه كبيره للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بإذن الله فى إقتلاع تلك الشجرة ووقوفها بين يديه صلى الله عليه وآله.

ولكن هل أدت تلك المعجزه الباهره إلى إيمان المشركين المتعصبين؟ كلا! بل كعاده المتعصبين المعاندين أخذوا يفتشون عن الذرائع وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام

«فَلَمَّا نَظَرَ الْقَوْمُ إِلَى ذَلِكَ قَالُوا عَلُوًّا وَاسْتِكْبَارًا: فَمَرَّهَا فَلْيَأْتِكَ نَضِي فُهَا وَيَبْقَى نَضِي فُهَا، فَأَمَرَهَا بِذَلِكَ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نَضِي فُهَا كَأَعْجَبِ إِقْبَالٍ وَأَشَدِّهِ دَوِيًّا، فَكَادَتْ تَلْتَفُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ».

والذى يستفاد من العبارة أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أراهم معجزتين أخريين؛ الأولى أنه أمر الشجرة بالرجوع إلى مكانها، والثانية أنه أمرها بأن يأتيه نصفها بإذن الله.

وهل اقتنع القوم المشركون المتعصبون بذلك؟ للأسف كلا! كما ورد فى كلام الإمام عليه السلام:

«فَقَالُوا كُفْرًا وَعُتُورًا: فَمُرْ هَذَا النُّصْفَ فَلْيَرْجِعْ إِلَى نَضِيهِ كَمَا كَانَ، فَأَمَرَهُ

ص: ٣٩٠

١- (١). «دويٌّ» بمعنى الصوت القوى والصدى.

٢- (٢) «قصف» تعنى فى الأصل الكسر، ويقال «قاصف» للرياح العاتيه وكذلك تعنى الصوت الشديد بسبب الأصوات التى تسمع فى العواصف و....

٣- (٣). «مرفف» من ماده «رفف» تعنى فى الأصل أوراق الأشجار العريضه وكذلك يقال «رفف» للأقمشه الجميله والملونه و «مرففه» هو الطائر الذى يحرك أجنحته، وكان مراد الإمام فى العبارة أن الشجرة عندما اقتربت للرسول صلى الله عليه وآله كانت أغصانها تتحرك كأنها أجنحه الطائر.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَرَجَعَ؛ فَقُلْتُ أَنَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ إِنِّي أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَوَّلُ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ الشَّجْرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلَتْ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى تَصَدِيقًا بِنُبُوتِكَ، وَإِجْلَالًا لِكَلِمَتِكَ».

وهل آمن أولئك بعد مشاهدتهم لهذه المعجزات الأربع العجيبه والخارقه للعاده والتي حصلت جميعاً استجابة لاقتراحهم وليس لاقتراح رسول الله صلى الله عليه وآله؟، كلا! ولتتهم اقتصروا على عدم الإيمان بل رموه صلى الله عليه وآله بكلمات كافره وطائشه وبعيده عن المنطق كما أشار إلى ذلك الإمام:

«فَقَالَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ: بَلْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ، عَجِيبُ السِّحْرِ خَفِيفٌ (١) فِيهِ، وَهَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلَّا مِثْلُ هَذَا! يَغْنُونَنِي».

إشاره إلى أننا شهدنا العديد من السحره طيله أعمارنا ونعلم أن فعلك كفعالهم، بل أمهر منهم ولا يصدقك فى ذلك سوى أمثال هذا الصبى السريع التصديق!

والعجيب أن صدر كلامهم يناقض تماماً عجزه! فقد اقترحوا المعجزه وصرحوا باقتناعهم وإيمانهم بمجرد حصولها، ولكن حين تكررت المعجزه أربع مرات رموه بالسحر وهنا يرد هذا السؤال: إن هؤلاء لولم يكونوا يعرفون السحر من المعجزه ويحتملون السحر على النبى، فما بالهم اقترحوا عليه المعجزه منذ البدايه؟ فقد كان لهم أن يرموه منذ البدايه بالسحر.

نعم، فالأفراد المتعصبون إنما يفتقرون على الدوام إلى المنطق والوجدان والانصاف.

تأملان:

١. معجزه الشجره فى الروايات الإسلاميه

كان للنبي صلى الله عليه وآله عده معجزات، والمعجزه المذكوره كانت أبرزها ولم تختصر الإشارة إليها فى هذه الخطبه فحسب، بل وردت هذه المعجزه فى أغلب التواريخ

ص: ٣٩١

١- (١) «خفيف» يعنى فى الأصل القليل (كميه أو وزناً أو...) وكذلك يقال خفيف لمن يجرى حركات سريعه بمهاره.

ويكفي هنا الإلتفات إلى ما ذكره ابن أبي الحديد فى شرحه لهذه الخطبه فقد قال: وأما أمر الشجره التى دعاها رسول الله صلى الله عليه وآله فالحديث الوارد فيها كثير مستفيض قد ذكره المحدثون فى كتبهم والمتكلمون فى معجزات النبى، وقد وردت فى أغلب الروايات كما جاء فى الخطبه القاصعه (التى نحن بصددھا) وإن اختصرھا البعض وقال:

«إِنَّهُ دَعَا شَجْرَهُ فَأَقْبَلَتْ تَخِدُ إِلَيْهِ الْأَرْضَ خَدًّا».

ثم أضاف: وقد ذكر البيهقى فى كتاب دلائل النبوه حديث الشجره ورواه أيضاً محمد بن اسحاق بن يسار فى كتاب السير والمغازى (١).

وقال المرحوم العلامة التستري فى شرح نهج البلاغه: رواها ابن أثير فى كتاب الكامل وفى أسد الغابه والبلادى فى أنساب الأشراف والكرامى فى كنز الفوائد (٢).

طبعاً يعلم من له معرفه بمعجزات الأنبياء بصوره عامه ومعجزات رسول الله خاصة أن مثل هذه المعجزات ليست عجيبه فى إثبات حقايقه دعوه النبى، كما أن اصرار الأفراد الجهال والمتعصبين على إنكار الدعوه ليست بالشىء الجديد.

٢. الفارق بين السحر والمعجزه

كما ورد سابقاً فمما لا شك فيه فقد كانت لأنبياء الله والأئمه المعصومين عليهم السلام أفعال خارقه للعادة تتعذر على الإنسان العادى، أى الأمور التى تجرى خلافاً للقوانين الطبيعيه السائده ولا تتم إلّا من خلال الاستمداد من قوه تفوق القوه الطبيعيه من قبيل إحياء الموتى وشفاء المرضى الذى لا علاج لهم والإخبار عن الغيب الذى ورد فى القرآن الكريم بشأن المسيح عليه السلام ومعجزه العصا واليد البيضاء لموسى عليه السلام وناقه صالح عليه السلام واطفاء نار نمرود على إبراهيم لتصبح عليه برداً وسلاماً

ص: ٣٩٢

١- (١) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٣، ص ٢١٤.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه للعلامة التستري، ج ٢، ص ٤٦٩.

ومعجزه شق القمر والأهم من كل ذلك معجزه القرآن الكريم التي خُصَّ بها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

ومن الواضح أنّ المعجزات لا- تعنى تحقق معلول دون علّه لينكر ذلك بعض الأفراد، بل بمعنى الاستبداد من العلل غير الطبيعيه المجهوله، والزعم بأننا عارفون بجميع العلل الطبيعيه والتي تفوق الطبيعه هو زعم لا يقوّه أحد.

ومن جانب آخر فإنّ السحر حقيقه وإن امتزجت بالعديد من الخرافات، والسحره عاده ما يستفيدون من العلل الطبيعيه، لكنها علل وأسباب لم يلمّ بها الناس العاديون فمثلاً قيل بشأن سحر السحره على عهد موسى عليه السلام أنهم صنعوا شيئاً شبيه الحيه وسكبوا داخله «الزئبق» الذي جعل ذلك الشيء الذي يشبه الحيه يتحرك حين واجه أشعه الشمس بفعل «تطاييره»، وعليه ففعلهم لم يكن خارقاً للعادة؛ لكنهم استغلوا بعض الأسباب التي لم تكن معروفه لدى عوام الناس.

وهنا يرد هذا السؤال: كيف يتسنى للناس التمييز بين السحر والمعجزه ليتعرفوا على الأنبياء ويكتشفوا كذب السحره؟

ويبدو الفرق بينهما واضح؛ ومن ذلك؛ أولاً: إنّ سحر السحره محدود لأنه يستند العلوم البشريه المحدوده، ولذلك يقوم السحره بما يريدون من خرق العاده لا تلك التي يقترحها عليهم الآخرون، ذلك لأن عملهم ينطلق من تجاربهم وتمارينهم ورياضاتهم السابقه.

أمّا بشأن الإعجاز فإنّ الأنبياء يتجهون صوب الأمور التي يقترحها عليهم الناس كالمعجزه آنفه الذكر ومعجزه شق القمر وسائر المعجزات التي طلبها قوم موسى من نبيهم عليه السلام رغم ما كان عليه الأنبياء من معجزات منذ انطلاقتهم مثل معجزه القرآن والعصا واليد البيضاء.

ثانياً: تقتزن معجزات الأنبياء بادعاء النبوه والحال ليس للسحره مثل هذا الادعاء في خرقهم للعادة، فالحكمه الإلهيه لم تسمح بحصول ما يخرق العاده بيد

الكذابين والمفترين ليدعى النبوه فيقود الناس إلى الضلال والغوايه، بل تقتضى الحكمة الإلهيه فصح هؤلاء السحره، ومن هنا فقد افتضح كل ساحر هم بهذا الادعاء.

ثالثاً: لما كان السحر أمر منحرف، فلا يتجه إليه إلا الأفراد المنحرفون، أى الأفراد الذين تشهد أقوالهم وأولادهم على انحرافهم. وعلى هذا الأساس إن بدرت من شخص قضيه خارقه للعادة فلا بد من تأمل سيرته، فإن كانت سيرته حسنه صالحه كان ذلك علامه على كون تلك القضيه الخارقه للعادة معجزه، وإن كانت سيرته طالحه وأعماله مشينه كان ما بدر منه سحراً، ذلك لأن السحره من المصاديق البارزه للكذابين من الأفراد والغشاشين.

ص: ٣٩٤

وَإِنِّي لَمِنَ قَوْمٍ لَاتَأْخُذُهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ، سَيِّمَاهُمْ سَيِّمَاتِ الصَّادِقِينَ، وَكَلَامُهُمْ كَلَامُ الْأَبْرَارِ، عُمَارُ اللَّيْلِ وَمَنَارُ النَّهَارِ. مُتَمَسِّكُونَ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ، يُحْيُونَ سُنَنَ اللَّهِ وَسُنَنَ رَسُولِهِ؛ لَأَيِّسَ تَكْبُرُونَ وَلَا يَغْلُونَ، وَلَا يَغْلُونَ وَلَا يُفْسِدُونَ. قُلُوبُهُمْ فِي الْجَنَانِ، وَأَجْسَادُهُمْ فِي الْعَمَلِ.

الشرح والتفسير: أولياء الله

خاض الإمام عليه السلام في ختام الخطبه في التعريف بنفسه ليكمل ما ذكره في السابق من التعريف بمنزلته وموقعه ليمنح ما ورد في هذه الخطبه قوه وعمقاً واتقاناً أكثر، من جهه، لأن الإيمان بالمتكلم والوقوف على مدى علمه وتقواه يدفع بالمخاطب لأن يحمل خطابه محمل الجد، ومن جهه أخرى وليتعرف عليه أولئك الشباب وسط أصحابه الذين لم يعلموا بمواقفه، إلى جانب ضروره أن يعرف الجميع أن هذه الكلمات لم يكن هدفها الدنيا ولا ترسيخ دعائم الحكومه بل الهدف منها هدايه الأمه إلى الصراط المستقيم، فقد أشار عليه السلام إلى تسع عشره صفه من صفاته والتي تعد كل واحد منها فضيله ومنقبه عظيمه فقال:

«وَإِنِّي لَمِنَ قَوْمٍ لَاتَأْخُذُهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ».

فالقيام بالوظيفه أحياناً يكون مخالفاً للأفكار ورغبات طوائف معينه في المجتمع وهنا يتخلى بعض الأفراد الانتهازيين وأصحاب الدعه والراحه أو الجبناء عن أداء وظائفهم خشيه التعرف لملامه الآخرين وتقريعهم، وولى الله من يواصل

طريقه إن رآه صحيحاً ولو انتهج عامه الناس طريق الخطأ دون أن يشعر بأدنى خشيه أو خوف ويقدم رضا الله على رضا الخلق، وقد كان الإمام على عليه السلام رائد هذا الطريق بعد النبي صلى الله عليه وآله وهي الصفه التي امتاز بها جميع أئمه أهل البيت عليهم السلام وأبرز مصداق على ذلك الإمام الحسين عليه السلام وشهادته في كربلاء.

وقد أثنى الله في كتابه الكريم على المجاهدين الذين يتسمون بهذه الصفه فقال:

«يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ» (١).

وقال في الصفه الثانيه والثالثه: «سِيمَاهُمْ سِيمَا الصَّادِقِينَ، وَكَلَامُهُمْ كَلَامُ الْأَبْرَارِ».

و «الصادقين»: هم الصادقون والمصدقون بأنبياء الله الذين كانوا يصدقونهم في أقوالهم وأفعالهم وقد جعلهم الله تعالى في الآيه ٦٩ من سوره النساء في مصاف أنبيائه فقال: «فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ...».

و «الأبرار»: من ذكر لهم القرآن ثمانى عشره صفه في سوره الدهر، وهى الصفات التى ترفع صاحبها إلى أسمى مقام فى القرب من الله، ونعلم أن هذه الصفات نعت بها (على وفاطمه الزهراء والحسن والحسين عليهم السلام).

ثم قال فى الصفتين الرابعه والخامسه:

«عَمَّارُ اللَّيْلِ وَمَنَارُ النَّهَارِ».

والعباره:

«عَمَّار» جمع (عامر) إشاره إلى التهجد وإحياء الليل وعبادات اليوم والنهار التى تعمروا روح الإنسان وقلبه وتضفى عليه معانى الصفاء والجمال وتحىى القلوب الميتة وتغسل الذنوب بماء حياه التوبه، والعباره «منار» إشاره إلى الأبراج العالیه التى كانت توضع سابقاً فى مسير الطرق الصحراويه وتنصب عليها المصابيح حتى لا يضل المسافر الطريق (تشبه العلامات المروريه التى تنصب اليوم فى الشوارع). فهؤلاء الأفراد كتلك المصابيح فى هدايه الناس إلى الله والسعاده والخير والنجاه من الضلال والغوايه.

ثم قال فى الصفتين السادسه والسابعه:

«مُتَمَسِّكُونَ بِجَبَلِ الْقُرْآنِ؛ يُحْيُونَ سُتُنَّ

ص: ٣٩٦

اللَّهِ وَسُنَّنَ رَسُولِهِ».

المراد من التمسك بحبل القرآن التوسل به ليخرج الإنسان من مستنقع طبيعه وهوى النفس ويعرج إلى ساحه القرب الإلهي، أو خروج ماء الحياه من باطن أرض الوجود الإنساني بواسطته أو التمسك بحبل القرآن في المعابر الخطيره بغيه عدم السقوط في أوديه الضلال.

قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في أهميه القرآن الكريم الوارد في حديث الثقلين:

«كِتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ» (١).

وإحياء سننه الله وسننه النبي العمل بالفرائض الوارده في القرآن والواجبات التي فرضها النبي صلى الله عليه وآله، لا العمل لوحده فحسب بل لا بد من دعوه الآخرين إلى ذلك.

ثم قال في الصفات الثامنه والتاسعه والعاشره والحاديه عشره:

«لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَلَا يَغْلُونَ، وَلَا يَغْلُونَ (٢) وَلَا يُفْسِدُونَ».

وهذه الصفات في الواقع مرتبطه مع بعضها، فالتكبر والشعور بالعلو وحمل الغلّ والإفساد من صفات الطغاه المستكبرين بغيه تحقيق أهدافهم اللامشروعه، قال القرآن الكريم: «إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا» (٣)، وقال أيضاً: «تِلْكَ الدَّارُ الْأَخْرَجُ نَجَعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا» (٤).

وبالنظر إلى أن كلمتي الفساد والخيانه وردت هنا بصورة مطلقه فإنهما تشملان في العقائد والأخلاق والأموال وجميع شؤون الحياه.

وأخيراً قال في الصفه الثانيه عشره التي تمتاز بشموليتها:

«قُلُوبُهُمْ فِي الْجَنَانِ، وَأَجْسَادُهُمْ فِي الْعَمَلِ».

ص: ٣٩٧

١- (١) مجمع البيان، ذيل الآيه ١٠٣ من سوره آل عمران: «وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا».

٢- (٢) «يَغْلُونَ» من «غلل» على وزن «أجل» أو «غلول» على وزن «غروب» بمعنى الخيانه، وتعنى في العبارة أنهم لا يخونون.

٣- (٣) . سوره النمل، الآيه ٣٤.

٤- (٤) سوره القصص، الآيه ٨٣.

إشاره إلى أنّ هدفهم نبيل للغاية فهم لا يفكرون سوى برضا الله وجنانه الخالده، ومن هنا فأبدانهم تعيش على الدوام طاعه الحقّ والعمل بالواجبات الإلهية والواجبات الإنسانيّة، جدير بالذكر أنّ الخطبه ابتدأت بنفى الكبر والاستكبار واختتمت به وهذه إحدى شؤون الفصاحه والبلاغه في إرتباط النهايه بالبدايه.

حقاً إنّ الذين يتصفون بهذه الصفات الإثنتى عشره هم المؤمنون المخلصون الذين ينتظرهم الجنّه بشوق، وهم القدوه الحسنه لعباد الله في الحياه الدنيا.

اللهم اجعلنا من السائرين على دربهم، ووقفنا لاتباع تعاليمهم ولا تفرق بيننا وبينهم في الدنيا والآخره طرفه عين أبداً!

ص: ٣٩٨

يَصِفُ فِيهَا الْمُتَّقِينَ (١) رَوَى أَنَّ صَاحِبًا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُقَالُ لَهُ هَمَّامٌ كَانَ رَجُلًا عَابِدًا، فَقَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، صِفْ لِي الْمُتَّقِينَ حَتَّى كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ. فَتَنَاقَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ جَوَابِهِ ثُمَّ قَالَ: يَا هَمَّامُ! اتَّقِ اللَّهَ وَأَحْسِنْ: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِبُونَ». فَلَمْ يَفْتَحْ هَمَّامٌ بِهَذَا الْقَوْلِ حَتَّى عَزَمَ عَلَيْهِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

نظرة إلى الخطبه

تتابع الخطبه مطلباً معيناً وهو صفات المتقين حيث ذكر الإمام عليه السلام مائة وعشر

ص: ٣٩٩

١- (١) سند الخطبه: هذه الخطبه من الخطب المعروفة والمعتبره وردت بأسانيد مختلفه عن غير نهج البلاغه، عاش طائفه من رواتها قبل السيد الرضى وطائفه بعده. قال صاحب مصادر نهج البلاغه: فمن رواها قبل الشريف الرضى المرحوم الشيخ الصدوق فى «الأمالى»، وابن شعبه المعاصر للشيخ الصدوق فى «تحف العقول»، وسليم بن قيس فى كتابه، ونقل ابن قتيبه (المتوفى فى القرن الثالث) قسماً من هذه الخطبه فى كتابه «الزهد» وكتابه «عيون الأخبار» وغيرهم. هذا قبل السيد الرضى، فقد رواها جماعه من العلماء بأسانيد وصور يعرف منها على أنهم لم يأخذوها عن نهج البلاغه، منهم سبط ابن الجوزى «فى تذكرة الخواص»، وابن طلحه الشافعى فى «مطالب السؤل»، والكراچكى فى «كنز الفوائد» مع اختلاف يسير فى نقلهم. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٦٥).

صفات للمتقين، لكننا إن تأملنا تفاصيل الخطبه لرأينا أنّ هذه الصفات تعالج أبعاداً مختلفه من حياه المتقين.

فبعضها يتحدّث عن سجايهم الأخلاقيه الفرديه، بينما يبحث البعض الآخر فى أخلاقهم الاجتماعيه.

ويكشف جانب آخر من الخطبه علو شأنهم فى القضايا العقائديه والمعارف الدينيه بينما يشير جانب آخر منها إلى منزله تقواهم وورعهم من حيث الأقوال والأفعال.

كما تطرق جانب آخر من الخطبه إلى سيماهم وعلاماتهم التى ترشدنا إلى التعرف على المتقين الورعين فى جماعه معينه من خلال هذه الصفات.

واختتمت الخطبه بحادثه عجيبه لهمام - السائل الذى أصر على بيان صفات المتقين - حيث صعق صعقه فارق على أثرها الحياه الدنيا؛ فقال الإمام عليه السلام: هكذا تفعل المواعظ البالغه بأهلها، فقام إليه رجل فقال: فما بالك يا أمير المؤمنين؟ فأجابه الإمام بجواب مقنع.

ويستفاد من بعض الطرق الروائيه أنّ الإمام خطب بهذه الخطبه بعنوان صفات الشيعة(1).

إجابه عن سؤال

طبق لما ورد فى صدر الخطبه فإنّه يرد هذا السؤال: لم تحفظ الإمام عليه السلام عن بيان صفات المتقين بادئ الأمر ثم شرحها أثر إصرار السائل؟

وردت عدّه وجوه فى سبب تأمل الإمام عليه السلام بشأن الجواب منها:

١. إنّ الإمام عليه السلام كان يعلم بأنّ ذلك الرجل من أهل الموعظه والنصح ويخشى عليه من شعوره المرهف وحساسيته المتزايد، ومن هنا اكتفى الإمام عليه السلام بجواب

ص: ٤٠٠

١- (١) راجع مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٦٥.

إجمالي يدل عليه ذيل الخطبه.

٢. شهد المجلس آنذاك بعض الأفراد الغرباء الذين لم ير الإمام عليه السلام من مصلحه في سماعهم لتلك الكنوز والجواهر الثمينه، ولعل ذيل الخطبه شاهد على ذلك، فسؤال السائل وجواب الإمام عليه السلام يدل على وجود غير المؤهلين في ذلك الوسط.

٣. آثار الإمام عليه السلام اهتمام همام بصوره أعمق لسماع الجواب بذلك التأمل والسكوت لتأخذ تلك الموعظه مأخذها المطلوب منه.

٤. إن أدب السؤال والجواب يقتضى ألا يتعجل المجيب بجوابه، بل يتأمل في بدايه الحديث ليعرف السائل بأهميه المطلب، الأمر هل الذى ذكر بشأن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يترث في الجواب حتى يسئل عن ذلك التريث هو تفكير في الجواب؟ فيرد صلى الله عليه وآله: لا، بل إكرام للعلم والعمل (١).

ص: ٤٠١

١- (١) مستدرک سفینه البحار، باب التدبير، ج ٣، ص ٤٢١.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَيْبًا عَنْ طَاعَتِهِمْ، آمِنًا مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ، لِأَنَّهُ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ، وَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ. فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ.

فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ: مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الْاِقْتِصَادُ، وَمَشِيئُهُمُ التَّوَاضُّعُ. غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ. نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ. وَلَوْلَا الْأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَفِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ، شَوْقًا إِلَى الثَّوَابِ، وَخَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ. عَظَّمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصِيحْرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهَمُّ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا، فَهَمُّ فِيهَا مَعْدَبُونَ. قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ. صَبَرُوا أَيَّامًا قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً. تِجَارَةٌ مُزْبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ.

أَرَادَتْهُمْ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُواهَا، وَأَسْرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا.

الشرح والتفسير: صفات المتقين

قبل أن نخوض في شرح هذا القسم من الخطبه علينا أن نبين هذه النقطه وهى ما كفيه العلاقه بين جواب الإمام عليه السلام المقتضب بدايه الأمر وسؤال همام؟ فقد طلب السائل بيان صفات المتقين، فأمر الإمام عليه السلام بالتقوى والإحسان بدلاً من بيان

الصفات، ثم تطرق إلى فوائد التقوى ويبدو للوهله الأولى أن الأمر بالتقوى ليس جواباً عن سؤال همام ولا ذكر الفوائد.

الظاهر أن الإمام عليه السلام أراد بهذا الكلام أن يفهمه بأن التقوى مفهوم واضح بالإجمال وعليك بالعمل، ثم تطرق عليه السلام لنتائج التقوى لحثه عليها، على كل حال فقد خاض الإمام عليه السلام في بدايه الخطبه في بيان هذه النقطه المهمه حيث بين أن الله تعالى غنى عن الجميع فإن وردت بعض الوصايا الثقيله والعديده بشأن التقوى في هذه الخطبه فهي لا تضيف لله شيئاً من الجلال والجاه، بل ليطوى الإنسان مسيره التكامل فقال عليه السلام:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ سُيِّحَانُهُ وَتَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيًّا عَنِ طَاعَتِهِمْ، آمِنًا مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ، لِأَنَّهُ لَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةٌ مِنْ عَصَاءٍ، وَلَا تَنْفَعُهُ طَاعَةٌ مِنْ أَطَاعَةٍ».

ودليل ذلك واضح، فأولاً: الله تعالى وجود لامتناهٍ من جميع الجهات وكمال مطلق وليس للنقص من سبيل إلى هذا الوجود ليرقى به إلى كمال عن طريق الطاعه والعبوديه ولو كفر من في الأرض كلهم جميعاً لما نال ذلك من كبرياء الله شيئاً، إذ إن المخلوقات أعجز من أن يلحقوا ضرراً بذاته القدسيه.

وثانياً: كل ما لدى المخلوقات من الله وفيوضاته ولا معنى لإعاده الفيض عليه، كل خلق يتغذى على مائدته، بل حياتهم بلطفه ورحمته ولو أوكلهم الله إلى أنفسهم طرفه عين لهلكوا.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى أوضاع الناس الدنيويه كمقدمه في الواقع لبيان الجوانب المعنويّه التي ذكرت لاحقاً، فبين عبارتين الأمور كافه في جوانب حياتهم الماديّه وقال:

«فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ».

إشاره إلى أن الله بيده جميع حوائج الخلق الماديّه وهو يفيض عليهم من لطفه بقدر كل حسب موقعه. وهذا ما ورد في القرآن الكريم في الآيه ٣٢ من سوره الزخرف:

«نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ».

طبعاً تقسيم المعيشه لا يعنى وصول كل شىء للإنسان فى داره دون سعى ومثابره، ولكن الرزق يأتى بالسعى والجهد فقد خلق الله جميع الموارد ودعى الجميع للسعى والعمل، وهكذا المقامات الظاهريه التى افاضها الله على العباد لا تحصل هى الأخرى دون السعى والجهد والاجتهاد.

جدير ذكره أننا أن شاهدنا موت البعض فى العصر الراهن بسبب الجوع، فذلك ليس معلولاً لشحه المواد وقتها، بل يعزى ذلك إلى ظلم وجور الطبقة الأنائيه النفعيه المستغله، فلو كان هنالك تقسيم عادل فى الأرزاق لما جاع أحد حتى فى ظل أصعب السنين قحطاً.

ولم يوفر الله تعالى الرزق للإنسان فحسب دون الكائنات، بل وفر ذلك بصورة مذهله لجميع الأحياء والحيوانات، فلم يغفل عن نطفه فى جنين ولا- يرقه فى بيضه طائر أو بذره نبات ووفر للجميع ما يحتاجون إليه، وتبدو قصه تقسيم الأرزاق فى مختلف أساليبها وطرقها لمن القصص العجيبه التى ينبغى أن تؤلف فيها الكتب.

ثم خاض عليه السلام فى بيان السجايا البارزه للمتقين فاستهلها بثلاث صفات بارزه وقال:

«فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ، مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الْإِقْتِصَادُ، وَمَشِيئُهُمُ التَّوَّاضُعُ».

العبارة:

«مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ» إشارة إلى الخطوه الأولى فى تهذيب الإنسان وتربيته التى تتمثل فى صون لسانه ومنطقه؛ اللسان الذى تصدر بواسطته الكبائر، كما تحقق بواسطته أفضل العبادات، فإن صلح صلح كل ما فى الإنسان وإن فسد فسد كل شىء فيه.

ولمفرده

«صواب»، هنا مفهوم غايه فى السعه يشمل كل كلمه حق وحكمه، نعم فالمتقون ينبرون قبل كل شىء لصون ألسنتهم ومنطقهم، ومن هنا يعتقد أصحاب السير والسلوك أن صون اللسان يعد الخطوه الأولى فى إصلاح الذات، ذلك لأن صلاحه يعنى صلاح سائر الأعضاء، قال تعالى فى كتابه العزيز: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

ص: ٤٠٥

اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ» (١).

وإصلاح الأعمال وغفران الذنوب أثر التقوى والقول السديد، قرينه حسنه على إرتباطهما ببعضهما.

والتعبير بالملبس فى العبارة

«وَمَلْبَسُهُمُ الْإِقْتِصَادُ» (٢) والتي ذكرت ثانى صفة وفضيله للمتقين إن وردت بمعناها الحقيقى فهى إشارة إلى اللباس الظاهرى الذى ينبغى أن يكون بعيداً عن الاسراف والتبذير وكذلك التقدير والبخل كما روى ذلك بعض الشراح.

أما إن كان اللباس بالمعنى الكنائى الواسع بقرينه بعض الآيات مثل

«وَلِيَّاسُ التَّقْوَى ذَلِكُمْ خَيْرٌ» (٣) و «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لِيَّاسًا» (٤) و «هُنَّ لِيَّاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ» (٥) فلا ينبغى الاقتصار به على معنى الارتداء الظاهرى بل يكون معناه واسع يشمل جميع حياه الإنسان، أى إعتدال الحياه برمتها فيكون بمثابة اللباس على أجسادهم، كما عبّر فى الجملة الثالثه:

«مَشِيَّتُهُمُ التَّوَّاضُعُ» فهى لا تقتصر على المشى الظاهرى، ذلك لأن المشى المتواضع وإن كان حسناً لكنه لا يصلح فى مصاف أولى الصفات البارزه للمتقين، ولكن إن كان إشارة لمعنى المشى الواسع فمعناه أن سلوكياتهم كافه مقرونه بالتواضع.

فقد أشار الإمام عليه السلام فى الواقع بدايه الخطبه إلى ثلاثه مبادئ أساسيه: الصواب والاعتدال والتواضع التى تسود حياه المتقين فى جميع جوانبها.

وقد وردت عدّه تأكيدات على هذه المبادئ الثلاث فى الأخبار والروايات، فقد ورد فى الخبر عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«إِنَّ هَذَا اللِّسَانَ مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ وَشَرٍّ

ص: ٤٠٦

١- (١) سورة الأحزاب، الآيتان ٧٠ و ٧١.

٢- (٢) . «اقتصاد» من ماده «قصد» بمعنى الاعتدال وتشمل الاعتدال فى كل شىء.

٣- (٣) . سورة الأعراف، الآية ٢٦.

٤- (٤) سورة الفرقان، الآية ٤٧.

٥- (٥) . سورة البقره، الآية ١٨٧.

فَيَتَّبِعِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَخْتِمَ عَلَى لِسَانِهِ كَمَا يَخْتِمُ عَلَى ذَهَبِهِ وَفِضَّتِهِ» (١).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام:

«مَا عَالَ مَنْ أَقْتَصَدَ» (٢).

وقال الإمام الصادق عليه السلام:

«فِيمَا أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا دَاوُدُ كَمَا أَنَّ أَقْرَبَ النَّاسِ مِنَ اللَّهِ الْمُتَوَاضِعُونَ كَذَلِكَ أَبْعَدُ النَّاسِ مِنَ اللَّهِ الْمُتَكَبِّرُونَ» (٣).

ثم بين عليه السلام هاتين الصفتين فقال:

«غَضُّوا (٤) أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ».

«غَضُّوا»: من ماضٍ

«غَضَّ» تعنى فى الأصل (التقليل) وحين تستعمل فى العين تعنى الخفض أى خفض الرأس إلى الأسفل أو إسدال الجفنين على العينين.

«وَقَفُوا»: من ماضٍ

«وقف» تعنى لغويًا التوقف بينما تعنى فى الاصطلاح الفقهى وقف شىء لآخر أو تستعمل بمعنى أوسع بمعنى خص الشىء بآخر. وعليه فإن أخذنا المعنى الحقيقى للكلمة فى العبارتين المذكورتين كان المفهوم أنهن لا ينظرون إلى الحرام ولا يسمعون سوى العلم النافع، وإن أخذنا بنظر الاعتبار المعنى الكنائى الواسع فمفهوم العبارة الأولى أنهن يخفضون بصرهن عن جميع المحرمات ويوقفون سمعهن على العلم النافع فقط.

والمراد من

«الْعِلْمِ النَّافِعِ» فى الدرجة الأولى، العلوم الدينيّة المفيدة والقيم المعنويّة والحياه السعيده فى العالم الآخر، وبالدرجة الثانية كلّ العلوم الضروريّة للعرّه والمجد والاستقرار والرفعه للبشريّه فى هذه الدنيا، بما فيها العلوم المرتبطه بصحه الإنسان وسلامته أو الصناعه والزراعه أو العلوم السياسيّه وما شابه ذلك.

لا شك فى أنّ علاقه الإنسان بالعالم الخارجى والعالم المعاصر والسابق بصورة

١- (١) تحف العقول، قسم كلام الإمام الباقر عليه السلام، ص ٢١٨.

٢- (٢) نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ١٤٠.

٣- (٣) وسائل الشيعه، كتاب الجهاد، الباب ٢٨ أبواب جهاد النفس، ح ٢.

٤- (٤) . «غَضُوا» من ماده «غَضَّ» على وزن «خَزَّ» كما ورد فى الخطبه تعنى التقليل، وإن استعملت فى العين عنت الخفض أى خفض الرأس بغيه عدم النظر. «غمض» تعنى غلق العين.

رئيسيه عن طريق هاتين نعمتين أى العين والأذن، فالإنسان يرى الحقائق بعينه وبها يقرأ التاريخ، ويسمع بأذنه رساله السماء وأئمه الدين وتفاصيل تجارب العظماء السابقين. فهو يرتبط بجميع الأشياء من حوله بهاتين الوسيلتين بحيث لو سلبتا منه لما بقى لديه شىء ولكن عقله وشعوره كعقل وشعور الصبى غير المميز، بل حتى لسانه وسائر حواسه إنما تنشط فى ظل سلامه هذين العضوين ومن هنا فإن الفرد الأصم والأعمى أحرص على الدوام وإن كان لسانه سالماً.

ورد فى حديث عن الإمام الباقر عليه السلام قال:

«كُلُّ عَيْنٍ بَأَكِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غَيْرُ ثَلَاثٍ؛ عَيْنٌ سَهَرَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ فَاضَتْ مِنْ حَشْيِهِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ غَضَّتْ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ» (١).

وفى حديث آخر عن الإمام الحسن عليه السلام قال:

«إِنَّ أَبْصَرَ الْأَبْصَارِ مَا نَفَذَ فِي الْخَيْرِ مَذْهَبَهُ وَأَسْمَعَ الْأَسْمَاعِ مَا وَعَى التَّنْذِيرَ وَانْتَفَعَ بِهِ» (٢).

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى صفه أخرى من صفات المتقين والتي تتمثل بالرضا والتسليم فقال:

«نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ» (٣).

فالنعمه لا تسكرهم ولا تبطريهم، والمصائب والخطوب لا تحزنهم ولا تجزعهم؛ فهم راضون برضا الله مسلمون لإرادته فى جميع الأحوال. طبعاً أنهم لا يتوانون فى السعى لمواجهه المحن والخطوب وتوفير أسباب النعم والعيش الكريم لكنهم لا يعيشون سوى الرضا والتسليم بالنسبه لما كان خارجاً عن إرادتهم؛ ذلك لأنهم يعلمون من جانب أن الله حكيم ورحيم وأرحم من الأم بولدها ولا يقدر سوى ما فيه مصلحه عبده المؤمن.

ويعلمون من جانب آخر أن الجزع إزاء الحوادث الأليمه ليس فقط لا يحل

ص: ٤٠٨

١- (١) الكافى، ج ٢، ص ٨٠، باب اجتناب المحارم، ح ٢.

٢- (٢) ميزان الحكمه، ج ٤، ص ٥٥١ نقلاً عن بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ١٠٩.

٣- (٣) «رخاء» و «رخوه» تعنى فى الأصل اللين والضعف وإن استعملت بشأن الحياه فإنها تعنى الحياه الهائنه.

الأزمه بل يحبط الأجر والثواب وأحياناً يضاعف من شدة الخطب ويوجب بالتالى اليأس والقنوط إزاء كل حادثه.

وقد وردت عدّه روايات عن المعصومين عليهم السلام بشأن مقام الرضا والتسليم ومنها ما روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«رَأْسُ طَاعَةِ اللَّهِ الصَّبْرُ وَالرِّضَا عَنِ اللَّهِ فِيمَا أَحَبَّ الْعَبْدُ أَوْ كَرِهَهُ، وَلَا يَرْضَى عَبْدٌ عَنِ اللَّهِ فِيمَا أَحَبَّ أَوْ كَرِهَهُ إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ فِيمَا أَحَبَّ أَوْ كَرِهَهُ» (١).

وقد روى المرحوم الكليني بعد نقله لهذه الروايه اثنتى عشره روايه فى الرضا والتسليم ومقامات المؤمن الراضى والمسلم لإرادته الله تبارك وتعالى.

ثم تطرق عليه السلام إلى صفة بارزه أخرى للمتقين والتي تدل على الإيمان القوى والثقة بوعده الله فقال:

«وَلَوْلَا الْأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ، شَوْقًا إِلَى الثَّوَابِ، وَخَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ».

فأرواحهم أشبه بالطير المسجون فى القفص فهو يرى نفسه من جهة إزاء الحدائق النضرة المنعمه بأنواع الزهور والنباتات والفواكه والشمار، ومن جانب آخر يرفرف بأجنحته إزاء النار المحرقة داخل القفص فيحنو إلى الحرية ليحلق إلى تلك الحدائق ويتخلص من تلك النار المحرقة.

والمتقون على هذه الشاكلة، فعشقتهم للثواب من جانب وخوفهم من العقاب (أثر سوء العاقبه) من جانب آخر يشد أرواحهم المرهفه إلى العالم الآخر، بينما يحول عنهم دون ذلك الأجل الذى ضربه الله لهم.

ويكشف هذا التعبير ضمناً سيادة الخوف والرجاء فى وجودهم، فهم راجون من جانب لثواب الله ولطفه، ويخشون من جانب آخر أن تزل أقدامهم فى هذه الدنيا فيقعون فى فخ الشيطان وهوى النفس فيغادرون الدنيا وقد ساءت عاقبتهم.

جاء فى الحديث أنّ لقمان الحكيم خاطب ولده فقال له:

«يَا بُنَيَّ خَفِ اللَّهَ خَوْفًا

ص: ٤٠٩

١- (١) الكافي، ج ٢، ص ٦٠، باب الرضا بالقضاء، ح ١.

لَوَأْتَيْتَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِيْرَ الثَّقَلَيْنِ خِفْتَ أَنْ يُعَذَّبَكَ وَارْجُ اللَّهَ رَجَاءً لَوْوَأْفَيْتَ الْقِيَامَةَ بِإِثْمِ الثَّقَلَيْنِ رَجَوْتَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكَ» (١).

وذكر الإمام عليه السلام صفة بارزه جداً في المتقين فقال:

«عَظَمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ».

فكل شخص يبدو له النهر الكبير ضئيلاً حين يكون إلى جانب المحيط المتلاطم الأمواج، وحين ينظر الإنسان إلى الشمس التي تضيئ العالم لا يرى من وجود لضوء أكبر وأكبر مصابيح العالم ضياءً، نعم، فقد تعزف المتقون على القدره المطلقه والعلم اللامتناهى لخالق عالم الوجود فأدر كوا بقدر استعدادهم عظمه ذاته المقدسه، فكان من الطبيعي أن يصغر كل ما سواها في أعينهم، وهذه هي إحدى العوامل التي تقف وراء تقوى المتقين وورعهم وأعظم من ذلك عصمتهم من الذنب والمعصيه، فكلما عظمت معرفه الإنسان بالله صغر ما سواه في نظره فلم يعد يتعلق بهذه الأشياء الحقيه والتافهه ولذلك لا يقارف الذنب.

ومن هنا نفهم ما قاله الإمام على عليه السلام:

«وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيَتْ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا عَلَى أَنْ أُعْصِيَ اللَّهُ فِي نَمَلِهِ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرِهِ مَا فَعَلْتُهُ» (٢).

وقال في مواصلته لكلامه:

«وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لِأَهْوَنَ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جِرَادَةٍ تَقْضِيهَا».

فإن ذلك يُعزى ذلك إلى عرفانه عليه السلام بالله تبارك وتعالى. نعم، كلما ازدادت معرفه الله لدى الإنسان صغرت الدنيا في عينيه وضعفت لديه أسباب الذنب واستشعر المزيد من الطمأنينه والسكينه، وبالطبع فإن أحد آثارها حضور القلب في العباده والصلاه، بحيث لا يلتفت إلى الألم حين تُسل السهام من جسده.

ثم أتجه عليه السلام إلى صفة بارزه أخرى تتمثل في مقام المتقين الشهودى فقال:

«فَهُمْ

ص: ٤١٠

١- (١) بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٤١٢.

٢- (٢) نهج البلاغه، الخطبه ٢٢٤.

وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنْعَمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَأَاهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ».

للإيمان واليقين مراحل، فإيمان البعض تفرزه الأدلة العقلية وسائر الأدلة الكافية والشافيه عليه، وقد عبّر العرفاء وأساتذہ الأخلاق وبلاستناد إلى الآيات القرآنيہ عن هذه المرحله بمرحله (العلم اليقيني)، والمرحله الأسمى هي (مرحله الشهود) حيث يتجاوز الإنسان في هذه المرحله الأدله العقليہ ليلبغ مقام الشهود فيرى الله ويشاهد عظمته ببصيرته وتزول عنه جميع الشكوك والوساوس التي تترتب أحياناً على الأدله العقليه وهذا ما يصطلح عليه بمقام (عين اليقين).

والمرحله الثالثه وهي مرحله (حق اليقين) المختصه بخواص الله ومقربيه حيث يصل الإنسان في ظلها إلى مرتبه تذوب فيها ذاته فلا يرى سوى الله ويغيب عن ناظره كل ما سواه.

فالواقع أن المرحله الأولى عامه وتشمل جميع المؤمنين الصادقين، بينما تختص المرحله الثانيه بالمتقين المخلصين والمجاهدين، وتختصر المرحله الثالثه على صفوه معينه من أولياء الله كالمعصومين عليهم السلام، ولكل مرحله آثارها ومعطياتها وأحد آثار مرحله الشهود التي أشير إليها في هذه الخطبه بشأن المتقين أنهم يرون أنفسهم حاضرين على الدوام أمام الحق ولا ينفكون عن طاعته وإمتثال أوامره، وبالطبع فإن قدسيه حياتهم خير شاهد على إيمانهم الشهودي فقد جاء في الحديث المروى عن الإمام الصادق عليه السلام: إن رسول الله صلى الله عليه وآله صلي بالناس الصبح، فنظر إلى شاب في المسجد وهو يخفق ويهوى (1) برأسه، مصفراً لونه، قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله:

«كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا فُلَانٌ؟» قال:

«أَصْبَحْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مُوقِنًا». فعجب رسول الله صلى الله عليه وآله من قوله، وقال صلى الله عليه وآله:

«إِنَّ لِكُلِّ يَقِينٍ حَقِيقَةً فَمَا حَقِيقَةُ يَقِينِكَ؟».

ص: ٤١١

١- (١). يقال خفق برأسه إذا أخذته سنه من النعاس فمال رأسه دون سائر جسده.

فقال:

«إِنَّ يَقِينِي يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ الَّذِي أَحْزَنَنِي وَأَسْهَرَ لَيْلِي وَأَظْمَأَ هَوَاجِرِي فَعَزَفْتُ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا حَتَّى كَأَنِّي إِلَى أَنْظُرَ عَرْشَ رَبِّي وَقَدْ نُصِبَ لِلْحِسَابِ وَحُشِرَ الْخَلَائِقُ لِذَلِكَ وَأَنَا فِيهِمْ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَنَعَّمُونَ فِي الْجَنَّةِ وَيَتَعَارَفُونَ، عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِنُونَ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ وَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ مُصْطَرِحُونَ وَكَأَنِّي الْآنَ أَسْمَعُ زَفِيرَ النَّارِ يَدُورُ فِي مَسَامِعِي».

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه:

«هَذَا عَبْدٌ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ». ثم قال صلى الله عليه وآله له:

«إِلْزَمِ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ».

فقال: يا رسول الله ادع لى أن أرزق الشهادة معك. فدعا له رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يلبث أن خرج فى بعض غزوات النبى صلى الله عليه وآله فاستشهد بعد تسعة نفر وكان هو العاشر (١).

وقد وردت العديد من الأخبار التى تشبه ما ورد سابقاً بشأن المتقين طيله التاريخ والذين بلغوا مقام الشهود والتى تؤكد كلام الإمام عليه السلام.

ثم واصل كلامه عليه السلام فذكر خمس صفات أخرى من صفات المتقين فقال:

«قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ».

فهذه الصفات سلسله من صفات المتقين، ذلك لأن حزنهم الذى ورد فى صفتهم الأولى يشير إلى خوفهم من الله والتقصير فى الإتيان بالوظائف، قال الإمام الصادق عليه السلام:

«الْحُزْنُ مِنْ شِعَارِ الْعَارِفِينَ». وواصل كلامه قائلاً:

«وَلَوْ حَجَبَ الْحُزْنَ عَنْ قُلُوبِ الْعَارِفِينَ سَاعَةً لَأَسْتَغَاثُوا» (٢).

نعم، فهم وجلون دائماً إزاء وظائفهم، ومن هنا خيم الحزن على قلوبهم خشيه

ص: ٤١٢

١- (١) نقل المرحوم الكليني هذا الحديث فى باب حقيقه الإيمان (الكافى، ج ٢، ص ٥٣) وكذلك نقله المرحوم العلامة المجلسى فى بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ١٧٤ عن كتاب المحاسن.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٧٠.

التقصير في حقّ مظلوم أو صدور ظلم منهم أو أنّهم فكروا في ما سوى الله، أضف إلى ذلك لا يفارقهم غم العشق وحزن الإبتعاد عمّا يرجونه من قرب الله، على كلّ حال فهم لا يعيشون هم الدنيا أبداً، لأنهم لا يعشقون الدنيا.

وعليه فإن قال القرآن: «أَلَمْ يَأْنِ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَأَخَوْفٍ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ»^(١). فهذا لا ينافي ما ورد في هذه الخطبه، لأنّ الخطبه متعلقه بالخوف عمّا سوى الله والحزن على الدنيا الماديّه وقوله في الصفه الثانيه أنّ الناس منهم في أمان إشاره إلى أنّ وجودهم لا يختزن سوى الخير والبركه للجميع ولا يفرز أى عناء وعذاب. قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَهُ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَخَافُ النَّاسَ شَرَّهُ»^(٢).

وقال عليه السلام في الصفه الثالثه إنّ أجسامهم نحيفه ولا يراد به النحافه المتعارفه اليوم في المجتمع، بل تعنى الضعف الذى يفيد الزهد من جانب والتقوى والصوم ويدل من جانب آخر على الخفه والاستعداد في إتيان الوظائف الشرعيّه، على كلّ حال فإنّ هذه الصفه كبعض الصفات الأخرى لها استثناءات حيث إنّ البعض من الأفراد ليس بنحيف بحسب بنيتة الجسميّه لكنه في صف المتّقين.

وأشير في الصفه الرابعه إلى حاجاتهم المحدوده لا على غرار أصحاب الدنيا كانزى الذهب والفضه الذين يشبهون جهنم كلّما أعطوا شيئاً نادوا «هل من مزيد»، والحقّ أنّ القناعه والحاجات الخفيفه لتصون الإنسان من العديد من الذنوب وتريح فكره لسلوك سبيل الحقّ، كما ذكر الإمام عليه السلام في إحدى كلماته القصار حيث قال:

«تَخَفُّوا تَلَحُّقُوا»^(٣).

وجاء في الخبر أنّ الإمام الصادق عليه السلام دخل حماماً فقال له صاحب الحمام:

نخّيه لك؟ فقال عليه السلام:

«لا، إنّ المؤمنَ خفيفُ المؤمنه»^(٤).

ص: ٤١٣

١- (١). سورة يونس، الآيه ٦٢.

٢- (٢) كنز العمال، ج ٣، ص ٥٠٢، ح ٧٦١٣.

٣- (٣) نهج البلاغه، خطبه ٢١.

٤- (٤) وسائل الشيعه، ج ١، الباب ٢٢، أبواب آداب دخول الحمام، ح ٣.

وأشار في الصفه الخامسة إلى مقام العفه في أن أرواحهم عفيفه، تلك العفه التي تسوق الإنسان إلى غض الطرف عن الهوى والمعصيه، وبعبارة أخرى لم يعد للأهواء والمعاصي من سبيل إليهم بحيث ينفرون من رؤيه المناظر القبيحه والفاحشه.

قال عليه السلام في إحدى كلماته القصار:

«مَا الْمُجَاهِدُ الشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَعْظَمِ اجْرَاءٍ مِمَّنْ قَدَرَ فَعَفَّ؛ لِكَأْدِ الْعَفِيفِ أَنْ يَكُونَ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ» (١).

وكيف لا يكونون كذلك وقد انتصروا في ميدان الجهاد الأكبر على عدوٍ خطر هو هوى النفس والشيطان.

ثم قال في ذكر صفه أخرى من صفاتهم:

«صَبِرُوا أَيَّامًا قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً. تِجَارَةٌ مُزِيحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ». فالصبر سواء على الطاعه أو إزاء وساوس المعصيه أو على المصيبه لمن الصفات البارزه للمتقين.

ولا يسع أحد الظفر بأى هدف معنوياً كان أم مادياً ما لم يتحل بالصبر والاستقامه ولو فقد الإنسان هذه الصفه فإنه يخاطر بدينه وإيمانه وعزته وشرفه ومن هنا جاء في حديث عن الإمام عليه السلام أنه قال:

«وَعَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الْإِيمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ» (٢).

ونقل المرحوم الكليني في الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«الْجَنَّةُ مَخْفُوفَةٌ بِالْمَكَارِهِ وَالصَّبْرُ، فَمَنْ صَبَرَ عَلَى الْمَكَارِهِ فِي الدُّنْيَا دَخَلَ الْجَنَّةَ؛ وَجَهَنَّمَ مَخْفُوفَةٌ بِاللَّذَاتِ وَالشَّهَوَاتِ فَمَنْ أَعْطَى نَفْسَهُ لَذَّتَهَا وَشَهَوَاتَهَا دَخَلَ النَّارَ» (٣).

واعتبر الإمام عليه السلام كما ورد في العبارة أن هذا العمل؛ أى الصبر مدّه قليله إزاء نيل تلك السعاده الخالده تجاره مريحه يسرها الله لهم.

قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا

ص: ٤١٤

١- (١) نهج البلاغه، القصار الكلمات، الكلمه ص ٥٧٤.

٢- (٢) المصدر السابق، الكلمه ٨٢.

٣- (٣) الكافي، ج ٢، ص ٨٩، باب الصبر، ح ٧.

وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ» (١).

وقال فى موضع آخر إنَّ الملائكة تتلقى الصالحين من المؤمنين حين يرومون دخول الجنَّة بالسلام: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ» (٢).

ثم تطرق عليه السلام إلى صفتين من صفات المتقين فقال:

«أَرَادَتْهُمْ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا، وَأَسْرَتْهُمْ فَفَدَّوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا».

إشاره إلى اقبال الدنيا بجميع متعها ولدائنها إلى الجميع لتستقطب إليها النفوس البشريَّة، ولكن لا يقع فى شباكها سوى أولئك الجهَّال أو أصحاب الأهواء، بينما لا يغتر بها المتقون الذين يعلمون أنَّ حقيقتها سراب، وهنالكَ البعض الذى يغتر بالدنيا عن طريق المال والثروة والجاه والمقام والشهرة، بينما لا يخفى هذا المعنى على المتقين.

والحقُّ أننا لنرى الكثير من الناس الذين يصبحون اسارى المقام بحيث يدفعهم الحفاظ عليها إلى عدم التورع عن ارتكاب كلِّ موبقه وجنايه، وهناك البعض الذى يأسره المال والشهوات بحيث يضحى من أجل ذلك بكرامته الإنسانيَّة، أمَّا المتقون السائرون على خطى المعصومين يتجاوزون ذواتهم وشعارهم فى ذلك

«هَيْهَاتَ مِنَّا الدُّلَّةُ».

تأمل

محاوِر هذا الجانب من الخطبه

تدور محاور هذا الجانب من الخطبه الذى تضمن عشرين صفة من صفات المتقين حول عدَّة أمور، إيمان المتقين الراسخ وهو الإيمان الذى بلغ حد الشهود ومشاهده عالم ما وراء الطبيعه، مسأله التولى عن متع الدنيا ولذاتها وعدم الانخداع

ص: ٤١٥

١- (١) سورة فاطر، الآية ٢٩.

٢- (٢) سورة رعد، الآية ٢٤.

بالأهواء والشهوات وتحري العلم والمعرفه واجتناب الذنوب والمعاصي سيما معاصي اللسان والتواضع وكف الشر عن الخلق
تمثل معظم تلك الأمور.

وإن لم يكن للمتقين سوى هذا الجانب المذكور في الخطبه لكفاه أن يصنع منهم أناساً كمل فضلاً عن الجوانب القادمه من
الخطبه التي تشير إلى هذه الصفات.

والصفات السابقه ليست منفصله عن بعضها البعض الآخر، بل هي سلسله متصله ومشروع جامع للسالكين إلى الله والذين ينشدون
القرب منه تعالى.

فذلك الشخص الذي بلغ به الأيمان درجه كأنه يرى حجب النور وينظر من خلف حجب الطبيعه الضخمه إلى الجنه والنار من
الطبيعي أن يصغر في عينه كل ما سوى الله ولا تخدعه مفاتن الدنيا وزخارفها ويعيش الواقع إزاء خلق الله ويكف عنهم أذاه.

وهنا يطرح هذا السؤال: كيف يتحصل هذا الإيمان الشهودي ولمن سيكون نصيب هذه السعاده؟

وتتضح الاجابه عن هذا السؤال من خلال بعض التشبيهات، فالصوره الحقيقيه لا تنعكس في مرآه القلب مادام ملطخاً بقذاره
الأهواء، ولا يسع الإنسان التحليق إلى سماء الحقيقه مادام مسجوناً في زنانه الطبيعه.

أَمَّا اللَّيْلُ فَصَافُونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرْتَلُونَهَا تَرْتِيلاً، يُحْزِنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَيَسْتَشِيرُونَ بِهِ دَوَاءً دَائِهِمْ. فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعًا، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقًا، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصِبَ أَعْيُنُهُمْ. وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْبَغُوا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَيَّانُونَ عَلَى أَوْسِيَّاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِجِوَاهِرِهِمْ وَأَكْفُهُمْ وَرُكْبِهِمْ، وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ.

الشرح والتفسير: ليل المتقين

خاض الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه في حال المتقين في الليل ليركز على التفاصيل ويمهد السبيل أمام الجميع فقال:

«أَمَّا اللَّيْلُ فَصَافُونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرْتَلُونَهَا تَرْتِيلاً، يُحْزِنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَيَسْتَشِيرُونَ (١) بِهِ دَوَاءً دَائِهِمْ».

ويمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى تلاوه القرآن في صلاة الليل، ذلك لأنهم يرتلون القرآن حين القيام بعد سورة الحمد في الصلاة؛ كما يمكن أن يكون الأمران منفصلين، أي أنهم ينهضون في الليل للصلاة وتلاوه القرآن أيضاً.

جدير ذكره أن الإمام عليه السلام بين أسلوب قراءه المتقين للقرآن بعبارة قصيرة عميقه

ص: ٤١٧

١- (١) «يستشيرون» من ماده «ثور» على وزن «غور» و «ثوران» على وزن «فوران» بمعنى الهياج و «استثاره» بمعنى التهيج ويعنى في العبارة المذكوره البحث في الآيات القرآنيه لشفاء الأمراض الأخلاقيه والمعنويه.

المعنى فهم يقرأون القرآن بصيغته الترتيل الذى يعنى التأمل والتدبر فى مفاهيم القرآن أضف إلى ذلك قال: إنهم يرون أنفسهم مخاطبين بالقرآن فإن مرّوا بآيه فيها تشويق تطلّعوا إليها طمعاً وإن مرّوا بآيه فيها تخويف، استشعروا منها الحزن، كما أنّهم يبحثون عن دواء دائهم الأخلاقى والمعنوى فى زوايا الآيات القرآنيّه فهو الطيب وهو الدواء.

ثم قال فى شرحه لهذا المعنى:

«فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعًا، وَتَطَلَّعَتْ (١) نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقًا، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصِبَ أَعْيُنِهِمْ».

نعم! فهؤلاء لا يطالعون القرآن بصوره سطحية بل يرون أنفسهم مخاطبين به فتأجج فى قلوبهم نيران الشوق حيث البشاره الإلهية ويرون ببصائرهم ما وهم فيه فى هذه الحياه الدنيا، وهذا ما يدفعهم إلى السير والسلوك إلى الله تعالى.

«وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ (٢) جَهَنَّمَ وَشَهيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ».

فقد بلغ إيمانهم مرحله الشهود فأخذوا يرون حقائق عالم الغيب وكأنها تعيش معهم، وبالطبع إن كانت قراءه القرآن بهذه الصيغه كانت أفضل وسيله فى التهذيب والتريبه.

ورد فى إحدى كلمات الإمام عليه السلام أنه قال:

«أَلَا لَا خَيْرَ فِي قِرَاءِهِ لَيْسَ فِيهَا تَدْبِيرٌ أَلَا لَا خَيْرَ فِي عِبَادِهِ لَيْسَ فِيهَا تَفَقُّهُ» (٣).

وروى عن الإمام السجاد عليه السلام أنه قال:

«آيَاتُ الْقُرْآنِ خَزَائِنٌ فَكُلَّمَا فُتِحَتْ خَزِينَةٌ يَتَّبَعِي لَكَ أَنْ تَنْظُرَ مَا فِيهَا» (٤).

ص: ٤١٨

١- (١) «تطلعت» من طلوع «تطلع» بمعنى البحث عن شىء.

٢- (٢). «زفير» و «شهيق» «زفير» فى الأصل إخراج الهواء من الرئه و «شهيق» بمعنى إدخال الهواء إلى داخل الرئه؛ لكن صرح البعض أنّ «زفير»، هو إخراج الهواء مع صراخ و «شهيق» هو إدخال الهواء مع وأنين.

٣- (٣) بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٢١١.

٤- (٤) الكافي، ج ٢، كتاب فضل القرآن، باب فى قراءته، ح ٢.

ولما فرغ الإمام عليه السلام فى العبارات السابقه من بيان كيفية صلاه المتقين المقرونة بتلاوه الآيات القرآنيه والمترامنه مع الخضوع والخشوع والتدبر وحضور القلب أردفها فى العبارة التاليه بيان ركنين آخرين هما الركوع والسجود فقال:

«فَهُمْ حَائُونَ (١) عَلَى أَوْسَاطِهِمْ (٢)، مُفْتَرِشُونَ لِحَبَابِهِمْ (٣) وَأَكْفُهُمْ وَرُكْبِهِمْ، وَأَطْرَافِ (٤) أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ (٥) رِقَابِهِمْ».

فالعبارات التى ذكرها الإمام عليه السلام بشأن الركوع والسجود تعبيرات بمنتهى الروعه والجمال والتى تُطلع الإنسان على عمق هذه العبادات، فالإنحاء أمام الله وافتراش الجبين وبسط الأرجل على الأرض إزاء عظمه الله بالتوجه وحضور القلب ينطوى على عالم من المعنويات، والطريف أن الهدف النهائى لذلك تحرير رقبه الإنسان من قيد الأسر، ولكن هل المراد تحريرها من مخالب نار جهنم أم من كل قيد من قيود هوى النفس والشيطان والأشرار من الناس؟ يبدو أن عبارته الإمام عليه السلام مطلقه تشمل الجميع رغم تظافر الروايات التى وردت فيها العبارة

«مِنَ النَّارِ» بعد

«فَكَأَكِ الرَّقَبَةِ».

نعم! فحريه الإنسان مرهونه بعبوديته لله فى الدنيا وفى الآخرة وسوى المتقين أسرى الأهواء والرغبات والأموال والشروات والمقامات والشياطين.

وما بينه الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبه بشأن المتقين إقتباس فى الواقع من الصفات التى ذكرها القرآن الكريم للمتقين فى آواخر سورة الفرقان عن

«عِبَادُ الرَّحْمَنِ» فقد قال تعالى: «وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا» (٦).

ص: ٤١٩

١- (١). «حائون» من ماده «حنو» بمعنى الانعطاف، اذن «حائون» جمع «حائى» بمعنى الشخص الذى ينحنى.

٢- (٢) «أوساط» جمع «وسط» بمعنى الظهر.

٣- (٣) «جباه» جمع «جبهه» بمعنى الجبين.

٤- (٤) «أطراف» جمع «طرف» بمعنى رأس كل شىء وتعنى هنا رأس البنان الذى يوضع على الأرض فى السجود.

٥- (٥) «فكأك» و «فكك» بمعنى التحرير والتفريق.

٦- (٦) سورة الفرقان، الآيتان ٦٤ و ٦٥.

١. خاض الإمام عليه السلام بعد بيانه لصفات المتقين في مستهل خطبه في انشطتهم في الليل والنهار والتي تغص بدروس السعاده.

فشرح بادئ الأمر نشاطهم بالليل حيث يسرون فيه بصورة كامله باتجاه التريه والتهديب والقرب الإلهي.

ويستند أساس هذا النشاط إلى أمرين: ١. الصلاه بحضور قلب تام، وهي الصلاه الموصله لكل سمو

«قُرْبَانُ كُلِّ تَقِيٍّ» وهي الطريق المتقين للقرب من الله والناهيه عن كل فحشاء ومنكر.

٢. تلاوه القرآن في الصلاه وخارجها في غسق الليل حيث الصمت المطلق والشرائط التي تنفي الموانع كآفه من الحضور بين يدي القرآن والمقرونه بالتدبر في الآيات بحيث يرى المؤمن نفسه مخاطباً بآيات الثواب والعقاب فيرى بأمر عينيه مصير أصحاب الجنّه وأصحاب النار في خضم الآيات وينفتح على معارفها ويتعظ بمواعظها ويمثل في حياته لأحكامها.

حقاً إن مثل هذه الصلاه والتلاوه القرآنيه في جوف الليل إنما تربيهم بحيث يستطيعون في النهار القيام بوظائفهم بأحسن نحو، وسيرد الحديث عن نشاطهم في النهار في القسم القادم من الخطبه.

وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءٍ، أُبْرَارٌ أَتَقِيَاءُ. قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرَى الْقِدَاحِ يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاطِرُ فَيَحْسِبُهُمْ مَرَضَى، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ؛ وَيَقُولُ: لَقَدْ حَوْلَطُوا!!

وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ! لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَلَا يَسْتَكْتَرُونَ الْكَثِيرَ. فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهَمُونَ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي، وَرَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنْ نَفْسِي! اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، وَاجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَاعْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ!

الشرح والتفسير: نهار المتقين

خاض الإمام عليه السلام في هذا الجانب من خطبه في نشاط المتقين في النهار (على غرار القسم السابق الذي شرح فيه نشاطهم في الليل) فأشار بادئ الأمر إلى خمس صفات من صفاتهم فقال:

«وَأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءٍ، أُبْرَارٌ أَتَقِيَاءُ. قَدْ بَرَاهُمُ (١) الْخَوْفُ بَرَى الْقِدَاحِ (٢) يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاطِرُ فَيَحْسِبُهُمْ مَرَضَى، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ؛ وَيَقُولُ: لَقَدْ حَوْلَطُوا! (٣) وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ!».

والصفات الخمس التي ذكرها الإمام عليه السلام بشأن نشاط المتقين في النهار دلالة

ص: ٤٢١

١- (١). «براهم» من مادة «برى» على وزن «سعى» بمعنى نحت القلم أو الخشب وتعني هنا التصغير.

٢- (٢). «قداح» جمع «قده» على وزن «قشر» بمعنى السهم قبل أن يراش.

٣- (٣) «حولطوا» من «خلط» أي مزجوا وتعني هنا الأمر الذي خالط عقولهم، وكما يقال إلتبس عليه الأمر.

واضح على هذه الحقيقة وهي أن تقوى هؤلاء المتقين ليست منفصلة عن المجتمع قط، بل تقواهم مقرونة بالعلم والمعرفة والإدارة وتحمل المسؤولية والإحسان والعيش في وسط المجتمع.

«حُلَمَاءُ»: من ماله «حلم» التي تعنى حسب (الراغب) ضبط النفس حين الغضب، ولما كانت هذه الحالة نابعة من العقل فإن مفردة الحلم تستعمل أحياناً بمعنى العقل ومن هنا تُطلق كلمه الحليم على من يتمالك نفسه عند الغضب وعلى العالم أيضاً.

وقال علماء الأخلاق أن صفة الحلم تمثل حاله الاعتدال بين الصفتين الرذيلتين؛ إحداهما الذل والأخرى المفرطه وهى الغضب.

على كل حال فإن هذه الصفة غالباً ما تظهر حين التعامل مع الجهال فيضطر الحليم إلى مداراتهم بحيث لا يُستغل علمهم فيقون إلى أنفسهم ويكفون عن جهلهم.

والتعبير بالعلماء لا يقتصر على أولئك الذين انفتحوا على العلوم المعروفة بل يشمل الأفراد ممن لهم اطلاع ومعرفة واسعة وقدره على إدراك الحقيقة.

والعبارة:

«قَدْ بَرَّاهُمْ الْخَوْفُ بَرَى الْقَدَاحِ» ليس المراد منها أن المتقين ضعيفو البنية خشية مسؤوليته، بل المراد أن تلك الخشية جعلتهم أكثر فاعليه وحسماً في القيام بوظائفهم، ذلك لأن السهم حين يرى ليصيب الهدف يكون انطلاقه أفضل وحدثه أعظم.

والتعبير

«يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاطِرُ فَيَحْسِبُهُمْ مَرَضَى» إشاره إلى أن العلماء والحلماء والمتقين الأبرار يبدوون في أعين السذج من الناس كأفراد ضعيفي الإرادة وغير جادين في قراراتهم.

ومن هنا نرى رمى الأنبياء من قبل أممهم بتهمه الجهل والجنون، سيما أنهم لا يشابهون سائر قومهم، فمن لم يكن مثلهم يرونه مجنوناً لأنه يخالف عاداتهم وعقائدهم بينما الواقع هم المجانين.

ص: ٤٢٢

قال القرآن بشأن السابقين في الخيرات: «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ» (١).

جاء في شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد في ذيل الآيه الشريفه أنه سئل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: هل المراد من الآيه من يذنب ويخشى الذنب؟ فقال صلى الله عليه وآله:

«لا، بَلِ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَيَخَافُ أَنْ لَا يَقْبَلَ مِنْهُ» (٢).

ثم خاض الإمام عليه السلام في بيان علو همم المتقين فقال:

«لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَلَا يَسْتَكْتَرُونَ الْكَثِيرَ. فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهَمُونَ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ» (٣).

فعلو هممتهم وسمو معرفتهم لا تدعهم يرضون بالأعمال القليله أو يستكثرون تلك الأعمال على خلاف المغرورين ضيقى النظر الذين يرضون من أنفسهم بالقليل من العمل وكأنهم أشرف خلق الله، وبغض النظر عن ذلك فهؤلاء يتمتعون بصفه بارزه هي نقد الذات التي يفر منها أغلب الأفراد والذين لا يقبلون النقد من الآخرين وبطريق أولى لا ينتقدون أنفسهم وبذلك يهجرون الأمر الذي يؤدى إلى سموهم وتكاملهم.

فهؤلاء يشعرون بالخشيه دائماً وكأنهم لم يؤدوا حق نعمه الله وهجروا طريقه عبوديه الله وأنهم مسؤولون أمام خلق الله.

وقد فسّر بعض شراح نهج البلاغه الأعمال الوارده هنا بالعبادات فقط واستشهدوا بالروايات الوارده في كثره عبادات النبي صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام والإمام السجاد عليه السلام. صحيح أنّ العبادات تعدّ إحدى الوظائف المهمه للعباد، ولكن ليس لدينا أى دليل على حصر الأعمال الوارده في العباده المذكوره بالعباده وعدم شمولها

ص: ٤٢٣

١- (١) سوره المؤمنون، الآيه ٦٠.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٠، ص ١٤٦.

٣- (٣) «مشفقون» من «اشفاق» بمعنى الرغبه المقرونه بالخوف؛ يعنى خائفون من التقصير فى اعمالهم، كما تعنى من يخشى على آخر يحبه تعرضه لبعض الحوادث.

وقد كان أئمتنا عليهم السلام يقرون بذلك لله تعالى مع ما كانت لديهم من أعمال ضخمة واسعة ورغم قدسيتهم وطهارتهم، فقد ورد عن الإمام السجاد عليه السلام في دعاء أبي حمزة الثمالي تضرعه قائلاً:

«وما قَدَرُ أَعْمَالِنَا فِي جَنْبِ نِعْمِكَ وَكَيْفَ نَسْتَكْتِرُ أَعْمَالًا نُقَابِلُ بِهَا».

وجاء في كتاب الغارات عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام أن أحدهم تعجب من كثرة ما ينفق ويتصدق في سبيل الله فقال له عليه السلام:

«لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ قَبِلَ مِنِّي فَوْضًا وَاحِدًا لَأَمْسَكْتُ، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ مَا أَذْرِي أَقْبَلَ اللَّهُ مِنِّي شَيْئًا أَمْ لَا؟» (١).

وهذا في الواقع درس لعامة الناس في عدم الاغترار بأعمالهم العبادية والخيرية مهما كانت كثيرة ذلك لأن مسألة الإخلاص صعبة ومعقدة.

وجاء في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«ثَلَاثُ قَاصِمَاتُ الظُّهْرِ؛ رَجُلٌ اشْتَكَّرَ عَمَلَهُ، وَنَسِيَ ذُنُوبَهُ، وَأَعْجَبَ بِرَأْيِهِ» (٢).

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة أخرى في إطار حديثه عن مسألة نقد الذات فقال:

«إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يَقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي، وَرَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي! اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، وَاجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَاعْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ!».

وإننا لنعلم أن من موانع الرقي والتقدم نحو الله وفي المجتمع البشري هو مدح المداحين وتملق المتملقين الذي قذف بأغلب زعماء العالم في أوديه الخطأ والضلال، والمتقون يشعرون بالخوف دائماً من مدح الآخرين حذراً من أن يسوقهم إلى الغرور والعجب فيتعرضون لسخط الله، فهم يسألون الله أن يكونوا أعظم من ذلك المديح وإن كانت لديهم معصية خفية سألوها غفرانها.

١- (١) الغارات، ج ١، ص ٩٠.

٢- (٢) وسائل الشيعه، ج ١، ص ٧٣، الباب ٢٢ من أبواب مقدمات العبادات، ح ٦.

إشفاق المتقين من أعمالهم

يتصف نشاط المتقين نهاراً بالصبغة الشعبيه والاجتماعيه المحضه رغم نشاطهم الليلي فى تهذيب النفس فى ظل المناجاه والعباده والتضرع إلى الله، والاستناد إلى العلم والحلم والإحسان والخوف فى تحمل المسئوليه لأفضل دليل على هذا المعنى. فهم علماء يوظفون العلم لهدايه وإرشاد المجتمع.

وحلماء يتحملون الصبر إزاء تعصب ولجاجه الجهال من الأفراد، ومحسنون يمدون يد الخدمه بقدر استطاعتهم إلى المحتاجين. خائفون ووجلون من القيام بالمسؤوليات الكبيره، فخوفهم خوف إيجابى ليكون الدافع للعمل أسمى وأعظم لا خوف سلبى يدعو إلى التوقف وترك النشاط، ولذلك قال عليه السلام: إنَّ الخوف لم يضعفهم بل جعلهم أكثر عملاً على غرار السهم الذى يبرى ليعد لإصابه الهدف.

ومن صفاتهم أنهم ليسوا كأصحاب الدنيا الذين ينتهزون الفرص والنفعيين الذين يتأقلمون مع كل شخص ومع جميع الظروف بغيه تحقيق أهدافهم الماديه، ومن هنا يتهمهم مثل هؤلاء الأفراد بخفه العقل والسداجه، وزبده الكلام فإنهم مشفقون من أعمالهم سابقون للنظر فيها قبل أن يتعرض لها الآخرون.

حقاً مثل هؤلاء الأفراد يستطيعون انقاذ المجتمع البشرى من الظلم والجور وإيصال الحقوق إلى أصحابها.

فَمِنْ عَلَامِهِ أَحَدِهِمْ أَنْكَ تَرَى لَهُ قُوَّةَ فِي دِينٍ، وَحَزْمًا فِي لِينٍ، وَإِيمَانًا فِي يَقِينٍ، وَحِرْصًا فِي عِلْمٍ، وَعِلْمًا فِي حِلْمٍ، وَقَضِيَّةً فِي غِنَى، وَخُشُوعًا فِي عِبَادَةٍ، وَتَجَمُّلاً فِي فَاقَةٍ، وَصَبْرًا فِي شِدَّةٍ، وَطَلَبًا فِي حَلَالٍ، وَنَشَاطًا فِي هُدًى، وَتَحَرُّجًا عَنِ طَمَعٍ. يَعْمَلُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ. يُمَسِّي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ، وَيُضَيِّحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ. يَبِيْتُ حَذِرًا وَيُضَيِّحُ فَرِحًا؛ حَذِرًا لَمَّا حَذَرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَفَرِحًا بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ. إِنْ اسْتَضَعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكَرَّرَ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ. قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لَا يَزُولُ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لَا يَبْقَى، يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ.

شرح وتفسير

اثنا عشره صفة أخرى

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبه إلى اثنتي عشره صفة أخرى من صفات المتقين بعبارات قصيره عميقه المعاني ليستهلها بقوتهم في الدين وبعدهم عن الطمع فقال عليه السلام:

«فَمِنْ عَلَامِهِ أَحَدِهِمْ أَنْكَ تَرَى لَهُ قُوَّةَ فِي دِينٍ، وَحَزْمًا (١) فِي لِينٍ، وَإِيمَانًا فِي يَقِينٍ، وَحِرْصًا فِي عِلْمٍ، وَعِلْمًا فِي حِلْمٍ، وَقَضِيَّةً فِي غِنَى، وَخُشُوعًا فِي عِبَادَةٍ، وَتَجَمُّلاً (٢) فِي فَاقَةٍ، وَصَبْرًا فِي شِدَّةٍ، وَطَلَبًا فِي حَلَالٍ، وَنَشَاطًا (٣) فِي هُدًى،

ص: ٤٢٧

١- (١). «حزم» الإحكام والاتقان ومادته الأصلية «حزام»، رباط الحيوان (رباط محكم يربط به سرج الحيوان إلى بطنه وورد بمعنى مطلق الربط المحكم).

٢- (٢). «تجمل» من «جمال» التظاهر بالجمال و«تجمل» التظاهر باليسر عند الفقر والفاقة.

٣- (٣) «نشاط» العمل الصادق و«نشاطات» علميه بمعنى الأعمال العلميّه.

وَتَحَرُّجاً (١) عَنْ طَمَعٍ.

والعبارة:

«قُوَّةٌ فِي دِينٍ» تشير إلى عدم استطاعه المشككين والمنافقين النفوذ إليهم وليس بإمكان خطوب الدنيا ومصاعب الحياه زعزعه إيمانهم.

وتشير العبارة

«وَحَزْماً فِي لَيْنٍ» إلى أنَّهم رغم إشراقتهم الفكرية التي تستلزم عادة الحزم - خلاف العادات اليومية التي تسهل العمل - لا ينسون الليونة والمرونة ويعاملون من يرافقهم في تحقيق الأهداف الاجتماعية بالرفق والمحبة على ضوء المثل القائل:

«لَا تُكُنْ حُلُومًا فَتَشْتَرِطَ وَلَا مَرًّا فَتَلْفُظَ».

والعبارة:

«وإِيمَانًا فِي يَقِينٍ» تشير إلى أنَّ للإيمان درجات أعلاها درجة علم اليقين وحق اليقين التي تحصل أحياناً عن طريق الاستدلالات القوية والمتينة، وأخرى عن طريق الشهود من خلال ذلك السمو.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إِنَّ الْإِيمَانَ أَفْضَلُ مِنَ الْإِسْلَامِ وَإِنَّ الْيَقِينَ أَفْضَلُ مِنَ الْإِيمَانِ وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَعَزُّ مِنَ الْيَقِينِ» (٢). نعم فقد بلغ المتقون هذه المرتبة السامية والنادرة.

والعبارة:

«حِرْصاً فِي عِلْمٍ» رغم أنَّ مفردة الحرص تحمل الجانب السلبي عادة لكنها هنا تشير إلى أنَّهم بمنتهى الجديه في كسب العلم، ذلك لأنه لا أصاله للتقوى ولا عمق دون العلم.

والعبارة:

«وَعِلْمًا فِي حِلْمٍ» تشير إلى أنَّ العالم لا ينبغي أن يغضب وينفعل إزاء جهل الجاهلين بل ينفذ إليه بحلمه بصورة تدريجية فيزيل جهله.

ونقرأ مانقله المرحوم العلامة المجلسي في حديث مفصّل حوار الإمام الصادق عليه السلام مع البصري الذي جاء إلى الإمام الصادق عليه السلام لتحصل العلم، فقال له في شأن الحلم:

-
- ١- (١) «تحرّج» من ماده «حرج» المشقّه. وعندما تتعدى هذه المفرده بالحرف «عن» تعنى الابعاد.
- ٢- (٢). الكافي، ج ٢، ص ٥١، باب فضل الإيمان على الإسلام، ح ١.

«فَمَنْ قَالَ لَكَ إِنَّ قُلْتَ وَاحِدَهُ سَمِعْتَ عَشْرًا فَقُلْ إِنَّ قُلْتَ عَشْرًا لَمْ تَسْمَعْ وَاحِدَهُ».

وقال بشأن العلم:

«فَأَسْأَلِ الْعُلَمَاءَ مَا جَهِلْتُ وَإِيَّاكَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ تَعْتَنَّا وَتَجْرِبُهُ وَإِيَّاكَ أَنْ تَعْمَلَ بِرَأْيِكَ شَيْئًا» (١).

العبارة:

«قَصِيداً فِي غِنَى» إشاره إلى أنهم إن أصبحوا أغنياء وأثرياء لا يتخلون عن الاعتدال ويجتنبون الإسراف والتبذير ويعينون الفقراء بما لديهم من أموال فأنضه عن الحاجه.

والعبارة:

«وَحُشُوعاً فِي عِيَادِهِ» إشاره إلى أن عبادتهم ليست سطحية جوفاء خاليه من الروح، بل تصدح عباداتهم بالخشوع والخشوع وحضور القلب الذي يمثل روح العباده في أعمالهم العباديه وكل صلاه من صلواتهم معراج للقرب الإلهي، ومن هنا قال القرآن الكريم في وصفه للمؤمنين المفلحين: «الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ» (٢).

والعبارة:

«تَجَمُّلاً فِي فَاقِهِ» التي تقابل في الواقع

«قَصِيداً فِي غِنَى» إشاره إلى أن المتقين ولا يشكون حين الفقر والفاقه.

وتفيد مفرده

«تَجَمُّلاً» أنهم رغم فقرهم وعوزهم يحافظون على ظاهرهم، كما يصفهم القرآن: «يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ» (٣).

والعبارة:

«صَبْرًا فِي شِدَّةِهِ» تشير إلى استقامتهم وصبرهم إزاء مكاره الدهر والحوادث الأليمه وكمصداق لقوله تعالى: «إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» (٤).

حيث يرون أنفسهم راجعين إلى الله ودار الأمن والأمان والروح والريحان دون الإكتراث لهذه الدنيا فقد قال النبي صلى الله عليه و آله:

«إِنَّ الصَّبْرَ نِصْفُ الْإِيمَانِ» (٥). وقال:

ص: ٤٢٩

- ١- (١) بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٢٦.
- ٢- (٢) سورة المؤمنون، الآية ٢.
- ٣- (٣) سورة البقرة، الآية ٢٧٣.
- ٤- (٤) سورة البقرة، الآية ١٥٦.
- ٥- (٥) . شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١، ص ٣١٩؛ بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ١٣٧، ح ٢٢.

«الإيمان نصفان؛ نصف في الصبر ونصف في الشكر»(١).

والعبارة:

«طَلَباً فِي حَلَالٍ» تشير إلى أن المتقين ليسوا أفراداً متفوقين ومعتزلين للأنشطة الحيويه، بل يسعون ويجدون من أجل المعاش والنهوض بالمجتمع الإسلامي الذي يشكل أحد أهدافهم الأساسيّه، مع هذا الفارق وهو أن أصحاب الدنيا لا يهتمون للحلال والحرام بينما يعيش هؤلاء هم الكسب الحلال ويهربون من العمل مهما كان دخله كثيراً إن شَمُوا منه رائحه الحرمة، قال النبي صلى الله عليه وآله:

«الْعِبَادَةُ سَبْعُونَ جُزْءاً أَفْضَلُهَا طَلَبُ الْحَلَالِ»(٢).

وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً»(٣). ويمكن أن تكون العبارة دلالة على أن العمل الصالح وليد الغنى الحلال والطيب.

والعبارة:

«نَشَاطاً فِي هُدًى» تفيد أن طي طريق الهدى بالنسبه لهؤلاء وخلافاً لما يعتقدّه الأفراد ضيقى الفكر وقليلى المعرفة منطلقاً للنشاط والحيويه، فهم لا يكلون قط من السير على هذا الدرب وسلوك هذا الطريق يضاعف من نشاطهم وفاعليتهم.

المراد من العبارة

«وَتَحَرُّجاً عَنِ طَمَعٍ» أن المتقين بعيدون كلّ البعد عن الطمع، الطمع نتيجة التعلق الشديد بالدنيا بسبب التوجه لغير الله والذي يؤدى إلى العديد من المفسد ومنها أنه أحد عناصر الذلّه والبغض والعداوه والحقد والحسد؛ فالطماع لا يشبع قط من مال الدنيا ويسعى للحصول عليه بالطرق والوسائل كافه فهو فى الواقع يعيش أسر هذا القيد على الدوام كما قال الإمام عليه السلام فى إحدى كلماته القصار:

«الطَّمَعُ رِقٌّ مُؤَبَّدٌ»(٤).

ص: ٤٣٠

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٥١.

٢- (٢) الكافي، ج ٥، ص ٧٨.

٣- (٣) . سورة المؤمنون، الآية ٥١.

٤- (٤) نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ١٨٠.

أضف إلى ذلك فالطمع يعطل الفكر والعقل ويعرض الإنسان للتذبذب والحيره، كما قال عليه السلام في إحدى كلماته القصار:

«أَكْثَرُ مَصَارِعِ الْعُقُولِ تَحْتَ بُرُوقِ الْمَطَامِعِ» (١).

ثم تطرق عليه السلام إلى ثلاث صفات أخرى من صفات المتقين فقال:

«يَعْمَلُ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ (٢). يُمَسِّي وَهْمُهُ الشُّكْرَ، وَيُصْبِحُ وَهْمُهُ الذُّكْرَ».

نعم! فلو أتى أولياء الله بكل الأعمال الصالحة لظلوا يخشون عدم أدائهم حق العبودية لله والتقصير في إمتثال التكليف، كما ورد في الحديث الشريف عن الحارث بن المغيرة أو أبيه، عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قلت له: ما كان في وصيه لقمان؟ قال عليه السلام:

«كَانَ فِيهَا الْأَعْجِيبُ وَكَانَ أَعْجَبُ مَا كَانَ فِيهَا أَنْ قَالَ لِإِيْنِهِ: خِفَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْفَةً لَوْ جِئْتَهُ بِيْرَ الثَّقَلَيْنِ لَعَبَّدَبَكَ، وَارْجُ اللَّهُ رَجَاءً لَوْ جِئْتَهُ بِذُبُوبِ الثَّقَلَيْنِ لَرَحِمَكَ...» (٣).

وللقرآن الكريم تعابير مختلفه ورائعه بهذا الخصوص في وصفه للسابقين في الخيرات: «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ» (٤).

والعبارة:

«يُمَسِّي وَهْمُهُ الشُّكْرَ، وَيُصْبِحُ وَهْمُهُ الذُّكْرَ» إشاره إلى أن هؤلاء يتدئون يومهم الذي يستأنفون فيه العمل والنشاط باسم الله وفي آخر اليوم حيث انفتحوا على تلك النعم الإلهية واستغلوها في مرضات الله فيندفعون في الحمد والشكر، بالضبط كالجلوس على مائده الطعام، فهم يشرعون بتناول الطعام باسم الله وينتهون بشكره حين يرفعون أيديهم عن الطعام، رغم ما ذهب إليه بعض الشراح (٥) أن الاختلاف في التعبير من باب التنوع في العبارة والمراد أنهم ذاكرون وشاكرون في الصباح والمساء وفي جميع الأحوال، إلّا أنّ الأنسب ما ذكرناه.

وقد وردت عبارات عميقه المعنى في الآيات والروايات بشأن أهميته ذكر الله.

ص: ٤٣١

١- (١) نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ٢١٩.

٢- (٢) «وجل» بمعنى الخوف و «وجل» على وزن «خجل» بمعنى الشخص الخائف.

٣- (٣) الكافي، ج ٢، ص ٦٧، كتاب الإيمان والكفر، باب الخوف والرجاء، ح ١.

٤- (٤) سوره المؤمنون، الآيه ٦٠.

٥- (٥) . في ظلال نهج البلاغه، ج ٣، ص ١٦٩.

فقد ورد في الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«ثَلَاثَةٌ مَعْصُومُونَ مِنْ إبْلِيسَ وَجُنُودِهِ:

الدَّاكِرُونَ لِلَّهِ، وَالْبَاكُونَ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَالْمُسْتَغْفِرُونَ بِالأَشْحَارِ»(١).

كما وردت عدّه آيات وروايات في الشكر منها: ما روى عن أمير المؤمنين عليه السلام في غرر الحكم أنّه قال:

«شُكْرُ النِّعْمَةِ أَمَانٌ مِنْ حُلُولِ النِّقْمَةِ»(٢).

ثم أشار إلى صفتين مهمتين من صفات هؤلاء الأولياء فقال:

«يَبِيتُ حَذِرًا وَيُصْبِحُ فَرِحًا؛ حَذِرًا لَمَّا حُدِّرَ مِنَ العُغْلَةِ، وَفَرِحًا بِمَا أَصَابَ مِنَ الفُضْلِ والرَّحْمَةِ».

طبعاً ليس مفهوم العبارة تقسيم الوقت في الخوف والرجاء، فالخوف والرجاء راسخ في قلوب المتقين في كلّ زمان، وعلى كلّ حال ولكن لما كان المتقون يخلون إلى أنفسهم بعد نهاية يومهم للحساب يشعرون بالقلق إن كان بدر منهم زله أو خطأ ومن هنا ورد الحث على الاستغفار عند الليل قبل النوم فقد روى عن الصادق عليه السلام أنّه قال:

«... مَنْ اسْتَغْفَرَ اللَّهَ حِينَ يَأْوِي إِلَى فِرَاشِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ تَحَاتَّتْ ذُنُوبُهُ كَمَا يَسْقُطُ وَرَقُ الشَّجَرِ»(٣).

ولما كان النهار انطلاقه فعاليه وأعمال صالحه جديده، الفعاليه التي ينبغي أن تستهل بالأمل والرجاء فقد أصبح تجلياً لصفه الرجاء والأمل.

وللمفسرين عدّه أقوال بشأن الفارق بين الفضل والرحمه ذيل الآيه الشريفه: «قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ»(٤) فقد ذهب البعض إلى أنّ الفضل الإلهي هو النعم الظاهريه والماديّه والرحمه النعم الباطنيّه والمعنويّه، بينما ذهب البعض الآخر إلى أنّ الفضل بدايه النعمه والرحمه دوامها، كما احتتمل أن يكون الفضل إشاره إلى نعم الله العامه على جميع الناس والرحمه إشاره إلى رحمته الخاصه بالمؤمنين. وبالطبع ليس هنالك من تناقض في هذه التفاسير ويمكن الجمع بينها جميعاً.

ص: ٤٣٢

١- (١) مستدرک الوسائل، ج ١٢، الباب ٩٣ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه، ح ٥.

٢- (٢) غرر الحكم، ٥٦٦٤.

٣- (٣) وسائل الشيعه، ج ٤، الباب ١٢ من أبواب التعقيب، ح ٧.

٤- (٤) . سورة يونس، الآيه ٥٨.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى بيان صفة أخرى من صفات المتقين ذات الصلة بالتربية وتهذيب النفس فقال:

«إِنْ اسْتَضَعَبْتَ (١) عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكَرَّرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ».

هذا في الواقع أحد مراحل السلوك إلى الله والذي يصطلح عليه بمرحلة «المعاقبه» التي تأتي بعد مراحل «المشارطه» و «المراقبه» و «المحاسبه» أى يشترط على نفسه منذ الصباح حين ينطلق فى يومه الجديد على عدم مقارفه أى ذنب، ثم يعيش المراقبه طيله يومه ومن ثم يتفرغ ليلاً لحساب ما أتى به من عمل فى النهار، فإن ظفر بمخالفه هب لمعاقبه نفسه كأن يمنع نفسه ما ترغب فيه، مثلاً يحرم نفسه من الطعام اللذيذ والفرش المريح والنوم الكافى وما شاكل ذلك ليؤدب نفسه الجامحه فتعيش طاعه الله فى الأيام القادمه، وهذا البرنامج مؤثر وعملى لتهذيب النفس وبالطبع أن كل من داوم عليه سيلمس آثاره وبركاته بعد مدّه ليست طويله.

ثم أشار إلى أربع صفات مهمه أخرى فقال:

«قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لَا يَزُولُ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لَا يَبْقَى، يَمْزُجُ الْجِلْمَ بِالْعِلْمِ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ».

والعباره

«قُرَّةُ عَيْنِهِ» بالنظر إلى أن «قُرَّة» من ماده «قر» (على وزن حرّ) تعنى فى الأصل البروده والعرب تعتقد أن دموع الشوق بارده دائماً ودموع الحزن حاره ومحرقة، فإن هذه العبارة تقال حيث السرور والفرح، وعليه فمفهوم العبارة المذكوره أن عين المتقين مسروره بعالم الآخرة، ذلك لأنه عالم خالد ودائم، كما قال القرآن عن أصحاب الجنة: «خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ» (٢) وقال أيضاً:

«فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (٣) وبالنظر إلى أنه وحسب ما ورد فى الأقسام السابقه من الخطبه فإن هؤلاء يرون بأعينهم فى هذه

ص: ٤٣٣

١- (١) . «استصعب» من «صعوبه» مأخوذه من «استصعاب» بمعنى التصعيب وعدم الخضوع.

٢- (٢) . سورة هود، الآية ١٠٧.

٣- (٣) . سورة السجده، الآية ١٧.

الدنيا الجنّة ونعمها، وتحصل لهم حاله السرور وقره العيون، وبالعكس حيث ايقنوا أنّ الدنيا متقلبه فلم يتعلقوا بها قط، ومزجهم الحلم بالعلم والقول بالعمل كان من أهم نقاط قوتهم، ذلك لأنّ العالم إن لم يكن حليماً إزاء جهل الجهّال تعذر عليه هدايتهم وإرشادهم وإن لم يقترن قوله بفعله لم يعد لكلامه من تأثير، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إِنَّ الْعَالِمَ إِذَا لَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ زَلَّتْ مَوْعِظَتُهُ عَنِ الْقُلُوبِ كَمَا يَزِلُّ الْمَطَرُ عَنِ الصِّفَا» (١).

ص: ٤٣٤

١- (١) بحار الأنوار، ج ٢، ص ٣٩، ح ٦٨.

تَرَاهُ قَرِيبًا أَمَلَهُ، قَلِيلًا زَلُّهُ، خَاشِعًا قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنُورًا أَكَلُهُ، سَهْلًا أَمْرُهُ، حَرِيزًا دِينَهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْطُومًا غَيْظُهُ. الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ، إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبَ مِنَ الْغَافِلِينَ.

يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطَى مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ، بَعِيدًا فُحْشُهُ، لَيْنًا قَوْلُهُ، غَائِبًا مُنْكَرُهُ، حَاضِرًا مَعْرُوفُهُ، مُقْبَلًا خَيْرُهُ، مُدْبِرًا شَرُّهُ. فِي الزَّلَازِلِ وَقُورٌ، وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ، وَفِي الرِّخَاءِ شُكُورٌ. لَا يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلَا يَأْتِمُّ فِيمَنْ يُحِبُّ. يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ، لَا يُضَيِّعُ مَا اسْتُحْفِظَ، وَلَا يَنْسِي مَا ذُكِّرَ، وَلَا يُنَابِزُ بِالْأَلْقَابِ، وَلَا يُصَارُّ بِالْجَارِ، وَلَا يَشْتَمُ بِالْمَصَائِبِ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ، وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ. إِنْ صِيَمَتْ لَمْ يَغْمَهُ صِيَمَتُهُ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَغْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ. نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ. وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ. أَنْعَبَ نَفْسَهُ لِإِحْرَتِهِ، وَأَرَاخَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ. بُعِيدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ، وَدُنُوهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ. لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبَرٍ وَعَظَمَةٍ، وَلَا دُنُوهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيْعَةٍ.

الشرح والتفسير: تسع صفات أخرى

تطرق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى تسع من صفات المتقين فقال:

«تَرَاهُ قَرِيبًا أَمَلَهُ، قَلِيلًا زَلُّهُ، خَاشِعًا قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنزُورًا (١) أَكَلَهُ، سَهْلًا أَمْرُهُ، حَرِيزًا (٢) دِينُهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُومًا (٣) غَيْظُهُ».

فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارة إلى قصر الأمل، لأنّ طول الأمل - كما ورد في الروايات - ينسى الآخرة ونسيان الآخرة طامه كبرى تفرز مختلف المعاصي والذنوب.

صحيح أنّ وجود الأمل لدى الإنسان مدعاه للحركة والنشاط، كما جاء في الحديث النبوي الشريف:

«الْأَمَلُ رَحْمَةٌ لِأُمَّتِي وَلَوْ لَا الْأَمَلُ مَا رَضَعَتْ وَالِدَةٌ وَلَدَهَا وَلَا غَرَسَ غَارِسٌ شَجْرًا» (٤). ولكن إن تجاوز هذا الأمل الحد وتبدل إلى أمل طويل فإنّه يدفع جميع قوى الإنسان وأفكاره نحو الدنيا وينسيه كلّ شيء، بل يتعذر حتى على الإنسان في ظلّ هذه الحالة أن يستثمر دنياه.

وإننا لنرى أنّ قلة زلات المتّقين كونهم يبعدون أنفسهم عن مطبات الذنب وذكرهم الدائم لله تبارك وتعالى. وخشوع قلوبهم نتيجة لعرفانهم بالله، لأنّ الإنسان كلّما ازداد إدراكه لعظمه المعبود ازداد خضوعه له، وقناعه المتّقين معلوله لسعة افقهم إزاء النعم الماديّة للدنيا ومتاعها وزخرفها، وبما أنّهم يؤمنون بفنائها وزوالها فهم لا يجازفون في السعي للحصول عليها فيقتنعون منها بذلك المقدار اللازم، وقلة طعامهم لعلمهم بأنّ كثرة الأكل - وبغض النظر عمّا تفرزه من أنواع الأمراض - فإنّها تسلبهم حيويته العبادة ومناجاة الله، أضف إلى ذلك فإنّها تجعلهم يغفلون عن ذكر المعوزين من أهل الفاقة.

وجاء في الحديث عن الإمام عليه السلام في غرر الحكم:

«مَنْ اقْتَصَدَ فِي أَكْلِهِ كَثُرَتْ صِحَّتُهُ وَصَلَحَتْ فِكْرَتُهُ».

ص: ٤٣٦

١- (١). «منزور» من مادة «نزر» على وزن «نذر» قليل.

٢- (٢) «حريز» من مادة «حرز» على وزن «قرض» الحفظ و «حريز» الشيء المحفوظ.

٣- (٣) «مكظوم» من مادة «كظم» على وزن «هضم»، ويقال «مكظوم» للشخص الغاضب والذي يتمالك نفسه.

٤- (٤). سفينة البحار، ج ١، ص ٣٠، مادة «أمل»؛ بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٧٣.

العبارة:

«سَيَهْلَأُ أَمْرُهُ» إشارة إلى أنه سهل لين في أعماله الشخصية، كما أنه سهل المؤونه إزاء الناس، وأنا لنرى بعض الأفراد الذين يعيشون حاله من التكلف القسوى بشأن سفر أو ضيافه ويزجون بأنفسهم في أتون عذاب أليم، أو يخوضون صراعاً قد يستغرق أشهراً وربما سنوات تجاه الناس لانتزاع حق بسيط، والحال يعيش المتساهلون حياه وادعه مريحه على المستوى الشخصى إلى جانب الراحة فى علاقاتهم مع الآخرين.

العبارة:

«حَرِيْزاً دِيْنَهُ» إشارة إلى أنه يهتم قبل كل شىء بحفظ إيمانه وعقيدته ومبادئ دينه، ولا يضحى بها من أجل المال والمقام والشهوه.

والعبارة:

«مَيَّتَهُ شَهْوَتُهُ» لا تعنى أنهم يفتقرون إلى الشهوات، بل يسيطرون بعقولهم وإيمانهم على تهذيب هذه الشهوه، وهوذات التعبير الرائع الذى ساقه القرآن الكريم بشأن يوسف عليه السلام: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» (١).

وأما العبارة:

«مَكْطُوماً غَيْظُهُ» بعد الصفات السابقه إشاره إلى أن حفظ الدين وأداء الوظائف قد يؤدى أحياناً إلى ردود فعل طائشه من قبل بعض الجهال والذى يثير الغضب لدى المتقين، لكنهم مسلطون على أنفسهم ويكظمون غيظهم.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فأشار إلى أربع صفات من صفات المتقين البارزه فقال:

«الْحَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ، إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ».

ورد فى الحديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله:

«أَلَا أُتْبِكُمْ لِمَ سَمِيَ الْمُؤْمِنُ مُؤْمِنًا؟ لِإِيْمَانِهِ النَّاسَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، أَلَا أُتْبِكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِ؟ مِنَ الْمُسْلِمِ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ» (٢).

فإن كان هذا هو حال العاديين من المسلمين والمؤمنين، فمن الأولى أن يكون

ص: ٤٣٧

١- (١) سورة يوسف، الآية ٢٤.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٦٤، ص ٦٠، ح ٣.

كذلك الوضع بالنسبة للمتقين الذين يمثلون نخبة المؤمنين والمسلمين، فهؤلاء مصدر الخيرات والبركات ولا يتلقى الناس منهم أى شر.

وجاء فى الحديث النبوى الشريف:

«إِنَّ مَثَلَ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ النَّحْلِ إِنْ صَاحَبْتَهُ نَفَعَكَ وَإِنْ شَاوَرْتَهُ نَفَعَكَ وَإِنْ جَالَسْتَهُ نَفَعَكَ وَكُلُّ شَأْنِهِ مَنَافِعٌ وَكَذَلِكَ النَّحْلُ كُلُّ شَأْنِهَا مَنَافِعٌ» (١).

قال بعض الأعلام: إن وجه المشابهة بين المؤمن والنحل حذق النحل وفطنته وقله أذاه ومنفعته وقناعته وسعيه فى النهار وتنزهه عن الاقذار وطيب أكله، وأنه لا يأكل من كسب غيره (٢)، أضف إلى ذلك فإن النحلة تنتج الشهد العظيم الفائدة، بالإضافة إلى أن دورانها حول الأزهار يؤدى إلى تلقيح مختلف أنواع النباتات، ناهيك عن لسعتها التى تعدّ وسيلة للدفاع عن نفسها من العدو ذات فائده عظيمه فى علاج بعض الأمراض ومفرده الخير والشر مفهوم غايه فى السعه تشمل الخيرات الماديه والمعنويه وجميع الشرور الماديه والمعنويه كذلك.

والعبارة:

«إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كِتَابٌ فِي الذَّاكِرِينَ» إشاره إلى أنه لا يتأثر حين يكون وسط بعض الغافلين من الأفراد فهو لا ينفك عن ذكر الله واليوم الآخر، كما لا يعيش حاله الغفله حين يكون وسط الذاكرين.

ثم أشار عليه السلام إلى ثلاث صفات مهمه أخرى والتي تعدّ من كرامات المتقين فقال:

«يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ».

يرد الإنسان بالمثل أحياناً على ما يواجهه من إساءات من الآخرين والتي غالباً ما تفرزها حاله الثأر والانتقام؛ ولكن لا تمارس أحياناً مثل هذه المعامله وهذا بالطبع الأسلوب الذى يطبع سيره أولياء الله والمتقين، فهم يتجاوزون ويعفون عن ظلم الظلمه فى الوقت الذى يتمكنون فيه من الانتقام والرد بالمثل، وهذا بحد ذاته

ص: ٤٣٨

١- (١) بحار الأنوار، ج ٦١، ص ٢٣٨.

٢- (٢) . المصدر السابق.

شجاعه لأنه ينبع من موقع القوه وليس من قبيل الاستسلام تجاه الظلم، ويعتمد البذل والعطاء تجاه من حرمه ومنعه، وهذا دليل على جوده وكرمه.

وبالتالى فهو يمد يد المصالحه والسلام لمن يقاطعه ويشمله بعونه ونجدته وهذا شجاعه وكرم.

جاء فى الخبر المروى عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال:

«إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ أَيْنَ أَهْلُ الْفَضْلِ؟ فَيَخْرُجُ عَنْكَ مِنَ النَّاسِ. فَتَسْأَلُهُمُ الْمَلَائِكَةُ: وَمَا كَانَ فَضْلُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: «كُنَّا نَصِلُ مَنْ قَطَعَنَا وَنُعْطِي مَنْ حَرَمَنَا وَنَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَنَا».

فَيَقُولُونَ لَهُمْ: «صَدَقْتُمْ إِذْ حُلُوا الْجَنَّةَ» (١).

وقد أمرنا الله تعالى فى القرآن الكريم بصوره عامه وشامله بهذا الخلق، حيث خاطب النبى صلى الله عليه وآله قائلاً: «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ» (٢).

ثم أشار الإمام عليه السلام فى عبارات قصيره وعميقه المعنى إلى ست صفات بارزه أخرى فى المتقين فقال:

«بَعِيداً فُحْشُهُ (٣)، لَيْناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ».

والصفات الست التى يقابل كل زوج فيها الآخر وتفسر بعضها البعض الآخر تشير إلى سلوكيات وتصرفات المتقين الاجتماعيه.

والعبارة:

«بَعِيداً فُحْشُهُ، لَيْناً قَوْلُهُ» إشارة إلى أن معاملتهم لجميع الناس تنطلق من اللسان الجميل والكلمات المفعمه بالخير والمحبه وليس فى أقوالهم وأعمالهم أى نوع من العنف والغلظه، فهم ليسوا بعيدين غايه البعد عن الفاحش من القول فحسب بل هم أبعد ما يكونون عن الفاحشين.

وقد ورد فى الروايه عن الإمام الصادق عليه السلام حين سئل عن حد حسن الخلق أنه

ص: ٤٣٩

١- (١) الكافى، ج ٣، ص ١٤٩.

٢- (٢) سوره المؤمنون، الآية ٩٦.

٣- (٣). «فحشه» يقال لكل من تجاوز حد الاعتداء وبلغ الحد الفاحش. ولذا يقال فحشاء للأعمال والأقوال القبيحه والمنكره، وأخذت المفردتان فاحشه وفحشاء من هذا أيضاً.

قال:

«أَنْ تُلِينَ جَنَاحَكَ، وَتُطِيبَ كَلَامَكَ، وَتَلْقَى أَخَاكَ بِبِشْرٍ حَسَنٍ» (١).

والعبارة:

«غَائِبًا مُنْكَرُهُ» تشير إلى انعدامه؛ أى لا يبدر منه أى منكر إزاء الآخرين.

ويحتمل أن يكون المراد أنه لو بدرت منهم زلّة، فهي ليست بزلةٍ عليته على الأقل لتلوث المجتمع.

والعبارة:

«حَاضِرًا مَعْرُوفُهُ» إشاره إلى جميع المحاسن التي يقرّها العقل والوجدان والشرع وليست غريبه عليها (من ماله عرفان بمعنى المعرفة).

والمراد من

«مُقْبِلًا خَيْرُهُ، مُدْبِرًا شَرُّهُ» أنهم مندفعون على الدوام فى الإتيان بأفعال الخير، وإن كانت لهم من أعمال سيئه فى الماضى فهم يسعون إلى هجرانها والإبتعاد عنها.

ثم أشار إلى ثلاث من صفاتهم الحميده فقال:

«فِي الزَّلَازِلِ (٢) وَفُورٍ (٣)، وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ، وَفِي الرِّخَاءِ شُكُورٌ».

والمراد من

«زلزل» الحوادث الأليمه والفتن العظيمه التي تهز القلوب. فالمتقون يربطون جأشهم إزاء هذه الخطوب ولا يفقدون معنوياتهم ويقفون إزاءها كالجبل الأصم الذى لا تحركه الرياح العاتيه،

«الْمُؤْمِنُ أَضِلُّبُ مِنَ الْجَبَلِ» (٤) فهم صامدون وهذا يدل على أنّ التقوى لا- تعنى الإ-عتزال عن المجتمع والخلود إلى الدعه والراحه، بل المتقون الحقيقيون هم أولئك الذين يتصدون للأحداث الصعبه ويسعون جاهدين وبكل شجاعه لإنقاذ أنفسهم ومجتمعاتهم ممّا يعصف بها من خطوب.

والصبر على المكاره يمثل أحد فروع الصبر الذى يشمل كلّ مصيبه وحادثه أليمه. فالمتقون ثابتون وصامدون فى هذا الميدان، ذلك لأنّ الجزع إزاء المصائب

- ١- (١) الكافي، ج ٢، ص ١٠٣.
- ٢- (٢) . «زلازل» جمع «زلزله» و «زلزال» بمعنى الحركة الشديده والصعبه. ويقال الزلازل للشدائد من الأحداث.
- ٣- (٣) «وقور» من «وقر» على وزن «فقر» تعنى فى الأصل الثقل ويقال الوقور للشخص الذى لا يضطرب.
- ٤- (٤) . الكافي، ج ٢، ص ٢٤١.

يقود الإنسان إلى المعصية والسيء من القول من جهه، ومن جهه أخرى يغلق على الإنسان السبيل لمعالجه الموقف.

وشكرهم عند النعمه ناشىء من تواضعهم لله والخلق، فهم ليسوا على غرار المتكبرين الذين تنسيهم النعمه والمال والمقام والثروه كل شىء فيتمردون على الخالق والمخلوق.

ثم أشار عليه السلام إلى ثلاث صفات أخرى للمتقين فقال:

«لَا يَحِيفُ (١) عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلَا يَأْتُمُ فِيمَنْ يُحِبُّ. يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ».

فهذه الصفات الثلاث تنطلق من روح المتقين الداعيه إلى الحقّ والساعيه للعداله، والعاذل من ينصف حتى عدوه فى إيصال حقّه، كما قال تعالى فى القرآن: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا» (٢).

ولا يهب صحبه أكثر من حقهم بما يؤدى لتضييع حقوق الآخرين، كما قال القرآن الكريم: «وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ» (٣).

وهذا هو سرّ اعترافهم بالحقّ قبل إقامه الشهود عليه، ذلك لأنّ الذين يسلمون إزاء الشهود لا يعتبرون ممن يسلم للحقّ، وإقامه الشهود هى التى اضطرتهم للتسليم؛ أمّا من ينشد الحقّ والعدل فهو ذلك الفرد الذى ينطلق إلى صاحب الحقّ ليعثر عليه ويؤدى حقّه ويفك رقبتة من ظلامه الآخرين، وعلى هذا الضوء لابدّ أن ينطلق المدين إلى الدائن ويفتش المؤمن عن صاحب الأمانه، على العكس ممّا تشهده المجتمعات المجانبه للتقوى.

نعم، فالمتقون من لا يقصرون فى أداء الحقوق وليسوا بحاجه للقضاء والمحاكم كما أنّ العداوه والصداه لا تخرجهم من حدود الحقّ والعدل.

ص: ٤٤١

١- (١). «يحيف» من ماده «حيف» تعنى الظلم فى الأصل و «لا يحيف» أى لا يظلم.

٢- (٢) سوره المائده، الآيه ٨.

٣- (٣) سوره الأنعام، الآيه ١٥٢.

قال النبي صلى الله عليه وآله:

«أَتَقَى النَّاسَ مَنْ قَالَ الْحَقَّ فِيمَا لَهُ وَعَلَيْهِ» (١).

ثم واصل عليه السلام كلامه ليشير إلى سبع صفات بارزات أخرى من صفات المتقين بعبارات منسجمه فقال:

«لَا يُضَيِّعُ مَا اسْتَحْفِظَ، وَلَا يَنْسَى مَا ذُكِّرَ، وَلَا يُنَابِزُ (٢) بِالْأَلْقَابِ، وَلَا يُضَارُّ بِالْجَارِ، وَلَا يَشْمَتُ (٣) بِالْمَصَائِبِ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ، وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ».

للعبارة:

«لَا يُضَيِّعُ مَا اسْتَحْفِظَ» معنى واسع يشمل جميع الأمانات الإلهية والاجتماعية، من الصلاة التي قال فيها القرآن: «وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ» (٤). حيث يحافظون عليها من خلال أدائها بإخلاص بعيداً عن السمعه والرياء، وكذلك سائر الأمانات، كالقرآن الكريم وأحكام الشريعة والأولاد الذين وهبهم إليهم الله تعالى ومختلف الأمانات التي يأتمنهم عليها الآخرون، فهم يسعون حثيثاً للحفاظ عليها ولا يفرطون بها بسبب التساهل والغفلة والتقصير.

العبارة:

«لَمَا يَنْسَى مِمَّا ذُكِّرَ» إشاره إلى جميع ما يذكر به من الأمور المفيدة من جانب الله تعالى وأولياء الله والمخلصين من الأساتذة والمعلمين والأصحاب والأصدقاء، فهؤلاء ليسوا من أهل النسيان الذين يتغاضون عن دروس الهدى والحق ولا يلتزمون بها، وإذا ما اعتراهم شيء من وساوس الشيطان تذكروا الله وإرشادات أوليائه فيعودون إلى رشدهم وهداهم، قال الله تعالى في القرآن: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ» (٥).

والعبارة:

«وَلَا يُنَابِزُ بِالْأَلْقَابِ» إشاره لما ورد في القرآن الكريم: «وَلَا تَنَابَرُوا

ص: ٤٤٢

١- (١) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١١٢.

٢- (٢). «ينابز» من ماده «نبز» على وزن «نبض» نعت الآخريين بلقب سييء و «التنابز بالألقاب» أن يدعو الآخريين ويذكرهم بألقاب سيئه.

٣- (٣). «يشمت» من «شماته» بمعنى التفرع والفرح لحزن الآخريين.

٤- (٤). سورة المؤمنون، الآية ٩.

٥- (٥) سورة الأعراف، الآية ٢٠١.

بِالْأَلْقَابِ» (١). لأن ذكر هذه الألقاب يُوجج في القلوب نيران العداوة والبغضاء فيضطر الطرف المقابل إلى ممارسه ردود الأفعال الطائشه، الأمر الذى يلوث أجواء المجتمع ويحطم شخصيه الأفراد.

وعدم أذى الجار والشماته بالمصائب التى وردت بعد مسأله التنازب بالألقاب تشير إلى رعايتهم للحقوق الاجتماعيه واحترام الآخرين فى الجوانب كافه. وقد ورد الحث على رعايه حقوق الجار فى القرآن الكريم وأحاديث النبى صلى الله عليه وآله وروايات الأئمه المعصومين عليهم السلام فقد روى عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال:

«اللَّهُ اللَّهُ فِي جِيرَانِكُمْ فَإِنَّهُمْ وَصِيَّتُهُ نَبِيِّكُمْ مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ سَيُورَثُهُمْ» (٢).

من جانب آخر فإننا نعلم أن من أصابته مصيبه فهو كالإنسان المجرور المحتاج إلى من يخفف عنه ويطبب جرحه، والشماته هنا كذر الملح على جروحه، وليس هنالك من إنسان حى يسمح لنفسه أن يقوم بهذا العمل. قال الإمام الصادق عليه السلام:

«مَنْ سَمَّتْ بِمُصِيبَتِهِ نَزَلَتْ بِأَخِيهِ لَمْ يَخْرُجْ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يُفْتَنَ» (٣).

وآخر الصفات التى وردت فى العبارة المذكوره عدم دخول المتقين فى الباطل وخروجهم من دائره الحق التى تنطوى على معانٍ عميقه جداً، أبى المتقى - على ضوء ما ذكر - الدخول فى الأفكار الباطله والتصرفات الباطله والخوض فى الأقوال الباطله ولا يتبع سوى الحق المطلق ولا يحدد عنه فى مطلقاً وأينما كان وتجاه كل شخص وازاء كل عمل.

ثم أشار عليه السلام إلى ثلاث صفات أخرى من صفاتهم فقال:

«إِنْ صَمَّتْ لَمْ يَغْمَهُ صَمْتُهُ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَغْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُعِيَ عَلَيْهِ صَبْرٌ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ».

فالمتقى لا يغتم فى سكوته، مع أن السكوت فى أغلب الأحيان يؤدى إلى حالة

ص: ٤٤٣

١- (١) . سورة الحجرات، الآية ١١.

٢- (٢) نهج البلاغه، الرسائل، ٤٧.

٣- (٣) الكافى، ج ٢، ص ٣٥٩.

من الكآبه والحزن، ذلك لأنّ السكوت أساس نجاه اللسان من أغلب الآفات، بالإضافة إلى كونه يدعو إلى التفكير في أمور الدين والدنيا، جاء في الحديث النبوي الشريف:

«طوبى لِمَنْ... أَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ»^(١).

كما أنّ المتقى لا- يضحك بصوت عال ويقهقهه في ضحكه، لأنّ القهقهه من عادات الأثرياء المغرورين والأفراد الفارغين، قال أميرالمؤمنين عليه السلام في غرر الحكم:

«خَيْرُ الضَّحِكِ التَّبَسُّمُ».

والعبارة:

«وإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ...» إشاره إلى أنه أحياناً قد يمارس بعض الأصدقاء والقرايه وربّما حتى الاخوه ظلماً بحقّ الإنسان بحيث لوهب للانتقام لنشبت نزاعات مستمره قد تنتهى إلى ما لا يحمد عقباه، فإنّ إعتد الإنسان في ظلّ هذه الظروف التحمل واستيعاب الآخر وسلم الطرف المقابل لله يكون قد أنقذ نفسه من الوسوس الشيطانيه الخطيره، كما يكون قد حافظ على حاله الهدوء والاستقرار في المجتمع، طبعاً ليس المراد من هذا الكلام العدووالغادر والقاسى، ذلك لأنّ مثل هذا التحمل والسكوت يدعو لمزيد من الظلم والطغيان.

ثم أشارالإمام عليه السلام إلى أربع صفات أخرى تكمل كلّ واحده منها الأخرى فقال:

«نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ. وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ». أى أنه يتحمل المزيد من العناء بغيه استقرار المجتمع، مثلاً لو ظهرت بعض المشاكل في المجتمع جهد نفسه وتحمل بعض المشاق لحل تلك المشكلات بغيه إراحه المجتمع فالواقع أنّ هذا نوع من الإيثار والتضحية يعمد بموجبه الإنسان إلى تحمل بعض المشاكل الاجتماعيه من أجل راحه خلق الله.

وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ العبارة الثالثه والرابعه

«أَتَعَبَ نَفْسَهُ...» بمثابه الدليل على العبارتين السابقتين؛ أى إن كانت نفسه في عناء من جانبه فذلك لأنه يسعى دائماً للاستعداد والتزود للدار الآخرة، وإن كان الناس منه في راحه

ص: ٤٤٤

فذلك لأنه قرر ذلك.

كما يحتمل أن تكون العبارتان واردتين بشأن مسأله أخرى، فالعبارتان السابقتان إشاره إلى الأمور الماديّه، وهاتان العبارتان إشاره للأمر المعنويّه.

قال الإمام عليه السلام:

«مَنْ عَمَرَ دَارَ إِقَامَتِهِ فَهُوَ الْعَاقِلُ» (١). وقال تعالى: «وَإِنَّ الْأَخْرَجَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ» (٢).

ثم اختتم الإمام عليه السلام الخطبه بأربع صفات أخرى من الصفات البارزه للمتقين الاختتام الذي ربّما لم يكن آخر الخطبه لولا تلك الحادته التي وقعت لهما ولعله أشار لمطالب مهمّه أخرى بهذا الشأن) فقال:

«أَتَعَبَ نَفْسَهُ لِأَخْرَجَتِهِ، وَأَزَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ. بُعِيدَهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ؛ وَدُنُوهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ، لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكَبِيرٍ وَعَظْمَةٍ، وَلَا دُنُوهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيْعَةٍ».

فقد أشار الإمام عليه السلام في ذكره لهذه الصفات إلى نقطه مهمّه وهي: أنّ المتقين في صلاتهم الاجتماعيّه وتعاملهم مع الأصدقاء والأعداء واقامتهم للعلاقات أو قطعها مع هذا أو ذاك وبالتالي التعامل مع جميع الأمور إنّما ينشدون أهدافاً مقدّسه؛ فإن بعدوا عن شخص فإنّما ذلك بسبب تلوّثه بالمعاصي أو أنّ الاقتراب منه يجعلهم عرضه للافتتان بزخارف الدنيا التي ابتلى بها هذا الفرد، وبالطبع فإنّ اقترابهم من الأفراد يستند إلى دورهم في هدايه الجهال وتنبيه الغافل ومساعدته الضعيف والفقير، أمّا أصحاب الدنيا فإنّما يتبعون عن هذا الفرد أو ذاك بسبب كبرهم وغرورهم ويقتربون من هذا أو ذاك بغيه تحقيق مصالحهم الماديّه والخداع والتضليل.

مصير همام بعد سماع الخطبه

صرّح الراوى بعد نهايه الخطبه التي ذكرها الإمام عليه السلام حين بلغ هذا الموضوع من

ص: ٤٤٥

١- (١). غررالحكم.

٢- (٢) سورة غافر، الآية ٣٩.

«قَالَ: فَصَعِقَ هَمَامٌ صَعَقَهُ كَأَنَّهُ نَفْسُهُ فِيهَا».

«فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَخَافُهَا عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: أَهَكَذَا (١) تَضَعُ الْمَوَاعِظَ الْبَالِغَةَ بِأَهْلِهَا».

«فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: فَمَا بِالكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ!».

«فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَيَحْكُ، إِنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ وَقْتًا لَا يَعْدُوهُ، وَسَبَبًا لَا يَتَجَاوَزُهُ».

ثم أضاف الإمام عليه السلام:

«فَمَهْلًا! لَا تَعُدْ لِمِثْلِهَا، فَإِنَّمَا نَفَثَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِكَ!».

وهنا يرد هذا السؤال: لم كانت عاقبه همام تلك الصعقه بينما لم تحدث للإمام عليه السلام الذى ساق هذا الكلام؟

لابد من الالتفات فى الجواب عن هذا السؤال إلى نقطه مهمه وهى أن همام وإن كان رجلاً عابداً وزاهداً كما ورد فى مستهل الخطبه

«كَانَ رَجُلًا -عَابِدًا» وقلبه يفيض حكمه ومعرفه وروحه مفعمه بالصفاء والنقاء (كما يتجلى ذلك من سؤاله) ولكن مهما كانت روحه ساميه لا- يمكن مقارنتها بروح أمير المؤمنين عليه السلام التى تمثل بحراً من السمو والكمال، ومن هنا لم يسع قلب همام تحمل كل تلك المفاهيم والمعارف، وهل يمكن سكب البحر فى جدول صغير؟ وعليه فليس من العجب أن يصعق همام صعقه تكون نفسه فيها ويفارق الدنيا.

فقد ورد فى القرآن الكريم بشأن قصه موسى وبنى اسرائيل وتجلي النور الإلهى للجبل: «فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا» (٢).

فلم يقتصر الأمر على عدم تحمل موسى، بل إنهار ذلك الجبل بعظمته.

نعم! فالمواعظ التى تنطلق من القلب تستقر هكذا فى القلب، والمهم أن يكون الإنسان من ذوى

«الْمَوَاعِظَ الْبَالِغَةَ» وإلا فالعتاه من الأفراد من ذوى القلوب

١- (١). جاءت فى النسخه علامه الاستفهام على رأس «هكذا»؛ لكنها لم تذكر فى الكثير من النسخ القديمه وشرح نهج البلاغه وهو الأنسب.

القاسيه والملوثه والواقعه فى شباك الشيطان لا تمتلك الآذان الصاغيه لسماع المواعظ ولا القلب الوداع لاستيعابها.

بعباره اخرى أنّ همام وإن كان متّقياً على الهّمّه، لكنه لم ير فى نفسه ذلك السّموّ الذى بيّنه الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه، فاشتعلت فى أعماقه نيران الحسرّه وصعقت نفسه كمدّاً.

ويشهد التاريخ الإسلامى على وجود العديد من هذه النماذج من الآثمين أحياناً الذين عادوا إلى رشدهم وعدد من المتّقين الذين سمعوا مثل هذه المواعظ فلم يتحملوها وفارقوا الحياه(١).

وهنالكَ احتمال ثالث وهو أنّ همام لما سمع البشائر التى ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام للمتّقين حلقت روحه شوقاً إلى ديار المعبود لتعانق الجنان.

وجاء فى الخبر أنّ «ربيع بن الخُثيم» كان فى ذلك المجلس فلما صعق همام جرت دموعه على خديه وقال لأمير المؤمنين عليه السلام ما أسرع أثر وعظك فى ابن أخى ليتنى كنت مكانه، فقال عليه السلام:

«هَكَذَا تَصْنَعُ الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةَ بِأَهْلِهَا!»(٢).

والجواب عن السؤال الثانى هو ما ذكره الإمام عليه السلام أنّ لكلّ إنسان أجلاً فلا يفارق الدنيا حتى يحلّ أجله، ولكن حين حلول الأجل يمكن أن يكون العامل النهائى بعض الأمور المختلفه، والعامل النهائى هنا العبارات العميقه لأمير المؤمنين عليه السلام، أضف إلى ذلك لا- يمكن مقارنة روح الإمام عليه السلام بروح همام، فروح الإمام بحر متلاطم من الأمواج وليس من قبيل البركه التى تتغير أوضاعها بفعل التلاطم الشديد للمياه.

ويتّضح ممّا تقدم جواب السؤال الثالث وهو لِمَ قبل الإمام عليه السلام طلب همام وبين له تلك المواعظ الشافيه والكافيه والساميه، بينما قال عليه السلام كنت أخشى عليه هذه

ص: ٤٤٧

١- (١) ذكر المرحوم العلّامة التستري فى شرحه نهج البلاغه، ج ١٠، ص ٤٥٩ نماذج منها.

٢- (٢) شرح نهج البلاغه للتستري، ج ١٢، ص ٤٦٢.

الحادثه؟! لأنَّ العامل النهائي حين حلَّ أجله يمكن أن يكون تغييراً لمختلف أجهزه البدن أو الأمواج المعنويّه العاتيه داخل الروح.

أمّا قول الإمام عليه السلام للمعترض: (لا تعدّ لمثلها فإنّما نفث الشيطان على لسانك) فذلك لأنّه لم يطرح السؤال بغيه التحقيق لفهم الموضوع بل كان هدفه نقض كلام الإمام عليه السلام وبعبارة أخرى إبطاله حسبما يظن، والحقّ أنّ سؤالاً بهذا الشكل ولأجل هذا الهدف لهو سؤال شيطانيّ.

تأمل

نظرة أخرى لخطبه همام

هذه الخطبه في الواقع دوره متكامله في الأخلاق الإسلاميه التي تسلط الضوء على جميع زوايا الحياه الفرديّه والاجتماعيّه والماديّه والمعنويّه للإنسان، كما أنّها نظام متكامل لأولئك الذين يرومون السير والسلوك إلى الله.

فقد بيّنت صفات المتّقين بأسلوب بديع خلال أكثر من مائه وعشر صفات (وكأنّه عليه السلام اختار العدد الذي يمثل اسمه المبارك) فانطلق بها من إصلاح اللسان واختتمها بالتدين الاجتماعي واحترام حقوق الآخرين، فهناك بعض الأفراد الذين ينسحبون من الميدان منذ الخطوه الأولى أثر ضعف إيمانهم وخواء إرادتهم، لكن غيرهم من الأفراد مثل همام وباجتيازه لهذه الخصال يحث الخطي للقاء المعبود.

ومن المزايا التي تتصف بها هذه الخطبه أنّها تنتشل التقوى من صيغتها السلبيّه التي تراود أذهان البعض وتعرضها بصيغتها الإيجابيّه كما وردت في الآيات القرآنيّه والروايات الإسلاميه.

وهذه الخطبه لا تقول لك عليك باعتزال عن المجتمع والانقطاع عن كلّ شيء في الدنيا لتبقى محافظاً على طهرك، بل ترشد إلى الإندكاك في وسط المجتمع ووسط الأمواج العاتيه لحياه أصحاب الدنيا بحيث لا يترك ذلك بصماته السيئه عليك، على

غرار الإنسان القوى البنيه الذى يبقى محافظاً على سلامته وسط المرضى ويقاوم كآفه الميكروبات والجراثيم.

وقد صنف المرحوم العلامة الشهيد المطهرى التقوى إلى قسمين فى كتابه (عشر مقالات): تقوى الضعف وتقوى القوه، وقال عن تقوى الضعف: إنَّ الإنسان وبغيه صون نفسه من المعاصى يهرب من أسبابها، وتقوه القوه: أن يخلق فى روحه قوه وقدره بحيث تمنحه حصانه روحيه وأخلاقية.

ويضيف: يشاهد فى أدابنا الشعريه والنثريه بعض التعليمات التى تعكس التقوى بصورتها الأولى والتى ينبغى التعامل معها بحذر، ثم يتطرق إلى شرح تقوى القوه ويقول: «إنَّ التقوى فى النصوص الدينيه سيما نهج البلاغه تعنى تلك الملكة المقدسه التى تمد الروح بالقوه والإقتدار وتلجم النفس الأماره وتكبح جماح العواطف الجامحه»^(١).

نعم فالتوقع والإعتزال لا يعدّ فخراً، والفخر إنّما يحقّ ليوסף عليه السلام الذى صان نفسه عن تلك الرغبات الجنسيه الشديده وحفظ نفسه من الفحشاء ببرهان ربّه وذلك مثل التقوى فى أعلى مستوياتها.

طبعاً لا ننكر أنّ البعض لم يبلغ هذه المرحله من التقوى (تقوى القوه)، وما أكثر من يضطر لانتخاب الصنف الأمول (تقوى الضعف).

ص: ٤٤٩

١- (١) راجع الأقوال العشره، ص ٧-١١.

يَصِفُ فِيهَا الْمُنَافِقِينَ (١)

نظرة إلى الخطبه

الخطبه كما يبدو من عنوانها في المنافقين حيث تتحدث عن صفاتهم وتتكون من قسمين:

القسم الأول: يتدئ بحمد الله والثناء عليه والشهادة بالرساله للنبي صلى الله عليه وآله وتركزت خاتمته على المحن العظيمه للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وما حاكه المنافقون وخصوم الدعوه الإسلاميه ضده من مؤامرات خطيره، وحيث تواصل خط النفاق واشتد بعد النبي صلى الله عليه وآله على عهد الإمام عليه السلام فقد حذر عليه السلام في القسم الثاني من الخطبه من خطوره المنافقين وذكر بالأدله والبراهين للمجتمع الإسلامى خصائصهم الواحده تلو الأخرى ليتعرف عليهم جميع المسلمين ويقبروا مؤامراتهم فى مهدها.

ص: ٤٥١

١- (١) سند الخطبه: أشار صاحب مصادر نهج البلاغه إلى مصدرين لإثبات نقل الخطبه من أشخاص غير السيد الرضى؛ الأول: ما رواه المير يحيى العلوى فى كتاب الطراز الذى ذكر جوانب من الخطبه مع بعض الاختلافات ما يدل على أنه أخذها من غير نهج البلاغه. والثانى: ما ذكره الأمدى فى غرر الحكم. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٦٩).

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا وَفَّقَ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ، وَذَادَ عَنْهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَنَسَأَلُهُ لِمَنْتِهِ تَمَامًا، وَبِحَيْلِهِ اغْتِصَامًا. وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، خَاضَ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ كُمَّلَ غَمْرِهِ، وَتَجَرَّعَ فِيهِ كُلَّ غُصَّةٍ. وَقَدْ تَلَوْنَ لَهُ الْأَذْنَونَ، وَتَأَلَّبَ عَلَيْهِ الْأَفْصُونُ، وَخَلَعَتْ إِلَيْهِ الْعَرَبُ أَعْتَبَهَا، وَضَرَبَتْ إِلَى مُحَارَبَتِهِ بَطُونٌ رَوَّاحِلَهَا، حَتَّى أَنْزَلَتْ بِسَاحَتِهِ عَدَاوَتَهَا، مِنْ أُبْعَدِ الدَّارِ، وَأَسْحَقِ الْمَزَارِ.

الشرح والتفسير: محن الرسالة

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة كسائر الخطب بحمد الله والثناء عليه والشهادة للنبي صلى الله عليه وآله بالرسالة، وقرن الحمد والثناء هنا بالتضرع والدعاء فقال:

«نَحْمَدُهُ عَلَى مَا وَفَّقَ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ، وَذَادَ (١) عَنْهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَنَسَأَلُهُ لِمَنْتِهِ تَمَامًا، وَبِحَيْلِهِ اغْتِصَامًا».

ولما كان أعظم فخر للإنسان هو التوفيق للطاعة وترك المعصية، فقد ركز الإمام عليه السلام هنا على هاتين النقطتين، والمراد من التوفيق هنا توفير أسباب الطاعة وترك المعصية، ذلك لأن الله أفاض علينا العقل والبطنه والضمير الحي وبعث الأنبياء والرسول وأنزل الكتب السماوية التي تقرّبنا جميعاً من الطاعة وتبعدنا عن المعصية، ولولا هذه الأسباب لغرقنا في مستنقع المعصية، وعليه يجدر بنا حمد الله وشكره على الدوام على هذه النعم العظيمة.

أمّا الدعاء الذي ذكره الإمام عليه السلام في عبارتين عقب هذا الحمد والثناء؛ فهو يتعلق

يطلب إكمال هذه النعم والتوفيق للاعتصام بحبل الله، والمراد منه دين الله كما يفهم من الآية الشريفة: «وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا» (١).

أو المراد القرآن الكريم كما يستفاد من حديث الثقلين حيث قوله:

«كِتَابَ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ» (٢) أو المراد كلاهما حيث ليس هنالك من فارق بينهما.

الحق سنصبح أسعد الناس إن شملنا هذا التوفيق الإلهي بحيث تتم نعمه علينا ويقوى تمسكنا بحبل الله.

وقد طرح بعض شراح نهج البلاغه إشكالاً مفاده: كيف يطلب الإمام عليه السلام إتمام النعمة، بينما صرح القرآن الكريم قائلاً: «وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَأُنْخَسِفَنَّهَا» (٣) في إشاره إلى أن نعم الله خارجه عن حدود العد والإحصاء؟

ولكن ما ينبغي الالتفات إليه هو أن لإتمام النعم مراحل ودرجات؛ فإن تعذر على الإنسان بلوغ المرحلة النهائية فإنه يستطيع الوصول إلى سائر مراحلها الأخرى وهذا ما سأله الإمام عليه السلام الله تبارك وتعالى.

ثم شهد عليه السلام بنبوه النبي صلى الله عليه وآله بذكر بعض الصفات البارزة من صفاته فقال:

«وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، خَاضَ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ كَلْعَمْرَهُ (٤)، وَتَجَرَّعَ فِيهِ كَلْعُصَّهُ (٥)».

وهاتان الصفتان التي بينهما الإمام عليه السلام بشأن النبي صلى الله عليه وآله جامعتان لكل صفات الخير؛ فالوقوف بوجه المحن والجلد على المصائب ما لم يقترن بتلك المقاومة والتحمل فإنه لن يتمخض عن تبلور الأعمال ذات الأهميه.

وتشير العبارة:

«تَجَرَّعَ فِيهِ كَلْعُصَّهُ» إلى أن المحن والخطوب التي تحملها رسول الله صلى الله عليه وآله لم تكن واحده أو اثنتين بل كان يتجرعها الواحدة تلو الأخرى.

ص: ٤٥٤

١- (١) سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

٢- (٢) مجمع البيان، ذيل الآية ١٠٣، سورة آل عمران، رواه أبو سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وآله.

٣- (٣) . سورة إبراهيم، الآية ٣٤.

٤- (٤) «غمره» من «غمر» على وزن «خمر» إزاله أثر الشيء ثم اطلقت الغمره والغامر على ما ازدحم وكثر من الماء.

٥- (٥) «غصه» تعنى فى الأصل الماء والغذاء وكل ما يحشر فى الحلقوم وحيث يشعر الإنسان بأن شيئاً يحشر فى حلقه عند الغم فقد عبر عن ذلك بالغصه.

فقد تحمل من أعداء الإسلام أشد المصاعب، صابراً حيث زرعوا طريقه بالأشواك والعقبات، لكنه تخطاها جميعاً، وهذا بحد ذاته درس لجميع الأفراد الذين يرومون مواجهه الطاغوت وإصلاح مجتمعهم.

ثم بين الإمام عليه السلام جانباً من بعض المصائب العظيمة التي واجهها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إبان الدعوه إلى الله بعبارات قصيرة وعميقه المعنى فقال:

«وَقَدْ تَلَوْنَ لَهُ الْأَذْنُونَ (١) ، وَتَأَلَّبَ (٢) عَلَيْهِ الْأَقْصُونَ، وَخَلَعَتْ إِلَيْهِ الْعَرَبُ أَعْنَتَهَا (٣) ، وَضَرَبَتْ إِلَى مُحَارَبَتِهِ بَطُونَ رَوَاحِلِهَا (٤) ، حَتَّى أَنْزَلَتْ بِسَاحَتِهِ عَدَاوَتَهَا، مِنْ أْبَعْدِ الدَّارِ، وَأَسْحَقِ (٥) الْمَزَارِ».

والعبارة:

«تَلَوْنَ لَهُ الْأَذْنُونَ» إشاره إلى أنّ البعض من قرابه النبي صلى الله عليه وآله كالعباس الذى كان يرغب فى دعمه وإسناده لم يكن جاداً بهذا الخصوص.

والعبارة:

«تَأَلَّبَ عَلَيْهِ الْأَقْصُونَ» إشاره إلى سائر القبائل البعيده عن قريش والتي اتحدت مع بعضها وألبت سائر القبائل للوقوف بوجه النبي صلى الله عليه وآله ودعوته بحيث لم يكن يجرأ أحد من قرابته للدفاع عنه بشجاعه فى ظلّ تلك الظروف كما كانت وتيره العداة تتصاعد بالشكل الذى يصعب معه مواجهتها.

والعبارة:

«خَلَعَتْ إِلَيْهِ الْعَرَبُ أَعْنَتَهَا، وَضَرَبَتْ إِلَى مُحَارَبَتِهِ بَطُونَ رَوَاحِلِهَا» إشاره إلى سرعه وجديّه الخصوم فى معاداته صلى الله عليه وآله، ذلك لأنهم حين يريدون للراحله أن تسيّر بسرعه يسلسون قيادها ويضربون بطنها واضلاعها. والتاريخ الإسلامى بكلّ فصوله وصفحاته ليشهد على هذه الحقيقه، حيث إنّ الأعداء لم يتورعوا عن القيام بأى فعل كانوا يعتقدون أنّ من شأنه القضاء على الإسلام والنبي صلى الله عليه وآله والدعوه؛ لكن الله أراد لهذا النور أن يتمّ ولا يطفأ وأن يزداد إشراقاً يوماً بعد آخر، وقد أفضل

ص: ٤٥٥

١- (١). «أذنون» جمع «أذن» بمعنى القريب، وعليه «أذنون» يعنى الأقرباء فى مقابل «أقصون» الأبعد.

٢- (٢). «تألّب» من ماده «ألّب» على وزن «أمر» بمعنى التجمع من كلّ حدب وصوب كما تستعمل بمعنى تعبئه الآخرين وحشدهم ضد شخص معين أو جماعه.

٣- (٣) «أعنته» جمع «عان» وهو جبل اللجام.

٤- (٤) «رواحل» جمع «راحله» بمعنى المركب وغالباً ما تعنى الناقه.

٥- (٥) «أسحق» من ماده «سحق» على وزن «قفل» بمعنى أقصى كما تعنى اسحق أقصى نقطه.

خططهم واطفاً بمطر لطفه ورحمته نيران فتنهم ومؤامراتهم فخرج النبي صلى الله عليه وآله من هذه الأحداث الخطيره منتصراً
مرفوع الرأس وبسط نفوذ الإسلام ونشر راياته في غرب العالم وشرقه.

ولكن حيث كان للمنافقين في الداخل - أولئك الذين أظهروا إسلامهم وإلتحقوا ظاهرياً بركب المسلمين بينما كانت قلوبهم مع
الأعداء وتختزن البغض والعداء - دور مهم وخطير تواصل حتى عهد الإمام عليه السلام وتغلغل بين صفوف المسلمين، فقد حذر
المسلمين تحذيرات جدّيه بشأن خط النفاق وشرح - كما سيأتي - في القسم القادم خصائص المنافقين وأخطارهم وسلط ابن
أبي الحديد الضوء هنا على المخاطر والصعوبات التي تخطاها رسول الله إبان الدعوه وقال:

«من قرأ وكتب السيره علم ما لاقى رسول الله صلى الله عليه وآله في ذات الله من المشقة واستهزاء قريش به في أول الدعوه
ورميهم إتياء بالحجاره حتى أدموا عقبيه وصياح الصبيان به وفرث الكرش على رأسه وفتل الثوب في عنقه وحصره وحصر أهله
في شعب بنى هاشم سنين عدّه محرّمه معاملتهم ومبايعتهم ومناكحتهم وكلامهم حتى كادوا يموتون جوعاً لولا أنّ بعضاً ممن
كان يحنو لرحم أو لسبب غيره فهو يسرق الشيء القليل من الدقيق أو التمر فيلقيه إليهم ليلاً ثم ضربهم أصحابه وتعذيبهم
بالجوع والوثاق في الشمس وطردهم إياهم عن شعاب مكه حتى خرج من خرج منهم إلى الحبشه وخرج عليه السلام مستجيراً
منهم تاره بثقيف وتاره بنى عامر وتاره بربيعة الفرس وبغيرهم، ثم اجمعوا على قتله والفتك به ليلاً حتى هرب منهم لائذاً
بالأوس والخزرج تاركاً أهله وأولاده حتى وصل المدينه فناصره الحرب ولم يزل منهم في عناء شديد وحروب متصله حتى
أكرمه الله تعالى ونصره وادى دينه، ومن له أنس بالتواريخ يعلم من تفاصيل هذه الأحوال ما يطول شرحه»^(١). (هذه هي الأمور
التي أشار إليها الإمام عليه السلام في هذه العبارات القصيره والعميقه المعنى).

ص: ٤٥٦

١- (١). شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد، ج ١٠، ص ١٦٥.

أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَحْذَرُكُمْ أَهْلَ النَّفَاقِ، فَإِنَّهُمْ الضَّالُّونَ الْمُضِلُّونَ، وَالزَّالُونَ الْمُرْتَلُونَ، يَتَلَوَّنُونَ أَلْوَانًا، وَيَفْتَنُونَ افْتِنَانًا، وَيَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَادٍ، وَيَزُودُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَادٍ. قُلُوبُهُمْ دَوِيَّةٌ، وَصِدْقُهُمْ نَقِيَّةٌ. يَمْسُونَ الْخَفَاءَ، وَيَدْبُونَ الضَّرَاءَ. وَصَفُّهُمْ دَوَاءٌ، وَقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ، وَفِعْلُهُمُ الدَّاءُ الْعِيَاءُ. حَسَدُهُ الرِّخَاءُ، وَمُؤَكَّدُ الْبَلَاءِ، وَمُقْنِطُوا الرَّجَاءِ.

لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ صَيْرِيْعٌ، وَإِلَى كُلِّ قَلْبٍ شَفِيْعٌ، وَلِكُلِّ شَجْوَدٍ مَوْعٌ. يَتَقَارِضُونَ الثَّنَاءَ، وَيَتَرَاقِبُونَ الْجَزَاءَ إِنْ سَأَلُوا الْحُفْوَاءَ، وَإِنْ عَدَلُوا كَشَفُوا، وَإِنْ حَكَمُوا أَسْرَفُوا.

الشرح والتفسير: خطر المنافقين

كما ذكرنا في آخر القسم السابق فإن الإمام عليه السلام أشار هنا إلى صفات المنافقين ليحذر المسلمين من خطرهم فذكر أوصافهم بمنتهى الدقة بحيث يعجز غيره بالخوض في صفات المنافقين بهذا العمق والدقة.

واستهل كلامه بست من صفاتهم فقال:

«أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَحْذَرُكُمْ أَهْلَ النَّفَاقِ، فَإِنَّهُمْ الضَّالُّونَ الْمُضِلُّونَ، وَالزَّالُونَ (١) الْمُرْتَلُونَ، يَتَلَوَّنُونَ أَلْوَانًا، وَيَفْتَنُونَ (٢) افْتِنَانًا».

ص: ٤٥٧

١- (١). «الزَّالُونَ الْمُرْتَلُونَ» من ماده «زله» بمعنى الخطأ والزلل.

٢- (٢) «يفتنون» من «افتنان» من ماده «فن» بمعنى التزيين «يفتنون افتناناً» بمعنى تزيينهم لأعمالهم بأشكال مختلفه لخداع الآخرين.

فالصفه الأولى التى ذكرها الإمام عليه السلام للمنافقين تتمثل فى ضلالهم؛ ليس ضلالهم فحسب بل إصرارهم على إضلال وإغواء الآخرين، أضف إلى ذلك فهم خاطئون يسعون إلى قذف الآخرين فى لهوات الخطأ والزلل.

ويبدو الفارق بين الضالين والزالين واضحاً، فالأولى: إشاره إلى السير عن عمد وعلم فى طريق الضلال والغوايه، وتشير الثانية إلى كثرة زلاتهم وأخطائهم.

نعم! فزلاتهم جمه كثيره وكيف لا تكون كذلك ولم يستضيئوا بنور العلم والإيمان.

وبغض النظر عن هذه الخصال الذميه الأربع فهم أفراد متلونون يخرجون كل يوم بلون معين ويلبسون شكلاً آخر فى كل زمان ليحققوا أغراضهم الدنيئه من خلال ذلك فإذا كانوا بين المصلين وقفوا للصلاه، وإن خالطوا أهل الخمر والفجور انغمسوا فى تعاطيها، بالضبط كما وصفهم القرآن: «وَإِذَا لُقُّوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ» (١).

وربما يكون الفارق بين

«يتلونون» و«يفتنون» أنّ الأولى تشير إلى جوانبهم وأبعادهم الظاهريه حيث يكتسبون كل يوم لوناً، والثانية إشاره إلى خططهم الخفيه بحيث يعمدون كل يوم لخطه مشبوّهه، فطبيعته النفاق تتمثل فى أقوالهم وأفعالهم وخططهم.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه فى هذا الإطار فأشار إلى ست صفات أخرى من الصفات الخطيره التى يتصف بها المنافقون بعبارة قصيره عميقه المعنى فقال:

«وَيَعْمِدُونَكُمْ (٢) بِكُلِّ عِمَادٍ، وَيَرْضُدُونَكُمْ (٣) بِكُلِّ مِرْصَادٍ. قُلُوبُهُمْ دَوِيَّةٌ (٤) ،

ص: ٤٥٨

١- (١) سورة البقره، الآيه ١٤.

٢- (٢) . «يعمدونكم» من ماده «عمد» المراد أنّهم يعتمدون كلّ وسيله للقدح بكم.

٣- (٣) «يرصدونكم» من «رصد» على وزن «صدف» بمعنى الاستعداد للمراقبه وبمعنى التريص والارتقاب.

٤- (٤) «دويه» من ماده «دوى» من «دواً» بمعنى المرض ودوى (صفه مشبهه على وزن فعيل) بمعنه المريض ومؤنثه دويه ولكن «دواء» على وزن دمار من هذه ماده بمعنى ما يعالج به المرض.

وَصَفَّاحُهُمْ (١) نَقِيَّةٌ. يَمْشُونَ الْخَفَاءَ، وَيَدْبُونَ (٢) الضَّرَاءَ (٣)، وَصَفُّهُمْ دَوَاءٌ، وَقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ، وَفَعْلُهُم الدَّاءُ الْعِيَاءُ (٤)».

والعبارة:

«وَيَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عَمَادٍ» إشارته إلى أنهم لا يتورعون عن التشبث بكل وسيلة للقضاء عليكم، من قبيل بثّ الشائعات وإثارة الشكوك في صفوف المؤمنين وبث الفرقة والعداوة والبغضاء والفساد....

والعبارة:

«وَيَرْضِدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَادٍ» إشارته إلى أنهم لا يعضون الطرف عن أدنى فرصة بغية تسديد الضربات إلى السلمين والانقضاض عليهم. فهم متربصون فإذا ما سنحت أدنى فرصة وثبوا عليكم.

وجميع العبارات القادمة تعكس ازدواج شخصيته المنافقين واختلاف ظاهرهم عن باطنهم فقال إنّ قلوبهم مريضة وظاهرهم سليم، أقوالهم تبدو شافية، غير أنّ تصرفاتهم سقيمة لا علاج لها، فجميع أعمالهم مقرونة بالمؤامرات السرية والخطط الشيطانية الخفية.

ثم واصل عليه السلام كلامه ليبين ثلاث صفات أخرى فقال:

«حَسَدُهُ (٥) الرَّخَاءِ، وَمُؤَكَّدٌ وَالْبَلَاءِ، وَمُفْنِطُ الرَّجَاءِ».

قال تعالى في القرآن المجيد: «إِنَّ تَمَسَّيْكُمْ حَسَدِنَهُ تَسُوهُمُ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا» (٦) وهذه هي طبيعته المنافقين في كل عصر ومصر.

ص: ٤٥٩

١- (١). «صفاح» جمع «صفح» بمعنى صفحه الوجه أو الورقة وأمثال ذلك وتشير هنا إلى أنّ ظاهر المنافقين طاهروباطنهم سييء.

٢- (٢) «يدبون» من «ديب» أى يمشون على هيئته الدبيب ببطء وتأنى وشمل كل متحرك من حيث المفهوم اللغوى سواء كان يمشى سريعاً أم بطيئاً.

٣- (٣) «ضراء» يعنى الأرض الواسعة التى تلتف فيها الأشجار وتلجأ إليها الحيوانات الصحراوية للاختفاء.

٤- (٤) «عياء» من «عئ» بمعنى العجز و «داء العياء» يراد بها هنا المرض الذى أعجز الأطباء علاجه (العياء هنا مصدر له معنى الصفه).

٥- (٥). «حسده» جمع «حاسد» مثل «قتله» جمع «قاتل» بمعنى الشخص الذى يحسد.

٦- (٦) سورة آل عمران، الآية ١٢٠.

إن بثّ اليأس والتشاؤم بغيه إضعاف الإرادة والقضاء على قوّه الجهاد والمقاومه، هي إحدى الحيل الخطيره للمنافقين بحيث لو نجحت لانطوت على آثار غايه فى الخطوره، ويبدو هذا الموضوع أعظم خطوره فى العصر الراهن حيث تخيم فيه وسائل الإعلام على جميع أرجاء المعموره، وقد وُصف المنافقون هذه الوسيله فى داخل وخارج البلدان الإسلاميه لإدخال اليأس فى قلوب المسلمين وصدّهم عن الرقى والتقدم والتطور وتمهيد السبيل للقضاء عليهم. ولا بدّ هنا من الصمود لمواجهه هؤلاء الشياطين بكلّ ما أوتى المسلمون من قوّه والتذكير بالألطف الإلهيه والعنايات الخفيّه وخلق الأمل هنا وهناك والجهر بهذا المبدأ: «إِنْ تَنْصِرُوا اللَّهَ يَنْصِرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ» (١)، «وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (٢).

ثم أشار عليه السلام إلى ثلاث صفات من صفاتهم فقال:

«لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ صَرِيحٌ» (٣)، «وَأَلَى كُلِّ قَلْبٍ شَفِيعٌ، وَلِكُلِّ شَجْوٍ (٤) دُمُوعٌ».

العباره الأولى كناية عن كثرة الأفراد الذين يذهبون ضحيه مؤامراتهم وخططهم أو يتعرضون للأذى والضرر.

وتشير العباره الثانيه إلى أنّ المنافقين يسعون بمختلف الحيل وأساليب الخداع والتملق للنفوذ إلى القلوب والإيحاء إلى الآخرين بأنهم من أصدقائهم.

وتشير العباره الثالثه إلى أساليبهم المضلله فى الخداع وذرف دموع التماسيح على مصائب المؤمنين ليغطوا من خلال ذلك على بغضهم الباطنى وعداوتهم

ص: ٤٦٠

١- (١) . سورة محمد، الآيه ٧.

٢- (٢) سورة آل عمران، الآيه ١٣٩.

٣- (٣) . «صريح» من «صرع» على وزن «فرع» بمعنى المطروح على الأرض وله معنى اسم المفعول بمعنى المطروح.

٤- (٤) «شجو» بمعنى الحزن.

المتأصله في قلوبهم فيخدعون الناس ويستقطبونهم إلى أوديه الضلال فيجعلونهم يعيشون ذلك البؤس والشقاء.

والعبارة الرابعة إشاره إلى كثرة الأفراد الذين خدعوا بهم وهلكوا بفعل ضرباتهم الموجهه، وإشاره إلى أنّ ضحاياهم ليسوا قلائل بحيث يمكن تجاوزهم بسهولة، فهم على درجه من الكثره وكان كلّ زقاق وشارع فقد ضحيه لمؤامراتهم ومخططاتهم، وبناءً على ما تقدم فلولم يتصد المسلمون لإفشال خططهم فسوف لن يسلم أحد من ضرباتهم المهلكه.

والعبارة الخامسة تخبر عن الأعيبيهم بغيه اختراق القلوب، فهم على الدوام شركاء مع اللصوص ورفاق قطاع الطرق والذين يزودون السراق بكلّ المعلومات عن القوافل ويتعاونون معهم جنباً إلى جنب، ولذلك فهم يسعون ليوحوا لكلّ من يصادفونه أنّهم من خلص أصدقائه.

والعبارة السادسة هي إكمال وتأکید لما ورد في العبارة السابقه؛ فهؤلاء يصوّرون للآخرين أنّهم يشاطرونهم أحزانهم ويذرفون دموع التماسيح على مصائبهم بينما يضحكون في باطنهم ويشعرون بالسرور والفرح، نعم هذا هو ديدن النفاق.

وأشار عليه السلام في مواصلته لكلامه إلى صفتين قبيحتين وذميتين من صفات المنافقين فقال:

«يَتَقَارِضُونَ الثَّنَاءَ، وَيَتَرَأَّبُونَ الْجَزَاءَ».

نعم فكلّ واحد منهم يخوض في المجلس في مدح الآخر والاشاده به وينسب له بعض الصفات الحميده التي ليس لها من صله بشخصيته، على أساس أنّه يطالبه أن يعامله بالمثل فيمدحه ويثنى عليه في مجلس آخر، فمدحهم وثنائهم لا ينطلق من الحقّ قط وتقدير المحسنين والأخيار، بل الهدف سماع المزيد من الكذب المشابه لما يورد بحقّه.

والعبارة:

«يَتَرَأَّبُونَ الْجَزَاءَ» هي الأخرى تأكيد على هذا الموضوع وتعبير آخر عن هذه الصفة الذميمة والمريضة، أي أنّهم لا يقدمون خدمه مجانيه بعيده عن الرياء لكائن من كان، بل يتوقعون مقابلها خدمه لهم، ولا يقتصر ذلك على الثناء فحسب بل في كلّ أمر وحيثما ما كان.

ص: ٤٤١

وأخيراً اختتم الإمام عليه السلام هذا القسم ببيان ثلاث رذائل أخلاقية ذميمة للمنافقين فقال:

«إِنْ سَأَلُوا أَلْحَفُوا (١) ، وَإِنْ عَذَلُوا (٢) كَشَفُوا، وَإِنْ حَكَّمُوا أَسْرَفُوا».

إنَّ حاجه الناس لبعضها البعض متبايناً لا يمكن إنكاره وقد توجب هذه الحاجه أحياناً أن يلجأ أحد للآخر لمساعدته في حلِّ مشكلته، إلّا أنَّ الإلحاح عمل قبيح، فذلك الطرف المقابل ربّما لا يريد أو يتعذر عليه القيام بذلك العمل أو قبول ذلك الطلب فيشعر بحاله من الخجل والانزعاج من ذلك الإلحاح.

قال القرآن الكريم في بيان صفة المؤمن حين الحاجه: «لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا» (٣) إلّا أنَّ المنافقين يريدون نيل أهدافهم وإن أخذ الطرف المقابل حياءً واضطر للعمل خلاف رغبته وميله؛ وكذلك إن إرادوا نصح شخص وأمره بالمعروف كما يزعمون ذهبوا بماء وجهه وسط الآخرين، بينما صرحت التعاليم الإسلاميه بأن هذا العمل ينبغى أن يتم بمنتهى الدقه واللطف؛ بما يحفظ ماء وجه المسلم ولا يكدره ويجعله يعيش حاله من الحزن والغم.

وتشير العبارة:

«وَإِنْ حَكَّمُوا أَسْرَفُوا» إلى أن المنافقين إن بلغوا منصباً فإنهم ليس فقط لا يؤدّون حقّ ذلك المنصب، بل يسلكون طريق الاسراف فيغضبون الله والناس لضمان مصالحهم اللامشروعه، قال القرآن الكريم بشأن بعض المنافقين:

«وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ» (٤).

ويحتمل أن يكون المراد من قوله

«إِنْ حَكَّمُوا» أنهم إن تصدّوا للحكم في مسأله معينه فإنّ حكمهم لا يستند إلى العدل قط وأنهم ينتهكون حدود العدل والقسط، ولا مانع من الجمع بين التفسيرين.

ص: ٤٦٢

١- (١) «ألحفوا» من «الحاف» بمعنى الإصرار والإلحاح في الطلب.

٢- (٢) «عذلوا» من «عذل» على وزن «هزل» بمعنى لاموا.

٣- (٣) . سورة البقره، الآيه ٢٧٣.

٤- (٤) سورة البقره، الآيه ٢٠٥. والتفسير فوق أحد تفاسير هذه الآيه.

قَدْ أَعَدُّوا لِكُلِّ حَقِّ بَاطِلًا، وَلِكُلِّ قَائِمٍ مَائِلًا، وَلِكُلِّ حَيٍّ قَاتِلًا، وَلِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحًا، وَلِكُلِّ لَيْلٍ مِصْبَاحًا. يَتَوَصَّلُونَ إِلَى الطَّمَعِ بِالنِّيَاسِ لِيُتَقِيمُوا بِهِ أَسْرَافَهُمْ، وَيُنْفِقُوا بِهِ أَغْلَاقَهُمْ، يَقُولُونَ فَيْشَ بَهُونَ، وَيَصِدُّونَ فَيْمَوْهُونَ. قَدْ هَوَّنُوا الطَّرِيقَ، وَأَضَلُّوا الْمَضِيقَ، فَهَمَّ لَمَهُ الشَّيْطَانِ، وَحَمَّهُ النَّيْرَانِ:

(أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ).

الشرح والتفسير: التخطيط الدقيق للمنافقين

أشار الإمام عليه السلام في هذا الحانب من الخطبه الذي يمثل ختامها إلى أنّ المنافقين يندفعون نحو تنفيذ مآربهم وفق خطط جهنميّه متكامله، واستنفروا أفكارهم لحل كل معضله تعرض عليهم وأعدوا البرامج اللازمه للقضاء على معارضيهم فقال عليه السلام:

«قَدْ أَعَدُّوا لِكُلِّ حَقِّ بَاطِلًا، وَلِكُلِّ قَائِمٍ مَائِلًا، وَلِكُلِّ حَيٍّ قَاتِلًا، وَلِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحًا، وَلِكُلِّ لَيْلٍ مِصْبَاحًا».

فقد كشف الإمام عليه السلام عن حقيقه في هذه العبارات الخمس واستناداً لمفرده

«أَعَدُّوا» أنّ المنافقين يلتمون بجميع الشؤون الإيجابيه للمجتمع ويخططون لمواجهتها والقضاء عليها، وقد انطلقوا من بعض الحلول حتى في المواقف الصعبه التي تواجههم ليتمكنوا من خلال ذلك من فتح ما أغلق عليهم من أبواب وإزاله ما يعترض طريقهم من عقبات، فهم يحملون سراجاً في الليالي الظلماء لتحقيق مآربهم.

وكثيراً ما تلاحظ الشواهد الحيّة لهذه العبارات العميقة المعنى فى كلام الإمام عليه السلام طيله التاريخ ولا سيما القرون الإسلاميه الأولى؛ ومن ذلك الحجج والذرائع لتنجيه الإمام عليه السلام عن الخلافه (كونه شاباً أو فيه دعايه) وإحراق بيت الوحي بعد النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بذريعه المخالفه لإجماع المسلمين (الإجماع الذى ليس له من وجود خارجي) والمطالبه بدم عثمان ومن جانب أولئك الذين تلطخت أيديهم بدمه، ورفع القرآن على أسنه الرماح حين الأشراف على الهزيمه وما شابه ذلك.

والطريف أنهم يتشبهون أحياناً ببعض الأمور التى تثير الدهشه لدى كل إنسان مطلع؛ مثلاً حين قيل لجيش معاويه إنكم أنتم «الفئه الباغيه» التى أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وآله فى حديثه المعروف بشأن عمار حين خاطبه قبل ثلاثين سنه وقال له:

«يا عَمَارُ تَقْتُلُكَ الْفِئَةُ الْبَاغِيَّةُ» فردوا على ذلك: إن قاتل عمار هو على، لأنه هو الذى أتى به! ونحن لم نقتله(١).

ثم أشار عليه السلام إلى حيله أخرى من حيلهم فى النفوذ إلى القلوب فقال:

«يَتَوَصَّلُونَ إِلَى الطَّمَعِ بِالْيَأْسِ لِيُتَمِّمُوا بِهِ أَسْوَأَهُمْ، وَيُنْفِقُوا بِهِ أَعْلَاهُمْ(٢)».

فهم نفعيون مشبهون رأس مالهم الكفر والنفاق والضلال وزبائنهم السذج من الأفراد وثمان هذه المعامله فقدان الدين والإيمان، على غرار بعض التجار الذين لا يهتمون للمشتري حين الشراء بغيه استقطاب الآخرين لشراء بضائعهم على أساس أن:

«الإنسان حريص على ما مُنِعَ» فيثيروا الرغبه لدى الطرف المقابل ليقبل على متاعهم الفاسد والتالف فيشتريه بأعلى الأثمان.

ثم قال عليه السلام:

«يَقُولُونَ فَيُشَبِّهُونَ، وَيَصِفُونَ فَيَمَوِّهُونَ(٣)».

نعم! فهؤلاء دائماً ما يبدون النفاق والضلال بصيغه الحق ليقبله منهم الناس

ص: ٤٤٤

١- (١) صحيح مسلم، ج ٨، ص ١٨٥ وسفينه البحار، مادّه «عمر» وسائر مصادر الفريقين.

٢- (٢) «إعلاق» جمع «علق» على وزن «حزب» الأشياء المحببه أو الشىء النفيس.

٣- (٣) «يموهون» من «تمويه» بمعنى تزيين الشىء للاضلال ومزج الحق بالباطل.

الذين ينشدون الحق بفعل فطرتهم وطبيعتهم فيغوصوا في مستنقع من الضلال.

وقال في صفة أخرى:

«قَدْ هَوَّنُوا الطَّرِيقَ، وَأَضَلُّوا (١) الْمَضِيقَ».

ونحن نجد هذا الأسلوب عند منافقى عصرنا الذين يستقطبون العديد من الناس بسهولة ويلحقونهم بهم، ثم يقطعون العديد من التعهدات والمواثيق التي يبدو من الصعوبة بمكان الخروج منها كما يقوم الاستكبار العالمى الناهب وبغية توريث الأمم والشعوب بمنحها بعض القروض وبشروط غاية في السهولة بادئ الأمر، فإذا ما وقعت في شباكهم وخذعت بألاعيبهم مارسوا معها مختلف الضغوط وبشتى الوسائل ليفرضوا عليها رغباتهم وأغراضهم في حين تكون هذه الشعوب قد غاصت في مأزق يصعب عليها الخروج منه.

وأخيراً اختتم الإمام عليه السلام خطبته بهذا التحذير قائلاً:

«فَهُمْ لَمَّةٌ (٢) الشَّيْطَانِ، وَحُمَةٌ (٣) النَّيْرَانِ : «أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ» (٤)».

تأمل

النفاق والمنافقون طيله التاريخ

لا- يسع أحد تحديد الانطلاقة التاريخيه للنفاق والمنافقين. فهناك العديد من الأفراد الفاسدين والمفسدين في المجتمعات البشرىة الذين ينبرون للمواجهه حين يمتلكون القوه والقدرة اللازمه لها؛ ولكنهم حين يتجرعون الهزيمة، يعمدون إلى إرتداء ثوب النفاق ليتحولوا إلى خلايا سريه ويواصلوا من خلال ذلك العمل لتحقيق أهدافهم المشبوهه، ويبدو أنهم يستسلمون فى الظاهر ويعربون عن إخلاصهم وإلتحاقهم بالجماهير لكنهم يعتمدون سرياً مختلف الخطط والمشاريع لتحقيق

ص: ٤٤٥

١- (١) «أضلعوا» فى الأصل من ماده «ضلع» وبسبب عوج الاضلاع فإنّ «اضلاع» يعنى يجعلونها معوجه.

٢- (٢). «لمة» تعنى الجماعه من النساء والرجال من ثلاثه إلى العشره وتشير هنا إلى قله عددهم وكثره خطرهم.

٣- (٣) «حمه» تعنى السم ويقال «حمه» لكل ما يلسع، مثل حمه وحراره الشمس.

٤- (٤) سورة المجادله، الآيه ١٩.

مآربهم وأهدافهم المًغرضه.

ولعل من أبرز خصائص المنافقين الإزدواج فى الشخصيه، الإزدواج فى الظاهر والباطن والقول والفعل والمجالس الخاصه والعامه وبالتالى الإزدواج فى كل شىء والذى شرحه الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه بعبارات بمتهى العمق والدقه، فهؤلاء يزعمون أنهم مصلحون بينما فى الواقع هم مفسدون حقيقيون، ويحسبون أنفسهم أذكاء وعقلاء والآخرين حمقى وأغبياء، والحال هم الحمقى والبلهاء.

وهؤلاء شركاء اللصوص وأصحاب القوافل ورفاق الناس وعملاء الأجنب الذين يعتاشون على البلد ويعيشون التبعية للاستعمار.

وإذا ما برزت عاصفه وجدّ الجدّ وحن وقت التضحيه والفداء التمسوا الذرائع الواهيه وصرخوا «إِنَّ بِيُوتَنَا عَوْرَه»^(١) وانسحبوا من الميدان، وهنا بالضبط تتكشف أوجه النفاق ويماط اللثام عنها أثر بروز الأحداث والصعوبات.

وخلافاً لما يعتقد بعض السذج من أبناء العامه من أنّ كل من رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسمع كلامه أو وقعت عيناه عليه اكتسب هاله من القدسيه واصطلاح عليه بالصحابى وأحرزت عدالته وصدقه، فإنّ هنالك العديد من المنافقين الخطرين بين معاصرين لرسول الله صلى الله عليه وآله والذين أشارت إليهم سوره المنافقين وكما أشارت بصوره أوضح وأعمق سوره التوبه وسوره الأحزاب وسائر السور القرآنيه، وكان لرسول الله صلى الله عليه وآله موقفه الشديد منهم، ومن يتأمل هذه السور القرآنيه ويتمعن فيها يدرك شدّه موجه النفاق حتى فى آواخر عمر النبى صلى الله عليه وآله إلما أنّ نفوذ النبى وقدرته والانتصارات الباهره للمؤمنين سلبتهم زمام المبادره.

فقد نشطوا عقب رحيل النبى صلى الله عليه وآله وأعدوا مختلف الخطط المشبوهه وبلغ سعيهم درجه بحيث اعتلوا على عهد بنى أميه منبر رسول الله صلى الله عليه وآله بعنوان خلفاء النبى صلى الله عليه وآله حيث شغله من اعتنق الإسلام آواخر عهد النبى صلى الله عليه وآله وابن أعدى أعداء النبى ألا وهو

ص: ٤٦٦

١- (١). سوره الأحزاب، الآيه ١٣.

معاويه «خال المؤمنين» وهذه قصه لا مجال لبحثها.

وكثيراً ما يشاهد اليوم النفاق فى عالمنا المعاصر أكثر من أى وقت مضى، حيث ينشط فيها المنافقون بإعداد مختلف الخطط التآمرية وبوسائل وأدوات وإمكانات هائله والكثير من العملاء فى مختلف بقاع العالم والاستفاده من جميع الوسائل الحديثه والمتطوره والمشاريع الشيطانيه.

كما تمارس البلدان الاستعماريه التى تتوقف حياتها على إمتصاص دماء الآخرين مختلف الجرائم والجنايات تحت غطاء بعض العناوين البراقه من قبيل حقوق الإنسان والحريه والديمقراطيه، سيما فى البلدان التى لا-تتماشى مع سياستهم، حيث تتعالى أصواتهم لممارسه أدنى عنف بحقّ سجين بينما تخرس ألسنتهم حيال ما يجرى فى سائر السجون كسجن «أبو غريب» فى العراق و«غوانتانامو» حيث ترتكب أبشع الجرائم التى قل نظيرها فى التاريخ والتى دوت فضائحها فى مختلف أرجاء العالم.

فهم يسعون فى ظلّ هذه الحريه لسلب حريه العمل والعقيده جميع معارضيههم ويسعون لترسيخ وتأسيس الحكومات العميله لهم، بل لا يتورعون أحياناً من التصريح علناً بأنّ أفضل خيار لنا هى الحكومات التى ترعى مصالحنا.

وبالتالى يتحدّث هؤلاء عن الحكومات الشعبيه، بينما يسعون جاهدين لإسقاط أى حكومه يقف ورائها الشعب لكنها لا تضمن مصالحهم.

ولعل إحدى طرقهم الخبيثه ما يقدمونه أحياناً كمساعدات أو قروض دون مقابل وأخرى مع مقابل وفائده، والهدف غير المعلن بالطبع هو خلق التبعية فى تلك الدول والبلدان، ذلك لأنّها إن أصبحت تابعه كان عليها أن تقبل مكرهه كلّ ما يملى عليها؛ وهذه قصه عميقه الفصول كثيره الشعب يتطلب شرحها العديد من الكتب والمجالات وليس هنالك من سبيل للخلاص من مخالف هؤلاء المنافقين المتغطرسين والمتسلطين والمتلونين سوى وحده الشعوب المظلومه والمقهوره

ص: ٤٦٧

فتقوم بالدرجه الأولى بكشف النقاب عنها وكشف حقيقتها ليعرفها الجميع، ثم تهب وفق خطه مدروسه لمقاومتها، والحقّ بما أنّ المنافقين يقتصرون على تحقيق أهدافهم الماديّة فإنّهم يفتقرون إلى روح الفداء والتضحية وبالتالي فهم محكومون بالهزيمة والفشل.

ص: ٤٦٨

يَحْمَدُ اللَّهَ وَيُثْنِي عَلَى نَبِيِّهِ وَيَعِضُ (١)

نظرة إلى الخطبه

يمكن تصنيف الأبحاث التي بينها الإمام عليه السلام في هذه الخطبه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: حمد الله والثناء عليه مع ذكر بعض آثار الذات القدسيه والتي تعدّ من عجائب عالم الوجود، ثم الشهاده للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالرساله والإشاره إلى بعض الصفات البارزه من صفاته.

والقسم الثاني: إشاره إلى الهدف من خلق الإنسان ومراقبه الله له وشرحها بعبارات غايه في الروعه والجمال.

والقسم الثالث: الوعظ بالتقوى والاستعداد لحساب الآخره وحضور محكمه العدل الإلهيه.

ص: ٤٦٩

١- (١) سند الخطبه: هذه الخطبه من خطب نهج البلاغه المحدوده التي لا مصدر لها سوى نهج البلاغه.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ، وَجَلَالَ كِبَرِيَّائِهِ، مَا حَيَّرَ مُقَلَّ الْعُقُولِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ، وَرَدَّعَ خَطَرَاتِ هَمَاهِمِ النَّفُوسِ عَنْ عِرْفَانِ كُنْهِ صِفَتِهِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، شَهَادَةَ إِيْمَانٍ وَإِيقَانٍ، وَإِخْلَاصٍ وَإِذْعَانٍ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ وَأَعْلَامَ الْهُدَى دَارِسَهُ، وَمَنَاهِجَ الدِّينِ طَامِسَهُ، فَصَدَّعَ بِالْحَقِّ؛ وَنَصَحَ لِلْخَلْقِ، وَهَدَى إِلَى الرُّشْدِ، وَأَمَرَ بِالْقَصْدِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

الشرح والتفسير: البعثة النبوية والظروف الصعبة

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة - كسائر الخطب - بحمد الله والثناء عليه، ولكن بعبارات جديدة وتشبيهات مريية للنفوس ومهذبه لها.

فقال:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ، وَجَلَالَ كِبَرِيَّائِهِ، مَا حَيَّرَ مُقَلَّ (١) الْعُقُولِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ، وَرَدَّعَ خَطَرَاتِ هَمَاهِمِ (٢) النَّفُوسِ عَنْ عِرْفَانِ كُنْهِ صِفَتِهِ».

حقاً لو أمعن الإنسان النظر في عالم الخلق من الذره حتى المنظومات السماويه والمجرات وأنواع النباتات والأزهار والثمار مروراً بالأصناف العجيبه للحيوانات

ص: ٤٧١

-
- ١- (١). «مقل» جمع «مقله» على وزن «غرفه» الجانِبِ المحيط بالعين الذي يشمل السواد والبياض وقد شبه الإمام عليه السلام العقل هنا بالإنسان الذي له عين باصره تطلع إلى الأشياء العجيبه فتندهش لها.
- ٢- (٢) «هماهم» جمع «همهمه» بمعنى الصوت الخفى الذي يطرق الأذن ولكن لا تدرك معناه.

والطيور والسباع وحيتان البحار ووحوش الصحارى والأنواع المذهله للحشرات والأحياء الدقيقه لتعرف كل يوم على عجائب جديده وغرائب شتى فيها؛ والتي يكشف عنها كل يوم تطور العلم البشرى ويعكس عجائب خلقتها بما يجعل الإنسان يعيش حاله من الدهول إزاء قدره الخالق الحكيم، وهذه هى الحقيقه التى تتضح يوماً بعد آخر فى أنه أسمى من الخيال والقياس والوهم، بل أسمى من كل ما رأينا وقرأنا وكتبنا.

ثم أتجه عليه السلام صوب الاقرار بالشهادتين لبيّن كل واحد منهما بعبارات جديده فقال:

«وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، شَهَادَةَ إِيمَانٍ وَإِيقَانٍ، وَإِخْلَاصٍ وَإِذْعَانَ (١)».

فهذه العبارات الأربع (إيمان وإيقان وإخلاص وإذعان) تشير إلى أربع مراحل من العقائد الدينيه، فالإيمان هو المرحله الأولى حيث يقّر الإنسان بشىء ثم يؤمن به رغم ما يثار حوله من شكوك وشبهات جزئيه؛ ولكن مرحله الإيقان هى المرحله التى يزول فيها تلك الشبهات والشكوك ويضحى فيها الإيمان القلبي شفافاً ومشرقاً.

ومرحله الإخلاص مرحله نفى كل ما سوى الله فلا يرى المؤمن سواه فيعشقه ويناجيه ويطلب منه ولا يلتفت إلى أحد غيره، وأخيراً ترد مرحله الإذعان التى تعنى حسب أرباب اللغه الإقرار المقرون بالخضوع، أى يظهر إيمانه فى جميع أعماله وأقواله وتصرفاته، فتصطبغ حياته بالصبغه الربانيه فيصبح مصداقاً لقوله تعالى: «صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً» (٢).

ومن الطبيعى أن الإيمان واليقين والإخلاص كلما تجذر فى الإنسان كانت ثمرته النهائيه تلك الأعمال.

ولما فرغ عليه السلام من الشهاده لله بالوحدانيه خاض فى الشهاده بالرساله مع ذكر بعض

ص: ٤٧٢

١- (١) «إذعان» من «ذعن» على وزن «وطن» بمعنى الخضوع والإنقياد والطاعه، ومن هنا كان فى المرحله الرابعه التى ذكرها الإمام عليه السلام فى العبارة، الإيمان واليقين والإخلاص ونتيجته ذلك الطاعه والإنقياد.

٢- (٢) سورة البقره، الآيه ١٣٨.

الصفات البارزة للنبي صلى الله عليه وآله وأهدافه؛ فقال:

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ وَأَعْلَامُ الْهُدَى دَارِسَهُ (١) ، وَمَنَاهِجُ الدِّينِ طَامِسَهُ (٢) ، فَصَدَعَ (٣) بِالْحَقِّ؛ وَنَصَحَ لِلخَلْقِ، وَهَدَى إِلَى الرُّشْدِ، وَأَمَرَ بِالْقَصْدِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ».

والعبارة:

«أَعْلَامُ الْهُدَى» تعنى العلامات التى توضع فى طريق المسافرين حتى لا- يضلوا الطريق (كالإشارات الضوئية التى تنصبها إداره المرور فى الطرق والشوارع ليتعرف الناس على تلك الطرق) وتشير هنا إلى تعاليم أئمة الدين وإرشادات الكتب السماويه.

والعبارة:

«وَمَنَاهِجُ الدِّينِ طَامِسَهُ» إشاره إلى قوانين السماء التى اعتراها النسيان على عهد الجاهليته.

نعم فقد نهض رسول الله صلى الله عليه وآله بالأمر وحمل لواء الدعوه فى ظل هذه الظروف وذلك الوسط الذى خيمت فيه ظلمات الكفر على كل مكان فقام بأربعة أمور: الأول أنه بين الحق فى المعارف الدينيه بصوره جليه، ثم هب لابتغاء الخير للناس ودعاهم بإرشاداته ومواظبه إلى ترك الذنوب والفساد والآثام وإمثال الأوامر والطاعة لله ورسوله، وهداهم فى المرحله الثالثه إلى كل ما فيه سموهم وتكاملهم، وأخيراً أوصاهم بالعدل والقسط والاعتدال فى جميع الأمور (صلوات الله وسلامه عليه)، فقد أشار الإمام عليه السلام فى هذه العبارة إلى أركان الدعوه الإسلاميه إلى جانب رسمه صورته واضحه للاوضاع فى عصر الجاهليته.

ص: ٤٧٣

١- (١). «دارسه» من ماده «دراسه» تعنى تكرار الشىء وبما أن الاستاذ يكرر المطلب حين التعلم لذلك يقال درس كما ترد هذه المفردة بمعنى التآكل والاندفاع وهذا هو المعنى المراد فى الخطبه حيث إن الحوادث المتتاليه والرياح والأمطار تؤدى إلى إندثار المباني فقد استعملت بهذا المعنى.

٢- (٢) «طامسه» من «طمس» على وزن «شمس» بمعنى محووزوال آثار الشىء، كما وردت بمعنى الإزاله.

٣- (٣) «صدع» من ماده «صدع» على وزن «صبر» مطلق الشق أو شق الأجسام القويه كما وردت بمعنى الاتضحاح حيث يتضح باطن الشىء بشقّه وهذا هو المعنى الذى أريد بها فى الخطبه.

وَاعْلَمُوا، عِبَادَ اللَّهِ، أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا، وَلَمْ يُرْسَلْكُمْ هَمَلًا، عَلِمَ مَبْلَغَ نِعْمَتِهِ عَلَيْكُمْ، وَأَخْصَى إِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ، فَاسْتَفْتَحُوهُ، وَاسْتَنْجَحُوهُ، وَأَطِئُوا إِلَيْهِ وَاسْتَمْنَحُوهُ، فَمَا قَطَعَكُمْ عَنْهُ حِجَابٌ، وَلَا أُغْلِقَ عَنْكُمْ دُونَهُ بَابٌ، وَإِنَّهُ لِبِكَلِّ مَكَانٍ، وَفِي كُلِّ حِينٍ وَأَوَانٍ، وَمَعَ كُلِّ إِنْسٍ وَجَانٍّ؛ لَا يَثْلُمُهُ الْعَطَاءُ، وَلَا يَنْقُصُهُ الْجَبَاءُ، وَلَا يَسْتَنْفِدُهُ سَائِلٌ، وَلَا يَسْتَقْصِيهِ نَائِلٌ، وَلَا يَلْوِيهِ شَخْصٌ عَنْ شَخْصٍ، وَلَا يُلْهِيه صَوْتٌ عَنْ صَوْتٍ، وَلَا تَحْجُزُهُ هَبَّةٌ عَنْ سَيْلٍ، وَلَا يَشْغَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ، وَلَا تُولِيهِ رَحْمَةٌ عَنْ عِقَابٍ، وَلَا يُجِنُّهُ الْبُطُونُ عَنِ الظُّهُورِ، وَلَا يَقْطَعُهُ الظُّهُورُ عَنِ الْبُطُونِ. قَرَّبَ فَنَائِي، وَعَلَا فِدَانَا، وَظَهَرَ فَبَطْنِ، وَبَطَنَ فَعَلَنَ، وَدَانَ وَلَمْ يُدِنَ. لَمْ يَذَرِ الْخَلْقَ بِاخْتِيَالٍ، وَلَا اسْتِعَانَ بِهِمْ لِكَلَالٍ.

الشرح والتفسير: الموائد الإلهية المطلقة

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى ثلاث مسائل رئيسية: الأولى هدف الخليفة، ثم النعم الجمه التي تفاض على جميع العباد، وأخيراً التأكيد على المراقبة الدائمة والحضور الإلهي في كل مكان وعلى كل حال. فقال في الأمر الأول:

«وَاعْلَمُوا، عِبَادَ اللَّهِ، أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا، وَلَمْ يُرْسَلْكُمْ هَمَلًا (١)».

وهذا هو اقتباس من الآية الشريفة: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا

ص: ٤٧٥

١- (١) «همل» من ماده «همل» على وزن «حمل» تعنى فى الأصل ترك الجمال دون راع، ثم اطلقت على كل شخص أو عمل دون مشرف.

ومن المفروغ منه أنّ الله عليم وحكيم لا- يفعل العبث قط، رغم أنّ منافع الأفعال وفوائدها لا تعود عليه بشيء؛ لأنّه غني مطلق، ولكن بالطبع لأفعاله آثار وبركات تعود على عباده.

وبما أنّ الشرط الأوّل لبلوغ الهدف يتمثل في وجود الهادى والمرشد فقد وردت العبارة:

«لَمْ يُزْسِلْكُمْ هَمَلًا» عقب العبارة

«لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا»، لأنّ الإرسال في مثل هذه الحالات بمعنى الترك والهمل تقال في الأصل للقطيع دون راعٍ، وعلى هذا الضوء تتضح مسؤوليه الإنسان إزاء أهداف الخليقه وهدايه الأولياء.

وقال عليه السلام في المسأله الثانيه:

«عَلِمَ مَبْلَغَ نِعْمِهِ عَلَيْكُمْ، وَأَخْصَى إِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ».

والنعمه والإحسان تشمل جميع النعم الماديّه والمعنويّه بالإضافة إلى مختلف القابليات والاستعدادات الباطنيه، وهذا يعنى أنّ الناس يتمتعون بنعمه فلا يسلكون طريق الجحود ولا يهدرون نعم الله ويجتنبون الكسل والتعاس في الانتفاع بهذه النعم وليعلموا أنّ جميع الأسباب والوسائل متوفره للوصول إلى الهدف المنشود والكمال المطلوب.

ثم انتقل إلى المسأله الثالثه فقال عليه السلام:

«فَاسْتَفْتَحُوا» (٢)، «وَاسْتَنْجِحُوا» (٣)، «وَاطْلُبُوا إِلَيْهِ وَاسْتَمْنِحُوا» (٤)، «فَمَا قَطَعَكُمْ عَنْهُ حِجَابٌ، وَلَا أُغْلِقَ عَنْكُمْ دُونَهُ بَابٌ».

إشاره إلى أنّ الفيض جاهز من المبدىء الفياض، وقد جاء الآن دوركم لتمدوا إلى خزائن لطفه يد العوز والحاجه وتفتحوا أبواب رحمته وتسالوه التوفيق والفلاح، وأنا لنعلم بالطبع أنّ النتيجة ستكون قطعيه وحتميه حين تقترن قابليه

ص: ٤٧٦

١- (١) سورة المؤمنون، الآيه ١١٥.

٢- (٢). «استفتحوا» من ماده «فتح» تعنى فى الأصل الفتح، وعليه فالاستفتاح طلب الفتح والعون.

٣- (٣) «استنجحوا» من «نجاح» السهوله والوصول إلى المطلوب.

٤- (٤) «استمنحوا» من ماده «منح» على وزن «منح» تعنى فى الأصل اعطاء لبن الحيوان للحيوان ثم اطلقت على مطلق البذل والاعطاء، وعليه استمنح تعنى التماس العطاء.

القابل بفاعليه الفاعل.

وخلافاً لما يظنه الوثنيون وعبداه الأصنام والمشركون وأتباعهم في عصرنا الراهن من أنه لا ينبغي التوجه مباشرة إلى الله ولا بد من عباده غيره ليفتح لهم الطريق إليه تعالى، فقد صرح الإمام عليه السلام أن ليس هنالك من مانع ولا رادع في الطريق ولكل العباد طرق بابيه وإن استعانوا أحياناً بوجاهه الشفعاء فهذا تأكيد آخر على الاتصال المباشر بالذات القدسيه وإمثال أوامره.

ثم خاض في توضيح هذا الكلام من خلال الإشاره إلى ثلاث نقاط أخرى ليوضح من خلالها الفارق بين عطاء الله وبذل الآخرين فقال:

«وإنه ليكُلِّ مَكَان، وفي كُلِّ حِينٍ وَأَوَانٍ، وَمَعَ كُلِّ إِنْسٍ وَجَانٍّ؛ لَأَيْتَلِمَهُ (١) الْعَطَاءُ، وَلَا يَنْقُصُهُ الْحَبَاءُ (٢)، وَلَا يَسْتَنْفِدُهُ سَائِلٌ، وَلَا يَسْتَقْصِيهِ نَائِلٌ».

حيث إن الله الرحيم حاضر في كل مكان وتمدد إلى ساحه كبرياته أعناق وأيدي جميع المحتاجين، بل هو مع كل شخص أينما كان، ومن جانب آخر فإنه ليس لعطائه من حدود، وهو دائم لا ينضب ولا ينفد ولا يخشى عليه التقدير على الآخرين إن منح البعض الآخر، لأنه وجود لامتناه من جميع الجهات ومن هنا فإن جوده وكرمه لا متناه ونعمته وعطاءه لامتناهين أيضاً، بل كما ورد في دعاء الافتتاح:

«ولا تزيدُهُ كَثْرَةُ الْعَطَاءِ إِلَّا جُوداً وَكِرْماً»، إشاره إلى أنه كلما أفاض أكثر كلما ازداد أمل الناس بجوده وكرمه.

ثم خاض في المسأله الثالثه:

«وَلَا يَلْوِيهِ (٣) شَخْصٌ عَنِ شَخْصٍ، وَلَا يُلْهِمِيهِ صِيُوتٌ عَنْ صِيُوتٍ، وَلَا تَحْجِزُهُ هَيْبَةٌ عَنْ سَيْلٍ، وَلَا يَشْغَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ، وَلَا تَوْلِيهِ (٤) تَوْلِيَهُ»

ص: ٤٧٧

١- (١). «يثلم» من ماده «ثلم» على وزن «صبر» و «ثلمه» على وزن «ضربه» تعنى فى الأصل كسر جانب الشىء، ثم اطلق على كل ما يسبب كسراً لشخص أو شىء.

٢- (٢) «حباء» من ماده «حبو» على وزن «ختم» تعنى فى الأصل العطاء دون مكافأه وهذا هو المعنى المراد.

٣- (٣). «يلوى» من ماده «لوى» على وزن «حى» بمعنى الاعراض والانحراف والميل.

٤- (٤). «توله» من «وله» على وزن «فرح» بمعنى الذهول من شدّه الهم والغم ولذلك يقال الواله للعاشق المغموم.

رَحْمَهُ عَنِ عِقَابٍ، وَلَا يُجِنُّهُ (١) الْبُطُونُ عَنِ الظُّهُورِ، وَلَا يَقْطَعُهُ الظُّهُورُ عَنِ الْبُطُونِ».

فهذه العبارات السبع تشجيع من جانب للعباد في أن يسألوه كل ما يريدون، ويعلموا أنه لو تزامنت مع طلبات طلبات الخليقة كافة فإنه عليم بكل هذه الطلبات خبير بها، الأمر الذي لا يدركه إطلاقاً سوى الله تبارك وتعالى وكل ما سواه قد يشغله سؤال شخص عن الإلتفات إلى سؤال آخر.

ومن جانب آخر تحذير لجميع العباد في مراقبه حضور الله تبارك وتعالى في جميع الأحوال وليدركوا كما أن نعمه وعطاياه لا متناهية وأنه لا يخيب أحداً في سؤاله وطلبه وأن رحمته سبقت ومنعت غضبه وأن نعمه لا تحول دون مؤاخذه الظلمه والطغاه وأنه عالم بكل ما يفعلونه في خلوتهم وعلايتهم، والحق ليس هنالك من معنى للغيب والشهادة والبعيد والقريب على الذات القدسيه ولا تجرى هذه الأمور سوى على مخلوقاته المحدوده التي تشعر بالقرب والبعد والخفاء والعلايه.

ثم شرح وأكد ما ذكره في العبارات السابقه بسبع عبارات أخرى تتعلق بصفات الله تبارك وتعالى فقال:

«قَرَّبَ فَنَأَى، وَعَلَا فَدَنَا، وَظَهَرَ فَبَطَّنَ، وَبَطَّنَ فَعَلَّنَ، وَدَانَ (٢) وَلَمْ يَدْنُ. لَمْ يَذَرَّ (٣) الْخَلْقَ بِاخْتِيَالٍ، وَلَا اسْتِعَانَ بِهِمْ لِكَلَالٍ (٤)».

والواقع أن جميع هذه الصفات السبع تستند إلى حقيقه واحده وهى: أنه وجود لامتناه من جميع الجهات، ولذلك فهو حاضر فى كل مكان وفى نفس الوقت فإن كنه هذه الذات اللامتناهيه خارج عن متناول الأفكار، والظاهر والباطن والقريب

ص: ٤٧٨

١- (١) «يجن» من ماده «جنّ» على وزن «فَنّ» أى يستره ولذا يقال لمن ستر عقله مجنون وكذلك يقال لطائفه الجن بسبب سترهم؛ ويقال كذلك للجنين فى رحم أمه، ويقال «جنّه» للساتين التى سترت أرضها بالأشجار والنباتات.

٢- (٢) . «دان» من ماده «دين» على وزن «غير» تعنى أحياناً القرض وأحياناً الجزاء والحساب وهو المعنى المطلوب.

٣- (٣) «لم يذراً» من «ذراً» على وزن زرع؛ بمعنى الخلق.

٤- (٤) «كلال» له معنى المصدر واسم المصدر ويعنى التعب.

والبعيد لديه على حد سواء، واستناداً إلى علمه اللامتناهي فهو غنى عن الحاجة للتفكير حين الخلق ولهذا السبب فليس للتعب والكلل والملل من سبيل إلى ذاته القدسيه، لأنّ هذه صفات المخلوقات ذات القدره المحدوده، فيشعرون بالتعب حين تنفذ طاقتهم وقدرتهم والحق أنّ الإمام عليه السلام قد اعتمد منتهى الفصاحه والبلاغه فى هذه الخطبه ليصور حقيقه واحده بأوجه مختلفه وبعبارات متنوعه غايه فى الجمال والروعه.

ص: ٤٧٩

أَوْصِيَكُمْ، عِبَادَ اللَّهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّهَا الزَّمَامُ وَالْقَوَامُ، فَتَمَسَّكُوا بِوَثَائِقِهَا، وَاعْتَصِمُوا بِحَقَائِقِهَا، تَوَلُّ بِكُمْ إِلَى أَكْنَانِ الدَّعَى وَأَوْطَانِ السَّعَى، وَمَعَاقِلِ الْحِزْزِ وَمَنَازِلِ الْعِزِّ، (يَوْمَ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)، وَتُظَلِّمُ لَهُ الْأَقْطَارُ، وَتُعْطَلُ فِيهِ صُرُومُ الْعِشَارِ. وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَتَرْهَقُ كُلُّ مُهْجَةٍ، وَتَبْكَكُمْ كُلُّ لَهْجَةٍ، وَتَذِلُّ الشُّمُّ الشَّوَامِخُ، وَالصُّمُّ الرِّوَاسِخُ، فَيَصِيْرُ صَيْلُهَا سَيْرَابًا رَفْرَقًا، وَمَعْهَدَهَا قَاعًا سَمْلَقًا، فَلَا شَفِيعَ يَشْفَعُ، وَلَا حَمِيمٍ يَنْفَعُ، وَلَا مَعْدِرَةَ تَدْفَعُ.

الشرح والتفسير: أهوال القيامة

أوصى الإمام عليه السلام الجميع هنا بالورع والتقوى وعدد آثار التقوى المهمه فقال:

«أَوْصِيَكُمْ، عِبَادَ اللَّهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّهَا الزَّمَامُ وَالْقَوَامُ».

والتعبير

«بزمَام» إشاره إلى قوّه التقوى الممانعه والتي تحول دون الإنسان وإرتكاب المعصيه وتصده عن السقوط فى مستنقع الفساد والذنب والانحدار فى فخ الشيطان وهوى النفس، و

«قَوَام» إشاره إلى أسس الحياه الطيبه والمقرونه بالسعاده، وبعباره أخرى: أنّ للتقوى بعد الحيلوله من جانب والبناء من جانب آخر، فإنّ امتزج الجانبان كملت سعاده الإنسان ونجاته، وبكلمه موجزه فإنّ سعاده الإنسان تتكامل مادياً ومعنوياً بوجود التقوى.

واعتبر بعض شراح نهج البلاغه أنّ

«الزَّمَامُ وَالْقَوَامُ» يتعلقان بالعبادات، والحال أنّ العبارة من قبيل حذف المتعلق الذى يهب المفهوم شموليه، والآيات القرآنيه

شاهد على ذلك أن التقوى سبب النجاه فى الآخرة ومصدر البركه فى الحياه الماديه الدينويه حيث صرح تعالى من جانب: «تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا» (١).

ومن جانب آخر: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» (٢).

ثم قال فى مواصله كلامه كتوضيح وتأکید:

«فَتَمَسَّكُوا بِوَتَائِقِهَا (٣) ، وَاعْتَصِمُوا بِحَقَائِقِهَا (٤) ، تَوَلُّوا (٥) بِكُمْ إِلَى أَكْنَانِ (٦) الدَّعَةِ (٧) وَأَوْطَانِ السَّعَةِ ، وَمَعَاقِلِ (٨) الْجَزْرِ وَمَنَازِلِ الْعِزِّ».

والتعبير «بوتائق» جمع وثيقه بمعنى العروه المحكمه إشاره إلى الأبعاد الظاهريه للتقوى، والتعبير «بالحقائق» جمع حقيقه إشاره إلى جوانبها الواقعيه.

والببارات الأربع التى ذكرت فى العبارة المذكوره كنتيجه (وجزاء الشرط مقدر) تشير إلى أن التمسك بالتقوى سبب الهدوء والسكينه وكذلك الفتح والحفظ من الأخطار والتمتع بالعزه والكرامه.

نعم! حين تسود التقوى فى المجتمع بصفقتها شعور بالمسؤوليه الربائيه فإنه قل من يتجاوز على حقوق الآخرين ويمارس الظلم والجور ونتيجه ذلك الاستقرار والسكينه، وإن سادت التقوى بصفقتها وظيفه فإن المجتمع يأخذ بالرقى والاتساع

ص: ٤٨٢

١- (١) سوره مريم، الآيه ٦٣.

٢- (٢) سوره الأعراف، الآيه ٩٦.

٣- (٣) . «وثائق» جمع «وثيقه» ما يعتمد عليه.

٤- (٤) . «حقائق» جمع حقيقه، معناه معروف، ولكن أخذه بعض شراح نهج البلاغه (ابن أبى الحديد) بمعنى الرايه الذى لم يعثر عليه فى أى قاموس لغوى.

٥- (٥) «تؤل» التى كانت فى الأصل «تؤل» وجزمت لأنها وقعت جزاء لشرط مقدر، فأصبحت تؤل من ماده «أول» على وزن «قول» بمعنى العوده، وعلى هذا الأساس فإن العبارة «تؤل بكم» تعنى أنها تعيدكم.

٦- (٦) «أكنان» جمع «كن» على وزن «جن» بمعنى الستر والحاجز.

٧- (٧) «دعه» بمعنى الاستراحه والهدوء.

٨- (٨) «معاقل» جمع «معقل» على وزن «مسجد» بمعنى الملجأ والحصن ويقال أحياناً للجبال العاليه التى تحمى الناس من الفيضانات وغيرها.

شيئاً فشيئاً، وإن برزت التقوى بصفتها سداً منيعاً أمام العدو فإن المجتمع سيصان من شره ومجموع هذه الأمور هي أساس العزّه والرفعه والسّموم.

ثم قال عليه السلام: إنّ هذه الآثار الأربعة إنّما تتحقق بصورة كامله فى الآخره؛ ليس بمعنى إنعدام هذه الآثار فى الحياه الدنيا بل المعنى: أنّ الهدف الأصلي والنهائى هناك:

«يَوْمَ تَشْخَصُ (١) فِيهِ الْأَبْصَارُ» وَتُظْلَمُ لَهُ الْأَقْطَارُ، وَتُعْطَلُ فِيهِ صُرُومٌ (٢) الْعِشَارِ (٣).

فهذه الصفات الثلاث تتعلق بالصيحه الأولى وزلزله نهايه العالم، لأنها على درجه من الرعب والهول وإثاره الدهشه بحيث تنسى الإنسان كلّ شىء سوى نفسه، كما رسم هذه الصوره القرآن الكريم فقال: «يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» (٤).

ثم تطرق الإمام عليه السلام فى مواصلته لكلامه ليشرح جوانب أخرى من بدايه القيامه والى تهزّ القلوب وتذهل الأفكار فقال:

«وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَتَرْهَقُ (٥) كُلُّ مُهْجَةٍ (٦)، وَتَبْكُمُ (٧) كُلُّ لَهْجَةٍ، وَتَذِلُّ الشُّمُّ (٨) الشَّوَامِخُ (٩)، وَالصُّمُّ (١٠) الرُّوَاسِخُ (١١)، فَيَصِيرُ

ص: ٤٨٣

١- (١). «تشخص» من ماده «شخوص» بمعنى تركيز العين على نقطه معينه وإمتناعها عن الحركه، وهذه العبارة فى الغالب كناية عن الرعب والخوف.

٢- (٢) «صروم» جمع «صرم» على وزن «فعل» وهو القاطع من الناقه وقيل فيما بعد لمجموعه الناس أو غيرهم أيضاً.

٣- (٣) «عشار» جمع «عشراء» على وزن «وكلاء» وهى الناقه مضى لحملها عشره أشهر وهى نفيسه من حيثها وابنها الكامل فى بطنها وهذه المفردة كناية عن الشىء الغالى والنفيس.

٤- (٤) سورة الحج، الآيه ٢.

٥- (٥). «ترهق» من «زهوق» على وزن «غروب» بمعنى الهلاك.

٦- (٦) «مهجه» تعنى فى الأصل الدم الموجود فى القلب والذى ترتبط بحياه الإنسان، ثم اطلقت هذه المفردة على القلب.

٧- (٧). «تبكم» من «بكم» على وزن «قلم» بمعنى الخرس وعدم تحرك اللسان و«بكم» على وزن «قفل» جمع «أبكم» تعنى الفرد الأصم والأبكم.

٨- (٨) «شم» جمع «أشم» أى الرفيع.

٩- (٩) «شوامخ» جمع «شامخ» بمعنى العالى. وعلى هذا الأساس «الشّمّالشوامخ» على سبيل التأكيد على علو الجبال.

١٠- (١٠) «صم» جمع «أصم» تأتى بمعنى الأصم وكذلك الضخور الثقيله وهو المراد فى العبارة.

١١- (١١) «رواسخ» جمع «راسخ» بمعنى الثابت والصلد.

صَلْدَهَا (١) سَرَابًا رَقْرَقًا (٢) ، وَمَعْهَدَهَا (٣) قَاعًا (٤) سَمَلِقًا (٥)».

والذى يستفاد من الآيات القرآنية أنّ تغييرين شديدين وعظيمين يحدثان فى نهايه العالم وعلى أعتاب القيامه والتى عبّر عنها بالنفخ فى الصور، ذلك لأنهم فى الماضى كانوا يعمدون إلى النفخ فى بوق الحركه أو بوق الحرب وبعده أصوات مختلفه لتبلغ مسامع الآخرين حين يراد تحريك الجيش أو إعلان الحرب أو إيقاظه من النوم، وعليه فالنفخ فى الصور هذا يعنى بدايه تغيير عظيم.

كما يستفاد من الآيات القرآنيه حدوث زلزله عظيمه تتزامن مع النفخه الأولى وبموجبها تذهل الكائنات الحيه كآفه من شدتها وهذه نفخه الموت، وإلى ذلك أشارت الآيه الشريفه: «إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوُنَّهَا...» (٦). وكذلك الآيه:

«وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ...» (٧).

وفى النفخه الثانيه أى إعادته الحياه يحدث تغيير آخر يظهر فيه عالم جديد على إنقراض العالم السابق فينطلق الأموات من القبور للحساب، وقد وردت الإشارة فى سوره الزلزله إلى النفخه الثانيه: «إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسِيَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُجَدِّدُ أَخْبَارَهَا». كما ورد فى الآيه ٦٨ من سوره الزمر إشاره لذلك: «ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ». وما ذكره

ص: ٤٨٤

١- (١) «صلد» يقال للصخر الصلب الأملس الذى لا يثبت عليه شىء، وتأتى أيضاً بمعنى الصعب البخيل أيضاً والمراد هنا هو المعنى الأول.

٢- (٢) «رقرق» بمعنى الدمع الذى يحيط بالعين ويلمع ولا يخرج منها، ثم اطلق على كل قليل وخفيف وكذلك تعنى اللمعان والبريق.

٣- (٣) «معهد» المكان الذى يرجع إليه وتطلق هذه المفرده اليوم على المدارس. و «معهدها» تعنى محل الجبال.

٤- (٤) «قاع» تعنى الأرض المستويه.

٥- (٥) «سملق» الأرض المستويه التى لا يوجد فيها مكان أعلى من الآخر.

٦- (٦). سوره الحج، الآيتان ١ و ٢.

٧- (٧) سوره الزمر، الآيه ٦٨.

الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبه إشاره إلى النفخه الأولى التى تؤدى إلى خراب العالم ونسف الجبال ومحو آثارها وذهول الإنسان وبالتالى موته.

وما ورد فى ذيل هذه الخطبه إشاره للأحداث التى تعقب النفخه الثانيه حيث قال:

«فَلَا شَفِيعَ يَشْفَعُ، وَلَا حَمِيمٍ يَنْفَعُ، وَلَا مَعْدِرَةَ تَدْفَعُ». وهذا الكلام اقتباس من الآيه القرآنيه الشريفه: «مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ» (١). والآيه: «فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْدِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ» (٢).

ومن الطبيعى أن عدم قبول المعذره كما يفهم من الآيات المذكوره يختص بأولئك الذين حطموا الجسور الموصله للشفاعه بأعمالهم وأفعالهم؛ وإلا فإن أولئك الذين أبقوا السبل الموصله إليها فسيشملون بتلك الشفاعه، قال تعالى فى القرآن الكريم بهذا الخصوص: «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى» (٣).

ص: ٤٨٥

١- (١) . سوره غافر، الآيه ١٨.

٢- (٢) سوره الروم، الآيه ٥٧.

٣- (٣) سوره الأنبياء، الآيه ٢٨.

يفيد ترتيب هذه الخطبه أنها جزء من خطبه مفصله وقد اختار المرحوم السيد الرضى هذا القسم حسب منهجه فى الاقتطاف، وقد اقتطع هذا القسم من سائر الأقسام وذكره بصورة مستقلة. على كل حال تتكون هذه الخطبه من ثلاثه أقسام:

تضمن القسم الأول إشارات قصيره وعميقه المعنى إلى بعثه النبى صلى الله عليه وآله وبالنتيجه فضله العظيم على البشريه برمتها سيما المجتمع العربى.

وحذر فى القسم الثانى من الخداع والاعتزاز بزخارف الدنيا بعد الوصيه بالورع والتقوى، ثم أوضح تفاهه الدنيا بعبارات غايه فى الروعه والمعنى وبتشبيهاً رائعاً.

وكشف فى القسم الثالث عن سبيل النجاه وأكد على ضروره المبادره إلى استغلال الفرص ما دامت سانحه قبل فوات الأوان وحلول الموت.

ص: ٤٨٧

١- (١) سند الخطبه: روى الآمدى بعضها (فى غرر الحكم فى حرف الالف) كما روى بعض ممّا فى الخطبه ١٩٢ مع جوانب من هذه الخطبه والخطبه ١٩١ وهذا يدل على أنّ الخطبتين خطبه واحده (وأنّ الآمدى أخذها من مصدر آخر غير نهج البلاغه) (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٧٤).

بَعَثَهُ حِينَ لَاعَلَّمَ قَائِمًا، وَلَا مَنَارًا سَاطِعًا، وَلَا مَنَهْجًا وَاضِحًا.

أَوْصِيَكُمْ، عِبَادَ اللَّهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَحْذَرُوا كُفْرَ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا دَارُ سُخُوصٍ، وَمَحَلَّةُ تَنَغِيصٍ، سَاكِنُهَا ظَاعِنٌ، وَقَاطِنُهَا بَائِنٌ، تَمِيدُ بِأَهْلِهَا مَيِّدَانِ السَّفِينَةِ تَقْصِفُهَا الْعَوَاصِفُ فِي لَحِيحِ الْبِحَارِ، فَمِنْهُمْ الْغَرِقُ الْوَبِقُ، وَمِنْهُمْ النَّاجِي عَلَى بُطُونِ الْأَمْوَاجِ، تَحْفِزُهُ الرِّيَّاحُ بِأَذْيَالِهَا، وَتَحْمِلُهُ عَلَى أَهْوَالِهَا، فَمَا غَرِقَ مِنْهَا فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرِكٍ، وَمَا نَجَا مِنْهَا فَإِلَى مَهْلِكِك!

الشرح والتفسير: أهوال الدنيا

قال الإمام عليه السلام في المقطع الأول من هذه الخطبه حيث أراد كشف النقاب عن العصر الذي انطلقت فيه الدعوه النبويّه والمراد به العصر الجاهلي ومن خلال ثلاث عبارات قصيره:

«بَعَثَهُ حِينَ لَاعَلَّمَ قَائِمًا، وَلَا مَنَارًا سَاطِعًا (١)، وَلَا مَنَهْجًا وَاضِحًا».

فالطرق الصحراويّه والجبليّه لم تكن واضحه في الأزمنه السابقه كما هي عليه اليوم، طبعاً الطرق الرئيسيّه كانت معروفه بفعل كثره التردد عليها والعبور والمرور، غير أنّ الطرق الفرعيّه لم تكن كذلك، وبغيه إرشاد المسافرين كي لا يضلوا الطرق كانوا ينصبون في النهار بعض العلامات بصيغه أعمده وما شابه ذلك في أغلب الطريق منذ بدايتها حتى نهايتها والتي يصطلح عليها بـ «العلم» وكانوا يشعلون السراج على سطوحها والتي يصطلح عليها بـ «المنار»، وعليه لولا أعلام النهار

ص: ٤٨٩

١- (١) «سطوع» بمعنى الصعود والاتساع والنور الساطع الذي يضيء ما حوله.

وأسرجه الليل ووضوح الطرق الرئيسيّه لتزايد احتمال ضلال سالكي الطريق.

فقد شبه الإمام عليه السلام حياه الناس في الجاهليّه بالطرق العشوائيه التي لم تنصب عليها أيه علامه وسراج يضيء الدرب، وليس لذلك من نتيجته سوى الضلال المبين للناس والذي أشار إليه القرآن الكريم بقوله: «وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ»^(١).

ثم واصل عليه السلام كلامه فخاطب الجميع قائلاً:

«أَوْصِيكُمْ، عِبَادَ اللَّهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَحْذَرُكُمْ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا دَارُ شُحُوصٍ،^(٢) وَمَحَلَّةٌ تَنْغِيصُ، سَاكِنُهَا ظَاعِنٌ، وَقَاطِنُهَا بَائِسٌ».

وتشير هذه العبارات الأربع جميعاً إلى تقلب أحوال الدنيا وعدم استقرارها، مع إقترانها بالألم والمعاناة، والعجيب مع إتضاح دلالات تقلبها وتصرم أحوالها وكثرة خطوبها ومحنها في جميع مواضعها إلا أنّ هنالك طائفة من الناس تراها خالده من الناحية العمليّه وتسعى إليها بكل ما أوتيت من قوه.

وعلى هذا الأساس تطرق الإمام عليه السلام إلى بيان مثال بليغ ومثير بشأن هذه الدنيا الغرور بحيث لا يمكن الإتيان بصورة أفضل منه فقال:

«تَمِيدُ بِأَهْلِهَا مِيدَانَ السَّفِينَةِ تَقْصِفُهَا^(٣) الْعَوَاصِفُ فِي لَجَجِ^(٤) الْبِحَارِ، فَمِنْهُمْ الْغَرِقُ الْوَبِقُ^(٥)، وَمِنْهُمْ النَّاجِي عَلَى بُطُونِ الْأَمْوَاجِ، تَحْفِزُهُ^(٦) الرِّيَّاحُ بِأَذْيَالِهَا، وَتَحْمِلُهُ عَلَى أَهْوَالِهَا، فَمَا غَرِقَ مِنْهَا فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرَكٍ، وَمَا نَجَا مِنْهَا فَإِلَى مَهْلِكٍ!».

وتشبيه الدنيا بالبحر وسكنتها بركاب السفينه وإبان العواصف الشديده التي لا تفضي سوى إلى الغرق قد ورد قبيل هذه الخطبه للإمام عليه السلام في مواضع لقمان الحكيم، فقد ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام في ما روى عن لقمان الحكيم أنّه وعظ ابنه

ص: ٤٩٠

١- (١) . سورة الجمعة، الآية ٢.

٢- (٢) «شخوص» بمعنى الظهور والطلوع أو الانتقال من محل إلى آخر وهذا هو المعنى المراد بهذه العبارة.

٣- (٣) . «تقصفها» من ماده «قصف» على وزن «حذف» بمعنى الكسر.

٤- (٤) «لجج» جمع «لجج» البحر العميق.

٥- (٥) «وبق» من ماده «وبق» على وزن «فقر» بمعنى الهالك صيغه «وبق» على وزن «خشن» له معنى الصفه.

٦- (٦) . «تحفزه» من ماده «حفر» على وزن «لفظ» بمعنى الدفع قدماً والطرده.

«يَا بُنَيَّ إِنَّ الدُّنْيَا بَحْرٌ عَمِيقٌ قَدْ غَرِقَ فِيهَا عَالَمٌ كَثِيرٌ فَلْتَكُنْ سَفِينَتَكَ فِيهَا تَقْوَى اللّهِ وَحَشْوُهَا الإِيمَانُ وَشِرَاعُهَا التَّوَكُّلُ وَتِيْمُهَا العَقْلُ وَدَلِيلُهَا العِلْمُ وَسُكَّانُهَا (١) الصَّبْرُ» (٢).

وقد أشار الإمام عليه السلام في مواصلته لهذه الخطبة إلى سبيل النجاة من هذا البحر المرعب.

على كلّ حال فما بيّنه الإمام عليه السلام في هذا التشبيه البليغ والرائع هو أنّه رسم صورته لأهل الدنيا كيف يتبدل أمنهم إلى خوف وصحتهم إلى مرض وغناهم إلى فقر وتجمعهم إلى فرقه حين يتعرضون لمختلف أنواع المصائب والمحن والخطوب، وكيف تقضى عليهم هذه الدنيا من خلال أحداثها وعلى هذا الأساس يبدو من العجيب كيف يتعلق الناس بها ويطمأنون إليها.

ص: ٤٩١

١- (١) «سكّان» ما يشبه مقود المركبة الذي يقود السفينه إلى اليمين واليسار.

٢- (٢) الكافي، ج ١، ص ١٦.

عِبَادَ اللَّهِ، الْآنَ فَاعْلَمُوا، وَالْأَلْسُنُ مُطْلَقَةً، وَالْأَبْدَانُ صِيحِيحَةٌ، وَالْأَعْضَاءُ لِدَنَّهُ، وَالْمُنْقَلَبُ فَسِيحٌ، وَالْمَجَالُ عَرِيضٌ، قَبْلَ إِرْهَاقِ الْفَوْتِ، وَحُلُولِ الْمَوْتِ.

فَحَقِّقُوا عَلَيْكُمْ نُزُولَهُ، وَلَا تَنْتَظِرُوا قُدُومَهُ.

الشرح والتفسير: اغتنام الفرصه

كشفت الإمام عليه السلام بوضوح في شرحه لهذا الجانب من الخطبه - كما أشرنا سابقاً - النقاب عن سبيل النجاه من تلك المحن الخطيره التي أشار إليها في القسم السابق، حيث تبدو النجاه من الخطوب الخطيره لهذه الدنيا المزخرفه والغرور حتمية إذا ما طبقت هذه الوصايا والتعاليم فقال:

«عِبَادَ اللَّهِ، الْآنَ فَاعْلَمُوا، وَالْأَلْسُنُ مُطْلَقَةً، وَالْأَبْدَانُ صِيحِيحَةٌ، وَالْأَعْضَاءُ لِدَنَّهُ (١)، وَالْمُنْقَلَبُ (٢) فَسِيحٌ (٣)، وَالْمَجَالُ عَرِيضٌ، قَبْلَ إِرْهَاقِ (٤) الْفَوْتِ، وَحُلُولِ الْمَوْتِ. فَحَقِّقُوا عَلَيْكُمْ نُزُولَهُ، وَلَا تَنْتَظِرُوا قُدُومَهُ».

فقد حذّر الإمام عليه السلام في هذه العبارات العميقه المعنى الجميع، ولاسيما الشباب والكهول من ضروره اغتنام الفرصه والمبادره إلى العمل كونه أفضل وسيله للنجاه قبل فوات الأوان وحلول عهد الشيخوخه والعجز حيث تتباطئ فيه الألسن ويضعف

ص: ٤٩٣

١- (١). «لَدَنَّهُ» من ماده «لدانه» على وزن «شبانه» يعنى اللين قبل حلول الشيخوخه والذبول وقلة الحركه.

٢- (٢) «منقلب» محل الرجوع وهو إشاره هنا إلى ميدان العمل.

٣- (٣) «فسيح» من ماده «فسح» على وزن «مسح» بمعنى الواسع.

٤- (٤) «ارهاق» من «رهق» على وزن «شفق» بمعنى الضغط على شخص، كما وردت بمعنى الإقتراب، وعليه «ارهاق الفوت» يمكن أن تكون إشاره إلى الضغط من حيث الموت أو إقترابه.

فيه البدن ويمرض وتذبل الأعضاء ويضيق الميدان وتسلب الفرصه، نعم لا بد من المبادرة للعمل الصالح قبل حلول هذه العقبات.

كما أكد على عدم الظن ببعده الأجل مهما كان عمر الإنسان، فلا ينبغي الغفله حتى لمن كان في سنى الشباب والفتوه والشعور بالقوه والنشاط والصحه والسلامه، والإبتعاد عن الغرور بحيث لو قيل له: كفاك ذنباً ومعصيه فعد إلى الله وتب إليه، قال مازالت الفرصه سانحه، وسيأتى يوماً وقت التوبه والعمل الصالح فيما بعد، فهل هنالك من يعلم ماذا سيحصل غداً، وهل هناك من يضمن ماذا سيحل بعد ساعه، ومن مَن سيبقى حياً ومن مَن سيموت؟ وقد ورد مثل هذا المعنى في مستهل الخطبه ٢٣٧ حيث قال عليه السلام:

«فَاعْلَمُوا وَانْتَمُوا فِي نَفْسِ الْبَقَاءِ وَالصُّحُفِ مَنْشُورَةٍ وَالتَّوْبَةِ مَبْسُوطَةٍ».

جدير ذكره أن أغلب نسخ نهج البلاغه ذكرت في مستهل هذه الخطبه العبارة

«الآنَ فَاَعْلَمُوا» بدلاً من (فاعلموا) وتشهد القرائن، على صحه هذه النسخه، أضف إلى ذلك فإن انسجام المطالب وتناسب المواعظ تفيد ضروره العمل، والخطبه ٢٣٧ شاهد على ذلك.

يُنْبِئُهُ فِيهِ عَلَى فَضِيلَتِهِ لِقَبُولِ قَوْلِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ (١)

نظرة إلى الخطبه

تتألف هذه الخطبه من ثلاثه أقسام:

أشار الإمام عليه السلام في القسم الأول إلى طاعته الخالصه ودفاعه المطلق عن النبي واستدل على ذلك بعلم صحب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وشهادتهم.

وتطرق في القسم الثاني إلى الأحداث المهمه منذ احتضار النبي ووفاته حتى غسله ودفنه والصلاه عليه والتي تفيد أنه عليه السلام أقرب من غيره للنبي صلى الله عليه وآله.

وخلص في القسم الثالث إلى نتیجه واضحه تتمثل في وجوب طاعته من قبل الجميع بدليل كل سوابقه وفضائله ومناقبه، ثم دعا مخاطبيه لمواكبه في حفظ بيضه الدين وإرث النبي صلى الله عليه وآله وإمثال أوامره في جهاد العدو (معاويه وجند الشام) وأن لا يشعروا بأدنى شك في أنهم على الحق وأن أعداءهم على الباطل.

ص: ٤٩٥

١- (١) سند الخطبه: رواها المرحوم الشيخ المفيد قبل السيد الرضى مع اختلاف طفيف في كتاب المجالس، كما ذكر أغلبها الآمدى في غرر الحكم في حرف الواو. وفي روايه الآمدى إضافات تفيد أنه استقاها من مصدر آخر غير نهج البلاغه (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٧٥ و ٧٦).

وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنِّي لَمْ أَرُدَّ عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ. وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ
بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنكُصُ فِيهَا الْأَبْطَالُ، وَتَتَأَخَّرُ فِيهَا الْأَقْدَامُ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِهَا.

الشرح والتفسير: طاعتي المطلقه

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبه بالإشاره إلى أمرين مهمين؛ الأول أنه كان دائماً وفي جميع المواطن مطيعاً مطلقاً لله
ولرسوله، بينما كان هنالك بعض الأفراد من هذه الأمة وبعض الصحابه ممن ينبرى بين حين وآخر للرد على النبي الأكرم صلى
الله عليه وآله فقال:

«وَلَقَدْ (١) عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنِّي لَمْ أَرُدَّ عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ».

«مستحفظون»: (بفتح الفاء صيغه اسم مفعول) إشاره إلى تلك الطائفة التي استودعها رسول الله أمانه سرّه والتاريخ الإسلامي
الصحيح، وهذا يدلّ على وجود

ص: ٤٩٧

١- (١). ورد في هذه الخطبه الكلمه «ولقد» خمس مرات حيث تؤكد كل واحده منها موضوعاً معيناً، ويرى بعض شراح نهج
البلاغه أنّ الواو هنا هي واو القسم، بينما ذهب بعض اساتذه العريه إلى أنّ الواو استثنافيه واللام جواب القسم، ويعتقدون أنّ
القسم محذوف تقديره «وأقسم بالله لقد...». وجاء في كتاب مغنى اللبيب المشهور أنّ اللام في هذه الموارد هي لام القسم؛ لكن
قال أبوحيان: إنّ اللام في الآيه (ولقد علمتم...) لام الابتداء للتأكيد، وربما سبقت بقسم محذوف، (مغنى اللبيب، حرف «لام»)
ويحتمل أن لا يكون قسم في العبارة، بل «لام» و«قد» كلاهما للتأكيد، ولذلك لم يذكر أغلب المترجمين معنى القسم هنا في
الترجمه.

ثله من صحبه الذين حفظت سره بدقه بعيده عن أى غرض وسوء نيه، فهم حفظه الأسرار الإسلاميه والحوادث التاريخيه والذين كان يعرفهم الناس بالإخلاص والأمانه.

فى مقابل تلك الزمره على عهد معاويه التى باعت دينها بالدنيا ووضعت الأحاديث والروايات وانبرت للقضاء على فضائل على عليه السلام ونسبت النقص والكذب له عليه السلام لتعمر دنياها بهذه المعاصي.

وهذه العبارة تمثل فى الوقت ذاته إشاره إلى أولئك الذين تنطلق ألسنتهم أحياناً بالردّ والإعتراض على رسول الله صلى الله عليه وآله، كما ورد فى القرآن الكريم: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَاِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ» (١).

وإشاره إلى بعض الأفراد المعروفين مثل عمر والذى ورد بشأنه فى روايات العامه أنه اعترض يوم الحديبيه - طبق نقل المصنّف عبدالرزاق الصنعاني، العالم المعروف لدى العامه على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حيث قال له: ألسنت رسول الله؟ قال صلى الله عليه وآله:

بلى. قال عمر: ألسنا على الحقّ وعدونا على الباطل؟ قال صلى الله عليه وآله: بلى. فقال عمر:

فعلام نعطي الدنيه فى ديننا (ونمضى صلحاً مع العدو أشبه بالاستسلام؟) فردّ عليه النبي صلى الله عليه وآله بأنه رسول الله ويتبع أمر الله وأنه سينصره، فواصل عمر إعتراضه وقال: أو لم تقل إننا سنحج البيت؟ فقال صلى الله عليه وآله: نعم سنحج البيت ولم أقل سنحجه هذا العام (٢).

ويفهم من الروايه أنه لم يكن الخليفه الثانى فقط من يعترض على رسول الله صلى الله عليه وآله بل كانت معه طائفه ممن تعترض أيضاً.

إلا أننا لا نلمس فى أى من صفحات التاريخ أنّ علياً عليه السلام اعترض على فعل من

ص: ٤٩٨

١- (١) سورة التوبه، الآيه ٥٨.

٢- (٢) انظر: المصنّف عبدالرزاق الصنعاني، ج ٥، ص ٣٣٩. وكذلك نقل هذا الحديث السيوطى فى الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٧٧ ذيل الآيه ٢٦ سورة الفتح، والطبرى فى تاريخه المعروف فى ج ٢، ص ٢٨٠ حوادث سنه ٦ للهجره.

أفعال النبي صلى الله عليه وآله بل كان يتبعه في الأمور كافة ويمثل لأوامره دون نقاش.

ثم واصل عليه السلام كلامه مشيراً إلى تضحياته في سبيل الإسلام والنبي صلى الله عليه وآله فقال:

«وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ (١) بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ (٢) فِيهَا الْأَبْطَالُ، وَتَتَأَخَّرُ فِيهَا الْأَقْدَامُ، نَجْدَهُ أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِهَا».

هذه العبارات القصيره إشاره إلى تضحياته عليه السلام في الغزوات الإسلاميه كأحد وخيبر والأحزاب وحين.

وإننا لنعلم حسب تصريح المؤرخين بشأن معركة أحد أنّ خصوم الدعوه لما بثوا شائعه قتل النبي صلى الله عليه وآله في المعركه وقتل العديد من المسلمين انفرج سائر المسلمين عن المعركه ولم يبقَ حول النبي سوى على عليه السلام الذي دافع بكل صبر وثبات (٣).

كما نعلم أنّ أحداً لم ينبر في يوم الأحزاب ل «عمرو بن عبدود» وبيارزه سوى أمير المؤمنين على عليه السلام حين تخلف جميع المسلمين (٤).

وفي معركة خيبر كان رسول الله صلى الله عليه وآله يسلم الرايه كلّ يوم لمن يزعم القتال لكنهم لم يحققوا شيئاً حتى كان آخر يوم فسلم الرايه لعلی عليه السلام ففتح حصون خيبر الواحده تلو الأخرى (٥).

ولقد فرّ أغلب المسلمين يوم حنين حين تعرضوا لهجوم العدو المباغت لما شعروا بالخوف والرعب وكان على رأس من ثبت وصمد في الدفاع عن النبي صلى الله عليه وآله هو على عليه السلام (٦).

ص: ٤٩٩

١- (١). «واسيت» و «آسيت» كلاهما من ماده واحده ولهما معنى واحد؛ كلاهما من «أشيت» على وزن «سعى» بمعنى الاشراك في الشيء و «مواساه» بمعنى إشراك الآخرين في المال والإمكانات الدنيويه.

٢- (٢) «تنكص» من ماده «نكص» على وزن «عكس» يعنى العوده إلى الوراء وتطلق على انسحاب الجيش من المعركه و «نجده» بمعنى الشجاعه والصمود مقابل العدو.

٣- (٣) انظر: تاريخ الطبرى، ج ٢، ص ١٩ (حوادث السنه الثالثه).

٤- (٤) المصدر السابق، ص ٢٣٩ (حوادث السنه الخامسه).

٥- (٥) المصدر السابق، ص ٣٠٠ (حوادث السنه السابعه).

٦- (٦) المصدر السابق، ص ٣٤٧ (حوادث السنه الثامنه).

وبالطبع فإنّ تضحيات علي عليه السلام لا تقتصر على ميادين القتال، بل اقتحم عليه السلام سائر الميادين بكلّ شجاعه سيما تلك التي يتخاذل فيها الأبطال، فقد بات عليه السلام على فراش رسول الله حين همّ الكفار والمشركون بالقضاء على رسول الله صلى الله عليه وآله ففداه بنفسه.

ص: ٥٠٠

إشاره

وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي. وَلَقَدْ سَأَلْتُ نَفْسَهُ فِي كَفِّي، فَأَمْرَزْتُهَا عَلَى وَجْهِي. وَلَقَدْ
 وُلِّيتُ غُسْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالْمَلَائِكَةُ أَعْوَانِي، فَضَجَّتِ الدَّارُ وَالْأَفْتِيَةُ. مَلَأَ يَهْبِطُ، وَمَلَأَ يَعْرُجُ، وَمَا فَارَقْتُ سَمْعِي هَيْئَتَهُ
 مِنْهُمْ. يُصَيِّمُونَ عَلَيْهِ حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرْيِحِهِ. فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيًّا وَمَيِّتًا؟ فَانْفَعِدُوا عَلَيَّ بِصَائِرِكُمْ، وَلْتَصِيْدُقْ نِيَّاتِكُمْ فِي جِهَادِ
 عَدُوِّكُمْ. فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي لَعَلَى جَادَّةِ الْحَقِّ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى مَزَلَّةِ الْبَاطِلِ. أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ!

الشرح والتفسير: أولى الناس بالنبي صلى الله عليه وآله

إشاره

لما فرغ الإمام عليه السلام من بيان رابطة الحميمه والقائمه على أساس الإخلاص والطاعة مع النبي صلى الله عليه وآله في حياته
 ذكر علاقته به بعد وفاته والتي تفيد أنه لم يكن لأحد من المسلمين غيره مثل هذه العلاقة بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال:

«وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي. وَلَقَدْ سَأَلْتُ نَفْسَهُ فِي كَفِّي، فَأَمْرَزْتُهَا عَلَى وَجْهِي».

والعبارة:

«إِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي» يمكن أن تشير إلى أن أمير المؤمنين على عليه السلام رفع رأس النبي صلى الله عليه وآله وضمه إلى
 صدره في تلك اللحظة والتي كانت سكينه للنبي صلى الله عليه وآله وعلى عليه وآله والإضافة إلى أن هذه الوضعيه تسهل من
 التقاط الأنفاس، كما يحتمل أن

يكون رأس النبي كان في حجر الإمام عليه السلام وقد انحنى فمسّ صدره عليه السلام رأس النبي صلى الله عليه وآله، إلّا أنّ هذا الاحتمال لا ينسجم مع قوله

«عَلَى صَدْرِي». وقد اختلف الشراح في المراد من النفس في العبارة

«سَأَلْتُ نَفْسَهُ» حيث دارت أقوالهم حول محورين:

الأول: أنّ المراد من النفس الدم الذي ورد في أغلب عبارات الفقهاء والأدباء والتي أشارت إلى هذا المعنى، ومن ذلك

«النفس السائلة» في الكتب الفقهية كما ورد مثل هذا الاستعمال في الأشعار العربية حيث قيل: ثم سيلان نفسه في كفّه، وإمرارها على وجهه، وأراد بنفسه دمه يقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قاء وقت موته دمًا يسير، وأنّ علياً عليه السلام مسح بذلك الدمه وجهه(١).

والتفسير الآخر هو أنّ النفس تلك الروح البشريّة القدسيّة التي وردت الإشارة إليها كراراً في القرآن الكريم «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا»(٢). وعليه فمفهوم العبارة أنّ روح النبي الطاهره فاضت على يد علي حين فارقت بدنه الطاهر فمسح بها وجهه(٣).

إلّا أنّ العبارة التي بقيت مبهمه على أغلب الشراح والمترجمين هي قوله عليه السلام:

«أَمْرُتُهَا عَلَيَّ وَجْهِي» فقالوا: وهل الروح شيء يمكن مسح الوجه بها؟!

ولحل هذا الإشكال يمكن أن يقال إنّ

«الكفّ» مؤنثه لأنّ الأعضاء الثنائيّة في البدن مؤنثه بينما الأعضاء المفردة مذكرة، قال الشاعر العربي:

«وَكَفٌّ خَضِيبٌ زُيْنَتْ بِبِنَانِي»، وعليه فمعنى العبارة أنّ كَفِّي لامست الروح القدسيّة للنبي صلى الله عليه وآله ثم مسحت وجهي بتلك الكفّ للبركة، وهكذا يحلّ إشكال تفسير العبارة المذكوره.

ثم خاض عليه السلام في سائر مراسم وفاه النبي صلى الله عليه وآله كالغسل والدفن فقال:

«وَلَقَدْ وُلِّيتُ

ص: ٥٠٢

١- (١) انظر: شرح نهج البلاغه لابن ميشم وابن أبي الحديد؛ وفي ظلال القرآن للشيخ محمد جواد معنیه، (ذيل الخطبه).

٢- (٢) . سورة زمر، الآية ٤٢.

٣- (٣) منهاج البراعة، للمحقّق الخوئي ونهج الصباغه للمحقّق التستري (ذيل خطبه).

غُسِّلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالْمَلَائِكَةُ أَعْوَانِي، فَضَجَّتِ الدَّارُ وَالْأَفْنِيَةُ (١). مَلَأَ يَهْطُ، وَمَلَأَ يَغْرُجُ، وَمَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْئَمَهُ (٢) مِنْهُمْ. يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى وَارَيْنَاهُ (٣) فِي ضَرْيِحِهِ».

والعبارة:

«وُلِّيتْ غَسْلَهُ» يمكن أن تكون إشارة إلى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَلَّفَنِي بِالْقِيَامِ بِهَذَا الْعَمَلِ، وَمَعُونَهُ الْمَلَائِكَةُ بِهَدْفِ إِكْرَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَتَعْظِيمِهِ وَإِجْلَالِهِ، وَضَجَّجِ الدَّارِ وَالْأَفْنِيَةَ الْوَارِدَ فِي الْعِبَارَةِ يُمْكِنُ أَنْ يَرَادَ بِهِ الْمَعْنَى الْحَقِيقِيَّ، مِنْ قَبِيلِ مَا ذَكَرُوهُ بِشَأْنِ تَسْبِيحِ الْجَمَادَاتِ فِي تَفْسِيرِ آيَاتِ التَّسْبِيحِ الْوَارِدَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، كَمَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ الْمَعْنَى الْمَجَازِيَّ لِشِيرِ إِلَى الْحُزْنِ وَالْأَسَى الْعَظِيمِ الَّذِي خِيمَ عَلَى بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَهَنَالِكِ احْتِمَالِ أَنْ تَكُونَ الْمَلَائِكَةُ مَحذُوفَةٌ وَالْعِبَارَةُ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، وَعَلَيْهِ فَمَعْنَى الْعِبَارَةِ

«ضجّت...» هو ضجيج الملائكة الذين كانوا في بيته صلى الله عليه وآله، ولكن يبدو هذا الاحتمال بعيداً.

والاحتمال الرابع هو أَنَّ هَذَا الضَّجِيجَ كَانَ مِنْ قَبْلِ النَّاسِ الْحَاضِرِينَ حَوْلَ الْبَيْتِ.

والعبارة هبوط وعروج الملائكة إشارة إلى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ كَانَتْ تَأْتِي جَمَاعَاتٍ جَمَاعَاتٍ تَصَلِّيَ عَلَى النَّبِيِّ وَتَعْرُجُ، وَكَانَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَسْمَعُ بِأُذُنِهِ الشَّرِيفَةِ أَصْوَاتَهُمْ حِينَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَقَدْ تَوَاصَلَتْ هَذِهِ الصَّلَوَاتُ وَالتَّحِيَّاتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حَتَّى دَفَنَهُ.

والتعبير بالضريح إشارة إلى الحفرة التي أعدت لدفن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله؛ لأنَّ هَذَا هُوَ الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّ لِلضَّرِيحِ، وَإِنْ كَانَ الضَّرِيحُ الْيَوْمَ يُطْلَقُ عَلَى مَا يُوضَعُ عَلَى الْقَبْرِ.

وقد تواترت روايات الفريقين على أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ تَوَلَّى لَوْحَدَهُ غَسْلَ النَّبِيِّ وَدَفَنَهُ فَقَدْ رَوَى الْمَرْحُومُ الْعَلَّامَةُ الْمَجْلِسِيُّ فِي بَحَارِ الْأَنْوَارِ عَنِ كِتَابِ الْوَصِيَّةِ لِلشَّيْخِ

ص: ٥٠٣

١- (١). «أفنيه» جمع «فناء» على وزن «غناء» ما اتسع أمام الدار وجوانبه.

٢- (٢). «هينمه» تعنى الصوت الخفى.

٣- (٣) «وارينا» من ماده «مواراه» ومن ماده «ورى» على وزن «نَفَى» بمعنى الكتمان والتغطية وتعنى هنا الدفن.

«عيسى الضرير» عن الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال:

«قَالَ رَسُولُ اللَّهِ يَا عَلِيُّ! أَضْمَنْتَ دِينِي تَقْضِيهِ عَنِّي! قَالَ نَعَمْ. قَالَ اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ. ثُمَّ قَالَ يَا عَلِيُّ تَغْسِلْنِي وَلَا يَغْسِلْنِي غَيْرُكَ فَيَعْمَى بَصْرُهُ... قَالَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَكَيْفَ أَقْوَى عَلَيْكَ وَحَدِي؟ قَالَ يُعِينُكَ جِبْرَائِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ» (١).

ثم خاض الإمام عليه السلام في استنتاج من مجموع الأبحاث السابقة ليعتبر قربته من النبي صلى الله عليه وآله في حياته ووفاته دليلاً واضحاً على أولويته بأمر الخلافة، فقال:

«فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيًّا وَمَيِّتًا؟» وأثر ذلك عبء الجميع للجهاد ضد العدو.

لعل هنالك من يتساءل وما علاقه هذه الأمور بقضيه الخلافة؟ وتبدو الإجابة عن هذا السؤال واضحة؛ ومراد الإمام على عليه السلام لو كانت خلافة النبي - على فرض - أنه غير منصوص عليها فلا بد أن تسند إلى أقرب الأفراد منه وأولاهم به صلى الله عليه وآله، وليس ذلك الشخص الذي عاش التسليم المطلق لأوامر النبي وأعظمهم تضحيه وجهاداً في الغزوات الإسلامية ومن كان يرى هبوط الملائكة وعروجها ولا تفارق سمعه هينمه من أصواتها ومن تولى غسل النبي وتكفينه ودفنه كما عهد إليه أولى من غيره بهذا الأمر؟ فعلمه ومعارفه من جانب وتضحياته الجسم من جانب آخر وقربه من رسول الله من جانب ثالث والوصيه له بغسل النبي ودفنه وتكفينه من الجانب الرابع فكل هذه الامتيازات لو وضعت في كفه ميزان لرجحت على الكفة الأخرى مهما كانت ثم خالص عليه السلام إلى نتيجة فقال:

«فَانْفُذُوا عَلَيَّ بِصَيِّئَاتِكُمْ، وَلْتَصِيْدُقْ نِيَّاتُكُمْ فِي جِهَادِ عِدْوِكُمْ. فَوَالَّذِي لَمَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي لَعَلِّي حَيَّ آدَهُ الْحَقُّ، وَإِنَّهُمْ لَعَلِّي مَرَّلَهُ (٢) الْبَاطِلُ».

فقد اعتمد الإمام عليه السلام في الواقع منطقاً منظماً بصيغته علّه ومعاليل متسلسله في هذه الخطبه، فقد أثبت بادئ الأمر قربته من النبي وتضحياته في حياته ثم قربته منه

ص: ٥٠٤

١- (١) بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٤٩٢.

٢- (٢). «مزلّه» من ماده «زلل» على وزن «ضرر» مكان الزلل الموجب للسقوط في الهلكه.

بعد وفاته، وأثر ذلك خالص إلى أولويته في إحراز مقام الخلافة. ثم تطرق إلى نتيجته كليته فدعى الجميع إلى جهاد العدو(١).

والعبارة:

«جَادَهُ الْحَقُّ وَمَزَلَهُ الْبَاطِلُ» هي عبارة رائعة ودقيقة، ذلك لأنَّ الحقَّ كالجاده المستقيمه والواضحه التي توصل الإنسان إلى مقصده المطلوب، إلَّا أنَّ الباطل ليس بطريق بل مزله وهاويه.

ثم اختتم الإمام عليه السلام الخطبه بعبارتين فقال:

«أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ!».

فقد أتمَّ الإمام عليه السلام على الناس الحجَّه بهذه العبارة وأكد ضروره العمل بتعاليمه ووصاياه ثم سأل الله كحسن ختام للخطبه المغفره للجميع ليشمل الله صحبه بلطفه ورحمته إن إرتكبوا بعض الأخطاء.

الحوادث الأليمه إبان وفاه النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَبَعْدَهَا

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبه إلى الفاجعه الأليمه لرحيل النَّبِيِّ الأكرم صلى الله عليه وآله وضجيج الملائكه التي تكشف عن عظم هذا المصاب الجليل.

وتبدو هذه الحادته أعظم خطوره حين تتزامن مع سائر الرزايا والأحداث والتي تكشف دراستها عن مدى عمق تلك الفاجعه.

وقد خاض جمع من شراح نهج البلاغه هنا في ذكر بعض هذه الأحداث؛ لكننا رأينا من الأفضل أن نترك العنان لقلم «الشهرستاني» أحد علماء القرن السادس صاحب كتاب الملل والنحل والمعروف بتعصبه للعائمه لنرى ما ذكره بهذا الخصوص فقد أشار إلى عشره اختلافات مهمه كل واحد منها تعدّ مصيبه للعالم، وإن سعى لتبريرها تحت ذريعه اجتهاد الصحابه، ولكن تلك الأعمال كانت على درجه من

ص: ٥٠٥

١- (١) كتب المرحوم العلامة التستري في شرحه نهج البلاغه: ج ٤، ص ٨٨ هذه الخطبه من الخطب التي ألقاها أمير المؤمنين عليه السلام في صفيين حسب نقل نصر بن مزاحم في كتاب صفيين.

الوضوح فى شناعتها بحيث تأبى التبرير بالاجتهاد أو الخطأ.

الاختلاف الأول فى النزاع الذى حدث عند النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى مرضه حيث روى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس أنّ النبى صلى الله عليه و آله قال حين اعتل:

«إِيْتُونِي بِدَوَاهِ وَقِرْطَاسٍ أُكْتُبُ لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضِلُّوا بَعْدِي».

قال عمر:

«إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ غَلَبَ عَلَيْهِ الْوَجَعُ (وما يقوله خارج عن الوعى) حسبنا كتاب الله».

فاشتد نزاع الصحابه فقال صلى الله عليه و آله:

«قَوْمُوا عَنِّي لَا يَتَّبِعُنِي عِنْدِي التَّنَازُعُ».

قال ابن عباس بعد نقله لهذا الحديث:

«الرَّزِيئَةُ كُلُّ الرَّزِيئَةِ مَا حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ كِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ»^(١).

ثم تطرق إلى الاختلاف الثانى فى مرض رسول الله أيضاً حين قال صلى الله عليه و آله:

«جَهَّزُوا جَيْشَ أَسَامَةَ لَعَنَ اللَّهُ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ». فقال البعض علينا إِمْتِثَالُ أَمْرِ النَّبِيِّ، وكان أسامه خارج المدينه يتأهب للحركه نحو الشام للقضاء على فتنهم، وقال البعض الآخر غلب الوجع على النبى ولا نطبق مفارقه.

والاختلاف الثالث حين وفاه النبى صلى الله عليه و آله حيث قال عمر:

«مَنْ قَالَ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ قَتَلْتَهُ بِسَيْفِي هَذَا وَإِنَّمَا رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ كَمَا رُفِعَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ».

وقال أبوبكر: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد رب محمد فأنه حتى لا يموت ثم تلى هذه الآية: «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ...»^(٢).

فقبل الناس منه وقال عمر: كأنى لم أسمع هذه الآية إلا الآن^(٣).

ص: ٥٠٦

١- (١) صحيح البخارى، كتاب العلم، ح ١١٤ وكتاب المرضى، ح ٥٦٦٩.

٢- (٢) سوره آل عمران، الآية ١٤٤.

٣- (٣) جاء فى تاريخ الطبرى أنه لما حضرت رسول الله صلى الله عليه و آله الوفاه، كان أبوبكر فى موضع «سُيْح» فى أحد

أطراف المدينة، وحين توفي صلى الله عليه وآله نهض عمر وقال: يظن بعض المنافقين أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد مات، والله إنّّه لم يمّت وإنما رفعه الله إليه، كما غاب موسى عن قومه أربعين ليلة ثم عاد (وسوف يعود رسول الله صلى الله عليه وآله) فلمّا علم أبو بكر ذهب إلى بيت النبي فعلم بوفاه النبي صلى الله عليه وآله ورجع إلى المسجد وكان عمر ما زال يحدث الناس فقاطعه أبو بكر وقال ما ورد سابقاً. (تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٤٢ حوادث سنة ١١).

والاختلاف الرابع فى موضع دفن النبى حيث أراد المهاجرون دفنه فى مكه، بينما أراد الأنصار دفنه فى المدينه لأنها دار الهجره، ورغبت فئه ثالثه بدفنه فى بيت المقدس حيث الأنبياء ثم اتفقوا جميعاً على دفنه فى المدينه، ويعتقد البعض أن هدف عمر من هذا الكلام هو اشغال الناس حتى يحضر أبوبكر وتتم له الخلافه.

حيث روى عنه صلى الله عليه و آله أنه قال:

«الأنبياءُ يُدفنونَ حيثُ يموتون»(١).

وبرز الاختلاف الخامس فى الخلافه والذى عدّه الشهرستاني من أهم الخلافات حيث قال:

«إذ ما سئل سيفٌ فى الإسلامِ على قاعدته ديتيه مثل ما سئل على الإمامه فى كلِّ زمان».

ثم نقل قصه سقيفه بنى ساعده وماحدث فيها من اختلافات وبالتالى بيعه أبى بكر.

واعتبر الخلاف السادس قضيه فدك وأشار فيه إلى خطبه فاطمه الزهراء عليها السلام حيث طالبت بها كهبه من النبى أو ميراث، فاحتج عليها أبوبكر بالحديث (الموضوع)

«نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ، مَا تَرَكَنَاهُ صَدَقَةٌ».

ثم أشار إلى الاختلاف السابع بشأن مانعى الزكاه الذى اعتبرهم البعض كفره بينما لم يكفرهم البعض الآخر والاختلاف الثامن نص أبوبكر على خلافه عمر حين وفاته فقال له الناس:

«وَأَلَيْتَ عَلَيْنَا فِظًّا غَلِيظًا»؛ بينما استجاب له سائر الناس.

والاختلاف التاسع فى الشورى التى نصبها عمر لتعيين الخليفه من بعده، والاختلاف العاشر الذى حدث على عهد أمير المؤمنين على عليه السلام بعد أن بايعته الأمه على الخلافه، فأثار طلحه والزبير وعائشه، فتنه الجمل، ومعاويه، صفين، والخوارج، النهروان(٢).

ص: ٥٠٧

١- (١) ورد فى المصادر الروائيه لأهل البيت عليهم السلام أن علياً عليه السلام قال: إن أشرف موضع هو الموضع الذى قبض فيه الله نبيّه صلى الله عليه و آله؛ ومن هنا دفن فى بيته. (الكامل البهائى، ج ١، ص ٢٨٥، تأليف عماد الدين الطبرى).

٢- (٢) الملل والنحل للشهرستاني، ص ١٦-١٩، طبعه دار الفكر بيروت، (بتلخيص).

يُنَبِّهُ عَلَى إِحَاطَةِ عِلْمِ اللَّهِ بِالْجُزْئِيَّاتِ، ثُمَّ يَحْتُ عَلَى التَّقْوَى،

وَيُبَيِّنُ فَضْلَ الْإِسْلَامِ وَالْقُرْآنِ (١)

نظرة إلى الخطبه

تتألف هذه الخطبه من عدّه أقسام:

تحدّث الإمام عليه السلام في القسم الأوّل بعبارات رائعة عن العلم الإلهي المطلق وشهد للنبي صلى الله عليه وآله بالرساله، ليكمل في الواقع الشهادتين بعبارات جديده.

وأوصى عليه السلام في القسم الثاني بالتقوى وأنها دواء كلّ داء والشفاء من جميع الأمراض والوسيله لإصلاح المفاسد كافّه وطهاره الروح وقره العين، وقد تضمنت إشارات إلى التقوى من خلال ذكر بعض النقاط التي قلّما ذكرت في سائر الخطب.

ص: ٥٠٩

١- (١) سند الخطبه: قال صاحب مصادر نهج البلاغه: ما ذكره السيد الرضى هنا في الخطبه ١٠٤ (الخطبه ١٠٦ حسب التسلسل في هذا الكتاب) واحد كما يتّضح من التأمل في العبارات (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٨٢)؛ لكنه لم يذكر لذلك مصدراً آخر غير نهج البلاغه، وتفيد سائر الدراسات والتحقيقات عدم وجود مصدر آخر غير نهج البلاغه. وللأسف فقد ذكرت في بعض الكتب (مثل نهج البلاغه نسخه المعجم المفهرس للنشر الإسلامى التابع لجماعه المدرسين) سته مصادر غير نهج البلاغه لهذه الخطبه وليس فيها حتى مصدر صحيح واحد؛ إلّا أنّ مضمون الخطبه ورفعتها لا يمكن أن تصدر من غير الإمام، وهذا دليل على قوّه سندها.

وتطرق فى القسم الثالث إلى أهميّه الإسلام ومزاياه بعبارات مشوقه تستقطب القلوب.

وتحدّث فى القسم الرابع عن النّبي صلى الله عليه و آله وخدماته الجليله فى ذلك العصر المظلم الجاهلى وزعامته للنهضه الإسلاميه.

واختتم الخطبه بالحديث عن القرآن الكريم من خلال ذكره لأربعين صفه من صفاته التى يمكن القول إنّها أشمل إشاده وتمجيد للقرآن، عليه آلاف التحيه والثناء.

ص: ٥١٠

يَعْلَمُ عَجِيجَ الْوُحُوشِ فِي الْفَلَوَاتِ، وَمَعَاصِي الْعِيَادِ فِي الْخَلَوَاتِ، وَاخْتِلَافَ النَّيْنَانِ فِي الْبِحَارِ الْغَامِرَاتِ، وَتَلَاطَمَ الْمَاءِ بِالرِّيَّاحِ الْعَاصِفَاتِ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا نَجِيبُ اللَّهِ، وَسَفِيرُ وَحْيِهِ، وَرَسُولُ رَحْمَتِهِ.

الشرح والتفسير: احاطه الله العلميه

بما أنّ هذه الخطبه تتحدّث حول الإسلام والقرآن، فقد استهلها الإمام عليه السلام بالحديث عن الإيمان بالمبدأ والمعاد؛ الإيمان الذي يشكل الدافع لجميع الخيرات والوسيله لجميع البركات، حين يريد التحدث عن معرفه الله فإنّه يركز على العلم الإلهي المطلق الذي يعد من أهم صفات الحقّ تعالى فقال:

«يَعْلَمُ عَجِيجَ (١) الْوُحُوشِ فِي الْفَلَوَاتِ (٢)، وَمَعَاصِي الْعِيَادِ فِي الْخَلَوَاتِ، وَاخْتِلَافَ النَّيْنَانِ (٣) فِي الْبِحَارِ الْغَامِرَاتِ (٤)، وَتَلَاطَمَ الْمَاءِ بِالرِّيَّاحِ الْعَاصِفَاتِ (٥)».

فقد ركز الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه على أربع ظواهر مختلفه عن بعضها البعض الآخر في هذا العالم ولا تحضى بالاهتمام، ليشير إلى علم الله تعالى بها:

ص: ٥١١

١- (١). «عجيج» من ماده «عجج» على وزن «حجج» بمعنى الصراخ وتستعمل غالباً للحيوانات.

٢- (٢). «فلوات» جمع «فلاه» بمعنى الأرض الواسعه والقاحله ويقال أحياناً للصحراء.

٣- (٣) «نينان» جمع «نون» تعنى السمكه الكبيره ويقال أيضاً للحوت.

٤- (٤) «غامرات» من ماده «غمر» على وزن «عمد» بمعنى محو شىء. ثم اطلقت على المياه التي تغطى الأرض أو موجوداته، والبحر الغامر هو البحر العميق.

٥- (٥) «عاصفات» جمع «عاصفه» من ماده «عصف» على وزن «حذف» تعنى القشّه و «عاصف» الرياح الشديده التي تفرق القش والأوراق اليابسه أو تفرق الأشياء كالقشّه.

الأولى: وكما نعلم فإنّ الصحارى المترامية الأطراف فى العالم تضم العديد من الحيوانات الوحشية التى لا يطرق سمعنا ضجيجها وعجيجها، لكن الله تعالى عالم بها ويعلم كلّ حيوان فيها ومتى يضح بصوته وما طبيعه ذلك الضجيج.

والظاهرة الثانية: كثره الذنوب التى تمارس فى الخلوات والبعيده عن أنظار الناس والتى تخفى علينا جميعاً، لكن الله يعلم بكلّ إنسان فى كلّ مكان وكلّ زمان والذنب الذى يرتكبه.

والظاهرة الثالثة: أنه يعلم بحركات وسكنات الحيتان فى أعماق البحار والغائبه عن عيون الناس.

وأخيراً يعلم الأمواج فى المحيطات والبحار وحركاتها فى الليل والنهار والتى لا ندرك سوى جزء يسير منها، فهو العالم متى تتحرك واين تتحرك وكيف تتوقف.

ولو أضفنا لكلّ هذه الأمور أنّ علم الله تعالى بهذه الأمور لا يقتصر على اليوم والأمس، بل منذ الأزل الذى شهد وقوع هذه الحوادث ليل نهار (ما عدا الذنوب البشريه المحدده بزمان معين) فالله يعلم كيف تحققت كلّ واحده من هذه الظواهر وأين وكيف.

وكذلك لو أضفنا أنّ الأمور المذكوره لا تقتصر على الكره الأرضيه، التى تعدّ مركز مختلف الحوادث، بل مليارات الكواكب فى مجراتنا والتى تعتبر مركزاً للعديد من الحوادث الدائمية بالإضافة إلى سائر المجرات الأخرى والتى يتجاوز عددها المليارات.

نعم! كلّ هذه الأمور حاضره فى علم الله وهنا نوقن بما ذكره القرآن الكريم فى الآيه ٢٧ من سوره لقمان اذ قالت: «وَلَوْ أَنَّمَّا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمِيْدُهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ». فى أنه عين الواقع وهى ليست من قبيل الاستغراب فحسب، بل لا تعدّ بشيء بالنسبه لدائره علم الله المطلق.

ثم واصل كلامه عليه السلام بعد بيان علم الله تعالى بعالم الخلق بالشهادة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالرساله واثنى عليه بثلاث صفات مهمه من صفاته فقال:

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا نَجِيبٌ (١) اللَّهُ، وَسَفِيرٌ وَحِيهِ، وَرَسُولٌ رَحْمَتِهِ».

نعم! فهو إنسان غايه فى النجابه والسمو انتجبه الله للنبوّه وأنزل عليه وحيه وجعله موضع رحمته.

وقد تجلت هذه الرحمه بعده صور ووجوه، فتاره عن طريق بيان المعارف الدينيه الساميه، وتاره أخرى بواسطه شرح التعاليم وثالثه بطلب الرخصه من الله للأمه، وبالتالي ستظهر هذه الرحمه بصيغه الشفاعه يوم القيامه؛ نسأل الله أن يشمل بها جميعاً

جاء فى الحديث النبوى الشريف أنه لما نزلت الآيه الشريفه: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» (٢) أنه صلى الله عليه وآله قال لجبرئيل عليه السلام لما نزلت هذه الآيه:

«هَلْ أَصَابَكَ مِنْ هَيْدِهِ الرَّحْمَهُ شَيْءٌ؟ قال: نَعَمْ إِنِّي كُنْتُ أَخْشَى عَاقِبَةَ الْأَمْرِ، فَأَمَنْتُ بِكَ لَمَّا أَثْنَى اللَّهُ عَلَيَّ بِقَوْلِهِ: «ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ» (٣)

وَقَدْ قَالَ: إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُّهْدَاةٌ» (٤).

ص: ٥١٣

١- (١) «نجيب» من «نجابه» تعنى المختار المصطفى وكل غال ونفيس.

٢- (٢) . سورة الأنبياء، الآيه ١٠٧.

٣- (٣) سورة التكوير، الآيه ٢٠.

٤- (٤) مجمع البيان، ذيل الآيه ١٠٧ من سورة الأنبياء.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِي ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ، وَإِلَيْهِ يَكُونُ مَعَادُكُمْ، وَبِهِ نَجَاحُ طَلِبَتِكُمْ، وَإِلَيْهِ مُنْتَهَى رَغْبَتِكُمْ، وَنَحْوَهُ قَصْدُ سَبِيلِكُمْ، وَإِلَيْهِ مَرَامِي مَفْزَعِكُمْ. فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ دَوَاءٌ دَاءِ قُلُوبِكُمْ، وَبَصِيرَةٌ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ، وَشِفَاءٌ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ، وَصِيْلَاحٌ فَسَادِ صُدُورِكُمْ، وَطُهُورٌ دَنَسِ أَنْفُسِكُمْ، وَجَلَاءٌ عَشَا أَبْصَارِكُمْ، وَأَمْنٌ فَرَعَ جَأَشِكُمْ، وَضِيَاءٌ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ. فَاجْعَلُوا طَاعَةَ اللَّهِ شِعَاراً دُونَ دِئَارِكُمْ، وَدَحِيلاً دُونَ شِعَارِكُمْ، وَلَطِيفاً بَيْنَ أَضْلَاعِكُمْ، وَأَميراً فَوْقَ أُمُورِكُمْ، وَمَنْهَلاً لِحِينِ وُرُودِكُمْ، وَشَفِيعاً لِتَدْرِكِ طَلِبَتِكُمْ، وَجَنَّةً لِيَوْمِ فِرْعَانَ، وَمَصَابِيحَ لِيُطَوِّنَ قُبُورِكُمْ، وَسَيِّكناً لِيُطَوِّلَ وَحْشَتِكُمْ، وَنَفْساً لِيَكْرِبَ مَوَاطِنِكُمْ. فَإِنَّ طَاعَةَ اللَّهِ حِزْبٌ مِنْ مَتَالِفِ مُكْتَنَفَةٍ، وَمَخَافَةٌ مُتَوَقَّعَةٍ، وَأَوَارٍ نِيرَانِ مُوقَدَةٍ. فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَى عَزَبَتْ عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعْدَ دُنُوبِهَا، وَاخْلَوْلَتْ لَهُ الْأُمُورُ بَعْدَ مَرَارَتِهَا، وَانْفَرَجَتْ عَنْهُ الْأُمُوجُ بَعْدَ تَرَاقُمِهَا، وَأَسْهَلَتْ لَهُ الصَّعَابُ بَعْدَ انْصَابِهَا، وَهَطَلَتْ عَلَيْهِ الْكِرَامَةُ بَعْدَ قُحُوطِهَا، وَتَحَدَّثَتْ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ بَعْدَ نُفُورِهَا، وَتَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النُّعْمُ بَعْدَ نُضُوبِهَا، وَوَبَلَّتْ عَلَيْهِ الْبَرَكَهُ بَعْدَ إِزْدَادِهَا.

فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي نَفَعَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ، وَوَعَّظَكُمْ بِرِسَالَتِهِ، وَآمَنَنَّ عَلَيْكُمْ بِنِعْمَتِهِ. فَعَبَّدُوا أَنْفُسَكُمْ لِعِبَادَتِهِ، وَاخْرُجُوا إِلَيْهِ مِنْ حَقِّ طَاعَتِهِ.

الشرح والتفسير: التقوى مصدر الخيرات

بعد أن أشار الإمام عليه السلام إلى علم الله المطلق والشهادة بالنبوه في القسم السابق

والذى كان يمثل فى الواقع مقدمه، خاض فى هذا القسم فى ذى المقدمه والذى تمثل فى الدرجه الأولى فى الوصيه بالتقوى وقرنها ببعض صفات الله ليؤجج فى قلوبهم نيران عشق التقوى والورع فقال:

«أَمَّا بَعِيدٌ، فَأَنَا أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِي ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ، وَإِلَيْهِ يَكُونُ مَعَادُكُمْ، وَبِهِ نَحْيُحُ طَلَبْتِكُمْ، وَإِلَيْهِ مُنْتَهَى رَغْبَتِكُمْ، وَنَحْوَهُ قَصْدُ سَبِيلِكُمْ، وَإِلَيْهِ مَرَامِي مَفْرَعِكُمْ (١)».

كما قال القرآن الكريم: «وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ» (٢). وقال أيضاً: «ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوَزُونَ» (٣).

ثم خاض عليه السلام إثر الوصيه بالتقوى إلى ذكر آثارها بثمان عبارات قصيره وعميقه المعنى فقال:

«فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ دَوَاءٌ دَاءِ قُلُوبِكُمْ، وَبَصْرٌ عَمَى أَفْنِدَتِكُمْ، وَشِفَاءٌ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ، وَصَلَاحٌ فَسَادِ صُدُورِكُمْ، وَطُهْرٌ دَنَسِ أَنْفُسِكُمْ، وَجَلَاءٌ عَشَا (٤) أَبْصَارِكُمْ، وَأَمْنٌ فَرَعِ جَأَشِكُمْ (٥)، وَضِيَاءٌ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ».

العباره الأولى إشاره إلى الأمراض الفكرية والروحية فى الغوايه والضلال، والعباره الثانية إشاره إلى إزالة الموانع وحجب المعرفة فى ظلّ التقوى، وتشير العباره الثانية إلى قلّه الطعام ورعايه الاعتدال فى تناول الأغذيه فى ظلّ التقوى؛ ذلك لأننا نعلم وكما ورد فى الحديث النبوى الشريف:

«الْمِعْدَةُ رَأْسُ كُلِّ دَاءٍ وَالْحِمِيَّةُ رَأْسُ كُلِّ دَوَاءٍ» (٦).

والذى أيدته الأطباء المعاصرون قاطبه أنّ قسماً مهماً من الأمراض معلول لكثرة

ص: ٥١٤

١- (١) «مفزع» من ماده «فزع» بمعنى الخوف وتعنى مفرده (مفزع) الملقب، لأنّ الإنسان يلجأ إليها فى خوفه.

٢- (٢) . سورة يونس، الآية ١٠٧.

٣- (٣) سورة النحل، الآية ٥٣.

٤- (٤) . «عشا» من «عشو» على وزن «نشر» بمعنى ضعف العين أو البحث عن شىء بعين ضعيفه و «عشا» اسم مصدر تعنى ضعف البصر.

٥- (٥) «جأش» بمعنى ما يضطرب فى القلب عند الفزع ومن حيث إنّ القلب (الروح) هو مركز هذه الأمور فيقال أحياناً جأش للقلب أيضاً ويمكن للاثنان أن يكونا المعنى المراد.

٦- (٦) بحار الأنوار، ج ٥٩، ص ٢٩١.

الطعام، والصحة وطول العمر فى قلبه الطعام، والعبارتان الرابعه والخامسه كلاهما إشاره إلى تطهير الباطن من الرذائل الأخلاقيه كالكبر والحسد والبغض والعداء وما شابه ذلك، غير أن العبارة الرابعه وارده بشأن الصفات القبيحه التى ترسخ فى باطن الإنسان بحيث تقوده إلى الفساد، بينما تشير العبارة الخامسه إلى الانحراف السطحي والبسيط والذى يغسل بماء التقوى.

والعبارة السادسة إشاره إلى أن التقوى تجعل رؤيه الإنسان الباطنيه أعظم حده وعينه أشد بصيره، ويبدو أن الفارق بينها وبين العبارة

«وَبَصِيرَةٌ عَمَى أَفْتَدَتْكُمْ» أن الكلام فى تلك العبارة عن العمى المطلق بالتقوى وهنا إشاره إلى قلبه نور البصيره الذى يزداد فى ظل التقوى.

والعبارة السابعه إشاره إلى الاضطرابات التى يعيشها الإنسان أثر مقارفة الذنب والمعصيه؛ فالخوف من عذاب الله فى الدنيا والآخره وتأنيب الضمير الموجود فى طبيعه الذنب كلها تزال بالتقوى.

قال القرآن الكريم «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَرَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ»^(١).

والعبارة الأخيره تشير إلى تأثير التقوى فى القضاء على ظلمات الجهل وإنهيار العداله والظلم والجور. وعلى هذا الضوء فإن التقوى تجلب للإنسان خير وسعاده الدنيا والآخره.

ثم تطرق الإمام عليه السلام بعد ذكره للتقوى وآثارها المهمه فى الحياه الماديه والمعنويه البشريه إلى طاعه الله والتى تعدّ من المعطيات الهامه للتقوى ليوضح بعشر عبارات قصيره وعميقه المعنى أهميه الطاعه فى حياه الأفراد المؤمنين فقال:

«فَاجْعَلُوا طَاعَةَ اللَّهِ شِعَارًا دُونَ دِتَارِكُمْ، وَدَخِيلًا دُونَ شِعَارِكُمْ، وَلَطِيفًا بَيْنَ أَضْلَاعِكُمْ، وَأَمِيرًا فَوْقَ

ص: ٥١٧

أُمُورِكُمْ، وَمَنْهَلًا (١) لِحِينِ وُرُودِكُمْ (٢) ، وَشَفِيعًا لِدَرَكِ (٣) طَلَبَتِكُمْ، وَجُنَّةً لِيَوْمِ فَرَعِكُمْ، وَمَصَابِيحَ لِيُطُونِ قُبُورِكُمْ، وَسَيِّكَنَا لِيُطُولِ وَحْشَتِكُمْ، وَنَفْسًا لِيَكْرَبَ مَوَاطِنِكُمْ».

فقد شخص الإمام عليه السلام في العبارات الثلاث الأولى منزله طاعه الله في وجود الإنسان، فشبها باديء الأمر بالشعار الذي يعنى مايلى البدن من الثياب لا الدثار الذى يعنى الثياب الخارجيه التى تقتصر على الرياء والاهتمام بالظاهر، ثم غاص أبعد من ذلك ليسحبها إلى باطن الجسم على أنها اعمق من الشعار، ثم تعمق أكثر ليرى موضعها فى القلب.

وهنا لابد من الإلتفات إلى أن العبارة «بين اضلاع» إشاره لطيفه إلى القلب، ذلك لأن القلب داخل الصدر وقد احيط من جميع جوانبه بالاضلاع.

جدير ذكره أن القلب ليس مركز الإدراكات، إلمائه على صله وثيقه بدماع الإنسان وروحه، وكل ظاهره تطراً على الروح إنما تظهر آثارها باديء الأمر فى القلب.

العبارة:

«أَمِيرًا فَوْقَ أُمُورِكُمْ» إشاره إلى ضروره سياده أوامر الله فى جميع شؤون الحياه الفرديه والاجتماعيه والسياسيه.

والعبارة:

«وَمَنْهَلًا لِحِينِ وُرُودِكُمْ...» تشير إلى أن المعطيات الإيجابيه والبركات الجمه لطاعه الله على الحياه الماديه والمعنويه للإنسان إنما تغذى روحه، وتوصله إلى أهدافه الساميه وتحميه مما يتعرض له من مشاكل، وتعد مصدر السكينه والطمأنينه فى عالم البرزخ والقبر ويوم القيامه.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالتطرق إلى عله لزوم الطاعه فقال:

«فَإِنَّ طَاعَةَ اللَّهِ حِرْزٌ مِنْ مَتَالِفِ مُكْتَنَفِهِ، وَمَخَافٌ مُتَوَقَّعَهُ، وَأَوَارٍ (٤) نِيرَانِ مُوقَدِهِ».

ص: ٥١٨

١- (١) . «منهل» بمعنى المكان الذى يصلون منه إلى الماء ومن ماده «نهل» على وزن «محل» بمعنى ابتداء شرب الماء.

٢- (٢) «ورود» تعنى فى الأصل الذهاب قرب الماء، ثم اتسع معناها ليشمل الدخول فى كل شىء.

٣- (٣) «درک» على وزن «سمک» بمعنى اللحاق والوصول والتعويض عن شىء.

٤- (٤) «أوار» على وزن «غبار» بمعنى حراره الشمس ولهيبها وتطلق أحياناً على العطش الناتج منه.

فالعبارتان الأولى والثانية في الواقع إشارة إلى معطيات الطاعة في الحياة الدنيا، والعبارة الثالثة ترمز إلى آثارها في الآخرة؛ فهي تحفظه في الدنيا من المخاطر الحاضرة والمستقبلية، وفي الآخرة من العذاب الأليم لنار جهنم.

وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن المراد بهذه الأخطار، المفسد الأخلاقي والباطني والتي تؤدي إلى البعد عن هدى الله، والحال من شأن هذه الأخطار أن تشمل المخاطر الماديّة، ذلك لأنّ الطاعة الإلهية تفيض الأمن الاستقرار على المجتمع البشري وتنزل عليه بركات السماء والأرض وتحد من نسبة الوفيات، كما أشير إلى ذلك في الآيات الشريفة من سورة نوح: «فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِيَنَّ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا» (١).

ثم عاد الإمام عليه السلام ثانيه إلى مسألة التقوى والورع ومعطياتها وآثارها، على أنّ الطاعة والتقوى من قبيل اللزوم والملزوم، فالتقوى تؤدي إلى الطاعة، كما أنّ الطاعة عنصر بلوره التقوى في باطن الإنسان؛ حيث أشار عليه السلام إلى ثمانية من آثار التقوى بعبارات مقتضبه عميقة المعنى فقال:

«فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَى عَزَبَتْ (٢) عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعْدَ دُنُوتِهَا، وَاخْلَوْلَتْ (٣) لَهُ الْأُمُورُ بَعْدَ مَرَاتِهَا، وَأَنْفَرَجَتْ عَنْهُ الْأَمْوَالُ بَعْدَ تَرَكَمِهَا، وَأَسْهَلَتْ لَهُ الصُّعَابُ بَعْدَ انْصَابِهَا (٤)، وَهَطَلَتْ (٥) عَلَيْهِ الْكِرَامَةُ بَعْدَ قُحُوطِهَا (٦)،

ص: ٥١٩

١- (١) سورة نوح، الآيات ١٠-١٢.

٢- (٢). «عزبت» من مادة «عزوب» على وزن «غروب» تعني في الأصل الغياب والبعد عن العائلة لايجاد مرتع للبهائم ثم اطلقت على كل غياب وابتعاد. ويقال كذلك للرجال والنساء البعيدين عن أزواجهم، أو يقال «عزب» على وزن «عرب» لمن لم يختر زوجه بعد.

٣- (٣). «احلوت» في الأصل من «حلو» على وزن «حكم»، معروف و«احلوت» التي من باب المزيد فيه أخذت معنى الكثرة؛ وعلى هذا الأساس فإنّ «احلول» يعني الكثير الحلاه، مثل «اعشوشب» بمعنى الكثير العشب.

٤- (٤). «انصاب» مصدر باب الأفعال بمعنى الاتعاب من مادة «نصب» على وزن «نَسَب» بمعنى التعب.

٥- (٥) «هطل» بمعنى نزول المطر المتواصل.

٦- (٦) «قحوط» بمعنى المجاعة.

وَتَحَدَّبَتْ (١) عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ بَعْدَ نُفُورِهَا، وَتَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النَّعْمُ بَعْدَ نُضُوبِهَا (٢)، وَوَبَلَتْ (٣) عَلَيْهِ الْبَرَكَهَ بَعْدَ إِرْذَاذِهَا (٤).

فتتضح قيمة التقوى على صعيد الحياه الماديّه والمعنويّه للإنسان من خلال هذه الآثار التي بينها الإمام عليه السلام للتقوى.

نعم! فالشدائد تزول في ظلّ التقوى وتفاض أمطار الرحمه الإلهيّه على التقاه والمجتمعات التقيه، ويغيب الفساد والانحراف. قال القرآن الكريم بهذا الخصوص:

«وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» (٥). وقال:

«وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» (٦).

ولا- تختصر علاقته التقوى بهذه الأمور على الجانب المعنوي، بل هي كذلك حتى من وجهه نظر التحليلات العقلية والمنطقيه، فإننا نرى المجتمعات التي استطاعت من خلال انطلاقتها من التقوى والثقه بين أبنائها وتعاونهم مع بعضهم من التغلب على العديد من المحن والمخاطر وحدّت من حجم الاختلافات والنزاعات والقضايا الجزائيّه والعقاييه إلى أدنى ما يمكن. والطريف في الأمر أنّ شهر رمضان المبارك الذي يتمتع فيه الصائمون بمزيد من التقوى بمقتضى الآيه الشريفه: «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (٧).

ص: ٥٢٠

١- (١). «تحدبت» من ماده «حدب» على وزن «أدب» تعنى فى الأصل الأراضى العالیه بين الأراضى الواطئه، وكذلك يقال «حدب» للبروز فوق الجسم وكذلك يقال للشىء الذى يحيط بآخر وهو المعنى المقصود فى العبارة.

٢- (٢) «نضوب» تعنى فى الأصل ذهاب الماء فى الأرض، ثم اطلقت على القضاء على كل شىء.

٣- (٣) «وبلت» من ماده «وبل» على وزن «جبل» بمعنى المطر الشديد ذى القطرات الكبيره وهنا تعنى سقوط البركات الإلهيّه بكثره.

٤- (٤) «إرذاذ» بمعنى سقوط المطر الخفيف.

٥- (٥). سوره الأعراف، الآيه ٩٦.

٦- (٦) سوره الطلاق، الآيتان ٢ و ٣.

٧- (٧). سوره البقره، الآيه ١٨٣.

شهد هبوطاً ملحوظاً للجرائم والجنايات، كما أنّ العديد من المشاكل الاجتماعيه التي تفرزها المشاكل الأخلاقية تزول بأقصى ما يمكن من السرعة أبان مزاوله الناس للأسفار المعنويه كالسفر لحج بيت الله الحرام، ذلك لأنّ التقوى ملكه مانعه إزاء كلّ هذه المشاكل، والأفراد الذين يشعرون بثقل حقوق الآخرين التي تثقل رقابهم إنّما يبحثون عمّا ينجيهم من هذا الثقل، وعلى هذا الضوء هنالك تفسير مادي إلى جانب التفسير المعنوي للعلاقة بين التقوى وغياب المشاكل ومضاعفه البركات.

ثم اختتم الإمام عليه السلام هذا القسم من الخطبه بالعوده إلى مسأله التقوى ليؤكد ثانيه على ما استهل به هذا الجانب من الخطبه فقال:

«فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي نَفَعَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ، وَوَعَّظَكُمْ، بِرِسَالَتِهِ، وَآمَنَنَّ عَلَيْكُمْ بِنِعْمَتِهِ».

وهذه الصفات الثلاث التي ذكرها الإمام عليه السلام لله تبارك وتعالى تمثل جميعاً دوافع لسلوك سبيل التقوى، لأنّها تشمل جميع النعم الماديّه والمعنويّه والمواعظ الإلهيّه وهي المواعظ التي تفاض على جميع أهل الإيمان عن طريق رسالات الأنبياء سيّما النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسائر أنواع النعم الماديّه والمعنويّه التي تمنح للإنسان والتي يمكن من خلالها بلوغ ذروه العبوديه والورع والتقوى والكمال المعنوي والمادي تثير لدى الإنسان الشعور بالشكر والحمد لواهب هذه النعم وتنتهي به إلى تقوى الله وطاعته وإمتثال أوامره.

وقال في العبارة الأخيره:

«فَعَبَّدُوا أَنْفُسَكُمْ لِعِبَادَتِهِ، وَاخْرُجُوا إِلَيْهِ مِنْ حَقِّ طَاعَتِهِ».

«عبّدوا» وإن أخذت من ماده عباده إلّا أنّها تعنى في هذه الموارد الإعداد والتسليم ومن ذلك قولهم «عبّد الطريق».

ومن الواضح أنّ إعداد النفس لعبوديه الله مقدمه لأداء حقّ الطاعه، ولا يتيسر هذا الإعداد إلّا عن طريق الإيمان والمعارف الإلهيّه وتركيه النفس وتهذيبها والانفتاح على أسرار العبادات.

ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْإِسْلَامَ دِينَ اللَّهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، وَاصْطَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ، وَأَصْفَاهُ خَيْرَ خَلْقِهِ، وَأَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ. أَذَلَّ الْأَدْيَانَ بَعِزَّتِهِ، وَوَضَعَ الْمَلَمَلِ بَرْفَعِهِ، وَأَهْرَانَ أَغْيَدَاءَهُ بِكَرَامَتِهِ، وَخَدَلَ مِحَادِيهِ بِنَصِيرِهِ، وَهَيَّدَمَ أَرْكَانَ الضَّلَالَةِ بِرُكْنِهِ. وَسَيَقَى مَنْ عَطَشَ مِنْ حَيَاضِهِ، وَأَتَأَقَّ الْحَيَاضَ بِمَوَاتِحِهِ. ثُمَّ جَعَلَهُ لَا انْفِصَامَ لِعُرْوَتِهِ، وَلَمَا فَكَّ لِحَلْقَتِهِ، وَلَا انْهِيْدَامَ لِأَسَاسِهِ، وَلَا زَوَالَ لِتَدْعَائِمِهِ، وَلَا انْقِلَاعَ لِشَجَرَتِهِ، وَلَا انْقِطَاعَ لِمُدَّتِهِ، وَلَا عَفَاءَ لِشَرَائِعِهِ، وَلَا جَدَّ لِفُرُوعِهِ، وَلَا ضَمَنَكَ لِطُرُقِهِ، وَلَا وُعُوْتَهُ لِسُهُولَتِهِ، وَلَا سَوَادَ لَوْضِحِهِ، وَلَا عَوَجَ لِانْتِصَابِهِ، وَلَا عَصَلَ فِي عُودِهِ، وَلَا وَعَثَ لِفَجِّهِ، وَلَا انْطِفَاءَ لِمَصَابِيحِهِ، وَلَا مَرَارَةَ لِحَلَاوَتِهِ. فَهُوَ دَعَائِمٌ أَسَاحَ فِي الْحَقِّ أَشْيَاخَهَا، وَتَبَّتْ لَهَا أَسَاسُهَا، وَيَتَابِعُ عَزْرَتَ عُيُونِهَا، وَمَصَابِيحُ شَبَّتْ نِيرَانُهَا؛ وَمَنَارٌ افْتَدَى بِهَا سِفَارُهَا، وَأَعْلَامٌ قَصِدَ بِهَا فِجَاجُهَا، وَمَنَاهِلٌ رُوِيَ بِهَا وَرَادَهَا. جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ مُنْتَهَى رِضْوَانِهِ، وَذِرْوَةَ دَعَائِمِهِ، وَسِنَامَ طَاعَتِهِ؛ فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ وَثِيقُ الْأَرْكَانِ، رَفِيعُ الْبُنْيَانِ، مُنِيرُ الْبُرْهَانِ، مُضِيءُ النَّيْرَانِ، عَزِيزُ السُّلْطَانِ، مُشْرِفُ الْمَنَارِ، مُعَوِّذُ الْمَثَارِ. فَشَرَّفُوهُ وَاتَّبِعُوهُ، وَأَدُّوا إِلَيْهِ حَقَّهُ، وَضَعُوهُ مَوَاضِعَهُ.

الشرح والتفسير: فضل الإسلام

خاض الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبه في بيان أهميه الإسلام وعظمه هذا الدين الحنيف، حيث أكمل بهذا القسم ما أورده في القسم السابق بشأن التقوى

والطاعة، ذلك لأنّ الطاعة والتقوى إنّما تتحصل في ظلّ التبعية لهذا الدين. فتحدث بادئ الأمر عن إحدى عشرة صفة من صفات الإسلام العظيم فقال:

«ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْإِسْلَامَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي اضْطَفَأَهُ لِنَفْسِهِ، وَاضْطَنَعَهُ (١) عَلَى عَيْنِهِ، وَأَصْفَأَهُ خَيْرَةَ خَلْقِهِ، وَأَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ».

فقد بين في هذه الصفات الخمس الأولى الأركان الأصليه لهذا الدين المقدّس والذي انفراد الله تعالى بتشريعہ بمنتهى الدقه، وتولى إبلاغه أفضل خلق الله النبي الأكرم صلى الله عليه وآله واستندت دعائمه على أساس حبّ الله.

والعبارة:

«اضْطَفَأَهُ لِنَفْسِهِ» إشاره إلى أنّ الطريق الذي يؤدّي إلى القرب الإلهي يقتصر على الدين الإسلامي الحنيف: «وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ» (٢).

والعبارة:

«وَاضْطَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ» تقال في الأمور التي يكون الشخص حاضراً وناظراً حين الإتيان بها وبعبارة أخرى تتم أمام عينيه. وأمّا بشأن الله فهي كناية عن نهايه عنايته ومراقبته له، قال القرآن الكريم بشأن موسى عليه السلام: «وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي» (٣).

والعبارة:

«أَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ» (بالنظر إلى عودہ الضمير في محبته إلى الله) إشاره إلى أنّ الإسلام بنى على المحبّه وهذه إحدى افتخاراتنا في أنّ ديننا بنى على أساس الحبّ، ولذلك جاء في الروايه:

«هَلِ الدِّينُ إِلَّا الْحُبُّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ:

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ» (٤).

وعلى هذا الضوء فإنّ أساس هذا الدين محبّه العباد لله من جانب، وحبّ الله للعباد من جانب آخر، ثمّ واصل كلامه بالإشاره إلى ست صفات أخرى فقال:

«أَذَلَّ الْأَذْيَانَ بِعِزَّتِهِ، وَوَضَعَ الْمِلَلَ بِرَفْعِهِ، وَأَهَانَ أَعْدَاءَهُ بِكِرَامَتِهِ، وَخَذَلَ مُحَادِّيَهُ (٥) بِبَصَرِهِ،

ص: ٥٢٤

١- (١). «اصطنع» من ماده «اصطناع» على وزن افتعال بمعنى التحضير والتنميه والتكبير لشيء.

٢- (٢) سورة آل عمران، الآية ٨٥.

٣- (٣) سورة طه، الآية ٣٩.

- ٤- (٤) بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ٢٣٧، ح ٥. والآيه الواردة في النص هي، الآيه ٣١ سورة آل عمران.
- ٥- (٥) . «محادى» من «محاده» بمعنى المخالفه والعداوه ومادته الأصلية «حدّ» التي تعنى نهايه وطرف كلّ شىء وذلك لأنّ العدو يكون فى الطرف الآخر. «محاده» بمعنى المخالفه (جدير ذكره أنّ «محادى» فى الأصل «محادين» اسم فاعل صيغته الجمع وحذفت النون للإضافه).

وَهَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلَالَةِ بِرُكْنِهِ. وَسَقَى مَنْ عَطَشَ مِنْ حَيَاضِهِ، وَأَتَأَقَ (١) الْحَيَاضَ بِمَوَاتِحِهِ (٢)».

والعبارتان:

«أَذَلَّ الْأَدْيَانَ بِعَزَّتِهِ، وَوَضَعَ الْمَلَلَ بِرَفْعِهِ...» (بالنظر إلى أن الضمير في العبارات يعود إلى الإسلام) إشارة إلى ما ورد في القرآن الكريم: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» (٣).

وجاء في الآية التي سبقتها: «يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» (٤).

وقد انتصر الإسلام على سائر الأديان في جبهتين؛ إحداهما الجبهة الظاهرية من الناحية السياسيّة والعسكريّة، والأخرى الجبهة الباطنية من حيث المنطق والدليل والبرهان، فقد أقام القرآن الكريم أقوى الأدلة لإثبات المعارف الدينيّة الحقّة التي تسوق كلّ منصف إلى تقبلها، وكما قال الإمام عليه السلام في عبارته المذكورة فقد سقى كلّ من عطش من معين فيضه وملاً حقول العلم والمعرفة بأدلتها وبراهينها.

ثم تطرق عليه السلام إلى سائر الامتيازات المهمّة التي اتّصف بها الإسلام ليركز بادئ ذي بدئ على خلود هذا الدين المقدّس، فأماط اللثام عن حقيقته هذا الخلود بثمان عبارات عميقة المعنى وبرسم صورته غايه في الوضوح والروعة فقال:

«ثُمَّ جَعَلَهُ لَمَّا انْفَصَى أُمَّ لِعُرْوَتِهِ، وَلَمَّا فَكَّ لِحَلْقَتِهِ، وَلَمَّا انْهَدَمَ لِأَسَاسِهِ، وَلَمَّا زَوَالَ لِتَدْعَائِمِهِ، وَلَمَّا انْقَلَعَ لِشَجَرَتِهِ، وَلَمَّا انْقَطَعَ لِمِידَتِهِ، وَلَمَّا عَفَاءَ (٥) لِشَرَائِعِهِ، وَلَمَّا جَدَّ لِفُرُوعِهِ».

ص: ٥٢٥

١- (١). «أتأق» من ماده «تأق» بمعنى الامتلاء وإن وردت في باب الأفعال عنت الملىء.

٢- (٢) «مواتح» جمع «ماتح» بمعنى من يسحب الماء من البئر.

٣- (٣) سورة الصف، الآية ٩.

٤- (٤) سورة الصف، الآية ٨.

٥- (٥) «عفاء» بمعنى القدم والاندراس وهي في الأصل من عفويه معنى صرف النظر عن شيء ولأنّ صرف النظر يؤدّي إلى قدم واندراس الشيء استخدمت هذه المفردة في عبارته الفوق.

وهو ذات الأمر الذي قال فيه القرآن بشأن النبي: «مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ» (١).

وقد نظمت أصول الإسلام وأركانها من جانب الحكيم بما يبعدها عن التزلزل مهما تقادم الزمان وقد تكهن بمتطلبات كل زمان ومكان في ظل أحكامه الثابتة والمتغيره (بتغير الموضوعات) وهذه الشموليه هي التي جعلته خالداً.

ثم خاض الإمام عليه السلام بعد فراغه من إثبات خلود الإسلام في بيان سائر صفاته من قبيل سهولته ووضوحه واستقامته ووضوح قوانين الدين من خلال ثمان عبارات فقال:

«وَلَا ضَنْكَ لَطَرْقِهِ، وَلَا- وَعُوْتَهُ (٣) لِسِيْهُوْلَتِهِ، وَلَا سَوَادَ لَوْضَحِهِ (٤)، وَلَا عَوَجَ لِانْتِصَابِهِ (٥)، وَلَا عَصَلَ (٦) فِي عُوْدِهِ، وَلَا وَعَثَ لِفَجِّهِ (٧)، وَلَا انْطِفَاءَ لِمَصَابِيحِهِ، وَلَا مَرَارَةَ لِحَلَاوَتِهِ».

والعبارة الأولى:

«وَلَا ضَنْكَ لَطَرْقِهِ» إشارة إلى ما ورد في الحديث النبوي الشريف

«بُعِثْتُ بِالْحَنَفِيَّةِ السَّهْلَةِ السَّمْحَةِ» (٨). الشريعة التي لا تختزن أي صعوبة أمام السالكين إلى الله وقوانينها سهلة مستساغة، ولما كان الإفراط في السهولة قد يؤدي إلى الضعف فقد قال في العبارة اللاحقة:

«وَلَا وَعُوْتَهُ لِسِيْهُوْلَتِهِ» أي أنّ هذه السهولة واليسر والسماحة للشريعة لا تسير نحو الإفراط قط، بل ضمن إطار الاعتدال، وتشير العبارة الثالثة إلى هذه الحقيقة في أنّ وضوح جاده الإسلام دائمى

ص: ٥٢٤

١- (١) سورة الأحزاب، الآية ٤٠.

٢- (٢) . «ضنك» بمعنى الضيق وهي تستخدم دائماً مفردة.

٣- (٣) «وعوته» بمعنى المشقة والعسر.

٤- (٤) «وضح» من ماده «وضوح» بمعنى الظهور والتبيان.

٥- (٥) . «انتصاب» من ماده «نصب» يعنى الوقوف.

٦- (٦) «عصل» بمعنى الاعوجاج.

٧- (٧) «فج» تعنى فى الأصل الوادى؛ أى الطريق الواسع بين جبلين. ثم اطلقت على الطرق العامه بصوره عامه.

٨- (٨) . ورد هذا الحديث فى العديد من كتب الشيعة والسنة منها فى المحصول للفخر الرازى ج ٥، ص ١٧٥، وشرح نهج

البلاغه لابن أبى الحديد، ج ١٥، ص ١٤٤؛ الكافى، ج ٥، ص ٤٩٤.

وليس ممّا يتخلله الظلام أحياناً والفارق بين العبارتين الرابعه والخامسه أنّ كليهما إشاره إلى استقامه الشريعه الإسلاميه وخلوها من الاعوجاج، في حين أنّ العبارة الرابعه أشارت إلى استقامه المسيره، بينما أشارت العبارة الخامسه إلى استقامه أعمده وأسس بناء هذا الصرح العظيم.

وتشير العبارة السادسة:

«وَلَا وَعَثَ لِفَجِّهِ» إلى أنّ سطح هذه الجاده محكم وراسخ والسير عليه سهل يسير، وليس من قبيل الطرق المليئه بالتراب والرمل والتي تغوص فيها أرجل السالك وبالتالى يصعب المشى والسير عليها.

وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ المراد بالعبارة السابعه

«وَلَا انْطَفَاءَ لِمَصَابِيحِهِ» هو وجود العلماء فى كلّ عصر وزمان حيث تلتطف الله بهؤلاء الأدلاء فى كل زمان والذين يضيئون الطريق لجميع السالكين، بينما ذهب البعض الآخر إلى أنّ المراد بهم الأئمه المعصومين عليهم السلام الذين لا تخلو الأرض منهم. كما يمكن أن تكون إشاره إلى مفهوم عام يشمل الأدله الواضحه وعلامات الحق وآثار العظمه فى كلّ عصر ومصر.

والعبارة الأخيره:

«وَلَمَّا مَرَّازَةً لِحَلَاوَتِهِ» إشاره إلى المراره التى تشوب العديد من حلوات الدنيا، وألتي تختتم بها، من قبيل المال والثروه والمقام والانتفاع باللذات التى عاده ماتستبطن القلق والإرباك؛ غير أنّ حلاوه الإسلام ممّا لا تشوبها مراره قط.

ولما فرغ الإمام عليه السلام من بيان خلود الإسلام وسهولة أحكامه أشار إلى قوته وإقتداره ليؤدى حقّ الكلام بسبع عبارات قصيره من خلال هذا الاستنتاج فقال:

«فَهُوَ دَعَائِمٌ أَسَاخٌ (١) فِي الْحَقِّ أَسْنَاخَهَا (٢)، وَتَبَّتْ لَهَا أَسَاسُهَا (٣)، وَيَنَابِيعُ غَزْرَتْ (٤)»

ص: ٥٢٧

١- (١). «أساخ» من ماده «سوخ» على وزن «صوت» بمعنى الغوص فى شىء ما وإن وردت فى باب الأفعال عنت الغوص والخوض.

٢- (٢) «أسناخ» جمع «سنخ» على وزن «صبر» بمعنى الأصل.

٣- (٣) «أساس» جمع «أساس» بمعنى عمود البناء.

٤- (٤) «غزرت» من ماده «غزاره» بمعنى الكثره.

عُيُونُهَا، وَمَصَابِيحُ شَبَّتْ نِيرَانُهَا؛ وَمَنَارٌ اقْتَدَى بِهَا سَفَارُهَا(١) ، وَأَعْلَامٌ قَصِدَ بِهَا فِجَاجُهَا، وَمَنَاهِلٌ رُوِيَ بِهَا وُرَادُهَا».

وعلى هذا الأساس فقد شبه الإسلام بقصر عظيم الأسس والدعائم وراسخ القوائم وإلى جانبه الحقول والبساتين والعيون المليئه بالمياه وقد يسر الوصول إليه من خلال ملء طريقه بالمصابيح فى الليالى المظلمه والعلامات الواضحه فى النهار، بحيث لا يعيش سالك هذا الطريق أى ضلال فى ليل أو نهار، كما شقت العيون فى ذلك الطريق لتروى ضما العطاشى المسافرين.

ويمكن أن تكون هذه الأسس والدعائم إشاره إلى ما ورد فى الحديث الشريف:

«بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسَةٍ؛ عَلَى الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ وَالْوَلَايَةِ وَلَمْ يُنَادَ بِشَيْءٍ كَمَا نُودِيَ بِالْوَلَايَةِ»(٢).

أما العيون التى أُشير إليها فى العبارة الثالثة فيمكن أن تكون إشاره إلى القرآن الكريم والسنة النبويه وائمه العصمه عليهم السلام والمصابيح والمنائر إشاره إلى ما ظهرت منهم عليهم السلام من إعجازات وكرامات، ومناهل الرى إشاره إلى علوم المعصومين عليهم السلام والتى تسقى الجميع.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشاره إلى ثلاث خصائص من خصائص الإسلام فقال:

«جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ مُنْتَهَى رِضْوَانِهِ، وَذِرْوَةَ دَعَائِمِهِ، وَسَنَامَ طَاعَتِهِ».

فالعبارة الأولى إشاره إلى ما ورد فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: «وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا»(٣).

كما يمكن أن تكون العبارة الثانية إشاره إلى الآيه الشريفه: «وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ

ص: ٥٢٨

١- (١). «سَفَارٌ» جمع «سافر» بمعنى المسافر.

٢- (٢) الكافى، ج ٢، ص ١٨، باب دعائم الإسلام، ح ١.

٣- (٣) سورة المائدة، الآيه ٣.

الإسلام ديناً فلن يُقبل منه» (١).

والعبارة الثالثة إشاره إلى الجهاد طبق بعض الروايات، فقد جاء عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال لأحد أصحابه:

«ألا أخبرك بأصل الإسلام وفرعهُ وذُورهُ سناميه».

قال: بلى! جعلت فداك. فقال عليه السلام:

«أما أصلهُ الصَّلَاةُ وفرعُهُ الزَّكَاةُ وذُورُهُ سناميه الجهاد» (٢).

ثم أشار عليه السلام في ختام هذا القسم إلى سبع صفات أخرى من صفات الإسلام بعبارات قصيرة وعميقه المعنى فقال:

«فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ وَثِيقُ الْأَرْكَانِ، رَفِيعُ الْبُنْيَانِ، مُنِيرُ الْبُرْهَانِ، مُضِيئُ النَّيِّرَانِ، عَزِيزُ السُّلْطَانِ، مُشْرِفُ الْمَنَارِ، مُعَوِّذُ الْمَنَارِ».

وتشير العبارة الأولى

«فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ...» إلى أن الإسلام بنى على أسس محكمة من الأدلة العقلية والمنطقية والمعجزات الواضحة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

كما تشير العبارة:

«رَفِيعُ الْبُنْيَانِ» إلى سعه وعظمه الخطط الإسلاميه التي تشمل جميع أصول وفروع حياه الناس الماديّه والمعنويّه.

والعبارة الثالثه:

«مُنِيرُ الْبُرْهَانِ» يمكن أن تكون إشاره إلى الأدله والبراهين التي تثبت حقايقه الدين الإسلامى الحنيف.

والعبارة الرابعه:

«مُضِيئُ النَّيِّرَانِ» بشأن العلوم والمعارف الحقه التي تنبع من الإسلام، كما جاء فى التاريخ: من أن الإسلام خلق حركه فى القرون الوسطى المظلمه ليحقق إنجازات وتطوراً هائلاً فى جميع العلوم البشريّه والتجريبية وقد صدر المسلمون من خلالها نتاجاتهم العلميه إلى جميع أكناف العالم وكان كما صرح بعض علماء الغرب بمنزله الشمعه التي أضاءت ظلمات القرون الوسطى لأوروبا.

ويمكن أن تكون العبارة الخامسه:

«عَزِيزُ السُّلْطَانِ» إشاره إلى منعه وإقتدار حاكميه الإسلام الذى لا يقهر، أو منعه أدلته وبراهينه القويه والمتقنه وحصانتها من الإنهيار.

- ١- (١) سورة آل عمران، الآية ٨٥.
- ٢- (٢) منهاج البراعة، ج ١٢، ص ٢٩٤.
- ٣- (٣) «معوز» من مادة «اعوزاز» بمعنى الازمه والقله.

والعبارة السادسة:

«مُسْتَرِفُ الْمَنَارِ» واستناداً إلى أنّ «منار» أعمده مرتفعه كانوا يضعون عليها المصابيح المضيئه لكي لا يضلّ المسافرون طريقهم في الصحارى والفلوات، وكلّما كان هذا المنار أرفع وأعلى كان أعظم هدايه وإرشاداً للآخرين - إشارة إلى أنّ هدى القرآن والإسلام على درجه من القوّه بحيث يدعو إليه جميع النّائين من مختلف البقاع.

والعبارة السابعة:

«مُعَوِّذُ الْمَنَارِ» بالنظر إلى أنّ «منار» مصدر ميمى وبمعنى الحمل على الحركة والإثارة والطرْد - فهي إشارة إلى أنّ أى قدره وقوّه لا يسعها مواجهه الإسلام الأصيل.

ثم أصدر عليه السلام أثر ذكره لهذه الصفات أربع وصايا تمثّل فى الواقع لوازم تلك الصفات فقال:

«فَشَرَّفُوهُ وَاتَّبِعُوهُ، وَأَدُّوا إِلَيْهِ حَقَّهُ، وَضَعُوهُ مَوَاضِعَهُ».

ومن البديهى أن يكون عظيماً من يتصف بهذه الصفات وعلى العاقل أن يعزه ويكرمه ولا بدّ من اتباع هذا الدين الذى يمتاز بهذه الأدله القويه والواضحه والائتمار بأوامره ويعطيه ما يستحقه من منزله بأن يجعله أسوه لحياته فى جميع شؤونه.

ص: ٥٣٠

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ حِينَ دَنَا مِنَ الدُّنْيَا الْإِنْقِطَاعُ، وَأَقْبَلَ مِنَ الْآخِرَةِ الْإِطْلَاقُ، وَأَظْلَمَتْ بِهِجْتِهَا بَعِيدَ إِشْرَاقٍ، وَقَامَتْ بِأَهْلِهَا عَلَى سَاقٍ، وَخَسَنَ مِنْهَا مَهَادٌ، وَأَزَفَ مِنْهَا قِيَادٌ، فِي انْقِطَاعٍ مِنْ مُيَدَّتِهَا، وَأَقْتِرَابٍ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَتَصَرُّمٍ مِنْ أَهْلِهَا، وَانْفِصَامٍ مِنْ حَلْقَتِهَا، وَانْتِشَارٍ مِنْ سَبَبِهَا، وَعَفَاءٍ مِنْ أَعْلَامِهَا، وَتَكْشُفٍ مِنْ عَوْرَاتِهَا، وَقِصْرٍ مِنْ طُولِهَا.

جَعَلَهُ اللَّهُ بَلَاغًا لِرِسَالَتِهِ، وَكَرَامَةً لِأُمَّتِهِ، وَرَبِيعًا لِأَهْلِ زَمَانِهِ، وَرَفَعَهُ لِأَعْوَانِهِ، وَشَرَفًا لِأَنْصَارِهِ.

الشرح والتفسير: ربيع الإسلام

بين الإمام عليه السلام في الفصل السابق ببحث رائع عظمه الإسلام وبعض خصائصه وامتيازاته من خلال عبارات عميقة وبلغه. ثم تطرق هنا بشأن من بعث بذلك الدين أي النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ولاسيما تلك الظروف المعقدة التي انبثقت في ظلها دعوته الشريفه. وسيتطرق في الفصل القادم إلى أهميته القرآن الكريم بصفته أهم معجزه للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله ودستور الشريعة الإسلاميه.

وركز في هذا الفصل - كما ورد انفاً - إلى الظروف المعقدة للعصر الجاهلي والفترة التي انطلقت فيها الدعوة الإسلاميه من خلال أربع عشره عباره قصيره وعميقه المعنى في كشف ملاسبات ذلك الزمان فقال:

«ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ

مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ حِينَ ذَنَا مِنَ الدُّنْيَا الْإِنْقِطَاعُ، وَأَقْبَلَ مِنَ الْآخِرَةِ الْإِطْلَاعُ (١)، وَأَظْلَمَتْ بِهَجَّتِهَا بَعْدَ إِشْرَاقِ، وَقَامَتْ بِأَهْلِهَا عَلَى سَاقِ (٢)».

وأضاف:

«وَحَشُنَ مِنْهَا مِهَادٌ (٣)، وَأَزَفَ (٤) مِنْهَا قِيَادٌ (٥)، فِي انْقِطَاعِ مِنْ مُدَّتِهَا، وَأَقْتَرَابِ مِنْ أَشْرَاطِهَا (٦)».

ثم قال:

«وَتَصَرَّمَ (٧) مِنْ أَهْلِهَا، وَأَنْفِصَامِ مِنْ حَلَقَتِهَا، وَأَنْتَشَارِ مِنْ سَبَبِهَا، وَعَفَاءَ (٨) مِنْ أَعْلَامِهَا، وَتَكَشَّفِ مِنْ عَوْرَاتِهَا، وَقِصْرِ مِنْ طُولِهَا».

وهذه العبارات الأربع عشرة تشير جميعاً إلى أنّ العالم آيل إلى الزوال، وأنا لنعيش أواخره. فالنعم والإمكانات والمواهب والاستعدادات في جميع الجوانب تسير نحو الفناء.

ثم قال عليه السلام:

«جَعَلَهُ اللَّهُ بَلَاغًا لِرِسَالَتِهِ، وَكَرَامَةً لِأُمَّتِهِ، وَرَبِيعًا لِأَهْلِ زَمَانِهِ، وَرَفْعَةً لِأَعْوَانِهِ، وَشَرَفًا لِأَنْصَارِهِ».

نعم! فهذا النبي العظيم صلى الله عليه وآله قد خلق ربيعاً مفعماً بالنضاره والحيويه آخر الدنيا وبلغ باتباعه قمة الفخر وذروه الانتصار وأغنى الجميع ببركه وجوده وأشرقت بطلعته تلك الشمس الساطعه فى ذلك الوسط المعتم.

ص: ٥٣٢

١- (١) «إِطْلَاعٌ» مِنْ مَادَةِ «طُلُوعٍ» بِمَعْنَى الظهور والإتيان والاشراف والعلم بشىء.

٢- (٢) «سَاقٌ» تَعْنَى فِي الْأَصْلِ سَاقِ الْإِنْسَانِ وَلِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَقِفُ عَلَى سَاقِهِ فِي الْأَعْمَالِ الصَّعْبَةِ وَالْمَعْقَدَةِ، لِذَا أَصْبَحَتْ هَذِهِ الْمَفْرَدَةُ كُنْيَاةً عَنِ الشَّدَّةِ وَالْمَشَقَّةِ.

٣- (٣). «مِهَادٌ» تَعْنَى فِي الْأَصْلِ الْفِرَاشَ، ثُمَّ أُطْلِقَتْ عَلَى الْأَرْضِ الْمُسْتَوِيَةِ بِصُورِهِ عَامَةً.

٤- (٤) «أَزَفٌ» مِنْ مَادَةِ «أَزُوفٌ» عَلَى وَزْنِ «وَقُوفٌ» بِمَعْنَى التَّقَرُّبِ.

٥- (٥) «قِيَادٌ» مِنْ «قَيْدٍ» تَعْنَى الْقَبْضَ وَ«قِيَادٌ» هُوَ الْحَبْلُ الَّذِي يُوَضَعُ حَوْلَ رِقْبَةِ الْحَيَوَانَاتِ وَالْعِبَارَةُ «أَزَفٌ مِنْهَا قِيَادٌ» تَعْنَى كَأَنَّهُمْ وَضَعُوا حَبْلًا حَوْلَ رِقْبَةِ الدُّنْيَا وَسَجَّوْهَا إِلَيْهِمْ.

٦- (٦) «أَشْرَاطٌ» جَمْعُ «شَرَطٌ» عَلَى وَزْنِ «شَرَفٌ» بِمَعْنَى الْعَلَامَةِ.

٧- (٧). «تَصَرَّمَ» مِنْ مَادَةِ «صَرَمٌ» عَلَى وَزْنِ «سَرَوٌ» بِمَعْنَى الْقَطْعِ وَ«تَصَرَّمَ» بِمَعْنَى الْإِنْتِهَاءِ.

٨- (٨) «عَفَاءٌ» تَسْتَعْمَلُ بِالْمَعْنَى الْمَصْدَرِي وَالْأَسْمَ الْمَصْدَرِي؛ يَعْنِي الزَّوَالَ وَالْإِضْمَحْلَالَ، وَاقْتَبَسَ الْعَفْوُ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى؛ لِأَنَّ الذُّنُوبَ تَضْمَحَلُّ عَلَى أَثَرِ الْعَفْوِ.

بالنظر إلى ما ورد سابقاً فإنَّ القسم الأعظم من هذه الدنيا قد مضى ولم يبق من عمرها سوى القليل، وهذا ما يستفاد بصورة جلية من الآيات القرآنيّه، فقد جاء في الآيه الشريفه الأولى من سوره الأنبياء: «اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ».

كما جاء في الآيه الأولى من سوره القمر: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ».

وفي الآيتين السادسة والسابعه من سوره المعارج: «إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً» وسائر الآيات.

وهنا يرد هذا السؤال: وكم هو عمر الدنيا ليقال ولّى شطرها الأعظم؟ لقد مضى ١٤ قرناً على الدعوة الإسلاميّه ويمكن أن تمضي قرون طويله أخرى، والحال لا نشعر بأثر على زوال الدنيا وبدايه القيامة.

وردت عدّه أقوال لشراح نهج البلاغه بهذا الشأن وكأنّهم بلغوا طريقاً مسدوداً وأخذ كلُّ يبيحث عن سبيل للخروج منه، وأعرب البعض الآخر بعد كثرة الكلام عن عجزه ورأى من الأنسب الصمت والسكوت.

والطريف في الأمر أنّ كلّ شارح ذكر شيئاً بشأن عمر الدنيا؛ فقليل ٥ آلاف سنه وقيل ٧ آلاف سنه وقيل ١٢ ألف سنه، بينما عدّها البعض الآخر أكثر من ذلك، والأعجب من ذلك أنّ البعض أضاف مقداراً من الشهور والأيام إلى ما ذكره من سنوات، ويبدو أنّ أحداً منهم لم يعزز كلامه بدليل معتبر بل مجرّد استناد الكلام إلى الحدس والظن؛ أو كإطلاق السهم في الليل كما يقولون. ونرى من الأفضل قبل أن نخوض في تعيين عمر الدنيا بالسنوات والأشهر والأيام؛ أن نتجه صوب الإجابة عن السؤال المذكور لنرى كيف أنّ ما تبقى من عمر الدنيا أقلّ ممّا تصرّم منها.

ذكرت هنا عدّه أجوبه والجواب الآتي يعدّ أفضلها.

فالعلم المعاصر وكذلك الروايات الإسلاميّه ترى للحياه البشريّه تاريخاً طويلاً

على الكره الأرضيّه وبمقارنته بما بقى من عمر الإنسان على وجه الأرض يمكن أن يكون قصيراً.

فقد جاء فى بعض الروايات:

«أوتظنون أنّ الله لم يخلق خلقاً غيركم، إنّ الله خلق ألف ألف آدم قبل آدمكم هذا»(١).

وعليه فليس هنالك من مشكله فى ما ورد فى هذه الخطبه وكذلك الإشارات التى تضمنتها مختلف الآيات القرآنيّه إلى هذه المسأله والتى تشير إلى قصر عمر ما تبقى من الدنيا.

والتفسير الآخر للعبارات المذكوره أنّ المراد من انقطاع الدنيا واقبال الآخره هو نهايه حياه الناس أو الأمم، لأنّ مدّه عمر الإنسان قصيره ولا يكاد يعيش فتره حتى يحلّ أجله.

ولو أمعنا النظر فى العبارات الأربع عشره المذكوره لرأينا أنّ هذا التفسير لا ينسجم مع تلك العبارات.

تأمل

ربيع النبوه

أشار الإمام عليه السلام فى ختام هذا القسم إلى الافتخار بخلق النّبى الأكرم صلى الله عليه وآله لاتباعه، ليعتبره بمنزله فصل الربيع لأهل زمانه وشرف ورفعه وعزّه أعوانه وأنصاره.

وإننا لندرك حقيقه هذه العبارات التى وردت فى الخطبه كلّما تأملنا تاريخ العصر الجاهلى ثم تلك النهضه والثوره العظيمه التى احدثتها البعثه النبويه الشريفه، فقد كان أعراب الجاهليه يعتبرون الإنسان فاقداً لأيه منزله اجتماعيّه وتاريخيّه تذكر، بينما حظى بمكانه قل نظيرها أو انعدم فى التاريخ البشرى فى ظلّ البعثه النبويه،

ص: ٥٣٤

١- (١) بحار الأنوار، ج ٥٤، ص ٣٣٦. وذكر المرحوم العلامة الطباطبائى فى الجزء الرابع من الميزان فى ذيل الآيه الأولى من سوره النساء بحث جامع.

فلم يكتف أتباع نبي الإسلام صلى الله عليه و آله من العرب والعجم بتشكيل تلك الحكومه الواسعه الأطراف آنذاك فى معظم مناطق العالم، بل بلغوا ذروه العلم والمعرفه والمدنيه ممّا جعل العلوم الإسلاميه فى خاتمه المطاف تعدّ بؤره وانطلاقه لتلك الثوره العلميه التى شهدتها أوربا فى العصر الحديث، ولو عاد المسلمون اليوم لأمجادهم السابقه وأحيوا تلك القيم الإسلاميه والمثل الدينيه لاحتلوا الصداره ثانيه فى المجالات العلميه والسياسيه والاقتصاديه.

ص: ٥٣٥

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُورًا لَاتُطْفَأُ مَصِيَابِيحُهُ، وَسِرَاجًا لِمَا يُحِبُّو تَوْقُدُهُ، وَبَحْرًا لَأَيُّدِرُكَ قَعْرُهُ، وَمِنْهَا جَأٌ لَأَيُّضِلُّ نَهْجُهُ، وَشُعَاعًا لَأَيُّظْلِمُ ضَوْؤُهُ، وَفُرْقَانًا لَأَيُّخَمِدُ بُرْهَانُهُ، وَتَبْيَانًا لَأَتَهْدِمُ أَرْكَانُهُ، وَشِفَاءً لَأَتُخَشَى أَسْقَامُهُ، وَعِزًّا لَأَتَهْرَمُ أَنْصَارُهُ، وَحَقًّا لَأَتُخَذَلُ أَعْوَانُهُ. فَهُوَ مَعْدِنُ الْإِيْمَانِ وَبُحْبُوحَتُهُ، وَيَنَابِيغُ الْعِلْمِ وَبُحُورُهُ، وَرِيَاضُ الْعَدْلِ وَعُمْدَرَانُهُ، وَأَثَافِيئُ الْإِسْلَامِ وَبُنْيَانُهُ، وَأَوْدِيَةُ الْحَقِّ وَغِيْطَانُهُ. وَبَحْرٌ لَأَيُنْزِفُهُ الْمُسَيِّتِزْفُونَ، وَعُيُونٌ لَأَيُنْضِجُ بِهَا الْمَيَاتِحُونَ وَمَنَاهِلٌ لَأَيُغِيْضُهَا الْوَارِدُونَ، وَمَنَازِلٌ لَأَيُضِلُّ نَهْجَهَا الْمُسَيِّفُونَ، وَأَعْلَامٌ لِمَا يَغْمَى عَنْهَا السَّائِرُونَ، وَآكَامٌ لَأَيُجُوزُ عَنْهَا الْقَاصِدُونَ.

جَعَلَهُ اللَّهُ رِيًّا لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ، وَرَبِيعًا لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ، وَمَحَاجٍ لَطُرُقِ الصُّلَحَاءِ، وَدَوَاءً لَيْسَ بَعِيدَهُ دَاءٌ، وَنُورًا لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ، وَحَبْلًا وَثِيْقًا عَزُوتُهُ، وَمَعْقَلًا مَنِيْعًا ذُرُوتُهُ، وَعِزًّا لِمَنْ تَوَلَّاهُ، وَسَلْمًا لِمَنْ دَخَلَهُ، وَهَيْدَى لِمَنْ اتَّكَمَ بِهِ، وَعُمْدَرًا لِمَنْ اتَّخَلَّهُ، وَبُرْهَانًا لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَشَاهِدًا لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ، وَفَلْجًا لِمَنْ حَاجَّ بِهِ، وَحَامِلًا لِمَنْ حَمَلَهُ، وَمَطِيَّةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّسَ، وَجُنَّةً لِمَنْ اسْتَتَلَّمَ. وَعِلْمًا لِمَنْ وَعَى، وَحَدِيثًا لِمَنْ رَوَى، وَحُكْمًا لِمَنْ قَضَى.

الشرح والتفسير: خصائص القرآن الكريم

كما قيل سابقاً فقد استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة البليغة بالحديث عن أهميته

التقوى، ثم شرح سبيل التقوى الذى يتمثل فى تبعيه هذا الدين الحنيف، وخاض فى المرحله التاليه فى أهميه الدعوه النبويه وحامل الرساله الإسلاميه، وتعرض فى القسم الأخير من الخطبه إلى خصائص وإمميزات القرآن معجزه النبي الخالده ودستور الشريعه الإسلاميه السمحاء، والذى يجدر ذكره أن الإمام عليه السلام أشار ب ٤٢ عباره قصيره وعميقه المعنى إلى ٤٢ إمتيازاً مهمّاً من امتيازات القرآن وشرح خصائصه بأسهاب بحيث لا يمكن تصور ما هو أفضل منه.

فتطرق فى البدايه إلى عشر فضائل وامتيازات فقال:

«ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُورًا لَا تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ، وَسِرَاجًا لَا يَخْبُو (١) تَوَقُّدُهُ، وَبَحْرًا لَا يُدْرِكُ قَعْرُهُ، وَمِنْهَاجًا (٢) لَا يُضِلُّ نَهْجُهُ، وَشُعَاعًا لَا يُظْلِمُ ضَوْؤُهُ، وَفُرْقَانًا لَا يَحْمَدُ بُرْهَانُهُ، وَتَيْمَانًا لَا تُهْدِمُ أَرْكَانُهُ، وَشِفَاءً لَا تُخْشَى أَسْقَامُهُ، وَعِزًّا لَا تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ، وَحَقًّا لَا تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ».

والعبارتان الأولى والثانية فى الواقع اقتباس من الآيات القرآنيه التى شبهت القرآن بالنور ومن ذلك الآيه ١٥ من سوره المائده: «قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ»، فالقرآن الكريم أضاء بنوره طرق الحياه المظلمه وكشف السبيل القويم من بين سبل الضلاله والحيره، وأرشد قوافل المجتمعات الإنسانيه فى صحارى وفلوات هذا العالم إلى هدفها المنشود ألا وهو سعادته الدارين الدنيا والآخره.

وتشير العباره الثالثه:

«وَبَحْرًا لَا يُدْرِكُ قَعْرُهُ» إلى الأسرار الخفيه ودقائق العلوم المودعه فى القرآن الكريم والتى تسمو على الأفكار ولا يبلغها سوى خاصه أولياء الله، وقد أشارت بعض الروايات الإسلاميه إلى بطون القرآن المتعدده.

والتعبير بالمنهاج الوارد فى العباره الرابعه بشأن القرآن الذى يعنى الطريق الواضح والمستقيم الذى لا يضل فيه السالكون إشاره إلى الأفراد الذين انتفعوا بهذا الطريق الواضح والصراط الإلهى المستقيم ولا يعتر بهم الضلال قط.

ص: ٥٣٨

١- (١). «يخبو» من مادّه «خبو» على وزن «سرو» بمعنى الانطفاء.

٢- (٢) «منهاج» تعنى الطريق الواسع الواضح و «نهج» تعنى السير فى مثل هذا الطريق.

كما تضمنت العبارة الخامسة: إشارة أخرى إلى نور القرآن حيث إن ضيائه خالد لا يزول أبداً كما وصف القرآن نفسه فقال: «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» (١).

وأشارت العبارة السادسة إلى نقطه مهمه أخرى وهي أن القرآن فرقان؛ أي حين يمتزج الحق بالباطل أحياناً، فما كان مطابقاً للقرآن فهو حق وما خالفه فهو باطل، وعليه فهو يفرق الحق عن الباطل، وقد ورد التعبير عن القرآن بالفرقان في الآية الأولى من سورة الفرقان إذ قالت: «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا» والأهم من كل ذلك أن هذه الصفة للقرآن لا تؤول إلى الخمود والانطفاء والاختفاء أبداً.

وفي العبارة السابعة شبه القرآن بالبناء الراسخ الأركان والأسس بحيث لا يهدم أبداً، وهذه إشارة إلى خلود التعاليم القرآنية (٢).

ويطالعنا تشبيه آخر في العبارة الثامنة؛ حيث شبه القرآن بالدواء الشافي الذي ليس بعده سقم، ذلك لأننا نعلم

«لَيْسَ مِنْ دَوَاءٍ إِلَّا وَيُهَيِّجُ دَاءً» (٣) فإن هنالك آثاراً مختلفه سلبية للدواء أحياناً، غير أن القرآن لا ينطوى سوى على المنافع والآثار الإيجابية.

وقد ورد التعبير بالشفاء عن القرآن في ذات القرآن في الآية ٥٧ من سورة يونس: «قَدْ جَاءَ تَكُفُّكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ».

وفي الآية ٨٢ من سورة الاسراء: «وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ».

حتى أنه ليستفاد من أغلب روايات المعصومين أن القرآن الكريم شفاء

ص: ٥٣٩

١- (١) سورة فصلت، الآية ٤٢.

٢- (٢) جاء في نسخه نهج البلاغه «لصبحي الصالح» «تبيان» بدل «بنيان»؛ ولكن ذكر مجموعه من الشراح كلمه «بنيان» وهي المتناسبه مع «لا تهدم أركانه».

٣- (٣) . الكافي، ج ٨، ص ٢٧٣، ح ٤٠٩.

للأمراض البدنيّه بالإضافه إلى الأمراض العقائديّه والأخلاقيّه، ومن تلك الروايات ما أكّدت على فائده سورة الحمد في علاج الأمراض البدنيّه.

وقد جاء تفسير سورة الحمد في العديد من الروايات، وكذلك في سائر التفاسير، ومنها تفسير كنز الدقائق، كما ذكر المرحوم الكليني في الجزء الثاني من كتابه أصول الكافي في باب فضل القرآن العديد من هذه الروايات الواردة بهذا الخصوص.

كما ورد الكلام في العبارتين التاسعه والعاشره من عبارات الخطبه في أنصار القرآن وأعوانه الذين كتبت لهم الغلبه على الأعداء دائماً فلا يعيشون الفشل والهزيمة.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشاره إلى احدى عشره فضيله أخرى بعبارات قصيره ومتتابعه، حيث شبه القرآن بالبحر والعين الصافيه والبناء المتقن والمعدن الثمين والمنهج الواضح فقال:

«فَهُوَ مَعِيدٌ الْإِيمَانِ وَبُحْبُوحَتُهُ (١) ، وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ وَبُحُورُهُ، وَرِيَاضُ (٢) الْعَدْلِ وَغُدْرَانُهُ (٣) ، وَأَثَافِي (٤) الْأَسْلَامِ وَبُئْيَانُهُ، وَأُودِيَهُ الْحَقِّ وَغِيْطَانُهُ (٥). وَبَحْرٌ لَمَّا يَنْزِفُهُ (٦) الْمُسْتَنْزِفُونَ، وَعُيُونٌ لَأَيْضَ بِهَا (٧) الْمَاتِحُونَ (٨) ، وَمَنَاهِلٌ لَا يُغِيْضُهَا (٩) الْوَارِدُونَ، وَمَنَائِلٌ لَا يَصِلُ نَهْجَهَا الْمَسَافِرُونَ، وَأَعْلَامٌ لَا يَعْمَى عَنْهَا

ص: ٥٤٠

١- (١) . «بحبوحه» بمعنى مركز ووسط كل شيء.

٢- (٢) . «رياض» جمع «روضه» بمعنى البستان.

٣- (٣) «عذران» جمع «عذير» بمعنى البركه والنهر وهى فى الأصل حفرة تتجمع فيها المياه من السيول.

٤- (٤) «أثافي» جمع «أثفيه» على وزن «أضحيه» من ماده «أثف» على وزن «أنف» بمعنى الثبات والاستقرار ويقال «أثفيه» للصحور الثابته التى يوضع عليها الإناء.

٥- (٥) . «غيطان» جمع «غيط» على وزن «زيد» بمعنى الشده والأرض الوسيعة.

٦- (٦) «ينزف» من ماده «نزف» على وزن «نظم» بمعنى اخراج الماء من شيء (و كذلك بمعنى أخذ الدم) ويقال «مستنزفون» لمن يخرجوا الماء من الحفره أو البئر بحيث ينفد.

٧- (٧) «ينضب» فى الأصل من ماده «نضوب» بمعنى غوص الماء فى الأرض وعبارته «لا ينضبها» أنّ الماء لا ينفذ تلك العيون.

٨- (٨) «ماتحون» جمع «ماتحه» من ماده «متح» على وزن «مدح» بمعنى سحب الماء من البئر أو العين.

٩- (٩) . «يعيض» من مادّه «غيض» على وزن «غيب» تعنى فى الأصل الغوص أو السحب (اللازم والمتعدى) وتعنى فى هذه العبارة التقليل.

العباره:

«مَعْدَنِ الْإِيمَانِ» إشاره إلى أَنَّ أدله المعارف الإسلاميه من التوحيد واثبات وجود الله حتى مسأله المعاد وإعجاز القرآن والولايه؛ إنَّما ذكرت جميعاً وبصوره واسعه فى القرآن الكريم وهى الأدله التى تشكل مصادر الأدله الأخرى، ذلك لأنَّ المعدن يطلق على المصدر والمنبع والمركز الأصلى للأشياء الثمينه.

كما ذكر هذا المطلب بتعبير آخر فى العباره الثانيه، اعتبر فيها القرآن عيناً فياضه وبحراً من العلم، بل عيون متدفقه وبحار يستطيع أهل الإيمان انتهال مختلف العلوم منها، وإننا لنعلم اليوم أنَّ مصدر علم الكلام والفقه والأخلاق وتاريخ الأنبياء وتاريخ الإسلام والعلوم الأخرى هو القرآن الكريم.

وأشار فى العباره الثالثه إلى مسأله مهمه أخرى ليصف فيها القرآن على أنه حدائق ورياض العدل وغدرانها ومنابعه، فقد خاطب القرآن الكريم جميع المؤمنين قائلاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ» (٢)؛ أى أنه لا يرى القيام بالعدل كافياً ويرى ضروره القيام بالقسط حيث القوام صيغه مبالغه وتأكيد، حتى أنه ليصرح بأنَّ العداوه والبغضاء والقرب والصدقه لا ينبغى أن تحول دون إجراء العداله: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ» (٣).

كما أوصى فى ذيل الآيه الأولى: بعدم التوانى فى إجراء العداله حتى تحت طائله إسناد الأب والأم والأقرباء.

جدير ذكره أنَّ الإمام عليه السلام شبه العداله بالروضه والغدير الذى يسقى الروضه، وبالطبع فإنَّ المجتمع الذى تطبق فيه العداله بمثابه جمال الحديقه والروضه والحركه والحيويه الناشئه من السقى الكافى، فى حين أنَّ المجتمع الذى يسوده الظلم

ص: ٥٤١

١- (١) «آكام» جمع «أكمه» على وزن «طلبه» بمعنى المرتفع الذى صنع من الصخر أو الرمل.

٢- (٢) . سورة النساء، الآيه ١٣٥.

٣- (٣) سورة المائده، الآيه ٨.

والتمييز الطبقي أشبه بالصحراء القاحله والمحرقه الخاليه من الماء والزرع.

والكلام فى العبارة الرابعه عن أساس وبنیان الإسلام الذى ورد فى القرآن الكريم، لأنّ «أثافى» و «بنیان» تعنى الأساس والجذور، وحسب روايه الإمام الباقر عليه السلام:

«بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسَةِ أَشْيَاءٍ؛ عَلَى الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَالصَّوْمِ وَالْوَلَايَةِ»^(١). ونعلم أنّ أصول هذه الفرائض وردت بصوره موسعه فى القرآن الكريم.

وجرى الكلام فى العبارة الخامسه عن الحقّ (الحقّ بمعناه الجامع الواسع الذى يشمل جميع الحقوق الإلهيّه والإنسانيّه والاجتماعيّه) حيث قال الإمام عليه السلام:
«وَأُوْدِيَهُ الْحَقُّ وَغِيْطَانُهُ».

وجرى الكلام فى العبارات السادسه والسابعه والثامنه عن عدم نفاذ المعارف والعلوم القرآنيّه التى لا تتناقض مهما اغترف منها، وتمد العلماء والباحثين والسالكين بالجديد من الحقائق حتى يوم القيامه، والدليل على ذلك واضح، فالقرآن كلام الله وكلام الله كذاته لا متناه، على غرار ما ورد عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«لَا تُحْصَى عَجَائِبُهُ وَلَا تُبْلَى غَرَائِبُهُ»^(٢).

ويحمل هذا الكلام رساله واضحه لجميع مفسرى القرآن وهى أن لا يتصوروا أنّ ما قالوه بشأن القرآن هو آخر الكلام وليس هنالك ما هو جديد غيره.

وجاء فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام بشأن من سأله عن القرآن الكريم، قائلاً: ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلاغضاضة؟ فقال عليه السلام:

«لَأنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْهُ لِزَمَانٍ دُونَ زَمَانٍ وَلَا لِنَاسٍ دُونَ نَاسٍ، فَهُوَ فِي كُلِّ زَمَانٍ جَدِيدٌ وَعِنْدَ كُلِّ قَوْمٍ غَضٌّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٣).

والعبارات التاسعه والعاشره والحاديه عشره إشاره إلى وضوح منهج القرآن

ص: ٥٤٢

١- (١) الكافى، ج ٢، ص ١٨، باب دعائم الإسلام.

٢- (٢) المصدر السابق، ص ٥٩٩.

٣- (٣) بحار الأنوار، ج ١٧، ص ٢١٣، ح ١٨.

وضمائه الهدى لسالكى هذا الطريق، فلا يضل من سلك ولا تخفى علاماته على من سار عليه كما لا تغيب عنهم منازل الآمنه.

ثم أشار عليه السلام فى مواصلته لذكر هذه الصفات الرفيعه للقرآن إلى خمس صفات أخرى فقال:

«جَعَلَهُ اللَّهُ رِيًّا (١) لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ، وَرَبِيعًا لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ، وَمَحَاجًّا (٢) لَطُرُقِ الصُّلَحَاءِ، وَدَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ، وَنُورًا لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ».

والعبارة الأولى:

«جَعَلَهُ اللَّهُ رِيًّا لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ» إشاره إلى أنّ كلّ عالم أكثر تعطشاً للعلم، ذلك لأنيّه ذاق طعم العلم والمعرفه، وبما أنّ علوم القرآن الكريم ومعارفه غايه فى السعه وليست محدوده فإنّ العلماء يستطيعون رى عطشهم العلمى بالقرآن.

جاء فى الكلمات القصار للإمام عليه السلام فى نهج البلاغه:

«مَنْهُوَمَانِ لَا يَشْبَعَانِ؛ طَالِبُ عِلْمٍ وَطَالِبُ دُنْيَا» (٣).

والعبارة الثانيه:

«وَرَبِيعًا لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ» إشاره إلى أنّ عالم الطبيعه يستأنف حياته فى فصل الربيع، فتظهر النباتات والأزهار والثمار، وللقرآن مثل هذا الأثر فى القلوب الواعيه، فأزهار الفضيله وثمار الإيمان اللذيذه والأخلاق والمعرفه وبالتالي القرب الإلهى إنّما يتيسر فى ظلّ القرآن الكريم.

واعتر القرآن فى العبارة الثالثه جاده واسعه وواضحه لسالكى الحقّ، لأنّ الصلحاء هم أولئك الذين يحثون الخطى فى السير والسلوك إلى الله وأنّ أفضل جاده وطريق يُمكنهم من بلوغ المقصد هى جاده القرآن الكريم.

وأشار فى العبارة الرابعه إلى نقطه جديده وهى أنّ الأدويه قد يكون لها أحياناً تأثير فى التسكين فقط، كما تكون أحياناً أخرى علاجاً مؤقتاً وثالثه علاجاً تاماً،

ص: ٥٤٣

١- (١). «رى» (بكسر الراء وفتحه) بمعنى الارتواء.

٢- (٢) «محاجّ» جمع «محجّه» بمعنى الطريق الواسع والواضح.

٣- (٣) نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمه ٤٥٧.

لكنها تستبطن عوارض سلبية وأمراضاً عرضية، أما القرآن فهو الدواء المنزه عن هذه الأمور فهو العلاج التام الخالي من العوارض السلبية، كما أشار في العبارة الخامسة إلى أمر جديد وهو أن أنوار عالم المادة تمتزج أحياناً بالظلمة (كالنور بين الطلوعين وبين الغروبين) وإن لم تخالطه ظلمة فإن له خسوفاً وكسوفاً أو غروباً وافولاً. أما نور القرآن فلا غروب ولا أفول فيه ولا خسوف ولا كسوف، لأنه ينبعث من نور علم الحق وليس هناك من سبيل إلى الظلمة: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...» (١).

ثم أشار عليه السلام إلى أربعة امتيازات أخرى من امتيازات القرآن فقال:

«وَحَبِلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ، وَمَعْقِلاً (٢) مَنِيعاً ذُرْوَتُهُ، وَعِزّاً لِمَنْ تَوَلَّاهُ، وَسَلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ».

فالإمام عليه السلام بيانه لهذه الصفات الأربع إنما شبه في الواقع سعادة الإنسان بالقلعة الحصينة الواقعة على سفح الجبل، وعلى سالكي هذا الطريق - على غرار متسلقى الجبال - أن يتمسكوا بحبال قويه مربوطه اعلى الجبل ويتمسكوا بعدة عروات وثيقه ليتمكنوا من الوصول إلى تلك القلعة وتلك القلعة في موضع لا يبلغها العدو وكل من دخلها كانت له قدره لا تقهر وعاش فيها سليماً معافى.

ومن هنا يفرز العدو الأصلي للإنسان هوى النفس والشيطان وعدم الاستقرار، ومن يستظل بالقرآن سيبلغ ذروه السلامه والسعاده والكرامه والأمن.

ثم أشار عليه السلام إلى خمس صفات منسجمات اخر من صفات القرآن فقال:

«وَهُدًى لِمَنْ اتَّخَذَهُ، وَعُذْراً لِمَنْ اتَّخَلَّه (٣)، وَبُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ، وَفَلْجاً (٤) لِمَنْ حَاجَّ بِهِ».

المراد من الهدى في العبارة الأولى واضح، والمراد من العذر في العبارة الثانية

ص: ٥٤٤

١- (١) سورة النور، الآية ٣٥.

٢- (٢) «معقل» بمعنى الملجأ والموضع من مادة «عقل» بمعنى المنع، لأن الملاجىء تقى الإنسان من الحوادث.

٣- (٣) . «انتحل» تعنى قبول مذهب ودين من ماده «نحل» على وزن «خرقه» تعنى الإيمان.

٤- (٤) «فلج» بمعنى الظفر والفوز.

يمكن أن يكون إتمام الحجّه، حيث أتمّ القرآن الحجّه على جميع الأفراد بشأن الإيمان والإتيان بالواجبات الإلهيّة، كما يمكن أن يكون إشاره إلى أنّ القرآن سيكون معذوراً أمام الله تعالى في القيامة، بمعنى كلّ من كان عمله وفق تعاليم القرآن سيكون معذوراً عند الله، ويبدو المعنى الثاني أصوب من الأوّل.

والعبارة:

«بُرْهَانًا لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ» إشاره إلى أنّ الإنسان لا يستطيع الاستدلال بالقرآن في عقائده وأعماله فحسب، بل البراهين القرآنيّه أفضل برهان في دحر حجّه المخالفين سواء في المبدأ والمعاد أو في الإرشادات الدنيويّه.

والعبارة:

«شَاهِدًا لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ» تأكيد أكثر على هذا المعنى إذ إنّ كلّ من جعل القرآن شاهده على خصمه كان أعظم شاهد له ونتيجه ذلك ما ورد في العبارة الخامسة من أنّ الاستدلال والاستشهاد بالقرآن سبب التغلب والانتصار على الخصم.

ثم قال الإمام عليه السلام في آخر سبع صفات اختتم بها هذه الخطبه:

«وَحَامِلًا لِمَنْ حَمَلَهُ، وَمَطِيئَةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ (١)، وَجُنَّةً لِمَنْ اسْتَلَامَ (٢)، وَعِلْمًا لِمَنْ وَعَى، وَحَدِيثًا لِمَنْ رَوَى، وَحُكْمًا لِمَنْ قَضَى».

فقد شبه المؤمن بالقرآن في العبارة الأولى والثانية بالشخص الذي ركب مركباً يحلق به إلى سماء السعاده.

واعبر القرآن في العبارة الثالثة وسام شرف لجميع الأفراد الذين جعلوه دلاله حياتهم، فأيات القرآن أفضل شعار وعلاماته ودلالاته أفضل العلامات والدلالات.

وعده في العبارة الرابعه كدرع يقى الإنسان مكاره الحوادث في مواجهته للأعداء، العدو والظاهري المخالف للإسلام والعدو الباطني، أي هوى النفس والعدو

ص: ٥٤٥

١- (١). «توسّم» من «وسم» على وزن «وصل» بمعنى نصب العلامه وتعنى أحياناً الجمال.

٢- (٢) «استلام» من ماده «لثم» على وزن «لعن» بمعنى التجميع والالتيام وتناسب شيئين و «استلام» تعنى لبس الآلات الحربيه والدروع، أي كما أنّهم قد ناسبوا بين أجسامهم ولبس هذه الأشياء.

الخفى أى الشيطان.

وأشار فى العبارات الخامسة والسادسه والسابعه إلى العلوم الحاصله من القرآن، ويمكن أن تكون العباره

«وَعِلْمًا لِمَنْ وَعَى» إشاره إلى استدلالات القرآن المنطقيه والعباره

«حَدِيثًا لِمَنْ رَوَى» إشاره إلى الأحاديث النقليه والأحاديث التى بلغتنا من جانب الوحي.

وأشار عليه السلام فى العباره الأخيره إلى تطبيقه العملى فى مسأله القضاء واصدار الأحكام، بناءً على أنّ القضاء فى العباره بمعنى الأحكام فى الخصومات، وإن كان القضاء يشمل الأحكام كافه، فهو إشاره إلى جميع الأحكام الفقيهيه والعقائديه.

تأملان

1. عظمه القرآن لدى أمير المؤمنين عليه السلام

ورد البحث بشأن عظمه القرآن فى عدّه خطب من نهج البلاغه، ولكن لم يرد أى بحث بهذه السعه والشموليته، وما ذكره الإمام عليه السلام فى هذه الخطبه (إثنا وأربعين امتيازاً للقرآن) من مطالب يمكن أن تجعل المراقب غير الواعى يظنها من قبيل الادعاء الذى يفتقر إلى الدليل، إلّا أنّ الدقه فى الآيات القرآنيه تفيد وجود العديد من الشواهد والأدله الكافيه على هذا الأمر.

فمثلاً حين عد الإمام عليه السلام القرآن معدن الإيمان ومصدر العلم فذلك لأنّ القرآن ذكر عدّه أدله بشأن أهم المسائل العقائديه أى المبدأ والمعاد بحيث فتح أبواب الإيمان بالله والمعاد بوجه كلّ إنسان منصف.

وبشأن مسأله معرفه الله، فهو يأخذ بيد الإنسان فى أعالي السماء وأعماق الأرض ليريه الحركه المنظمه لتعاقب الليل والنهار وحرکه الرياح(1)، وخلق أنواع

ص: ٥٤٦

١- (١). «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضْرِيحِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». (سوره البقره، الآيه ١٦٤).

وإن قال الإمام عليه السلام: إن القرآن سبب عزه المسلمين واقتدارهم فدليل ذلك وقد ورد في عدّه آيات قرآنيه في أنّه يدعو إلى وحده الكلمه وعدم التفرقه ويرى الإخوه هي رابطه المؤمنين ونتيجه ذلك عزّه المؤمنين في ظلّ عزّه الله (١).

كما أنّ جذور جميع المواضيع التي ذكرها الإمام عليه السلام بصفتها ٤٢ إمتيازاً للقرآن في هذا الجانب من الخطبه موجوده في القرآن الكريم، ولو جمعت لأصبحت كتاباً ضخماً، ولو عمل بهذه الأوامر والتعاليم لحصلت منها كلّ هذه الآثار.

٢. العلماء الأجانب والقرآن

إنّ عظمه القرآن لم تقتصر على الإشاده به بهذه الصفات العظيمه من قبل المسلمين وكبار العلماء الأعلام، بل أذعن لهذه العظمه حتى أولئك الأبعد الذين غاصوا في تأمل آيات هذا الكتاب السماوي فذكروا بعض العبارات الجديده بالتأمل والاهتمام.

كتب «آلبرماله» المورّخ والعالم الفرنسى المعروف في كتابه «التاريخ العام» حول القرآن:

«إنّ القرآن ممتاز بمعنى الكلمه، البديل عن سائر الكتب القيمه والذى يضم جميع العلوم (الإنسانيه) وهو الكتاب الذى يحتوى على التعاليم الدينيه والقوانين المدنيه المعاصره، ونسخه مرشده للقاضى وكمال تام للزعيم الروحانى» (٢).

وكتب «ويل ديورانت» العالم والفيلسوف المعروف المعاصر في كتابه تاريخ الحضاره:

«إنّ القرآن يخلق عقائد سهله وبعيده عن الغموض فى القلوب المتواضعه، منزّهه

ص: ٥٤٨

١- (١) «وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَمَّا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً». (سوره آل عمران، الآيه ١٠٣). «وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ». (المنافقون، الآيه ٨).

٢- (٢) ثقافه المستشرقين المسلمين، تأليف حسين عبداللهى خروش، ج ١، ص ١٥.

من طقوس العادات الهجينه ومن سنن الوثنيه والكهنه، وببركته بلغ المسلمون ذلك الرقى الأخلاقى والثقافى ورسخ بينهم النظم الاجتماعيه وأسس الوحده.

وأضاف: إنه حرّر عقولهم من العديد من الأوهام والخرافات والظلم والعنف وأكسبهم عزّه وكرامه، وقد غرس فى المجتمع الإسلامى حاله من الاعتدال والتقوى ليس لها مثيل فى أى من مناطق العالم التى قطنها الإنسان الأبيض...»(١).

وكتب «رولف لين تون» صاحب «سير الحضاره):

«لقد مهدت المدرسه القرآنيه سبيل الرقى والتطور لكل فرد مهما كان انتماءه، بحيث أمكن حتى لابن العبد أن يبلغ المقامات الرفيعه والعاليه فى المجتمع الإسلامى»(٢).

وقال البروفسور «درابرز اروب»::

«القرآن سلسله من الوصايا والتعاليم الأخلاقيه والذى يتكون من مفاهيم يقبلها الجميع. وهذه الوصايا والتعاليم بليغه وكامله وهى ضروريه ولازمه لتنظيم شؤون الناس»(٣).

وقال «جان ديون بورت» مؤلف كتاب «الاعتذار إلى القرآن ومحمد من التقصير»:

«إنّ القرآن منزّه عن كلّ عيب ونقص بحيث لا- يتطلب أدنى إصلاح، ولا- يشعر الإنسان بأى ملل إذا ما تصفحه من أوله إلى آخره»(٤).

وقال الشاعر الألماني المعروف والعالم «جيته»:

«لسنين طويله، أبعدا القساوسه عن فهم حقائق القرآن المقدس وعن عظمه النبى محمّد، ولكن كلما خطونا على طريق فهم العلم تنزاح من أمام أعيننا حُجُب

ص: ٥٤٩

١- (١) عصر الإيمان، القسم الثانى، الحضاره الإسلاميه، ص ٥٢.

٢- (٢) ثقافه المستشرقين المسلمين، ج ١، ص ١٥.

٣- (٣) المصدر السابق، ص ١٤.

٤- (٤) من مقدمه منظمات المدينه للإمبراطوريه الإسلاميه، ص ١١١.

الجهل والتعصب المقيت، وقريباً سيلفت هذا الكتاب الفريد أنظار العالم، ويصبح محور أفكار البشريه»(١).

ص: ٥٥٠

١- (١) التفسير الأمثل، ج ١، ذيل تفسير الآيه ٢٣ و ٢٤ من سوره البقره.

كان يُوصى به أصحابه (١)

نظرة إلى الخطبه

أوصى الإمام عليه السلام في هذه الخطبه بأربعة أمور مهمه من التكالييف الإسلاميه والتي تشكل جانباً من الخطبه.

فقد تطرق في القسم الأول إلى الصلاه وأهميتها وأشار إلى الإكثار منها والمحافظة على كفييتها ليعتبرها وسيله النجاه في الآخره وسبب التطهر من المعاصى فى الدنيا وغسل الروح والقلب من الرذائل الأخلاقيه، ثم ذكر باهتمام النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والمؤمنين بالصلاه.

وخاض فى القسم الثانى فى مسأله الزكاه التى تعدّ من أهم أركان الإيمان بعد الصلاه وعدّها من كفّارات الذنوب وحجاباً من نار جهنم، وأن أدائها مفخره عظيمه، وعرض بالذم لمن يغفل عنها.

ص: ٥٥١

١- (١) سند الخطبه: روى المرحوم الكلينى قبل السيد الرضى قسماً رئيسياً من هذا الكلام فى الكافى، كتاب الجهاد (الكافى، ج ٥، ص ٣٦). ولم يرد أكثر من هذه فى مصادر نهج البلاغه. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٨٥).

وانتقل في القسم الثالث إلى موضوع غايه في الأهميه والذي يتمثل بأداء الأمانه ليعتبر المؤمن سعيداً وخائن الأمانه مهزوماً وآيساً من رحمه الله وخاض في تفسير مختصر للآيه الشريفه: «أَنَا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ...» (١).

وتحدّث في القسم الرابع عن موضوع مهم يضمن إجراء جميع التكاليف والأحكام الإلهيه وهو مراقبه الله واحاطته العلميه بجميع أعمال الإنسان، وكذلك أعضاء الإنسان وجوارحه وضميره هي الأخرى مراقبه ومحيطه بأعماله.

وتفيد العبارة

«كَانَ يُوصَى بِهِ أَصْحَابُهُ» أَنَّ الْإِمَامَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَكْرُرُ هَذَا الْكَلَامَ كُلَّمَا سَنَحَتِ الْفُرْصَةُ لِيَحْذِرَ صَاحِبَهُ مِنْ خَطَرِهِ هَذِهِ الْأَصُولِ الْأَرْبَعَةَ الْمَهْمَةَ، وَيَجْدُرُ بِالسَّالِكِينَ لَخَطِّ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يُوَاصِلُوا وَيَنْفِذُوا هَذِهِ الْوَصَايَا وَيَتَوَاصَلُوا بَعْضُهُمُ الْبَعْضَ بِهَذِهِ الْمَبَادِئِ الْأَرْبَعَةَ الْمُنْجِيَةَ.

ص: ٥٥٢

١- (١) سورة الأحزاب، الآيه ٧٢.

تَعَاهِدُوا أَمْرَ الصَّلَاةِ، وَحِافِظُوا عَلَيْهَا، وَاسْتَكْبِرُوا مِنْهَا، وَتَقَرَّبُوا بِهَا، فَإِنَّهَا (كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا). أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى جَوَابِ أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا: (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ). وَإِنَّهَا لَتَحْتُ الذُّنُوبَ حَتَّى الْوَرَقِ، وَتُطَلِّقُهَا إِطْلَاقَ الرَّبِّقِ، وَشَجَّهَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْحَمَةِ تَكُونُ عَلَى بَابِ الرَّجْلِ، فَهِيَ يَغْتَسِلُ مِنْهَا فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ، فَمَا عَسَى أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ؟ وَقَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَا تَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاعٍ، وَلَا قُوَّةُ عَيْنٍ مِنْ وَلَدٍ وَلَا مَالٍ. يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: (رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ). وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَصَبًا بِالصَّلَاةِ بَعْدَ النَّبِيِّ لَهٗ بِالْجَنَّةِ، لِقَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)، فَكَانَ يَأْمُرُ بِهَا أَهْلَهُ وَيَصْبِرُ عَلَيْهَا نَفْسَهُ.

الشرح والتفسير: الأهمية القصوى للصلاة

أشار الإمام عليه السلام كما ذكرنا في مبحث «نظره إلى الخطبه» إلى أربعة أمور مهمه وأكد على أنها من الأركان، تتعلق ثلاث منها بفروع الدين (الصلاة والزكاة وحفظ وأداء الأمانه) والرابع من آثار أصول الدين وهو الإيمان بحضور الله في كل مكان وعلمه بمضمرة القلوب وأعمال الجوارح، وأشار في القسم الأول المتعلق بالصلاة إلى آثار الصلاة المعنويّة والتربويّة والعاقبه السيئه لتاركى الصلاة والمستخفين بها

وقد عرّف من خلال ذلك بالمصلّي الحقيقي فقال بادئ الأمر:

«تَعَاهَدُوا أَمْرَ الصَّلَاةِ، وَحَافِظُوا عَلَيْهَا، وَاسْتَكْتَرُوا مِنْهَا، وَتَقَرَّبُوا بِهَا، فَإِنَّهَا «كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا» (١)».

فقد تضمنت العبارة القصيره أربعة أوامر بشأن الصلاه هي: تعاهدها، والمحافظة عليها، والإكثار منها، والتقرب بها إلى الله.

والمراد من التعاهد المراقبه والإصلاح، ويطلق هذا التعبير على الشخص الذي يتفقد أملاكه ومزارعه ويجد ويجتهد في إصلاحها، وعليه فالعبارة المذكوره إشاره إلى مواصلة المذاكره بشأن واجبات الصلاه ومستحباتها ومكروهااتها، بحيث يكون كلّ يوم أفضل من سابقه في الصلاه.

والمراد من المحافظه ما أشير إليه في الآية ٢٣٨ من سوره البقره: «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ» والمتمثل بحفظها من الموانع والرياء والسمعه وامثال ذلك.

كما ذهب البعض إلى أنّ المراد حفظ أوقات كلّ صلاه وأدائها في وقت الفضيله.

ويشير التعبير «استكثروا» لما ورد في الحديث النبوي الشريف:

«الصَّلَاةُ خَيْرٌ مَوْضُوعٍ فَمَنْ شَاءَ اسْتَقَلَّ وَمَنْ شَاءَ اسْتَكْتَر» (٢).

كما ورد في الروايه:

«إِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الصَّلَاةُ وَالْبِرُّ وَالْجِهَادُ» (٣).

وقال في العبارة الرابعه التي تمثل في الواقع نتيجة للعبارات الثلاث السابقه:

«وَتَقَرَّبُوا بِهَا».

جاء في الحديث المروى عن الإمام على بن موسى الرضا عليهما السلام أنّه قال:

«الصَّلَاةُ

ص: ٥٥٤

١- (١) سوره النساء، الآية ١٠٣.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٧٩، ص ٣٠٨، ح ٩.

٣- (٣) وسائل الشيعه، ج ٣، باب ١٠، أبواب اعداد الفرائض، ح ٧.

ثم تطرق عليه السلام إلى الدليل على الوصايا الأربع بشأن الصلاة، فأشار إلى سبعة واستشهد ببعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فقال في البدايه: «إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا» (٢).

وقد ذكر المفسرون تفسيرين لهذه الآية فقالوا: إنَّ المراد من «موقوت» الوجوب حيث يستعمل هذا التعبير بدل الوجوب؛ والثاني إنَّه إشاره إلى أوقات الصلاة التي ينبغي مراقبتها بدقه من قبل المؤمنين فيأتون بكلِّ صلاه في وقتها.

ثم خاض في الدليل الثاني فقال عليه السلام:

«أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى جَوَابِ أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا: «مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ» (٣) * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ» (٤).

طبعاً أشير في مواصلة الآية الشريفه المذكوره إلى سائر الذنوب التي أدت إلى دخولهم النار من قبيل: عدم إطعام المسكين ومسايره أهل الباطل والتكذيب بيوم القيامة: «وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ» (٥)؛ إلماً أنَّ المهم هو أنَّ القرآن أشار إلى تقديم ترك الصلاة على كلِّ تلك الأمور، وهذه دلالة واضحة على أهميته الصلاة ودورها في سعادة الإنسان.

وهذه الآيات هي أدله واضحة على عقاب الكفار على ترك فروع الدين كتركهم لأصول الدين.

وقال الإمام عليه السلام في بيان الدليلين الثالث والرابع لإثبات أهميته الصلاة:

«وَأِنَّهَا

ص: ٥٥٥

١- (١) الكافي، ج ٣، ص ٢٦٥، ح ٦.

٢- (٢) سورة النساء، الآية ١٠٣.

٣- (٣) «سقر» في الأصل من «سقر» على وزن «فقر» بمعنى التغيير والتدوب وتغير اللون والأذى من أشعه الشمس ولأنها من آثار جهنم اطلق عليها «سقر». ويستفاد من بعض الروايات أنَّ «سقر» يطلق على قسم خاص من جهنم هو مكان المتكبرين.

٤- (٤) سورة المدثر، الآيتان ٤٢ و ٤٣.

٥- (٥) . سورة المدثر، الآيات ٤٤-٤٦.

لَتَحُتُّ الذُّنُوبَ حَتًّا (١) الْوَرَقِ، وَتُطْلَقُهَا إِطْلَاقَ الرَّبِقِ (٢)».

نعم؛ فكما أنّ الصلاة تحول دون الذنوب في المستقبل بمضمون الآية الشريفة:

«إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» (٣)، فَإِنَّهَا تَوْثِرُ مِثْلَ ذَلِكَ فِي الذُّنُوبِ السَّابِقَةِ عَنْ طَرِيقِ التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ إِلَى اللَّهِ وَالَّتِي تَعَدُّ الصَّلَاةَ مَصْدَرَهُ فَتَقْضِي عَلَى الْمَعَاصِي الَّتِي هِيَ كَالْقَيْدِ عَلَى رِقْبَةِ الْإِنْسَانِ وَتَصْدَهُ عَنِ الرَّقِيِّ وَالْكَمَالِ؛ وَتَحْرِرُهُ مِنْ تِلْكَ الْقَيْودِ.

روى عن سلمان الفارسي قال: كنت مع رسول الله إذ جلسنا عند شجره فهزها رسول الله فتساقطت أوراقها، ثم قال صلى الله عليه و آله:

«أَلَا تَسْأَلُونَنِي عَمَّا صَنَعْتُ؟» قالوا:

فأخبرنا يا رسول الله قال:

«إِنَّ الْعَبْدَ الْمُسْلِمَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ كَمَا تَحَاتَّتْ وَرَقَ هَذِهِ» (٤).

ثم استشهد الإمام عليه السلام في استدلاله الخامس بكلام رسول الله بشأن أهميته الصلاة فقال:

«وَشَبَّهَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْحَمَّةِ تَكُونُ عَلَى بَابِ الرَّجُلِ، فَهُوَ يَغْتَسِلُ مِنْهَا فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ، فَمَا عَسَى أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ (٥)؟» (٦).

ويتضح من خلال ما ورد في متن الخطبه من كلمه «الحمّه» (عين المياه الحاره التي يستفاد منها في علاج المرضي) أنّ الصلاة ليست كعين الماء العاديه، بل عين خاصه لها آثار عجيبه في القضاء على الأدناس، ولكن لابدّ من الالتفات إلى أنّ هذا

ص: ٥٥٦

١- (١) «حَتًّا» تعني في الأصل فصل الورقه عن الشجره، واطلقت فيما بعد على فصل الأشياء عن بعضها.

٢- (٢) «ربق» على وزن «عنب» جمع «ربق» على وزن «فعل» تعني الجبل الذي يتضمن عقد عديده وعندما يريد الشخص أن يضعها في صف يشدّ كلّ واحده بإحدى العقد.

٣- (٣) . سورة العنكبوت، الآية ٤٥.

٤- (٤) وسائل الشيعه، ج ٣، الباب ٣٢ من أبواب أعداد الفرائض، ح ٣.

٥- (٥) «درن» على وزن «لجن» بمعنى الوسخ والقذاره.

٦- (٦) نقل هذا الحديث المرحوم الشيخ الحرّ العاملي في وسائل الشيعه، ج ٣، الباب الثاني من أبواب أعداد الفرائض، ح ٣، مع هذا الفارق أنّه نقل بدل «حمّه» «نهر» و «النهر الجارى». وهذا المتن ورد في مسند أحمد، ج ١، ص ٧٢، طباعه دار الصادر بيروت وصحيح مسلم، ج ٢، ص ١٣٢، طباعه دار الفكر أيضاً.

التعبير حسب تحقيقنا وبحثنا إنما جاء فقط في كلام الإمام عليه السلام وفي هذه الخطبه.

ويمكن أن يكون هذا التأثير نابع من كون الصلاه تحيي في الإنسان روح التقوى وبمقتضى الآيه الشريفه: «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» فهي تصده عن الفحشاء والمنكرات في المستقبل وتدعوه بالطبع إلى التوبه بالنسبه لما سلف منه.

ثم واصل كلامه عليه السلام ليستدل في دليله السادس بآيه قرآنيه أخرى تكشف عن عظم منزله المصلين فقال:

«وَقَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَا تَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاعٍ، وَلَا قُرَّةُ عَيْنٍ مِنْ وَكْدٍ وَلَا مَالٌ. يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: «رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ» (١)».

جدير ذكره أن الآيه المذكوره وردت بعد آيه من تلك التي أعقت آيه النور في القرآن وجرى الحديث في الآيه التي سبقتها عن تلك البيوت الرفيعه التي أشرق فيها نور الله وانشغلت بتسييح الله ليل نهار والرجال الذين أشير إليهم في الآيه التي نحن بصدددها هم امناء نور الله الذين لم تستهوهم زخارف الحياه الدنيا أو تصدهم عن ذكر الله والإحسان إلى خلقه ومعونتهم.

وأخيراً أشار عليه السلام في آخر دليل على أهميه الصلاه إلى سيره النبي المقتبس من القرآن الكريم فقال:

«وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَصَبًا (٢) بِالصَّلَاةِ بَعْدَ التَّبَشِيرِ لَهُ بِالْجَنَّةِ، لِقَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا» (٣)

، فَكَانَ يَأْمُرُ بِهَا أَهْلَهُ وَيَصْبِرُ (٤) عَلَيْهَا نَفْسَهُ».

وتشير هذه الأدله السبعه التي ذكرها أمير المؤمنين على عليه السلام بشأن أهميه الصلاه والتي استلهمها من القرآن والسنة وعشرات الأدله الأخرى التي لم يكن عليه السلام في مقام

ص: ٥٥٧

١- (١) سورة النور، الآيه ٣٧.

٢- (٢) . «نصب» على وزن «خجل» بمعنى التعب (بكسر العين) والصفه المشبهه «نصب» على وزن «حسب» التعب.

٣- (٣) . سورة طه، الآيه ١٣٢.

٤- (٤) «يصبر» من «صبر» معروفه وهو غالباً ما يكون فعلاً- لازماً؛ ولكن يمكن أن يكون متعدياً أحياناً؛ أى اجبارهم على الصبر وهو المعنى المراد في العبارة.

التطرق إليها، تشير إلى مدى أهميته الصلاة وكونها جوهره ثمينه ومدى تأثيرها ودورها في تهذيب الإنسان وسعادته إلى جانب المخاطر التي يستبطنها الابتعاد عن الصلاة والحرمان من بركاتهما.

تأمل

دور الصلاة في تربيته الإنسان

الإنسان موجود رصيده النسيان؛ فهولا ينسى الآخرين فحسب، بل غالباً ما يعاني من نسيان ذاته، وهذا النسيان الذاتى من أعدى أعداء سعادته الإنسان.

وهناك عنصرا مهمان يسهمان في هذا النسيان الذاتى؛ الأول: المتطلبات الواقعية لحياته اليومية سيما في العصر الذى تعقدت فيه الحياه وكثرت مشاكلها، والثانى: الحاجات الكماليه والخياليه والظاهريه والمقرونه بالهوى وحب المال والجاه والشهوه، فهى أشبه بالمسافر الذى تطالعه على جانبى الطريق القصور الفخمه والشواهد الجميله التى تصده فجأه عن مساره الرئيسى وتقذف به إلى الهاويه.

ولعل أهم آثار الصلاة إيقاظ الإنسان من سباته ووضعها حداً لنسيانه، ذلك لأنه إن ذكر الله انقلب الوضع رأساً على عقب، فلسفه الصلاة حسب الآيه الشريفه: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي»^(١) هى ذكر الله والتى جاءت بعد الآيه الشريفه: «وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ»^(٢) والتى أعقبت هذه الآيه الشريفه: «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» تشير إلى أن الجذور الأصلية لفلسفه الصلاة إنما تكمن فى ذكر الله، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئه، وحب الدنيا هو الذى يصد الإنسان عن ذكر الله، كما ورد فى الآيه ٢٩ من سوره النجم: «فَأَعْرِضْ عَمَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا».

ص: ٥٥٨

١- (١) . سوره طه، الآيه ١٤.

٢- (٢) سوره العنكبوت، الآيه ٤٥.

وتفيد سائر الآيات القرآنية أن الشيطان إنما يطوف حول قلب الإنسان فإذا ما ذكر الله هرب منه: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ» (١).

وهذا هو دليل ما صرحت به الروايات الإسلامية من أن الصلاة عمود الدين وعين ماء صافيه، سيما إن أوتى بهذه الصلاة في جماعه وأقبل فيها المؤمنون زمراً على الله تبارك وتعالى، جاء في الحديث عن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله:

«مَنْ صَلَّى الصَّلَاةَ فِي جَمَاعَةٍ فَظَنُّوا بِهِ كُلَّ خَيْرٍ وَأَقْبَلُوا شَهَادَتَهُ» (٢).

ولو تأملنا مقدمات الصلاة (الطهارة والوضوء والغسل) التي تدعو الإنسان إلى طهاره الروح والبدن وسائر شرائطها من قبيل حليه لباس المصلى والتوجه إلى المسجد، أقدم مركز للتوحيد، وسائر الأركان ومضامين الآيات والأذكار والتعقيبات، فإنها تعمق فهم الإنسان لمدى أهميته هذه العباده العظيمه والاستثنائية، والذي يشير إلى مدى الدور الذي تلعبه الصلاة في تربيته الإنسان وإيصاله إلى القرب الإلهي والسير والسلوك المعنوي والعرفاني.

ص: ٥٥٩

١- (١) سورة الأعراف، الآية ٢٠١.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٨٥، ص ١٦.

ثُمَّ إِنَّ الزَّكَاةَ جُعِلَتْ مَعَ الصَّلَاةِ قُرْبَانًا لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَمَنْ أَعْطَاهَا طَيِّبَ النَّفْسِ بِهَا، فَإِنَّهَا تُجْعَلُ لَهُ كَفَّارَةً، وَمِنَ النَّارِ حِجَازًا وَوَقَايَةً. فَلَا يُتْبَعَنَّهَا أَحَدٌ نَفْسَهُ، وَلَمَّا يُكْتَرَنَ عَلَيْهَا لَهْفُهُ، فَإِنَّ مَنْ أَعْطَاهَا غَيْرَ طَيِّبِ النَّفْسِ بِهَا، يَرْجُو بِهَا مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا، فَهُوَ جَاهِلٌ بِالسُّنَنِ، مَغْبُونٌ الْأَجْرِ، ضَالُّ الْعَمَلِ، طَوِيلُ النَّدَمِ.

الشرح والتفسير: بركات الزكاة

كما أشير في مستهل الخطبه أن الإمام عليه السلام أشار فيها إلى أربعة أمور غايه في الأهميه كان أولها الصلاه وقد مر بحثها بصوره وافيته، والأمر الثاني الزكاة حيث قال عليه السلام:

«ثُمَّ إِنَّ الزَّكَاةَ جُعِلَتْ مَعَ الصَّلَاةِ قُرْبَانًا لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ».

و «القربان»: هنا يعنى ما يوجب التقرب إلى الله تعالى ونعلم أن الصلاه هى رابطه الخالق بالخلق والزكاة رابطه الخلق بسائر عباد الله والتي تعدّ نوعاً من الإرتباط بالله. جدير ذكره أن الصلاه والزكاة ذكرتا مع بعضهما فى سبع وثلاثين آيه من الآيات القرآنيه، وهذا يدل على أنّهما لازم وملزوم فى تحقيق سعادته الفرد والمجتمع.

ثم عدد الإمام عليه السلام بعض الآثار المهمه للزكاة وشرائطها فقال:

«فَمَنْ أَعْطَاهَا طَيِّبَ النَّفْسِ بِهَا، فَإِنَّهَا تُجْعَلُ لَهُ كَفَّارَةً، وَمِنَ النَّارِ حِجَازًا وَوَقَايَةً».

فالشرط الأول لقبول الزكاة حسب ما ذكر الإمام عليه السلام فى هذه العبارة أن تؤدى

عن طيب نفس ورغبه وبصفتها إمتثال لأمر الله ونيل رضاه لتتطوى في ظل هذه الحاله على أثرين مهمين؛ أحدهما أنّها كفّاره للذنوب السابقه، والآخر حجاب من نار جهنم.

طبعاً، من يؤدّي الزكاه مكرهاً ولا يسعه طرح حبّ المال من قلبه يكون قد أدّى التكليف، ولكن لا حظ له من بر كاتها المعنويّه والروحيّه والأخلاقيّه.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أَرْضُ الْقِيَامَةِ نَارٌ مَا خَلَا ظِلُّ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّ صَدَقَتَهُ تُظِلُّهُ» (١).

وقد صرّح القرآن بأنّ إحدى صفات المنافق أنّه إن انفق شيئاً إنّما ينفقه كراهه ولذلك فهو لا يحظى بقبول الله تعالى: «وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ... وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ» (٢).

ثم خالص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة فقال:

«فَلَا يُتَبَعَنَّ أَحَدٌ نَفْسَهُ، وَلَا يُكْتَبَرَنَّ عَلَيْهَا لَهْفُهُ» (٣).

نعم! فالناس صنفان؛ صنف يؤدّي زكاته وسائر صدقاته في سبيل الله بمنتهى الرضا، وليس له هم سوى الفوز برضا الله دون توقع أدنى شكر أو جزاء ممن يأخذ الزكاه والصدقه «إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لِاتْرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً» (٤)؛ أمّا الصنف التالى فذلك الذى يكون أداء الزكاه عنده كحاله الاحتضار، وهولا ينفك يعيش حاله من القلق، ليقول على الدوام: كم كان ثمين ذلك المال الذى زكيت وكم جهدت من أجل الحصول عليه، ولو كان عندى اليوم لفعلت به كذا وكذا، فهذا الصنف مصداق لما ذكره الإمام عليه السلام فى العبارة المذكوره، ولا بدّ أن نرى هنا كيف يبيّن الإمام عليه السلام الآثار السلبيّه لذلك، فقال:

«فَإِنَّ مَنْ أَعْطَاهَا غَيْرَ طَيْبِ النَّفْسِ بِهَا، يَرْجُوبُهَا مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا، فَهُوَ جَاهِلٌ بِالسُّنَنِ، مَغْبُونٌ الْأَجْرِ، ضَالٌّ الْعَمَلِ، طَوِيلُ النَّدَمِ».

ص: ٥٦٢

١- (١) الكافى، ج ٤، ص ٣، ح ٦.

٢- (٢) سورة التوبه، الآيه ٥٤.

٣- (٣) «لهف» بمعنى التأسف والندم والحزن.

٤- (٤) . سورة الدهر، الآيه ٩.

ذهب بعض شراح نهج البلاغه في تفسيرهم لهذه العبارة

«يَرْجُو بِهَا مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا»: إلى أنّ المراد أنّ الإنسان المؤمن لا يتوقع حتى بركة المال والحصول على المزيد من النعم في أدائه للزكاة وسائر القربات، بل هدفه رضا الله، إلّا أنّ هذا التفسير لا يبدو منسجماً مع العبارة

«جاهلٌ بالسُّنَّةِ» و

«ضَالُّ الْعَمَلِ»، ذلك لأنّ الاستفادة من الروايات الإسلاميّة أنّ انتظار الفضل الإلهي والعناية ليس ممنوعاً في هذه الموارد، بل مرغوب فيه.

فقد جاء في الرواية أنّه يستحب التوجه لله وطلب سعة الرزق حين الحاجة عن طريق التصديق (١) وقد قال القرآن بهذا الخصوص: «يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزْبِئُ الصَّدَقَاتِ» (٢).

إلّا أنّ التفسير الثاني الذي يمكن قوله بشأن هذه العبارة والذي ينسجم مع سائر العبارات، الأوّل أنّ هذه العبارة استمرار للعبارة

«غَيْرَ طَيِّبِ النَّفْسِ بِهَا»؛ أي أنّه لا يُعطى الزكاة عن نفس طيّبه ولا يأمل بما هو أفضل منها، ومن الطبيعي أنّ مثل هذا الشخص قد عمل خلاف السنه وانحدر إلى الضلال. والآخر أنّ المراد الشخص الذي لا يعيش الرضا الباطني حين أداء الزكاة ويطلب من الله ما هو أفضل منها، فهو شخص خاطئ وجاهل بالسنه.

تأمل

الزكاة؛ ركن مهم في المجتمع الإسلامي

الزكاة من أهم الفرائض بعد الصلاة؛ فالكلام في الصلاة عن الرابطة بالخالق، وفي الزكاة عن الرابطة بخلق الله. والواقع أنّ صدق الإنسان وجديته في موضوع الإرتباط بالخالق إنّما يثبت حين تكون رابطة قويه بالخلق، فيحيط بمشاكلهم

ص: ٥٦٣

١- (١). «إِذَا أُمْلَقْتُمْ فَتَاجِرُوا اللَّهَ بِالصَّدَقَةِ» (نهج البلاغه، الكلمات القصار، الكلمة ٢٥٨).

٢- (٢) سورة البقره، الآية ٢٧٦.

ويسعى لحلها ويعبر عن مواساته للمحتاجين والمساكين والمحرومين ويسعى بكل ما أوتى من قوه لمساعدتهم، وبالطبع فإن أهم مظاهر ذلك هو أداء الزكاه، ومن هنا وكما أشير سابقاً فقد ذكرت الزكاه إلى جنب الصلاه فى ٣٧ آيه من الآيات القرآنيه.

من جانب آخر فإن التمايز الطبقي يعدّ من أخطر الظواهر الاجتماعيه فى أن تكون هناك طبقه مرفهه مهيمنه على كل شىء وأخرى محرومه تفتقر إلى أبسط المقومات الأساسيه للحياه، الأمر الذى يترك آثاره السلبيه على هذه الطبقة المعدمه، كما تعاني الطبقة المرفهه من بعض الضغوط بفعل ردود الفعل التى تمارسها تلك الطبقة وهذا ما يؤدى بالتالى إلى سلب الأمن عن المجتمع.

قال القرآن الكريم فى الآيه ١٩٥ من سوره البقره: «وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» والمراد إذا أردتم النجاه من الهلكه فلا تنسوا الانفاق فى سبيل الله.

وهى الحقيقه التى وردت إشاره لطيفه إليها فى كلام أمير المؤمنين عليه السلام، حيث قال بعد تصنيفه أبناء المجتمع إلى عالم وجاهل وغنى وفقير:

«وَإِذَا بَحَلَ الْعَنِيُّ بِمَعْرُوفِهِ بَاعَ الْفَقِيرُ آخِرَتَهُ بِسُدِّيَّاهُ» أى حين يبخل الأغنياء بالفضل على الفقراء والمحرومين فإن هؤلاء المحرومين يبيعون آخرتهم بدنياهم وبالتالى يثرون ويحطمون جميع القوانين الاجتماعيه.

ومن جانب ثالث هنالك الصفات الرذيله بالفعل وبالقوه فى أغلب الأفراد التى لا يمكن استئصالها إلّا بأداء الزكاه، قال القرآن الكريم: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا...» (١).

نعم! هنالك تأثيرات عظيمه لأداء الزكاه فى تهذيب النفس وتهذيب صفاته الإنسانيه.

ص: ٥٦٤

ثُمَّ أَدَاءَ الْأَمَانَةِ، فَقَدْ خَابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا. إِنَّهَا عُرِضَتْ عَلَى السَّمَاوَاتِ الْمَنِيَّةِ، وَالْأَرْضِ بَيْنَ الْمَدْحُورِ، وَالْجِبَالِ ذَاتِ الطُّوْلِ الْمَنْصُوبِ فَلَا أَطُولَ وَلَمَّا أَعْرَضَ، وَلَمَّا أَعْلَى وَلَمَّا أَعْظَمَ مِنْهَا. وَلَوْامْتَنَعَ شَيْءٌ بِطُولِ أَوْعَرْضِ أَوْقُوهِ أَوْعِزُّ لَامْتَنَعَنَ؛ وَلَكِنْ أَشْفَقَنَ مِنَ الْعُقُوبِ، وَعَقَلَنَ مَا جِهَلَ مَنْ هُوَ أضعْفُ مِنْهُنَّ، وَهُوَ الْإِنْسَانُ، (إِنَّهُ كَانَ ظُلُومًا جَهُولًا).

الشرح والتفسير: أداء الأمانة

طرح الإمام عليه السلام في القسم الثالث من الخطبه - بعد بيان أهميته الصلاه والزكاه - مسأله أخرى غايه في الأهميه هي «أداء الأمانة». والأمانة إن لم تؤدى فقدت سائر المشاريع الإسلاميه أثرها ومعطياتها، فقال:

«ثُمَّ أَدَاءَ الْأَمَانَةِ، فَقَدْ خَابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا».

وقد اختلف شراح نهج البلاغه في المراد (بأداء الأمانة) الوارد في هذه العبارة؛ فقد ضيقه البعض ليراه يعنى الولاية والإمامه أو ما شابه ذلك، والحال أن مجيء أداء الأمانة بعد الصلاه والزكاه يفيد أن المراد به مفهوم عام وشامل، ذلك لأن أداء الأمانة أساس ودعامه جميع الأنشطة الاجتماعيه والإيجابيه بحيث لو تسللت الخيانه إلى أداء الأمانة لانعدمت الثقة بين الجميع ولزال التعاون الاجتماعى ولساد سوء الظن بين الناس مما يؤدى إلى إرباك المجتمع، ولذلك جاء في الروايه أن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَى

كما ورد في الحديث النبوي الشريف:

«الْأَمَانَةُ تَجْلِبُ الْغِنَى وَالْخِيَانَةُ تَجْلِبُ الْفَقْرَ» (٢).

جدير ذكره أن للأمانة معنيين؛ معنى خاص يشمل أمانات الناس المالية التي يستودعها بعضهم البعض الآخر وحفظها من أوجب الواجبات، ومعنى عام يشمل جميع المسؤوليات الإلهية، وعلى هذا الأساس فإنَّ عمرنا وأولادنا وبلدنا ومراكزنا الاجتماعية والحكومات الإلهية كلها أمانات أودعت لدينا ولا ينبغي خيانتها.

والمفهوم العام يشمل أمانات الناس المادية وكذلك الأمانات الإلهية والمعنوية وحفظها من أركان الدين كما أشار الإمام عليه السلام إليها بعد الصلاة والزكاة، وتفيد العبارات اللاحقة بعدها إلى أن الهدف من ذكر الأمانة هنا هو المفهوم العام، ذلك لأنَّ الإمام عليه السلام قال عقب هذه العبارة:

«إِنَّهَا عُرِضَتْ عَلَى السَّمَاوَاتِ الْمُبَيَّنَةِ (٣)، وَالْأَرْضِينَ الْمَدْحُورَةِ (٤)، وَالْجِبَالِ ذَاتِ الطُّوْلِ الْمَنْصُوبَةِ، فَلَا أَطُولَ وَلَا أَعْرَضَ، وَلَا أَعْلَى وَلَا أَعْظَمَ مِنْهَا».

ثم قال عليه السلام:

«وَلَوْ ائْتَنَعَ شَيْءٌ بِطُولٍ أَوْ عَرْضٍ أَوْ قُوَّةٍ أَوْ عِزٍّ لَأَمْتَنَعَ؛ وَلَكِنْ أَشْفَقْنَا مِنَ الْعُقُوبَةِ، وَعَقَلْنَا مَا جَهَلْنَا مِنْ هُوَا ضَعْفٍ مِنْهُمْ، وَهُوَ الْإِنْسَانُ، إِنَّهُ كَانَ ظُلُومًا جَهُولًا».

هذا الكلام إشاره لما ورد في الآية ٧٢ من سورة الأحزاب: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا».

ص: ٥٦٦

١- (١) الكافي، ج ٢، ص ١٠٤.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١١٤.

٣- (٣). «مبيته» من مادة «بناء» ولأنَّ وجود البناء في تركيب السماء والأرض أمر بديهي فلذلك أشارت هذه المفردة إلى مفهوم أهم وهو الارتفاع والعظمة في البناء.

٤- (٤). «مدحوه» من مادة «دحو» على وزن «محو» أى البسط والمراد من «دحو الأرض» هو أنه في بادئ الأمر - كما تؤكد علوم الأرض - كانت الأرض مغطاه من قبل الأمطار والفيضانات، ثم تجمعت هذه المياه في أخاديد الأرض وظهرت اليابسه من تحت الماء فأصبحت الأرض مهيبته لسكن.

١. نقطه مهمه

هنالك نقطه مهمه في هذه الآيه الشريفه: وهى: ما المراد بهذه الأمانه الإلهيه التى بلغت هذا القدر من الثقل بحيث عجزت عن حملها السماوات والأرض والجبال؟

وقد ذهب أغلب المفسرين إلى أنّ المراد بها التكاليف الشرعيه والأوامر والنواهي والإيمان ومنها ولايه المعصومين عليهم السلام وأنّ عدم تحملها من قبل السماء والأرض والجبال دليل على عدم استعدادها لقبول هذه المسؤوليه، وعليه فعرض هذه التكاليف الإلهيه عليها كان بلسان الحال، رغم ما ذهب إليه البعض من أنّ الله أفاض عليها آنذاك ما يكفيها من العقل والشعور لتخاطب بذلك الخطاب، ولكن على كلّ حال فقد حملها وقبلها الإنسان بفضل ما أودع من استعداد ربّانى شامل.

حقاً أنّ هذا لوسام شرف عظيم للإنسان لأنّ يخاطب بأوامر الله ونواهيهِ ولذلك فهو يحتفل فى اليوم الذى يبلغ فيه التكليف.

وعلى هذا الضوء فسر «الظلم والجهول» بعاقبه العمل، أى أنه لم يكن ظلوماً فى قبول هذه الأمانه بل ظلم نفسه فى أداء حقها ولم يلتفت إلى قدر نفسه ومقامه وكان جاهلاً به.

فهذا أوضح تفسير يمكن ذكره للآيه الشريفه، لكنه لا ينسجم مع ما ورد فى الخطبه التى نحن بصددنا من جهتين، الأولى: إنّ السماوات والأرض والجبال إنّما لم تتحمل هذه الأمانه بسبب ما هى عليه من عقل وفطنه، والثانيه: إنّ الإنسان كان أضعف منها وقد ظلم نفسه إثر جهله وحمل تلك الأمانه، ومن هنا فإنّ النهوض بهذه الأمانه والتكليف يعد نقطه ضعف فى الإنسان، وعدم قبولها من قبل السماوات والأرض يعد نقطه قوه لها.

وهذا المعنى وبغض النظر عن عدم انسجامه مع الآيه الشريفه، فهو لا- يتفق أيضاً مع سائر الآيات القرآنيه، فالله جعل الإنسان أفضل خلقه فقال: «لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...»

وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً» (١) وقد أمر جميع ملائكته بالسجود له وجعله خليفته في أرضه وقال بحقه: «أُنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» (٢). فهل يمكن أن يقال بعد كل هذه الافتخارات إن الإنسان أضعف واحط من الجمادات كالأرض والسماء والجيال؟!!

حقاً إن هذه مسأله معقده ولا يبدو من السهل الجمع بين مضمون هذه الخطبه وما جاء في الآيه الشريفه، ولم يتجه شراح نهج البلاغه صوب حل هذه المشكله، والحل الوحيد هو أن نعتبر الآيه قضيه كلييه ونحمل كلام الإمام عليه السلام على قضيه جزئيه فنقول: إن الإمام عليه السلام تطرق إلى فته من الناس، فته بحكم الآيه الشريفه:

«أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ» (٣) ممن ليس لهم حظ من عقل ومعرفه ويعيشون في دوامه من الجهل والغرور والغفله واتباع الهوى الذى تسلل إلى أفكارهم فكان قبول هذه الأمانه سبب بؤسهم وشقائهم بدلاً من أن يكون أساس إعترازهم وفخرهم؛ ولعلنا نلمس شبيه ذلك فى القرآن الكريم بشأن المنافقين ومرضى القلوب: «وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ» (٤).

ومن هنا يجدر بالباحثين التركيز والتعمق فى هذه المسأله.

٢. أفضل علامات الإيمان

إن حفظ الأمانه، سواء بالمعنى الخاص الذى يعنى حفظ ثروات الآخرين المالىه، أو بمعناها العام فى حفظ وصون المسؤوليات الإلهيه والمعنويه والماديه

ص: ٥٦٨

١- (١) . سورة الإسراء، الآيه ٧٠.

٢- (٢) . سورة البقره، الآيه ٣٠.

٣- (٣) . سورة الأعراف، الآيه ١٧٩.

٤- (٤) سورة التوبه، الآيتان ١٢٤ و ١٢٥.

والفردية والاجتماعية، لمن المبادئ الأساسية لجميع الأنبياء عليهم السلام، والدليل على ذلك الحديث النبوي الشريف:

«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ».

وحفظ هذه الأمانة على درجة من والعظمة بحيث أبت حمله تلك السماوات المرفوعة والجبال الشامخة، وحملها الإنسان أشرف مخلوقات الله بما أفاض الله عليه من استعداد، وقد صانها وحملها الأنبياء والأولياء ومن سار على دربهم ليفوزوا بهذا الشرف، رغم عدم أداء تلك الأمانة من قبل طائفة جاحده من الظلمة والجهال، والنقطة المهمة هي أن المصادر الإسلامية ذكرت المزيد من الحقوق للمسلمين بالنسبة لبعضهم البعض الآخر؛ إلا أن حفظ الأمانة أهمها جميعاً والتي تعتبر جزءاً من حقوق الإنسان. ومن هنا جاء في الرواية الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام أن أحد وصاياه كانت بهذا الخصوص:

«إِعْلَمَنَّ أَنَّ ضَارِبَ عَلِيٍّ بِالسَّيْفِ وَقَاتِلَهُ لَوْ إِتْمَنَنِي وَاسْتَنْصَحَنِي وَاسْتَشَارَنِي ثُمَّ قَبِلْتُ ذَلِكَ مِنْهُ لَأَدَيْتُ إِلَيْهِ الْأَمَانَةَ» (١).

وتبدو هذه المسألة على درجة من الأهمية بحيث اعتبرت من أفضل الدلالات على شخصيه الإنسان وإيمانه حتى أنها لتفوق الصلاة والصوم والحج.

جاء في الحديث النبوي الشريف:

«لَا تَنْظُرُوا إِلَى كَثْرَةِ صِدْقِهِمْ وَصِدْقِهِمْ وَكَثْرَةِ حَجِّهِ وَالْمَعْرُوفِ وَطَنَطَنَتِهِمْ بِاللَّيْلِ وَلَكِنْ انظُرُوا إِلَى صِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ» (٢).

والدليل الواضح على صدق هذا الحديث الشريف، التجارب التي عشناها طيله حياتنا، فما أكثر الأفراد الذين يعيشون حاله من الجِدِّ والاجتهاد والالتزام بالمسائل العادية، ولكن ما أن ترد بعض المسائل المهمة سيما الأموال الطائلة حتى تزل أقدامهم وتهتز شخصيتهم.

ص: ٥٦٩

١- (١) الكافي، ج ٥، ص ١٣٣، ح ٥.

٢- (٢) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١١٤.

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمَّا يُخْفَى عَلَيْهِ مَا الْعِبَادُ مُقْتَرِفُونَ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ. لَطْفٌ بِهِ خُبْرًا، وَأَحْاطَ بِهِ عِلْمًا. أَعْضَاؤُكُمْ سُهُودُهُ، وَجَوَارِحُكُمْ جُنُودُهُ، وَضَمَائِرُكُمْ عُيُونُهُ، وَخَلَوَاتُكُمْ عِيَانُهُ.

الشرح والتفسير: عالم الغيب والشهادة

أشار الإمام عليه السلام في الأقسام السابقة من هذه الخطبه إلى ثلاثه مواضيع مهمه تعدد من أركان الأوامر الإلهيه وهى الصلاه والزكاه وأداء الأمانه، ثم تطرق الإمام عليه السلام فى هذا الجانب من الخطبه إلى أمر بمثابة العنصر الإجرائى لهذه الأوامر المهمه والذى يتمثل بإحاطه الله تعالى العلميه بالإنسان فى أحواله كافه.

وبعبارة أخرى أنّ الإنسان حين يهتم بطاعه هذه الأوامر يشعر بأنّه حاضر على كّلحال عند الله وأنّ علمه محيط به على غرار العيون التى تبت داخل الطرق والمدن بغيه رعايه الناس للقوانين السائده فقال:

«إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمَّا يُخْفَى عَلَيْهِ مَا الْعِبَادُ مُقْتَرِفُونَ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ. لَطْفٌ بِهِ خُبْرًا، وَأَحْاطَ بِهِ عِلْمًا».

والتعبير بالعباد تعبير واسع يشمل جميع الناس بما فيهم المسلم والكافر والصغير والكبير والعالم والجاهل، وتقديم الليل على النهار لأنّ الليل موضع خفى لأغلب العصاه.

والعبارة:

«لَطْفٌ بِهِ خُبْرًا» بالنظر إلى أنّ اللطيف أحد أسماء الله الحسنى ويطلق على من يلم بأظرف الأمور وأدقّها، إشاره إلى عدم غياب أصغر أعمال العباد وأخفاها عن علمه تبارك وتعالى: «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ»(١).

ص: ٥٧١

وكل هذه الأمور تستند إلى كون علمه سبحانه وتعالى بجميع الأشياء علماً حضورياً فهو حاضر في كل مكان والكون برمته حاضر لديه، فلا يخفى عليه شيء ولا يعزب عن علمه شيء.

وقد تمسك البعض بمثال فقال: لو كان في يدنا شيء ننظر إليه فهل يخفى علينا شيء منه، وبالطبع فإن علم الله لأعمق وأسمى من ذلك بالنسبة لجميع الكائنات.

وقال في مواصلته لكلامه ولإثبات شدّة الرقابه الإلهيّه على الإنسان:

«أَعْضَاؤُكُمْ شُهُودُهُ، وَجَوَارِحُكُمْ جُنُودُهُ، وَضَمَائِرُكُمْ عُيُونُهُ، وَخَلَوَاتُكُمْ عِيَانُهُ».

ولمفردة الأعضاء (جمع عضو) معنى عام يشمل الأعضاء التي بها يقوم الإنسان بأعماله، مثل الأيدي والأرجل، وكذلك الأعضاء التي يبدو ظاهرياً لا يقوم بها بعمل كالأضلاع والعظام؛ أما الجوارح (جمع جارحة) واستناداً إلى مادتها اللغويّة جرح التي تعنى الاكتساب فهي تقتصر على الإشارة إلى تلك الأعضاء التي يقوم بواسطتها الإنسان ببعض الأعمال ويحسن بها أو يسيئ بها، وعليه فذكر الجوارح بعد الأعضاء من قبيل ذكر الخاص بعد العام.

و «ضمائر» جمع «ضمير» بمعنى باطن الإنسان وتشير هنا إلى وجدان الإنسان الذي يمثل القاضي الباطني.

و «خلوات»: جمع «خلوه» تعنى الموضع الذي لا يتواجد فيه عامه الناس، ولما كانت أغلب الذنوب إنّما ترتكب في الخلوات، فقد ركزت عليها العبارة السابقة.

وذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أنّ (خلوات) تعنى ما يرتكب من أعمال في الخلوه وستكون من قبيل حذف المضاف، على كلّ حال فإنّ هدف الإمام عليه السلام من بيان هذه العبارات الأربع الأخيره أن يقول ليس لعلم الله إحاطه بجميع أعمال الإنسان فحسب، بل أعضاء الإنسان وجوارحه ووجدانه شهوده وجنوده وعيونه، وإنّ كلّ بقعه من مكان حتى الخلوات لتشهد على أعمال الإنسان.

نظرة إلى الخطبه

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبه إلى سياسه معاويه المؤسسه على الكذب والخداع والمكر والحيله، وذكر عليه السلام أنه أعرف بهذه الفنون من السياسه إلا أن الورع والتقوى وخشيه الله لا تدعه أبداً يمارس هذا الأسلوب الرخيص، وصرح في آخر كلامه بأنه ممن لا تنطلي عليه هذه السياسه فيستغفل ولا يبدى مقاومه.

ص: ٥٧٣

١- (١) سند الخطبه: روى المرحوم الكليني هذه الخطبه (بعبارات مختصره ومشابهه) في الجزء الثاني من أصول الكافي ص ٣٣٦ و ٣٣٨ بسندين أحدهما عن الإمام الصادق عليه السلام والآخر عن الأصبع بن نباته عن أمير المؤمنين على عليه السلام. وبالنظر لما ذكره ابن نباته من أن الإمام ألقى هذه الخطبه على منبر الكوفه فإنها جانب من خطبه طويله اكتفى المرحوم الشريف الرضى منها بهذا المقدار. (مصادر نهج البلاغه، ج ٣، ص ٨٥).

وَاللَّهِ مَا مُعَاوِيَةَ بِأَذْهِى مَنِي، وَلَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ. وَلَوْ لَا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَذْهِى النَّاسِ، وَلَكِنْ كُلُّ غَدْرِهِ فُجْرَةٌ، وَكُلُّ فُجْرَةٍ كُفْرَةٌ. «وَلِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وَاللَّهُ مَا أُسْتَعْفِلُ بِالْمَكِيدَةِ، وَلَا أُسْتَعْمَرُ بِالشَّدِيدَةِ.

الشرح والتفسير: السياسة الأئمة

إنَّ بعض السذج والجهال في عصر أمير المؤمنين يرون حين مقارنتهم للإمام على عليه السلام بمعاويه أنَّ هذا الأخير كان أعظم سياسه منه، وهو ذات الكلام الذي سمع في القرون اللاحقة من قبل البعض وما زال يكرره اليوم بعض الجاهلين، وعبارات الإمام عليه السلام تعدّ رداً منطقياً يلجم مثل هؤلاء الأفراد حجراً، حيث قال عليه السلام:

«وَاللَّهُ مَا مُعَاوِيَةَ بِأَذْهِى (١) مَنِي، وَلَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ».

و «يَغْدِرُ»: من «غدر» بمعنى الخدعه ونقض العهد و

«يَفْجُرُ» من «فجور» بمعنى الإثم والمعصية، والواقع أنَّ هذا الفجور نتيجة لذلك الغدر، لأنَّ الغدر يمهد السبيل للمعصية.

ثم قال عليه السلام:

«وَلَوْ لَا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَذْهِى النَّاسِ».

فقد أشار الإمام عليه السلام في الواقع إلى نقطه مهمّة وهي أنَّ السياسة على نوعين:

سياسه طائشه ومقرونه بأنواع المعاصي، وبالتالي فهي سياسه شيطانيه، وسياسه عن

ص: ٥٧٥

١- (١) «أذهى» من ماده «دهى» على وزن «وحى» بمعنى شدّه الفطنه وتأتى أيضاً بمعنى الكارثة والمصيبة، والمراد في العبارة هو المعنى الأول.

تدبير مفعم بالورع والتقوى، وبالتالي فهي سياسه رحمانيه، وفي الواقع تتفاوت السياستين وتبعاً لذلك تتفاوت نتائجهما.

والسياسه بالمعنى الأول لا تعرف من حد خلقى ودينى وإنسانى ووجدانى، وتقضى على كل قانون أو مبدأ أو ضابطه تشكل خطراً عليها، على غرار ما نلاحظه اليوم فى عالم السياسه الذى يحكم الشرق والغرب.

أما الصنف الثانى فتخضع فيه السياسه لأطر معينه حدودها القيم والمثل الدينيه والإنسانيه والوجدان والضمير؛ فهي لا تعتمد الظلم والجور والمعصيه قط سيما تجاه العزل من الأفراد الأبرياء؛ ولا تسمح بالعدو والخيانه والفجور ونقض العهود والمواثيق، وترفض التسلط والتوسع وبالتالي ترى وجود بعض الخطوط الحمراء التى لا يمكن تجاوزها.

ومن هنا أشار الإمام عليه السلام فى مواصلته لكلامه إلى أولئك الأفراد الذين انتهجوا الغدر والفجور ليعتمدوهما كوسيله لسياساتهم فقال:

«وَلِكِنَّ كُلَّ غَدْرِهِ فُجْرَةٌ، وَكُلُّ فُجْرَةٍ كُفْرَةٌ. (وَلِكُلِّ غَادِرٍ لُؤَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)».

والعباره:

«وَلِكُلِّ غَادِرٍ لُؤَاءٌ...» حديث معروف عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله روته أغلب المصادر، ومنها: الشوكانى فى نيل الأوطار، والبخارى فى صحيحه، وقال الشوكانى:

متفق عليه(١).

ثم قال عليه السلام فى اختتامه لهذا الكلام وحتى لا يتصور أحد أن الإمام عليه السلام بما هو عليه من نقاء القلب تنطوى عليه سياسه الغدر والمكر:

«وَاللَّهِ مَا أَسْتَعْفَلُ بِالْمَكِيدِ، وَلَا أَسْتَعْمَزُ (٢) بِالشَّدِيدِ».

وهذا الكلام فى الواقع رد على أولئك الذين يزعمون أنه لا يمكن مواجهه أولئك الفجرة سوى من قبل أمثالهم وليس أمام الفرد المتدين سوى الوقوع فى مخالبتهم،

ص: ٥٧٦

١- (١) نيل الأوطار، ج ٨، ص ٧٩؛ وصحيح البخارى، ج ٨، ص ٦٢ (كتاب الحيل).

٢- (٢) «استعزم» من ماده «عزم» على وزن «رمز» بمعنى الإضعاف وأيضاً بمعنى الضغط والكلام البدىء والمراد هنا هو المعنى الأول.

فمضمون كلام الإمام عليه السلام هو إنَّ الإنسان قد لا يكون من أهل الخداع والفجور والخيانة ولكن يعرف طريقه أهل الغدر والخيانة حتى لا يقع في شباكهم ويخدع بالأعييهم.

تأمل

السياسة الإنسانيّة والسياسة الشيطانيّة

حقيقه السياسة هي التدبير وإداره الحكومه ورعايه شؤون الناس، وهو أمر متعارف عليه منذ قديم الزمان في المجتمعات البشريّة، وقد حكمت تلك المجتمعات من قبل بعض الساسه طالحين كانوا أم صالحين.

والسياسة على صنفين: سياسة طائشه وأخرى حكيمه، أمّا السياسة الطائشه فهي تلك السياسة التي لا تؤمن بأى مانع أو رادع من أجل تحقيق أهدافها فتبيح كلّ شيء فهي تقتل المتهم والبريء وتهدم البيوت العامره والخاليه، وتتشبث بكلّ حيله وكذب وغش، وإذا ما عقدت اتفاقيه وتعارضت مستقبلاً مع أهدافها نقضتها، وبالتالي فهي لا ترحم الولد والأب والأم، ومن هنا قيل: إنَّ السياسة لا تعرف من معنى للأب والأم.

وقد قرأنا في التاريخ أنّ الخليفه العباسى هارون الرشيد قال لابنه المأمون: «لو نازعتنى الملك لأخذت الذى فيه عيناك»، كما استقبل المأمون جسد أخيه الأمين بفرح وسرور، وما أكثر أمثال هذه الحوادث فى تاريخ العرب والعجم والشرق والغرب والتي أشار القرآن الكريم إلى نماذجها بشأن فرعون فقال: «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» (١).

أمّا السياسة الحكيمه والإنسانيّة فهي السياسة التي تعتمد الأسس المشروعه

ص: ٥٧٧

بغية الوصول إلى الهدف ولا تنتهك قط حدود الأحكام الشرعيه والمبادئ الإنسانيه، وتجري العدل بحق العدو والصديق؛ وترعى الأمانه، وتلتزم بالعهود والمواثيق وتنظر بعين الاعتبار إلى الإنسان وكرامته وعزته.

وإن أصحاب السياسه الحكيمه والإنسانيه مهما كانوا قلائل مقارنة بأصحاب السياسه الشيطانيه، قد يعانون من المشاكل والمعضلات، إلا أنهم ظلوا ناصعي الجبين في التاريخ وأضحت سياستهم قدوه للبشريه برمتها.

والنموذج البارز للصنف الأوّل من السياسه، معاويه ورهطه في الشام، والنموذج الجلي الواضح للسياسه بصنفها الثاني أمير المؤمنين علي عليه السلام، وهو ما أذعن له العدو والصديق سوى تلك الثله المتعصبه.

ابن أبي الحديد واستناداً إلى مبادئ مذهبه قارن بين سياسه أمير المؤمنين عليه السلام في إداره البلاد والسياسه التي انتهجها عمر، فقال: «زعموا أنّ عمر كان أسوس من أمير المؤمنين وإن كان هو أعلم منه».

ثم خاض في الرد على هذه النظرية فقال: «إنّ سياسه علي هي سياسه النبي صلى الله عليه وآله». وروى عن استاذه أبو جعفر النقيب أنّه قال: «كانت سياسه علي عليه السلام هي ذاتها سياسه رسول الله صلى الله عليه وآله».

ثم تطرق إلى شرح كلمات الجاحظ (العالم السني المعتزلي) في مقارنة سياسه علي عليه السلام ومعاويه وإليك خلاصه كلامه:

زعم البعض أنّ معاويه كان أسوس من علي عليه السلام وهذا خطأ كبير، ثم واصل كلامه في إبطال هذا الكلام حيث صرح بأنّ علياً عليه السلام لم يعمل في الحروب سوى بما وافق القرآن والسنة، بينما كان معاويه يخالف القرآن.

فكان عليه السلام يوصي الجيش بعدم البدء بالقتال وتعقيب الهاريين والإجهاز على المجروحين (والحال لم يكن معاويه يرعى أيّاً من هذه الوصايا).

ولما فرغ ابن أبي الحديد من نقل هذا الكلام أتجه صوب بعض الإشكالات التي

أوردها البعض على سياسته على عليه السلام ومنها:

١. لو كان على عليه السلام حين بويج له بالخلافه في المدينه أقر معاويه على الشام إلى أن يستقر الأمر له ثم يعزله، وقال في الجواب: إن أمير المؤمنين كان يعلم أن إقراره أقوى لحال معاويه وأكد في الامتناع من البيعه، فلا يبقى بعد ذلك من عذر لعزله.

٢. إنه حين ملك شريعه الفرات في صفيين هلاً منعها عن معاويه وأهل الشام، فكان يأخذهم قبضاً بالأيدى بعد أن ملكها معاويه فمنعها عنه وعن أهل العراق؟

وقال في الجواب: إنه لم يكن يستحل ما استحله معاويه من تعذيب البشر بالعطش؛ فإن الله تعالى ما أمر أحداً بذلك.

٣. إنه عليه السلام أخطأ حين محى اسمه من الخلافه فقوى الشبهه في نفوس أهل الشام.

وقال في الجواب: إنه عليه السلام احتذى في ذلك لما دعى إليه واقترحه الخصم عليه، فعل رسول الله صلى الله عليه وآله في صلح الحديبيه، حين أصر زعماء الشرك على محو اسمه من النبوه (وحيث لم يرض ذلك أحد) فقد أقدم عليه بنفسه، وأخبره النبي صلى الله عليه وآله بذلك سابقاً.

٣. إنه عليه السلام كان غير مصيب في ترك الاحتراس، فقد كان يعلم كثره أعدائه؟

وقال في الجواب: إن هذا إن كان قادحاً في السياسه والتدبير فليكن قادحاً في سياسه رسول الله صلى الله عليه وآله الذي لم يكن يرضى بذلك (١).

ولابن أبي الحديد كلمات أكثر من ذلك حيث أفرد أكثر من ٥٠ صفحه في شرح ذيل هذه الخطبه للبحث المذكور ولا يسعنا ذكرها هنا.

والجدير ذكره ما ذكره في آخر كل هذه الأبحاث، حيث قال: فقد بان بما أوضحناه فساد قول من قال إن تدبيره عليه السلام وسياسته لم تكن صالحه:

«إنه أصح الناس تدبيراً وأحسنهم سياسه وإنما الهوى والعصبيّه لا حيله فيهما».

ص: ٥٧٩

إلى هنا تمّ وبحمد الله الخطبه ٢٠٠ من خطب أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام فى نهج البلاغه ومن الجزء السابع لهذا الكتاب القيم، نشكر الله تعالى على توفيقه ومنه أن يسر لنا هذا الطريق، ونسأله أن يظللنا بغمام لطفه وكرمه كى نتمّ الأجزاء الآتية من هذا السفر المبارك إن شاء الله تعالى.

وكذلك نحمده أن نال هذا الشرح إعجاب ورضا الطوائف المختلفه من الناس انتخب بعنوان أفضل كتاب لسنة ٢٠٠٢ م ونأمل أن يفتح هذا الشرح فصلاً جديداً بين الشروح المطروحه لنهج البلاغه.

ولا يخفى أننا تلقينا ببالح الأسى والحزن رحيل وفقدان أحد الإخوه العاملين الأعزاء معنا، ألا وهو العالم الفاضل والمتتبع المتبحر المغفور له المرحوم حجّه الإسلام والمسلمين الحاج الشيخ إبراهيم البهادرى (قدس سرّه).

كان المرحوم رجلاً فاضلاً، جاداً، منظماً، مخلصاً، متّقياً، ومحققاً بارعاً، حيث أقدم على تحقيق أكثر من عشرين كتاباً من كتب العلماء الكبار، وترك من بعده تراثاً قيماً، نسأل الله تعالى أن يعمده برحمته الواسعه إنه قريب مجيب.

«رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ»

نهايه الجزء السابع لنفحات الولايه فى شرح نهج البلاغه لأمير المؤمنين عليه السلام

٢٧ / شعبان المعظم / ١٤٢٦ هـ ق، الموافق ٢٠٠٤ م

ص: ٥٨٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
اصبهان
الغمامية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

